

رحمة للعالمين

موقع المؤلف: [/http://noursalam.free.fr](http://noursalam.free.fr)
بريد المؤلف: nouresalam@hotmail.com

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة

دار الكتاب الحديث - القاهرة -
للطباعة والنشر والتوزيع

البريد الإلكتروني	الفاكس	الهاتف	العنوان	الفرع
dkh_cairo@yahoo.com	0020222752992	0020222752990	ص.ب 7579 البريدي مدينة 11762 نصر - 94 شارع عباس العقاد	القاهرة
ktbhades@ncc.moc.kw	009652460628	009652460634	13088 شارع الهلالى برج الصدىق ص.ب 22754	الكويت
dkhadith@hotmail.com	21353055	21354105	ص ب 061 درارية الجزائر عمارة 34	الجزائر

من القرآن الكريم

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الانباء:107)

﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (الدخان:6)

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران:159)

﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ (الاسراء:87)

﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾

(الأنعام:147)

﴿ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ (الحجر:56)

﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ

قَتُورًا ﴾ (الاسراء:100)

﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ

وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (فاطر:2)

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ

يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (الزمر:9)

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ

الدُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (الزمر:53)

تنبيه

نحب أن ينتبه قارئ هذه السلسلة لما يلي:

1 — بما أن الغرض من هذه الرسائل هو أن تكون مدرسة تعلم فنون الحوار الإيماني، والجدال والتي هي أحسن، فقد اهتمنا في أصل الرواية بما يحقق هذا الغرض، ولم ننشغل عنه بأي شاغل .. ولكن الكثير من المعلومات التفصيلية أو التوثيقية قد يحتاج إليها لتحقيق هذا الغرض، وهي مما لا يمكن إدراجه في الأصل .. فلذلك اکتفينا بإيرادها في الهوامش ..

فلذلك يحتاج من يتعلم من هذه الرواية مراجعة ما ورد في الهوامش والاهتمام بها باعتبارها معلومات أساسية تيسر عليه فهم وتحصيل ما يرد في أصل الرواية من معلومات.

2 — أنا لم نهتم كثيرا بتوثيق كل ما نرجع إليه من مصادر ما عدا ما يتعلق بالنصوص المقدسة الإسلامية والمسيحية .. أما سائر النصوص، فتوثيقها يستهلك صفحات كثيرة، وقد يشغل القارئ عن المهمة التي تهدف إليها هذه الرواية ..

بالإضافة إلى أن أكثر ما نورده مما توزع وجوده في الكتب الكثيرة التي اهتمت بهذه الناحية .. ولهذا نكتفي بذكر المراجع العامة التي لجأنا إليها دون التدقيق في التوثيق في كل محل.

3 — نحب أن نعتذر هنا عن عدم ذكر الصلاة على رسول الله ﷺ أو على الأنبياء، وعدم الترضي عن الصحابة والعلماء والأولياء — كما هو شأن المؤلفات الإسلامية — في بعض المواضع، أو في كثير منها، وذلك لأن الحديث المفترض فيها بحسب الرواية بين مسيحين .. والضرورة الفنية تقتضي أن لا نذكر ذلك حتى لا يؤثر في أصل الرواية وجانبها الفني .. ولا حرج على القارئ المسلم أن يصلي على رسول الله ﷺ والأنبياء كلما ذكروا بغض النظر عن كتابة ذلك ..

4 — قد يعترض بعض أدباء الأدب الواقعي على كثير مما يرد في هذه السلسلة مما لا يمكن انسجامه مع الجانب الفني الواقعي .. كحفظ أبطال الرواية للنصوص الطويلة مع كون بعضهم من العامة البسطاء. ونحن نقدر هذا النقد .. ولكننا ننبه إلى أن الغرض من السلسلة ليس أحداث الرواية، وإنما الجانب العلمي منها .. وإنما ذكرنا هذه الأحداث لنمزج المعلومة التي قد تكون جافة بما ييسر تحصيلها من التشويق والمتعة. ولذلك إذا تعارض التشويق مع المعلومة قدمنا المعلومة عليه بناء على اعتبارها الأصل.

المقدمة

في صباح اليوم الثاني عشر من زيارة البابا لي، استيقظت على مشاعر غريبة وفدت علي من حيث لا أشعر.. كانت موحشة مظلمة ممتلئة بالقسوة ..

كانت بدايتها موقفا من المواقف تذكرته .. لعله كان سبب تلك المشاعر التي كانت مخبأة في وجداني، ولم يتح لها أن تظهر إلا في تلك اللحظات التي كنت أنتظر فيها بشوق بالغ حديث البابا عن رحلته إلى شمسهِ ﷺ .

سأذكر لكم الحادثة بتفاصيلها .. ولكل منكم الحرية في أن يفسر سر تلك المشاعر ليربطها بها، أو ينفى عنها. في شبلي .. ذهبت إلى بعض أهلي في البادية .. هناك حيث لا ترى في الأفق البعيد إلا الحجارة القاسية التي تملأ الجبال .. ولا ترى في الأفق القريب إلا رمالا جافة لا يضاهاها في قساوتها إلا تلك الحجارة .. وبين هذين كنت ترى صخورا أخرى كثيرة قد ملأها رمال البيداء وصخور الجبال قسوة وغلظة وجفاوة ..

كنت أرى النساء في تلك البيداء مهانات محتقرات .. لا تكاد تسمع لهن صوتا .. فهن في شغل دائم .. لا يلقين بعده جزاء ولا شكورا ..

وكنت أرى الأولاد الصغار .. وهم لا يقلون شغلا عن الكبار .. وقد ذهبت ملامح براءة الصبا من وجوههم .. فهم يهتمون بما يهتم له الكبار .. ويحرصون على ما يحرصون عليه.

وكنت أرى في هذا الجو الكئيب شيخ القرية أو مختارها أو عمدتها أو ما شيء له من أسماء صاحب صوت مجلجل .. وصاحب عصا قوية .. وصاحب حرس شديد .. وصاحب أوامر ليس لها إلا أن تنفذ رغبت رعيته في تنفيذها أو أنفت.

وكنت أرى بين هذا وذاك منافقين كثيرين .. لا قلوب لهم ولا مشاعر .. هم فقط مجموعة هياكل عظمية مكسوة بأكداس من اللحم والشحم الذي لا يختلف في لونه وقساوته عن ذرات الرمال وطبقات الصخور .. كل هذه الصور لم أكن أكثر لها كثيرا .. ولكن الذي اكرثت له هو فقيه القرية وقارئها وعالمها .. ذلك الذي يجلس على عرش القرية الديني .. فهو إمامهم في الصلاة .. وهو قاضيهم في المحكمة الشرعية الصغيرة .. وهو معلمهم في الكتابات .. وهو فوق ذلك كله مستشارهم الذي يرجعون إليه كل حين¹ ..

كان هذا الشخص مع بداوته الشديدة .. بداوته التي تغلبت على دينه .. أو بداوته التي جعلها نظارة ينظر بها إلى دينه .. أو بداوته التي فسر بها كتاب ربه وسنة نبيه .. بل فسر بها الحياة جميعا .. كان هذا الشخص هو مصدر إزعاجي الأكبر ..

لقد حاولت بكل ما أطق أن أمسح تلك الذكريات التي جمعتني به، فلم أطق .. لقد كانت تلح علي كل حين .. وكانت تملؤني بالحزن كل حين ..

(1) لا نقصد بهذا شخصا معيناً ولا جهة معينة .. وإنما نقصد صنفاً خاصاً ممن يسميهم الناس (متدينين) بينما هم في الحقيقة لا يحملون من الدين إلا صورة مشوهة ممتلئة بالقسوة والغلظة والجفاوة .. وقد استعرنا البدوة هنا — مع احترامنا للبدوة — لساورد في الحديث من قوله ﷺ : (من بدأ جفا، ومن تبع الصيد غفل، ومن أتى أبواب السلطان افتتن، وما ازداد عبد من السلطان قرباً إلا ازداد من الله بعداً) (رواه أحمد والبخاري)

وكانت كل مرة تخاطر علي بالي تلك الذكريات أمد يدي من حيث لا أشعر .. وكأني أحنق بها شيئاً لست أدري ما هو .. ولا لماذا.

كان للرجل أربع نسوة .. هن في الظاهر زوجاته .. ولكنهن في الحقيقة لسن إلا حدما في ضيعته الكبيرة التي اكتسبها بجشعه الكبير .. فهو لا يفتي إن أفتى إلا بالمال .. ولا يصلي إن صلى إلا بالمال .. ولا يقرأ القرآن على الموتى إلا بالمال .. ولا يضع يده المباركة على جبين المرضى ليخلصهم من العفاريت التي تسكنهم إلا بالمال .. حتى لعابه المملوء بالبركات كان لا يبيعه إلا بالمال ..

ولم يكن يكتفي بكل ذلك .. بل كان فوق ذلك يسخر من يشاء ليعمل له في مزرعته الكبيرة من غير أجر إلا أجر الوساطة بينه وبين ربه ..

كان كلما لمح شابة جميلة طلق زوجة من زوجاته القديمة .. وراح يتقدم لخطبة الجديدة التي تحل محلها .. ولم يكن لأهل الشابة إلا أن يقبلوا .. ولا يهمه أكان ذلك بطيب نفس، أم لم يكن بطيب نفس ..

أذكر مرة أن بعضهن رفضت .. واستجاب أهلها لرفضها .. فأقام الدنيا ولم يقعدا .. كان في كل خطبه في ذلك الحين يردد قوله ﷺ: (إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير)¹ كان يردده بصوت قوي شديد .. وكأنه سيات يلهب بها الظهور ..

ومع ذلك لم يكن يكتفي بذلك .. بل كان يقصد وجهاء القرية ليضيقوا على أهل الفتاة حتى يضطروا في الأخير إلى الإذعان ..

كان له ذرية كثيرة .. وكان يختلط عليه أمرهم .. ولهذا راح يسلمهم بما يذكره بهم .. ولم يكن يناديهم إلا بيا ابن فلانة ..

لم يكن يستخدمهم كما يستخدم سائر الناس .. ولكنه كان يتعامل معهم بشدة وقسوة وعنف .. ويبرر كل ذلك بمديث عن عمر كان يردده كل حين .. هو قوله: (احشوشنوا وتمعدوا، واجعلوا الرأس رأسين)²

وكان لهذا الشيخ فوق ذلك كله ومع هذا كله دعاوى عريضة .. فهو يتصور الدين كما يتصور ضيعته .. فهو يراه ملكه الذي لا يجوز لأحد أن ينافسه فيه .. فإن ظهر بعضهم وتحدث في الدين بحسب ما هداه إليه علمه أو عقله راح ينشر البيانات في القرية .. بيانات التكفير والتبديع والتضليل والحرمان .. وكان يتبع تلك البيانات التقريرية بنقاط عملية من خالفها خرج من الفرقة الناجية ليسقط في هاوية الفرق الهالكة الكثيرة ..

كان أقل تلك النقاط شأنا هجر المبتدع وترك السلام عليه وعدم عيادته إذا مرض، وعدم المشي في جنازته إذا مات .. وعدم البيع له .. وعدم الشراء منه .. ومن تجراً وابتسم في وجهه فقد أتى بالكبيرة التي ليس دولها كبيرة ..

كان الناس يسمعون هذه البيانات ويقرأونها ويمتلأون رعباً منها .. لقد كانوا يتصورون أن للرجل من السلطة ما يمكنه أن يضع أي اسم شاء في قوائم أهل النار .. كما أن له

(1) رواه الترمذي وحسنه، ورواه أبو داود في المراسيل.

(2) رواه أبو عبيد في الغريب عن عمر موقفاً .. ومعنى حديثه صحيح، وقد ذكرنا الحكم الصحية في قوله هذا في مجموعة (ابتسامة الأئمة) .. ولكننا نشير هنا إلى سوء الفهم الذي ينحرف بالنصوص عن معناها الصحيح.

السلطة ما يمكنه أن يضع أي اسم شاء في قوائم أهل الجنة .. ولذلك كانوا يمتثلون بالرعب منه .. وكان ذلك الرعب يجعلهم يتزلفون أحيانا بكل ما يملكون ليكتسبوا من رضاه ما يضمنون به مصيرهم الذي وضع بين يديه.

كنت أجلس — أحيانا — لأستمع إلى دروسه الفقهية التي كان يتكلم بها على أهل القرية .. أو ليحضر نفوسهم بها .. فكنت أسمع من التقريرات والتشديدات ما يملأ القلوب بالمهابة ..

والعجب في دروسه أنه كان لا يهتم بشيء كما يهتم بالمسائل المرتبطة بالرفيق .. وكان فهمه للرق فهما ممتلئا بالعنصرية والكبرياء .. كان كلما ذكر الرفيق يردد بجزن قاتلا: (متى يأتي ذلك اليوم الذي نرى فيه الرفيق الأسود والأبيض والأصفر .. حتى نعيد إحياء هذه الأحكام التي لن تخيا إلا بعودة الرفيق)

أذكر أنني في يوم من الأيام ضاقت نفسي .. فتحدثت أمامه، منكرًا عليه بعض الأمور .. فأقام الدنيا ولم يقعدھا.. لقد عقد المجالس الطويلة يجر مني وينفر .. إلى أن اضطر أهلي أن يطردوني بالتي هي أحسن من تلك البادية التي ولد فيها أجدادي جميعا ..

لقد خشوا علي من بطش كلماته وبتش مواقفه وبتش أتباعه الذين لم يكونوا يحملون إلا العصي ..

لقد ظل هذا الرجل فترة طويلة في حياتي يملأ أحلامي بالكوايس ..

وكان مما يزيد في آلامي أنه كان يصور نفسه خليفة للنبي ووارثا له .. وكان كثير من الناس يعتقدون ذلك .. مع

أنه في الحقيقة لم يكن إلا دجالا لا يختلف عن المسيح الدجال ..

في ذلك اليوم جثم على قلبي كما تجثم الأدواء .. فقلت في نفسي: كيف غفل قومي عن هذا ، وراحوا ينكرون

على الرسامين وعلى البابا وعلى جميع الأبواق الخارجية ..؟!

ألم يكن الأولى بهم أن يبدأوا بهذا السرطان الذي ينهش ديننا وقيمنا وحقائقنا .. فيبتروه .. لأنه لم يكن للرسامين

ولا لغيرهم أن يفعلوا ما فعلوه لولا أنهم وجدوا أمثال هؤلاء الدجالين الذين يلبسون قمصان محمد ﷺ .. ولكن قلوبهم

لا تحمل إلا أضغان أبي جهل .. وأحقاده .. وأطماعه .. وقساوته؟!

ألم يكن الأولى بنا أن نخرج في مظاهرات عارمة لنحرق دمي هؤلاء الدجالين بدل أن نحرق دمي غيرهم .. فلم

يكن لغيرهم أن يتحدث لولا هؤلاء؟

ألم يكن الأولى بنا أن نصيح كما صاح قبلنا رواد الثورة الصناعية، وهم يقولون: (ليشقق آخر دوق بأمعاء آخر

قسيس) .. فنقول معهم أو على شاكلتهم: (ليشقق آخر مستبد بأمعاء آخر دجال)؟

كنت أقول هذا .. وأنا أمد يدي لأخنق بها شيئا لست أدري ما هو ..

بينما أنا كذلك إذا بي أسمع البابا يردد بصوت حنون خاشع قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾

(الانبياء: 107) .. فإذا بشمس رسول الله ﷺ تطل على قلبي .. وتزيح كل تلك الكوايس والآلام التي نشرتها تلك

الذكريات المريرة ..

لقد ذاب ذلك الكابوس كما يذوب الدجال عندما يرى المسيح .. فلذلك امتلأت بالبشارة .. ورحت أسرع إلى

البابا .. وفي قلبي أشواق عظيمة لأسمع رحلته الجديدة إلى شمسه ﷺ .

عندما دخلت عليه وجدته يمسك بقدم عصفور يعالجها بحنان .. فقلت: ما هذا؟

ابتسم، وقال: لقد سقط هذا العصفور من عشه .. وقد رأيته يتعثر في مشيته .. فرحت أعالجه .. يوشك أن تعود إليه العافية .. لدي خبرة في هذا.

قلت: أرى لك قلبا حنوناً ..

قال: لقد استغفرت من رسول الله ﷺ .. لقد كان رسول الله ﷺ أعظم الناس رحمة وشفقة .. لقد مر مرة مع صحابته بشجرة فيها فرخان حمرة، فأخذهما بعض الصحابة، فجاءت الحمرة إلى رسول الله ﷺ وهي تقرب من الأرض وترفرف بجناحها، فقال: (من فجع هذه بفرخيها؟)، فقالوا: نحن، قال: (ردوهما) فردوهما إلى موضعهما¹.

قلت: أعرف عظم رحمة رسول الله .. لقد وصفه الله بها، فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَا كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأُنْقِضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَأَعُفْ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: 159) ..

بل إن الله سماه باسمين من أسمائه الحسنى يحملان هذا المعنى، فقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: 128)

بل إن الله عم رحمته على العالمين، فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الانباء: 107)

أنا أعرف كل هذا .. ولكني أتعجب كيف ينتسب لرسول الله من امتلائ قلبه قسوة وغلظة .. ولم يكتف بذلك بل راح يصور رسول الله ﷺ بصورة القاسي الغليظ .. فينفر الناس عنه، وينفر القلوب منه.

قال: هذه سنة الله في أتباع أنبيائه، فمنهم من يمثلهم تمثيلاً حسناً .. ومنهم من يخطئ في تمثيله، لقد ذكر الله ذلك، فقال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ لِذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (فاطر: 32)

وذكره، فقال: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْأُخْرَى خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا يَتَّقُونَ﴾ (الأعراف: 169)

وذكره، فقال: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ (مريم: 59)

قلت: لعل هؤلاء الورثة المذكورين عوام يعدرون لجهلهم .. ولكن الشأن في أولئك الذين يتصورون أنهم ورثة رسول الله وخلفاؤه .. إنهم بقساوتهم وغلظتهم يسيئون لرسول الله ودين الله أعظم إساءة.

قال: لقد ذكر الله ذلك، ونبه إليه، وحذر منه، وأقام الحجة على عباده بكل ذلك .. فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (التوبة: من الآية 34)

قلت: هذه الآية في الأحبار والرهبان ..

قال: وهي في الأئمة والفقهاء والمفتين والمحسنيين .. وكل من ينتسب لأي وظيفة من الوظائف التي ترتبط بالدين .. هؤلاء جميعاً هم المقصودون بهذه الآية .. كل من تاجر بالدين سواء كان مسلماً أو غير مسلم مخاطب بهذه

(¹) رواه أبو داود الطيالسي وأبو نعيم وأبو الشيخ في كتاب العظمة والبيهقي.

الآية¹ ..

قلت — وأنا أمد يدي لأخنق بما شيئا لا أدري ما هو — فلم لا نخنق هؤلاء .. لم لا نطعنهم .. لم لا نفجر فيهم القنابل .. لم لا نرسل عليهم بالويلات التي تبيدهم .. لم لا نحرق دماهم .. ؟
قاطعني مبتسما، وقال: يمكنك أن تفعل كل ذلك .. ويمكنك أن تدعو الكل لينفذ ذلك .. ولكن لا تنس شيئا واحدا .. لا تنس أن تبدأ بقتل الشيطان وقتل النفس الأمارة قبل أن تبدأ بهم.

قلت: فكيف أصل إلى الشيطان؟

قال: ما دام الشيطان موجودا .. وما دامت النفوس الأمارة موجودة .. فإنه من العبث أن تريق دماء هؤلاء .. ومن العبث الأكبر أن تحرق دماهم.

أطلق العصفور من يده، وقال: ما دامت المدرسة التي تكون المحرمين موجودة .. وأسائلتها أحياء .. فمن العبث أن تقتل التلاميذ المتخرجين منها ..

قلت: فما الحل؟ .. أرى أن الأمر لو استمر بيد هؤلاء، فسيشوه دين الله تشويها لا مطمع في إصلاحه.

قال: دين الله لا يشوه .. دين الله محفوظ كحفظ كتابه .. ألم يقل الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ الذَّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر:9)؟

قلت: بلى .. إن هؤلاء لم يطبقوا أن يحرفوا حروفه وألفاظه .. ولكنهم يطبقون أن يحرفوا معانيه ومقاصده .. فيحولوا من شريعة الرحمة شريعة قسوة .. ومن دين العدالة دين جور ..

قال: إن الله الرحيم الرحمن الذي تولى حفظ حروف كتابه تولى حفظ معانيه ومقاصده .. ولذلك لا تمضي فترة من الزمان دون أن يكون فيها قائم لله بالحجة.

قلت: لقد حدثني قبل عن الورثة² ..

قال: وسأحدثك اليوم عن ورثة آخرين قدر الله أن ألتقي بهم لأتعرف على رسالة الرحمة الشاملة العامة التي جاء بها رسول الله ﷺ ..

قلت: ما أشوقني لأحاديث الورثة .. فلا ينسخ همومي شيء مثلما تنسخه أحاديثهم .. فحدثني عنهم.

قال: سأبدأ لك من الأول .. فلا يفهم الآخر إلا بالأول.

اعتدل البابا في جلسته، وحمد الله وصلى وسلم على نبيه ﷺ مستغرقا في كل ذلك .. ثم قال: عندما عدت إلى بلدي بعدما حصل ما حصل مما كنت قد ذكرته لك في رحلتي السابقة .. وبعد أن استطاع الظلمة الجائرون المستبدون أن يسقطوا دولة الخلافة الراشدة أقيم حفل بالمناسبة .. حضره الكثير .. منهم رجال سياسة .. ومنهم رجال دين .. ومنهم رجال فكر .. ومنهم رجال مال .. كان الحضور من كل الأصناف ..

(1) يشير إلى هذا قول سفيان بن عيينة: (من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبَّادنا كان فيه شبه من النصارى) وفي الحديث: (لتركب سنن من كان قبلكم حدوا القذة بالقذة) قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟ (رواه البخاري ومسلم)

(2) انظر رسالة (النبي الإنسان) من هذه السلسلة.

كانت الفرحة تبدو على الجميع .. وكأنهم قد تخلصوا من كابوس ثقيل كان يقض مضاجعهم .. في ذلك الحفل وضعت خطة جديدة .. بدأ بالحديث عنها رجل كأنه الشيطان .. كان يشبه الشيخ النجدي الذي كنت قد حدثتك عنه في رحلتي إلى (النبي المعصوم) .. وكان اسمه الذي نعرفه به هو (؟...)

قام أمام الحضور، وهو ممتلئ بمحة وسرور، وقال: لقد استطعنا أن نرمي الإسلام بالإرهاب .. وبالجور .. وبقي شيء واحد إن استطعنا أن نقرره في نفوس العالم .. فإننا نكون بذلك قد استأصلنا الإسلام من جذوره ..

ساد صمت عميق في القاعة في انتظار هذا الجديد .. فقال: ألا تعرفون بالبسمة؟

قال الجميع: وكيف لا نعرفها .. والمسلمون يرددونها كل حين .. بل إنهم لا يقرأون قرآنهم إلا بعد قراءتها.

قال: ألم تنتبهوا لشيء في تلك البسمة؟

قال بعضنا: لقد ذكر فيها اسم الله .. واسمين من أسمائه — عند المسلمين — هما (الرحمن) و(الرحيم)

قال: ألا تعرفون قيمة هذين المسلمين عند المسلمين؟

قلنا: بلى .. نعرف ذلك .. فما مرادك من كل ذلك؟

قال: لقد اكتشفت من خلال بحث طويل أن السبب الأكبر الذي أمد الإسلام في جميع أجياله بالبقاء هو (الرحمة) .. لقد رأيت أنها الوصف الغالب فيه .. فهي اسم إله المسلمين .. وهي اسم نبيهم .. وهي القاسم المشترك في جميع تشريعاتهم ..

وقد رأيت من خلال الواقع أن سلوك الرحمة الذي سلكه الفاتحون والدعاة من المسلمين هو السبب الأكبر في انفتاح القلوب على الإسلام.

ولذلك رأيت أن خلع الرحمة من الإسلام ومن المسلمين هو خلع للإسلام نفسه .. خلع له من الوجود .. وخلع له من الاستمرار.

قال رجل منا — وهو يبتسم — : لو كانت الرحمة سنا لخلعناها .. ولكنها وصف .. وهي وصف خفي تمتلئ به جوانح القلوب .. فكيف نصل إليها؟

قال: ما فعلناه مع السلام والعدالة نفعله مع الرحمة.

قلنا: لم نفهم.

قال: أليس الناس على دين علمائهم وملوكهم؟

قلنا: بلى ..

قال: فلنكون المدارس التي تنتج علماء ممثلين غلظة وجفارة .. ولنكون المدارس التي تنتج سياسة وحكاما ممثلين قسوة وظلما.

قلنا: وما علاقة ذلك بالإسلام؟

قال: الإسلام يمثلته هؤلاء .. والناس لا يعرفون الإسلام إلا من خلال هؤلاء .. سوف نري العالم أجمع من خلالهم أن الإسلام دين القسوة والغلظة والجفاء.

قلنا: لا زلنا إلى الآن ننتظر تفاصيل الخطة.

قال: ألا ترون أن للرحمة تجليات يتبين من خلالها الراحون من القساة؟

قلنا: بلى ..

قال: فلنبداً بها.

قلنا: كيف؟

قال: لنبدأ بالمرأة .. لنبين أن الإسلام قسا على المرأة وظلمها وحرمها من أبسط حقوقها.

قلنا: وما بعد ذلك؟

قال: نمر بعدها على الطفولة .. فنبين أن الإسلام بتشريعاته القاسية حرم الأطفال من أن يحافظوا على براءة طفولتهم .. ونبين أن التعاليم التي جاء بها الإسلام في شأن الأطفال ملأت حياة الأطفال بالكآبة والإحباط.

قلنا: وما بعد ذلك؟

قال: نمر بعدها على العجزة .. ثم على المتألمين .. ثم على المحبطين .. ثم على الفقراء .. ثم على المستضعفين .. ثم على العبيد .. ثم على الخطأين .. وهكذا حتى الحيوانات وسائر الكائنات .. سنبين كيف تعامل الإسلام معها جميعاً بقسوة وغلظة تنفجر لها الصخور.

قلنا: عرفنا كل هذا .. فما لديك من خطة التنفيذ؟

قال: سنستغل كل ما لدينا من وسائل لننشر هذا الوعي بين الناس .. وسيكون أول من نستغله أولئك الذين لا يخدمنا أحد كما يخدموننا.

قلنا: من تقصد؟

قال: أنتم تعلمون من أقصد.

قلنا: فهل تشرح لنا خطة التنفيذ؟

قال: لا يمكنني أن أصرح بتفاصيل الخطة هنا .. ولكنني أدعوكم في هذا المجلس إلى أنكم جميعاً ستؤدون أدواركم لنجاح هذه الخطة .. لا تفكروا في المال، فسأعطي كل واحد منكم الحرية في أن يصرف ما يشاء من الأموال .. لا يهمني إلا شيء واحد هو أن ينظر الناس إلى دين محمد كما ينظرون إلى تلك الحجارة القاسية التي لا يفيض منها إلا الموت ..

في الغد استدعاني أخي إلى مكتبه بالفاتيكان، وقال، وهو ممتلئ زهوا وفرحاً وسروراً: أبشر — يا أخي — فيها نحن نقترّب كثيراً من كرسي البابا .. ذلك الكرسي الذي طالما حلمنا به ..

لا يحول بيننا وبينه الآن إلا هذا البابا .. وهو عجوز مسن كما تراه .. ويوشك أن يدعو ربه إليه ليخلو الجولنا.

قلت: لقد زهدت في ذلك الكرسي منذ زمن بعيد.

ضحك بصوت عال، وقال: ذلك شيء يهياً لك .. أما الحقيقة .. فهي أن الجلوس على ذلك الكرسي هو

حلمك الأكبر .. حلمك الذي يمتلئ به شرك الباطن الذي لا تعرفه.

قلت: فكيف عرفت أنت؟

قال: ألسنت سواك .. أنا وأنت توأمان .. بل شقان لبذرة واحدة .. أنا أمثل طرفاً من أطرافها، وأنت تمثل الثاني ..

ولا يوجد في عقلك إلا ما يوجد في عقلي .. ولا أحلم إلا بما تحلم به.

قلت: أنا أحلم بالحقيقة .. أنا أريد أن أستظل بشمس الحقيقة.

قال: شمس الحقيقة لا ينالها إلا من جلس على كرسي بطرس .. ذلك الكرسي الذي يجعلك قريباً جداً من المسيح، ولن تنال الخلاص إلا بقربك من المسيح.

قلت: ولكن .. ألا ترى أن فيما نستخدمه من أساليب ما يعيدنا عن المسيح؟ .. ألم يكن المسيح داعية سلام وداعية رحمة وداعية أخوة وإنسانية؟ .. فكيف نرغب عن كل دعواته لنضع أيدينا في أيدي الشياطين؟

قال: وأي شياطين نضع أيدينا في أيديهم؟

قلت: ألم تسمع — أمس — ذلك الشيطان .. وما وضعه من الخطط؟

قال: أنت لا تعرف ذلك الرجل .. فلذلك تتكلم عنه بهذا الأسلوب.

قلت: فعرفني به.

قال: لن أعرفك به الآن .. ولكني أقول لك: لا يمكن لأحد من الناس أن يصل إلى أي كرسي على هذه الأرض من كراسي السياسة أو كراسي الدين ما لم يرض عنه ..

وأي شخص لا يرضى عنه .. فإن مصيره معروف.

قلت: أنت تريدني أن أتلف إليه إذن؟

قال: أجل .. بقلبك وقلبك .. فلذلك الرجل من القدرات ما يقرأ به أسرارك .. فلذلك احذر أن يطلع منك على أي خيانة .. فإنه لا شيء يزعجنا عن أحلامنا كما يزعجنا غضبه.

قلت: فأنت الآن تريد أن تنفذ الخطة التي أرادها.

قال: ولم أدعك إلا لأجل ذلك .. إن كل من رأيتهم قد حضروا الحفل لا يهتمون الآن بشيء كما يهتمون بتنفيذ خطته .. لأنه لا تنفذ مآربهم ولا تحقق أحلامهم إلا بذلك.

قلت: ولكننا لم نسمع في الحفل بأي خطة؟

قال: هو لا يتكلم في هذه الأمور علانية .. هو يأخذ حذره أكثر مما تتصور .. ولذلك هو يرسل إلى خاصة خاصته برسائل مشفرة لا يقرؤها إلا هم .. بل إنه أحياناً كثيرة، وإمعاناً في الاحتياط، لا يثق في الرسل الذين يرسلهم، فلذلك يأتي هو، ويسر لمن يريد أن يتحدث إليه، ويناجيه ليس بينه وبينه أحد.

قلت: لكأنه يمارس أساليب الشياطين.

ضحك أخي، وقال: لقد ذكرتني .. فكثيراً ما يقول لنا هذا عن نفسه ..

قلت: ما يقول؟

قال: إنه يقول لنا — مازحاً بالطبع —: أحياناً تقتضي منا التضحية أن نتحول إلى شياطين .. لأنه لا يمكن أن نحقق أهدافنا ونحن نسلك سبل الملائكة.

قلت: ويله .. أيتهم الملائكة بالعجز؟

قال: هو لا يتهم الملائكة بالعجز .. ولكنه يتهم السبل النظيفة بالعجز.

قلت: أرى أن هذا ليس إلا الشيطان .. فكيف نسلم أنفسنا له؟

قال: إن اضطر العاقل أن يستخدم الشيطان لأجل غرضه الشريف، فمن الجنون أن لا يستخدمه.

قلت: أي غرض شريف هذا؟ .. إن الرجل يريد أن يتهم محمدا ودين محمد ورب محمد بما هم منهم برآء.
قال: ألم تر المسلمين .. وهم يسلون تلك السكاكين الحادة، فيزهقون بها أرواح الحيوانات البريئة، وهم ممتثلون
سرورا؟

ألم تقرأ آيات الاستبعاد في القرآن؟
ألم تقرأ الأمر بضرب النساء في القرآن؟
ألم تقرأ ما وصف به القرآن إله المسلمين .. لقد كان من ضمن ما وصفه به قوله: ﴿.. وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ
الْمَاكِرِينَ﴾ (30) (الأنفال)؟¹

لم أجد ما أحبيه به .. فلما رأى صميتي، قال: أعلم صدقك وإخلاصك .. وأعلم أن بينك وبين دين محمد كما
بين السماء والأرض .. ولكني في نفس الوقت أعلم أن بعض الفيروسات قد تسربت إليك نتيجة رحلاتك السابقة
لبلاد المسلمين .. أنا أعذرك في ذلك .. فالكثير ممن تعرض لما تعرضت له أصابه ما أصابك .. بل إن الكثير منهم لم
يتحمل فراح يحترق في شمس محمد.

ولذلك .. فقد هيأت لك رحلة إلى بلد من بلاد المسلمين .. بلد مملوء بالقساوة .. لتبصر فيه حقيقة الإسلام التي
ربما تكون قد خفيت عليك.

قلت: وما وظيفتي في هذه الرحلة؟
قال: ليس لك إلا وظيفة بسيطة لا تختلف عن كثير من الوظائف التي كنت قد كلفتك بها.
قلت: وما هي هذه الوظيفة البسيطة؟
قال: لقد أرسلنا نفرا من قومنا لبلد من بلد المسلمين .. لتعرفهم بحقيقة القساوة التي يحملها الإسلام.
قلت: قد أرسلتموهم .. فما علاقتي أنا بهم؟

قال: أنت - بمكانتك الرفيعة في الكنيسة - ستكون رقيقا عليهم .. لترى سلامة السبل التي يتخذونها لهذا
الغرض .. ولنرى مدى نجاح الطرق التي ينتهجونها لنعممها بعد ذلك على سائر بلاد الإسلام.
قلت: فكيف لي أن أعرفهم؟

قال: سأعطيك دفترا يحوي أسماءهم وصورهم والأماكن التي يمكن أن تجدهما فيها .. لترى مدى نشاطهم في
الوظائف التي كلفوا بها .. واطمن فلن يعرفك أحد منهم .. ولذلك، فستقوم بوظيفتك من دون أن يجرحك أي
أحد.. هذا هو الغرض الوحيد الذي أردت أن أبعثك له في هذه الرحلة.

قال ذلك .. ثم ابتسم .. وكأنه يخفي شيئا .. فقلت له: لكأني بك تخفي شيئا لا تريد أن تصرح لي به.
ابتسم، وقال: أجل .. لي هدف آخر من وراء إرسالك لهذه المنطقة .. ولهذا الوظيفة ..
قلت: ما هو؟

(1) هكذا يتلاعب المبشرون وغيرهم بنصوص القرآن الكريم .. ونص الآية الكامل هو: ﴿وَإِذْ يَمَكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا
لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَاكِرِينَ﴾ (30) (الأنفال)، ومعناه على المشاكلة كما هو
معروف، فالله تعالى أعظم من أن يحتاج إلى أساليب المكر التي يلجأ إليها الضعفاء.. وسنرى توضيح المعاني المرتبطة بأمثال هذه
النصوص في رسالة (الباحثون على الله) من هذه السلسلة.

قال: لقد عرفت الجروح التي أصابتك من رحلاتك السابقة .. فلذلك أردت أن تكون هذه الرحلة رحلة علاج.. رحلة تكتشف فيها من قسوة محمد، وقسوة دينه ما يملؤك بالغناء.. لترجع إلينا بعدها حيرا صالحا يمكنه أن يصبر في يوم من الأيام خليفة من خلفاء بطرس وأولئك القديسين الكثيرين الذين جلسوا مجلسه.

في ذلك المساء امتلأت هما وغما لما ذكره لي أخي من مظاهر القسوة في الإسلام، فلذلك ذهبت — كعادتي في مثل هذه الأحوال — إلى الغابة التي تعودت أن ألتقي فيها بصاحبك (معلم السلام)

لم أسر في الغابة إلا قليلا حتى رأيته، وهو يحمل حجارة يرمي بها حيوانا لم أتبينه، فأسرعت إليه، وقلت: ماذا تفعل؟ .. لم أكن أتصور أن رجلا في مثل حكمتك يحمل الحجارة.

قال: لقد دفعتني الرحمة إلى حمل هذه الحجارة.

قلت: الرحمة لا تدفعك لحمل الحجارة .. لا يرمي بالحجارة إلا من قلوبهم مثل الحجارة.

قال: لقد رأيت حيوانا عاديا يهجم بحيوان قاصر ضعيف .. وقد خيرت بين أن أترك الضعيف للقوي .. أو أصد القوي عن الضعيف .. وقد دلّني الرحمة أن أنتصر للضعيف من القوي.

قلت: حسنا ما اخترت .. ولكن ألم تجد إلا الحجارة؟

قال: لم يكن لي خيار إلا الحجارة.. فالرحمة أحيانا قد تتطلب بعض القسوة.

قلت: لقد قال الشاعر العربي يعبر عن ذلك:

وقسا ليزدحروا ومن يك راحما
فليقس أحيانا على من يرحم

قال: صدق الشاعر .. فقد نظر إلى الحقيقة من بابها الصحيح ..

قلت: ألا ترى أن هذا قد يصبح حجة للظلمة والمستكرين والطغاة، فيفعلون ما تطلبه نفوسهم من القسوة، ثم يلبسون على الناس وعلى أنفسهم، فيزعمون أنهم لا ينطلقون إلا من الرحمة؟

سأضرب لك مثلا يقرب لك ذلك .. لقد ذهبنا إلى أراضي المستضعفين نستولي عليها وننتسلط .. ونحن نزعم لهم مع ذلك أن قصدا هو رحمتهم .. رحمتهم بإخراجهم من التخلف إلى الحضارة.

قال: ولكن كبير الامتحان يميز الخبيث من الطيب، والغليظ من اللين، والقاسي من الرحيم.

قلت: وما كبير الامتحان؟

قال: أليس قومك يهتمون بالنتائج قبل الوسائل .. فلذلك يتذرعون بكل وسيلة للحصول على ما يرغبونه من

النتائج؟

قلت: ذلك صحيح .. وهم يعبرون عن ذلك بأن الغاية تبرر الوسيلة.

قال: فكبير الامتحان هو النظر إلى النتائج .. فبذور الشوك يستحيل أن تثبت ثمار العنب.

قلت: أتقصد أن تنتظر النتائج حتى ترى حقيقة الدوافع؟

قال: أجل .. فالنتائج هي التي تبين المنطلقات .. فلا يمكن أن يخرج إلى الوجود إلا ما بدر في أرض النفوس.

قلت: إني أرى أقواما يحملون رايات كثيرة قد التبست علي فلم أدر أهي رايات رحمة أم رايات قسوة؟

قال: لا تنظر إلى الرايات .. وانظر إلى ما يحركها ..

قلت: لم أفهم.

قال: رأيت الطبيب الذي يضطر إلى إجراء عملية جراحية لولد صغير .. فتقف في وجهه الرايات الكثيرة تدافع عن الطفل .. وترمي بالحجارة وجه الطبيب، لكونه يريد أن يقسو على الولد.

قلت: مخطئون هم .. وقساة هم .. وليس الرحيم إلا الطبيب.

قال: لم؟

قلت: لأن رحمتهم القاصرة المحدودة ستقسو على الولد، وستملأ حياته بالألم .. بينما قسوة الطبيب الظاهرة لا تنتج إلا الصحة والعافية.. فقسوته رحيمة .. ورحمتهم قاسية.

قال: فانظر بهذا المنظار للحقائق .. فلا ينبغي للعاقل أن تغره القشور، فينشغل بها عن اللباب.

قال ذلك، ثم انصرف تاركا لي كعادته.

بمجرد أن سار شعرت بهمة عظيمة تدفعني لأرحل تلك الرحلة التي كلفني بها .. بصدق وعزيمة وإخلاص ..

لقد قلت في نفسي: فليكن ما يكون .. فالحقائق لا بد أن تبرز عن نفسها لا محالة ..

بعد أيام قليلة سرت إلى البلد الذي طلب مني أن أذهب إليه .. كان بلدا قاسيا في ظاهره، فليس في تضاريسه ولا

أجوائه إلا القسوة ..

لقد امتلأت بالكآبة عندما نزلت فيه .. لكنني ما إن رأيت ورثة النبوة وعاشرتهم حتى تحول كل شيء في نظري

إلى جمال لا يضاهيه أي جمال ..

لم أمكث في ذلك البلد الطيب طويلا .. ولكنني استفدت من كل يوم مكثت فيه — بفضل الله — من أشعة

شمس محمد ﷺ ما لا يستطيع اللسان التعبير عنه ..

قلت: فهل ستحكي لي خبر ما رأيت؟

قال: أجل .. فقد كانت الأنوار التي تحملها براهين جديدة اقتربت بها خطوات كثيرة من شمس محمد ﷺ .

أولا — النساء

في صباح اليوم الأول، سرت على غير هدى إلى أن وجدت مجلسا لنسوة مجتمعات .. وكان من فضل الله وتوفيقه أن رأيت فيهن امرأة كانت من الذين جئت لأتجسس عليهم.. وقد تعجبت عندما رأيت النسوة المجتمعات معها يطلقن عليها اسم (مريم هاري)¹ .. تصورته في البداية اسما مستعارا أرادت استخدامه لأداء الوظيفة التي كلفت بها .. لكنني بعد ذلك علمت أنه اسمها الذي اختارته عن طواعية بعد ولادتها الثانية ..

لن أستعجل .. سأحدثك بمحدثها .. وحديث النسوة اللاتي كن معها .. واللاتي كن على حسب ما يبدو من جنسيات مختلفة² .. فقد كانت ألوأهن وأزياؤهن مختلفة تماما .. ولكنهن مع ذلك كن يشتركن في معرفة العربية والنطق السليم بها ..

جلست في محل قريب منهن، لأتصت عليهن من حيث أراهن ولا يرينني³ .. وقد عرفت من خلال أحاديثهن أن إحداهن كان اسمها (فرانسواز ساجان)⁴ .. وأن أخرى كان اسمها (دانيال كوتيدن)⁵ .. وأن أخرى كان اسمها (مسز آرنون)¹ .. وأن أخرى كان اسمها (اللادي كوك)² .. وأن أخرى كان

(1) أشير به إلى كاتبة فرنسية .. وقد كتبت خطابا موجهها إلى النساء المسلمات في كتابها (الأحاريم الأخيرة) تقول لمن فيه: (يا أخواتي العزيزات، لا تحسدنا نحن الأوربيات ولا تقتدين بنا، إنكن لا تعرفن بأي ثمن من عبودتنا الأدبية اشترينا حريتنا المزعومة، إي أقول لكن: إلى البيت، إلى البيت، كن حلال، ابقين أمهات، كن نساء قبل كل شيء، قد أعطاك الله كثيرا من اللطف الأنثوي فلا ترغبن في مضارعة الرجال، ولا تجتهدن في مسابقتهم، ولترض الزوجة بالتأخر عن زوجها وهي سيّده، ذلك خير من أن تساويه وأن يكرهها)

(2) اخترت هنا بعض الأسماء لشخصيات نسائية معروفة استطعن بحكمتهن أن يكتشفن المغالطات الكثيرة التي تحملها الرايات التي تدعي أنها تحرر المرأة، وقد استفدت هذه الأسماء وتصريحتهن من كتاب (معاناة المرأة في الغرب) من إعداد موقع المنبر (<http://www.alminbar.net/>) نشره موقع صيد الفوائد (<http://www.saaaid.net/>) وكما نبهنا مرات كثيرة، فإن ما نذكره من حديثهن هو مجرد حديث افتراضي .. أما تصريحتهن الحقيقية التي تدل على مواقفهن، فقد ذكرناها في الهوامش.

(3) استلهمنا هذا المعنى من حديث (أم زرع) المشهور، وهو حديث حدثت به عائشة رسول الله ﷺ، وهو يدور حول إحدى عشرة امرأة ووصفهن لأزواجهن، ومن جملة هؤلاء النسوة امرأة يقال لها أم زرع، وقد تعاهد هؤلاء النسوة على أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئا .. ومن معنى تعاهدن استلهمنا هذا الحديث.

(4) هي كاتبة فرنسية .. وقد سئلت عن سبب سخريتها في كتابتها من حركة تحرير المرأة، فأجابت: (من خلال نظرتي لتجارب الغالبية العظمى من النساء أقول: إن حركة تحرير المرأة أكذوبة كبيرة اخترعها الرجل ليضحك على المرأة)

(5) هي كاتبة من الولايات المتحدة الأمريكية كتبت في كتاب لها بعنوان (ما لم نخبرنا به أمهاتنا) تقول فيه: (إن الجيل الجديد من الأمهات تحت سن الأربعين أصبحن ضحايا للحركة النسوية، حيث دأبت هذه الحركات على تشجيع عمل المرأة والخروج من البيت وتأخير الزواج، وقللت من دور المرأة في تربية الأطفال ورعاية المنزل، ودعت إلى أن يقوم الرجل بذلك عملا بمبدأ المساواة المطلقة)

وتؤكد أن عمل الحركة النسوية ومطالبتها باقتحام كل مجالات العمل ساهم في قطع ارتباط المرأة بالجوانب المتصلة في تكوينها النفسي والعقلي مثل غريزة الأمومة وحب تكوين الأسرة، وهي تدعو في المقابل أن تعود المرأة إلى البيت وأن تتزوج مبكرة وأن لا تعمل قبل أن يكبر الصغار ويدخلوا المدارس.. وتجب عن سؤال حسّاس هو: لماذا لا يطلب من الرجل أن يبقى في البيت وتعمل الأم؟! فتقول: (إن الشعور بالذنب لدى المرأة لتركها الأولاد وشعورها المرتكز في فطرتها لتلبية حاجات أطفالها الأساسية يجعل قيام الأم بهذا الدور محققا للاستقرار الأسري)

اسمها (بريجيت باردو)³ .. وأن أخرى كان اسمها (الدكتورة أيرين)⁴ .. وأن أخرى كان اسمها (بيتولاهايت)⁵ .. وأن

وتشير (دانيالي) إلى أن جيلا من الأمهات بأكمله تعلّم أن يجارب الرجل وأن يلومه، وأن يطالب بالاستقلال التام بأي ثمن، والنتيجة كما تشير هذه الباحثة قلق وحيرة واضطراب.. وتذكر المؤلفة أن هناك تساؤلات أصبحت تقلق المرأة الغربية المعاصرة إلى حدّ كبير، تتمثل في السؤالين التاليين: هل النزول إلى معترك العمل أهم من العناية بالأطفال؟ ولماذا لا يرغب صديقي بالزواج مني كما أرغب أنا؟

وتعترف أن لفظة (حركة نسوية) أو (اتحاد نسائي) أصبحت تثير الاشتمزاز لدى عدد لا بأس به من النساء في أمريكا، وذلك مرده إلى الطروحات المتطرّقة المتصادمة مع متطلبات الأنثى.

وتقول دانيالي في كتابها: (إن السعادة والتخلص من القلق والحيرة يمكن للمرأة المعاصرة بشرط أن تتخلى عن المقولات الرجعية التي تنادي بها الحركات النسوية الداعية إلى إشراك المرأة في كل مجال أو بتلك المجالات التي تحث على الحرية الجنسية التي قتلت المرأة وحولها إلى كائن لا قيمة له في المجتمع)

(¹) هي كاتبة كتبت في في جريدة (الاسترن ميل) تقول: (لأن يشغل بناتنا في البيوت خوادم أو كخوادم خير وأخفّ بلاءً من اشتغالهن في المصانع والمخلات والمعامل. ألا ليت بلادنا كبلاد المسلمين؛ فيها الحشمة والعفاف والطهارة، فالخادمة والرقيق يتنعمان عند المسلمين بأرغد عيش، ويعاملان كما يُعامل أولاد البيت، ولا تمس الأعراس بسوء)

(²) هي كاتبة كتبت في بعض كتاباتها تقول: (إن الاختلاط يألّفه الرجال، ولهذا طمعت المرأة بما يخالف فطرتها، وعلى قدر كثرة الاختلاط تكون كثرة أولاد الزنا وهنا البلاء العظيم على المرأة .. أما أن لنا أن نبحت عمّا يخفّف — إذا لم نقل: عمّا يزيل — هذه المصائب العائدة بالعار على المدينة الغربية)

وتقول في موضع آخر: (يا أيها الوالدان، لا يغرنكما بعض دربهات تكسبها بناتكما باشتغالهن في المعامل ونحوها ومصيرهن إلى ما ذكرنا. علموهن الابتعاد عن الرجال، أخبروهن بعاقبة الكيد الكامن لهن بالمرصاد. لقد دلّنا الإحصاء على أن البلاء الناتج من حمل أولاد الزنا يعظم ويتفاقم حيث يكثر اختلاط النساء بالرجال، ألم تروا أن أكثر أمهات أولاد الزنا من المشتغلات في المعامل والخادمات في البيوت وكثير من السيدات المعرضات للأنظار؟! ولولا الأطباء الذين يعطون الأدوية للإسقاط لرأينا أضعاف ما نرى الآن، لقد أدّت بنا هذه الحال إلى حلّ من الدناءة لم يكن تصوّرها في الإمكان، حتى أصبح رجال من مقاطعات من بلادنا لا يقبلن البنت زوجة ما لم تكن مجرية، أي: عندها أولاد من الزنا يتنفّع بهم، وهذا هو غاية الهبوط بالمدينة)

(³) هي ممثلة مشهورة .. من تصريحاها قولها — ردا على من سألها قائلاً: (لقد كنت في يوم من الأيام رمزاً للتحريير والفساد) — فأجابت قائلة: (هذا صحيح كنت كذلك، كنت غارقة في الفساد الذي أصبحت وقتاً ما رمزاً له، لكن المفارقة أن الناس أحبوني عارية، ورجوهي عندما تبت، عندما أشاهد الآن أحد أفلامي السابقة فإني أبصق على نفسي، وأقفل الجهاز فوراً. كم كنت سافلة)، ثم تواصلت قائلة: (قمة السعادة للإنسان الزواج)، ثم تقول: (إذا رأيت امرأة مع رجل ومعها أولاد أتساءل في سرّي: لماذا أنا محرومة من مثل هذه النعمة)

(⁴) من تصريحاها في هذا المجال قولها: (إن سبب الأزمات العائلية في أمريكا وسر كثرة الجرائم في المجتمع هو أن الزوجة تركت بيتها لتضعف دخل الأسرة، فزاد الدخل وانخفض مستوى الأخلاق)، ثم تقول: (إن التجارب أثبتت أن عودة المرأة إلى الحرم هي الطريقة الوحيدة لإنقاذ الجيل الجديد من التدهور الذي يسير فيه)

(⁵) هي عجوز في الخامسة والسبعين، من أصل أرلندي وتعيش منذ خمسين عاماً في مدينة (أوتاوا) الكندية، صرحت تقول: (إنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً سوى أن أرى هؤلاء الشبان الذين يرتطمون بهذا الواقع الجاف، أحشى أن يكرهنا أبناءنا. ثرى لماذا يكرهوننا؟ لقد أرغمناهم كي يأتوا إلى هذا العالم عندما فقد هذا العالم كل سطوع وحرارة.

إنني أعيش وحيدة، أولادي وأحفادي يعيشون في (مونتريال)، أتلقى منهم الرسائل بانتظام، وأشعر أن عملية تناول الرسائل باتت ميكانيكية، لأنها خالية من الود الحقيقي، هذا ليس ذهنهم، أعود ستين عاماً إلى الوراء، عندما كانت حياتنا أشبه بالمهرجان الدائم، الآن تبدّل كل شيء، ويبدو أن الناس كلهم يسرون في جنازة هم الأموات فيها)

أخرى كان اسمها (بريجت أوف هاهر)¹ .. وأن أخرى كان اسمها (هيلسيان ستانسيري)² .. وأن أخرى كان اسمها (اللادي ماري مونتكاد)³ ..

وكان مع هؤلاء جميعا المسلمة التي حدثتكم عنها (مريم هاري) .. والتي رأيتم من خلال حديثها أنها انقلبت على الوظيفة التي جاءت من أجلها .. فبدل أن تجلس مع مسلمات لتقنعنهم بقساوة الإسلام .. صارت تجلس مع نساء من قومنا لتحدثنهم عن رحمة الإسلام .. ولتحوّلن من خلالها إلى دين محمد ﷺ .

كان حديث هؤلاء النسوة الإحدى عشر هو مبعث أشعة كثيرة من نور النبوة نسخت بها تلك الظلمات التي سرها إلي أخي ..

سأحدثكم بما لا أزال أحفظه من حديثهن.

بدأت الحديث (فرانسواز ساجان) قائلة لمريم هاري: أنا إلى الآن لا أزال حائرة في سر إسلامك .. ألم تتنك عنه كل تلك الأحاديث التي يذيعها قومنا كل حين عن المرأة .. وعن القسوة التي عامل بها الإسلام المرأة؟ قالت مريم: لذلك قصة طويلة .. سأحكيها لكم .. ولكن بشرط واحد هو أن تخبرني كل امرأة منكم عن

(1) هي قاضية سويدية كلفتها الأمم المتحدة بزيارة البلاد العربية للتعرف على المرأة العربية ودراسة أوضاعها الاجتماعية والقانونية، فقالت: (إن المرأة السويدية فجأة اكتشفت أنها اشترت وهما هائلاً — تقصد الحرية التي أعطيت لها — بثمان مفرع هو سعادتها الحقيقية) .. وتقول عن استقبال المرأة السويدية لعام المرأة 1975م: (ولهذا فإنها تستقبل العام العالمي لحقوق المرأة بفتور مهذب، وتحنُّ إلى حياة الاستقرار العائلية المتوازنة جنسياً وعاطفياً ونفسياً، فهي تريد أن تتنازل عن معظم حريتها في سبيل كل سعادتها)

(2) هي صحفية أمريكية، كانت تراسل أكثر من خمسين ومائتي صحيفة أمريكية، وقد زارت جميع بلاد العالم، زارت القاهرة وأمضت فيها عدة أسابيع، حيث زارت المدارس والجامعات ومعسكرات الشباب والمؤسسات الاجتماعية ومراكز الأحداث والمرأة والأطفال وبعض الأسر في مختلف الأحياء، ثم قالت: (إن المجتمع المسلم كامل وسليم، ومن الخلق بهذا المجتمع أن يتمسك بتقاليدته التي تقيد الفتاة والشباب في حدود المعقول، وهذا المجتمع يختلف عن المجتمع الأوروبي والأمريكي، فعندكم أخلاق موروثه تحتم تقييد المرأة، وتحتم احترام الأب والأم، وتحتم أكثر من ذلك عدم الإباحية الغربية التي تهدد اليوم المجتمع والأسرة في أوروبا وأمريكا، ولذلك فإن القيود التي يفرضها مجتمعكم على الفتاة هذه القيود صالحة ونافعة، لهذا أنصحكم بأن تتمسكوا بتقاليدكم وأخلاقكم.

امنعوا الاختلاط، وقيدوا حرية الفتاة، بل ارجعوا إلى عصر الحجاب، فهذا خير لكم من إباحية وانطلاق ومجون أوروبا وأمريكا.

امنعوا الاختلاط، فقد عانينا منه في أمريكا الكثير، لقد أصبح المجتمع الأمريكي مجتمعاً مقعداً، مليئاً بكل صور الإباحية والخلاعة، وإن ضحايا الاختلاط والحرية يملؤون السجون والأرصفة والبارات والبيوت السرية، إن الحرية التي أعطيناها لفتياتنا وأبنائنا قد جعلت منهم عصابات أحداث، وعصابات للمخدرات والرقيق.

إن الاختلاط والإباحية والحرية في المجتمع الأوروبي والأمريكي قد هدد الأسرة، وزلزل القيم والأخلاق)

(3) هي زوجة السفير الإنجليزي في تركيا .. قالت تخاطب شقيقتها: (يزعمون أن المرأة المسلمة في استعباد وحجر معيب، وهو ما أود تكذيبه، فإن مؤلفي الروايات في أوروبا لا يحاولون الحقيقة، ولا يسعون للبحث عنها، ولولا أنني في تركيا وأنني اجتمعت إلى النساء المسلمات ما كان إلى ذلك سبيل، ولو أنني لم أستمع إلى أخبارهم وحوادثهم وطرق معيشتهم من سبل شتى لذهبت أصدق ما يكتبه هؤلاء الكتاب، ولكن ما رأيته يكذب كل التكذيب أخبارهم، ولا أبلغ إذا قررت لك أن المرأة المسلمة وكما رأيته في الآستانة أكثر حرية من زميلاتها في أوروبا، ولعلها المرأة الوحيدة التي لا تعنى بغير حياتها البيئية، ثم إنهن يعشن في مقصورات جميلات، ويستقبلن من يرد من الناس)

تجربتها في هذا..

أنا أعلم أنك جميعا مثقفات واعيات .. وأنكن جميعا مررتن بتجارب مختلفة .. وقد مررت مثلكن بذلك ..
فلذلك لن أفضي لكن بسري حتى تفضين لي بسركن ..
نهضت (بيتو لاهيت)، وكانت أكبرهن سنا، وقالت: إذن لي أن أبدأ الحديث أنا .. فأنا أكبركن سنا،
وأطولكن تجربة ..

لقد بدأت حياتي في أسرة مسيحية متدينة .. بل مغالية في تدينها .. وقد عرفت من خلال تأمل طويل أنه
يستحيل أن يحمل دين الله أي عصبية ضد أي جهات من الجهات .. وضد أي جنس من الأجناس .. ذلك أن دين الله
يمثل الله .. ويستحيل على الله أن يفرق بين عباده بسبب هو خلقه.
وقد دعاني هذا البحث إلى أن أبحث عن موقف المسيحية من المرأة لأعرف من خلال ذلك مدى مصداقيتها ..
وقد أوصلني ذلك البحث إلى الخروج من المسيحية والارتقاء بعدها في أحضان اللاشيء .. فلم يكن لدي من القدرة ما
أواصل به مشوار البحث عن الحقيقة ..

قالت النسوة: حدثينا عما وجدت في المسيحية عن المرأة.
قالت: لقد بدأت بالكتاب المقدس .. لقد قلت لنفسي: فلأطرح ذاتي بين يدي الله ليخبرني عن حقيقتي وعن
وظيفتي .. وعن علاقتي به، وعلاقته بي ..

وقد صدمت من أول نظرة .. لقد قرأت في رسالة بولس إلى أهل كورنثوس الأولى (11/ 3-9) : (ولكن
أريد أن تعلموا أن رأس كل رجل هو المسيح. وأما رأس المرأة فهو الرجل ورأس المسيح هو الله.. كل رجل يصلّي أو
يتنبأ وله على راسه شيء يشين رأسه. وأما كل امرأة تصلّي أو تنبأ ورأسها غير مغطى فتشين رأسها لأنها والمخلوقة
شيء واحد بعينه. إذ المرأة إن كانت لا تغطي فليقص شعرها. وإن كان قبيحا بالمرأة أن تقص أو تخلق فلستغط. فإن
الرجل لا ينبغي أن يغطي راسه لكونه صورة الله ومجده. وأما المرأة فهي مجد الرجل. لأن الرجل ليس من المرأة بل المرأة
من الرجل. ولأن الرجل لم يخلق من أجل المرأة بل المرأة من أجل الرجل)

وقرأت في رسالته إلى أهل رومية ما يؤكد أن المرأة لا قيمة لها بدون الرجل وأن ناموسها هو زوجها، وقد سماه
بولس بالناموس الحي وقال : (إن مات زوجها فقد تحررت من الناموس الحي)(رومية 7/ 2-3)
وفي (رومية 7/ 2): (فإن المرأة التي تحت رجل هي مرتبطة بالناموس بالرجل الحي. ولكن إن مات الرجل فقد
تحررت من ناموس الرجل. فإذا ما دام الرجل حيا تدعى زانية إن صارت لرجل آخر. ولكن إن مات الرجل فهي حرة
من الناموس حتى أنها ليست زانية إن صارت لرجل آخر)

ورأيت في (أفسس) يأمر النساء أن يكن خاضعات للرجال كما يخضعن للرب، ويزيد في الأمر أن الرجل هو رأس
المرأة مشبهاً ذلك بعبادة الرب، وأنه عقيدة فهي أقل من الرجل .. اسمعوا ما ورد في (أفسس: 5/ 22-24): (أيها
النساء اخضعن لرجالكن كما للرب لأن الرجل هو رأس المرأة كما أن المسيح أيضا رأس الكنيسة، وهو مخلص الجسد،
ولكن كما تخضع الكنيسة للمسيح كذلك النساء لرجالهن في كل شيء)

ومثل ذلك قرأت في (كورنثوس 1: 11/ 3): (ولكن أريد أن تعلموا أن رأس كل رجل هو المسيح .. وأما
رأس المرأة فهو الرجل .. ورأس المسيح هو الله)

وقرأت في (كورنثوس 1: 11/7): (فإن الرجل لا ينبغي أن يغطي رأسه لكونه صورة الله ومجده، وأما المرأة فهي مجد الرجل، لأن الرجل ليس من المرأة بل المرأة من الرجل، ولأن الرجل لم يخلق من أجل المرأة بل المرأة من أجل الرجل)

وقرأت في (كورنثوس 1: 14/34): (لتصمت نساءكم في الكنائس لأنه ليس مأذونا لمن أن يتكلمن بل يخضعن كما يقول الناموس أيضا، ولكن إن كن يردن أن يتعلمن شيئا فليسالن رجالهن في البيت لأنه قبيح بالنساء أن تتكلمن في كنيسة)

وقرأت في (تيموثاوس 1: 2/11-13): (لتتعلّم المرأة بسكوت في كل خضوع، ولكن لست آذن للمرأة أن تتعلّم ولا تتسلط على الرجل بل تكون في سكوت، لان آدم جبل أولا ثم حواء)
وقرأت في (بطرس 3: 5): (فإنه هكذا كانت قدما النساء القديسات أيضا المتوكلات على الله يزيّن أنفسهن خاضعات لرجالهن)

وقرأت في (يشوع 15/16-17) أن المرأة مجرد هدية فقط يتهداها الرجال فيه: (وقال كالب: من يضرب قرية سفر ويأخذها أعطيه عكسة ابنتي امرأة. فأخذها عثنييل بن قناز اخو كالب. فاعطاه عكسة ابنته امرأة)
وقرأت في (قضاة 19/22-29) أن المرأة مجرد هدية قد يدفعها سيدها للزنا .. ففيه: (وفيما هم يطيبون قلوبهم اذا برجال المدينة رجال بلعالم أحاطوا بالبيت قارعين الباب، وكلموا الرجل صاحب البيت الشيخ قائلين: أخرج الرجل الذي دخل بيتك فنعرفه، فخرج إليهم الرجل صاحب البيت وقال لهم: لا يا إخوتي لا تفعلوا شرا. بعد ما دخل هذا الرجل بيتي لا تفعلوا هذه القباحة. هو ذا ابنتي العذراء وسريته دعوني أخرجهما فأذلوهما وافعلوا بما يحسن في أعينكم وأما هذا الرجل فلا تعملوا به هذا الأمر القبيح. فلم يرد الرجال أن يسمعوا له. فأمسك الرجل سريته وأخرجها إليهم خارجا فعرفوها وتعللوا بما الليل كله إلى الصباح وعند طلوع الفجر أطلقوها. فجاءت المرأة عند إقبال الصباح وسقطت عند باب بيت الرجل حيث سيدها هناك إلى الضوء. فقام سيدها في الصباح وفتح أبواب البيت وخرج للذهاب في طريقه واذا بالمرأة سريته ساقطة على باب البيت ويدها على العتبة)
وقرأت في (قضاة:19:29): (ودخل بيته وأخذ السكين وأمسك سريته وقطعها مع عظامها الى اثني عشرة قطعة وأرسلها الى جميع تخوم إسرائيل)

وقرأت في سفر (العدد30/3-13) أن المرأة ليس لها الحق في أن تنذر للرب إلا بموافقة أبيها أو زوجها .. ففيه: (وأما المرأة فإذا نذرت نذرا للرب والتزمت بلازم في بيت أبيها في صباها وسمع أبوها نذرها واللازم الذي أزمته نفسها به فإن سكوت أبوها لها ثبتت كل نذورها. وكل لوازمها التي أزمته نفسها بما ثبتت. وإن نذرها أبوها يوم سمعه فكل نذورها ولوازمها التي أزمته نفسها بما لا تثبت. والرب يصفح عنها لأن أباه قد نذرها. وإن كانت لزوج ونذورها عليها أو نطق شفيتها الذي أزمته نفسها به وسمع زوجها فإن سكوت في يوم سمعه ثبتت نذورها ولوازمها التي أزمته نفسها بما لا تثبت. وإن نذرها زوجها في يوم سمعه فسح نذرها الذي عليها ونطق شفيتها الذي أزمته نفسها به والرب يصفح عنها. وأما نذر أرملة أو مطلقة فكل ما أزمته نفسها به وسمع زوجها فإن سكوت في يوم سمعه فكل ما خرج من شفيتها من نذورها أو لوازم نفسها لا يثبت. وإن فسحها زوجها في يوم سمعه فكل ما خرج من شفيتها من نذورها أو لوازم نفسها لا يثبت. قد فسحها

زوجها، والرب يصفح عنها. كل نذر وكل قسم التزم لإذلال النفس زوجها يثبتته وزوجها يفسخه)
وقرأت في (تيماثوس الأولى 2/ 11-15): (لتتعلم المرأة بسكوت في كل خضوع. ولكن لست أذن للمرأة
أن تعلم ولا تتسلط على الرجل بل تكون في سكوت. لأن آدم جبل أولاً ثم حواء. وآدم لم يغو لكن المرأة أغويت
فحصلت في التعدي. ولكنها ستخلص بولادة الأولاد إن ثبتن في الإيمان والمحبة والقداسة مع التعقل)
وقرأت في (تثنية 21/ 10-14) أن المرأة تعامل كالحوانات إن وقعت في السبي .. اسمعوا ما يقول الرب في
هذا السفر: (إذا خرجت لحاربة أعدائك ودفعتهم الرب إلهك إلى يدك وسبيت منهم سبياً ورأيت في السبي امرأة جميلة
الصورة والتصقت بها واتخذتها لك زوجة فحين تدخلها إلى بيتك تحلق رأسها وتقليم أظفارها وتنزع ثياب سببها عنها
وتقعد في بيتك وتبكي أباهاً وأمها شهراً من الزمان ثم بعد ذلك تدخل عليها وتتزوج بها فتكون لك زوجة. وإن لم
تسرّ بها فأطلقها لنفسها. لا تبعها بيعاً بفضة ولا تسترقها من أجل أنك قد أذلتها)
وقرأت في (لوقا 20/ 29-35) أن المرأة ليست سوى ميراث للرجل .. ففيه: (فكان سبعة إخوة، وأخذ
الأول امرأة ومات بغير ولد، فأخذ الثاني المرأة ومات بغير ولد، ثم أخذها الثالث وهكذا السبعة، ولم يتركوا ولداً
وماتوا، وآخر الكل ماتت المرأة أيضاً، ففي القيامة لمن منهم تكون زوجة، لأنها كانت زوجة للسبعة. فأجاب وقال لهم:
يسوع أبناء هذا الدهر يزوجون ويزوجون، ولكن الذين حسبوا أهلاً للحصول على ذلك الدهر والقيامة من الأموات
لا يزوجون ولا يزوجون)
وفي (تثنية 25/ 5-6): (إذا سكن إخوة معا ومات واحد منهم وليس له ابن فلا نصر امرأة الميت إلى خارج
لرجل أجنبي. أخو زوجها يدخل عليها ويتخذها لنفسه زوجة ويقوم لها بواجب أخي الزوج. والبكر الذي تلده يقوم
باسم أخيه الميت لئلا يمحي اسمه من إسرائيل)
وفي نفس السفر ذكر للعقوبة التي يتلقاها إن رفض ذلك .. ففيه (تثنية: 25/ 9): (تتقدم امرأة أخيه إليه أمام
أعين الشيوخ وتخلع نعله من رحله وتبصق في وجهه وتصرح وتقول هكذا يفعل بالرجل الذي لا يبني بيت أخيه،
فيدعى اسمه في إسرائيل بيت مخلوع النعل)
وقرأت في (راعوث: 1/ 4-10): (فصعد بوعز إلى الباب، وجلس هناك، وإذا بالولي الذي تكلم عنه بوعز
عابر، فقال: مل واجلس هنا أنت يا فلان الفلاني فمال وجلس، ثم أخذ عشرة رجال من شيوخ المدينة وقال لهم
اجلسوا هنا فجلسوا، ثم قال للولي أن نعمي التي رجعت من بلاد موآب تباع قطعة الحقل التي لأخيها اليمالك، فقلت
إني أخبرك قائلاً: اشتر قدام الجالسين وقدام شيوخ شعبي، فإن كنت تفكّ ففكّ، وإن كنت لا تفكّ فأخبرني لأعلم لأنه
ليس غيرك يفكّ وأنا بعدك. فقال: إني أفكّ. فقال بوعز: يوم تشتري الحقل من يد نعمي تشتري أيضاً من يد راعوث
الموآبية امرأة الميت لتقيم اسم الميت على ميراثه. فقال الولي: لا أقدر أن أفكّ لنفسي لئلا أفسد ميراثي. ففكّ أنت
لنفسك فكاكي لأني لا أقدر أن أفكّ، وهذه هي العادة سابقاً في إسرائيل في أمر الفكك والمبادلة لأجل إثبات كل أمر
يخلع الرجل نعله ويعطيه لصاحبه. فهذه هي العادة في إسرائيل. فقال الولي لبوعز اشتر لنفسك. وخلع نعله فقال بوعز
للشيوخ ولجميع الشعب أنتم شهود اليوم أي قد اشترت كل ما لاليمالك وكل ما لكليون ومحلون من يد نعمي.
وكذا راعوث الموآبية امرأة محلون قد اشترت لي امرأة لأقيم اسم الميت على ميراثه ولا ينقرض اسم الميت من بين
إخوته ومن باب مكانه. أنتم شهود اليوم)

وقرأت في سفر (الخروج) شريعة خاصة بالعبد وزوجته جاء فيها (الخروج 21 / 2-6): (إذا اشترت عبدا عبرانيا فست سنين يخدم وفي السابعة يخرج حرا مجانا. إن دخل وحده فوحده يخرج. إن كان بعل امرأة تخرج امرأته معه. إن اعطاه سيده امرأة وولدت له بنين أو بنات فالمرأة وأولادها يكونون لسيده وهو يخرج وحده. ولكن إن قال العبد أحب سيدي وامرأتي وأولادي لا أخرج حرا يقدمه سيده إلى الله ويقربه إلى الباب أو إلى القائمة ويتقرب سيده اذنه بالثقب. فيخدمه إلى الأبد)

وقرأت في (التكوين: 31 / 11-17) قصة يعقوب وهروبه من لابان أبي زوجته راحيل وليئة بعد أن استولى على كل ما للرجل .. وفيها: (فأجابت راحيل وليئة وقالتا له ألنا أيضا نصيب وميراث في بيت أبينا.. ألم نحسب منه أحنيتين. لأنه باعنا وقد أكل أيضا ثمننا. إن كل الغنى الذي سلبه الله من أبينا هو لنا ولأولادنا. فالآن كل ما قال لك الله افعل، فقام يعقوب وحمل اولاده ونسأه على الجمال.)

وقرأت في (التكوين: 36 / 8-10) أن المرأة إذا ورثت تكون هي نفسها مجرد ميراث حتى لا يخرج الميراث خارج عائلتها .. ففيه: (وكل بنت ورثت نصيبا من أسباط بني إسرائيل تكون امرأة لواحد من عشيرة سبط أبيها لكي يرث بنو إسرائيل كل واحد نصيب آبائه. فلا يتحول نصيب من سبط إلى سبط آخر بل يلزم اسباط بني اسرائيل كل واحد نصيبه كما أمر الرب موسى كذلك فعلت بنات صلفحاد) وفوق ذلك كله قرأت في الكتاب المقدس عقوبات خاصة بالنساء دون الرجال .. ولم أدر سر تخصيصهن بذلك..

منها ما ورد في (تثنية: 25 / 11-12): (إذا تخاصم رجلان بعضهما بعضا رجل وأخوه وتقدمت امرأة أحدهما لكي تخلص رجلها من يد ضاربه ومدت يدها وأمسكت بعورته (فاقطع يدها ولا تشفق عينك) وفي الولادة البنت تنحس أمها أسبوعين بينما الولد ينحسها أسبوع (لاويين 6/12) وهكذا ..

قالت النسوة: ولكن المسيحية لا تتشكل من الكتاب المقدس وحده .. **هناك رجال الكنيسة ومجامعها** .. ولا يمكن أن تفهم المسيحية من دونهم؟
قالت (بيتو لاهايت): لقد بحثت في هذا أيضا ..
قالت النسوة: فما وجدت؟
قالت: لم يزدني ذلك إلا بعدا عن المسيحية ونفورا منها ..
قالت النسوة: فحدثينا عما وجدت في هذا.

قالت¹: لقد أثرت تلك النصوص في رجال الكنيسة أجيالا طويلة اعتبروا خلالها المرأة مسئولة عن كل خطيئة وقعت في العالم، فلولا المرأة ماخرج آدم من الجنة .. ولهذا قرروا أن الزواج دنس يجب الابتعاد عنه .. وأن الأعزب أكرم عند الله من المتزوج .. وأن السمو في علاقة الإنسان بربه لا يتحقق إلا بالبعد عن الزواج.. وأن الحمل والولادة، والشهوة، واشتياق الرجل لامرأته، واشتياق المرأة لزوجها من الآثام، التي جلبت على المرأة الويل والعار على مدى

(¹) استفدنا الكثير من النصوص الواردة هنا من كتاب (حفظ الإسلام حقوق المرأة) للأستاذ علاء أبو بكر.

التاريخ كله ، وهي عقوبة الرب لحواء على خطيئتها الأزلية.
وفوق ذلك كله أعلنوا أنها باب الشيطان..

لاشك أن هذا الكلام المحمل لن يقنعكم .. فلذلك اسمحو لي أن أسرد عليكم ما قال القديسون وآباء الكنيسة
والجامع المقدسة لتعلموا موقف جميع هؤلاء من المرأة:

لقد كتب جيروم يدعو المرأة أن تتخلص من أنوثتها لئتم خلاصها في الآخرة .. يقول في ذلك: (بما أن المرأة
خُلِقَتْ للولادة والأطفال ، فهى تختلف عن الرجل ، كما يختلف الجسد عن الروح. ولكن عندما ترغب المرأة في
خدمة المسيح أكثر من العالم ، فعندئذ سوف تكف عن أن تكون امرأة ، وستسمى رجلاً¹)
وقال ممتها المرأة وحقوقها: (إذا امتنعنا عن الاتصال الجنسي فإننا نكرم زوجاتنا ، أما إذا لم نمتنع: حسناً فما هو
نقيض التكريم سوى الإهانة)

وقال القديس أوغسطين: (إذا كان ما احتاجه آدم هو العشرة الطيبة ، فلقد كان من الأفضل كثيراً أن يتم تدبير
ذلك برجلين يعيشان معاً كصديقين ، بدلاً من رجل وامرأة)

وقد كان توما الأكويني متحيراً تماماً مثل سلفه أوغسطين في سبب خلق الله للمرأة، فكتب يقول: (بما يختص
بطبيعة الفرد ، فإن المرأة مخلوق معيب وجدير بالازدراء ، ذلك أن القوة الفعالة في منى الذكر تنزع إلى إنتاج مماثلة
كاملة في الجنس الذكري ، بينما تتولد المرأة عن معيب تلك القوة الفعالة ، أو حدوث توعك جسدى ، أو حتى نتيجة
لمؤثر خارجي)

وقال تروتوليان — أحد أقطاب المسيحية الأولى وأمتها — يبين نظرة المسيحية إلى المرأة: (إنها مدخل الشيطان
إلى نفس الإنسان، وإنها دافعة الى الشجرة الممنوعة ناقضة لقانون الله ومشوهة لصورة الله — أي الرجل -) مستندا في
ذلك إلى ما ورد في (تيموثاوس الأولى 2/ 14-15): (وَأَدَمُ لَمْ يُعْوْ لَكِنَّ الْمَرْأَةَ أُغْوِيَتْ فَحَصَلَتْ فِي التَّعَدِّي،
وَلَكِنَّهَا سَتَخْلُصُ بِوِلَادَةِ الْأَوْلَادِ، إِنَّ بُتْنَ فِي الْإِيمَانِ وَالْمَحَبَّةِ وَالْقَدَاسَةِ مَعَ التَّعَقُّلِ)

أما البابا (ابنوسنسيوس الثامن) فقد أعلن في براءة (1484) (أن الكائن البشرى والمرأة يدوان نقيضين عنيدين)
وقال لوثر: (المرأة كمسماز يدق في الحائط)، وقال: (إذا تعبت النساء ، أو حتى ماتت ، فكل ذلك لا يهم ،
دعهن يمتن في عملية الولادة ، فلقد خلقن من أجل ذلك)

وقال: (كم هو شيء مرعب وأحمق تلك الخطيئة! إن الشهوة هى الشيء الوحيد الذى لا يمكن شفاؤه بأى دواء،
ولو كان حتى الزواج الذى رُسم لنا خصيصاً من أجل هذه النقيصة التى تكمن في طبيعتنا)

وقالت الراهبة كارين أرمسترونج: (إن المسيحية خلقت أتعس جو جنسى في أوروبا وأمريكا بدرجة قد تصيب
بالدهشة كلا من يسوع والقديس بولس. ومن الواضح كيف كان لهذا تأثيره على النساء. فبالنسبة لأوغسطين الذى
كان يناضل من أجل البتولية ، كانت النساء تعنى مجرد اغراء يريد أن يوقعه في شرك ، بعيداً عن الأمان والإماتة المقدسة
لشهوته الجنسية. أما كون العصاب الجنسي للمسيحية قد أثر بعمق في وضع النساء ، فهذا ما يرى بوضوح من حقيقة

(¹) انظر: تعليق جيروم على رسالة بولس إلى أهل أفسس.

أن النساء اللاتي التحقن بالجماعات الهرطقية المعادية للجنس ، وصرن بتولات ، قد تمتعن بمكانة واحترام كان من المستحيل أن يحظين بهما في ظل المسيحية التقليدية)

وقالت: (لقد كانت المسيحية مشغولة طيلة مئات السنين بجعل النساء يخجلن من أمورهن الجنسية ، ولقد عرفت النساء جيداً كما قال أوغسطين ولوثر قبل عدة قرون ، أن تشريع الزواج كان مجرد دواء ضعيف المفعول لمعالجة شرور الجنس)

وقالت: (لقد كان يُنظر إلى جسد المرأة باشمزاز على نحو خاص ، كما كان مصدر إرباك لآباء الكنيسة أن يسوع ولد من امرأة. فكم ضغطوا بشدة في موعظة تلو موعظة ، وفي رسالة تلو رسالة على أن مريم بقيت عذراء ، ليس فقط قبل ميلاد المسيح بل وبعده أيضاً)

و كتب أودو الكابي في القرن الثاني عشر يقول: (إن معانقة امرأة تعني معانقة كيس من الزبالة) وكتب أسقف فرنسي عاش في القرن الثاني عشر يقول: (إن كل النساء بلا استثناء مومسات ، وهن مثل حواء سبب كل الشرور في العالم)

وقال الراهب البنديكتي برنار دي موريكس دون مواربة في أشعاره: (إنه لا توجد امرأة طيبة على وجه الأرض) وقال الراهب الإنجليزي اسكندر نكهام: (أنه نظراً لأن المرأة لا تشبع جنسيا ، فإنها غالباً ما تصطاد بائساً حقيراً لينام معها في فراشها ليشبع فمها إذا كان زوجها غير موجود في لحظة شبقها. ونتيجة لذلك كان على الأزواج أن يربوا أطفالاً ليسوا أولادهم)

وقال القديس تروتيان: (إن المرأة مدخل الشيطان إلى نفس الإنسان ، ناقضة لنواميس الله ، مشوهة للرجل) وكتب تروتيان في القرن الثالث رسالة تعالج زى المرأة ، قال فيها: (لقد كان حريا بالمرأة أن تخرج في زى حقير ، وتسير مثل حواء ، ترثي لحالها ، نادمة على ما كان ، حتى يكون زيهما الذي يتسم بالحزن ، مكفراً عما ورثته من حواء: العار ، وأقصد بذلك الخطيئة الأولى ، ثم الخزي من الهلاك الأبدي للانسانية. فلقد قال الرب للمرأة: (تَكْثِيرًا أَكْثَرَ أَنْعَابَ حَيْلِكَ. بِالْوَجَعِ تَلِدِينَ أَوْلَادًا. وَإِلَى رَجُلِكَ يَكُونُ اسْتِيْقَاكَ وَهُوَ يَسُودُ عَلَيْكَ) _ تكوين 3: 16) ألسن تعلمن أن كل واحدة منكن هي حواء؟)

وقال القديس برنارد — الذي فعل كل ما استطاع لنشر عبادة العذراء في الكنيسة — عن أخته بعد زيارتها إياه في الدير الذي يقيم فيه مرتدية زياً جديداً: (مومس قدرة ، وكتلة من الروث)

لم يقتصر الأمر على أشخاص ممثلين حقداً على المرأة .. وإنما شمل الأمر المجامع المقدسة أيضا .. ففي القرن الخامس الميلادي اجتمع مجمع باكون وكانوا يتباحثون: (هل المرأة جثمان بحت، أم هي جسد ذو روح يُنابط به الخلاص والهلاك؟)

وقد قرر هذا المجمع أن المرأة خالية من الروح الناجية ، التي تتجيبها من جهنم ، وليس هناك استثناء بين جميع بنات حواء من هذه الوصمة إلا مريم ..

كما قرر مجمع آخر، أن المرأة حيوان نجس ، يجب الابتعاد عنه ، وأنه لاروح لها ولا خلود ، ولأنثلقن مبادئ الدين لأنها لاتقبل عبادتها ، ولاتدخل الجنة ، ولا الملكوت ، ولكن يجب عليها الخدمة والعبادة، وأن يكتم فمها كالبعير، أو كالكلب العقور، لمنعها من الضحك ومن الكلام لأنها أحبولة الشيطان.

لقد جرت هذه الأفكار المشوهة إلى سلوكات أكثر تشويهاً ..
لقد جعلت تلك الأفكار الكثير يفكر في السبل التي يتخلص بها من المرأة .. لأنها الجسد الشرير .. ولأنها مصدر متاعب الحياة .. ولأنها مصدر غضب الرب:

لقد كان من ثمار تلك الأفكار أن تشكل مجلس اجتماعي في بريطانيا في عام 1500 لتعذيب النساء ، وابتدع وسائل جديدة لتعديبهن ، وقد أحرقت الألاف منهن أحياء ، وكانوا يصبون الزيت المغلى على أجسامهن لمجرد التسلية . وكان من ثمارها أن ظلت النساء طبقاً للقانون الإنجليزي العام — حتى منتصف القرن التاسع عشر تقريباً — غير معدودات من (الأشخاص) أو (المواطنين) ، الذين اصطح القانون على تسميتهم بهذا الاسم ، لذلك لم يكن لهم حقوق شخصية ، ولا حق في الأموال التي يكتسبونها ، ولا حق في ملكية شيء حتى الملابس التي كنّ يلبسوها . وكان من ثمارها أنه كان شائعاً في بريطانيا حتى نهاية القرن العاشر قانون يعطى الزوج حق بيع زوجته وإعارتها بل وفي قتلها إذا أصيبت بمرض عضال.. بل إن القانون الإنجليزي لعام 1801 م وحتى عام 1805 حدد ثمن الزوجة بستة بنسات بشرط أن يتم البيع بموافقة الزوجة.. وقد حدث أن باع إنجليزي زوجته عام 1931 م بمخمسائة جنيه ، وقال محاميه في الدفاع عنه: (إن القانون الإنجليزي عام 1801 م يحدد ثمن الزوجة بستة بنسات بشرط أن يتم البيع بموافقة الزوجة) ، فأجابت المحكمة بأن هذا القانون قد ألغى عام 1805 م بقانون يمنع بيع الزوجات أو التنازل عنهن ، وبعد المداولة حكمت المحكمة على بائع زوجته بالسجن عشرة سنوات.)
وكان من ثمارها أن أصدر البرلمان الإنجليزي قراراً في عصر هنرى الثامن ملك إنجلترا يحرم على المرأة أن تقرأ (العهد الجديد) ، لأنها تعتبر نجسة..

قالت الدكتوراة أيرين: أتدرين يا صديقتنا (بيتو) سر تلك التصريحات والتشريعات التي وردت في المسيحية؟
قالت بيتو: لاشك أنها أهواء المستبدين والظلمة ألبسوها بالدين وخططوها به.
قالت الدكتوراة أيرين: لقد بحثت في ذلك .. وقد وجدت أن الكنيسة وقبلها اليهود تأثروا بما كانت عليه الشعوب المختلفة من تعاملهم مع المرأة ونظرهم لها ..
فقد كانت **المرأة عند الشعوب البدائية** حين تبلغ طور المراهقة، تُعزل فلا تكلم أحداً غير أمها، ولا تكلمها إلا بصوت خفيض ، كما أن الولد إذا وصل إلى مرحلة البلوغ يأخذونه ليغتسل في بعض العيون المقدسة ، وذلك لكي يخلص من روائح الأنوثة التي علقت به من مصاحبته لأمه.

وكانت **المرأة عند الهنود القدماء** تعتبر مخلوقاً نجساً .. ولم يكن للمرأة في شريعة مانو حق في الاستقلال عن أبيها أو زوجها أو ولدها ، فإذا مات هؤلاء جميعاً وجب أن تنتمي إلى رجل من أقارب زوجها ، وهي بذلك قاصرة طيلة حياتها ، ولم يكن لها حق في الحياة بعد وفاة زوجها ، وكانت إذا مات عنها زوجها تُحرق مع جثته بالنار المقدسة ، بل إن بعض القبائل الهندية القديمة كانت لا تراها أهلاً لتُحرق مع جثة زوجها باعتبارها المخلوق النجس، ولذلك كانوا يرون دفنها حية أو حرقها بعد موت زوجها.. فإذا كان للرجل أكثر من زوجة دُفن جميعاً أو حُرقَ جميعاً.
وفي حياة الزوج كان له أن يُطلق الزوجة متى شاء وكيف شاء ، أما هي فليس لها الحق في أن تطلب الطلاق من زوجها مهما يكن من أمر الزوج ، حتى لو أصيب بأمراض تمنع من أهليته للحياة الزوجية.
وقد لقيت الحكومات الهندية أشد الفتن من مجتمعاتها ، خاصة من رجال الدين الهنود، حين حاولت القضاء على

مثل هذه العادات والتي استمرت تهضم حقوق المرأة وكيانها حتى القرن السابع عشر. وفي شرايع الهندوس أنه: (ليس الصبر المقدر ، والريح ، والموت ، والجحيم ، والسم ، والأفاعي ، والنار، أسوأ من المرأة)

ويذكر جوستاف لوبون أن المرأة في الهند (تُعدُّ بعلمها ممثلاً للآلهة في الأرض ، وتُعدُّ المرأة العرب، والمرأة الأيم، على الخصوص من المنبوذين من المجتمع الهندوسي، والمنبوذ عندهم في رتبة الحيوان، والمرأة الهندوسية إذا فقدت زوجها ظلت في الحداد بقية حياتها، وعادت لا تُعامل كإنسان، وعُدَّ نظرها مصدراً لكل شؤم على ما تنظر إليه، وعدت مدنسة لكل شيء تلمسه، وأفضل شيء لها أن تقذف نفسها في النار التي يحرق بها جثمان زوجها ، وإلا لقيت الهوان الذي يفوق عذاب النار)

أما في الصين، فقد كانت المرأة لا تقل مهانة أو مأساة عن بقية المجتمعات ، فكانت النظرة إليها واحدة ، ويظهر مدى امتهان المرأة في المثل الصيني الذي يقول: (إن المرأة كالكرة ، كلما ركلتها برجلك ارتفعت إلى أعلى) وشبهت المرأة عندهم بالمياه المؤلمة التي تغسل السعادة والمال ، وللصيني الحق في أن يبيع زوجته كالجارية، وإذا تزلت المرأة الصينية أصبح لأهل الزوج الحق فيها كإرث، وللصيني الحق في أن يدفن زوجته حية. أما المرأة الكلدانية، فقد كانت خاضعة خضوعاً تاماً لرب الأسرة ، وكان للوالد الحق في أن يبذل زوجته أو ابنته لسداد دينه ، وكانت المرأة تحتل وحدها الأعباء المنزلية ، فتذهب كل يوم لجلب الماء من النهر أو البئر ، وتقوم وحدها بطحن الحبوب بالرحى وإعداد الخبز ، كما تقوم بغزل ونسج وحياسة الملابس. وهذا كان حالها في الطبقات الفقيرة. أما في الطبقات الموسرة فكانت المرأة لا تخرج من منزلها ، بل يقوم على خدمتها في المنزل خدم وحشم. وأما نساء الملوك الكلدانيين فكان لا يُسمح لأحد برؤيتهم ولا التحدث إليهن أو حتى التحدث عنهن. وكان من حق الرجل طلاق زوجته متى أراد، أما المرأة فإذا أبدت رغبة في الطلاق من زوجها طُرحت في النهر لتغرق ، أو طردت في الشوارع نصف عارية لتعرض للمهانة والفجور.

وقد روى هيرودوت المؤرخ اليوناني القديم أن كل امرأة كلدانية كان عليها في مدينة بابل أن تذهب إلى الزهرة الإلهة (مليتا) ليواقعها أجنبي حتى ترضى عنها الإلهة، ولم يكن من حقها أن ترد من يطلبها كائناً من كان ، ما دام أول رجل يرمى إليها بالجماعة — المال المبدول والذي كان يُعتبر حينئذ مالاً مقدساً — ثم ترجع بعد ذلك إلى منزلها لتتظر الزوج.

وكانت إذا تزوجت ولم تحمل لفترة طويلة اعتبرت أما أصابها لعنة الآلهة أو أصابها مس من الشيطان فتصبح في حاجة إلى الرقى والطلاسم ، فإذا ضلت عاقراً بعد ذلك فلا بد من موتها للتخلص منها.

وهذا أقرب ما يكون للقانون اليهودي عند إصابة أحد بالمس فإنه يُقتل رجلاً كان أم امرأة: (وَإِذَا كَانَ فِي رَجُلٍ أَوْ امْرَأَةٍ حَانَ أَوْ تَابَعَةٌ فَإِنَّهُ يُقْتَلُ بِالْحِجَارَةِ يَرْجُمُونَهُ. دَمُهُ عَلَيْهِ) (لاووين 20: 27)

وكان معبد الإلهة (عشتروت) في بابل القديمة يمتلىء من العاهرات اللائي يتقدمن إلى زائري المعبد.. كما كان على كل امرأة أن تتقدم مرة على الأقل إلى معبد فينوس ليواقعها أي زائر في المعبد.. وكانت الفتيات من الصين واليابان وغيرهما من بلاد العالم يتقدمن إلى الكهنة في المعابد ، وكان من الشرف الكبير أن يواقعها الكاهن الذي هو ممثل الإلهة على الأرض، وكان هذا النوع من البغاء يُعرف بالبعاء الديني، وهو قريب من قول نيكولاولوس فون كليمانجيس (أحد

علماء اللاهوت وعميد جامعة باريس سابقاً: (أن تترهين المرأة اليوم فمعنى هذا أنها أسلمت نفسها للعاهرة) وقد سبقه في مثل هذا القول دوميريدجبر جايلر فون قيصربرج: (إن المرأة في الدير ليست إلا عاهرة)

وقد شاع المثل الشعبي في العصور الوسطى القائل: (من لفت رأسها، عرت بطنها، وهذه عادة كل الراهبات) وقد اقترح أوجستين عام 388 قانوناً يمنع أن يدخل شباب على الراهبات أما العجائز المُسنَّات فيسمح لهم بالدخول حتى البهو الأمامي فقط من الدير، ولأن الراهبات كنَّ في حاجة إلى قسيس للصلاة بمن، فقد سمح القيصر جوستينيان فقط للرجال الطاعنين في السن أو المخضيين بالدخول إليهن والصلاة بمن. حتى الطبيب لم يُسمح له بالدخول إلى الراهبات وعلاجهن إلا إذا كان طاعناً في السن أو من المخضيين. وحتى المخضين ففقدوا الثقة فيهم، لذلك قالت القديسة باولا: (على الراهبات الهرب ليس فقط من الرجال، ولكن من المخضيين أيضاً)

وكان من يقتل بنتاً يُفرض عليه أن يقدم ابنته لأهل القتيلة يقتلوها أو بملكوها. وإذا لم يُشمر الزواج مولوداً خلال عشر سنين يُعتبر العقد فيه مفسوخاً. وكان للرجل حق قتل أولاده وبيعهم. ولم يحرم ذلك إلا في القرن الخامس قبل الميلاد. ولم تكن المرأة لتراث، فإذا لم يكن هناك ذكور من أسرة الموروث ورثوا الذكور من أسرة زوجته ولكن زوجته لا تراث.

أما عند اليونان .. فقد كانت المرأة مُحترمة مهانة، مثل أى سلعة تباع وتُشترى، مسلوقة الحقوق، محرومة من حق الميراث وحق التصرف في المال، بل أكثر من ذلك، فقد سموها رجساً، ولم يسمحوا لها إلا بتدبير شئون البيت وتربية الأطفال. وكان الرجل في أثينا يُسمح له أن يتزوج أى عدد يريد من النساء، بلا قيد ولا شرط. ومما يُذكر عن سقراط قوله: (إن وجود المرأة هو أكبر منشأ ومصدر للأزمة والانحيار في العالم، إن المرأة تشبه شجرة مسمومة، حيث يكون ظاهرها جميلاً، ولكن عندما تأكل منها العصافير تموت من فورها)

كما كان لزوجها الحق في بيعها وأن تظل عند المشتري فترة تحت التجربة، كما كان لزوجها الحق في قتلها إذا أهمت، ولو بمجرد النظر إلى شخص غريب ولا مسئولية عليه في ذلك، ومع هذا فإن له الحق في أن يزي في منزل الزوجية، وليس لزوجه حق الاعتراض، كما أن حق الطلاق مكفول له متى شاء وكيف شاء. ومع ذلك فإنها تظل بعد طلاقها منه مقيدة برأيه في زواجها لمن يريد. ويوصى عند موته بزواجها ممن يرضيه هو وليس لها أو لأحد من أهلها حق الاعتراض.

وتذكر الأساطير اليونانية أن المرأة هي سبب الأوجاع والآلام للعالم كله، وذلك لأن الناس في اعتقادهم كانوا يعيشون في أفراح ولا يعرفون معنى الألم ولا الحزن، ولكن حدث أن الآلهة أودعت أحد الناس صندوقاً وأمرته ألا يفتحه، وكان له زوجة تُسمى (باندورا) مازالت تغريه بفتحه حتى فتحه فانطلقت منه الحشرات. ومنذ تلك اللحظة أُصيب الناس بالآلام والأحزان. فلماذا كانت المرأة سبباً في الكوارث التي حلت بالبشرية كلها نتيجة لفضول المرأة وإغراء زوجها بالعصيان.

لعلكم تلاحظون شبهاً في هذه الرواية بما تحدث عنه سفر التكوين من إغواء حواء لآدم بالأكل من الشجرة الحُرمة بعد أن أغوَّها الحية: (فَرَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلْأَكْلِ وَأَنَّهَا بَهِيَّةٌ لِلْعُيُونِ وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ. فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ وَأَعْطَتْ رَجُلَهَا أَيْضاً مَعَهَا فَآكَلَ. .. فَقَالَ آدَمُ: الْمَرْأَةُ الَّتِي جَعَلْتَهَا مَعِيَ هِيَ أَعْطَتْني مِنَ الشَّجَرَةِ فَأَكَلْتُ) (تكوين 3: 6-12)

وكان أرسطو يعيب على أهل إسبرطة التهاون مع النساء ومنحهن بعض الحقوق ..
وكان سقراط يعزو سقوط إسبرطة إلى منحها الحرية للنساء على الرغم من أن هذه الحرية لم تنالها النساء إلا لانشغال الرجال الدائم في الحروب.

أما المرأة في إسبرطة فكانت تستمتع بحرية لا يُسمَحُ بها للرجل ، ولكنها حرة هي أقرب إلى الدعارة منها إلى الحرية، فكان لها أن تتزوج أكثر من رجل واحد في الوقت الذي كان يُحرَّمُ فيه على الرجل أن يتزوج من امرأة واحدة إلا في الحالات الضرورية جداً.

ومن الغريب أن يرى الفيلسوف اليوناني أفلاطون شيوعية النساء ، وإلغاء نظام الأسرة على أن تتكفل الدولة بتربية الأبناء.

ويحدثنا التاريخ عن اليونان في إدار دولتهم كيف فشت فيهم الفواحش والفجور ، وعُدَّ من الحرية أن تكون المرأة عاهراً ، وأن يكون لها عُشَّاق ، ونصبوا التماثيل للغوان والفاجرات ، وقد أفرغوا على الفاحشة ألوان القداسة بإدخالها المعابد ، حيث اتخذ البغاء صفة التقرب إلى آلهتهم ، ومن ذلك أنهم اتخذوا إلهاً أسموه (كيوبيد) أى (ابن الحب)، واعتقدوا أن هذا الإله المزعوم ثمره خيانة إحدى آلهتهم (أفروديت) لزوجها مع رجل من البشر.

ولم يكن يُسمَحُ بتعليم المرأة اليونانية الحرة ، إنما كان التعليم قاصراً على البغايا، حتى كان الرجل الذي يكره الجهل في المرأة يلجأ إلى البغي.

أما **عند البابليين** .. فقد كانت المرأة تُحسَبُ في قانون حمورابي من عداد الماشية المملوكة ، وكان تشريع بابل يعطى رب الأسرة حق بيع أسرته أو هبتهم إلى غيره مدة من الزمن ، وإذا طلق الزوج زوجته تُلقَى في النهر ، فإذا أراد عدم قتلها نزع عنها ثيابها وطردها من منزله عارية ، إعلاناً منه بأنها أصبحت شيئاً مُباحاً لكل إنسان. وقضت المادة 143 من قانون حمورابي أنها إذا أهملت زوجها أو تسببت في خراب بيتها تُلقَى في الماء. ومن قتل بنتاً لرجل كان عليه أن يُسلم ابنه ليقتلها أو يملكها أو يبيعها إن شاء.

وقد أعطى تشريع حمورابي للمرأة بعض الحقوق ، وإن كان هذا التشريع لم يمنع اتخاذ الخليلات إلى جانب الزوجات في الوقت الذي يقر فيه إفرادية الزوجة. وقد ظل هذا القانون يمنح الرجل السيادة المطلقة على المرأة ، وإن كان قد منح الزوجة حق الطلاق إذا ثبت إلحاق الضرر بها. أما إذا طلبت الطلاق ، ولم يثبت الضرر فُتَطْرَحَ في النهر ، أو يُقضى عليها بالحرق. كما أنها إذا نشزت عن زوجها بدون إشارة منه تُغرَق ، والمرأة المسرفة تُطَلَّقُ أو يستعبدها زوجها.

أما **المرأة الرومانية**، فقد كانت تُباع وتُشترى كأي سلعة من السلع ، كما أن زواجها كان يتم أيضاً عن طريق بيعها لزوجها. وكان لهذا الزوج بعد ذلك السيادة المطلقة عليها. ولم يكن يُنظر إلى المرأة كأثماً ذو روح بل كانت تُعتبر مخلوقاً بغير روح ، ولهذا كان يُحرَمُ عليها الضحك والكلام إلا بإذن.. كما كان بعضهم يُعالى أحياناً فيضع في فمها قفلاً من حديد ، كانوا يسمونه الموسيلير، وكانوا يجرمون عليها أحياناً أكل اللحوم كما كانت تتعرض لأشد العقوبات البدنية باعتبارها أداة للغواية وأحبولة من حبال الشيطان، وكان للرجل أن يتزوج من النساء ما يشاء ويتخذ من الخليلات ما يريد.

وكانت الزوجة تكلف بأعمال قاسية وكان من حق الزوج بيعها أو التنازل عنها للغير أو تأجيرها ، ولما اعتنق

الرومان المسيحية أصبح للزوجة الأولى بعض الميراث — أما بقية الزوجات فكنَّ يُعتبرن رقيقات. والأبناء منهن يُعاملن معاملة أبناء الزنا اللقطاء، ولذلك لا يرثون ويُعتبرون منبوذين في المجتمع.

ومن عجيب ما ذكرته بعض المصادر أن ما لاقته المرأة في العصور الرومانية تحت شعارهم المعروف (ليس للمرأة روح) تعذيبها بسكب الزيت الحار على بدنها، وربطها بالأعمدة، بل كانوا يربطون البرينات بذبول الخيول، ويسرعون بها إلى أقصى سرعة حتى تموت.

أما **المرأة العربية في الجاهلية**، فقد كانت تعدُّ جزءاً من ثروة أبيها أو زوجها. وكانوا في الجاهلية لا يرثون النساء ولا الصغير وإن كان ذكراً، وكان ابن الرجل يرث أرملة أبيه بعد وفاتها.. وكانوا يرثون النساء كرهاً، بأن يأتي الوارث ويلقى ثوبه على زوجة أبيه، ثم يقول: ورثتها كما ورثت مال أبي، إلا إذا سقت ابنها أو ابن زوجها بالهرب إلى بيت أبيها، فليس له أن يرثها. فإذا أراد أن يتزوجها تزوجها بدون مهر، أو زوجها لأحد عنده وتسلم مهرها ممن تزوجها، أو حرّم عليها أن تتزوج كى يرثها بعد موتها¹.

وكان العرب في الجاهلية يمنعون النساء من الزواج، فالابن الوارث كان يمنع زوجة أبيه من الزواج، كى تعطيه ما أخذته من ميراث أبيه، والأب يمنع ابنته من الزواج حتى تترك له ما تملكه، والرجل الذى يُطلق زوجته يمنع مطلقته من الزواج حتى يأخذ منها ما يشاء، والزواج المبعوض لزوجته يسىء عشرتها ولا يطلقها حتى ترد إليه مهرها².

وكان الرجل إذا تزوج بأخرى، رمى زوجته الأولى في عرضها، وأنفق ما أخذه منها على زوجته الثانية، أو المرأة الأخرى التى يريد أن يتزوجها³.

وكانت المرأة تُعد متاعاً من الأمتعة، يتصرف فيها الزوج كما يشاء، فيتنازل الزوج عن زوجته لغيره إذا أراد، بمقابل أو بغير مقابل، سواء أقبلت أم لم تقبل. كما كانوا يتشاءمون من ولادة الأنثى، وكانوا يدفنونها عند ولادتها أحياء، خوفاً من العار أو الفقر.

وكان أحدهم إذا أراد نجابة الولد حمل امرأته — بعد طهرها من الحيض — إلى الرجل النجيب كالشاعر والفارس، وتركها عنده حتى يستبين حملها منه، ثم عاد بها إلى بيته، وقد حملت بنجيب!

قالت اللادي كوك: ليس الأمر قاصراً على تلك الشعوب البدائية المتخلفة .. إن هذه الحضارة المتعفنة تمارس من أساليب الإذلال للمرأة ما مارسته جميع الشعوب البدائية .. ولكنها تحتال لذلك بأنواع من الزخارف والطلاء لتموه به على الحقائق.

إن أخطر ما تمارسه هذه الحضارة هو إخراج المرأة عن فطرتها وعن وظيفتها التي هيئت لها ..

إنها ترمي بها في الشارع .. لتتحول البيوت بعدها خراباً ..

لقد قال العالم الإنجليزي (سامويل سمايلي) في كتابه (الأخلاق) ينبه إلى هذا الخطر الذي يهدق بالبيت والمرأة:

(1) وقد نص على تحريم هذا في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَجِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرَاهًا﴾ (النساء: 19)، فهذه الآية هت عن عادة الجاهلية من إرث الرجل نساء أقربائه.

(2) وقد حرم الإسلام هذه الأمور جميعاً بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ (النساء: 19)

(3) وقد حرم القرآن ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ (النساء: 20)

(إن النظام الذي يقضي بأن تشتغل المرأة في المعامل ودور الصناعات مهما نشأ عنه في الثروة، فإن النتيجة هادمة لبناء الحياة المنزلية، لأنه هاجم هيكل المنزل، وقوض أركان العائلة، وفرق الروابط الاجتماعية، لأن وظيفة المرأة الحقيقية هي القيام بالواجبات المنزلية، كترتيب مسكنها، وتربية أولادها، والاقتصاد في وسائل معيشتها، مع القيام بالاحتياجات العائلية، ولكن المعامل سلختها من كل هذه الواجبات بحيث أصبحت المنازل غير المنازل، وأضحى الأولاد يشبون على غير التربية الحقيقية، لكونهم يلقون في زوايا الإهمال، وأطفئت المحبة الزوجية، وخرجت المرأة عن كونها الزوجة الظريفة والقرينة المحبة للرجل، وصارت زميلته في العمل والمشاق، وباتت عرضة للتأثيرات التي تمحو غالباً التواضع الفكري والخلقي الذي عليه مدار حفظ الفضيلة)

وقد صرحت إحدى أساتذة الجامعات في بريطانيا وهي تودع طالباتها بعد أن قدمت استقالتها: (ها أنا قد بلغت سنّ الستين من عمري، ووصلت فيها إلى أعلى المراكز، نجحت وتقدّمت في كل سنة من سنوات عمري، وحققت عملاً كبيراً في نظر المجتمع، لقد حصلت على شهرة كبيرة وعلى مال كثير، ولكن هل أنا سعيدة بعد أن حققت كل هذه الانتصارات!؟)

ثم تجيب نفسها، فتقول: (لا، إن وظيفة المرأة الوحيدة هي أن تتزوج وتكوّن أسرة، وأي مجهود تبذله بعد ذلك لا قيمة له في حياتها بالذات)

أذكر أن بعض الباحثين قام على امتداد سنتين بمسح ميداني للعائلة الغربية، تتنقل فيه بين مختلف البلاد الأوروبية وعبر الأطلسي إلى الولايات المتحدة وكندا، ليعود بعدها بجعبته المليئة بالأصوات التي تحذر من اتجاه العائلة الغربية نحو الانقراض¹.

سكنت قليلاً، ثم قالت: لقد كانت لي صديقة اسمها (ميريام كورفي)، وهي امرأة هولندية، وأم لثلاثة أطفال قالت لي: (زوجي يعمل من الثامنة صباحاً وحتى السادسة مساءً، وأنا أعمل من الثامنة صباحاً حتى الواحدة ظهراً، أعتقد أننا في حالة مادية معقولة، ونسكن في شقة جيدة، ويبدو أن هذا لا يكفي، فثمة تشققات هائلة داخل العائلة، لكأننا من عالم مختلف تماماً عن عالم أطفالنا، أنا وزوجي نجتز بعض الحنين السابق وبعض التفاؤل السابق، الأمر لأطفالنا مغاير جداً، قد أكون محظنة لكنني أشعر بحدس الأم، إن أطفالنا ملوثون بآس خاص، أعتقد أنه استوطن بقوة في اللاوعي. إنني لا أفهم الدافع لذلك، فهم يتابعون دروسهم في مدرسة متفهمة، كما أنهم يشاهدون التلفزيون كل مساء.

لقد سألت أحد الأصدقاء وهو أستاذ في علم النفس عن هذه الحالة، فأجاب: إن ملاحظتي هذه مجرد خيال، وإن الأطفال في صحة حضارية جيدة، كلمة (حضارية) هذه هي التي أفرغتها، فأنا أعتقد أن أولادي ككل الأولاد الآخرين يعانون حصاراً ما، إنني لا أفهم، كل ما أستطيع أن أقوله هو أن الحنان الذي أقدمه لأطفالي لا يكفيهم على ما يبدو، لا يمكنني أن أقدم أكثر من ذلك، وأعتقد أننا نبنى جيلاً سيكرهنا بالضرورة)

(1) جمع هذه الأصوات مع تحليل وافٍ لها (أوديل) في كتاب أطلق عليه عنوان (أنقذونا) .. وتلك الأصوات عبارة عن حوارات قصيرة أجراها المؤلف مع نساء وأطفال وآباء وأجداد حول طبيعة علاقة كل واحد منهم بأفراد عائلته الآخرين، والأصوات السعيدة كانت نادرة جداً، بل واستثنائية.

بعد أن انتهت النسوة من حديثهن مما ذكرت لك بعضه، فلم أحفظ جميع ما قالوا، التفتن إلى (مريم هاري)، وقلن: ها قد بنا بما عندنا .. فهل توبحين لنا بما عندك؟ .. ما سر لجوئك إلى الإسلام؟ .. ألم تسمعي كل تلك الضجة التي أثّرت حوله .. وحول موقفه المتشدد من المرأة؟

قالت: بلى .. لقد سمعت بذلك .. بل كنت في يوم من الأيام أحد تلك الأصوات .. بل أحد تلك الأصوات الشديدة .. لقد كنت عضواً في مؤامرة لم يكن لها من هدف سوى أن ترمي دين محمد ﷺ بالغلظة والقسوة والجفاء. وقد استعملت في ذلك الأساليب المختلفة إلى أن جاء اليوم الذي أبصرت فيه الحقيقة .. سأقص عليكم القصة من البداية ..

لقد رأيت بعد مشاورات طويلة أن خير ما يمكن أن يؤثر على المدى القريب والبعيد في توفير أي قناعة للرأي العام هو المؤتمرات التي نصفها بالعلمية .. فقراراتها وتوصياتها كقرارات المجمع المقدسة وتوصياتها .. ولذلك عملت مع الثلة التي معي على عقد مؤتمر في هذه البلاد يدور حول حقوق المرأة .. وكيف هضمها الإسلام ..

بعد تحضيرات طويلة بدأ المؤتمر ..

لقد تعمدنا أن نبدأ بالمراسيم التي تعود المسلمون أن يبدأوا بها مؤتمراتهم، فكلفنا قارئاً أن يقرأ نصوصاً من القرآن الكريم، انتقيناها له بدقة، فقرأ القارئ — وقد شغله جمال صوته عن الآيات التي انتقيناها له — قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ (النساء: من الآية 34)، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَأَهْرَجُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ (النساء: من الآية 34)، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ (النساء: من الآية 3)

ثم تلوناه بخطيب مصقع زاد من صوته ما نقص من عقله، فقدم خطبة نزلت على قلوبنا كالماء البارد .. لقد بدأ خطبته بقوله: الحمد لله الذي فضل الذكر على الأنثى، فقال: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ مِثْلِ الْأُنثِيَّيْنَ﴾ (النساء: من الآية 11)، وقال: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى ..﴾ (36) ﴿آل عمران﴾

ثم أخذ يتحدث عن ضرورة طاعة المرأة لزوجها .. يأتي لذلك بما صح وما ضعف من الأخبار والآثار .. ثم يضيف إليها من تحليلاته ما ملأ قلوبنا فرحاً وسروراً .. وكان من جملة ما قال: (إن تعليم النساء يفسد أخلاقهن، فإن المرأة التي لا تقرأ ولا تكتب تكون بعيدة عن متناول شياطين الإنس، فإن القلم كما لا يخفى أحد اللسانين، فيعدم معرفتها للقراءة والكتابة تأمن شر هذا اللسان ويضرب الحجاب المتين عليها تأمن شر اللسان الثاني، فيتم لها الأمن. وكم رأينا من متعلمات لم يأتهن الشر إلا من قبل تعلمهن، وهذا في زمان الإسلام والعفاف والأنفة العربية، وأما في هذا الزمان فقد بلغ السيل الزبي، واتسع الخرق على الراقع. فإن معرفة الفتاة للقراءة توصل إلى ذهنها جميع ما يقع في الدنيا من الفساد والمخادنة وتملاً فكرها بمواجس حبيثة كانت في عافية منها)

وكان من جملة الأحاديث التي رواها حديث عرفت بعد ذلك أنه لا يصح عن رسول الله ﷺ، وهو أن رجلاً خرج وأمر امرأته أن لا تخرج من بيتها، فمرض أبوها، فاستأذنت النبي ﷺ، فقال لها: أطيعي زوجك فمات أبوها فاستأذنت منه ﷺ في حضور جنازته فقال لها: أطيعي زوجك فأرسل إليها النبي ﷺ: (إن الله قد غفر لأبيها بطاعتها

لزوجها)¹

لقد كان ما ذكره في خطبته كافية لتحقق كل الشار التي رجوناها ..
ولكننا لم نكتف بها .. لقد طعمناها بالمحاضرات التي أعدناها بدقة مؤيدة بالإحصاءات وأقوال الخبراء في كل المجالات.

انتهت الفترة الصباحية من اليوم الأول بنجاح لتبدأ الفترة المسائية، والتي خصصناها لبعض الشهادات انتقيناها انتقاء، حيث سمعنا لامرأة تشكو زوجها، وأخرى تشكو أباه، وأخرى تشكو نظرة المجتمع إليها .. وقد كان لشهاداتهم من التأثير النفسي في الحاضرين أكثر من كل المحاضرات المقدمة، فقد تعمدا أن نختار نساء غزيرات الدمع، حلول الحديث، قدرات على التلاعب بالعقول.

كان لهذا اليوم أن ينجح نجاحا لا نظير له، وكان له أن يترك تأثيره العميق في علاقة الناس بمحمد وبالإسلام لولا أن حدثت المفاجأة التي لم نكن نحسب لها أي حساب.

كانت هناك عجز جالسة في الكراسي الخلفية للقاعة، ومعها أفراد من أسرتها، لم نكن نهتم بها، ولا نأبه لها، بل كنا نتصور أنها — في حال فهمها لما يدور في المؤتمر — ستكون أول الناس تأثرا بما نقول، وأنها ستأسف على عمرها الذي قضته، وهي مهانة لا كرامة لها، ولا حقوق تناولها.

رفعت يدها بأدب لتتحدث كما تحدث سائر الشاهدات، فلم تجد رئيسة الجلسة بدا من الإذن لها، فلم تكن تتصور أنها بحديتها ستسخ كل ما قيل من أحاديث.

قالت العجز: لقد تحدثت جميعا .. وكلكم صبيتم ما تملكونه من غيظ وحقد على محمد ودين محمد .. وأنا الآن أفق بينكم لا كمحامية على هذا الدين، ولا على تلك الشمس التي أنارت برحمتها العالمين، فالشمس أرفع من أن تحتاج من يدافع عنها .. ولكنني أفق كشاهدة على واقع عشته في ظل رجال استناروا بأشعة محمد ﷺ.

نعم لقد قرأ القارئ، وتحدث الخطيب، وهؤلاء المساكين شغلهم جمال أصواتهم عن النور الذي جاء به محمد ﷺ، فلم يتفقهوا في دينه، ولم يتعلموا من هديه، فلم يعبروا إلا عن الظلام الذي ترقد فيه أرواحهم.

وتحدثت النسوة .. وهؤلاء لا أكذبهن، ولكن ما حصل لهن من عناء ثمة للبعد عن محمد ودين محمد، وفي إمكانكم أن تسألوهن عن هؤلاء الرجال الذين أهانوهن .. وسترون أنهم لا علاقة لهم بمحمد ولا دين محمد.

(¹) رواه الطبراني في الأوسط وفيه عصمة بن المتوكل وهو ضعيف، مجمع الزوائد: 313/4.
وقد قلنا تعليقا عليها في كتاب (الحقوق المادية للزوجة) من سلسلة (فقه الأسرة برؤية مقاصدية): (و لم يضعف سندا لضعف عقلا وشرعا، فإن أي مؤمن يعرف رسول الله ﷺ وما جبل عليه من رحمة حتى سماه ربه رؤوفا رحيفا يحيل عليه ﷺ أن يفعل ذلك، بل تنزيهه من ذلك كتزويده من المعاصي وما ينفر مما هو من خصائص الأنبياء — عليهم السلام —
والعجب أن مثل هذا الحديث يردد على المنابر، ويتناقله العامة الذي لا يحفظون حديثنا صحيحا واحدا، مع أن آثاره الواقعية لا يمكن حصر خطرها، فهو كمن ضرب مائة عصفور بحجر واحد، فهذا الحديث الواحد ضربت سماحة الإسلام وشوهدت رحمة رسول الله ﷺ التي هي أخص خصائصه ولسان رسالته، وشوهدت معها شخصيته ﷺ، وتمردت المرأة على الرجل، بل تمردت على الأحكام الشرعية نفسها، وتجبر الرجل، وضاعت الحقوق، فإننا لله وإنا إليه راجعون، فلماذا نرى أن يلزم أولياء الأمور من المسلمين الأئمة وغيرهم تجنب رواية مثل هذه الأحاديث الموضوعية والضعيفة التي لا تخدم الإسلام بقدر ما تخدم الخرافة والجهل وتمكن للضلال والانحراف)

ساد القاعة صمت رهيب شجع العجوز على مواصلة حديثها، فقالت: أنتم تتحدثون عن المرأة، وقد مررت بجميع مراحل المرأة التي تمر بها، كنت بنتا، ثم زوجة، ثم أما، ثم ها أنا الآن بينكم عجوز طاعنة في السن. فلذلك سأكون ممثلة لجميع النساء .. فاسمحوا لي - أنا التي مررت بجميع هذه المراحل - أن أذكر لكم كيف كان يعاملني الرجال الذين استناروا بأشعة محمد، واهتدوا بهديه.

أقول لكم هذا لنخرج من التعميم الخاطئ الذي تقعون فيه .. فأنتم تتحدثون عن المرأة، وكأنها كائن من المريخ، مع أنها بينكم، وهي لا تخرج عن المراحل التي ذكرتها، فإن كنتم أردتم استماع الحقيقة من منابعها، فاسمعوا لي .. وإن أبيتم إلا أن تنتقوا في سماعتكم فأذنوا لي في الجلوس.

لم تجد رئيسة الجلسة بدا من الإذن لها .. فقد كنا نحب أن نظهر بمظهر الديمقراطية والحرية. صمت الجميع، وبدأت العجوز تتحدث بلسان عذب فصيح .. قالت: ليكون كلامي علميا دقيقا .. فسأذكر لكم أربع قيم نشرها الإسلام في المسلمين .. يمكن من خلالها أن تفسر كل المعاملات التي عامل بها الإسلام المرأة .. كل هذه القيم رحمة ولطف وشفقة وعدالة ..

أما الأولى .. فهي **المساواة**

وأما الثانية .. فهي **الكرامة**

وأما الثالثة .. فهي **الصيانة**

وأما الرابعة .. فهي **الرعاية**

1 - المساواة

قال الجمع: فحدثنا عن الأولى .. حدثنا عن المساواة.
قالت: اسمحو لي أن أحدثكم عن تجربتي معها .. أنا رابعة أخواتي .. ولم يرزق والدي غيرنا .. فلم يكن له إلا البنات.. ولذلك، فقد سماني (رابعة)¹
قالت لها إحدى الحاضرات: إذن كنت شؤما في البيت.
قالت: لا .. لقد استنار والدي بأشعة محمد فكسفت جميع الظلمات التي نشرتها الجاهلية .. لقد حدثني أمي عن الفرحة العظيمة التي كانت تبدو على ملامح أبي حينما ولدت ..
وقد ذكرت لي ما قال لها حينما ولدت، لقد قال لها: إن الله وهب لنا هذه البنت لتكون جوازا لنا إلى الجنة، فقد بشرنا ﷺ بالجراء العظيم الذي ناله من تربية البنات، فقال: (من كانت له بنت، فأدبها فأحسن أدبها، وعلمها فأحسن تعليمها، وأسبغ عليها من نعم الله التي أسبغ عليه كانت له سترا أو حجبا من النار)²
و جاء في الحديث عن عائشة قالت: جاءتني امرأة ومعها ابنتان لها، فسألته فلم تجد عندي غير تمر واحدة، فأعطيتها إياها فأخذتها فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها شيئا، ثم قامت فخرجت وابتناها، فدخل علي النبي ﷺ فحدثته حديثها، فقال النبي ﷺ: (من ابتلي من البنات بشيء فأحسن إليهن كن له سترا من النار)³
ففي هذا الحديث إخبار بأول جزاء يناله من رزق إناثا، فأحسن إليهن، وبرهن، وهو أن هؤلاء البنات يقفن حجبا بينه وبين النار.
بل ورد ما هو أكثر من ذلك .. ففي الحديث قال ﷺ: (لا يكون لأحد ثلاث بنات أو ثلاث أخوات أو بتتان أو أختان فيتقي الله فيهن ويحسن إليهن إلا دخل الجنة)⁴
وفي حديث آخر قال ﷺ: (من كان له ثلاث بنات، فصبر على لأوائهن وضرائهن وسرائهن، أدخله الله الجنة برحمته إياهن)، فقال رجل: واثنان يا رسول الله؟ قال: (واثنان). قال رجل: يا رسول الله، وواحدة؟ قال: (وواحدة)⁵
وفي حديث آخر قال ﷺ: (من كانت له أنثى فلم يدها ولم يهونها، ولم يؤثر ولده - يعني الذكور - عليها، أدخله الله الجنة)

(1) أشير به إلى (رابعة العدوية) وهي رابعة بنت إسماعيل العدوية، أم الخير، مولاة آل عتيك، البصرية، صالحة مشهورة، من أهل البصرة، ومولدها بها.

لها أخبار في العبادة والنسك، ولها شعر.. ومن كلامها: (اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم) توفيت بالقدس، قال ابن خلكان: (وقبرها بزار، وهو بظاهر القدس من شرقه، على رأس جبل يسمى الطور) وقال: (وفاتها سنة 135 كما في شذور العقود لابن الجوري، وقال غيره سنة 185).

(2) رواه أبو نعيم .

(3) رواه مسلم.

(4) رواه أبو داود.

(5) رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق.

بل ورد ما هو أعظم من ذلك كله، فقد قال ﷺ: (من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو)¹، وضم أصابعه .. وهذا أعظم جزاء تهفو إليه قلوب المؤمنين.

قالت إحدى الحاضرات: ولكن .. ورد في بعض الأحاديث التي سقتها التعبير عبر عن هبة الإناث بألها من البلاء.. أليس ذلك احتقارا للأُنثى؟

قالت: لا .. معاذ الله .. كل ما في الدنيا بلاء سواء كانت منحاً أو محناً .. والبلاء لا يعني إلا الاختبار، والله يختبر بالنعمة، ويختبر بالنعمة .. ألم تسمعي قوله تعالى: ﴿ وَنَبَلَّوْكُمْ بِالْبَشْرِ وَالْخَيْرِ فَتَنَّا وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (الانبيا: من الآية 35)؟ .. فالبلاء قد يكون خيراً، وقد يكون شراً.

بل عبر الله تعالى عن نعمة الأموال والأولاد بألها من الفتنة والبلاء، قال تعالى: ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (الأنفال: 28)، وقال تعالى معبراً بصيغة الحصر: ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (التغابن: 15)

قالت إحدى الحاضرات: فلماذا لا يكون هذا من الابتلاء بالنعمة.

قالت العجوز: لأن الله عبر عنها بالهبة، فقال تعالى: ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ (الشورى: 49 — 50) فقد عبر القرآن الكريم عن عن إعطائه الإناث بصيغة الهبة، مسويًا لهم في ذلك مع الذكور.

بل إن الله تعالى قدم الإناث في الذكر على الذكور، ليبين أن رحمته بإعطاء الأُنثى قد تكون أعظم من رحمته بإعطائه الذكور²، لمن عرف كيف يتعامل مع هبة الله.

وفي التعبير بالهبة دلالة أخرى لها أهميتها الواقعية، وهي أن الكثير من العامة يتصورون أن جنس المولود سببه الأم، ولذلك قد يطلق الرجل امرأته إن ولدت له إناثاً، فرد الله تعالى بأن جنس المولود هبة منه لا علاقة له بأحدهما. وفي التعبير دلالة أخرى أعمق من ذلك كله لتعلقها بالجنس البشري جميعاً، وهو أن الأمر لو ترك للأهواء لانقرض الجنس البشري من زمن بعيد، لأن الأهواء قد تميل بحسب (الموضة) إلى جنس معين مما ينشأ عنه اختلال التوازن الذي يحفظ النوع، ولذلك كان هذا هبة من الله لا اختياراً من البشر.

قالت إحدى الحاضرات: ولكن ألم تسمعي ما ورد في القرآن من الحديث عن ولادة مريم، فقد جاء فيها: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ ﴾ (آل عمران: من الآية 36)، فاعتبر الذكورة خيراً من الأنوثة؟

(1) رواه مسلم.

(2) من الأسرار التي ذكرها العلماء لتقديم الأُنثى على الذكر في الآية:

1. حبراً لمن لأجل استئصال الوالدين لمكافئ.
2. إنما قدمهن لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاء لا ما يشاء الأيوان فان الأيوين لا يريدان إلا الذكور غالباً وهو سبحانه قد أخبر أنه يخلق ما يشاء فبدأ بذكر الصنف الذي يشاء ولا يريد الأيوان، وهذا أحسن من الذي قبله.
3. أنه سبحانه قدم ما كانت تؤخره الجاهلية من أمر البنات حتى كانوا يثدوهن « أي هذا النوع المؤخر عنكم مقدم عندي في الذكر » وقد ذكر هذا الوجه ابن القيم واختاره.

قالت العجوز: يا ابنتي هذا فهم خاطئ لكتاب الله .. فأنت تحملين الآية ما لا تحمل .. هل قالت الآية: (الذكر خير من الأنثى) أم قالت: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾
 قالت المرأة: بل قالت: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾
 قالت العجوز: فالآية تعبر عن حقيقة .. فالذكر مختلف في نواح كثيرة عن الأنثى .. والعدالة والرحمة تقتضي أن يعامل كل جنس بما تقتضيه طبيعته.

وفي قول أم مريم دلالة على هذا، فقد نذرت هذه المرأة الصالحة مولودها لخدمة المسجد، فلما رآته أنثى لا تصلح لهذه الخدمة اعتذرت إلى ربها من وجودها لها على خلاف ما قصدته فيها.

ثم كيف يفهم من كلام الله هذا، وهو الذي اعتبر تسخط البنات من الجاهلية، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (النحل: 58 — 59)

فلايات الكريمة تصف رجلا قد ترسخت فيه قيم الجاهلية وتصورتها حتى ملأت صدره ظلمة ، انبعث منها سواد كالح غمر وجهه.

وبما أن عقله قد حجب في تلك اللحظة عن النظر للحقيقة التي يرشد إليها القرآن الكريم ، ويمتلئ بجمالها قلب المؤمن، بل تركه لتصورات المجتمع تنقش فيه ما تشاء ، فإن تلك التصورات جعلته إنسانا سلبيا منكمشا على نفسه كظيما يكره أن يراه الناس، وكأنه قد أجرم جرما عظيما يخاف عقابه.

وهو في تلك اللحظة التي غرق فيها في بحر السواد والظلام يعيش بصحبة الشيطان الذي يملئ عليه ما سيفعله ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ (النحل: من الآية 59)

وفي كلا الحالين يرضى الشيطان الذي زين له هذه التصورات ثم عذبه بها ، فهو إن قتل تحمل حرم قتلها ، وإن أمسكها أبقاها مهانة لا يورثها ولا يعتني بها، ويفضل أولاده الذكور عليها، وبذيقها فوق ذلك من العذاب النفسي ما يفوق قتله لها.

بهذه الصورة ترسم الآيات الكريمة كيفية استقبال الجاهلي للأنثى ، وهي لا تصفه واقعا جغرافيا أو تاريخيا، وإنما تصف حالة نفسية قد تعرض في أي زمان ولأي شخص لا زال فيه حظا من الجاهلية.

قالت إحدى الحاضرات: إنك تصفين واقعا لا واقع الجاهلية.

قالت العجوز: هذا واقع جاهلي .. والجاهلية قد تدخل المجتمع المسلم لتشوه صورة الإسلام فيه ..

قالت إحدى الحاضرات: فكيف نفرق بين سلوك الجاهلية والسلوك الذي حض عليه الإسلام؟

قالت العجوز: بالرجوع إلى هدي محمد ﷺ، والاستئارة بأشعته.

قالت إحدى الحاضرات: فكيف كان هدي محمد مع بناته؟

قالت العجوز: لقد كان ﷺ محبا لبناته عظيم الرحمة هن:

لقد كان ﷺ يقول عن فاطمة — رضي الله عنها —: (فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها أغضبتني)¹

(¹) رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

وكان يقول فيها: (فاطمة بضعة مني، يقبضي ما يقبضها، ويسطني ما يسطها، وإن الأنساب تنقطع يوم القيامة غير نسي وسي وصهري)⁽¹⁾

وكانت إذا دخلت على أبيها رحب بما وقام إليها فأخذ بيدها فقبلها وأجلسها في مجلسه.
وعن أبي قتادة قال: بينما نحن على باب رسول الله ﷺ جلوس إذا خرج علينا رسول الله ﷺ يجمل أمامة بنت أبي العاص بين الربيع، وأمها زينب بنت رسول الله ﷺ وهي صببية فصلى وهي على عاتقه، يضعها إذا ركع ويعيدها على عاتقه إذا قام، حتى قضى صلاته⁽²⁾

وقد كان هذا المهدي الكريم نراسا لكل من استنار بأشعة محمد ﷺ، قال صالح بن أحمد: كان أبي إذا ولد له ابنة يقول: (الأنبياء كانوا آباء بنات) ويقول: (قد جاء في البنات ما قد علمت)

وقال يعقوب بن بختان: (ولد لي سبع بنات فكنت كلما ولد لي ابنة دخلت على أحمد بن حنبل، فيقول لي: يا أبا يوسف الأنبياء آباء بنات) فكان يذهب قوله همي.

وعن أبي ظبية قال: مرض عبد الله مرضه الذي توفي فيه، فعاده عثمان بن عفان، فقال: ما تشتهي؟ قال: ذنوبي، قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي، قال: ألا أمر لك بطبيب؟ قال: الطبيب أمرضني، قال: ألا أمر لك بعطاء؟ قال: لا حاجة لي فيه، قال: يكون لبناتك من بعدك، قال: أتخشى على بناتي الفقر؟ إني أمرت بناتي يقرأن كل ليلة سورة الواقعة، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً)⁽³⁾

أندرون أيها السادة في أي مجتمع كانت هذه التعاليم؟
لقد كانت في مجتمع ينظر إلى البنات نظرة احتقار وازدراء ومهانة .. لقد كان العرب كما كان غيرهم يتشائمون بميلاد البنات، ويضيقون بهم، حتى قال أحد الآباء - وقد بشر بأن زوجته ولدت أنثى - : (والله ما هي بنعم الولد، نصرها بكاء، وبرها سرقة) .. يريد أنها لا تستطيع أن تنصر أباه وأهلها إلا بالصراخ والبكاء لا بالقتال، ولا أن تبرهم إلا بأن تأخذ من مال زوجها لأهلها.

وكانت التقاليد المتوارثة عندهم تبيح للأب أن يبد ابنته .. يدفنها حية .. خشية من فقر قد يقع، أو من عار قد تجلبه حين تكبر على قومها .. وقد أنكر القرآن الكريم هذا إنكارا شديدا، فقال مقرعا لهم: ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ (التكوير: 8 - 9)

وكانت بعض الشرائع القديمة تعطي الأب الحق في بيع ابنته إذا شاء .. وكان بعضها الآخر، كشرعية حمورابي، تجيز له أن يسلمها إلى رجل آخر ليقتلها، أو يملكها إذا قتل الأب ابنه الرجل الآخر .

ولهذا كان القرآن الكريم وكان هدي محمد ﷺ هو النور الوحيد الذي وقف مع البنات يدافع عنهن ويحميهن، فقال في القتلة الذين لا يتورعون عن قتل أولادهم إنائاً كانوا أو ذكوراً: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَهْوًا بَعِيرٍ عِلْمٍ وَحَرَمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (الأنعام: 140)، وقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ

(1) رواه البخاري ومسلم.

(2) رواه البخاري.

(3) رواه ابن عساکر وأبو يعلى، وقال بعده: فكان أبو ظبية لا يدعها.

حَشِيَّةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِن قَتَلْتَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (الاسراء:31)

ولم يكتف بذلك، بل وضع منهاجا متكاملا لتربية البنات والإحسان إليهن، وضرب نموذجا للتربية الصالحة وثمراتها. بحريم العذراء — عليها السلام — التي تلقت تربية صالحة جعلتها من سيدات نساء العالمين ، بل أخبر الله تعالى أنه اصطفاها وطهرها واصطفاها على نساء العالمين ، وقد كانت أمها عندما حملت بما تمنى أن تكون ذكراً يخدم الهيكل ، ويكون من الصالحين ، كما قال تعالى : ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (آل عمران:35)

ولكن الله تعالى وهب لتلك الأم بتلك الفتاة الطاهرة أعظم مما تمت، لأن أمنيتها كانت مجرد خادم يخدم الهيكل ، فإذا بها ترزق بالصديقة أم المسيح ، قال تعالى : ﴿وَأُمُّ صَدِيقَةَ﴾ (المائدة: من الآية75) صاحبت امرأة من الحاضرات: فهنما ما قلت أيتها العجوز .. ولكن ألم يقل القرآن : ﴿يُؤْصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ (النساء: من الآية11)، فأبي عدل هذا الذي يعطي الذكر ضعف الأنثى¹ ؟ قالت العجوز: هذا عدل الله .. فالله يعطي لكل شخص ما يتناسب مع حاجته .. هل الرضيع يأكل ما يأكله الكبير؟

قالت المرأة: لا .. وما علاقة هذا بما نحن فيه.

قالت العجوز: لأن معدة الرضيع وجهازه الهضمي لا يطبق ما يطبق الجهاز الهضمي للكبير .. بالإضافة إلى أن حاجة الرضيع من الطعام تجعله في غنى عن كثير مما يأكله الكبير.

قالت المرأة: هذا صحيح .. فهل تعتبرين المرأة رضيعا .. والرجل هو الكبير؟

قالت العجوز: نعم .. من استناروا بأشعة محمد ﷺ يعتبرون المرأة في هذه الناحية كالرضيع .. فهم لا يكلفونها بالسعي على رزقها، ولا بالعمل للوفاء بمتطلبات حياتها .. فهي تعيش في كنف والديها، أو قوامه زوجها، فإذا لم يبق لها واحد من هؤلاء كلفت جماعة المسلمين بالإفناق عليها.

فما حاجتها بعد ذلك للمال؟ .. وهل ترون الرضيع ينتفع بالمال إذا ما أعطي له؟

ثم إن الشريعة التي فضلت الابن في العطاء هي الشريعة التي كلفتها بالإفناق على أخته، وهي التي كلفتها بدفع المهر

(¹) قام بعض الأفاضل باستقراء حالات ومسائل الميراث، ومقارنة نصيب المرأة بالرجل فيها، فاستخلص ما يلي:

- 1 — إن هناك أربع حالات فقط ترث فيها المرأة نصف الرجل.
 - 2 — وهناك حالات أضعاف هذه الحالات الأربع ترث فيها المرأة مثل الرجل تماما.
 - 3 — وهناك حالات عشر أو تزيد ترث فيها المرأة أكثر من الرجل.
 - 4 — وهناك حالات ترث فيها المرأة ولا يرث نظيرها من الرجال.
- أى أن هناك أكثر من ثلاثين حالة تأخذ فيها المرأة مثل الرجل ، أو أكثر منه ، أو ترث هي ولا يرث نظيرها من الرجال ، في مقابلة أربع حالات محددة ترث فيها المرأة نصف الرجل. انظر: د. صلاح الدين سلطان (ميراث المرأة وقضية المساواة) ص 10 ، 46 ، طبعة القاهرة ، دار نهضة مصر سنة 1999م — (سلسلة في التنوير الإسلامى)
- مع ملاحظة مهمة، وهي أن هذه التقسيمات بحسب مذهب جماهير الفقهاء ما عدا فقهاء الإمامية .. أما الإمامية فلهم في كثير من مسائل الميراث أحكام خاصة، وهي أقرب إلى المساواة والعدالة التي جاء بها الإسلام من مذاهب الجمهور، ونحن نرجحها بهذا الاعتبار، ولنا فيها مؤلف خاص من سلسلة (موسوعة الفقه المقاصدي) تحت عنوان (أحكام الموارث برؤية مقاصدية)

لمن يريد الزواج منها .. فهل تكلفه بكل هذا، ثم لا تجعل له من الحقوق ما يفي بما تتطلبه هذه الواجبات.

فلنترك كل هذا، ونسأل الواقع .. هل يتساوى الناس في أجورهم؟

قالت المرأة: لا .. بل يختلفون.

قالت العجوز: بأي درجة يختلفون؟

قالت المرأة: قد يصل الاختلاف إلى الأضعاف المضاعفة.

قالت العجوز: فواقعكم الذين تدعوننا للالتزام به يقع فيما تحذروننا منه.

قالت المرأة: نعم .. ولكن الوظائف مختلفة في يسرها ومشقتها.

قالت العجوز: إني أرى أن أكثر الوظائف يسرا أكثرها أجرا .. أليس كذلك؟

قالت المرأة: صحيح هذا ..

قالت العجوز: فتعلموا العدل أولاً .. ثم استدركوا على الله ما تريدون أن تستدركوا عليه.

نفض بعض الشباب الحاضرين، وقال: اسمحوا لي أن أتحدث .. فما تذكرونه الآن يتعلق بي لقد مات أبي، وتركتني

مع أخت لي، وقد ترك لنا ثروة مقدارها مائة وخمسين ألف دينار .. نعم هي ثروة ضخمة .. أخذت منها ضعف أختي

أي أنني أخذت مائة، بينما لم تأخذ أختي إلا خمسين.

بعد استلامنا الإرث تقدمت أنا للزواج .. وخطبت أختي .. أما أنا فقد كنت ملزماً بأن أدفع مهراً وهدايا

لخطيبي .. وقد كان مقدارها خمسة وعشرين ألفاً .. فلم يبق من تركتي إلا خمسة وسبعين ألفاً

أما أختي، فقد جاءها مهر وهدايا بنفس ما مهرت وأهديت أنا لخطيبي .. فصارت تركتها مثلي تماماً ..

ثم إن أختي لن تصرف من مالها شيئاً إلا ما تريده لزيبتها .. أما أنا فإني مكلف بالإنفاق على زوجتي ..

وها هي أختي حاضرة، وهي تشهد على ما أقول.

نفضت الأخت، وقالت: صدق أخي .. وأنا لا أنظر إلى هذا من الزاوية التي تنظرون إليها .. لقد جاء محمد ﷺ

إلى قوم لا يعترفون بالمرأة ولا يورثونها، بل يورثونها تورث كما يورث المتاع، فأكرمها، وأعطاه كل الفضل .. فكيف

تُهينون الشريعة التي حققت كل هذه العدالة؟

صاحت امرأة من الحاضرات: فهمنا هذا ووعيناه .. ولكن ألا ترين أن من الجور أن تعتبر **دية المرأة نصف دية**

الرجل .. أليس ذلك احتقاراً لها وإهانة .. أليس ذلك تشجيعاً على ممارسة العدوان عليها؟

ابتسمت العجوز، وقالت: سأجيبك عن هذا من جهتين: الجهة الأولى جهة الموقف الحقيقي للشريعة من المسألة ..

والجهة الثانية هي ما يمكن تسميته بالإجابة الجدلية .. والتي تنطلق من صحة ما ذكرته من شبهة.

أما **الجهة الأولى**¹ .. فالآية التي أثبتت مشروعية الدية في القرآن الكريم، شملت بإجماع الفقهاء والمفسرين الرجل

(1) استفدنا المعلومات الواردة هنا من بحث للباحث مصطفى عبد الصياصنة بعنوان (دية المرأة، في ضوء الكتاب والسنة: تمام دية المرأة، وتحافت دعوى التنصيف)، وقد قال هذا الباحث: (من دراستنا الموسعة والمستفيضة، لمسألة دية المرأة في الكتاب والسنة، والآثار الواردة عن بعض أفراد الصحابة والتابعين، إضافة إلى معالجتنا لطبيعة دعوى الإجماع والقياس، بخصوص هذه المسألة، فإننا نستطيع القول — وبكل الاطمئنان والثقة — : إن دية المرأة على مثل دية الرجل سواء بسواء وذلك لتضافر الأدلة والمرجحات، التي تؤكد هذه الحقيقة) (دية المرأة، في ضوء الكتاب والسنة: 145)

والمرأة على حد سواء، ولم تفرق بينهما بشيء .. فالله تعالى قال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ (النساء: 92)

ومثل ذلك ما ورد في السنة المطهرة حديث واحد صحيح صريح، يدل على تصنيف دية المرأة. أما ما احتجوا به من حديث معاذ بن جبل، الذي يقول: (دية المرأة على النصف من دية الرجل)، فقد حكم العلماء بضعفه¹.

ومثل ذلك الآثار الواردة عن الصحابة فليس فيها أثر واحد صحيح صريح، ينص على أن دية المرأة على النصف من دية الرجل.

أما ادعاء الإجماع على تصنيف دية المرأة، فإنما هو مجرد دعوى لا أكثر، إذ هو منقوض بعدم وجود نقل صحيح ثابت عن حصول مثل هذا الإجماع، ومتى كان ومن كان .. بالإضافة إلى تعذر إجماع الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ وفي أواخر العصر الأول على شيء من ذلك، لكثرتهم — أولاً — ولتفرقتهم في الأمصار المتباعدة — ثانياً — ولصعوبة الاتصال بهم — ثالثاً —

بالإضافة إلى أنه تبين لنا أنه لم يثبت عن بعض أفراد الصحابة أنهم قالوا بذلك، فكيف يمكن إذن أن يقال باجتماعهم جميعاً عليه؟

أما دعوى انعقاد إجماع العلماء على تصنيف دية المرأة، فليس ذلك صحيحاً .. فابن حزم ومن معه من أتباع المدرسة الظاهرية يقولون بمساواة دية المرأة بدية الرجل في النفس والأعضاء .. لأن الأحاديث الصحيحة التي وردت في الدية، إنما جاءت شاملة للرجال والنساء دون تمييز، وكذلك الأحاديث الواردة في الجراحات: (وفي النفس المؤمنة مئة من الإبل، وفي العين خمسون وفي اليد خمسون، وفي الرجل خمسون)

فإذا كان الرجل يقتل بالمرأة، ويقاد بها عيناً بعين، وأذنًا بأذن، وسناً بسن، ويقتص لها منه في كل الجراحات فما الذي يمنع من أن تكون ديتها كديته؟

لقد قال بعض العلماء المعاصرين² يؤكد هذا: (وأما الدية فليس فيها حديث متفق على صحته، ولا إجماع مستيقن، وإذا لم يصح حديث في القضية يحتج به، فكذلك لم يثبت فيها إجماع .. بل ذهب ابن علي والأصم — من فقهاء السلف — إلى التسوية بين الرجل والمرأة في الدية، وهو الذي يتفق مع عموم النصوص القرآنية والنبوية الصحيحة وإطلاقها. ولو ذهب إلى ذلك ذاهب اليوم، ما كان عليه من حرج .. وهو ما ذهب إليه شيخنا الشيخ محمود شلتوت في كتابه (الإسلام عقيدة وشريعة) قال تحت عنوان (دية الرجل والمرأة سواء): (وإذا كانت إنسانية المرأة من إنسانية

وقد لخصنا باختصار وتصرف بعض ما ذكره من أدلة هنا.

(1) قال في نصب الراية في تخرجه: (روي هذا اللفظ موقفاً على علي، ومرفوعاً إلى النبي ﷺ؛ قلت: أما الموقوف، فأخرجه البيهقي عن إبراهيم عن علي بن أبي طالب، قال: (عقل المرأة على النصف من عقل الرجل في النفس، وفيما دونها) .. وقيل: إنه منقطع، فإن إبراهيم لم يحدث عن أحد من الصحابة، مع أنه أدرك جماعة منهم؛ وأما المرفوع، فأخرج البيهقي أيضاً عن معاذ بن جبل، قال: قال رسول الله ﷺ: دية المرأة على النصف من دية الرجل .. قال: وروي من وجه آخر عن عبادة بن نسي)

(2) هو الشيخ يوسف القرضاوي.

الرجل، ودمها من دمه، والرجل من المرأة، والمرأة من الرجل، وكان (القصاص) هو الحكم بينهما في الاعتداء على النفس، وكانت جهنم والخلود فيها، وغضب الله ولعنته، هو الجزاء الأخروي في قتل الرجل، فإن الآية في قتل المرأة خطأ، هي الآية في قتل الرجل خطأ. ونحن ما دمنا نستقي الأحكام أولاً من القرآن، فعبارة القرآن في الدية عامة مطلقة لم تخص الرجل بشيء منها عن المرأة قال تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ (النساء:92) .. وهو واضح في أنه لا فرق في وجوب الدية بالقتل الخطأ بين الذكر والأنثى)

هذه هي الجهة الأولى .. وهي الجهة الأساسية المعتمدة.

وأما الجهة الثانية¹ .. فأبلؤها من أن ما يتخوف منه من الاستهانة بدم المرأة لا مبرر له، لأن عقوبة القتل تنفذ في قتل الرجل والمرأة على السواء .. فتقتل المرأة بالرجل، ويقتل الرجل بالمرأة مع أنها امرأة وهو رجل، وذلك لأن المسلمين — ذكوراً وإناثاً — سواء في الإنسانية، ولهذا تتكافأ دماؤهم، كما قال ﷺ: (المؤمنون تتكافأ دماؤهم، وهم على يد من سواهم، ويسعى بذمتهم أدناهم)

بالإضافة إلى هذا، فينبغي أن تعلموا أن الشريعة حرصت على دماء المرأة أكثر من حرصها على دماء الرجل .. فقد منع الإسلام قتل المرأة — مسلمة كانت أو غير مسلمة — وأمر بعدم التعرض لها، إذ جاء النهي عن قتلها عند الغزو، فقد روي أنه وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله ﷺ فنهى عن قتل النساء والصبيان، وقال ﷺ: (لا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً ولا امرأة)²

وقد بالغ الإسلام في حفظ حياة المرأة وإن كانت مشركة، حتى قال مالك والأوزاعي: (لا يجوز قتل النساء والصبيان بحال، حتى لو تترس أهل الحرب بالنساء والصبيان، أو تحصنوا بحصن أو سفينة وجعلوا معهم النساء والصبيان لم يجز رميهم ولا تحريقهم)

بالإضافة إلى هذا، فينبغي أن تعلموا أن المرأة في الشريعة لا تكلف — مقابل تنصيف ديتها إن فرضنا ذلك — بالمساهمة في أداء الدية إلى أهل القتل، بل تكلف بما العاقلة من الرجال، والغريب أن هذا الحكم يسري حتى لو كانت هي القاتلة بخلاف الرجل، فإن القاتل كأحدكم.

بالإضافة إلى هذا، فينبغي أن تعلموا أن المرأة التي أعفيت من أداء الدية تتشارك مع العاقلة في الإرث! فترث من دية قريبها المقتول.

بالإضافة إلى هذا، فينبغي أن تعلموا أن الدية ليست تقديراً لقيمة المقتول الإنسانية إنما هي تعويض مادي لا معنوي لأهل القتل جزاء ما لحق بهم من ضرر مادي، ونظراً لأن الرجل هو المعيل والمنفق على الأسرة فإن ديته تتضاعف على دية المرأة.

(1) استفدنا هذه المحادثة من مقال لعابدة فضيل المؤيد، المصدر: موقع مؤسسة البلاغ.

(2) رواه أبو داود.

2 - الكرامة

قالت إحدى الحاضرات: يمكنك أن تقولي هذا وغيره .. ولكننا لا نقصد الجوانب النفسية وحدها بل نقصد الحياة.. ألم يجعل محمد مستقبل البنت وحياتها بيد أبيها .. فهو وليها أمرها الذي يفترض عليها طاعته في المنشط والمكروه؟

قالت العجوز: سامحك الله يا ابنتي .. لقد أسأت إلى محمد ﷺ أعظم إساءة .. وأنا أعذرک في ذلك، فالجاهلية التي قد تتسمى بالإسلام، والبدعة التي قد تتلبس لباس السنة هي التي تشوه نور محمد وجمال هديه.
أما محمد ﷺ وهديه فهو خلاف ذلك تماما ..

فهو لا يعطي للأب الذي هو أولى الأولياء بولاية ابنته أي سلطة على بناته سوى سلطة التأديب والرعاية والتهديب الديني والخلقي، مثل إخوانها الذكور، فيأمرها بالصلاة إذا بلغت سبع سنين، ويضربها عليها إذا بلغت عشراً، ويلزمها أدب الإسلام في اللباس والزينة والخروج والكلام، وينفق عليها حتى تتزوج.

قالت المرأة: نحن لا نناقش في هذا .. ولكننا نناقش في ولاية الزواج.

قالت العجوز: لقد كان ﷺ يطل زواج من أجزرها أبوها. من لا ترضاه، وقد روي أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إن أبي زوجني من ابن أخيه، وأنا لذلك كارهة، فقال لها ﷺ: (أجزري ما صنع أبوك)، فقالت: (ما لي رغبة فيما صنع أبي)، فقال ﷺ: (أذهبي فلا نكاح لك .. انكحي من شئت)، فقالت: (أجزت ما صنع أبي، ولكني أردت أن يعلم النساء أن ليس للأباء من أمور بناقم شيء)¹، ولم ينكر عليها رسول الله ﷺ مقالتها.
قالت المرأة: لقد خصص الفقهاء ذلك بالثيب².

قالت العجوز: لقد حملوا النصوص ما لا تحتمل .. فالنبي ﷺ لم يسأل هذه المرأة .. أهى بكر أم ثيب .. بل ورد في حديث آخر عن ابن عباس أن جارية بكرا أتت النبي ﷺ فذكرت له أن أباه زوجها كارهة فخيرها النبي ﷺ، قال ابن القيم: (وهذه غير حسناء، فهما قضيتان قضى في إحداهما بتخير الثيب، وقضى في الأخرى بتخير البكر)³
قالت امرأة من الحاضرات: ولكن ألم تسمعي بالولاية الجبرية⁴ ؟

قالت العجوز: ليست الولاية كما تفهمين يا ابنتي .. وليست كما يمارسها بعض الجهلة .. إنما مثل توكيل أي شخص المحامين الذي يحفظون له حقوقه .. فلو ترك الأمر للمرأة وحدها لأهينت، وربما احتال عليها من شاء من الناس.. فلذلك وكل الأمر لوليها، لا ليجزرها على الزواج. من لا ترضى، ولا ليعضلها عن ترضى، ولكن ليوقف حائلا بينها وبين من يريد العبت بها.

وقد كانت عائشة، وهي زوج النبي ﷺ إذا هوى الفتى من بني أختها الفتاة من بني أخيها ضربت بينهما سترا

(1) رواه أحمد والنسائي.

(2) تناولنا جميع هذه المسائل بتفصيل في كتاب (الضوابط الشرعية لحماية الزواج) من سلسلة (فقه الأسرة برؤية مقاصدية)

(3) زاد المعاد: 95/5.

(4) وهي الولاية التي تمكن صاحبها من إنشاء عقد الزواج استقلالا دون تدخل من المولى عليه، وقد أطلق عليها بعض

الفقهاء (ولاية استبدادية) لاستبداد الولي فيها إنشاء العقد دون مشاركة من المولى عليه.

وتكلمت ، فإذا لم يبق إلا النكاح قالت: يا فلان ، أنكح ، فإن النساء لا ينكحن¹ .
فالولاية بهذا لا تختلف عن توكيل المحامين الذين يحفظون الحقوق، وليس للمحامي أن يستبد، فيأخذ الحق من أهله.

قالت المرأة: أنت تحالفين الفقهاء بهذا.

قالت العجوز: لا ... كل من استنار بأشعة محمد ﷺ يقول هذا .. لقد سئل الشعبي عن رجل زوج أختنا له بواسطة فكرهت قال: هي أحق بنفسها فقبل له: إنه أخواها لأبيها وأمها قال: هي أحق بنفسها من أبيها إذا كرهت.

قالت المرأة: والأعراف التي نعيش في ظلها، والتي ألجأتنا إلى التبرئ من محمد ودين محمد؟
قالت العجوز: تبرأ من أعراف الجاهلية لا من محمد ودين محمد .. ثم أخبرني يا من تحررتن عن حماية الآباء ماذا أعطت لكن هذه الحرية ..

لقد كانت المرأة في بيتها ملكة يتهاافت الخطاب عليها .. وهي مصونة في سترها ممتلئة كرامة .. ولكنها الآن تعرض نفسها على الرجال .. فيعبثون بها كما شاعوا ثم يرمونها إلى المزابل.

قال رجل من الحاضرين: صدقت يا أماه .. كنت في بريطانيا التي تمثل قمة من قمم هذه الحضارة .. فاسمحي لي أن أعرض لك بعض مشاهداتي فيها² .. لقد كنت أستغرب عند بداية إقامتي فيها أن المرأة هي التي تنفق على الرجل، وكنت أشاهد هذه الظاهرة عندما أركب القطار أو أدخل المطعم، إذ ليس في قاموس الغربيين شيء اسمه (كرم) .. وبعد حين زال هذا الاستغراب ، وأخبرني المرضى عن أسباب هذه الظاهرة ، وفهمت منهم بأن الرجل لا يجب الارتباط بعقد زواج، ويفضل ما أسموه [صديقة]، والمرأة تسميه [صديقاً] ، وليس هو أو هي من الصدق في شيء .. والصديق عندهم يعيش مع امرأة شهوراً أو سنين، ولا ينفق عليها ، بل هي تنفق عليه في معظم الحالات ، وقد يغادر البيت متى شاء، أو قد يطلب منها مغادرة بيته ، إن كانت تعيش معه في بيته ، ولهذا فالمرأة عندهم تعيش في قلق وخوف شديدين ، وتخشى أن يرتبط صديقها بامرأة ثانية ويطردها، ثم لا تجد صديقاً آخر .

وسأضرب لكم مثلاً على ذلك ببعض مريضاتي التي كانت تزورني في عيادتي النفسية .. لقد كانت امرأة في العشرينات من عمرها ، وكانت حالتها النفسية منهارة ، وبعد حين من الزمن شعرت بشيء من التحسن، وأصبحت تتحدث عن وعي، فسألته عن حياتها، فأجابت والدموع تنهمر من عينيها، قالت: (مشكلتي الوحيدة أنني أعيش بقلق واضطراب، ولا أدري متى سينفصل عني صديقي، ولا أستطيع مطالبته بالزواج مني، لأنني أخشى من موقف يتخذه، ونُصحت بالعمل على إنجاب طفل منه، لعل هذا الطفل يرغب في الزواج، وها أنت ترى الطفل، كما أنك تراني ولا ينقصني جمال، ومع هذا وذاك فأبذل كل السبل من تقديم خدمات وإنفاق مال، ولم أنجح في إقناعه بالزواج، وهذا سر مرضي، وسبب قهري أنني أشعر بأنني وحدي في هذا المجتمع، فليس لي زوج يساعدني على أعباء الحياة، ولي أهل ولكن وجودهم وعدمه سواء ، وليتني بقيت بدون طفل؛ لأنني لا أريد أن يتعذب ويشقى في هذه الحياة كما تعذبت

(1) المصنف: 276/3.

(2) د . عبد الله مبارك الخاطر، من مقال يحمل عنوان (مشاهداتي في بريطانيا — المرأة الغربية والزواج)، مجلة البيان ، عدد:

6 ، شوال: 1407 ، ص: 59.

وشقيقت)

التفت لبعض المحاضرات، فوجدت الدموع تسيل بغزارة من عيونهن، واصل الرجل حديثه قائلاً: لا تظنوا أيها السادة أن هذه المرأة المريضة من شواذ المجتمع الغربي .. إن الشواذ هناك هم الذين يعيشون حياة هادئة. قد تسألون عن سر ذلك .. والجواب — كما عشته — واضح:

إن هذا أثر من آثار فكرة الحرية الفردية وعلو شأنها حوالي منتصف القرن الماضي - بما تحمله تلك الكلمة من حق وباطل - فإن الوحدة الرئيسية للمجتمع لم تعد العائلة، بل صارت (الفرد) رجلاً كان أم امرأة .. ومن ثم .. وبعد أن تبدلت القيم والمفاهيم ، وشاعت الحرية - صارت المرأة لا تعني الزوجة أو الأم للرجل، بل زميلة العمل أو الصديقة والخليعة ، ولم يعد الرجل بحاجة إلى الزواج وإقامة العائلة كوحدة اجتماعية — في غالب الأحيان — فحاجاته الطبيعية ملباة دون مسؤوليات تلقى على عاتقه ، وهو حر في التنقل بين امرأة وامرأة ، كما أن المرأة حرة في التنقل بين رجل ورجل ، كما تقتضيه دفعة الجسد العمياء.

وهذا كله جر عواقب وخيمة على المجتمع الغربي الذي يراد نسخ كل مجتمعات العالم على نمطه: من أول العواقب كثرة العوانس بين الفتيات والعزاب من الشباب .. وذلك لتيسر إرواء غليل الشهوات من الطرق المحرمة بغير تحمل تبعة الزواج وبناء الأسرة، متمتعين في نفس الوقت بلذة التنوع ، دون التقيد بالحياة المتشابهة المتكررة كما يزعمون، وكان من نتيجة ذلك وجود كثرة هائلة من الفتيات ، تقضى شبابها محرومة من زوج تسكن إليه ويسكن إليها ، إلا العابثين الذين يتخذونها أداة للمتعة الحرام ، ويقابل هؤلاء الفتيات كثرة من الشباب العزاب المحرومين من الحياة الزوجية.

وقد دلت على ذلك أحدث الإحصاءات ، فقد صرح مدير مصلحة الإحصاء الأمريكية في 22 من ذي القعدة 1402 هـ (الموافق 10 سبتمبر - أيلول - 1982 م) : أنه لأول مرة منذ بداية هذا القرن تصبح أغلبية سكان مدينة سان فرانسيسكو من العزاب .

وأوضح (بروس شامبمان) في مؤتمر صحفي نظمته الجمعية الاجتماعية الأمريكية أنه وفقاً لأرقام آخر تعداد فإن 53 بالمائة من سكان سان فرانسيسكو غير متزوجين، وأعرب عن اعتقاده بأن هذه الأرقام يمكن أن تكون مؤشراً على أفول النموذج العائلي التقليدي.

وأضاف شامبمان : إن هذه التغييرات الاجتماعية ملائمة لتحقيق الرفاهية في المدينة التي زاد عدد سكانها من الشباب بين 25 و 34 سنة بمقدار (40,4 بالمائة) خلال العشر سنوات الأخيرة وقال : إن التعداد لم يشمل عدد المصابين بالشدوذ الجنسي الذين يقطنون المدينة والذين يشكلون 15 بالمائة من السكان تقريباً .

ولا عجب بعد ذلك أن نقرأ في الصحف مثل هذا الخبر: (خرجت النساء السويديات في مظاهرة عامة ، تشمل أنحاء السويد ، احتجاجاً على إطلاق الحريات الجنسية في السويد ، اشتركت في المظاهرة (100 000) امرأة ، وسوف يقدمن عريضة موقعة منهن إلى الحكومة، تعلن العريضة الاحتجاج على تدهور القيم الأخلاقية.

ومن عواقب ذلك الانحلال الأخلاقي .. ففي أمريكا والسويد وغيرهما من بلاد الحرية الجنسية ، أثبتت الإحصاءات أن السعار الشهواني لم ينطفئ بحرية اللقاء والحديث ، ولا بما بعد اللقاء والحديث، بل صار الناس كلما ازدادوا منه عباً ، ازدادوا عطشاً ، فالأرقام والوقائع التي تفيض بها الإحصاءات والتقارير ، هي التي تتكلم وتبين في هذا

قال الرئيس كينيدي في تصريح مشهور له ، تناقلته الصحف ووكالات الأنباء عام 1962 : (إن الشباب الأمريكي مائع مترف منحل ، غارق في الشهوات ، وإن من بين كل سبعة شبان يتقدمون للتجنيد يوجد ستة غير صالحين ، بسبب اهمالكهم في الشهوات) ، وأنذر بأن هذا الشباب خطر على مستقبل أمريكا .

وفي كتاب لمدير مركز البحوث بجامعة هارفارد بعنوان (الثورة الجنسية) يقرر المؤلف ، أن أمريكا سائرة إلى كارثة في الفوضوية الجنسية ، وأنها تتجه إلى نفس الاتجاه، الذي أدى إلى سقوط الحضارتين الإغريقية والرومانية في الزمن القديم ، ويقول : (إننا محاصرون من جميع الجهات بتيار خطر من الجنس ، يغرق كل غرفة من بناء ثقافتنا، وكل قطاع من حياتنا العامة)

وقد نتج عن هذا كثرة الأبناء غير الشرعيين ، فقد قامت بعض المؤسسات في أمريكا ، بعمل إحصاء للحيالي من طالبات المدارس الثانوية ، فكانت النسبة مخيفة جداً ، ولننظر ما تقوله بعض الإحصاءات بهذا الصدد حيث تقول : (إن أكثر من ثلث مواليد عام 1983 في نيويورك هم أطفال غير شرعيين ، أي أنهم ولدوا خارج نطاق الزواج ، وأكثرهم ولدوا لفتيات في التاسعة عشرة من العمر وما دونهما ، وعددهم (112,353) طفلاً أي 37 بالمائة من مجموع مواليد نيويورك)

ويقول الدكتور شوفيلد في كتابه الأمراض الجنسية : لقد انتشر تساهل المجتمع تجاه كافة الممارسات الجنسية ولا يوجد أي إحساس بالخجل من الزنا واللواط أو أي علاقة جنسية شاذة أو محرمة ، بل إن وسائل الإعلام جعلت من العار علي الفتي والفتاة أن يكون محصنا ، إن العفة بالنسبة للرجل أو المرأة أصبحت في المجتمعات الغربية مما يندي له جبين المرء ، إن وسائل الإعلام تدعو وتحث علي الإباحية باعتبارها أمراً طبيعياً بيولوجياً ، ويرى كثير من الخبراء أن أهم ثلاثة عوامل لانتشار الأمراض الجنسية هي الإباحية وانتشار استخدام حبوب الحمل والمضادات الحيوية.

هذا ما يقوله خبراءؤهم لقد انتشرت الفاحشة بين القوم من الزنا واللواط والشذوذ الجنسي وارتضوها سلوكاً لهم بل وتفاخروا بها وأعلنوا عنها وروجوا لها وأقاموا لها منتديات ونقابات وتظاهروا من أجل الحفاظ علي محازيهم فيها بل وأنشئوا لها الصحف والمجلات ومنابر الإعلام وأقاموا لها النوادي والشواطئ وقرى العراة لمزيد من الدعاية والإعلان والظهور ، لقد كتبت مئات المقالات والكتب والمسرحيات والقصص والأفلام التي تمجد البغاء والعلاقات الجنسية الشاذة ، وقد أصبح الجنس ووسائل منع الحمل تدرس للأطفال في المدارس.

ولكي ندرك حجم انتشار الزنا والإباحية في هذه المجتمعات نلنظر إلي من يفترض فيهم أنهم يعلمونهم العفة ويتسامون بأخلاقهم ففي إحصائيات نشرتها الديلي ميل : أن ما يقرب من 80 بالمائة من الرهبان والراهبات ورجال الكنيسة يمارسون الزنا، وأن ما يقرب من 40 بالمائة منهم يمارسون الشذوذ الجنسي أيضاً.

ومن عواقب ذلك استبدال الزواج الشرعي الطبيعي بالزواج المثلي كبديل عن الأسرة التقليدية .. فقد أخذ الشذوذ الجنسي ومخالفة الفطرة في الزواج طريقه عبر التشريعات والقوانين .. فقد أباحت كثير من الكنائس الغربية الزنا واللواط ، بل يتم عقد قران الرجل علي الرجل علي يد القسيس في بعض كنائس الولايات المتحدة.

وقد انتشر الشذوذ الجنسي انتشاراً ذريعاً في المجتمعات الغربية ؛ فقد سنت الدول الغربية قوانين تبيح الزنا والشذوذ طالما كان بين البالغين دون إكراه ، وتكونت آلاف الجمعيات والنوادي التي ترعي شئون الشاذين جنسياً ،

وتقول دائرة المعارف البريطانية إن الشاذين جنسيا خرجوا من دائرتهم السرية إلى الدائرة العلنية وأصبح لهم نواديبهم وباراتهم وحدائقهم وسواحلهم ومساجدهم وحتى مراحيضهم ، وتقدر الإحصائيات عدد الشاذين في الولايات المتحدة الأمريكية منذ أكثر من عشرين عاما بحوالي عشرين مليوناً من الشواذ ، ومما زاد الطين بلة اعتراف الكنيسة بتمثل هذه الممارسات الشاذة من الزنا واللواط ، فقد اعترفت رسمياً بأن المخاللة والمخادنة أمر لا تعترض عليه الكنيسة حتي قال أحد الكرادلة في بريطانيا إن الكنيسة الإنجليكانية ستعترف عما قريب بالشذوذ الجنسي ، وأنه لا يمانع شخصياً أن يصير الشاذ قسيساً ، وذلك بعد هجوم شنته مجلة لوطية تصدر في بريطانيا علي الدين المسيحي لأنه يحرم الشذوذ الجنسي .

3 _ الصيانة

بعد أن شهد الرجل شهادته، ساد صمت رهيب القاعة، قطعتة امرأة سافرة، نهضت، وقالت: لقد كان أبي أحسن الناس خلقاً، وأعظمهم تدبناً .. ولكنه مع ذلك اضطرني إلى الفرار من بيتي اضطراراً .. لقد كان يفرض علي الحجاب .. فأأي دين هذا الذي يلزم المرأة بأن تلبس ما يستر محاسنها؟ .. وأي نبي هذا الذي يتدخل في الشؤون الخاصة للناس؟

التفتت إليها العجوز، وقالت: ما تقولين في ابنتي في الطبيب الذي يحذر من طعام معين مبينا خطره على الصحة .. هل هو مصيب في ذلك .. أم أنك تريه يتدخل في حياة الناس الشخصية ليمنعهم مما تشتبهه نفوسهم من الشهوات؟ قالت المرأة: إن أثبت الدراسات والتجارب صحة ما يقوله فله الحق في ذلك. قالت العجوز: فالأمر في اللباس لا يختلف عنه في الطعام .. فكلاهما من الشؤون الشخصية .. ولكن من الشؤون الشخصية ما يكون صالحاً نافعاً، ومنها ما يكون ضاراً. قالت المرأة: لا أزال لا أفهم ما تقصدين. قال العجوز: لتفهمي هذا يا ابنتي ينبغي أن تعلمي أن الحجاب الذي دعا إليه الإسلام ليس إلا مفردة من مفردات نظام العفة الذي جاء به.

لاشك أنك ككل إنسان فاضل تدرकिन قيمة العفة، وأنها خلق من أخلاق الإنسان الرفيعة .. وأن المجتمع الفاضل هو المجتمع الذي تسوده العفة.

إن هذا فطرة في كل نفس إنسانية فاضلة ..

فإن كنت لا توفقين بهذا، أو تشكين فيه .. فلاشك أنك لا تقبلين من زوجك أن يخونك .. ولا تقبلين من ابنتك أن تصبح لعبة بين أيدي المنحرفين .. ولا ترضين لنفسك قبل ذلك وبعده أن تدنس سمعتك أو يتكلم أحد في عرضك، أو يتخذك أحد من الناس مطية لشهواته، ثم يرميك دون اهتمام أو مبالاة. ما دمت لا تقبلين هذا .. فإن هذا لا يعني إلا شيئاً واحداً هو أنك تؤمنين في قرارة نفسك بضرورة وجود نظام يحفظ للعفة وجودها الواقعي .. ويحفظ لها كذلك استمرارها ودوامها.

ونظام العفة كأى نظام يلجم الرغبات الجارحة للنفوس يحتاج بعض القيود ..

هو نفسه النظام الذي يجعلنا ننتقي ما نأكله حتى لا تصبح شهوات نفوسنا مصايد لنا ..

قالت المرأة: فحدثينا عن نظام العفة الذي جاء به الإسلام وعلاقته بالحجاب¹ ..

قالت العجوز: لا يمكنني في هذا المجلس أن أحدثك عن كل التفاصيل المرتبطة بهذا .. ولكنني سأقرأ عليك آيات من القرآن الكريم تبين السياق الذي ورد فيه الأمر بالحجاب .. وستدرकिन من خلالها لم جعلت الشريعة الحجاب جزءاً من منظومة العفاف التي يقوم عليها المجتمع المسلم.

قال تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا

(1) تحدثنا في الرسائل الماضية عن أجزاء كثيرة من هذا النظام .. وراجع بعض المقارنات في هذا خصوصاً في رسالة (ثمار من شجرة النبوة) من هذه السلسلة.

يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (26) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (27) إِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (28) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (29) قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنْ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ بَعْضُهُنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (31) وَأَنْكَحُوا الْأَيَّامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (32) وَلَيْسَتَعَفِيفَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُعْهِمَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرَهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لَبْتُغُو عَرْضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ لِلَّهِ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (33) ﴿النور﴾

هذه الآيات الكريمة تتحدث عن المحامع التي يقوم عليها نظام الإسلام للعبة¹ ..

ومقصد التشريعات الإسلامية يبدو من خلالها واضحا جليا .. فهي لا تعتمد على العقوبة في إنشاء المجتمع النظيف ، إنما تعتمد قبل كل شيء على الوقاية .. وهي لا تحارب الدوافع الفطرية، ولكن تنظمها وتضمن لها الجو النظيف الخالي من المثيرات المصطنعة .

والفكرة السائدة في منهج التربية الإسلامية في هذه الناحية ، هي تضييق فرص الغواية، وإبعاد عوامل الفتنة ؛ وأخذ الطريق على أسباب التهييج والإثارة، مع إزالة العوائق دون الإشباع الطبيعي بوسائله النظيفة المشروعة . .

ومن هنا اعتبرت الآيات الكريمة للبيوت حرمة لا يجوز المساس بها ؛ فلا يفاجأ الناس في بيوتهم بدخول الغرباء عليهم إلا بعد استئذانهم وسماحهم بالدخول ، خيفة أن تطلع الأعين على خفايا البيوت، وعلى عورات أهلها وهم غافلون .. ذلك مع غض البصر من الرجال والنساء ، وعدم التبرج بالزينة لإثارة الشهوات.

ومن هنا كذلك ييسر الزواج للفقراء من الرجال والنساء، فالإحصان هو الضمان الحقيقي للاكتفاء . . وينهى عن تعريض الرقيق للبعاء كي لا تكون الفعلة سهلة ميسرة ، فتغري بيسرها وسهولتها بالفحشاء.

قالت المرأة: أنا مقتنعة بكل ما ذكرته الآيات عن التشريعات المرتبطة بالاستئذان وغيره، فهي تشريعات حضارية لا تنكرها الفطر السليمة .. ولكن الذي تنكره هو الحجاب ..

قال العجوز: لا بأس .. سألتمس لإقتناعك أسلوبا آخر .. أنا أعلم أن الحديث عن الحجاب في عصرنا الذي سَمَّوه عصر السفور والحرية، ليس حديثاً ساراً حيث يتصوّه الكثير أسطورة تعود لعصور حلت .. إلا أن الفساد الذي لا حدّ

(¹) رجعنا في استنباط الكثير من المعاني المرتبطة بالآيات وعلاقتها بالموضوع إلى (الظلال) لسيد، بالإضافة إلى (الأمثل)

له، والمشاكل المتزايدة والناجمة عن هذه الحريات التي لا قيد لها ولا حدود، أدى بالتدرج إلى إيجاد الأذن الصاغية لهذا الحديث:

أولا .. لا شك أنك تعلمين أن سفور النساء وما يرافقه من تجميل وتدلل — وما شاكل ذلك — يحرك الرجال ويحطم أعصابهم، وتراهم قد غلب عليهم الهياج العصبي، وأحيانا يكون ذلك مصدراً للأمراض النفسية، فأعصاب الإنسان محدودة التحمل، ولا تتمكن من الإستمرار في حالة الهيجان؟

ألم يقل أطباء علم النفس بأن هذه الحالة من الهيجان المستمر سبب للأمراض النفسية؟
خاصة إذا لاحظنا أن الغريزة الجنسية، أقوى الغرائز في الإنسان وأكثرها عمقا، وكانت عبر التاريخ السبب في أحداث دامية وإجرامية مرعبة، حتى قيل: إن وراء كل حادثة مهمة امرأة! .. أليس إثارة الغرائز الجنسية لعباً بالنار؟ .. وهل هذا العمل عقلاي؟

الإسلام يريد للرجال والنساء المسلمين نفساً مطمئنة وأعصاباً سليمة ونظراً وسماعاً طاهرين، ولهذا دعا إلى الحجاب وألزم به، فلا يمكن أن يتحقق الاستقرار من دونه.

ثانيا .. تبين الإحصاءات الكثيرة الموثقة ارتفاع نسب الطلاق وتفكك الأسرة في العالم، بسبب زيادة السفور، لأن الناس أتباع الهوى غالباً، وهكذا يتحوّل حبّ الرجل من امرأة إلى أخرى، كل يوم، بل كل ساعة.
أما في البيئة التي يسودها الحجاب والتعاليم الإسلامية الأخرى، فالعلاقة وثيقة بين الزوج وزوجته، ومشاعرهما وحبهما مشترك.

وأما في سوق السفور والحرية الوهمية، حيث المرأة سلعة تباع وتشتري، أو في أقل تقدير موضع نظر وسمع الرجال، عندها يفقد عقد الزواج حرمة، وتنهار أسس الأسر بسرعة كانهيار بيت العنكبوت، ويتحمل هذه المصيبة الأبناء.

ثالثا .. لا شك أنك تعلمين أن انتشار الفحشاء وازدياد الأبناء غير الشرعيين يعتبران من أنكى نتائج إلغاء الحجاب، ولا حاجة إلى إحصائية بهذا الصدد، فشواهدنا ظاهرة في المجتمع الغربي، واضحة بدرجة لا تحتاج إلى بيان.
فكلما انتشر الفساد الجنسي في المجتمعات البشرية اتسع التهديد لهذه المجتمعات وتعاضم الخطر عليها، وقد برهنت دراسات العلماء في التربية على ظهور الأعمال المنافية للعفة، وتفشي الإهمال في العمل والتأخر، وعدم الشعور بالمسؤولية، في المدارس المختلطة والمنشآت التي يعمل فيها الرجال والنساء بشكل مختلط.

بعد هذا كله، فإن ابتداء المرأة وسقوط شخصيتها يفقدها كل قيمتها الإنسانية، إذ يصبح شبابها وجمالها وكأنه المصدر الوحيد لفخرها وشرفها، حتى لا يبقى لها من إنسانيتها سوى أنها أداة لإشباع شهوات الآخرين، الوحوش الكاسرة في صور البشر!

كيف يمكن للمرأة في هذا المجتمع أن تبرز علمياً وتسمو أخلاقياً؟
إنه من المؤسف أن تلعب المرأة باسم الفن، وتشتهر وتكسب المال الوفير، وتنحط إلى حد الإبتدال في المجتمع، ليرحب بما مسرو هذا المجتمع المنحط خلقياً، في المهرجانات والحفلات الساخرة؟!

قالت المرأة: إن كل ما ذكرته صحيح .. ولكن ألا ترين أن الحجاب يجعل النساء — اللاتي يشكلن نصف المجتمع — في معزل عن المجتمع، ويكون ذلك سبباً في تأخرهن الثقافي، وانعدام الاستفادة من طاقتهن العظيمة في ازدهار

الإقتصاد.. وإذا شعر مكاثر في المنشآت الثقافية والإجتماعية أصبحن مواد استهلاكية ليست بذات جدوى للمجتمع؟
قالت العجوز: لا .. يا ابنتي .. إن ما تقولينه غير صحيح .. فالشرع الذي حرم على المرأة أن تلبس من اللباس ما
قد يؤدي إلى أي ضرر نفسي أو اجتماعي هو نفسه الشرع الذي دعا المرأة إلى أن تكون إيجابية في المجتمع.
وأدى درجات الإيجابية أن تقوم المرأة بإدارة المنزل وتربية الأبناء الأصحاء رجال المستقبل الذين يديرون عجلة
الحياة في المجتمع.

إن الذين لا يعدون هذه المسؤولية للمرأة أمراً إيجابياً جاهلون بحقيقة دور المرأة في الأسرة وفي التربية، وفي بناء
مجتمع سليم فعال، بل لا يعترفون إلا بمغادرة الرجال والنساء المنازل صباحاً ليلتحقوا بالدوائر والمصانع. ويجعلون أبناءهم
تحت رعاية الآخرين، في دور الحضانة، أو يغلقوا عليهم المنازل ليعيشوا في معتقل دون رعاية، حتى يعود الوالدان من
العمل وقد أرهقهما التعب!

هؤلاء غافلون عن أن افتقاد الأطفال للرعاية والعطف، يؤدي إلى تحطم شخصيتهم ويعرض المجتمع إلى الخطر.
قالت المرأة: ولكن لم كان الإسلام هو الدين الوحيد الذي يفرض الحجاب من دون سائر الأديان.
قالت العجوز: ومن قال لك ذلك .. إن الحجاب الذي يعني اللباس المترم مكتوب في كل فطرة نبيلة، وفي كل
شريعة صحيحة .. ولا تجدين ديناً إلا وله أثاره لا تزال توجد فيه.
سأضرب لك مثلاً على ذلك من الكتاب المقدس ..

لقد ورد في رسالة بطرس الأولى (3 : 1-5) : (كَذَلِكَ، أَيُّهَا النِّسَاءُ، اخضَعْنَ لِأَزْوَاجِكُنَّ. حَتَّى وَإِنْ كَانَ
الرَّوُّجُ غَيْرَ مُؤْمِنٍ بِالْكَلِمَةِ، تَجِدْبُهُ زَوْجَتُهُ إِلَى الْإِيمَانِ، بِتَصَرُّفِهَا اللَّائِقِ دُونَ كَلَامٍ، وَذَلِكَ حِينَ يُلَاحِظُ سُلُوكَهَا الطَّاهِرَ
وَوَفَّارَهَا. وَعَلَى الْمَرْأَةِ أَلَّا تَعْتَمِدَ الزَّيْنَةَ الْخَارِجِيَّةَ لِإِظْهَارِ حَمَالِهَا، بِضَفْرِ الشَّعْرِ وَالتَّحْلِي بِالذَّهَبِ وَلَيْسَ الثِّيَابِ الْفَاحِشَةِ.
وَإِنَّمَا لِتَعْتَمِدَ الزَّيْنَةَ الدَّاخِلِيَّةَ، لِيَكُونَ قَلْبُهَا مُتَزَيِّنًا بِرُوحِ الْوَدَاعَةِ وَالْهَلْوَءِ. هَذِهِ هِيَ الزَّيْنَةُ الَّتِي لَا تَفْنَى، وَهِيَ غَالِيَةُ الثَّمَنِ
فِي نَظَرِ اللَّهِ! وَبِهَا كَانَتْ تَتَزَيَّنُّ النِّسَاءُ التَّقِيَّاتُ قَدِيمًا، فَكَانَتْ الْوَالِدَةُ مِنْهُنَّ تَتَكَلَّمُ عَلَى اللَّهِ وَتَخْضَعُ لِزَوْجِهَا)

وفي الرسالة الأولى إلى تيموثاوس (2 : 9-10) : (كَمَا أُرِيدُ أَيْضًا، أَنْ تَظْهَرَ النِّسَاءُ بِمَظْهَرٍ لَائِقٍ مَحْشُومٍ
اللباس، مُتَزَيِّنَاتٍ بِالْحَيَاءِ وَالرَّزَانَةِ، غَيْرَ مُتَحَلِّيَاتٍ بِالْجَدَائِلِ وَالذَّهَبِ وَاللَّيْلِءِ وَالْحُلَلِ الْغَالِيَةِ الثَّمَنِ، بَلْ بِمَا يَلِيْقُ بِنِسَاءٍ
يَعْتَرِفْنَ عَلَنًا بِأَنَّهُنَّ يَعْبُدْنَ فِي تَقْوَى اللَّهِ، بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ!)

وفي سفر الأمثال (31 : 30) : (الْحُسْنُ غِشٌّ وَالْحَمَالُ بَاطِلٌ، أَمَا الْمَرْأَةُ الْمُتَّقِيَةُ الرَّبِّ فَهِيَ الَّتِي تُمدِّحُ. أَعْطَوْهَا
مِنْ ثَمَرِ يَدَيْهَا، وَتَكُنْ أَعْمَالُهَا مَصْدَرًا لِنَاءِ عَلَيْهَا)

وفي الرسالة الأولى إلى كورنثس (11 : 1) : (وأما كل امرأة تصلي أو تنبأ ورأسها غير مغطى فتشين رأسها
لأنها والمخلوقة شيء واحد بعينه .. إذ المرأة إن كانت لا تتغطى : فليقص شعرها)

وفي نفس الرسالة (11 : 13) : (احكموا في أنفسكم : هل يليق بالمرأة أن تصلي إلى الله وهي غير مغطاة؟!)

4 _ الرعاية

جلست المرأة، فقامت أخرى، وقالت: لقد حدثنا عن الثلاث، وقد اقتنعت بما ذكرت .. فحدثنا عن الرابعة. قال العموز: الرابعة هي الرعاية .. فالشريعة التي أكرمت المرأة وصانتها هي نفسها التي جاءت لترعى لها كل حاجاتها الدينية والنفسية والاقتصادية والاجتماعية باعتبارها كالرجل تماماً..¹

لقد وردت النصوص الكثيرة ومعها التشريعات المختلفة تؤكد ذلك وتؤسس له .. فمن ذلك رعاية حاجتها للتعليم .. فقد حث الإسلام على العلم ورغب فيه الرجال والنساء على السواء، وليس هناك نص واحد صحيح يحرم على المرأة أن تتعلم .. بل إن التاريخ الإسلامي مليء بمئات العاملات والأديبات، والمحدثات ممن اشتهرن بذلك ودونت سيرتهن في كتب التراجم..

ومن ذلك حقها في العمل والوظيفة .. فلا يوجد في الإسلام ما يمنع من تولي المرأة الوظائف لكامل أهليتها، ولكن يجب أن يتم ذلك وفق مبادئ الإسلام وأخلاقه، فلا يصح أن تكون الوظيفة معطلة لعمل الأم في بيتها وإشرافها على شؤون عائلتها ..

وذلك ليس هو النظام الشرعي الاجتماعي فقط بل هو النظام الطبيعي، ولهذا فإن عمل المرأة لا يكون من الناحية الاجتماعية أصلاً، بل يكون استثنائياً ..

ومن وجوه الاستثناء في هذا أن تكون المرأة ذات نبوغ خاص يندر في الرجال والنساء معاً، والمصلحة الاجتماعية توجب في هذه الحالة أن تعمل ليعود ذلك النبوغ على المجتمع بنفع عام، وفي هذا تترك جزء من أمومتها في سبيل المصلحة العامة.

ومن وجوهه أن تتولى المرأة عملاً هو أليق بالنساء كترية الأطفال وتعليمهم فيكون الطفل في حضانة أمه داخل البيت، وفي عطف المرأة ورعايتها في المدرسة، ومثل تعليم الأطفال تطبيب النساء، وقد قرر الفقهاء أن بعض هذه الأعمال فرض كفاية كالفحبات فإن عملهن من فروض الكفاية.

ومن وجوهه أن تعين زوجها في ذات عمله، وهذا كثير في الريف، فالمرأة الريفية إذا كان زوجها عاملاً زراعياً، أو مالكاً غيراً، أو مستأجراً لمساحة ضئيلة تعاونه امرأته في عمله.

ومن وجوهه أن تكون في حاجة إلى العمل لقوتها، وقوت عيالها إذا فقدت العائل هي وهم، فكان لا بد أن تعمل هذه الضرورة أو تلك الحاجة الملحة.

وأحب أن أذكر لك هنا أن المبادئ الإسلامية ما كانت لتجعل مثل هذه المرأة في حاجة لأن تعمل، لأن بيت المال كان يتولى الإنفاق عليها ويجري لها رزقاً منتظماً.

قامت امرأة، وقالت: فما تقول الشريعة في الحقوق السياسية للمرأة.

قال العموز: ما دامت المرأة إنساناً كالرجل .. ومسؤولة مثله عن الشؤون الاجتماعية .. فإن لها الحق مثله في

(1) ذكرنا الأدلة المفصلة على ذلك في كتاب (الحقوق المعنوية للزوجة) من سلسلة (فقه الأسرة برؤية مقاصدية)، ولذلك سنقتصر هنا على بعض الأمثلة الدالة على مجامع ذلك.. وقد رجعنا فيها إلى كتاب (حقوق الإنسان بين الشريعة والقانون.. نصاً ومقارنة وتطبيقاً) للمحامي محمد عنجيني، وغيره..

جميع الحقوق السياسية ..

وأولها حقها في انتخاب أولياء الأمور ..

ولها حق النيابة بفروعها جميعا ..

فلها الحق في تشريع القوانين والأنظمة.. فليس في الإسلام ما يمنع أن تكون المرأة مشرعة، لأن التشريع يحتاج قبل كل شيء إلى العلم مع معرفة حاجات المجتمع وضروراته التي لا بد منها، والإسلام يعطي حق العلم للرجل والمرأة على السواء.

ولها الحق في مراقبة السلطة التنفيذية .. بل هو واجب عليها كوجوبه على الرجل .. ذلك أن هذه الرقابة ليست سوى أمر بالمعروف ونهي عن المنكر.. والرجل والمرأة في ذلك سواء في نظر الإسلام قال الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيَطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (71)﴾ (التوبة)

وفي السنة الثالثة عشرة من البعثة النبوية أي السنة التي هاجر فيها النبي ﷺ قدم لديه خمسة وسبعون مسلماً من المدينة منهم ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان، وبايعوه جميعاً بيعة العقبة الثانية، وهي بيعة حرب وقتال، وبيعة سياسية، وبعد أن فرغوا من بيعته قال لهم جميعاً: (أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم بما فيهم كفلاء)، وهذا أمر من رسول الله ﷺ توجه للجميع بأن ينتخبوا من الجميع، ولم يخصص الرجل، ولم يستثن النساء، لا فيمن ينتخب ولا فيمن ينتخب، والمطلق يجري على إطلاقه ما لم يرد دليل التقييد، كما أن العام يجري على عمومه ما لم يرد دليل التخصيص.

وهنا جاء الكلام عاماً ومطلقاً، ولم يرد دليل التقييد أو التخصيص فيدل على أن رسول الله ﷺ أمر المرأتين أن تنتخبا النقباء وجعل لكل من المرأتين حق انتخابهما من المسلمين نقيبتين.

وبعد ذلك كله، فلها الحق في الشورى ..

وقد روي أنه لما فرغ رسول الله ﷺ من صلح الحديبية ولقي مقاومة عنيفة من المسلمين لشروطها، وأمرهم أن ينحروا، ويحلقوا، فرفض المسلمون جميعاً ذلك، فدخل على زوجته أم سلمة، وأخبرها بما صنعه المسلمون فأشارت عليه أن يخرج، وينحر، ويحلق، فأخذ برأيها، وفعل كما قالت له، فهبّ المسلمون ينحرون ويحلقون حتى كادوا يتذابحون لسرعتهم في التقييد بفعل رسول الله ﷺ .. وهذا يدل على حق المرأة في الشورى، وأن رسول الله ﷺ كان يشاور النساء، ويأخذ برأيهن.. وبناء على هذا فيجوز أن تكون المرأة عضواً في مجلس الشورى لتعطي رأيها كما فعلت أم سلمة مع رسول الله ﷺ.

قامت أخرى، وقالت: ولكن الإسلام مع كل هذا لم يتيح للمرأة أن تتولى المناصب المحترمة في الدولة؟

قالت العجوز: إن أكثر الفقهاء يرون أن المناصب الحكومية ليست ممنوعة على المرأة سوى منصب واحد - وهو ممنوع على أكثر الرجال - وهو منصب (رئاسة الدولة العليا)¹

(1) ويرى الدكتور محمد سليم العوا أن الفقهاء حين تحدّثوا عن منع المرأة من تولي رئاسة الدولة كان المقصود منها دولة الخلافة، أما الدولة المعاصرة فهي دولة دستورية فيها قوانين محددة لكل سلطة، وفيها فصل بين السلطات ولا يمكن أن يكون فيها

والسر في هذا المنع ليس عائداً إلى موقف الإسلام من إنسانية المرأة، وكرامتها، وأهليتها، وإنما هو وثيق الصلة بمصلحة الأمة وبحالة المرأة النفسية ورسالتها الاجتماعية.. فريث الدولة في الإسلام ليس صورة رمزية للزينة والتوقيع، وإنما هو قائد المجتمع، ورأسه المفكر، ووجه البارز، فهو الذي يعلن الحرب على الأعداء، ويقود جيش الأمة في ميادين الكفاح، ويقرر السلم والمهادنة إن كانت المصلحة فيها، أو الحرب والاستمرار فيها إن كانت المصلحة تقتضيها، وطبعي أن يكون ذلك كله بعد استشارة أهل الحل والعقد في الأمة ..

ومما لا ينكر أن هذه الوظائف الخطيرة لا تتفق مع تكوين المرأة النفسي، والعاطفي، وبخاصة ما يتعلق بالحروب وقيادة الجيوش، فإن ذلك يقتضي من قوة الأعصاب، وتغليب العقل على العاطفة والشجاعة في حوض المعارك. قامت أخرى، وقالت: دعينا من السياسة .. فلا ناقة لنا فيها ولا حمل .. وعودي بنا إلى الأسرة .. وأجيبنا على

هذا السؤال المخير .. **لم جعل الطلاق بيد الرجل، ولم يجعل بيد المرأة؟**

قالت العجوز: إن فصم رابطة الزوجية أمر خطير، يترتب عليه آثار بعيدة المدى في حياة الأسرة والفرد والمجتمع، فمن الحكمة والعدل ألا تعطى صلاحية البت في ذلك، وإنهاء الرابطة تلك، إلا لمن يدرك خطورته، ويقدر العواقب التي تترتب عليه حق قدرها، ويزن الأمور بميزان العقل، قبل أن يقدم على الإنفاذ، بعيداً عن النزوات الطائشة، والعواطف المندفعة، والرغبة الطارئة.

والثابت الذي لا شك فيه أن الرجل في الأغلب أكثر إدراكاً وتقديراً لعواقب هذا الأمر، وأقدر على ضبط أعصابه، وكبح جماح عاطفته حال الغضب والثورة، وذلك لأن المرأة خلقت بطباع وغرائز تجعلها أشد تأثراً، وأسرع انقياداً لحكم العاطفة من الرجل، لأن وظيفتها التي أعدت لها تتطلب ذلك، فهي إذا أحببت أو كرهت، وإذا رغبت أو غضبت اندفعت وراء العاطفة، لا تبالي بما ينجم عن هذا الاندفاع من نتائج ولا تتدبر عاقبة ما تفعل، فلو جعل الطلاق بيدها، لأقدمت على فصم عرى الزوجية لأتفه الأسباب، وأقل المنازعات التي لا تخلو منها الحياة الزوجية، وتصبح الأسرة مهددة بالانهيار بين لحظة وأخرى.

وهذا لا يعني أن كل النساء كذلك، بل إن من النساء من هن ذوات عقل وأناة، وقدرة على ضبط النفس حين الغضب من بعض الرجال، كما أن من الرجال من هو أشد تأثراً وأسرع انفعالاً من بعض النساء، ولكن الأعم الأغلب والأصل أن المرأة كما ذكرنا، والتشريع إنما يبيي على الغالب وما هو الشأن في الرجال والنساء، ولا يعتبر النوادر والشواذ، وهناك سبب آخر لتفرد الرجل بحق فصم عرى الزوجية.

إن إيقاع الطلاق يترتب عليه تبعات مالية، يلزم بها الأزواج: فيه يحل المؤجل من الصداق إن وجد، وتجب النفقة للمطلقة مدة العدة، وتجب المتعة لمن تجب لها من المطلقات، كما يضيع على الزوج ما دفعه من المهر، وما أنفقه من مال في سبيل إتمام الزواج، وهو يحتاج إلى مال جديد لإنشاء زوجية جديدة، ولا شك أن هذه التكاليف المالية التي

اختصاصات الرئيس يعني منها اختصاص الخليفة، فهناك منعت المرأة لماذا؟ يقول الدكتور محمد سليم العوا: لأنها لا تستطيع أن تؤم الرجال بالصلاة، وترتس الدولة الآن غير مطلوب منه أن يؤم الصلاة، وهي لا تستطيع تولي القضاء العام لأنها كانت من مهمات الخليفة أما اليوم فترتس الدولة ليس قاضياً، هناك سلطة قضائية مستقلة، والخليفة كان مشرعاً، واليوم هناك فصل بين السلطات، فترتس الدولة لا يشرع وإنما البرلمان الذي يشرع وفيه رجال ونساء، وينتهي الدكتور عوا إلى القول بأنه لا يرى مانعاً يحول دون أن تتولى المرأة أي منصب كان بما في ذلك رئاسة الدولة، ودولة الخلافة هي التي لن يصلح فيها قوم ولوا أمرهم امرأة.

تترتب على الطلاق ، من شأنها أن تحمل الأزواج على التروي ، وضبط النفس ، وتدبر الأمر قبل الإقدام على إيقاع الطلاق ، فلا يقدم عليه إلا إذا رأى أنه أمر لا بد منه ولا مندوحة عنه.

أما الزوجة فإنه لا يصيبها من مغارم الطلاق المالية شيء ، حتى يحملها على التروي والتدبر قبل إيقاعه - إن استطاعت - بل هي تريح من ورائه مهراً جديداً ، وبيتاً جديداً ، وعريساً جديداً.

فمن الخير للحياة الزوجية ، وللزوجة نفسها أن يكون البت في مصير الحياة الزوجية في يد من هو أحرص عليها وأضن بها.

والشريعة لم تهمل جانب المرأة في إيقاع الطلاق ، فقد منحتها الحق في الطلاق ، إذا كانت قد اشترطت في عقد الزواج شرطاً صحيحاً ، ولم يف الزوج به ، وأباحت لها الشريعة الطلاق بالاتفاق بينها وبين زوجها ، ويتم ذلك في الغالب بأن تتنازل للزوج أو تعطيه شيئاً من المال ، يتراضيان عليه ، ويسمى هذا بالخلع أو الطلاق على مال ، ويحدث هذا عندما ترى الزوجة تعذر الحياة معه ، وتحشى إن بقيت معه أن تخل في حقوقه ، وهذا ما بينه الله تعالى في قوله: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَجِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ حَفِظْتُمَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (229)﴾ (البقرة)

ولها طلب التفريق بينها وبينه ، إذا أعسر ولم يقدر على الإنفاق عليها ، وكذا لو وجدت بالزوج عبياً ، يفوت معه أغراض الزوجية ، ولا يمكن المقام معه مع وجوده ، إلا بضرر يلحق الزوجة ، ولا يمكن البرء منه ، أو يمكن بعد زمن طويل ، وكذلك إذا أساء الزوج عشرتها ، وآذاها بما لا يليق بأمثالها ، أو إذا غاب عنها غيبة طويلة.

كل تلك الأمور وغيرها ، تعطى الزوجة الحق في أن تطلب التفريق بينها وبين زوجها ، صيانة لها أن تقع في المخطور ، وضناً بالحياة الزوجية من أن تتعطل مقاصدها ، وحماية للمرأة من أن تكون عرضة للضيم والتعسف.

ما انتهت العجوز من حديثها إلى هذا الموضوع حتى طلبت إحدى الشاهدات التدخل، فأذنت لها رئيسة الجلسة طمعا في أن تنفذ المؤتمر من الموقف الحرج الذي وضعته فيه العجوز.

قالت الشاهدة: لقد أدليت بشهادتي، وكنت صادقة في ذلك .. لكنني كاذبة لأني لم أعط شهادتي حقها من التفصيل والتعليل.

نعم لقد أهنت وسلبت حقوقي .. ولكن الذين أهانوني وسلبوا حقوقي لم يتعرضوا في يوم واحد من حياتهم لأشعة محمد ﷺ .. لقد كانت حياتهم مبنية على أعراف تعارفوها، وأفكار سرت إليهم من مجتمعات مختلفة ..

لقد كان أبي شيخا جاهلا باعني كما باع بقرته .. ولو أنه استنار بهديه ﷺ ، وتعلم من معاملته لفاطمة — رضي الله عنها — لما فعل هذا بي ..

وكان زوجي رجلا شحيحا حريصا يبيع دينه بأي شيء، فلذلك لم يكن ينظر إلي إلا كما ينظر إلى مواشيه وسلعه .. وسأفصح لكم عن سر لو أي لم أفصحها الآن لوقفت خجلة من محمد ﷺ طول حياتي.

قالوا: وما هذا السر؟

قال: لقد سببت زوجي وأهنته، ومع ذلك سأذهب إلى بيته هذا المساء .. وسيكرمني أعظم إكرام مع ما قلت في

حقه .. أتدرون سر ذلك؟

صمت الجميع محتارين، فقالت: لقد قبض زوجي مبلغا مقابل شهادتي .. لقد تأمر مع بعض المحضرين لهذا المؤتمر لأدلي بهذه الشهادة .. فهو من الناس الذين يرددون: (أعطني المال، وسمني بأي اسم شئت) ولن أفضح زوجي أكثر من هذا .. ولكني أقول لكم: إن هذا الزوج الذي أردتم أن ترموا به محمدا ﷺ قد تخلى عن دينه إن كان له دين .. وقد التحق بركب المرتدين .. لقد ذهب إلى المسيح .. لا حبا في المسيح .. ولكن حبا في المال الذي يدر عليه من خدمة المسيح أو خونة المسيح.

جلست الشاهدة التي زادت طين المؤتمر بلة، فرفعت الشاهدة الثانية يدها، والثالثة والرابعة .. خشيت رئيسة الجلسة أن تزداد الفضائح، فرفعت الجلسة.

لقد رأيت وجه رئيسة الجلسة المتغير، لقد ارتسمت قناعات كثيرة في وجهها .. ومع أنها من دعاة التحرر إلا أنني شعرت أنها قد امتلأت حياء من محمد وأشعة محمد.

لقد دعاني ما رأيت إلى البحث المستفيض عن الإسلام .. والحمد لله .. لقد دلني الله على الحقيقة التي حاول الكل طمسها وتشويهها .. ولكن أني لهم أن يشوهوا الشمس التي جعلها الله رحمة للعالمين.

قالت (مريم هاري) هذا، ثم التفتت إلى صواحبها، وقالت: هذا هو حديثي .. فهل ترينني ملومة فيه؟ قالت فرانسواز: كلا .. أنا أرى بأنك اخترت الطريق الصحيح .. فأنا لم أجد طول بحثي في المذاهب والأديان ديننا احترم المرأة احترام الإسلام لها .. إن احترامه ينبع من بحر عميق من الرحمة التي تفتقدها الأديان والمذاهب. قالت دانيالي: إن حديثك هذا رغبتنا كثيرا في الإسلام .. ونحن نريد منك الآن أن تكملني لنا جميلك، فتذكرني لنا رحلتك في البحث عن الحقيقة .. فما أحوجنا إلى أن نسلك سلوكك. قالت مريم: على العين والرأس .. هيا سرن معي إلى بيتي .. وسأريكن من الحقائق الجميلة التي جاء بها الإسلام ما لم ترينه طول حياتكن.

قامت مريم، وقامت معها النسوة، وقد أحسست أن أشعة كثيرة من النور تنزل عليهن .. وقد رزقني الله بفضل الاستماع لهن بصيصا من النور اهدت به بعد ذلك إلى شمس محمد ﷺ.

ثانياً — الأطفال

في اليوم الثاني، سرت إلى روضة للأطفال كان قد أسسها في تلك المدينة القاسية رجل من رجالنا .. كان لكثرة تربيته لاسم منظمة (اليونيسيف)¹ يطلق عليه في تلك البلاد اسم (يونيسيف) .. وقد أعجبه الاسم ورضي به، فصار لا يعرف إلا به.

وكان — على حسب ما علمت — قد تفنن في تصميمها، فحولها إلى جنة غناء من جنان الدنيا، تفيض بكل أنواع الجمال.

وبعد أن انتهى من تصميمها وبنائها جمع لها من أبناء المدينة أكثرهم ذكاء، وأوفرهم فطنة، ليصيغهم على حسب تصوره إلى أنموذج تحتذي به المدينة جميعاً، أو تنبه به المدينة جميعاً.

وقد نجح صاحبنا في كل ذلك .. وذلك ما دفعه إلى أن يركب من مطايا الغرور ما جعله يقيم حفلاً كبيراً يدعو له الوجهاء والعلماء، بل والعامه من الناس، ليروا إنجازه العظيم .. فإذا ما انبهروا به، سهل عليه أن يمرر عليهم رسالته التي لم يأت هذه المدينة، ولم يتكبد ذلك الشقاء إلا من أجل تحقيقها.

بعد أن اجتمع العامة والوجهاء في قاعة الحفل .. وذلك بعد مرورهم على كل أحنحة الروضة، وامتلأهم إعجاباً بها، وبالأشطة التي يقوم بها الصبية فيها .. خرج صاحبنا الممتلئ غروراً لينعق أمام الصبية وآبائهم ومن زار الروضة ذلك اليوم بمحاضرة لم تكن تهدف في الحقيقة إلا إلى شيء واحد هو أن الإسلام ظلم الطفولة، وهضمها حقوقها، وأنه تعامل بقسوة بالغة مع براءة الطفولة ..

وكان من ضمن ما قال: اسمعوا لأمر محمد بضرب الأطفال .. إنه يقول بكل قسوة: (اضربوهم إذا بلغوا عشراً)² .. بل يأمر قبل ذلك .. وفي اليوم السابع من ميلادهم بإجراء عملية يسمونها الختان لا هدف لها إلا إذيتهم من غير قيام أي داع لذلك .. هي عملية جبرية قسرية تنم عن قسوة الإسلام، وعدم احترامه لبراءة الطفولة.

بعد أن أملى على الحضور في لحظة نشوته تلك الرسالة .. أراد أن يرهن عليها، فأحضر أشرطة تصور حال صبية الروضة قبل قدومهم إليها.. وكيف كانوا يعانون جميع أنواع المشاق .. وكيف كانوا يعاملون بكل أنواع القسوة. ثم أردف ذلك بإخراج أولئك الصبية أنفسهم ليراهم الحضور، وكيف تغير حالهم ..

(1) (اليونيسيف) UNICEF هو الاسم الشائع لصندوق رعاية الطفولة التابع للأمم المتحدة. ويأتي الاسم من اختصار الاسم الأصلي لهذه الهيئة. وتساعد برامج اليونيسيف أطفال أكثر من مائة دولة. بمعاونتها على حل مشاكل الصحة والجوع والتربية. وتوفر اليونيسيف المؤن لبرامج مكافحة الأمراض، ومراكز العناية اليومية، وللمراكز الصحية، ولخطط التغذية للمدارس ولمشروعات أخرى. كما توفر أيضاً المنح للمساعدة على تدريب الكادر اللازم للقيام بهذه الأعمال وللقيام بالتمريض والتدريس. وحصلت اليونيسيف على جائزة نوبل للسلام عام 1965م على أعمالها في مساعدة الطفولة.

وقد قامت اليونيسيف، عند إنشائها في عام 1946م، بتقديم الغذاء والملبس والغطاء والدواء للأطفال المحتاجين، بعد الحرب العالمية الثانية (1939-1945م). وبعد ذلك اعتمدت اليونيسيف كلياً على التبرعات الطوعية. ويأتي ثلاثة أرباع دخلها تقريباً من الحكومات المختلفة. أما الباقي، فيأتي من المنظمات والأفراد من خلال بيع بطاقات المناسبات وغير ذلك من حملات تعزيز الاحتياطي المالي. (انظر: الموسوعة العربية العالمية)

(2) طبعاً الحديث لم يرد بهذه الصيغة، ولكن المستشرقين والمبشرين كما هو معلوم يحرفون الكلم عن مواضعه، فيقتصون من النصوص ما يتناسب مع أغراضهم.

بل إنه إمعانا في بيان الدور العظيم الذي قام به .. طلب من الصبية أن يتحدثوا .. فتحدثوا شاكرين له، ولجهوده الكبير الذي قدمه ..

وكان للحفل أن ينجح، ويؤدي دوره الذي أراده منه لو أنه اكتفى بذلك .. ولكنه في لحظة نشوته راح من غير شعور يخبر الصبية بين تلك الحياة الجميلة التي يحيوها في روضته وبين الإسلام قائلا لهم، وبسمة الغرور تملأ فاه: ما رأيكم — الآن - أحبائي الصغار في هذه الحياة التي مننت بها عليكم هذه الحضارة، وبين الحياة التي أراد محمد أن تعيشوها.

وهنا تغيرت وجوه الصبية تغيرا تاما .. بل إن أحدهم لم يطق الاكتفاء بتغير الوجه، فراح يقول لصاحب الروضة بكل قوة: أي محمد تقصد؟

قال الرجل: ليس هناك إلا محمد واحد .. ذلك البدوي القاسي الذي صاغ دينا بدويا، وطلب من البشر جميعا أن يتحولوا إلى بدو قساة..

قال الصبي: تقصد محمدا الذي أرسله الله رحمة للعالمين؟

قهقه الرجل بصوت عال، وقال: أجل ..

ثم التفت إلى الجموع، وراح يصيح: انظروا الغرور العظيم الذي كان عليه ذلك الرجل .. إنه لم يكتف بأن يزعم لنفسه الرحمة لقومه حتى راح يزعم أنه رحمة للعالمين ..

وكيف يكون رحيمًا ذلك الذي يدعو إلى ضرب الصبية .. وإعنائهم .. ومألاً حياتهم بالتكاليف الشاقة!؟

قاطعته الصبي، وقال: لقد سمعنا موقفك — حضرة الأستاذ الفاضل - فهل تأذن لنا في الجواب؟

قال الرجل بكل غرور: أجل .. لقد خيرتكم بين هذه الحياة الكريمة التي وفرها هذه الحضارة الرحيمة، وبين الحياة القاسية التي دعاكم محمد إلى تحملها.

قال الصبي: قبل أن أجيئك عن هذا السؤال، أخبرك - أولاً - أن القسوة التي كنت أعيش فيها مع رفاقي جميعا لم تكن قسوة مرتبطة بتشريعات الإسلام، ولا بتعاليم محمد.. وإنما كانت قسوة ناشئة عن الحالة المادية التي اضطرتنا الحياة إليها اضطرارا.

ومع ذلك .. ومع تلك القسوة الظاهرية .. كنا نعم برحمة باطنية كبيرة تملأ حياتنا بالجمال الذي لا يراه الناس. نعم لم يكن للبيوت التي تكنتنا مثل هذا الجمال الذي تمتلئ به هذه الروضة .. ولم يكن فيها من المرافق ما فيها .. ولكننا مع ذلك كنا نشعر أن آباءنا لم يكونوا يقصدون شيئا من القسوة حولنا .. ولكن ذات يدهم جعلتهم لا ينيلوننا من الحياة إلا ما رأيتموه .. وليس لذلك كله صلة بالإسلام.

تغير وجه (يونيسيف) لإجابة هذا الصبي، وقال، وهو يحاول أن يستر موقفه: لا بأس .. دعنا من حياتكم .. وأخبرني عن التعاليم التي جاء بها محمد .. ألا ترى أن فيها وحدها ما يكفي للبرهنة على موقف الإسلام القاسي من الطفولة؟

ابتسم الصبي، وقال: إن أذنت لي، وأذن لي هذا الجمع المبارك، فسأحدثكم مع رفاقي الصبية عن التعاليم العظيمة التي جاء بها الإسلام حول الطفولة .. وسترون فيها البرهان الكافي على رحمة الإسلام بالطفولة .. وهي نفس رحمته التي شملت الحياة جميعا.

تغير وجه (يونيسيف) ، ولكنه ستر تغيره بابتسامة عريضة قال بعدها: لقد خططتم لهذا اليوم إذن؟ قال الصبي: لا .. لم نخطط .. ولكن الله أتاح لنا أن نقرأ تعاليم الإسلام من مصادرها الأصلية .. وقد أعطانا ذلك قناعة كبرى بما نقول .. فهل تراك تأذن لنا في الحديث؟ قال (يونيسيف): أجل .. أجل .. يسرني ذلك .. تحدثوا .. فما أجمل أن يسمع الكبار للصغار. قال الصبي: لقد رأينا من خلال استقراء النصوص المقدسة أن الإسلام أعطى للأطفال أربعة حقوق كبرى تنتظم فيها جميع الحقوق.

أما أولها، فحقهم في الوجود .. وأما الثاني، فحقهم في الحياة .. وأما الثالث، فحقهم في المعاملة النفسية الرقيقة .. وأما الرابع، فحقهم في التربية الصحيحة الصالحة.

التفت إلى رفاقه¹ ، وقال: سيحدثكم صديقي أسامة عن الحق الأول.

وس يحدثكم صديقي عمير عن الحق الثاني.

وس يحدثكم صديقي أنس عن الحق الثالث.

وس يحدثكم صديقي عبد الله عن الحق الرابع.

ولكم أن تسألوهم وتسألوني عما تشاءون.

(¹) نشير بالأسماء التي نذكرها هنا إلى بعض أسماء صحابة رسول الله ﷺ من صغار السن.

1 - الوجود

تقدم الصبي الأول، وهو أسامة، وقال - بشجاعة لا تقل عن شجاعة صديقه - : أنا أسامة .. وهو اسم لصاحب من أصحاب رسول الله ﷺ .. صحبه صبياً¹ .. وقد كان الناس يطلقون عليه (حب رسول الله ﷺ) لما يرون من عناية رسول الله ﷺ به، واهتمامه الخاص به، خاصة بعد استشهاد أبيه.

لقد ذكر لكم صاحبنا أبي سأحدثكم عن حق الوجود .. وهو أول حق من حقوق الطفل .. ولا يمكن أن تقوم سائر الحقوق إلا عليه.

ضحك (يونيسيف) بصوت عال، وقال: حق الوجود؟! .. لم نسمع بهذا .. إن هذا أقرب إلى الهزل منه إلى الجد .. من ناقش في حق الوجود حتى يتحدث عنه؟ أو حتى يطالب أحد به؟

ابتسم أسامة، وقال: لقد ناقش هذا الحق اثنان .. أما أحدهما فحمل سلاح الدين ليحارب به هذا الحق .. وأما الثاني، فحمل سلاح الحضارة.

قال (يونيسيف): فمن حمل السلاح الأول؟

التفت الصبي إلي، وكأنه يقصدي، وقال: أما السلاح الأول، فحملة رجال من رجال الدين أرادوا أن يحاربوا فطرة الله في عبادته، فاعتبروا الكمال في العزوبة، والانقطاع عن الناس، وحياة الرهبانية.

قال (يونيسيف): ومن حمل السلاح الثاني؟

قال أسامة: لقد حملته هذه الحضارة .. عندما نادى بعض قادتها بضرورة تحديد النسل .. لاشك أنك تعرفه .. إنه مالتوس² .. لقد صاح بملء فيه يقول: (السكان يتزايدون بمعدلات حساسية ... إنه إذاً الاختلال، فالجماعة ..)

قال (يونيسيف): ذاك رجل كلاسيكي .. فدعنا منه.

قال أسامة: لم يكن مالتوس وحده هو الذي نادى بذلك .. لقد صاح بعده - وفي سنة 1968 - العالم

(¹) هو أسامة بن زيد بن حارثة أمه أم أيمن وكان أسود أفتطس . أرفده رسول الله ﷺ خلفه يوم الفتح على راحلته القصواء واستعمله وهو ابن ثماني عشرة سنة .. روي له عن رسول الله 128 حديثاً وروى عنه ابن عباس وجماعة من كبار التابعين وكانت وفاته بالمدينة وقيل بوادي القرى وحمل إلى المدينة سنة 54 هـ .

(²) هو (توماس روبرت مالتوس) Malthus, Thomas Robert (1766 - 1834م). اقتصادي بريطاني، اشتهر بمقالته عن مبادئ علم السكان سنة 1798م .. وتقوم فكرته الأساسية في هذا الكتاب على أن أعداد السكان في العالم تميل إلى الزيادة، بينما كميات الطعام تقل .. كما كان يعتقد أن الحروب والأمراض ستفتك بالأعداد الزائدة من البشر، ما لم يتم تحديد النسل.

وُلِدَ مالتوس في مدينة سري بريطانيا، وكان يرغب في أن يكون رجل دين، إلا أنه بعد تخرجه في جامعة كمبريدج عمل أستاذاً للتاريخ والاقتصاد السياسي في كلية شركة الهند الشرقية عام 1805م وبقي في هذه الوظيفة إلى أن توفي.

وأوحت مقالة مالتوس المذكورة إلى تشارلز داروين فكرة العلاقة بين التطور والبقاء للأصلح .. وقد فشلت تنبؤات مالتوس في التحقق خلال القرن التاسع عشر، حيث أمكن عن طريق وسائل الزراعة المتقدمة إنتاج الطعام الكافي لمعظم الناس، إلا أن الزيادة المطردة في أعداد السكان في العالم في القرن العشرين وخاصة في الدول النامية أدت إلى التنبية إلى أفكار مالتوس من جديد، حيث حذر معظم المحافظين من أن إنتاج الطعام قد لا يواكب أعداد السكان. ونتيجة لذلك فقد حث أنصار المالتوسية المحدثنة على تنظيم النسل حلاً لهذه المشكلة، على الرغم من أن مالتوس نفسه كان يرفض هذا الحل. (انظر: الموسوعة العربية العالمية)

البيولوجي (بول أيرلخ) في كتابه الشهير (القبلة السكانية) يقول: (لقد انتهت معركة توفير الغذاء للجميع بالفشل التام، وسيعاني العالم في السبعينات من هذا القرن (العشرين) من المجاعات وموت ملايين من البشر جوعاً، وذلك على الرغم من أن أي برنامج قد نبدوّه اليوم لتفادي ذلك)

وقد استمر هذا العالم يطلق صيحاته التحذيرية هذه .. حتى أنه في عام 1970 ذكر أن هناك احتمال موت 65 مليون من البشر - أمريكيين بالتحديد - من الجوع، وأربعة بلايين من بقية سكان العالم، بين سنتي 1980/1989. إلا أن شيئاً من ذلك لم يحدث .. ومع أن سكان العالم قد تضاعفوا منذ الحرب العالمية الثانية إلى اليوم، إلا إنتاج الغذاء قد تضاعف ثلاث مرات في الفترة نفسها.

إن صيحات التحذير لم تكف بعد .. ففي هذه الأيام ظهرت صيحات جديدة مدعومة بالإحصاءات والدراسات، فتقارير منظمة الفاو (منظمة الأغذية والزراعية) تؤكد أن نحو 25 ألف مليون طن من التربة الخصبة تتعرض للزوال سنوياً، بفعل عوامل التعرية .. وأن تصيب الفرد من الأرض الصالحة للزراعة سينكمش بحلول عام 2010، من 0.85 إلى نحو 0.4 هكتار، ويقول (كيث كولنيز) - وهو كبير اقتصادي وزارة الزراعة الأمريكية - : (ينبغي معالجة الوضع عن كَثْب)، ويذكر تقرير المعهد الدولي لأبحاث السياسة الغذائية (أنه ستصبح العلاقة بين إنتاج المواد الغذائية على مستوى العالم والأسعار علاقة مضطربة، الأمر الذي سيترجم على مخاطر أكبر بالنسبة للأمن الغذائي في دول العالم النامي)¹ ..

قال (يونيسيف): نعرف هذا .. ونحن نريد أن تحدثنا عن موقف الإسلام لا عن موقف قومنا .. فنحن نعرف به منكم.

قال أسامة: الإسلام ينطلق في هذه المعاني من قناعات إيمانية بأن الله الذي خلق هذا الكون جميعاً، لن يعجزه أن يرزق الخلاق جميعاً قلوباً أو كثرها ..

لقد كان هذا هو الأسلوب الذي استعمله القرآن الكريم مع من كانوا يقتلون أولادهم مخافة على أنفسهم وعليهم من الفقر .. لقد قال الله تعالى ينهى عن ذلك: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (31)﴾ (الإسراء)، وقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. (151)﴾ (الأنعام) وفي الحديث عن ابن مسعود قال: سألت رسول الله ﷺ أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: (أن تجعل لله ندا وهو خلقك) قلت: إن ذلك لعظيم ، قلت: ثم أي ؟ قال : (أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك) ، قلت: ثم أي ؟ قال : (أن تزاني حليلة جارك)² ، ثم تلا هذه الآية³: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَكَانُوا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (69) إِلَّا مَنْ تَابَ .. (70)﴾ (الفرقان)

ولهذا، فإن رسول الله ﷺ شجع على الأكتار من الأولاد، مع مراعاة تنشئتهم نشأة صالحة .. ففي الحديث قال

(1) انظر: أصول الأمن الغذائي في القرآن والسنة، للأستاذ: السيد علي أحمد الصوري، موقع الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

(2) رواه البخاري ومسلم.

(3) هذا في رواية النسائي والترمذي للحديث.

رسول الله ﷺ: (تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم)¹

ولهذا، فإن الإسلام حرم الإجهاض، وكل ما يؤدي إلى حرمان الأولاد من حق الوجود ..

بل إن الإسلام وضع العقوبات المشددة في هذا .. فقد اتفق الفقهاء على أنه إن حصلت الجنابة على الأم بأن ضرب بطنها مثلاً، فألقت جنيناً حياً، ثم مات من الضربة ، أن فيه دية كاملة إذا كان سقوطه لوقت يعيش لمثله ، وذلك بأن يكون لسته أشهر فصاعداً .. وعللوا ذلك بأنه مات من جنابته بعد ولادته ، في وقت يعيش لمثله، فأشبهه قتله بعد وضعه² .

وقد نصوا - من باب التشدد - على أن الفعل المكون للجنابة، لا يشترط فيه شكلاً معيناً، بل يصح أن يكون فعلاً مادياً أو معنوياً، بل يمكن أن يكون قولاً، بل ورد ما يدل على عدم اقتصار وجوب الدية على الفعل المباشر الذي هو الضرب، بل يكفي فيه مجرد التسبب، كالتخويف مثلاً.

وقد روي في هذا عن الحسن قال: أرسل عمر إلى امرأة مغنية كان يدخل عليها ، فأنكر ذلك، فقيل لها: أجيبي عمر؟ فقالت: يا ويلها مالها ولعمر؟ قال: فبينما هي في الطريق فرغت ، فضمها الطلق ، فدخلت داراً، فألقت ولدها، فصاح الصبي صيحيتين فمات .. فاستشار عمر أصحاب النبي ﷺ فأشار عليه بعضهم: أن ليس عليك شيء ، إنما أنت وال ، ومؤدب ، قال: وصمت علي، فأقبل عليه عمر فقال: ما تقول ؟ فقال: إن كانوا قالوا برأيهم فقد أخطأ رأيهم، وإن كانوا قالوا في هواك ؟ فلم ينصحو لك ، أرى أن ديتك عليك لأنك أنت أفرقتها ، وألقت ولدها في سبيلك .. فأمر علياً أن يقسم عقله على قریش، لأنه أخطأ³ .

قال يونسيف: ولكن ألا يمكن أن يكون ما ادعاه مالتوس ورفاقه صحيحاً .. وأن الزمان الذي يحصل فيه ما ادعوه لم يحل فقط؟

قال: بالنسبة لنا - نحن المسلمين - فإن إيماننا بالله يحول بيننا وبين هذه الدعاوى .. نحن نؤمن بأن وعد الله لا بد أن يتحقق لا محالة ..

لقد قال تعالى يعدد نعمه على عباده: ﴿ قُلْ أَتُنْكُم لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ لِيُنزِلَ فِيهَا مِنْهَا مَاءً فَتَخْشَبُ حَبَشَآةً وَمِنْهَا الْأَرْضُ وَالْحَيْلُ وَالْأَنْجَامُ وَالسَّمَاءُ سَبْعًا مِّنْ عَشْرًا وَمِنْهَا تَخْرُقُونَ الْأَنْهَارَ (10) ﴾ (فصلت)، فأقوات العباد مقدره، وهي مبثوثة في كل الأرض، وقد احتص الخالق عز وجل كل جزء منها بثروة تكفي ساكنيها وتسد احتياجاتهم.

قال يونسيف: ولكن .. ألا ترى أن هذا الوعد قد تخلف مرات كثيرة .. فكم ضربت الجماعات البشر .. وهي لا تزال تضربهم؟

قال أسامة: ذلك يعود للبشر .. لا لرب البشر .. فرب البشر أرحم بعباده من أن يقتلهم بالجوع، وهو يملك

(1) رواه أبو داود والنسائي.

(2) وقد نقل الإجماع على ذلك، قال ابن المنذر: (أجمع كل من حفظ عنه من أهل العلم ، على أن في الجنين ، يسقط حياً من الضرب ، دية كاملة ، منهم ؛ زيد بن ثابت ، وعروة ، والزهرى ، والشعبي ، وقتادة ، وابن شيرمة ، ومالك ، والشافعي ، وإسحاق، وأبو ثور ، وأصحاب الرأي) (انظر كتابنا (حقوق الأولاد النفسية والصحية) من سلسلة (فقه الأسرة برؤية مقاصدية)

(3) مصنف عبد الرزاق: 458/9، وانظر: نصب الرأية: 398/4.

خزائن كل شيء.

قال يونسيف: فما تقول في الجماعات؟

قال أسامة: سل عنها الإنسان .. ذلك الذي راح بجشعه يرمي القمح في البحار في الوقت الذي يموت فيه إخوانه من البشر جوعاً.. لعلك تعلم ذلك.

ولعلك تعلم ما يقوله الخبراء من أن تهديد العالم الثالث بنضوب الثروات أذكوبة كبرى، فالخطر الحقيقي كامن في سوء استخدام الثروات والكنوز التي تفيض بها الأراضي البكر.. وسوء التخطيط لتطوير إنتاجي أفضل.. وبينما تنقل هذه الخامات إلى بلاد الغرب وتنهب، ثم تعيد تصديرهما للأمم المترفة الاستعمارية لا يحصل أصحاب هذه الثروات إلا على الفتات.

ولعلك تعلم كذلك أن الأبحاث الحديثة تتحدث عن ظاهرة الانحسار السكاني في الغرب، وتصفها بأنها ظاهرة مخيفة وخطيرة تقلق الخبراء الاجتماعيين والسياسيين ورجال الأعمال، فأمریکا تتجه نحو حالة الصفر في النمو السكاني. فهي تقف الآن في النقطة التي يكون فيها عدد المواليد مساوياً لعدد الوفيات.. وتتحدث الأبحاث عن هذا الخطر الهائل الذي يهدد الولايات المتحدة والدول الغربية على بعد بضعة أجيال، مما يؤدي إلى انخفاض القوة العاملة وما يؤدي إلى ركود الإنتاج، في حين أن الدول الفقيرة تنمو نمواً متزايداً.

وتقول الأبحاث أن عدد سكان أمريكا¹ (212 مليون نسمة) وأن النمو السكاني في أمريكا يصل إلى درجة الصفر عندما يبلغ السكان 260 مليون نسمة.. ويشارك الولايات المتحدة في هذه الظاهرة السويد وألمانيا الغربية، اليابان، هنغاريا، رومانيا.. وأن نسبة المواليد في هذه الدول في هبوط مستمر منذ الحرب العالمية الأخيرة، وأن الهبوط كان هائلاً في السنوات الأربع الماضية، في السويد وفنلندا والنمسا وبلجيكا وألمانيا.. أما هنغاريا وبريطانيا فقد بلغت درجة الصفر.. والقلق ناجم من أن القوة العاملة سوف تتضاءل في المستقبل بما يؤدي إلى ركود الإنتاج، ومن أجل ذلك شددت بعض دول أوروبا في قضايا الإجهاض وفرضت عقوبات على من يفعله، ومنع السوقيات تداول الحبوب المانعة للحمل، وأعطوا إجازات أطول للزوجة الحامل.

ويتوقع الخبراء أن تصل أكثر دول أوروبا إلى درجة الصفر في النمو السكاني في بداية القرن الواحد والعشرين، كما يرى بعض الخبراء أن الانحسار السكاني إلى درجة الصفر سيؤدي إلى ركود اقتصادي واجتماعي خطير. قال يونسيف: أجل.. أعلم كل هذا.. ولكن.. كيف تقول هذا، ونحن نرى في المسلمين من يدعو إلى تحديد النسل؟

قال: أولئك هم أعداء المسلمين الذين عز عليهم أن يكثر الله سواد المسلمين، فراحوا بكل صنوف الوسواس يدعوون إلى هذه الخدعة ليحموا بما أهواهم.

(1) الإحصائيات كما ذكرنا مرات كثيرة تخضع للزمن الذي كتبت فيه .. ونحن لا نهمنا هنا الأعداد بقدر ما نهمنا الحقائق التي تتضمنها.

2- الحياة

بعد أن ذكر الصبي الأول ما يكفي من الأدلة على احترام الإسلام لحق الوجود، تقدم الصبي الثاني، وهو عمير، وقال - بشجاعة لا تقل عن شجاعة صديقيه- : أنا عمير .. وهو اسم يذكرني بصاحب من أصحاب رسول الله ﷺ .. صحبه صبياً .. كان اسمه أبا عمير، وقد حدث أنس عن موقف لرسول الله ﷺ يرتبط به، فقال: كان رسول الله ﷺ يدخل على أم سليم ولها ابن من أبي طلحة، يكنى أبا عمير، وكان يمازحه، فدخل عليه فرآه حزينا فقال: (ما لي أرى أبا عمير حزينا؟) قالوا: يا رسول الله مات نغره الذي كان يلعب به فجعل يقول: (أبا عمير ما فعل النغير¹؟)² لقد تحدث صاحبي أسامة عن حق الوجود .. وسأحدثكم أنا عن حق الحياة.

ابتسم يونسيف، وقال: ألا ترى أن الوجود والحياة شيء واحد؟

قال عمير: لا .. حق الوجود مرتبط بالحلي قبل وجوده .. وأما حق الحياة، فمرتبط به بعد وجوده.

قال يونسيف: لا بأس .. فما شرع الإسلام في هذا؟

قال عمير: لقد شرع الإسلام في هذا كل ما يحفظ الحياة الكريمة للولد من أول أيام حياته إلى الوقت الذي

يستطيع أن يقوم فيه بنفسه بعيدا عن حضانة والديه.

وأول ذلك أنه أوجب على الأم إرضاع ابنها رضاعة طبيعية .. قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنَ كَامِلَيْنَ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّئَ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ وِثْرًا وَلَا يُضَارَّ وَالِدَةٌ بَوْلِدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بَوْلِدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البقرة:233)،

إن هذه الآية الكريمة تبين حرص الشريعة على إرضاع الصبي مهما كان حال الأسرة التي ينتمي إليها ..

وهي تدل في نفس الوقت على أن الرضاع واجب لا يكفي فيه أي بديل إلا إذا حكم الطبيب المختص بعدم

صلاحية لبن الأم للرضاعة أو عدم استعداد الرضيع لرضاعتها.

ابتسم يونسيف، وقال: لقد قالت شريعتكم بذلك قبل أن تنتج حضارتنا الراقية هذه الأنواع الكثيرة من الألبان

التي تملأ حياة الرضع بالصحة والعافية .. وتغنيهم عن السموم التي تسقيهم بها أمهاتهم.

ابتسم عمير، وقال: إن قولك هذا - حضرة الأستاذ الفاضل - يستدعي مقارنة علمية مفصلة بين الرضاع

الطبيعي والإرضاع الصناعي ..

وإن أذنت لي .. فسأذكر لك سبعة معان ترى من خلالها نصح الشريعة وغش هذه الحضارة التي لا تبتغي من

وراء كثير مما تنتجه إلا الربح المادي³ ..

(1) النغير: طائر يشبه العصفور أحمر المنقار، ويجمع على نغران.

(2) رواه البخاري.

(3) رجعنا للمعلومات العلمية في هذا المطلب إلى كتاب (مع الطب في القرآن الكريم) للدكتور عبد الحميد دياب،

والدكتور أحمد قرقوز، مؤسسة علوم القرآن، دمشق.

قال يونسيف: لا بأس .. فما أولها؟

قال عمير: تناسب الحليب مع حاجة الرضيع.. فحليب الأم يتطور تركيبه من يوم لآخر بما يلائم حاجة الرضيع الغذائية، وتحمل جسمه، وبما يلائم غريزته وأجهزته التي تتطور يوماً بعد يوم.. وذلك عكس الحليب الصناعي الثابت التركيب: فمثلاً يفرز الثديان في الأيام الأولى اللبن Colostrm الذي يحوي أضعاف ما يحوي اللبن من البروتين والعناصر المعدنية، لكنه فقير بالدهن والسكر، كما يحوي أضداداً لرفع مناعة الوليد، وله فعل ملين، هو الغذاء المثالي للوليد.

كما يخف إدرار اللبن من ثدي الأم، أو يخف تركيزه بين فترة وأخرى بشكل غريزي وذلك لإزاحة الجهاز الهضمي عند الوليد، ثم يعود بعدها بما يلائم حاجة الطفل.

قال يونسيف: هذه الأولى .. فما الثانية؟

قال عمير: لبن الأم أسهل هضماً لاحتوائه على خمائر هاضمة تساعد خمائر المعدة عند الطفل على الهضم، وتستطيع المعدة إفراغ محتواها منه بعد ساعة ونصف، وتبقى حموضة المعدة طبيعية ومناسبة للقضاء على الجراثيم التي تصلها. بينما يتأخر هضم خثرات الحبن في حليب البقر، لثلاثة أو أربع ساعات، كما تعدل الأملاح الكثيرة الموجودة في حليب البقر حموضة المعدة، و تنقصها مما يسمح للجراثيم وخاصة الكولونية بالتكاثر مما يؤدي للإسهال والإقياء. وبالإضافة إلى هذا يسبب لبن البقر مضاعفات عدم تحمل وتحسس، لا تشاهد في الإرضاع الطبيعي كالإسهال والنزف المعوي والتغوط الأسود ومظاهر التحسس الشائع، كما إن الإلعب والمغص والإكزما البنيوية أقل تواجداً في الإرضاع الطبيعي.

قال يونسيف: هذه الثانية .. فما الثالثة؟

قال عمير: حليب الأم معقم، بينما يندر أن يخلو الحليب في الرضاع الصناعي من التلوث الجرثومي، وذلك يحدث إما عند عملية الحلب، أو باستخدام الآنية المختلفة أو بتلوث زجاجة الإرضاع.

قال يونسيف: هذه الثالثة .. فما الرابعة؟

قال عمير: درجة حرارة لبن الأم ثابتة وملائمة لحرارة الطفل، ولا يتوفر ذلك دائماً في الإرضاع الصناعي.

قال يونسيف: هذه الرابعة .. فما الخامسة؟

قال عمير: يحوي لبن الأم أجساماً ضدية نوعية، تساعد الطفل على مقاومة الأمراض، وتتواجد بنسبة أقل بكثير في حليب البقر، كما أنها غير نوعية، ولهذا فمن الثابت أن الأطفال الذين يرضعون من أمهاتهم أقل عرضة للإلتان ممن يعتمدون على الإرضاع الصناعي.

والإرضاع الطبيعي يدعم الزمرة الجرثومية الطبيعية في الأمعاء ذات الدور الفعال في امتصاص الفيتامينات وغيرها من العناصر الغذائية، بينما يسبب الإرضاع الصناعي اضطراب هذه الزمرة.

قال يونسيف: هذه الخامسة .. فما السادسة؟

قال عمير: يهيء الإرضاع الطفل للإصابة أكثر، بأمراض مختلفة، كالتهابات الطرق التنفسية، وتحدد الرئة الزمن الذي يرتبط بترسب بروتين اللبن في بلاسما الطفل وحذف لبن البقر من غذاء الطفل يؤدي لتحسنه من المرض. وكذلك التهاب الأذن الوسطى، لأن الطفل في الإرضاع الصناعي يتناول وجبته وهو مضطجع على ظهره، فعند قيام الطفل

بأول عملية بلع بعد الرضاعة يفتح نفيرو أوستاش ويدخل الحليب واللعباب إلى الأذن الوسطى مؤدياً لالتهاهما.
وتزيد حالات التهاب اللثة والأنسجة الداعمة للسن بنسبة ثلاثة أضعاف، عن الذين يرضعون من الثدي. أما
تشنج الحنجرة، فلا يشاهد عند الأطفال الذين يعتمدون على رضاعة الثدي.
وهذه الفروق وغيرها، تفسر نسبة الوفيات عند الأطفال الذين يعتمدون الإرضاع الصناعي عن نسبة وفيات
إخوانهم الذين من الثدي بمقدار أربعة أضعاف رغم كل التحسينات التي أدخلت على طريقة إعداد الحليب في الطرق
الصناعية، وعلى طريقة إعطائه للرضيع..

قال يونسيف: هذه السادسة.. فما **السابعة؟**

قال عمير: لقد أكد علماء النفس¹ أن الرضاعة (ليست مجرد إشباع حاجة عضوية إنما هو موقف نفسي اجتماعي
شامل، تشمل الرضيع والأم وهو أول فرصة للتفاعل الاجتماعي)
وفي الرضاعة يشعر الطفل بالحنان والحب والطمأنينة ويحدث اندماج في المشاعر بين الطفل وأمه وهذا يحدث من
التصافه بأمه أثناء الرضاعة وخصوصا الرضاعة لفترة طويلة وبذلك تقوي العلاقة بين الطفل والام من خلال الرضاعة
الطبيعية عكس الطفل الذي يأخذ غذاءه عن طريق الرضاعة الصناعية فهو محروم من الحب والحنان والشعور بالأمن فهو
دائما خائف وتكون العلاقة بينه وبين أمه مضطربة الى حد كبير مما يؤدي فيما بعد أو أثناء فترة الطفولة الى الاستعداد
للإصابة بالأمراض النفسية المختلفة.

والرضاعة الطبيعية تعد مناعة طبيعية ضد حدوث المرض النفسي والعقلي سواء في فترة الطفولة أو باقي مراحل
الحياة وعلى اثر ما نشر من الأبحاث في تأثير الرضاعة الطبيعية والرضاعة الصناعية على الصحة النفسية والعقلية للطفل
فقد وجد أن الأطفال الذين تم تغذيتهم عن طريق الرضاعة الطبيعية أكثر ذكاء ويمتازون بسلوكيات سوية مثل التعامل
مع الآخرين والتفاعل الجيد والسليم مع المواقف والتفكير السليم والمشاعر الاجتماعية النبيلة ودرجة الانتباه الجيدة
وقدراته على التقاط المعلومات الجيدة، أيضا كان لديهم بصيرة قوية عن أنفسهم عما يدور من حولهم أما من الأطفال
الذين كانوا يتعاطون عن طريق الرضاعة الصناعية كانوا أقل ذكاء وأكثر توترا وأقل تعاونا مع الآخرين وكانوا يعانون
من بعض الأمراض النفسية مثل الحركة الزائدة أو التخلف في بعض منهم والتردد والإصابة بالنزعات العصبية والأزمات
وكذلك الأنانية والتمركز حول الذات والعنف والاندفاعية والبعض منهم كان مصابا بالأفعال القهرية وعدم الثبات في
المشاعر والقلق المستمر والاكتئاب والمخاوف العديدة واضطراب التفكير واضطراب الكلام مثل التلعثم وغيرها وعدم
التركيز وقلة الانتباه والبعد عن الواقع وقلة البصيرة وقلة الحصول على المعلومات العامة واصابة بعضهم بالاضطرابات
العديدة في السلوك والتصرفات المضادة للمجتمع.

قال يونسيف: لا بأس .. سلمت لك بكل ما ذكرت .. ولكن ما تقول في الحتان .. تلك العلمية الإجبارية التي
فرضها الإسلام عقوبة على الأطفال من غير ذنب اقترفوه؟

قال عمير: قال: لم يفرض الإسلام الحتان عقوبة - حضرة الأستاذ - وإنما فرضه رحمة .. وقد أثبتت الأيام أن
التشريعات التي جاء بها الإسلام في هذا الباب كلها تشريعات رحمة ونصح ولطف من الله بعباده.

(1) أ. فاطمة موسى، أستاذ الطب النفسي، طب القصر العيني - جامعة القاهرة.

وإن أذنت لي، فسأذكر لك من أدلة ذلك ما تقر به عينك، وتعلم به الرحمة العظيمة التي يحملها هذا التكليف¹.
ابتسم يونسييف، وقال: لا بأس.. تحدث كما يلجو لك.. فما أحلى أن يسمع الكبار للصغار.
قال عمير²: لقد ثبت في عديد من الدراسات الطبية أن التهابات الجهاز البولي في الذكور، صغاراً وكباراً، تزداد نسبتها زيادة ملحوظة في غير المختونين، وأن عدوى الأمراض المنقولة جنسياً كالزهري والسيلان وعلى الخصوص مرض الإيدز تكون في غير المختونين أكبر بكثير منها في المختونين.
وقد وجد جنز برغ أن 95 بالمائة من التهابات المجاري البولية عند الأطفال تحدث عند غير المختونين.. ويؤكد أن جعل الختان أمراً روتينياً يجري لكل مولود في الولايات المتحدة منع حدوث أكثر من 50 ألف حالة من التهاب الحويضة والكلية سنوياً.

ولهذا كتب البروفسور ويزويل في عام 1990 يقول: (لقد كنت من أشد أعداء الختان وشاركت في الجهود التي بذلت عام 1975 ضد إجرائه، إلا أنه في بداية الثمانينات أظهرت الدراسات الطبية زيادة في نسبة حوادث التهابات المجاري البولية عند الأطفال غير المختونين، وبعد تمحيص دقيق للأبحاث التي نشرت، فقد وصلت إلى نتيجة مخالفة وأصبحت من أنصار جعل الختان أمراً روتينياً يجب أن يجري لكل مولود)³
وأكد البروفسور وليم بيكوز الذي عمل في البلاد العربية لأكثر من عشرين عاماً، وفحص أكثر من 30 ألف امرأة نذرة الأمراض الجنسية عندهم وخاصة العقبول التناسلي والسيلان والكلاميديا والتريكوموناز وسرطان عنق الرحم ويرجع ذلك لسببين هامين نذرة الزنى وختان الرجال.
ويقول البرفسور كلو دري: (يمكن القول وبدون مبالغة بأن الختان الذي يجري للذكور في سن مبكرة يخفض كثيراً من نسبة حدوث سرطان القضيب عندهم)

وقد نشرت المجلة الطبية البريطانية BMG — وهي من أشهر المجلات الطبية — مقالاً عن سرطان القضيب ومسبباته عام 1987، جاء في هذا المقال: إن سرطان القضيب نادر جداً عند اليهود وفي البلدان الإسلامية، حيث يجري الختان أثناء فترة الطفولة، وأثبتت الإحصائيات الطبية أن سرطان القضيب عند اليهود لم يشاهد إلا في تسعة مرضى فقط في العالم كله.

ومن العوامل المهيئة لحدوث سرطان القضيب: التهاب الحشفة، ولما كان الختان يزيل هذه القلفة من أساسها فإن المختونين لا يحدث لديهم تضيق في القلفة، كما أنه يندر جداً أن يحدث التهاب الحشفة عندهم، ويبدو أن تضيق القلفة ينجم عن احتباس اللخن وهي مفرزات تتجمع بين حشفة القضيب والقلفة عند غير المختونين، وقد ثبت أن لهذه المواد فعلاً مسرطناً.

ونشرت مجلة المعهد الوطني للسرطان دراسة أكدت فيها أن سرطان القضيب ينتقل عبر الاتصال الجنسي، وأشارت إلى أن الاتصال الجنسي المتعدد بالبعايا يؤدي إلى حدوث هذا. كما ورد في تقرير نشرته الأكاديمية لأمراض

(1) انظر التفاصيل الفقهية المرتبطة بهذا في كتابنا (حقوق الأولاد النفسية والصحية) من سلسلة (فقه الأسرة برؤية مقاصدية)

(2) من المراجع التي رجعنا إليها في هذا: قبسات من الطب النبوي باختصار، الأربعون العلمية، عبد الحميد محمود طهماز.. د. محمد علي البار، الختان، دار المنار.. د. حسان شمسي باشا: أسرار الختان تتجلى في الطب والشريعة ابن النفيس دمشق.

(3) البروفسور ويزويل عن مجلة Amer.Famil J. Physician.

الأطفال جاء فيه: إن الختان هو الوسيلة الفعالة للوقاية من سرطان القضيب. وأكدت المجلة الأمريكية لأمراض الأطفال أن العوامل الدينية عند المسلمين واليهود التي تقرر اتباع الختان: تلعب عاملاً أساسياً في حث هؤلاء على الأخذ بهذه الفطرة.

ابتسم يونسيف، وقال: لا بأس .. لقد سلمت لك بكل ما ذكرت .. فهل هذا كل ما جاء به الإسلام لحفظ صحة الصغار؟

قال عمير: لا .. معاذ الله .. فالإسلام الذي هو رحمة الله لعباده يستحيل أن يقتصر على الجزئيات والطقوس.

قال يونسيف: فما جاء به غير هذا؟

قال عمير: لقد جاء الإسلام بمنظومة صحية كاملة¹ لا يمكننا في هذا المجلس أن نذكرها .. ولكننا نعلم - على حسب ما ربانا آباؤنا - أن الإسلام أمر الوالدين وكل من يتولى شؤون الصغار أن يحرصوا على كل ما يحفظ للأبناء صحتهم .. فلا يمكن الإنسان أن يؤدي الأدوار العظيمة التي أمر بها الإسلام إلا بصحة وقوة وعافية.

(¹) سنتحدث عن بعض التفاصيل المرتبطة بهذا في فصل (التألمون) من هذه الرسالة.

3 _ اللطف

بعد أن انتهى الصبي الثاني من حديثه، قام الصبي الثالث، وهو أنس، وقال - بشجاعة لا تقل عن شجاعة أصدقائه - : أنا أنس .. وهو اسم لصاحب من أصحاب رسول الله ﷺ .. صحبه صبيا .. وقد حكى أول صحبتته له، فقال: قدم رسول الله ﷺ المدينة ، وأنا ابن ثمان سنين ، فأخذت أمي بيدي ، فانطلقت بي إلى رسول الله ﷺ، فقالت : يا رسول الله ، إنه لم يبق رجل ولا امرأة من الأنصار إلا قد أتخفك بتحفة ، وإني لا أقدر على ما أتخفك به ، إلا ابني هذا ، فخذه فليخدمك ما بدا لك، فخدمت رسول الله ﷺ عشر سنين ، فما ضربني ضربة ، ولا سبني سبة ، ولا انتهرني ، ولا عيس في وجهي ، وكان أول ما أوصاني به أن قال : يا بني ، اكنم سري تك مؤمنا .. فكانت أمي وأزواج النبي ﷺ يسألنني عن سر رسول الله ﷺ ، فلا أخبرهم به ، وما أنا بمخبر سر رسول الله ﷺ أحدا أبدا .

وقال : يا بني ، عليك بإسباغ الوضوء ، يحبك حافظك ، ويزاد في عمرك .

ويا بني ، إن استطعت أن لا تزال أبدا على وضوء ، فإنه من يأتيه الموت ، وهو على وضوء ، يعطى الشهادة .

ويا بني ، إن استطعت أن لا تزال تصلي ، فإن الملائكة تصلي عليك ما دمت تصلي .

ويا أنس ، إذا ركعت ، فأمكن كفئك من ركبتك ، وفرج بين أصابعك ، وارفع مرفقيك عن جنبك .

ويا بني ، إذا رفعت رأسك من الركوع ، فأمكن كل عضو منك موضعه ، فإن الله لا ينظر يوم القيامة إلى من لا

يقيم صلبه بين ركوعه وسجوده .

ويا بني ، فإذا سجدت فأمكن جبهتك وكفئك من الأرض ، ولا تنقر نقر الديك ، ولا تقع إقعاء الكلب ، أو

قال : الثعلب .

وإياك والالتفات في الصلاة ، فإن الالتفات في الصلاة هلكة .

ويا بني ، وإذا خرجت من بيتك ، فلا تقعن عينك على أحد من أهل القبلة ، إلا سلمت عليه ، فإنك ترجع

مغفورا لك .

ويا بني ، وإذا دخلت منزلك ، فسلم على نفسك ، وعلى أهلك .

ويا بني ، إن استطعت أن تصبح وتمسي وليس في قلبك غش لأحد ، فإنه أهون عليك في الحساب .

ويا بني ، إن تبعته وصيتي فلا يكن شيء أحب إليك من الموت¹

انظروا إلى الرحمة التي كان يعامل بها رسول الله ﷺ الصبية، وكيف كان يعلمهم.. وكيف كان لا يفرق في

التوجيه والنصح بينهم وبين الكبار ..

إن هذا يقودنا إلى تلك المعاملة الرحيمة واللطف العظيم الذي جاء به الإسلام نحو الأطفال .. والذي مثله رسول

الله ﷺ خير تمثيل ..

سأذكر لكم بعض الأمثلة على ذلك لتعرفوا من خلالها أن كل من يقسو على الأطفال، ويسيء إليهم خارج في

سلوكه ذلك من زمرة المتظلمين بأشعة شمسهم ﷺ :

(1) رواه الترمذي، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

لقد روى المحدثون كيف كان ﷺ يعامل حفيديه الحسن والحسين .. ففي الحديث عن عبد الله بن شداد قال: خرج علينا رسول الله ﷺ في إحدى صلاتي العشاء، وهو حامل حسناً أو حسينا، فتقدم رسول الله ﷺ، فوضعه، ثم كبر للصلاة فصلى، فسجد بين ظهراني صلواته سجدة أطالها، قال أبي: فرفعت رأسي، وإذا الصبي على ظهر الرسول ﷺ، وهو ساجد، فرجعت إلى سجودي؛ فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة، قال الناس: (يا رسول الله إنك سجدت بين ظهراني صلواتك سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه يُوحى إليك)، فقال: (كل ذلك لم يكن، ولكن ابني ارتحلني، فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته)¹

وعن عبد الله بن بريدة، عن أبيه، قال: كان رسول الله ﷺ يخطبنا إذ جاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران بمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما، ووضعهما بين يديه، ثم قال: (صدق الله: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ .. (15)) (التغابن)، فنظرت إلى هذين الصبيين بمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما)²

وعن أبي هريرة قال: قبّل رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالس، فقال الأقرع: (إن لي عشرة من الولد، ما قبلت منهم أحداً)، فنظر رسول الله ﷺ إليه ثم قال: (مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ)³ وعن عائشة أن أعرابيا جاء إلى النبي ﷺ، وقال: أتقبلون صبيانكم؟! فما تقبلهم، فقال له النبي ﷺ: (أو أملك أن نزع الله من قلبك الرحمة؟)⁴

وكان من رحمته ﷺ بالأطفال أنه كان يخفف الصلاة إن سمع بكاءهم .. حرصا عليهم .. ففي الحديث عن أنس قال: ما صليت وراء إمام قط أخف صلاة، ولا أتم من النبي ﷺ، وإن كان ليسمع بكاء الصبي، فيخفف عنه مخافة أن تُفتن أمه)

وقال ﷺ يحدث عن نفسه: (إني لأدخل الصلاة وأنا أريد أن أطيلها، فأسمع بكاء الصبي فأتجاوز في صلاتي مما أعلم من شدة وجد أمه من بكاءه)⁵

وكان ﷺ يتعهد الأطفال بالهدايا .. ففي الحديث عن أبي هريرة قال: كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاعوا به رسول الله ﷺ، فإذا أخذه قال: (اللهم بارك لنا في ثمرنا، وبارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مُدُننا)، ثم يدعو أصغر وليد يراه فيعطيه ذلك الثمر⁶.

وكان ﷺ يصطحب الصغار للصلاة ويمسح على خدودهم رحمة وتشجيعاً لهم .. فعن جابر قال: صليت مع رسول الله ﷺ صلاة الأولى - أي الظهر - ثم خرج إلى أهله، وخرجت معه، فاستقبله ولدان فجعل يمسح خدي أحدهم

(1) رواه أحمد والنسائي والحاكم وغيرهم.
(2) رواه أحمد وابن حبان والحاكم.
(3) رواه البخاري.
(4) رواه البخاري ومسلم.
(5) رواه ابن ماجه.
(6) رواه مسلم.

واحدًا واحدًا، قال: وأما أنا فمسح بخدي، فوجدت ليده برداً أو ريحاً كأنما أخرجها ﷺ من جونة عطار¹.
 وكان ﷺ يحمل الصبيان، حتى وهو في الصلاة، ففي الحديث عن قتادة أن رسول الله ﷺ كان يصلي وهو حامل
 أمامة بنت زينب بنت رسول الله، وهي لأبي العاص بن الربيع، فإذا قام حملها، وإذا سجد وضعها، فلما سلم حملها².
 وكان ﷺ ينهى عن الكذب الأطفال، أو إخلافهم الوعد.. فعن عبد الله بن عامر قال: دعيتني أُمِّي ورسول الله
 ﷺ قاعد في بيتنا، فقالت: ها تعال أعطك، فقال لها ﷺ: (ما أردت أن تعطيه؟)، قالت: أعطيه تمراً، فقال لها: (أما أنك
 لو لم تعطه شيئاً كُتبت عليك كذبة)³

وكان ﷺ يعقد المسابقات بين الأطفال لينشّط عقولهم، وينمّي مواهبهم، ويرفع همّتهم، ويعزّز طاقاتهم المخبوءة،
 فقد تصارع سمرة، ورافع أمام رسول الله ﷺ عندما أرادا الاشتراك في جهاد الأعداء، فردهما رسول الله لصغر سنهما،
 فركى الصحابة سمرة لأنه يحسن الرمي، فأجازه ﷺ، فذكر رافع أنه يصارعه - أي أنه أقوى منه - رغم أنه لا يحسن
 الرمي، فطلب الرسول الكريم منه أن يصارعه، فدخلا معاً مباراة للمصارعة فصرعه رافع، فأجازهما رسول الله ﷺ.
 ولم تقتصر رحمة النبي ﷺ على أطفال المسلمين فحسب، بل امتدت لتشمل جميع الأطفال حتى لو كانوا أبناء غير
 المسلمين.. فقد كان من وصاياه ﷺ في الحرب: (ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا)⁴

وعن الأسود بن سريع قال: أتيت النبي ﷺ وغزوت معه فأصبت ظفراً، فقتل الناس يومئذ حتى قتلوا الولدان، فبلغ
 ذلك رسول الله ﷺ، فقال: (ما بال أقوام جاوز بهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية؟)، فقال رجل: يا رسول الله إنما هم
 أبناء المشركين، فقال: (ألا إن خياركم أبناء المشركين)، ثم قال: (ألا لا تقتلوا ذرية.. كل مولود يولد على الفطرة، فما
 يزال عليها حتى يعرب عنها لسانه، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)⁵

(1) رواه مسلم.

(2) رواه البخاري ومسلم.

(3) رواه أبو داود وغيره.

(4) رواه مسلم.

(5) رواه أحمد.

4 - التربية

تقدم الصبي الرابع، وهو عبد الله، وقال - بشجاعة لا تقل عن شجاعة أصدقائه- : أنا عبد الله .. وهو اسم لجملة من أصحاب رسول الله ﷺ من الصغار .. وكان منهم واحد يلقب بترجمان القرآن، كان اسمه عبد الله بن عباس.. صحبه صبيا .. وقد حكى موقفا من مواقف تربية رسول الله ﷺ له، فقال: كنت خلف النبي ﷺ يوما فقال: (يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف)¹، وفي رواية: (احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا)

انظروا - حضرات المستمعين - لهذه المعاني العظيمة التي يحملها الحديث ..

إن رسول الله ﷺ لا يخاطب فيه شيخا كبيرا .. ولا كهلا .. ولا شابا .. بل كان يخاطب بها طفلا صغيرا .. ليعمق فيه من معاني الإيمان ما يحمي به حياته جميعا .. فلا يمكن للحياة أن تستقيم من دون إيمان.

ضحك يونسيف بصوف عال، وقال: فكيف استقامت حياتنا من دون إيمان؟

قال عبد الله: إن أردت بالحياة أنكم تأكلون وتشربون وتنامون .. فيمكنك أن تقول ذلك .. ويمكنك أن تفخر به .. ولكنك في ذلك الحين تكون قد غفلت عن أهم معنى من معاني الحياة.

قال يونسيف: وما هو هذا المعنى؟

قال عبد الله: تكون غافلا عن ربك الذي خلقك .. وعن حقيقتك التي جعلها الله فيك .. وعن وظيفتك التي

ندبت إليها في هذا الوجود.

قال يونسيف: أنا أصارحك .. أنا لا يهمني إلا أن يعيش أولادي الحياة المادية التي أراها .. أما ما عداها فلا

يهمني منها شيء.. أنا إنسان لا تهمني إلا منفعة أولادي التي أراها بعيني، والتي أسست لأجلها هذه الروضة لتنعموا أنتم أيضا بها.

قال عبد الله: حتى لو كنت كما تقول، فإنك بالإيمان تستطيع أن تجعل من أولادك أفرادا صالحين .. فلا يمكن

للحياة أن تستقيم من غير صلاح صاحبها .. ولا يمكن لشخص أن يصير صالحا من غير أن يكون له من زاد الإيمان ما يهيئه لذلك.

لست أنا فقط الذي أقول هذا الكلام .. ولا ديني فقط هو الذي يقوله .. بل إن من قومك من وصل إلى هذه

القناعة².

لقد قرأت للدكتور (هنري لنك) - وهو طبيب نفسي أمريكي - كلاما مهما يرد به على خصوم التربية الدينية..

(1) الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

(2) رجعنا في هذه النقول التي نذكرها هنا والتعليقات عليها إلى كتاب (الإيمان والحياة) للدكتور يوسف القرضاوي.

ذكره في كتابه (العودة إلى الإيمان)، ومما قال فيه: (إن تربية الأطفال لمن أشق الواجبات وأخطرها وأدقها، ومشاكلها شديدة التعقيد والعسر، وهي بعد ذلك ذات أوجه متناقضة عند حلها يكون معها الآباء في ميسر الحاجة إلى أية معونة خارجية، مهما بلغت درجة تواضعها وبساطتها.

وقد كان طبيعياً. بعد أن استغنى الآباء المستنبرون عن المعتقدات الدينية، وضربوا بها عرض الحائط، أن يولوا وجوههم شطر مصدر جديد من مصادر المعونة. فلم يجدوا أمامهم سوى علم النفس الخاص بالأطفال، ولكن علم نفس الأطفال لم يكن بعد، على استعداد لتقديم المعونة لهم، لأن الثقة بهذا العلم لم تكن قد تعدت الثقة النظرية حتى ذلك الوقت. وكان البرهان العلمي حينذاك في مهده صغيراً برغم تعدد نظرياته.

ومن هنا بدأ الآباء يعتقدون هذه النظريات التي كان أبرزها أن العقوبة البدنية ضارة من الوجهة النفسية، وأنه من الأفضل إقناع الطفل بعمل شيء ما، لا إرغامه بالقوة والعنف عليه، وأنه لا يجوز كبت الطفل بل على العكس يجب منحه الفرصة كي يعبر عن ذاته.. وأنه يجب منح الأطفال علوة منتظمة حتى يمكنهم إدراك قيمة المال، وأن بعض الأطفال يولدون بطبيعتهم عصبيين أو ذوى حساسية مرهفة، وعليه فلا يجوز إرغامهم على أن يفعلوا، ويعملوا ما يفعله ويعمله غيرهم.

وللأسف، لم يظهر أي برهان علمي أو نفسي يؤيد هذه النظريات، بل بالعكس ثبت أن كل هذه النظريات خاطئة¹

وهو إذ يهدم هذه الأفكار التي راحت باسم العلم يوماً ما، يرى ضرورة العودة إلى الدين، واتباع منهجه في تربية الأطفال وتهذيب سلوكهم، وتكوين أخلاقهم، فليس أصلح للطفل من أن تقول له: هذا حسن، لأن الله أمر به، وأنه يحبه ويرضاه ويثيب عليه بالجنة، وبأن هذا قبيح، لأن الله نهى عنه وأنه يبغضه ويسخطه، ويعاقب عليه بالنار.

ولهذا ينكر على الآباء الذين يتخلون عن هذه الطريقة المقنعة المقبولة إلى طرائق لم يثبت صحتها ولا نفعها فيقول: (فقد سمعنا الكثيرين من الآباء يرددون: انهم لا يبحثون بأولادهم إلى الدروس الدينية أو إلى محلات العبادة، حتى يصلوا إلى السن التي يدركون عندها ما يجري. غير أن ما يضايقهم، ويقض مضجعهم هو هذا السؤال:

ترى هل يكتسب هؤلاء الأولاد ذلك الشعور القوي الذي يمكنهم به أن يميزوا بين الخطأ والصواب؟ هل يؤمنون بتلك المثل الخلقية الواضحة التي أمانا بها منذ طفولتنا؟

لقد قلنا فيما مضى أن بعض الأعمال خطأ والبعض الآخر صواب، لأن الله سبحانه وتعالى قد بين ذلك، أو لأن كتابه قد أورد ذلك بمعنى آخر. وقد تكون هذه الطريقة فطرية بدائية، غير أنه مما لا شك فيه أن تأثيرها كان طيباً فقد عرفنا على الأقل الكثير عن طيب الأفعال وخبيثها. أما الآن فإننا لا نقول لأولادنا إلا أن هذا التصرف خطأ، وأن ذاك صواب، لأننا نرى ذلك، أو لأن المجتمع قد اتفق على ذلك. فهل لهذا الود من القوة والبيان ما لسابقه؟ وهل له مثل أثره وهل يكتسب أطفالنا القيم الخلقية الأساسية للحياة دون الحاجة إلى ضغط العقائد الدينية، تلك القيم التي نتقبلها ونسلم بها حتى بعد أن أصبحنا لا نسلم بمصدرها الإلهي؟²

(1) العودة إلى الإيمان: 113.

(2) العودة إلى الإيمان: 110.

ويعود إلى ذلك حين يتحدث عن مقدار ما يسديه الدين من عون للآباء في تربية أبنائهم وتهذيبهم، وتكوين شخصياتهم الفاضلة فيقول: (وبديهي أن الأطفال يختلفون، سواء بطبيعتهم أم بحسب وراثتهم، ولكن مهما كانت هذه الطبيعة أو الوراثة طيبة جيدة، فإنه لا يمكن غرس العادات الأساسية بغير (النظام)، ولما كان استياء الطفل من النظام واتجاهه عكسياً، كلما حاولت إيماء العادات الطيبة فيه، أمراً لا مفر منه، كان من الواجب استخدام كل وسيلة ذات تأثير أو ذات صفة إرغامية، تساعد على الإسراع في اكتساب هذه العادات. والواقع أن معظم الآباء يكونون في أشد الحاجة إلى الاستعانة بنصائح غيرهم، في أثناء عملية غرس العادات المرغوبة في أطفالهم.

وإذا بحثنا من الناحيتين: العقلية والنفسية، وجدنا أن أعظم مصادر هذا العون هو الدين .. فالإيمان بوجود الله ورسله وكتبه يهيئ للأبوين ملجأً أميناً موثقاً به يلجئون إليه، ويضع بين أيديهم سلطة كبرى على أطفالهم كانوا يفتقرون إليها حتى لو لم يؤمنوا بها.

فإن هؤلاء الآباء الذين كانوا يتساءلون كيف ينمون عادات أولادهم الخلقية ويشكلونها، في حين تنقصهم هم أنفسهم تلك التأثيرات الدينية التي كانت قد شكلت أخلاقهم من قبل، كانوا في الحقيقة يجاهون مشكلة لا حل لها، فلم يوجد بعد ذلك البديل الكامل الذي يحل محل تلك القوة الهائلة التي يخلقها الإيمان بالخالق وبناموسه الخلقى الإلهي في قلوب الناس.

فتجد الآباء الذين تحرروا من الإيمان عن طريق ثقافتهم وأعمال فكرهم حيارى متسائلين على الدوام.

إذن كيف يتسنى لأولئك الحيارى أن يكونوا أنفسهم ملجأً لأولادهم؟

ففي حالة عدم وجود مثل هذا الملجأ الديني الموثوق به، لا يسع كل أب إلا أن يفكر وبمعن في التفكير: ويبحث ويطلب البحث قبل أن يبين لطفله مدى الخطأ والصواب، والخير والشر، في كل حالة من الحالات العديدة التي تصادفه يومياً، وفي كل عادة من العادات المختلفة مما يود غرسها في طفله.

وكلما كبر الطفل ونما، وكلما أصبح واقفاً تحت تأثير سلطات المجتمع المتضاربة المقاصد، المختلفة الميول والاتجاهات - كالمدرس والجيران وزملائه وبلدته - زاد الأمر صعوبة، وأصبح أشد تعقداً، فالترية واجب شاق. كما أن هذا الارتباك الكائن في عقول معظم الآباء هذه الأيام خير شاهد على صدق هذه الحقيقة.

فالدين هو القوة الوحيدة! التي يمكنها أن تعين الإنسان على حل تلك المشكلات الخلقية والعقلية التي لا مفر منها، والتي لا تفتأ تقض مضاجع الآباء والأبناء والمجتمع كله. ولن تجد في هذا العالم المضطرب، الذي لا تضي فيه فترة حتى يثور الناس عن السلطة القائمة محاولين تغييرها، غير الله وحده هو الحي الباقي الذي لا يتغير ولا يتبدل.

فذلك الطفل الذي اعتنق منذ طفولته المبكرة فكرة وجود الله بصفته المشرع الأعلى للخير والشر؛ يكون قد اكتسب الحافظ الجوهري الذي سيدفعه حثيثاً نحو العادات الطيبة. فبدلاً من أن يقوم صرح أعماله على ما يجبه وما لا يجبه نراه يقوم على الصواب والخطأ. فهو قد يرى عدم إطاعة أمه يوماً ما، ولكنه يدرك جيداً أنه قد أخطأ، وهو قد لا يجب أن يعيد لأمه ما تبقى معه من نقود بعد أن اشترى لها مطالبها، ولكنه يعلم تماماً أن ذلك ليس بصواب، وهو قد لا يجب أيضاً أن يتنازل عن أنانيته مع زملائه في اللعب، لكنه يرغم نفسه على أن يفعل ذلك.

وطبيعي أن مثل هذه الطريقة ليست من السهولة أو البساطة. يمكن، ولكنها سرعان ما تنمي فيهم عادة التمييز بين الدوافع الأنانية والشخصية، وبين العادات الطيبة، أو الاختصار بين اللذة وبين الشعور بالواجب.

فمما لا شك فيه أن تغلب المرء على كسله وبلادته، وقهره لدوافعه الطبيعية الكامنة فيه، هو الطريقة الصحيحة لاكتسابه العادات اللازمة للشخصية الناجحة فيقدر ما يفرضه الدين على الطفل من هذه الصفات الطيبة التي ينبغي له تعلمها بمضي الطفل حثيثاً إلى اكتساب صفات الشخصية الفاضلة¹

ويؤكد الدكتور (نك) أن الدروس الدينية، والتردد على بيوت العبادة لها في نفس الصبي أعمق الأثر، وأطيب الثمرات، كما أثبتت ذلك التجارب والمقارنة بين الأطفال بعضهم وبعض.. وفي ذلك يقول: (ومهما بلغت المساوي، التي نلمسها في أماكن العبادة، والاستماع إلى العظات الدينية، فإن هذه البيوت تساعدنا على غرس الأسس السليمة للخُطأ والصواب، والأعمال الأنانية وغير الأنانية في نفوس الأطفال. كما أنها تساعد على غرس الإيمان بالله والاعتقاد في ناموسه الخلقى الإلهي كمصدر لتلك الأسس. ولذا فهي ذات فائدة عظيمة للآباء والاجتماع، كي يثبوا الأسس الضرورية لتكوين الخلق القويم والشخصية الناجحة. وبناء على ذلك، ليس من المستغرب أن يدلنا الاختبار السابق الذكر على أن الطفل الذي يستمع إلى الدروس الدينية يتمتع بصفات شخصية أفضل ممن لا يحضرها، وأن الطفل الذي يذهب والداه إلى المعبد ذو شخصية أحسن من الطفل الذي لا يذهب والداه إليه.

وقد اتضح لي بعد دراسة كاملة لعشرة آلاف شخص، أن أولئك الذين يواظبون على الذهاب إلى دور العبادة، كانوا ذوي صفات شخصية أفضل ممن لا يذهبون²

ولا يقتصر على ذلك، بل يلح على التبكير بإعطاء هذه الدروس للأطفال وأعوادهم غضة، ولو لم يفهموا كل ما يقال لهم، ويرى من الخُطأ والخطر تأخير هذه الدروس الدينية إلى السن التي يفهمون فيها. يقول: (إن الوقت الأمثل لتعليم الطفل كيف يخضع دوافعه لقيم عليا، هو السن التي يستطيع فيها أن يتقبل ما يقال له دون أن يفهمه.

فإذا استقر رأي الآباء على عدم إرسال أولادهم إلى الدروس الدينية، حتى يبلغوا السن التي يفهمون عندها ما يستمعون إليه، فهم في الحقيقة يتبعون مبدأ هاماً، لأن الوقت يكون قد فات لإصلاح ما فسد إذا بلغ الطفل السن التي يفهم بها كل ما حوله، فانه حينئذ يكون قد أضاع من عمره سنين ثمينة³

ويختتم حديثه عن التربية والتعليم بقوله: (إن ميدان التعليم لفي ميسس الحاجة إلى جمع القيم والحقائق الأساسية التي تبحث في الطبيعة البشرية وتصنيفها، حتى يمكن المحافظة على تلك التقاليد النبيلة التي اكتسبها الجنس البشري، ووضعها في المكان اللائق بها، وحتى يمكن إخضاع الغطرسة الفكرية لنظام الحياة غير الأنانية. ولن تجد ما يجمع بين تلك القيم الماضية القديمة والمثل الحاضرة الحديثة غير الدين⁴

بعد أن ألقى علينا عبد الله هذه الكلمات توجه إلى يونسيف، وقال: هذه شهادة من بعض قومك على جدوى ما جاء به نبينا أوجهه إليك، وإلى من يفكر بالأسلوب الذي تفكر فيه.

أما نحن .. فقد حفظنا بفضل استغلالنا بأشعة شمسك ﷺ من الانحراف إلى أي قبلة غير القبلة التي وجهنا إليها

(1) العودة إلى الإيمان: 119.

(2) العودة إلى الإيمان: 123.

(3) العودة إلى الإيمان: 130.

(4) العودة إلى الإيمان: 181.

ربنا، وأمرنا بالتوجه إليها .. وقام أباًؤنا رغم فاقتهم وحاجتهم بما خير قيام.
لقد امتثلوا فيما أمر الله التي يأمر فيها عباده بأن يحموا أنفسهم وأهلهم من أن تلتهمهم نيران الجاهليات، وبعدها
نيران العذاب .. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ
غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (التحریم: 6)
وقد أخبر ﷺ عن مسؤولية الإنسان عن أهله وولده، قال ﷺ: (كلكم راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في
أهله ومسئول عن رعيته)¹

وقد ترك ﷺ لأبائنا من الهدى ما جعلهم يمتثلون رحمة لنا في هذا الباب، كما امتثلوا رحمة في غيره².
ومن ذلك أمره ﷺ بتربية الأبناء على الصلاة .. وعلى الحرص عليها .. تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ
وَأَصْطِرْ عَلَيْهَا لَأَسْأَلَكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ (132) (طه)
فقد قال رسول الله ﷺ يدعو الآباء للتشدد مع الأبناء في شأن الصلاة: (علموا الصبي الصلاة لسبع سنين
واضربوه عليها ابن عشر سنين)³

هنا قام يونسيف، وكأنه قد ظفر بضالته، وقال: ها .. ها .. ها هو يذكر دعوة محمد لضرب الصبيان.
ابتسم عبد الله، وقال: رأيت - حضرة البروفيسور الكبير - لو أن ولدك أصابه مرض استدعى أن يشرب دواء
مرا .. أو يرتمي بين يدي جراح ليعمل سكينه في جسده الضعيف .. أتري ذلك قسوة؟

قال يونسيف: لا .. ولكن ما علاقة هذا بهذا؟
قال عبد الله: لقد أمر نبينا ﷺ الآباء أن يستعملوا كل الأساليب الهادئة المسالمة مع أبنائهم .. أمرهم بالحوار معهم
لإقناعهم .. وأمرهم بموعظتهم .. وأمرهم بأن يكونوا قدوة صالحة لهم ..

فإذا استنفذ الآباء كل هذه الوسائل وغيرها أباح لهم استعمال الشدة المضبوطة بالضوابط الشرعية ..
انظر - حضرة البروفيسور - المسافة الزمنية بين الأمر بالصلاة، وبين الضرب على تركها ..
لقد أمر ﷺ الآباء أن يأمرهم لسبع .. ويديروهم عليها من ذلك السن .. فإذا وصلوا إلى العشر، ولم يقتنعوا
بالصلاة أو لم يحرصوا عليها أتيح لوالديهم حينذاك أن يستعملوا العنف المضبوط بالضوابط الشرعية.
قال يونسيف: وما علاقة هذا بالعملية الجراحية؟

قال عبد الله: أليس غرض العملية الجراحية أو الدواء المر هو استئصال مادة الشر من المريض؟
قال يونسيف: تستطيع أن تقول ذلك.
قال عبد الله: وهذا هو نفسه دور ذلك التنبيه الذي أباح الشرع للوالد أن يستعمله إذا ما اضطر إليه.
قال يونسيف: دعنا من هذا .. وأنا لا يهمني هذا كثيراً .. ولكن ألا ترى اقتصار الإسلام على الحث على الصلاة

(1) رواه البخاري ومسلم.
(2) ذكرنا التفاصيل الكثيرة المرتبطة بهذا في كتاب خاص من سلسلة (فقه الأسرة برؤية مقاصدية) بعنوان (الأبعاد الشرعية
لتربية الأولاد)
(3) رواه أبو داود والترمذي وغيرهما بأسانيد صحيحة. قال الترمذي: هو حديث حسن ، ولفظ أبي داود: (مروا الصبي
بالصلاة إذا بلغ سبع سنين ، وإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها)

فقط قصورا تربويا.

قال عبد الله: لا .. الصلاة جزء من أجزاء الإسلام .. وركن من أركانها .. ولذلك فإن التربية التي جاء بها الإسلام وحث عليها الآباء وغيرهم أعظم من أن تنحصر في ذلك .. إنها تربية تشمل الحياة جميعا بجميع مناحيها. قال يونسيف: فحدثنا عنها.

أخذ عبد الله يحدث يونسيف والحضور عن المعاني التربوية الكثيرة التي جاء بها الإسلام، والتي شملت مناحي الحياة المختلفة¹ إلى أن قال يونسيف من غير أن يشعر: إن ما تقوله عظيم .. لقد زرت كثيرا من البلاد، واطلعت على الكثير من الثقافات، واختلطت بكثير من الأديان .. لكني لم أر ديننا ولا فكرا ولا ثقافة تحدثت عن هذا بهذا التفصيل الجميل. ثم قام، وقال: اسمحوا لي - أيها الجمع - أن أقول لكم بكل صراحة: لقد جئت إلى هذه البلاد، وليس لي إلا همة واحدة هي اقتلاع الإسلام من قلوب هؤلاء الأبرياء .. ولذلك أسست هذه الدار، وملأناها بكل ما أطقته من المغريات. لكني أرى أنه لا يقاوم هذ الدين شيء .. وذلك لا يدل إلا على أنه دين الله ..

وأنا أشهدهم من هذا المحل استسلامي لهذا الإله العظيم الذي كنت أحاربه من حيث لا أشعر .. وعلامة صدقي في إسلامي وتوبيتي أن أجعل هذه الدار دارا للإسلام، ولتربية الأبناء على الإسلام .. عسى ذلك أن يقربني لربي، وأن يمحو تلك الذنوب التي رانت على قلبي منذ أخذت حربتي ورحت أحاربه. قال ذلك بشوق عظيم .. وقد كبر الجمع بعدها صغارا وكبار .. وقد صحت معهم بالتكبير من حيث لا أشعر .. وقد تنزلت علي حينها أنوار جديدة اهتديت بها بعد ذلك إلى شمس محمد.

(1) لم نشأ أن نتحدث عن ذلك هنا باعتبار أن لنا كتابا خاصا في هذا الموضوع، وهو (الأبعاد الشرعية لتربية الأولاد)، وهو من سلسلة (فقه الأسرة برؤية مقاصدية)

ثالثاً — العجزة

في اليوم الثالث، سرت نحو دار للعجزة .. كان قد أسسها صاحب لنا اسمه (برنارد بيرجمان)¹ .. ذلك الذي يطلق عليه أصحابنا لقب (ملك بيوت المسنين) ..

وقد جاء تلك المدينة ليغرس فيها ما كان قد سبق أن غرس مثله في الولايات المتحدة الأمريكية .. وقد استفاد من كل التجارب التي مر بها .. والتي كان آخرها دخوله السجن، ودفعه مبلغا كبيرا غرامة على ما وقع فيه من التلاعب بالأموال، واستعمال المسنين شبكة لصيده الوافر.

كان ظاهر الدار لوحة من لوحات الجمال .. ولكن باطنها كان مميذا وغريبا لم أر مثله في أي دار أخرى. لقد كانت كل دور العجزة التي رأيتها في حياتي لا تحوي إلا الشيوخ المسنين الذين ألقمهم الأيام إليها مرغمين لا مختارين .. بينما رأيت تلك الدار التي أسسها (ملك بيوت المسنين) لا تحوي إلا شبابا ممثلين جلدا وقوة، ولم يقدموا إليها إلا وهم ممثلون رغبة واختيارا.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لقد كانت الدار مع ما فيها من المرافق خالية من أي مسن، فلم يكن فيها إلا العمال والخدم والمرضون .. والذين اختاروا بمحض رغبتهم العمل في هذا المجال.

قلت: والشيوخ؟

قال: هذا هو الحديث الذي أريد أن أحدثك عنه .. والذي استفدت منه شعاعا جديدا من الأشعة التي اهتديت بها إلى شمس محمد ﷺ.

في ذلك اليوم .. وفي تلك الدار رأيت (برنارد بيرجمان) جالسا على كرسي من كراسي الحديدية، وقد أحاط به الهم والحزن .. فكسا وجهه سربالا من اليأس والقنوط. اقتربت منه، وقلت: ما بال ملك المسنين حزينا يائسا؟

(1) استفدنا المعلومات المرتبطة بهذه الشخصية من (الموسوعة اليهودية) للمسيري.

وقد ذكر أنه وُلد في الجرح وهاجر إلى الولايات المتحدة عام 1929، وتخرَّج هناك في جامعة يشيفا ليصبح حاخاما أرثوذكسيا، إلا أنه ترك العمل الديني واتجه نحو الأعمال التجارية ودخل قطاع ملاجئ ومصحات المسنين وهو قطاع يتمتع بمأمن ربح عالي في الولايات المتحدة.. ونظرا لأن الدولة كانت تتحمل النسبة الأكبر من نفقات رعاية المسنين في إطار البرامج الحكومية المخصصة، لجأ بيرجمان إلى تعظيم أرباحه من خلال تضخيم كشوف نفقات هذه الملاجئ والمصحات المقدمة إلى الجهات الحكومية المعنية. وقد تبين من التحقيقات اللاحقة مدى حجم الإهمال والأوضاع المتردية والمعاملة اللا إنسانية التي تلقاها النزلاء المسنون وهو ما أكد وصف بيرجمان بأنه (يهودي يتولى إدارة معسكر اعتقال)

وقد كان من كبار المساهمين في الأنشطة الصهيونية والأنشطة اليهودية.. وحرص على إقامة علاقات وثيقة بشخصيات سياسية أمريكية واستغلال هذه العلاقات لتمرير بعض مشاريعه أو التغاضي عن تجاوزاته، كما أنه لم يتردد في اتهام الهيئات أو الجهات المختصة التي عارضت مشاريعه بأثام معادية لليهود، وذلك في الوقت الذي كان يقوم فيه باستنزاف المسنين من اليهود وغير اليهود وإهدار آدميتهم تحت عباءة اليهودية..

وقد بدأ التحقيق مع بيرجمان عام 1974 حيث أُدين بتهم الاحتيال والنصب على البرنامج الأمريكي للرعاية الصحية وبتهم الرشوة والتهرب الضريبي.. وحُكم عليه بالسجن لمدة عام وأربعة أشهر وبغرامة كبيرة.

قال: وكيف لا أياس .. وأنا مع كل تلك المكاسب التي كسبتها قد لجأت إلى هذه الديار المملوءة بالقسوة والألم.

لقد كنت في أمريكا ملكاً حقيقياً يرى في الشيوخ عوضاً عن أبنائهم .. بل كانوا إذا ما خيروا بين صحبتي وصحبة أبنائهم اختاروا صحبتي .. وها أنت تراني الآن في هذه الدار قد قلاني الشيوخ، وودعوني .. مع أني وفرت لهم كل ما يحتاجونه من ألوان الرعاية مما لم أوفر مثله لزبائني في ذلك العالم المتحضر.

قلت: فما ترى سر ذلك؟

قال: لست أدري .. إلى الآن لا أزال لا أدري السبب .. ولكن الذي أدريه أني في تلك الديار كنت أرى من عجائب التعامل مع المسنين ما لم أر مثله في هذه الديار..

ففي تلك الديار¹ يعيش العجزة في حالة بائسة، فلا يسأل الولد عن أمه ولا أبيه، ولا ينفق عليهما، ولو كانت حاجتهما شديدة.. فكم من رجل مسن وامرأة مسنة يموتان في أوروبا وأمريكا في كل عام من البرد والجوع!!

بل قد تبقى الجنة في الشقة أياماً دون أن يحس بها أحد، إذ يعيش معظم هؤلاء الشيوخ بمفردهم، فلا يزورهم أحد إلا نادراً، وقد لا يرون إلا مندوب الضمان الاجتماعي في كل شهر مرة².

وقد ورد في تقرير أعدته لجنة في مجلس النواب الأمريكي، بعد دراسة استمرت ست سنوات جاء فيها: (إن أكثر من مليون مسن ومسننة، تجاوزت أعمارهم (65 عاماً) يتعرضون لإساءات خطيرة، فيضربون ويعذبون عذاباً جسدياً ونفسياً، وتسرق أموالهم من قبل ذويهم.. كما أن هذه الإساءات، ليست مقتصرة على طبقة اجتماعية معينة، بل إنها تحدث في كل طبقات المجتمع على حد سواء، في المدن والقرى والأرياف)

ومن أبتشع ما ورد في هذا التقرير: (أن امرأة قامت بتقييد أبيها البالغ من العمر (81 عاماً) بسلسلة وربطته أمام الحمام، وأخذت تعذبه لعدة أيام!!) وقد أكد التقرير أن الإساءة للمسنين، تأخذ عدة أشكال، منها الضرب والإهمال والحرمان من الطعام والشراب وقد يصل الأمر إلى القتل أحياناً)

وقد علق النائب (كلودير) على هذا قاتلاً: (لا أحد يدرك حتى الآن أبعاد هذه المشكلة المرعبة، ولا يرى أحد أن يعترف بما يجري، لقد تجاهلنا المشكلة لأنها مخفية، لدرجة تمنعنا من الاعتراف بوجودها، ولا نريد أن نصدق أن مثل هذه الأشياء، يمكن أن تحدث في دولة متحضرة)

وقد حدثني الدكتورة (سوزان ستايتمر) أستاذة الدراسات العائلية في جامعة (ملاوير) قائلة: (لقد تعودنا طوال تاريخنا على الإساءة للمسنين، إننا نميل إلى العنف البدني، وقد أصبح هذا جزءاً ثابتاً من طبيعة عائلات كثيرة تسيء للمسنين، بالعنف والاضطهاد، وأصبح إهمالهم وعدم الرفق بهم، أو حتى نجلدهم من الأمور الشائعة في المجتمعات الأوربية)³

وحدثني صديق لي كان يعمل منوياً في أحد المستشفيات هناك، وكان قد توفي رجل مسن في تلك الليلة عنده،

(1) استفدنا المعلومات الواردة هنا من كتاب (رعاية المسنين في الإسلام) لعبد الله بن ناصر بن عبد الله السدحان.

(2) عمل المرأة في الميزان: د. محمد علي البار، ص: (37)، الطبعة الثالثة.

(3) مجلة الأسرة، العدد (105) بعنوان: (المسنون في ديننا وحضارتهم)، من مقال لخالد ابن ناظم الشريف.

فأحب أن يعزي أسرة المتوفى، واتصل بولده في الساعة الثانية عشرة ليلاً، وعزاه بوفاة والده على وجل.. فما كان من الابن إلا أن امتعض من هذا الاتصال وقال: أتتصل بي في هذه الساعة المتأخرة من الليل، لتخبرني بوفاة والدي؟! وماذا تنتظر مني أن أفعل؟! .. أنا مسافر صباحاً لمدة ثلاثة أيام، ضعه في الثلاجة، وسأراجعكم حين عودتي، من أجل استلام الجثة¹

وحدثني آخر .. كان هو الآخر طبيباً في بعض الدور التي أسستها .. قال لي: (كنت أعجب من أحد الشيوخ المرضى، الذين كنت أقوم بعلاجهم في أحد المستشفيات التي كنت أعمل فيها، في إحدى ضواحي مدينة لندن، فقد كان الرجل لا يمل من الكلام عن ابنه البار الذي ليس له نظير في عالم اليوم. ولم أر ابنه يزوره أبداً، فسألته عن ولده، أمسافر هو؟! فأجاب لا، إنه موجود، ولكنه لا يأتي لزيارتي إلا يوم الأحد، فقد عودني ذلك منذ سنين عديدة.. تصور يا دكتور! كان يأتيني كل يوم أحد حاملاً معه باقة من الورود، ونذهب سوياً لنضعها على قبر أمه.

ولما سألته: هل ينفق عليه؟! قال: لا أحد ينفق على أحد في هذه البلاد.. إنني أستلم كذا من الجنيهاً، من الضمان الاجتماعي، وهي لا تكاد تكفي للقوت والتدفئة، ولكن هل هناك أحد في الدنيا مثل ولدي، الذي يزورني كل يوم أحد منذ سنوات؟!)

وقرأت في بعض لصحف قصة الشاب الذي رضي أن يؤوي أمه العجوز في بيته، مقابل أن تقوم بخدمته وخدمة زوجته وأولاده، وتنظف بيته، وقد اعتبرت الصحيفة هذا كراماً من هذا الولد البار بأمه. وقرأت أن الشرطة في بعض بلادنا، اعتقلت شاباً، قتل والده بمساعدة الطبيب الذي كان يتولى علاجه.. وبينت التحقيقات أن الشاب (يوسف زوهر) طمع في أموال والده، ومن ثم فقد وعد الطبيب المشرف على علاج والده بحصة معتبرة إن ساعده على قتل والده.. فقام طبيب الموت بفصل جهاز التنفس عن المريض، ووقف يرقب المغدور، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، دون تقديم أية مساعدة له.. وقد وجهت الشرطة للابن تهمة القتل مع سبق الإصرار والترصد². قال ذلك، ثم سار قليلاً في أرجاء داره الخاوية من المسنين، ثم رجع إلي، وقال: لا بأس .. لن تطول الأيام حتى يبدأ الشيوخ في الوفود إلى هذه الدار .. لقد أرسلت من يسعى لي في هذا السبيل.

لم يطل الزمن على قوله هذا حتى دخل بعض الشيوخ الدار، فرأيت البشر قد كسا وجه (برنارد بيرجمان)، فبدد ما كان فيه من ظلمات اليأس والحزن.

التفت إلي برنارد، وقال: ألم أقل لك؟ .. ها هو أول الفأل.

رأيت العمال جميعاً يسرعون إلى الشيخ يميونه، ويرحبون به، وكل واحد منهم يحاول أن يقدم له أي خدمة. اقتربت مع برنارد نحو الشيخ، وسأله برنارد قائلاً: أهلاً ومرحباً بك في بيتك بين أبنائك وخدمك وأطبائك. رد الشيخ التحية، ثم قال: أهذه الدار التي أسسها (برنارد بيرجمان) للمسنين.

(1) المرأة بين الجاهلية والإسلام ص: 328.

(2) مجلة الجندي المسلم، العدد (111) سنة 1424هـ.

قال برنارد: أجل .. هذه هي الدار التي أسستها لخدمتكم، وتوفير كل أصناف الرعاية لكم .. وعندنا ستنسى كل ألم، وستحضى بكل عناية.

قال الشيخ: شكرا جزيلًا .. أرى أن هذه الدار محل صالح ليقضي المرء فيها ما بقي له من عمر. ما قال ذلك حتى سمعنا ضجة خارج (دار المسنين)، فأسرعت مع (برنارد بيرجمان) وجميع العمال نبحت عن سرها.. فوجدنا جمعا كبيرا من الناس قد اختلطت أصواتهم، فلم نفهم منها شيئا إلا أنهم جميعا كانوا يرددون اسم الشيخ الوافد.

بعد برهة توقفت الأصوات، فسألهم برنارد عن سرهم، وسر حضورهم، فقال أحدهم: لقد سمعنا أن رجلا قد قدم إليكم .. وقد تمنا في البحث عنه، فلم نجد له أثرا.

قال برنارد: ما شأنه؟ .. وما تريدون منه؟

قال الرجل: هو والدي .. وهؤلاء جميعا إما أولاده أو أحفاده أو أقاربه .. وهم جميعا قدموا يبحثون عنه. لقد بحثنا في محال كثيرة إلى أن دلنا بعض الناس عليكم .. فإن كان هذا الرجل عندكم، فنرجو أن تسمحوا لنا بلقائه.. ونرجو أن تسمحوا لنا بإعادته إلى داره.. فقد صارت مظلمة منذ افتقدناه.

قال برنارد، وقد خاف أن يكون الشيخ الذي يبحثون عنه هو ذلك الذي قدم قبل حين: نحن لا نعرف من تبحثون عنه .. فاذهبوا إلى محل آخر.

ما قال ذلك حتى خرج الشيخ، فراح الجميع يسرعون إليه يحتضنونه، ويقبلون يديه ورجليه في منظر عجيب لم أر مثله في حياتي.

سألهم برنارد: ما تريدون من الشيخ .. لقد قدم بمحض إرادته، فاتركوه ليعيش الحياة التي يريد. قال أحدهم: كيف تتركه؟ .. أتريد منا أن نغضب ربنا؟ .. هذا والدنا .. هذا الذي أوصانا ربه ببره والإحسان إليه..

هذا الذي قرن ربنا طاعته بطاعته، والتقرب إليه بالتقرب إليه .. فقال: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (36)﴾ (البقرة)

وقال: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْهِمْ عَلَانِيَةٌ أَن يَشْكُرُوا بِاللَّهِ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (151)﴾ (الأنعام)
وقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبِّيَ أَلَّا تُعْبَدُوا إِلَّا إِلَٰهُهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23)﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلْمِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا (24)﴾ (الإسراء)

وقال: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8)﴾ (العنكبوت)

وقال: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّالَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14)﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبِهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (15)﴾ (لقمان)

وقال: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصَّالَهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا

بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي دُرَّتِي إِنَّي كُنْتُ تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (15) أُولَئِكَ الَّذِينَ تَتَّقُلْ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصَّدَقَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿16﴾ (الأحقاف)

قال آخر: هذا الذي وردت النصوص المقدسة الكثيرة تحت على بره .. وتقرن رضا الله برضاه ..
ففي الحديث أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، من أبر؟ قال: (أمك وأباك، وأختك وأخاك، ومولاك الذي يلي ذلك، حقاً واجباً، ورحمياً موصولة)¹
وأتاه رجل، فقال: يا رسول الله إن لي مالاً وولداً، وإن أبي يجتاح مالي، فقال: (أنت ومالك لأبيك، إن أولادكم من أطيب كسبكم، فكلوا من كسب أولادكم)²
وجاءه رجل، فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد، أتبعني الأجر من الله، قال: (فهل من والديك أحدٌ حيٌّ ؟)
قال: نعم، بل كلاهما حيٌّ، قال: (فتبعني الأجر من الله؟) قال: نعم! قال: (فارجع إلى والديك فأحسن صحبتَهُما)³
وجاءه رجل فقال: جئتُ أبايعك على الهجرة، وتركتُ أبويَّ يكيان، قال: (فارجع إليهما، فأضحكهُما كما أبكتَهُما)⁴

وروي أن رجلاً من أهل اليمن هاجر إلى رسول الله ﷺ فقال له: (هل لك أحدٌ باليمن؟) قال: أبواي، قال: (أذنا لك؟) قال: لا، قال: (فارجع إليهما فاستأذنهما، فإن أذنا لك فجاهد، وإلا فبرهما)⁵
وجاءه رجل، فقال: يا رسول الله، أردتُ أن أعزوَ، وقد جئتُ أستشيرك، فقال: (هل لك من أم؟) قال: نعم! قال: (فالزمها، فإن الجنة عند رجلها)⁶
وقال ﷺ: (رَغِمَ أَنْفُهُ، رَغِمَ أَنْفُهُ، رَغِمَ أَنْفُهُ) قيل: من يا رسول الله؟ قال: من أدرك والديه عند الكبر: أحدهما أو كلاهما ثم لم يدخل الجنة)⁷
وقال: (لا يجزي ولدٌ وولدٌ: إلا أن يجده مملوكاً فيشتره فيعتقه)⁸
وقال: (رضى الربُّ في رضى الوالد، وسخطُ الربِّ في سخط الوالد)⁹
قال آخر: ليس ذلك فقط .. بل ورد في النصوص المقدسة أن حق الوالدين لن يضيع مطلقاً ما دام هناك أي أثر لهما ..

ففي الحديث، قال رسول الله ﷺ: (إنَّ أبرَّ البرِّ أنْ يصلَ الرَّجُلُ أهلُ وُدِّ أبيه)¹

- (1) رواه أبو داود.
- (2) رواه أبو داود.
- (3) رواه الجماعة، واللفظ لمسلم.
- (4) رواه أبو داود والنسائي.
- (5) رواه أبو داود.
- (6) رواه النسائي.
- (7) رواه مسلم.
- (8) رواه مسلم والترمذي وأبو داود.
- (9) رواه الترمذي.

وروي أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أصبتُ ذنباً عظيماً، فهل لي من توبة؟ فقال: (هل لك من أم؟) قال: لا، قال: (فهل لك من خالة؟) قال: نعم، قال: (فبرها)²

وعن مالك بن ربيعة قال: بينما نحن جلوسٌ عند رسول الله ﷺ، إذ جاءه رجلٌ من بني سلمة، فقال: يا رسول الله: (هل بقي من برِّ أبويَّ شيءٌ أبرَّهُما بعد موتهما؟) فقال: (نعم، الصلاةُ عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذُ عهدهما من بعدهما، وصلةُ الرَّحمِ التي لا تُوصَلُ إلا بهما، وإكرامُ صديقيهما)³

بقي الأبناء والأحفاد مدة، وهم يذكرون ما ورد في النصوص المقدسة من الحديث عن حرمة الوالدين، ووجوب برهما، إلى أن ضاق (برنارد بيرجمان) منهم، وقال: ما تريدون من الرجل.. لقد نفر منكم ومن طريقة تفكيركم، فلو أنه وجد عندكم ما يبحث عنه ما جاء عندنا؟

قال ذلك، ثم التفث للشيخ، وقال: أخبرهم بعدم رغبتك فيهم.. فلا أظن أنهم سينصرفون عنك لو لم تواجههم بذلك.

أراد الشيخ أن يتحدث، فراح أحد أبنائه يقاطعه، والدموع تجري من عينيه، وهو يقول: لا بأس.. يا والدي.. لا تسمع لما يقول هذا الرجل الذي يريد أن يبعثك عنا.. لقد جئت أعتذر إليك.. لقد كنت أتصور أن ذلك تصرف لا يؤذيك.. وأنا الآن رهن إشارتك يا والدي.. فافعل بي ما بدا لك.

سقطت دموع من الشيخ، قال بعدها: بل أنا الذي أعتذر إليك يا ولدي.. فلم يكن يحق لي أن أمنعك مما أحبتة نفسك ورغبت فيه مما أباحه الله لك.

لقد كنت - بجهلي - لا أفرق بين ما ورد في النصوص المقدسة من البر بالوالدين والإحسان لهما، وبين وجوب طاعة الأبناء لأبائهم..

لقد كنت - بجهلي - أتصور أن حياة الابن ملك للأب.. وأنه وحده الذي يحق له أن يرسم له منهج حياته.. ولقد كنت - بجهلي - لا أقرأ إلا النصوص التي تحت الأبناء على رعاية آبائهم.. دون أن أهتم أو ألتقي بالا إلى النصوص التي تحت الآباء على رعاية أبنائهم وبرهم والإحسان إليهم.

لكنني.. وفي فترة غيابي عنكم قيض الله لي رجلاً صالحاً.. لقد كان من ورثة النبوة.. وكان اسمه (ابن عوسجة)⁴.. وكان مما حدثني به قوله ﷺ: (رحم الله والدا أعان ولده على بره)¹

(1) رواه أبو داود.

(2) رواه الترمذي.

(3) رواه أبو داود.

(4) أشير به إلى (مسلم بن عوسجة)، وهو أول شهيد من أنصار الحسين بعد الحملة الأولى، كان شيخاً كبير السن، وكان صحابياً ممن رأى رسول الله ﷺ وروى عنه، وكان رجلاً شجاعاً وجريئاً شارك في الكثير من حروب المسلمين، وشهد مع علي كل غزواته.

كان في الكوفة يأخذ البيعة للحسين، وقد جعله مسلم بن عقيل حين ثار بالكوفة على رأس طائفة من مذبح واسد.. وفي ليلة عاشوراء لما أوعز الإمام الحسين أن يتخذوا ظلام الليل جملًا وينصرفوا وقف مسلم بن عوسجة موقفًا جريئًا وقام متكلماً

وحدثني أن رجلاً سأل النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله من أبر؟ فقال: (بر والديك)، فقال: ليس لي والدان، فقال: (بر ولدك كما أن لوالديك عليك حقاً كذلك لولدك عليك حق)²

بعدما سمعت منه ذلك وغيره امتلأت حياء منك ومن إخوانك .. وقد جئت إلى هذه الدار لأكفر عن سيئاتي، ولأدعكم وما تشاءون من الحياة التي تختارونها.

لقد شعرت أنني كنت ثقيلاً عليكم.. فلم يكن يرضيني إلا أن تسير حياتكم على المنهج الذي سارت عليه حياتي مع أن الحياة تستلزم التطور والتغير .. فليس للأباء الحق في أن يضعوا أبناءهم في قوالبهم فلكل زمان حياته. تقدم الابن من أبيه، وقال: لا يا والدي .. أنت حكيمنا .. ومن الخطأ الكبير أن نملكك أو نملك حكمتك وخبرتك في الحياة وتجاربك فيها.

قال الأب: أنا لن أبخل عليكم بشيء من خبرتي .. ولكني مع ذلك أشعر أن الموقف الذي وقفته معك خصوصاً كان موقفاً خاطئاً .. فلا يمكنني أن أمنعك مما رغبت فيه نفسك ما دام قد أباحه لك الشرع. ولذلك فسر على بركة الله .. فقد أذنت لك فيه .. كما أذنت لك في غيره مما أباحه لك ربك .. فلا يحق لمسلم - مهما كانت مرتبته - أن يحرم ما أحل الله ..

نعم .. نحن الآباء .. ونتيجة لما رأيناه من تعظيم ربنا لحقوقنا رحناً نتصور أن لنا الحرية المطلقة في كل شيء .. وهذا خطأ كبير وغرور عظيم .. فالرب رب الجميع .. والشرع شرع الجميع .. ونحن كلنا عباد الله.. ولا يحق لأي عبد كان أن يستذل غيره، أو يتعامل معه من موقع غير موقع العبودية الذي وضعه الله فيه وشرفه به. قال الابن: حاضر يا أبي .. أنا طوع أمرك .. ولكنني لن أتحرّك من هنا .. ولن يتحرك هؤلاء جميعاً إلا إذا سرت معنا إلى ذلك العرش الذي وضعك الله فيه.. فلا يمكن لبيوتنا أن تستقر، ولا لبنا أن يستريح وأنت بعيد عنا. التفت الشيخ إلى (برنارد بيرجمان)، وقال: آسف يا ملك بيوت المسنين .. ها أنت ترى حرص أولادي على الذهاب معهم .. فاعذربي .. فأولادي قد نصبوا لي عرشاً في بيوتهم وفي قلوبهم، ولا يمكنني أن أتخلى عن عرشي .. ولذلك سأدعك لعرشك .. واسمح لي أن أذهب لعرشي.

بعد هذا الموقف الذي رأيته بعيني ازداد إحباط (برنارد بيرجمان)، فراح يتحرك حركات عشوائية .. قال بعدها، وكأنه يهدد شخصاً لا أراه: أنت هو السبب .. أعلم أنك أنت السبب .. ولذلك انتظر .. سأستعمل كل وسائلتي لأصرف الناس عنك .. فلا يمكن لهذه الدار أن تمتلئ .. وصورتك في عيون الناس، وحبك في قلوبهم، وذكرك في

وقال: (والله لو علمت أنني أقتل ثم أحيى ثم أأذى، يُفعل بي ذلك سبعين مرة ما تركتك فكيف وإنما هي قتل واحد ثم الكرامة إلى الأبد)

وعند القتال لم يتجرأ أحد من الأعداء على مبارزته، فرضوه بالحجارة ولما سقط على الأرض وكان به رمق مشى إليه الحسين وحبیب بن مظاهر، فدعا له الحسين وبشّره بالجنة.. ولما اقترب منه حبیب بن مظاهر قال له مسلم: (أوصيك بهذا- وأشار إلى الحسين - فقاتل دونه حتى تموت) (انظر: موسوعة العدير)

(1) رواه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب.

(2) رواه أبو عمر النوقاتي في كتاب معاشر الأهلين من حديث عثمان بن عفان دون قوله: (فكما أن لوالديك ..)، وهذه القطعة رواها الطبراني من حديث ابن عمر قال الدارقطني في العلل: إن الأصح وقفه على ابن عمر.

أفواههم.

أنت الآن أعلنت الحرب علي .. وأنا قبلت الحرب ..
قال ذلك، ثم نادى على عماله جميعا، وقال: منذ اليوم ستتحول هذه الدار إلى مركز ترفيه .. سنحول جناحها الأول إلى سينما، وجناحها الثاني إلى مرفص .. وهكذا كل أجنحتها.
فمن شاء منكم أن يستمر للعمل معي، فليستمر .. ومن لم يشأ فالطريق أمامه.
قال بعض العمال: أتريد أن تتخلى عن لقبك العظيم بهذه السهولة.
قال (برنارد بيرجمان): أحيانا يحتاج الملوك إلى الركوب على الخيل، وخوض غمار المعارك .. وما هذه إلا معركة من المعارك التي أحفظ بها وجودي، وأحافظ بها على عرشي.

بعد أن سمعت هذا الحديث من (برنارد بيرجمان) خرجت .. وقد رأيت جميع العمال يخرجون معي .. ويتركون ملك بيوت المسنين يصبح وحده بمستيرية وجنون .. وفي وسط ذلك الصباح تنزلت علي أنوار جديدة اهتديت بها بعد ذلك إلى شمس محمد.

رابعا — المتألون

في اليوم الرابع .. سرت نحو مستشفى عجيب .. كنت قد سمعت به، لكنني لم أتشرف برؤيته إلا في ذلك اليوم. لقد كان هذا المستشفى يقوم على أركان متحولة لا تكاد تثبت على أرض أياما حتى تتحول إلى غيرها. قلت: ما أغرب هذا .. كيف كانت له كل هذه القدرات؟

قال: هذا المستشفى من إبداع صاحب لي من أمريكا يدعى (بات روبرتسون) .. وقد كان منصرا .. وكان يمارس السياسة، وقد رشح نفسه للانتخابات الأمريكية لعام 1987 ..

وقد أسس صاحبي هذا منظّمة من المنصرين تدعى (عملية البركة الدولية)، وهي تابعة لمنظمة (شبكة الإذاعة المسيحية)، والتي يرأسها صاحبي (بات روبرتسون)

وقد قامت هذه المنظمة بتجهيز طائرة لوكهيد (L-50-1011)، وتحويلها إلى مستشفى طائر ضخم بكلفة خمسة وعشرين مليون دولار، مزوّد بجميع المعدّات اللازمة للعمليات الجراحية والعلاجية، بحيث يجوب مناطق كثيرة في العالم، ويمكث في مناطق محدّدة ومختارة لمدد تتراوح ما بين أسبوع إلى عشرة أيام، ويقدم خدماته بالجان.

قلت: ما شاء الله .. ما أعظم كرم هذا الرجل .. وما أعظم كرم منظّمته.

قال: لقد كنت أقول مثلك هذا .. لكنني عندما اكتشفت السر الذي حملته، وحمل منظّمته على ذلك الكرم تحول في عيني لؤما ليس يعدله لؤم.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لقد كنت أسمع بأن هذا المستشفى الغريب لم يكن يقدم خدماته إلا بعد أن يسأل المريض عن ديانته، ثم يستمع لمحاضرة حول المسيح وحول المسيحية .. وحول ضرورة البحث عن الخلاص في رحاب المسيح، ثم يعطى كمية من الكتب والنشرات، ويُطلب منه دراستها والحضور إلى عنوان معيّن بعد أيام¹.

كنت أسمع بهذا، ولا أستغربه، فلكل صاحب دين الحق في أن يدعو لدينه.

ولكن الذي حول صورتها في عيني هو التزييف .. فللمرئ الحق في أن يدعو لدينه، ولكن ليس لديه أي حق في أن يزور الحقائق.

في ذلك اليوم .. وبعد أن حضرت جموع كثيرة من المرضى .. بدأت المحاضرة .. وقد فوجئت عندما رأيت المحاضر .. لقد كان رجلا أعرفه تمام المعرفة .. وقد كان ذلك ما ملأني ألما.

لقد كان ذلك الرجل كالشيطان .. أو هو الشيطان نفسه ..

كان اسمه (الدكتور منجل) .. وقد كان في فترة الحكم النازي يقوم بتجاربه على التوائم .. وكانت له طرق مميزة في تجاربه .. فقد كان من تجاربه أنه يفصل التوأمين ويضعهما في غرفتين منفصلتين، ثم يعذب أحدهما أحيانا ليدرس أثر عملية التعذيب على الآخر، بل كان يقتل أحدهما لدراسة أثر هذه العملية على الآخر .. حتى أن برعمو ليفي قال: (إن ألمانيا النازية هي المكان الوحيد الذي كان بوسع العلماء أن يدرسوا فيه جثتي توأمين قُتلا في نفس اللحظة)

(1) هل المنصرون أولي؟، الشيخ خالد بن عبد الرحمن الشايع، الرسالة، صدرت عن أطباء الحرمين بمناسبة المؤتمر الثالث - رجب 1423هـ.

وقد علمت بعد ذلك أن دراسات منجل على التوائم لا تزال أهم الدراسات في هذا المجال، ولا تزال الجامعات الألمانية والأمريكية تستفيد من النتائج التي توصل إليها الباحثون العلميون الألمان في ظروف فريدة لم تُنح لعلماء غيرهم من قبل ومن بعد.. وقد أثبت مؤخراً قضية مدى أخلاقية الاستفادة من معلومات تم الحصول عليها في مثل هذه الظروف التجريبية الجهنمية، وبمذه الطريقة الموضوعية الشيطانية¹.

لم يكن الدكتور منجل فريدا في هذا الباب .. بل كان معه نفر كثير .. منهم من رأته .. ومنهم من لم أره، ولكي سمعت به، وسمعت بالكثير من آثارهم المؤلمة القاسية ..

كان منهم من يقوم بعمليات استئصال لمرضاه دون تخدير ليدرس أثرها..

وكان منهم من يطلق الرصاص عليهم لاختبار فعاليتهم في الحرب ..

وكان منهم من يعرض مرضاه لغازات سامة في عمليات اختبارية..

وكان منهم من يضعهم في غرفة مفرغة من الهواء لمعرفة المدة التي يستطيع الإنسان خلالها أن يظل حياً وهو على ارتفاعات عالية أو بدون أوكسجين.. وكان الأوكسجين يُقلل تدريجياً ويخفف الضغط، فتزداد آلام خنازير التجارب البشرية شيئاً فشيئاً حتى تصبح آلاماً لا يمكن احتمالها حتى تنفجر رئاتهم.. كما كان الضغط الداخلي على أغشية طبقات الأذان يسبب لهم عذاباً يوصلهم إلى حد الجنون.

وكان منهم من أجرى تجارب على أمخاخ الضحايا، وقد اختار د. برجر، التابع لإدارة الإس. إس. عدداً من العينات البشرية (79 يهودياً — بولنديان — 4 آسيويين — 30 يهودية) تم إرسالهم لمعسكر أوشفيتس ثم قتلهم بناء على طلب عالم التشريح الأستاذ الدكتور هيرت الذي أبدى رغبة علمية حقيقية في تكوين مجموعة كاملة ومثلة من الهياكل العظمية اليهودية (كما كان مهتماً بدراسة أثر الغازات الخانقة على الإنسان)..

أما الدكتور برجر نفسه فكان مهتماً بالآسيويين وجماعهم، وكان يحاول أن يكون مجموعته الخاصة.

ويبدو أن عملية جمع الجماع هذه وتصنيفها لم تكن نتيجة تخطيط محكم، وإنما نتيجة عفوية للرؤية النفعية المادية.. إذ ورد إلى علم البروفسور هاليروفوردن أبناء عن إبادة بعض العناصر البشرية (التي لا تستحق الحياة)، فقال للموظف المسئول بشكل تلقائي: (إن كنتم ستقتلون كل هؤلاء، فلماذا لا تعطوننا أمخاخهم حتى يمكن استخدامها؟)، فسأله: كم تريد؟ فأجاب: عدد لا يحصى، كلما زاد العدد كان أفضل.. ويقول البروفسور المذكور إنه أعطاهم بعد ذلك الأحماض اللازمة والقوارير الخاصة بحفظ الأمخاخ.. وكم كانت فرحة البروفسور حينما وجد أمخاخ معوقين عقليين (في غاية الجمال، على حد قوله)، و(أمخاخ أطفال مصابة بأمراض الطفولة أو تشوهات خلقية).. وقد لاحظ أحد العاملين في مركز من مراكز البحوث أن عدد أمخاخ الأطفال المتوفرة لإجراء التجارب أخذت تتزايد بشكل ملحوظ، ونتيجةً لهذا تم الحصول على مواد مهمة تلقي الضوء على أمراض المخ.

ومن أطرف الأمثلة الموضوعية قضية البروفسور النازي كلاوس الذي اكتشف البعض أنه يعيش مع سكرتيرته اليهودية، وفي دفاعه عن نفسه ذكر أنه يواجه مشكلة في دراسته لليهود، وهي أنه لا يمكنه أن يعيش بينهم، ولذا كان عليه أن يحصل على عينة مُثَّلة يمكنه دراستها عن قرب، فهي بالنسبة له لم تكن سوى موضوع للدراسة فكان يراقبها)

(¹) انظر: الموسوعة اليهودية للمسيري..

كيف تأكل، وكيف تستجيب للناس، وكيف تقوم بتركيب الجمل¹
 بعد أن طاف خيالي بتلك الذكريات الأليمة التي حكيت لك بعضها .. انتهت إليه، فرأيت الدموع تفيض من
 عينيه .. فحسبت أن قلبه قد لان بعد شدة .. وأن تلك الدموع كانت تغسل تلك القسوة التي كان قلبه مشحوناً بها ..
 لكنني ما إن سمعت السموم التي تفوه بها لسانه حتى يئست منه.
 لقد سمعته يقول للمرضى المتألمين أمامه: اسمعوني جيداً .. لن يمكن للعافية أن تزور أحسادكم .. ولا للراحة أن
 تخل بأرواحكم إلا بعد أن تحلوا في المسيح ..

المسيح هو الوحيد في العالم الذي لديه الشفاء الذي عجز جميع صيادلة الدنيا أن يجودوه² ..
 لقد شفي المسيح جميع المرضى الذين قُدِّموا إليه من جميع الأمراض مهما كانت أنواع أمراضهم ومهما كان
 عددهم، ولأزيد من يقينكم بما ذكرت، سأذكر لكم نماذج لبعض المرضى الذين شفاهم المسيح، والأمراض التي شفوا
 منها:

فمن الأمراض التي شفاهها المسيح، الحمى، فقد شفى ابن خادم الملك الذي كان مريضاً بالحمى، وطلب من الرب
 يسوع المسيح أن يذهب إلى بيته ليُشفيه، فقال له: (أَذْهَبْ. إِنَّكَ حَيٌّ)، فشفي ابنه في تلك اللحظة³.
 كما شفي حماة سمعان أيضاً: (وَكَاثَتْ حَمَاةُ سَمْعَانَ قَدْ أَخَذَتْهَا حُمَى شَدِيدَةٌ. فَسَأَلُوهُ مِنْ أَجْلِهَا. فَوَقَفَ فَوْقَهَا
 وَانْتَهَرَ الْحُمَى فَنَزَعَتْهَا! وَفِي الْحَالِ قَامَتْ وَصَارَتْ تَحْدِمْهُمْ) (لوقا: 38/4-39)

ومن الأمراض الخطيرة التي شفاهها داء الشلل، فقد شفى المسيح مقعدين ومفلوجين؛ فقد شفى مريض بركة بيت
 حسدا الذي أقعده المرض في الفراش مدة ثمانٍ وثلاثين سنة عندما قال له: (قُمْ. احْمِلْ سَرِيْرَكَ وَاَمْشِ). فَحَالاً بَرِيءٌ
 الْإِنْسَانُ وَحَمَلَ سَرِيْرَهُ وَمَشَى⁴
 وشفى مفلوج من مرض الفالج عندما أمره قائلاً: (قُمْ احْمِلْ فِرَاشَكَ وَأَذْهَبْ إِلَى بَيْتِكَ!) فَقَامَ وَمَضَى إِلَى بَيْتِهِ)
 متى: 6/9-7)

وشفى عبد قائد المئة من الفالج، وكان قائد المئة هذا يؤمن أن المسيح يستطيع أن يُشفي عبده بكلمة دون أن
 يذهب إليه: (يَا سَيِّدُ لَسْتُ مُسْتَحِقًّا أَنْ تَدْخُلَ تَحْتَ سَقْفِي لَكِنْ قُلْ كَلِمَةً فَقَطْ فَيَبْرَأَ غَلَامِي)، فشفي غلامه في تلك
 الساعة⁵.

وشفى رجلاً يده يابسة فقال له: (مُدَّ يَدَكَ)، فَمَدَّهَا. فَعَادَتْ صَحِيْحَةً كَالْأُخْرَى) (متى: 13/12)
 أما إخراج الشياطين والأرواح النجسة؛ فقد كان يُخْرِجُ الشَّيَاطِينَ بِكَلِمَةِ الْأَمْرِ مِنْهُ، وكانت الشياطين عندما تراه
 تصرخ مرتاعة ومرتعبة وتتوسل إليه أن لا يُرسلها إلى الجحيم قبل الموعد، يقول الكتاب: (وَكَانَ فِي الْمَجْمَعِ رَجُلٌ بِهِ

(1) انظر: الموسوعة اليهودية للمسيري ..

(2) الكلام الذي سذكروه هنا ذكرناه أو ذكرنا قريباً منه في رسالة (معجزات حسية) من هذه السلسلة، وقد قارنا هذه
 النصوص هناك بمعجزات النبي ﷺ الحسية المرتبطة بالدعاء، أما هنا فقارناها برحمة النبي ﷺ بالمرضى ..

(3) كما في (يوحنا: 4/46-54)

(4) كما في (يوحنا: 5/1-9)

(5) انظر: (متى: 8/13-5)

رُوحُ شَيْطَانٍ نَجَسَ فَصَرَخَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ: (أَو مَا لَنَا وَلكَ يَا يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ! أَتَيْتَ لِتُهْلِكَنا! أَنَا أَعْرَفُكَ مَنْ أَنْتَ: قُدُوسُ اللَّهِ). فَاتَّهَرَهُ يَسُوعُ قَائِلًا: (أَخْرَسُ وَأَخْرَجَ مِنْهُ)، فَصَرَخَهُ الشَّيْطَانُ فِي الْوَسْطِ وَخَرَجَ مِنْهُ وَلَمْ يَضُرَّهُ شَيْئًا. فَوَقَعَتْ دَهْشَةٌ عَلَى الْجَمِيعِ وَكَانُوا يُخَاطِبُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا قَائِلِينَ: (مَا هَذِهِ الْكَلِمَةُ! لِأَنَّهُ بَسُلْطَانٌ وَقُوَّةٌ يَأْمُرُ الْأَرْوَاحَ النَّجِسَةَ فَتَخْرُجُ) (لوقا: 36-33/4)

وأخرج الشيطان من أحرس مجنون: (وَفِيمَا هُمَا خَارِجَانِ إِذَا إِنْسَانٌ أَخْرَسٌ مَجْنُونٌ قَدَمُوهُ إِلَيْهِ. فَلَمَّا أُخْرِجَ الشَّيْطَانُ تَكَلَّمَ الْأَخْرَسُ فَتَعَجَّبَ الْجُمُوعُ قَائِلِينَ: (لَمْ يَطْهَرْ قَطُّ مِثْلَ هَذَا فِي إِسْرَائِيلَ!)) (متى: 23/9-33)

وأخرج عددا كبيرا من الشياطين من مجنون كورة الجدرين: (وَلَمَّا خَرَجَ إِلَى الْأَرْضِ اسْتَقْبَلَهُ رَجُلٌ مِنَ الْمَدِينَةِ كَانَ فِيهِ شَيْطَانٌ مُنْذُ زَمَانٍ طَوِيلٍ وَكَانَ لَا يَلْبَسُ ثَوْبًا وَلَا يَقِيمُ فِي بَيْتٍ بَلْ فِي الْقُبُورِ. فَلَمَّا رَأَى يَسُوعَ صَرَخَ وَخَرَّ لَهُ وَقَالَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ: (مَا لِي وَلكَ يَا يَسُوعُ ابْنَ اللَّهِ الْعَلِيِّ! أَطْلُبُ مِنْكَ أَنْ لَا تُعَذِّبَنِي) لِأَنَّهُ أَمَرَ الرُّوحَ النَّجَسَ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْإِنْسَانِ.. فَسَأَلَهُ يَسُوعُ: (مَا اسْمُكَ؟) فَقَالَ: (لَجُنُونٌ). لِأَنَّ شَيْطَانِينَ كَثِيرَةً دَخَلَتْ فِيهِ. وَطَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ لَا يَأْمُرَهُمُ بِالذَّهَابِ إِلَى الْهَلَاوِيَّةِ.. فَخَرَجَتِ الشَّيْطَانِينَ مِنَ الْإِنْسَانِ وَدَخَلَتْ فِي الْخَنَازِيرِ) (لوقا: 32-27/8)

وشفى ابنة امرأة فينيقية سورية من الجنون كما في (مرقس: 30-24/7)

وشفى امرأة بما روح ضعف: (وَإِذَا امْرَأَةٌ كَانَ بِهَا رُوحٌ ضَعْفٌ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً وَكَانَتْ مُنْحَنِيَّةً وَلَمْ تَقْدِرْ أَنْ تَنْتَصِبَ الْبَيْتَ. فَلَمَّا رَأَاهَا يَسُوعُ دَعَاَهَا وَقَالَ لَهَا: يَا امْرَأَةُ إِنَّكِ مَحْلُولَةٌ مِنْ ضَعْفِكَ). وَوَضَعَ عَلَيْهَا يَدَيْهِ فَبَدَلُ الْحَالِ اسْتَقَامَتْ وَمَجَّدَتِ اللَّهَ) (لوقا: 13-11/13)

وشفى غلاماً به روح شيطان كان الشيطان يصرعه ويمزقه: (فَاتَّهَرَهُ يَسُوعُ فَخَرَجَ مِنْهُ الشَّيْطَانُ) (متى: 18-17/17)

وفوق هذا كله، فقد شفى المسيح البرصى، وطهرهم من برصهم، وقد ذكر الكتاب المقدس حديث هذا الأبرص: (وَإِذَا أَبْرَصٌ قَدْ جَاءَ وَسَجَدَ لَهُ قَائِلًا: يَا سَيِّدُ إِنْ أَرَدْتَ تَقْدِرْ أَنْ تُطَهِّرَنِي). فَمَدَّ يَسُوعُ يَدَهُ وَكَمَسَهُ قَائِلًا: (أُرِيدُ فَاطْهَرُ). وَلِلْوَقْتِ طَهَّرَ بَرَصَهُ) (متى: 3-2/8)

كما ذكر الكتاب المقدس شفاء عشرة برص آخرين: (وَفِيمَا هُوَ دَاخِلٌ إِلَى قَرْيَةٍ اسْتَقْبَلَهُ عَشْرَةُ رِجَالٍ بُرَصَ فَوَقُفُوا مِنْ بَعِيدٍ وَصَرَخُوا: يَا يَسُوعُ يَا مَعْلَمُ ارْحَمْنَا). فَنَظَرَ وَقَالَ لَهُمْ: (اذْهَبُوا وَأَرُوا أَنْفُسَكُمْ لِلْكَهَنَةِ). وَفِيمَا هُمْ مُنْطَلِقُونَ طَهَّرَهُوا) (لوقا: 14-12/17)

ويذكر الكتاب المقدس أن المسيح فتح أعين العميان بمجرد لمس أعينهم، كما حدث مع أعميين: (حِينَئِذٍ لَمَسَ أَعْيُنَهُمَا قَائِلًا: (بِحَسَبِ إِيمَانِكَمَا لَيْكُنْ لَكُمَا)) (متى: 31-27/9)، وشفى أعمى في بيت صيدا كما في (مرقس: 26-2/8)

والأخطر من ذلك كله أنه شفى مولودا أعمى بعد أن خلق له عينين من طين: (تَقَلَّ عَلَى الْأَرْضِ وَصَنَعَ مِنَ التُّفْلِ طِينًا وَطَلَى بِالطِّينِ عَيْنَيْ الْأَعْمَى. وَقَالَ لَهُ: (اذْهَبْ اغْتَسِلْ فِي بَرَكَةِ سِلْوَامَ). الَّذِي تَفْسِيرُهُ مُرْسَلٌ. فَصَنَى وَاغْتَسَلَ وَأَتَى بِصِيرًا) (يوحنا: 7-6/9)، فهذا يدل على أنه خلق له عينين من طين كما خلق آدم من تراب الأرض.

وشفى بارتيمائوس الأعمى، وأعمى آخر كان معه، وكانا يصرخان لكي يشفيهما بلمس أعينهما، يقول

الكتاب: (فَتَحَنَّنَ يَسُوعُ وَكَمَسَ أَعْيُنَهُمَا فَلَوْلَقَتِ أَبْصَرَتِ أَعْيُنُهُمَا فَبَعَاهُ)¹

وشفى — إلى جانب هذا كله — أمراضا كثيرة أخرى مثل شفاء المرأة النازفة الدم: (وَأَمْرَأَةٌ بَزَفَ دَمٌ مُنْذُ انْتَبَيْ عَشْرَةَ سَنَةً وَقَدْ انْفَقَتْ كُلَّ مَعِيشَتِهَا لِلْأَطْيَاءِ وَلَمْ تَقْدِرْ أَنْ تُشْفَى مِنْ أَحَدٍ) لَأَنَّهَا قَالَتْ فِي نَفْسِهَا: (إِنْ مَسَسْتُ ثَوْبَهُ فَقَطَّ شَفِيئْتُ) (متى: 21/9). ففِي الْحَالِ وَقَفَ نَزَفَ دَمِهَا. فَقَالَ يَسُوعُ: (مَنْ الَّذِي لَمَسَنِ!) 000 (قَدْ لَمَسَنِى وَاحِدًا لِأَنِّي عَلِمْتُ أَنَّ قُوَّةَ قَدْ خَرَجَتْ مِنِّي) (لوقا: 48-43/8)

وشفى أصمَّ أعْفَدَ بَأَنَّ (وَضَعَ أَصَابِعَهُ فِي أُذُنَيْهِ وَنَقَلَ وَكَمَسَ لِسَانَهُ وَرَفَعَ نَظْرَهُ نَحْوَ السَّمَاءِ وَأَنَّ وَقَالَ لَهُ: (إِفْتَأْ). أَيِ انْفَتِحْ. وَلَوْلَقَتِ انْفَتَحَتْ أُذُنَاهُ وَانْحَلَّ رِبَاطُ لِسَانِهِ وَتَكَلَّمَ مُسْتَقِيمًا) (مرقس: 35-33/7)

وشفى مريضاً بالإستسقاء (فَأَمْسَكَهُ وَأَبْرَأَهُ وَأَطْلَقَهُ) (لوقا: 4-1/14)

هذه نماذج قليلة لما صنعه الرب يسوع المسيح من كمٍّ كبير لا يمكن حصره لم يُدَوِّنْ فِي الْإِنْجِيلِ تَفْصِيلاً، وَإِنْ كَانَ يُذَكِّرُ بِصُورَةٍ إِجْمَالِيَّةٍ، يَقُولُ الْقَدِيسُ يُوْحَنَّا بِالرُّوحِ (وَآيَاتٌ أُخْرَى كَثِيرَةٌ صَنَعَ يَسُوعُ قَدَامَ تَلَامِيذِهِ لَمْ تُكْتَبْ فِي هَذَا الْكِتَابِ) (يوحنا: 30/20)، (وَأَشْيَاءٌ أُخْرَى كَثِيرَةٌ صَنَعَهَا يَسُوعُ إِنْ كَبِيتَ وَاحِدَةً وَوَاحِدَةً فَلَسْتُ أَظُنُّ أَنَّ الْعَالَمَ نَفْسَهُ يَسَعُ الْكُتُبَ الْمَكْتُوبَةَ) (يوحنا: 25/21)

فقد شفى جميع المرضى الذين قدّموهم إليه من جميع أنواع الأمراض مهما كان عددهم ومهما كانت أنواع هذه الأمراض (فَأَرْسَلُوا إِلَى جَمِيعِ تِلْكَ الْكُورَةِ الْمُحِيطَةِ وَأَحْضَرُوا إِلَيْهِ جَمِيعَ الْمَرْضَى وَطَلَبُوا إِلَيْهِ أَنْ يَلْمِسُوا هُدْبَ ثَوْبِهِ فَقَطَّ. فَجَمِيعَ الَّذِينَ لَمَسُوهُ نَالُوا الشِّفَاءَ) (متى: 36-35/14)

وفي مرقس: (وَلَمَّا صَارَ الْمَسَاءُ إِذْ غَرَبَتِ الشَّمْسُ قَدَمُوا إِلَيْهِ جَمِيعَ السَّقَمَاءِ وَالْمَجَانِينَ. وَكَانَتِ الْمَدِينَةُ كُلُّهَا مُجْتَمِعَةً عَلَى الْبَابِ. فَشَفَى كَثِيرِينَ كَانُوا مَرْضَى بِأَمْرَاضٍ مُخْتَلِفَةٍ وَأَخْرَجَ شَيَاطِينَ كَثِيرَةً وَلَمْ يَدَعْ الشَّيَاطِينَ يَتَكَلَّمُونَ لِأَنَّهُمْ عَرَفُوهُ) (مرقس: 34-32/1)

وفي متى: (فَجَاءَ إِلَيْهِ جُمُوعٌ كَثِيرَةٌ مَعَهُمْ عَرُجٌ وَعَمِيٌّ وَخَرْسٌ وَسُلٌّ وَآخَرُونَ كَثِيرُونَ وَطَرَحُوهُمْ عِنْدَ قَدَمَيْ يَسُوعَ. فَشَفَاهُمْ) (متى: 30/15)، وفيه: (وَلَمَّا صَارَ الْمَسَاءُ قَدَمُوا إِلَيْهِ مَجَانِينَ كَثِيرِينَ فَأَخْرَجَ الْأَرْوَاحَ بِكَلِمَةٍ وَجَمِيعَ الْمَرْضَى شَفَاهُمْ) (متى: 16/8)، وفيه: (فَدَاعَ خَبْرَهُ فِي جَمِيعِ سُورِيَّةٍ. فَأَحْضَرُوا إِلَيْهِ جَمِيعَ السَّقَمَاءِ الْمُصَابِينَ بِأَمْرَاضٍ وَأَوْجَاعٍ مُخْتَلِفَةٍ وَالْمَجَانِينَ وَالْمَصْرُوعِينَ وَالْمَفْلُوجِينَ فَشَفَاهُمْ) (متى: 24/4)، وفيه: (وَتَبِعْتَهُ جُمُوعٌ كَثِيرَةٌ فَشَفَاهُمْ جَمِيعًا) (متى: 15/12)، وفيه: (فَجَاءَ إِلَيْهِ جُمُوعٌ كَثِيرَةٌ مَعَهُمْ عَرُجٌ وَعَمِيٌّ وَخَرْسٌ وَسُلٌّ وَآخَرُونَ كَثِيرُونَ وَطَرَحُوهُمْ عِنْدَ قَدَمَيْ يَسُوعَ. فَشَفَاهُمْ) (متى: 15/30)، وفيه: (وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ عَمِيٌّ وَعَرُجٌ فِي الْهَيْكَلِ فَشَفَاهُمْ) (متى: 14/21)، وفيه: (لَأَنَّهُ كَانَ قَدْ شَفَى كَثِيرِينَ حَتَّى وَقَعَ عَلَيْهِ لِيَلْمِسَهُ كُلُّ مَنْ فِيهِ دَاءٌ) (مرقس: 10/3)، وفيه: (وَفِي تِلْكَ السَّاعَةِ شَفَى كَثِيرِينَ مِنْ أَمْرَاضٍ وَأَدْوَاءٍ وَأَرْوَاحٍ شَرِيرَةٍ وَوَهَبَ الْبَصَرَ لِعَمِيَانِ كَثِيرِينَ) (لوقا: 21/7)

قال ذلك، ثم التفت للجمع، وقال: من منكم يريد أن تشفيه يد المسيح الممتلئة بالبركة .. ؟

(¹) انظر: (متى: 39-34 / 20؛ مرقس: 52-46/10؛ لوقا: 43-35/18)

قبل أن ينتظر أي جواب، قال: لا .. ليس بالسهولة التي تتصورونها .. لا يمكننا أن تنعموا بشفاء المسيح إلا بعد أن تتخلصوا من ذلك الكابوس الثقيل الذي يجثم على أرواحكم .. ذلك الذي تدعونه (محمد) .. فلا يمكننا أن نتظفروا بالمسيح، وأنتم مقيدون بأغلال محمد.

هنا رأيت وجوه المرضى تتغير تغيرا شديدا .. بل رأيت المقعدين قاموا، والذابلين قد دبّت في وجوههم مياه الحياة ..

وإذا بالدكتور منجل ينتفض لما رآه، متصورا أن ذلك كان من وحي كلماته .. لذلك راح يقول بغرور لم يستطع أن يخفيه: ألم أقل لكم .. لا يقيم المقعدين إلا المسيح .. ولا ينشر الحياة في الفانين الذابلين غير ذكرى المسيح؟ قام بعض المرضى، وقال، والغضب باد على وجهه: إن كان دواؤكم الذي تريدون أن تصفوه لنا - حضرة الطبيب - مرتبط بالابتعاد عن محمد .. فنحن لا نحتاج دواءكم .. بل نحن نرضى أن نعيش مرضى .. ونموت مرضى .. بل نرضى أن نذوق كل الآلام .. ولا نرضى أن يغيب عنا محمد ﷺ لحظة واحدة .. إننا لا نعلم في هذه الدنيا إلا بذكره .. وبذكر لقائنا به في ذلك اليوم العظيم الذي تتشرف بالشرب من يده الشريفة ..

إن ذكرى محمد ﷺ هي أعظم دواء لنا .. إن وجهه السمع الجميل الممتلئ بأنوار الإيمان هو العافية التي تنعم بها أرواحنا .. والتي تنسينا كل ألم يحتضن أجسادنا.

لذلك خذ دواءك الملطخ بسموم الحجب عن محمد ودين محمد .. وسر عنا .. فنحن الذين فنينا في حب محمد لا نرضى لأرواحنا وأجسادنا أن تتلطح بأي سم يبعثنا عنه. رأيت وجه الدكتور منجل تغير تغيرا شديدا، لكنه أراد أن يخفي تغيره بقوله: لا بأس .. هذه الحالة أعرفها جيدا .. سبق لي أن رأيت مثلها كثيرا ..

هذه الحالة مرض من الأمراض النفسية .. وهي منتشرة للأسف في الأجناس الدانية .. تلك الأجناس التي تذوب في زعمائها وقادتها الروحيين منشغلة عن حياتها ومصيرها بحياة غيرها ومصيرها ..

قام رجل من الجمع، وقال بنوع من السخرية لم يلتفت لها الدكتور منجل: فما العلاج لهذا المرض .. فإننا كلنا مصابون به .. فنحن من الأجناس التي تحدثت عنها؟

قال الدكتور منجل: لقد ذكرت لكم العلاج .. العلاج بسيط .. فقط يحتاج منكم إلى إرادة .. إرادة تجعلكم تقطعون تلك الحبال التي تصلكم بالوهم .. وتسقيكم بالسراب.

ما قال الدكتور منجل هذا حتى وفد إلى الجمع رجل هو كالشمس، أو قريب من الشمس، كان أشبه الناس برجال الله من الورثة الذين ذكرت لك بعض أخبارهم، وقد علمت بعد ذلك أن اسمه (علي الرضا)¹، عندما وصل إلى

(1) أشير به إلى سليل النبوة، ومعدن الرسالة، ونبوع العلم، ثامن خلفاء الرسول ﷺ الاثنا عشر - حسب مذهب الإمامية - الامام علي بن موسى الرضا - رضوان الله عليهم جميعا -

الجلس راح يصيح بصوت عال، وكأنه كان حاضرا معنا: دعنا من كل هذه الأحاديث العامة حضرة الدكتور منجل. رأيت وجه الدكتور منجل تغير تغيرا شديدا، فقد تعجب أن ينطق هذا الرجل الغريب باسمه، ولعله خشي أن يكون ملما بما كان يفعله، فخشي الفضيحة لذلك .. استأنف الرضا كلامه قائلا: عد بنا إلى الحقيقة - حضرة الدكتور - تلك الحقيقة التي لا تستطيع الألفاظ الرنانة أن تتلاعب بها .. ولا يستطيع سحر الألفاظ أن يصرف الوجوه عنها. تنفس الدكتور منجل الصعداء، ثم قال: لم أفهم قصدك .. ماذا تريد بالضبط؟ قال الرضا: لقد أتيتنا بدعوى، وتريد منا تصديقها .. والدعاوى تحتاج إلى البراهين الدالة عليها .. فما براهينك على دعواك¹؟

لم يجد الدكتور منجل ما يجيب به، فبادر الرضا يقول: لقد ذكرت في دعواك أن الإسلام وني الإسلام يتمتعان قسوة على المبطلين والمرضى والمتألمين .. وهذا يستدعي أن تأتي من نصوص الإسلام المقدسة ما يبرهن على ذلك. قال الدكتور منجل: ألا يكفي لإثبات ذلك ما ورد في هذه النصوص التي تزعم لها القداسة من تمجيد المرض؟ ألم تقرأ ما ورد في الحديث عن نبيكم قوله: (يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت في الدنيا بالمقاريض)² .. وقوله في حديث آخر: (إن الله قال: إذا ابتليت عبدي بحبيتيه فصير عوضته منهما الجنة، يريد عينيه)³ .. وغيرها من النصوص؟ ألا ترى أن هذه النصوص تمجد البلاء والمرض .. وكأنها تدعو الناس لأن يمارسوا من الأسباب ما يوقعهم في المرض؟

ألا ترى أن ذلك هو قمة القسوة والظلم والتضليل؟ ابتسم الرضا، وقال: لا بأس .. لقد عرفت سر ما وقعت فيه من الشبهة .. فاترك لي الفرصة لأعرفك بحقيقة المقاصد التي دلت عليها هذه النصوص، فمن الخطأ أن نقطع النصوص عن مواردها التي قيلت فيها. قال الدكتور منجل: تكلم .. فكلني آذان صاغية. استجمع الرضا أنفاسه، ثم نظر إلى الجمع، وقال: أنتم تعرفون أن الطريق الأمثل للتعامل مع النصوص المقدسة والاستفادة منها هو الإمام بما جميعا، لا ضرب بعضها ببعض، أو تقديم بعضها على بعض .. فكلام الله وكلام رسوله ﷺ يكمل بعضه بعضا، ويدل بعضه على بعض. لقد ذم الله تعالى من يأخذون ببعض الكتاب ويدعون بغيره، فقال مخبرا عن بني إسرائيل مبكنا لهم: ﴿ثُمَّ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْحَقَّ يَدْعُونَ بِهِ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

وقد اخترناه في هذا المحل لرسالة طيبة طيبة تنسب إليه وقد روي في سبب تأليفه لها أن المأمون أراد معرفة أصول حفظ صحة المزاج، وتديبه بالأغذية والاشربة والادوية مستقاة من منبعها العذب، فطلب من الامام الرضا بيان ذلك، وكرر الطلب، فكتب اليه هذه الرسالة، فلما وصلت الى المأمون أمر بأن تكتب بماء الذهب.

(¹) ذكرنا في رسالة (معجزات علمية) بعض ما يذكر في هذا الباب من دعاوى، وقد ردنا عليها هناك، ولا نحتاج هنا إلى إعادة طرحها، بل نكتفي ببيان رحمة الإسلام العامة في هذا الباب بغض النظر عن التفاصيل.

(²) رواه الترمذي، وقال هذا حديث غريب.

(³) رواه البخاري والترمذي.

هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تطاهرون عليهم بالآثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى فتادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون (85) ﴿﴾ (البقرة)

وأخبر أن في كلام الله ما يمكن أن يجد فيه أصحاب القلوب الزائغة ما يملوهم بالفتنة إذا هم لم يجمعوا بين محكمه ومتشابهه، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (7)﴾ (آل عمران)

ولهذا، فإن الله تعالى يدعونا في جميع أمورنا إلى أن نأخذ بالإسلام كله، وهو يعني أن نجتمع بين مقتضيات جميع النصوص، فلا يفهم مراد الله من عبادته إلا بما جميعاً .. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (208) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاغْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (209)﴾ (البقرة)

قال ذلك، ثم التفت إلى الدكتور منجل، وقال: إنك - حضرة الدكتور - أتيت من هذا الباب .. ذلك أنك أخذت بعض النصوص، فتصورت أنها تمجد المرض والبلاء، وأنها تدعو - بذلك - المريض إلى السكون إلى مرضه، وعدم مواجهته .. وهذا خطأ كبير .. فالنصوص التي ذكرت قيمة البلاء وفضله هي نفسها النصوص التي دعت إلى مواجهته بأنواع الوقاية والأدوية ..

ضحك الدكتور منجل بصوت عال، وقال: ألا ترى أن النصوص المقدسة بذلك تتحول إلى نصوص متناقضة يعارض بعضها بعضاً .. فهي تدعو إلى البلاء في نفس الوقت الذي تنهى عنه؟
ابتسم الرضا، وقال: التعارض يكون عندما تتوجه النصوص لجهة واحدة من الجهات بأوامر متناقضة .. لكن عندما تتغير مجال الخطاب لا يكون هناك أي تعارض.

قال الدكتور منجل: ولكن الخطاب في جميعها متوجه لجهة واحدة هي الإنسان.

قال الرضا: والإنسان متعدد النواحي .. ففيه النفس وفيه الجسد .. وخطاب النفس مختلف عن خطاب الجسد .. ألا ترى أن الطب ينقسم إلى طب نفسي، وطب جسدي¹؟

(¹) اهتم علماء النفس بتحديد العلاقة بين نفس وجسم الإنسان وتأثير كل منهما على الآخر، وأصبح من المعلوم حالياً أن الكثير من الأمراض الجسمية يمكن أن تصاحبها مضاعفات نفسية أو تكون لها جذور نفسية، فنشأ فرع الأمراض النفس جسمانية Psychosomatic Disorders، قال د. بدر الأنصاري: (يفترض بعض الباحثين أن التشاؤم Pessimism يزيد من احتمالات إصابة الإنسان بالأمراض العضوية مثل السرطان، كما يرتبط التشاؤم بعدد من الاضطرابات النفسية كالاكتئاب واليأس والميل إلى الانتحار والوجدان السلبي والفشل في حل المشكلات والنظرة السلبية إلى صدمات الحياة والشعور بالوحدة وارتفاع معدل النبض ومعدل ضغط الدم الانقباضي Systole، وقد بينت بعض الدراسات التي أجريت على مرضى السرطان وجود علاقة إيجابية بين التشاؤم وسرعة انتشار مرض السرطان (Weismen, Warden & Sobell 1980; Morrow & Fetting 1983; Temoshok et. al, 1985; Diclemente & Temoshok 1985; Peterson & Bossio 1991; Scheier, Weirtraub & Carver, 1986)، وقد يؤدي الشعور باليأس إلى

قال الدكتور منجل: بلى ..
قال الرضا: فالشريعة بنصوصها المقدسة خاطبت كلا الجهتين .. كلا بما يناسبها.

سرعة انتشار السرطان في الجسم) (الشخصية المستهدفة للإصابة بالسرطان) د. بدر محمد الأنصاري قسم علم النفس كلية العلوم الاجتماعية جامعة الكويت 1996م)

وفي المقابل قد يفتح ذلك بابا واسعا لبحوث تؤكد التأثير العضوي للإيمان والخشوع والرضا بالقدر مما قد يفسر ظواهر كالشفاء الذاتي في بعض حالات السرطان، ومن البشائر كشف مركز المخ ينشط بالتأمل **Meditation** المصاحب للعبادة ويعيد الوظائف الجسمية الأساسية إلى حالة الاسترخاء **Rest State** مؤيدا فطرية الإيمان وتأثيره العضوي. (انظر مقالا بعنوان (الاستشفاء بالقرآن الكريم دراسة علمية ميدانية)، د. محمد دودح، الباحث العلمي بالهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة برابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة المملكة العربية السعودية، موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة)

1 – النفس

قال الدكتور منجل: فاذكر لنا ما خاطبت به الشريعة النفس في هذا الباب.
قال الرضا: النفس في حال مرض صاحبها وعجزه تطلب أربعة أمور .. لا تتحقق رحمتها إلا بها.. ولم تكتمل هذه الأربعة في دين كما اكتملت في الإسلام .. وفيه وحده جميع المعاني التي تجعل المريض يعيش حياة طبيعية لا تختلف عن حياة أي سليم.

قال الجمع المحيط به: فما هذه الأربع؟
قال الرضا: أما أولها، فالنفس تطلب سندا قويا عظيما تحتمي إليه من ضعفها.. فتشعر بالراحة في احتمائها، وبالقوة في التجاتها.

وأما الثانية، فهي تطلب أملا تطمح إليه ينسيها الآلام التي تسكن جسدها..
وأما الثالثة، فهي تطلب عملا متناسبا معها، يجعلها إيجابية فاعلة حية .. فلا يؤدي النفس الصالحة مثل سلبيتها وسكوها .. فسكوها لا يعني سوى موتها.

وأما الرابعة، فهي تنفر من عزلة المجتمع عنها، نفرة منها.

قالوا: فحدثنا عن الأولى؟

قال: اسمحو لي - قبل أن أذكر لكم ما جاء به الإسلام في هذه الناحية - أن أخبركم عما قاله العلم الحديث في علاقة الإيمان بالله، والاتجاه إليه في توفير الصحة والعافية للنفس والبدن¹ ..

لعلكم تعلمون أنه قبل الثورة الحالية في مجال العلوم التجريبية لم يكن ممكنا لبشر معرفة آلية الوظائف العقلية العليا التي تميز الإنسان عن الحيوان وتحديد مواقعها بالمخ.. وشيئا فشيئا اكتشفت المناطق المتعلقة بالحواس والكلام والحركة، وبدأت تتضح معالم المنظومة العاطفية، ومنظومة الأنشطة اللاإرادية، والأساس الكيميائي للنشاط العصبي.. بل أصبح بالإمكان تسجيل كهربية المخ من الخارج باستخدام جهاز رسم المخ، وتمييز مختلف الأنشطة الذهنية، والتصوير الإشعاعي لكشف تراكيبه.. ونتيجة لذلك عرفت بعض الفوارق التشريحية والوظيفية مع الحيوان، وأمكن تصور آلية بعض الوظائف العليا كالتذكر والتعلم.

على ضوء هذه التطورات فاجأتنا تلك الأبحاث العلمية باكتشاف يجعل الإيمان بالله تعالى وعبادته نزوعا فطريا وملكة مغروسة بالمخ لها آلياتها ومراكزها، وإذا لم يحسن الإنسان توظيفها فقد أهم ما يميزه عن الحيوان، وتعرض لفقدان التوازن النفسي والبدني².

وخلاصة الأبحاث العلمية التي نشرت للمرة الأولى عام 2001 وأجريت على المخ بتقنية جديدة للأشعة السينية،

(1) رجعنا في هذا المقال مهم بعنوان (الاستشفاء بالقرآن الكريم دراسة علمية ميدانية)، د. محمد دودح، الباحث العلمي بالهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة برابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة المملكة العربية السعودية.

(2) نشرت عدة كتب علمية تبين كيف أن الإيمان بالله فطرة مغروسة في النفس البشرية وتوظيف آلياتها بالعبادة طريق إلى الصحة والسعادة، منها كتاب (الإيمان بالله مغروس بقوة داخل جيناتنا) للمؤلف ديان همر، وكتاب (الإيمان والصحة) لجيف ليفن ولاري دوسي، وكتاب (الإيمان صحة وفلاح) لأندرو بريمان. (انظر المقال المشار إليه سابقا)

قام بها فريق علمي على رأسه د. أندرو نيويرج أستاذ علم الأشعة بكلية الطب بجامعة بنسلفانيا في فيلادلفيا بالولايات المتحدة الأمريكية هي أن: (الإيمان بالله تصميم داخلي داخل المخ)، وبهذا لا يمكن لأحد التخلص منه إلا تعاميا عن الفطرة السوية التي جعلت الإنسان ينزع للتدين على طول التاريخ وتعطيلا لقدرات هائلة وإمكانات بالغة التعقيد والتطور تمكنه من إدراك قدرة الله تعالى بالتفكير والاستقراء للخلق والتحليل والاستنتاج.

ويمكن وصف الإنسان وفق عبارات د. نيويرج نفسه بأنه: (موجه بقوة نحو التدين)، وأن (التجربة العملية لا يمكننا أن نتجربها بطريقة مباشرة عن ذات الله، ولكنها نتجربها كيف خلق الإنسان لكي يعرفه ويعبده)، وهي نتجربنا أن: (عبادة الله وظيفة والإيمان به مطلب طبيعي يماثل الطعام والشراب)، وأن (المخ البشري ليس معدا تشريحيًا ووظيفيًا فحسب للإيمان بالله وعبادته، وإنما هو أيضا مهياً عند قيامه بوظيفة العبادة لحفظ سلامة النفس والبدن بتوجيه العمليات الحيوية خلال منظومة عصبية وهرمونية متشابكة)

وبهذا نزداد يقينا في وجود الله تعالى وقدرته، وإلا فلا فائدة من الملكات الهائلة الممنوحة للإنسان، والتي ميزته عن كافة الأحياء الأخرى في الأرض، وهكذا لم يعد الإيمان بالله تعالى في الدراسات العملية الحديثة ضربا من الفلسفة والخيال الشعبي كما كان يردد الملاحدة بلا مستند في أوائل القرن العشرين، فقد خاب ظنهم أن الإنسان قد صنع ديانته بعدما تأكد أن: (الله قد خلقه متدينا بطبيعته ومؤهلا بقدرات كي يعرفه ويعبده)

وكما يصبح الإنسان نظيفا إذا مارس الوضوء حتى ولو لم يكن مسلما كذلك يناله الخير إذا مارس سلوكيات العبادة كالتفكير والخشوع والتأمل، لأنها توظف مراكز أشبه ما تكون بمراكز الإيمان داخل المخ تعمل على الارتخاء والتخلص من المشاعر السلبية مثل الخوف والقلق والاكتئاب، وينتقل الإنسان من حالة الاستنفار والتوتر إلى حالة الراحة والسكينة حتى ولو لم يكن لصاحبها نصيب في ثواب الآخرة.

وباستخدام تقنية خاصة في التصوير بالأشعة السينية تجعل في الإمكان معاينة التغير في نشاط مختلف المناطق الوظيفية بالمخ أمكن تحديد مناطق تختص بالتركيز الفكري بالفص الجبهي (الناصية) يزداد نشاطها أثناء تلك الخبرة التأملية، ولكن تغير النشاط في منطقة الفص الصدغي التي تجعل الإنسان يدرك وجهته بالفراغ كان ملفتا للنظر، ويفترض نيويرج أن تغير نشاط تلك المنطقة يفسر إحساس الزهاد الذين بلغوا في صلواتهم درجة استغراق عميقة بانتقاهم بعيدا عن العالم الفيزيائي حولهم إلى حالة روحية لا يدركها غيرهم إلا بمعايشة نفس التجربة، وهم خلال تلك الحالة من التحليق الروحي والتسامي الإيماني يشعرون خلال أداء الأذكار والصلوات بعدم الاهتمام بالعالم الفيزيائي المحيط وأنهم في حضرة جلال أسمى ومعبة ذات عليا قاهرة تأسر الفؤاد وتملك الوجدان يتضاءل معها كل شيء ويفقد أهميته.

وهكذا تأكد العلماء أن الاستغراق في العبادة يفتح آفاقا من الشعور بالتسامي، ويقدم عوننا على التخلص من آلام ومعاناة النفس والشفاء من الاضطراب كالقلق والتوتر والكآبة وتأثيراتهم البدنية، وتكرر الممارسة بانتظام يجدد القدرات بالانتقال إلى عالم تسترخي فيه النفس وتستريح من الضغوط، وفي تلك الحالة يُفقد الاهتمام بالعالم الخارجي رغم تزايد التنبه والوعي والجلاء أو تزايد الشعور به، بل ربما عند درجة ما تزداد القدرة على احتمال الألم العضوي، قال د. لورنس ميكني عميد المؤسسة الأمريكية لعلاج الاضطرابات الذهنية: (إن ممارسة التأمل العميق باعتباره صوره من الخشوع قد يساعد في حد ذاته على التغلب على الشعور بالألم النفسي والإحباط ويعيد التوازن في توزيع النشاط في

مراكز المخ ويفرغ شحنات الشعور بالتعاسة وفقدان الأمل حتى عند غير المؤمنين) ووفق ما قاله د. ميكيني، فقد بدأت (الدراسات النفسية الدينية) في الستينيات من القرن الماضي عندما ذهبت مجموعة من الباحثين الأمريكيين إلى الهند لدراسة الموجات الكهربية للدماغ EEG لممارسي اليوجا، وفي عام 1980 أطلق ميكيني ومساعدوه مصطلح (الدراسات النفسية الدينية Neurotheology)، وأخرج عام 1994 كتابه بنفس الاسم، ويقدم هذا العلم الجديد تأييده التام للحقيقة الجوهرية في الدين وهي الإيمان بالله، قال ميكيني: (ويكفي أننا قد أوجدنا طرقاً عملية لقياس الأنشطة الفكرية ولم يعد الإيمان بالله والمشاعر خلال الممارسات الدينية نشاطاً فكرياً غير قابل للتجربة والإثبات، ومن تلك التقنيات الجديدة طريقة التصوير الوظيفي بالرنين المغناطيسي، وقد أكدت نتائج نيوبيرج بالفعل)

وبالمثل أكدت مجموعات طبية أخرى تلك النتائج منها فريق في بوسطن قام بفحص عدة متطوعين باستخدام تقنية الرنين المغناطيسي، فأكد وجود النشاط غير العادي خلال فترات الاستغراق التعبدية والخشوع لمناطق التركيز الفكري، واكتشف تغيرات في نشاط مناطق أخرى بالمخ تتعلق بالإثارة، ووجد فريق آخر بقيادة د. دوسيك عميد المعهد الطبي للأبحاث الذهنية تغييراً ملحوظاً كذلك في نشاط مراكز المخ تتعلق بالذاكرة.

ويقول د. بليتريني من جامعة بيزا في إيطاليا: (إن كل شيء نفعه أو نستشعره من نشاط بسيط كحركة إصبع إلى أعمق الانفعالات العاطفية الحبيبة بالنفس أو البادية مثل الغضب والحب يرسم خريطة مميزة المعالم للمراكز المتأثرة بالمخ، ويصاحب كل شعور نموذج محدد يمكن تسجيله وتحليله كالتحاليل الطبية العضوية تماماً، وهذا المجال الجديد لاستطلاع دخيلة الإنسان من عواطف ومشاعر وأفكار ومدى تأثره بالاعتقاد الديني ساحر حقاً، ويدخل فيه الباحثون اليوم بحذر حريصين على المنهج العلمي في البحث والتحليل كبقية مجالات العلوم التجريبية)

ويقول د. مايكل ماكولوف من جامعة دالاس بالولايات المتحدة الأمريكية: (يتأثر الوجدان النفسي الروحي بالعالم الخارجي ويؤثر في الجسد ويمثل الإيمان والعبادة صمام أمان لتلك التأثيرات الطبيعية، وقد أفضت دراسته إلى أن الطبيعة البشرية مصممة بحيث تحفظها العبادة في توازن تام وتقيها الاضطراب)

وفي تحليل شمل 42 دراسة ميدانية واسعة وجد د. ماكولوف أن معدل الوفيات يقل بالاستغراق في الصلوات وبقية العبادات، وهذا التأثير مستقل عن عوامل أخرى مضرّة بالصحة كتناول الخمور والتدخين، ولم يفت د. نيوبيرج أن يعلق على تلك النتيجة العجيبة بقوله: (نحن لا ندري حتى الآن على وجه اليقين كيف يؤدي الإيمان العميق والاستغراق في العبادة إلى الحفاظ على سلامة النفس وصحة البدن ومكافحة المرض وإطالة العمر، ولكن معرفتنا لآليات عمل الجسم البشري خاصة المخ تؤهلنا لتلمس آفاقاً جديدة من البحث لتثبت يوماً ما مجيادية وجود تأثيرات عضوية للإيمان والعبادة ندرك منها اليوم استقرار عدد ضربات القلب وضغط الدم والتغير الهرموني كماً ونوعاً والميل العصبي لتحقيق حالة من الهدوء نتيجة الخشوع والاستغراق، وقد تؤدي تلك العوامل وغيرها إلى تنشيط جهاز المناعة)

قالوا: عرفنا ما استطاع العلم أن يكتشفه في هذا الباب .. فما الذي جاء به الإسلام؟ قال: لقد استطاع العلم أن يصف الداء .. واستطاع مع ذلك أن يضع الخصائص التي يمكن للدواء أن يفعل بها مفعوله في مقاومة الداء .. ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يضع الدواء .. لأن مثل ذلك الدواء لا يمكن إلا أن يكون من لدن الله نفسه..

لقد ذكر الله ذلك، فقال في كتابه الكريم عن كتابه الكريم: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (82)﴾ (الإسراء: 82)، وقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (44)﴾ (فصلت)، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: 57)

أتدرون السر في كون القرآن الكريم شفاء؟

قالوا: ما السر في ذلك؟

قال: ألا ترون المريض كيف يستريح ويطمئن إن خاطبه طبيبه أو تحدث إليه؟

قالوا: بلى .. نرى ذلك .. خاصة إن غسل آلامه بمراهم الأمل.

قال: فالأمل عند الله وحده .. والقدرة عند الله وحده .. والفضل عند الله وحده .. ولذلك يجد المؤمن في ترديد

كلام ربه، وتأمل معانيه من الأانس الروحي ما يجعله مطمئنا مستريحا .. بل ممتلئا سعادة وسرورا.

لقد ذكر الله ذلك عن كتابه، فقال: ﴿وَإِذَا مَا أَنزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هِدًى إِمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (124)﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (125)﴾ (التوبة)

قالوا: ولكن القرآن ذكر أنه يزيد المرضى مرضا؟

قال: المريض الذي لا يعرف كيف يستعمل الدواء لا شك أنه يتضرر به ...

قالوا: فكيف يستعمل دواء القرآن؟

قال: لقد ذكر الله ذلك، فقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأُمَمَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر: 21)

قالوا: فما في هذه الآية مما نحن فيه؟

قال: المريض الذي يريد أن يستشفى بالقرآن لا بد أن يعرف قيمة وعظمة وسمو الدواء الذي يستعمله، فهو ليس

دواء كيميائيا قد ينفع عضوا، ويضر أعضاء، وقد ينفع الجسد ويغفل عن الروح، وقد ينفع اليوم ويضر غدا.

وهو ليس دجل مشعوذ، يعطي من الوهم بقدر ما يعطي من النقود.

بل هو كلام رب العالمين ، كلام رب السموات والأرض ، كلام الذي ليس كمثله شيء ، وكما لا يصح أن

تقارن به أي شيء ، فلا يصح أن تقارن بدوائه أي دواء.

ولذلك ، فإن الذي يتعامل مع العلاج القرآني بمقاييسه البشرية المحدود ، أو يتصور أن الأدوية والعلل من القوة

بحيث لا يطبق القرآن إزاحتها ، فهو لم يصل بعد إلى درجة الانتفاع بالقرآن الكريم ، فـ (كيف تقاوم الأدوية كلام

رب الأرض والسماء الذي لو نزل على الجبال، لصدعها، أو على الأرض، لقطعها، فما من مرض من أمراض القلوب

والأبدان إلا وفي القرآن سبيل الدلالة على دأوته وسببه، والحمية منه لمن رزقه الله فهما في كتابه)

وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً

وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (51)﴾ (العنكبوت)

قالوا: فإذا ما قرأ المريض القرآن بالصفة التي ذكرتها؟

قال: إذا قرأه بتلك الصفة امتلأ قلبه تعظيماً لله .. ونال بعد ذلك من المعارف ما يجعله مطمئناً إلى أن الحالة التي يمر بها ليست سوى عارض بسيط يتخلل حياته الأبدية الجميلة التي قدرها الله له.
لاحظوا الفرق بين من يعتقد بأن المرض غول يريد أن يلتهم سعادته الوحيدة التي جعلت له في لحظات الدنيا، وبين من يرى أن المرض محطة من المحطات .. وأن لحظات السعادة التي كتبها الله لعباده إن هم عرفوه وعبدوه لا نهاية لها ..

تصوروا الفرق بين من يعتقد بوجود سند قوي قادر على كل شيء يمكنه أن يخلصه من كل ضرر وألم، وبين من لا يرى هذا السند إلا في طبيبه العاجز البائس الذي قد يقف في حالات كثيرة لا يدر ماذا يفعل.
إن هذا يجعل المؤمن يلتجئ إلى الله، ويتضرع إليه ..

وقد علمنا رسول الله ﷺ كيف نلتجئ إلى الله، وكيف نمتلى طمأنينة أثناء التجائنا.
ومن ذلك ما ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: (مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ ، وَلَا حَزَنٌ ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ، وَأَبْنُ عَبْدِكَ ، وَأَبْنُ أَمْتِكَ نَاصِيَتِي بِيَدِكَ ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ ، أَوْ اسْتَأْذَنْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ : أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي ، وَنُورَ صَدْرِي ، وَجِلَاءَ حُزْنِي ، وَذَهَابَ هَمِّي إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ ، وَحَزَنَهُ ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا) ، فَقِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا تَتَعَلَّمُهَا ؟ فَقَالَ : (بَلَى يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا)¹
فهذا الدعاء يتضمن اعتراف العبد أنه مملوك لله ، وأنه لا غنى له عنه، وليس له سيد سواه، والتزام بعبوديته، وإعلان الخضوع والامتثال لأمره ونهيهِ ، وأن الله يصرفه، ويتحكم فيه كيف يشاء، وإذعان لحكم الله، ورضى بقضائه، وتوسل إلى الله بجميع أسمائه قاطبة، ثم سؤال المطلوب، ونشدان المرغوب.

وكل هذه المعاني لها تأثيرها النفسي الكبير في نفس المريض والمبتلى ..
ومن ذلك ما ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ)²
ومن ذلك ما روي أنه ﷺ كان إذا كرب أمر قال: (يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ)³
ومن ذلك ما روي عن أسماء بنت عميس قالت: قال لي رسول الله ﷺ: (أَلَا أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ تَقُولِينَ عِنْدَ الْكَرْبِ ، أَوْ فِي الْكَرْبِ : اللَّهُ اللَّهُ رَبِّي لَا أُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا)⁴
ومن ذلك قوله ﷺ: (دَعَوَاتُ الْمَكْرُوبِ اللَّهُمَّ رَحْمَتِكَ أَرْجُو فَلَا تَكْلِفْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ)⁵

(1) رواه أحمد.

(2) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه، وأحمد.

(3) رواه الترمذي وحسنه.

(4) رواه أبو داود، وابن ماجه، وأحمد.

(5) رواه أبو داود، وأحمد.

بالإضافة إلى هذا .. ما ورد في خصوص المرض من الآثار عن النبي ﷺ وورثته الكرام من أنواع الالتجاء .. والتي تملأ قلب المؤمن رضا وطمأنينة وسكينة.

ففي الحديث عن عائشة: أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات¹، وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح بيده رجاء بركتها².

وعنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا مرض أحد من أهله نفث عليه بالمعوذات³.

وعنها أن النبي ﷺ كان يعوذ بعض أهله، بمسح بيده اليمنى ويقول: (اللهم رب الناس أذهب الباس، واشفه وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقما)⁴، وفي رواية عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا اشتكى منا إنسان مسحه بيمينه، ثم قال: وذكرت الدعاء.

وعن بعضهم أنه شكأ إلى رسول الله ﷺ وجعا في جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله ﷺ: (ضع يدك على الذي تألم من جسدك، وقل باسم الله ثلاثا، وقل سبع مرات: أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر)⁵

وعن أبي سعيد الخدري: أن جبريل أتى النبي ﷺ، فقال: يا محمد، اشتكيت؟ فقال: نعم. قال: (باسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس أو عين حاسد. الله يشفيك، باسم الله أرقيك)⁷

وعن عبد العزيز بن صهيب قال: دخلت أنا وثابت على أنس بن مالك فقال ثابت: يا أبا حمزة اشتكيت، فقال أنس: ألا أرقيك برقية رسول الله ﷺ؟ قال: بلى، قال: (اللهم رب الناس، مذهب الباس، اشف أنت الشافي، لا شافي إلا أنت، شفاء لا يغادر سقما)⁸

ومن الأدعية الواردة عن ورثة رسول الله ﷺ من آل بيته الكرام، ما ورد عن جعفر الصادق - رضي الله عنه - فقد أثر عنه هذا الدعاء الجليل في المرض: (اللهم إني أدعوك دعاء العليل الذليل الفقير، دعاء من اشتدت فاقته، وقلت حيلته، وضعف عمله، وألح البلاء عليه .. دعاء مكروب إن لم تدركه هلك، وإن لم تسعده فلا حيلة له، فلا تحط بي مكرك، ولا تثبت علي غضبك، ولا تضطرنني إلى اليأس من روحك والقنوط من رحمتك .. اللهم إنه لا طاقة لي ببلادك، ولا غنى بي عن رحمتك، وهذا أمير المؤمنين أخو نبيك ووصي نبيك أتوجه به إليك، فإنك جعلته مفزعا لخلقك، واستودعته علم ما سبق، وما هو كائن، فاكشف به ضري وخلصني من هذه البلية إلى ما عودتني من رحمتك يا هو يا هو يا هو انقطع الرجاء إلا منك) وكان يقول: (اللهم اجعله أدبا و لا تجعله غضبا)

(1) بالمعوذات: الإخلاص والفلق والناس، ودخلت سورة الإخلاص معهما تغليبا لما اشتملت عليه من صفة الرب وإن لم يصرح فيها بلفظ التعويذ.

(2) رواه البخاري ومسلم.

(3) رواه مسلم.

(4) رواه البخاري ومسلم.

(5) من شر ما أجد وأحاذر: من شر ما أجد من وجع وألم، ومن شر ما أحاذر من ذلك، أي: ما أخاف وأحذر.

(6) رواه مسلم.

(7) رواه مسلم.

(8) رواه البخاري.

و كان زين العابدين - رضي الله عنه - إذا مرض يدعو قائلاً: (اللهم لك الحمد على ما لم أزل أتصرف فيه من سلامة بدني، ولك الحمد على ما أحدثت لي من علة في جسدي، فما أدري يا إلهي على ما لم أزل أتصرف فيه إلى أي الحالين أحق بالشكر لك، وأي الوقتين أولى بالحمد إليك، أوقت الصحة التي هئأني فيها طيبات رزقك وأنشطتي بها لا ابتغاء مرضاتك وفضلك وقوتي على ما أهبت بي إليه من طاعتك، أم وقت العلة التي أفديتنيها والسقم الذي أتحفتني به تخفيفاً لما ثقل علي من الخطيئات وتطهيراً لما انعمست فيه من السيئات وتنبهها لتناول التوبة وتذكيراً لمحو الحوبة بقدم النعمة، وفي خلال ذلك ما يكتب لي الكاتبان من زكي الأعمال ما لا قلب فكر فيه ولا لسان نطق به ولا جارحة تكلفته إفضالاً منك علي وإحساناً من صنعك إلي اللهم فصل على محمد وآله وحبب إلي ما رضيت لي ويسر علي ما أحللت لي وطهرني من ذميم ما أسلفت وامح عني سئى ما قدمت وأوجدني حلاوة العافية وأذقني برد السلامة واجعل مخرجي عن عليتي إلى عفوك ومتحولي عن مصرعي إلى تجاوزك وخلاصي من كربتي إلى روحك وسلامتي من هذه الشدة إلى فرجك إنك المتفضل بالإحسان المتطول بالامتنان الوهاب الكريم خير معين ومستعان)

قالوا: حدثنا عن الأولى .. فحدثنا عن الثانية؟

قال: الثانية هي ما ورد في النصوص المقدسة من البشارات بما يلقاه المريض من فضل الله إن هو أحسن تعامله مع مرضه، فلم يجره إلى السخط أو الجزع أو الشكوى¹ ..

وأول ذلك أن ما أصابهم من البلاء يرفع عنهم ثقل الحساب، فلا يحاسبون كما يحاسب غيرهم، وقد روي في ذلك أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ بها لم فقال: (يا رسول الله، ادع الله أن يشفيني) قال: (إن شئت دعوت الله أن يشفيك، وإن شئت فاصبري ولا حساب عليك)، قالت: (بل أصبر ولا حساب علي)²

وفي حديث آخر، قال ﷺ: (يؤتى بالشهيد يوم القيامة، فينصب للحساب، ويؤتى بالمتصدق، فينصب للحساب، ثم يؤتى بأهل البلاء، فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان، ويصب عليهم الأجر صبا، حتى إن أهل العافية ليمنون في الموقف أن أجسادهم قرضت بالمقاريض، من حسن ثواب الله لهم)³

وقد روي في تعلييل سر رفع الحساب عن المبتلين هو أن ما وقعوا فيه من الذنوب يطهرون منه بالبلاء .. فعن أنس بن مالك قال دخلت مع النبي ﷺ نعود زيد بن أرقم وهو يشتكي عينيه فقال له: (يا زيد، لو كان بصرك لما به كيف كنت تصنع؟)، قال: (إذا أصبر وأحتسب)، قال: (إن كان بصرك لما به ثم صبرت واحتسبت لتلقين الله عز وجل وليس لك ذنب)⁴

قام بعض المرضى، وقال: إن هذه نعمة عظيمة .. فإن أعظم ما يخافه كل مؤمن هو الحساب .. أن تنشر صحفه، فيعاني جرائمه .. أو يفضح بين الخلاق .. إنه موقف صعب جدا .. فأحدنا لا يطبق الوقوف في محكمة الدنيا ليحاسب، فكيف يطبق الوقوف في محكمة الآخرة؟

قال الرضا: ليس ذلك فقط .. فقد ورد في النصوص تبشيرهم بالجنة .. ففي الحديث قال رسول الله ﷺ: (إن

(1) ذكرنا التفاصيل الكثيرة المرتبطة بهذا في رسالة (رقية الروح) من سلسلة (ابتسامة الأنين)

(2) أحمد وابن حبان والحاكم عن أبي هريرة.

(3) الطبراني في الكبير عن ابن عباس.

(4) أبو يعلى، وابن عساکر.

الله قال: إذا ابتليت عبدي بحبيتيه فصر عوضته منهما الجنة، يريد عينيه¹
وعن عطاء بن أبي رباح قال، قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ فقلت: بلى. قال: هذه المرأة
السوداء، أتت النبي ﷺ فقالت: إني أصرع وإني أتكشف فادع الله تعالى لي، قال: (إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن
شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك)، فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشف فادع الله أن لا أتكشف، فدعا لها²
وعن أبي سنان قال: دفنت ابناً لي في قبر إذ أخذ بيدي أبو طلحة (يعني الخولاني) فأخرجني وقال لي: ألا
أبشرك؟ قلت: بلى، قال: قال رسول الله ﷺ: (قال الله: يا ملك الموت قبضت ولد عبدي؟ قبضت قرّة عينه وثمره
فؤاده؟ قال: نعم، قال: فما قال؟ قال: حمدك واسترجع، قال: ابنوا له بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد)³
قام مريض آخر، وقال: هذا ثواب عظيم.. فالجنة هي الدار التي تهفو لها القلوب.. وحسب المبتلى أن يبشر بما
حتى ينسى كل بلاء ينزل به.

قال الرضا: ليس ذلك فقط.. بل ورد في النصوص أن المبتلى يرفع إلى الدرجات العليا بحسب صبره ورضاه عن
ربه.. ففي الحديث الشريف قال ﷺ: (إن العبد إذا سبقت له من الله منزلة لم يبلغها بعمله ابتلاه الله في جسده أو في
ماله أو في ولده، ثم صبره على ذلك، حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له من الله تعالى)⁴، وقال: (ما من مسلم يصاب
بشيء في جسده فيصبر إلا رفعه الله به درجة، وحط عنه به خطيئة)⁵

وعن سعد بن أبي وقاص قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: (الانبياء ثم الأمثل فالأمثل، يتلى
الرجل على حسب دينه فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه وإن كان في دينه رقة ابتلاه الله على حسب دينه فما يبرح
البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة)⁶

وحدث بعضهم، قال: كنت مع رسول الله ﷺ جالساً، فقال رسول الله ﷺ: (من أحب أن يصح ولا يسقم؟)،
قلنا: نحن يا رسول الله، قال رسول الله ﷺ: (مه؟!)، وعرفناها في وجهه، فقال: (أتحبون أن تكونوا كالحمير الصيالة؟)،
قال، قالوا: يا رسول الله لا، قال: (ألا تحبون أن تكونوا أصحاب بلاء وأصحاب كفارات؟)، قالوا: بلى يا رسول الله،
قال: فقال رسول الله ﷺ: (فوالله إن الله ليبتلّي المؤمن وما يبتليه إلا لكرامته عليه، وإن له عنده منزلة ما يبلغها بشيء من
عمله دون أن ينزل به من البلاء ما يبلغ به تلك المنزلة)⁷
قام مريض آخر، وقال: ما شاء الله.. ما شاء الله.. حسبنا بهذا.. فما أعظم نعم الله علينا، والتي كنا غافلين
عنها.

قال الرضا: ليس ذلك فقط.. بل ورد في النصوص ما هو أعظم من ذلك كله.

(1) رواه البخاري والترمذي.

(2) البخاري ومسلم.

(3) أحمد والترمذي.

(4) رواه أحمد وأبو داود وأبو يعلى والطبراني في الكبير والأوسط.

(5) ابن جرير عن أبي الدرداء.

(6) أحمد والبخاري وابن ماجه والترمذي وابن حبان والحاكم.

(7) رواه البيهقي في شعب الإيمان، والطبراني في المعجم الكبير، وابن سعد في الطبقات.

قالوا: فما هو؟

قال: صلاة الله على عبده الصابر الراضي عنه .. لقد قال تعالى يقرر ذلك: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة: 155) — (157)

قال بعض المرضى: فهل صلاة الله على عبده جزاء؟

قال الرضا: أجل .. بل هي جزاء فوق الأجزية .. بل لا تعدلها أي جائزة أخرى.

قال المريض: لم كانت كذلك؟

قال الرضا: إن صلاة الله على عبد تعني تقريبه له .. والقرب لا يساويه جزاء ولا يطاوله ثواب، فهو إخراج من الظلمات إلى النور، ومن الحجاب إلى المشاهدة .. لقد ذكر الله ذلك، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ (الأحزاب: 43)؟

قالوا: حدثنا عن الثانية .. فحدثنا عن الثالثة؟

قال: الثالثة هو ما ورد في الشريعة من التشجيع على العمل الصالح في جميع الأحوال، من غير أن يقعد المؤمن عنه

بأي سبب من الأسباب ..

بل ورد فيها اعتبار الأعمال الصالحة سببا مهما من أسباب الشفاء .. فمن ذلك ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (45) (البقرة)، ففي هذه الآية يأمرنا الله تعالى بالاستعانة بالصلاة على جميع ما يصيبنا من أنواع البلاء ..

وقد كان من سنته ﷺ أنه كان إذا حزن من أمر فزع إلى الصلاة ..

وكان ﷺ يصفها لأصحابه، ففي الحديث عن أبي هريرة قال: رأيت رسول الله ﷺ وأنا نائم أشكو من وجع بطني، فقال لي: يا أبا هريرة، أیوجعك بطنك؟ قلت: نعم يا رسول الله، قال: (قم فصل، فإن في الصلاة شفاء)¹

وقال ﷺ: (إنما مثل الصلاة كمثل نهر عذب غمر بيباب أحدكم يقتحم فيه كل يوم خمس مرات فهل يبقى من درنه شيء؟)²

ومثل ذلك الصوم .. ولهذا أمر رسول الله ﷺ به، ورغب فيه .. ففي الحديث عن أبي أمامة، قال: قلت: يا

رسول مرني بعمل ينفعني الله به، قال: (عليك بالصوم فإنه لا مثل له)³

وفي حديث آخر، قال رسول الله ﷺ: (صوموا تصحوا)⁴

التفت الرضا إلى الدكتور منجل، وقال: لقد أثبتت الدراسات العلمية والأبحاث الدقيقة على جسم الإنسان ووظائفه الفسيولوجية أن الصيام ظاهرة طبيعية يجب للجسم أن يمارسها حتى يتمكن من أداء وظائفه الحيوية بكفاءة، وأنه ضروري جدا لصحة الإنسان تماما كالأكل والتنفس والحركة والنوم، فكما يعاني الإنسان بل يمرض إذا حرم من

(1) رواه ابن ماجة.

(2) رواه أحمد.

(3) رواه النسائي.

(4) رواه الطبراني.

النوم أو الطعام لفترات طويلة، فإنه كذلك لا بد أن يصاب بسوء في جسمه لو امتنع عن الصيام. و فوق ذلك .. فقد أثبتت الوقائع الكثيرة دور الصوم في الصحة النفسية، وتوقد الذهن .. لقد قال (توم برنز)، وهو من مدرسة كولومبيا للصحافة: (إنني أعتبر الصوم تجربة روحية عميقة أكثر منها جسدية، فعلى الرغم من أنني بدأت الصوم بهدف تخليص جسدي من الوزن الزائد إلا أنني أدركت أن الصوم نافع جدا لتوقد الذهن، فهو يساعد على الرؤية بوضوح أكبر، وكذلك على استنباط الأفكار الجديدة وتركيز المشاعر، فلم تكد تمضي عدة أيام من صيامي في منتجع (بولنج) الصحي حتى شعرت أي أمر بتجربة سمو روحي هائلة .. لقد صمت إلى الآن مرات عديدة، لفترات تتراوح بين يوم واحد وستة أيام، وكان الدافع في البداية هو الرغبة في تطهير جسدي من آثار الطعام، غير أنني أصوم الآن رغبة في تطهير نفسي من كل ما علق بها خلال حياتي، وخاصة بعد أن طفت حول العالم لعدة شهور، ورأيت الظلم الرهيب الذي يجبا فيه كثيرون من البشر، إنني أشعر أنني مسئول بشكل أو بآخر عما يحدث لهؤلاء ولذا فأنا أصوم تكفيرا عن هذا .. إنني عندما أصوم يختفي شوقني تماما إلى الطعام، ويشعر جسدي براحة كبيرة، وأشعر بانصراف ذاتي عن النزوات والعواطف السلبية كالحسد والغيرة وحب التسلط، كما تنصرف نفسي عن أمور علقت بها مثل الخوف والارتباك والشعور بالملل.. كل هذا لا أجد له أثرا مع الصيام، إنني أشعر بتجاوب رائع مع سائر الناس أثناء الصيام، ولعل كل ما قلته هو السبب الذي جعل المسلمين وكما رأيتهم في تركيا وسوريا والقدس يحتفلون بصيامهم لمدة شهر في السنة احتفالا جذابا روحانيا لم أجد له مثيلا في أي مكان آخر في العالم)

ومثل ذلك الصدقة .. ففي الحديث: (حصنوا أموالكم بالزكاة، وداووا مرضاكم بالصدقة، واستقبلوا أمواج البلاء بالدعاء والتضرع)¹ وهكذا كل عمل صالح.. فإن له تأثيره النفسي الكبير على المريض، بالإضافة إلى تأثيره الغيبي الذي جعله الله مؤثرا في حصول الشفاء ..

وقد وعى الصالحون هذا المعنى .. فقد روي عن ابن شقيق قال: سمعت عبد الله بن المبارك ، وسأله رجل عن قرحة خرجت في ركبته منذ سبع سنين، وقد عاجلها بأنواع العلاج، وسأل الأطباء فلم ينتفع به، فقال عبد الله بن المبارك: (اذهب فاحفر بئراً في مكان الناس بحاجة إلى الماء فإني أرجو أن ينبع هناك عينٌ ويمسك عنك الدم) ، ففعل الرجل فبرأ.

وقال أبو طاهر السلفي: سمعت أبا الحسن علي بن أبي بكر أحمد بن علي الكاتب المينزي بدمشق يقول: سمعت أبا بكر الحبازي بنيسابور يقول: مرضت مرضاً خطراً، فرآني جار لي صالح، فقال استعمل قول رسول الله ﷺ: (داووا مرضاكم بالصدقة)، وكان الوقت ضيقاً، فاشتريت بطيخاً كثيراً، واجتمع جماعة من الفقراء والصبيان، فأكلوا ورفعوا أيديهم إلى الله عز وجل، ودعوا لي بالشفاء، فوالله ما أصبحت إلا وأنا في كل عافية من الله تبارك وتعالى)

وأحبر الشيخ محمد بن صالح السحبياني قاضي محكمة البدائع بالقصيم: (أن رجلاً من أهل القصيم أصيب بالسرطان، فصدق على أم أيتام، فبدأت تدعو له فشفاه الله من هذا المرض) بالإضافة إلى هذا كله .. فقد أحبر ﷺ أن الله الشكور الحليم لا يضيع عمل عبده إن قعد به الداء عنه، ففي

(¹) رواه أبو داود في المراسيل ورواه الطبراني والبيهقي وغيرهما عن جماعة من الصحابة مرفوعاً متصلاً والمرسل أشبه.

الحديث قال ﷺ: (إن العبد إذا مرض أوحى الله تعالى إلى ملائكته: أنا قيدت عبدي بقيد من قيودي، فإن أقبضه اغفر له، وإن أعافه فحينئذ يقعد لا ذنب له)¹.

وفي حديث آخر قال ﷺ: (ما من مسلم يصاب في جسده إلا أمر الله تعالى الحفظة: اكتبوا لعبدي في كل يوم وليلة من الخير ما كان يعمل، ما دام محبوساً في وثاقي)².

وفي الأثر الإلهي: (قال الله تعالى: إذا ابتليت عبداً من عبادي مؤمناً فحمدني وصبر على ما ابتليته، فإنه يقوم من مضجعه ذلك كيوم ولدته أمه من الخطايا، ويقول الرب للحفظة: إني أنا قيدت عبدي هذا وابتليته فأجروا له ما كنتم تجرون له قبل ذلك من الأجر وهو صحيح)³.

بل إن رسول الله ﷺ أخبر بأن مجرد الاسترجاع عند تذكر المصيبة له ثوابه عند الله، قال ﷺ: (ما من مسلم ولا مسلمة يُصاب بمصيبة فيذكرها، وإن طال عهدها فيحدث لذلك استرجاعاً إلا جدد الله له عند ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم أُصيب)⁴.

قالوا: حدثنا عن الثالثة.. فحدثنا عن **الرابعة**؟

قال: **الرابعة** هو ما ورد في الشريعة من دعوة المجتمع إلى الاهتمام بالمرضى، وعدم الانعزال عنه إلا إذا اقتضت الضرورة ذلك..

فقد ورد في النصوص المقدسة الدعوة إلى عيادة المريض بأساليب مختلفة..

منها قوله ﷺ: (حق المسلم على المسلم خمس - فذكر منها: - وعبادة المريض)⁵

وقال: (إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت فلم تعدني قال يا رب: كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده)⁶

وقال: (عودوا المرضى واتبعوا الجنائز تذكركم بالآخرة)⁷

وقال: (خمس من عملهن في يوم كتبه الله من أهل الجنة: من عاد مريضاً وشهد جنازة وصام يوماً وراح إلى الجمعة وأعتق رقبة)⁸

وقال: (من عاد مريضاً ناداه مناد من السماء طيب وطاب ممثاك وتبوات من الجنة منزلاً)⁹

وقال: (من توضأ فأحسن الوضوء وعاد أخاه المسلم محتسباً بوعد من جهنم مسيرة سبعين خريفاً)¹⁰

(1) الحاكم عن أبي أمامة.

(2) الحاكم عن ابن عمرو.

(3) أحمد والطبراني في الكبير وأبو نعيم عن شداد بن أوس.

(4) أحمد وابن ماجه.

(5) رواه البخاري ومسلم.

(6) رواه مسلم.

(7) رواه أحمد والبخاري وابن حبان في صحيحه.

(8) رواه ابن حبان في صحيحه.

(9) رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه واللفظ له وابن حبان في صحيحه.

(10) الخريف: العام، كذا فسره أنس بن مالك.

وقال: (ما من مسلم يعود مسلما غدوة إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسي، وإن عادته عشية صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح، وكان له خريفا في الجنة)²، وفي رواية³: (إذا عاد المسلم أخاه مشي في خرافة الجنة⁴ حتى يجلس، فإذا جلس غمرته الرحمة)⁵

وقال: (إذا دخلت على مريض فمره يدعو لك فإن دعاه كدعاء الملائكة)⁶

وقال: (عودوا المرضى ومروهم فليدعوا لكم فإن دعوة المريض مستجابة وذنبه مغفور)⁷

وقال: (لا ترد دعوة المريض حتى يبرأ)⁸

بالإضافة إلى كل ذلك .. فقد مثل رسول الله ﷺ بسلوكه العملي هذه الأوامر خير تمثيل ..

ففي الحديث عن عبادة بن الصامت قال: أتاني رسول الله ﷺ وأنا مريض في أناس من الأنصار يعودوني⁹.

وعنه: أن رسول الله ﷺ عاد عبد الله بن رواحة، قال: فما تحور له عن فراشه .. الحديث¹⁰.

وعن عثمان أنه كان يخطب، فقال: (أما والله قد صحبنا رسول الله ﷺ في الحضر والسفر، فكان يعود مرضانا،

ويشيع جنازتنا، ويغلو معنا ويواسينا بالقليل والكثير)¹¹

وعن ابن عمر قال: كنا جلوسا مع رسول الله ﷺ إذ جاء رجل من الأنصار فسلم عليه، ثم أدبر الأنصاري، فقال

رسول الله ﷺ: (يا أبا الأنصار .. كيف أخي سعد بن عبادة؟) فقال: صالح، فقال رسول الله ﷺ: (من يعود

منكم؟)، فقام وقمنا معه ونحن بضعة عشر، ما علينا نعال ولا خفاف ولا فلانس ولا قمص نمشي في تلك السباح حتى

جئنا، فاستأخر قومه من حوله حتى دنا رسول الله ﷺ وأصحابه الذين معه¹².

وعن حصين بن وحوح أن طلحة بن البراء مرض فأثاه رسول الله ﷺ يعود فقال: (إني لا أرى طلحة إلا قد

حدث فيه الموت، فأذنوني به وعجلوا، فإنه لا ينبغي لحيفة مسلم أن تحبس بين ظهري أهله)¹³

وعن أنس قال: كان رسول الله ﷺ إذا فقد رجلا من أصحابه ثلاثة أيام سأل عنه، فإن كان غائبا دعا له، وإن

(1) رواه أبو داود.

(2) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.

(3) هذه الرواية لابن ماجه.

(4) خرافة الجنة : هو اجتناء ثمرها، يقال: خرفت النخلة أخرفها، فشيبه ما يجوزه عائد المريض من الثواب بما يجوزه المخترف

من الثمر.

(5) زاد في رواية عن أحمد والطبراني قال أنس : يا رسول الله هذا الأجر للصحيح الذي يعود المريض فما للمريض؟ قال:

(تخط عنه ذنوبه)

(6) رواه ابن ماجه، ورواته ثقات مشهورون إلا أن فيه انقطاعا.

(7) رواه الطبراني.

(8) رواه ابن أبي الدنيا.

(9) رواه أحمد.

(10) رواه أحمد.

(11) رواه أبو ليلى.

(12) رواه مسلم.

(13) رواه أبو داود.

كان شاهدا زاره، وإن كان مريضا عاده¹.

عن جابر قال: جاءني رسول الله ﷺ يعودني ليس براكب بغل ولا برذون².

وعن أبي أمامة بن سهل بن حنيف - أن مسكينة مرضت، فأخبر رسول الله ﷺ بمرضها، قال: وكان رسول الله ﷺ يعود المساكين، ويسأل عنهم .. الحديث³.

عن زيد بن أرقم قال: أصابني رمد، فعادني رسول الله ﷺ⁴.

وعن أنس قال: دخلت مع رسول الله ﷺ نعود زيد بن أرقم، وهو يشتكي عينيه - الحديث⁵.

قال الدكتور منجل: ما أجمل ما دعاكم إليه نبيكم .. ولكن ألا ترى أن في تجميع الناس على المريض مما يزيد مرضا؟ .. فالمرضى يحتاج من الراحة ما لا يحتاج إليه السليم.

قال الرضا: وقد نهينا ﷺ إلى هذا .. ودعانا إلى مراعاة الأدب عند عيادة المرضى ..

ومن ذلك ما ورد في النصوص المقدسة من الدعوة إلى التنفيس عن المريض، وملئه بالأمل في الله، وفي شفاء الله، وفي فضل الله عليه بالبلاء المطهر .. ففي الحديث عن ابن عباس: أن النبي ﷺ دخل على أعرابي يعود، قال: وكان النبي ﷺ إذا دخل على مريض يعود، قال: (لا بأس طهور إن شاء الله)، قال: قلت: طهور! كلا، بل هي حمى تفور - أو

تنور - على شيخ كبير تزيه القبور. فقال النبي ﷺ: (فنعلم إذا)⁶

وعن أم العلاء قالت: عادني رسول الله ﷺ وأنا مريضة، فقال: (أبشري يا أم العلاء، فإن مرض المسلم يذهب الله

به خطاياهم كما تذهب النار خبث الذهب والفضة)⁷

وعن جابر: أن رسول الله ﷺ دخل على أم السائب، فقال: (مالك يا أم السائب تزفزين (أي: ترعدين) قالت:

الحمى لا بارك الله فيها، فقال: (لا تسبي الحمى، فإنها تذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكبر خبث الحديد)⁸

وعن سعيد بن وهب قال: كنت مع سلمان - وعاد مريضا في كندة - فلما دخل عليه قال: أبشر، فإن مرض

المؤمن يجعله الله له كفارة ومستعتبا، وإن مرض الفاجر كالبعير عقله أهله ثم أرسلوه، فلا يدري لم عقل ولم أرسل)⁹

ومن ذلك أن على من عاد المريض أن يتخير الوقت المناسب لعيادته؛ لأن مقصود العيادة إراحة المريض وتطبيب

قلبه، لا إدخال المشقة عليه ..

ومن ذلك أن لا يطيل المكث والجلوس عنده، إلا إن أحب المريض ذلك، وكان في الجلوس فائدة ومصلحة.

ومن ذلك أن يدعو للمريض، ففي الحديث عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا عاد المريض جلس عند

(1) رواه أبو يعلى.

(2) رواه البخاري، وأبو داود، ورواه ابن ماجه، ولفظه (عادني رسول الله ﷺ ماشيا وأبو بكر، وأنا في بني سلمة)

(3) رواه مالك.

(4) رواه أحمد، والبخاري في الأدب، وأبو داود.

(5) رواه أحمد.

(6) رواه البخاري.

(7) رواه أبو داود.

(8) رواه مسلم.

(9) رواه البخاري في الأدب المفرد.

رأسه، ثم قال سبع مرار: أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك، فإن كان في أجله تأخير عوفي من وجعه¹ ولما عاد النبي ﷺ سعد بن أبي وقاص وضع يده على جبهته، ثم مسح يده على وجهه وبطنه، ثم قال: (اللهم اشف سعداً)²، وفي وضع اليد على المريض تأنيس له، وتعرف على مرضه شدة وضعفاً، وتلطف به. وعليه أن ينصح للمريض بالدعاء، وأن لا يقول عنده إلا خيراً، ففي الحديث عن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: (إذا حضرتم المريض أو الميت فقولوا خيراً، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون)³ ومن ذلك نصح المريض وتوجيهه .. ففي الحديث عن جابر قال: دخل رسول الله ﷺ على أم السائب، وهي ترفرف، فقال: ما لك؟ فقالت: الحمى - أحزها الله تعالى - فقال رسول الله ﷺ (لا تسيها، فإنها تذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكبر خبث الحديد)⁴ وعن أنس أن غلاماً من اليهود كان يخدم رسول الله ﷺ فمرض فأثاه رسول الله ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: (أسلم)، فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أطع أبا القاسم فأسلم، فخرج رسول الله ﷺ وهو يقول: (الحمد لله الذي أنقذه من النار)⁵

(1) رواه البخاري في الأدب المفرد.

(2) رواه البخاري ومسلم.

(3) رواه مسلم.

(4) رواه البخاري في الأدب، ورواه أبو داود عن أم العلاء، عمّة حزام بن حكيم الأنصاري، وروى الطبراني - برجال الصحيح - عن فاطمة الخزاعية قالت: عاد رسول الله ﷺ امرأة من الأنصار وهي وجعة، فقال لها: (كيف تجدينك؟) قالت بخير إلا أن أم ملدم قد برحت بي، فقال رسول الله ﷺ: (اصبري، فإنها تذهب خبث ابن آدم، كما يذهب الكبر خبث الحديد)

(5) رواه أحمد، والبخاري، وأبو داود.

2 - الجسد

قال الدكتور منجل: عرفنا علاج الإسلام للنفس في حال مرضها .. فما جاء به لعلاج الجسد؟
قال الرضا: أربعة أمور .. لا تتحقق رحمة الجسد إلا بها .. ولم تكتمل هذه الأربعة في دين كما اكتملت في الإسلام .. ففيه وحده جميع المعاني التي تجعل المريض يعيش حياة طبيعية لا تختلف عن حياة أي سليم.
أما أولها .. فهو ما جاء في الشريعة من الدعوة لحفظ الأجساد باعتبارها أمانة من الله لعباده يتوجب عليهم حفظها .. ولم يكتف الإسلام بذلك، بل شرع التشريعات المختلفة .. والتي تجمع كل ما جاء الطب الوقائي لتقريره.
وأما الثانية .. فهو ما جاء في الشريعة من الدعوة إلى التداوي .. ووضع القوانين الكثيرة التي تحفظ التداوي من السقوط في الخرافة والدجل.

وأما الثالثة .. فهو ما جاء من تشريعات التخفيف على المريض، مراعاة لمرضه .. فلا يتعارض التدين مع المرض.
وأما الرابعة .. فهو ما حفلت به النصوص المقدسة من الأدوية التي لم يتأكد من جدواها العالم إلا بعد أن توفر له من الأجهزة والوسائل ما أتاح له ذلك ..

قال الجمع المحيط به: فحدثنا عن الأولى¹.

قال: لقد نصت الشريعة في نصوصها القطعية على وجوب المحافظة على الصحة - بمفهومها الواسع - باعتبارها نعمة من نعم الله على عباده، والنعم يجب حفظها .. ففي الحديث قال رسول الله ﷺ: (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ)²

بل إن رسول الله ﷺ يقرن العافية والصحة، باليقين، فيقول: (سلوا الله المعافاة، فما أوتي أحد بعد اليقين خيراً من المعافاة)³

ويقول: (سلوا الله العفو والعافية، فما أوتي أحد بعد يقين خيراً من معافاة)⁴

ويقول: (ما سئل الله شيئاً أحب من العافية)⁵

ويقول: (يا أيها الناس إن الناس لم يعطوا في الدنيا خيراً من اليقين والمعافاة فسلوها الله عز وجل)⁶

وروي أن رجلاً قال: اللهم إني أسألك الصبر، فقل له النبي ﷺ: (سألت الله البلاء فأسأله العافية)⁷

ولهذا فإن رسول الله ﷺ يعتبر حفظ الجسد من الحقوق الواجبة، فيقول: (إن لجسدك عليك حقاً)⁸

وبسبب ذلك يعتبر: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف)¹

(1) تحدثنا بتفصيل عن هذا الجانب من الطب النبوي في رسالة (رقية الجسد) من سلسلة (ابتسامة الأنين)

(2) رواه البخاري.

(3) رواه ابن ماجة.

(4) رواه النسائي.

(5) رواه الترمذي.

(6) رواه أحمد بإسناد حسن.

(7) رواه الترمذي بسند حسن.

(8) رواه البخاري.

إن هذه النصوص التي تمجد الصحة، وتعتبرها نعمة لا تقل عن نعمة الإيمان .. لم تكن نصوصاً مجردة عن التشريعات التي تضمن وقوعها .. فالإسلام لا يكفي بالنظريات المجردة، والمثل التي قد لا تجد ما يوفر لها الوجود الواقعي ..

ولذلك، فإن تأمل ما جاء به الإسلام في هذا الباب يضعنا أمام منظومة صحية متكاملة لم يأت بمثلها دين من الأديان، ولا مذهب من المذاهب ..

قال الدكتور منجل: كيف تقول ذلك .. ونحن لا نرى في مجامع كتب المسلمين الفقهية أبواباً خاصة بالطب .. وإن وجدناه في الحديث وجدنا مجموعة من الأدعية والرقى لا علاقة لها بالصحة إلا ما تنشره في قائلها من إيجازات وهمية؟

قال الرضا: من الخطأ الكبير - حضرة الدكتور - أن نبحث عن المنظومة الصحية الإسلامية في فصل من الفصول، أو باب من الأبواب ..

قال الدكتور منجل: فأين نبحت عنها إذن؟

قال الرضا: في الشريعة جميعاً .. في كل فصل من فصولها، وباب من أبوابها .. فمراجعة حفظ الصحة نجد في كل أمر من الأوامر ونهي من النواهي².

أليس في طهارة الثوب والبدن والمكان المطلوبة قبل أداء الصلاة .. وفي الوضوء خمس مرات يومياً .. والغسل من الجنابة، والأغسال المسنونة نظافة رائعة لها دورها في وقاية البدن من كثير من الأمراض؟
ونحن - المسلمين - مع كوننا نصلي تعبدًا وخضوعًا وامتنانًا لأمر الخالق العظيم إلا أنه لا ينكر أحد أن أداء الصلاة بإتقان ركوعها وسجودها أمر يدرّب عضلات الجسم ويمتّع تيبس مفاصله .. وهي آفات قلما تحصل عند المسلمين كما يؤكد ذلك كبار الأطباء.

ومثل ذلك الصوم، فمع أننا نؤديه تقريباً إلى الله طاعة وزلفى، ولكن ألم يثبت للعلماء من غير المسلمين أن الصوم الإسلامي ينقي البدن من فضلاته وسمومه، ويصقل الأجهزة ويعيد إليها (جدتها) وعملها الفيزيولوجي السوي؟
ثم أليس في قوله ﷺ: (السواك مطهرة للفم مرضاة للرب)³ سبق صحي ليس له مثال .. لقد دعا إليه نبي الرحمة ﷺ يوم كانت نبيلات روما يتمضمضن بالبول .. أليس عود الأراك مفخرة لأمتنا بين الأمم يوم لم يكن هناك فرشاة ولا معجون لتنظيف الأسنان، وهو بما فيه من مواد لكيمائية طبيعية صالح لأن يجمع خواص كل من المعجون والفرشاة على السواء؟

وهكذا فإن آداب الطعام والشراب في شريعتنا تلحظ صحة البدن والمحافظة عليه، ولها السبق في ذلك على كل ما قرره الطب الوقائي الحديث ..

أليس في قوله تعالى: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (31) (الأعراف)، وقول النبي ﷺ:

(1) رواه مسلم.

(2) رجعنا في هذا لكتابات الدكتور محمد نزار الدقر، ككتاب (روائع الطب الإسلامي)

(3) رواه البخاري تعليقا مجزوماً، والنسائي وابن خزيمة موصولاً.

(ما ملاً ابن آدم وعاء شرا من بطن ، حسب ابن آدم أكالات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة ، فنلت طعام ، وثلت شراب ، وثلت لنفسه)¹ وقاية للبدن من أمراض البدن النخمة وويلاتها؟

أليس في قواعد الشرب وآدابه التي وصفها محمد ﷺ للشاريين، من النهي عن الشرب واقفاً، والشرب على ثلاث، وغيرها كثير من الأمور التي أثبت الطب الحديث إعجازها، خاصة وقد أمر بها النبي الأمي ﷺ ، الذي لم يصل الطب في زمانه إلى كل هذه المعطيات؟

حتى النوم الذي لا يلتفت الكثير إليه، ولا يهتم به، وضع له الإسلام من القواعد والضوابط والنظم ما أثبت العلم الحديث مدى دقته ومدى خدمته لصحة الإنسان ..

لقد وضع الإسلام قواعد صحية رائعة لتنظيم ساعات العمل والنوم ما تزال هي الأمثل بين كل التشريعات الوضعية.. قال تعالى يقرر بعض هذا القواعد: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (10) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (11)﴾ (النبا)، وقال النبي ﷺ : (اللهم بارك لأمتي في بكورها)² .. وغيرها كثير .. وهي كلها مما تؤكد الدراسات العلمية أهميته .. فأحصاءات منظمة الصحة العالمية تذكر كثرة انتشار الأمراض بين فئة العاملين نهاراً.. كما أكدت أن الإنتاج العضلي والفكري للإنسان في ساعات الصباح الباكر تفوق إنتاجه بقية ساعات النهار أو الليل نوعاً وكماً.

وقد أثبت الطب أن النوم على البطن يؤدي إلى تشوهات عضوية وآثار مرضية سيئة على البدن .. وذلك متوافق تماماً مع تلك التشريعات الغالية التي شرعها النبي ﷺ حين نهي عن النوم على البطن، بل عده (ضجعة ييغضها الله ورسوله)³ .. وعندما أثبت الطب اليوم أن أفضل ضجعة للنوم هي النوم على الجانب الأيمن لم يخرج في ذلك عما دعا إليه النبي ﷺ .. مع العلم أن محمداً ﷺ لم يدرس التشريح .. بل لم يكن علم التشريح في عهده ﷺ ليعرف تفصيلات كثيرة في الجسد لم تعرف إلا حديثاً، ومع ذلك فإن دعوته ﷺ تنسجم تماماً مع كل معطيات العلم الحديث. وهكذا نجد في الشريعة الإسلامية منظومة كاملة تنظم غريزة الجنس، وتضعها في إطار يفجر طاقاتها لمصلحة الجسد لا لتدميره:

لقد دعا النبي ﷺ إلى الزواج المبكر حين قال: (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)⁴، ودعا إلى اختيار الزوجة الصحيحة السليمة، فقال: (تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس)⁵ ونظم أمور المعاشرة الزوجية، بحيث ضمن سلامة الزوجين من الإصابة بعدد من الأمراض الجنسية، ووضع أسس صحة المرأة وعافيتها، فنهى عن المواقعة قبل المداعبة، ونهى عن إتيان الزوجة في الحيض، وعن الإتيان في غير موضع الحرت مما أثبت الطب الحديث مضاره ومفاسده وما يلحق به من أذى لكل من الزوجين.

(1) رواه أحمد والترمذي.

(2) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.

(3) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه.

(4) رواه البخاري ومسلم.

(5) رواه ابن ماجه من حديث عائشة مختصراً دون قوله: (فإن العرق ..)، وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس: (تزوجوا في الحجر الصالح فإن العرق دساس)، وروى أبو موسى المدني في كتاب تضييع العمر والأيام من حديث ابن عمر: (وانظر في أي نصاب تضع ولدك، فإن العرق دساس)

وهل ينكر عاقل أو منصف من أطباء ما للزنى واللواط من أثر مفتح في انتشار الأمراض الجنسية كالزهري والسيلان وغيرها، وهي أمراض يحتمى منها المؤمن المطبق لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (32) (الإسراء)؟

وهل يجد المسئولون اليوم وسيلة لمكافحة الإيدز (طاعون العصر) أفضل من إدخال التعاليم الدينية في روع الناس وتحذيرهم مغبة الإصابة بهذا الطاعون الجديد؟

أليس في تحريم الخمر و المخدرات في تشريعنا رحمة كبرى لمجتمعنا المسلم عندما نقرانه بما تعانيه المجتمعات الغربية من مشاكل صحية خطيرة أمام قضية الإدمان؟

ألم تؤكد دراسات منظمة الصحة العالمية علاقة التدخين - الذي تقول الشريعة بتحريمه - بانتشار السرطانات علاوة على اشتمال أضراره لكل أجهزة البدن وفي مقدمتها الجهاز العصبي؟

أليس في تطبيق قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ.. (3)﴾ (المائدة) وقاية للبدن من الإصابة بعدد من الأمراض، منها داء عضال خبيث ينتقل إلى الإنسان بتناول لحم الخنزير، أما الميتة وما تحمل من لحم متفسخ بتأثير الجراثيم فقد يكون فيها المهلكة لاكلها؟

أليس في منع التبول والتبرز في الطرق - الذي نص عليه قوله ﷺ: (اتقوا الملاعن الثلاث: البراز في الموارد وقارعة الطريق والظل)¹ - تشريع صحي هام لمنع انتشار البلهارسيا والأنكلستوما والزحار وغيرها من الأمراض الطفيلية المهلكة لعضوية بني آدم؟

بالإضافة إلى هذا كله نطق المصطفى ﷺ بأول قانون للحجر الصحي لمنع انتشار الأمراض السارية وللوقاية من العدوى فيها، والتي تعتمد أصلاً على عزل المريض عن الصحيح.. قال ﷺ: (لا يورد ممرض على صحيح)².. وقال: (إذا سمعتم بالطاعون فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها)³.. انظروا لقد نطق النبي الأمي ﷺ بهذا قبل أن تكتشف (الجراثيم) و(الطفيليات) العوامل المرضية للأوبئة بأكثر من ألف عام.

هذه نماذج فقط على ما جاء به الإسلام من تشريعات تحفظ الصحة .. وتحمي الإنسان من الوقوع في شبك الأمراض مهما كان نوعها .. وتستطيع حضرة الدكتور أن تقرأ الشريعة من أولها إلى آخرها، وأنا أتحدك أن تجد فيها حكماً شرعياً واحداً يتنافى مع ما تقرره القواعد الصحية⁴.

قالوا: حدثنا عن الأولى .. فحدثنا عن الثانية⁵؟

قال: الثانية هي ما جاء في الشريعة من الدعوة إلى التداوي .. ووضع القوانين الكثيرة التي تحفظ التداوي من السقوط في الخرافة والدجل.

(1) رواه أبو داود.

(2) رواه مسلم.

(3) رواه البخاري.

(4) هناك بعض الشبهات المرتبطة بهذا الباب لم نشأ ذكرها هنا مراعاة للاختصار، ولأنها مذكورة بتفصيل في سلسلة

(ابتسامة الأئين)

(5) تحدثنا بتفصيل عن هذا الجانب من الطب النبوي في رسالة (أدوية من الأرض) من سلسلة (ابتسامة الأئين)

أنتم تعلمون أن رسول الله ﷺ بعث في بيئة أمية جاهلة اعتمدت في معالجة مرضها على الرقى والتمايم، وبالغت في استعمال الكي وتعليق الودع والخرز.

وقد واجه ﷺ هذا الواقع المنحرف، ووضع القواعد الصحيحة للتداوي، ومنع أو نهي عن التعلق بالأوهام والخرافات ..

وأول ذلك إخباره ﷺ بمحصول الشفاء بإذن الله إذا ما وافق الدواء الداء، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ قال: (ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء)¹

وقال: (تداووا يا عباد الله فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء إلا داء واحداً، الهرم)²
وقال: (ما خلق الله من داء إلا وجعل له شفاء علمه وجهله من جهله إلا السام، والسام الموت)³
ففي هذه الأحاديث إثبات للمداواة، وحث عليها، وتعريف بأنها سبب للشفاء.. وأن الأدوية ليست سوى أسباب خلقها الله وسائل للشفاء، والأخذ بسنة الله في كونه.

وفي قوله ﷺ: (علمه من علمه، وجهله من جهله) حث للأطباء المسلمين على البحث والاستقصاء لاكتشاف أدوية للأمراض التي لم يعرف لها بعد دواء ناجع، واستخراج أدوية أفضل من سابقتها.
وفي تأكيد النبي ﷺ أن لكل داء دواء تقوية لنفس المريض عندما يستشعر بنفسه وجود دواء لدائه يقوى به رجاؤه وترفع معنوياته ويذهب توهمه الذي هو عدو آخر بعد المرض.

وقد علق النبي ﷺ البرء بموافقة الدواء للداء، فللأدوية مقادير معينة تفعل بما يجب ألا تزيد عنها ولا تنقص.. وفي هذا حث للأطباء على زيادة معرفتهم ومهارتهم في الطب وعلومه ليتسنى لهذه المعرفة أن تصيب الداء بالمقدار المناسب من الدواء.

وفوق ذلك، فقد نصت الشريعة على جميع ما يرتبط بالأخلاق الطبية والقوانين التي تحميها ..
ومن ذلك أنها أوجبت الضمان على من استغل حاجة الناس للتداوي، فراح يصف له من الأدوية من غير أن يكون له علم بذلك، ففي الحديث قال ﷺ: (مَنْ تَطَبَّبَ⁴ وَلَمْ يُعَلِّمْ مِنْهُ الطَّبَّ قَبْلَ ذَلِكَ، فَهُوَ ضَامِنٌ)⁵
فالحديث يدل على أنه لا يحل لأحد أن يتعاطى صناعة من الصناعات وهو لا يحسنها، سواء كان طبيباً أو غيره، وأن من تجرأ على ذلك، فهو آثم.. وما ترتب على عمله من تلف نفس أو عضو أو نحوهما، فهو ضامن له، وما أخذه من المال في مقابلة تلك الصناعة التي لا يحسنها، فهو مردود على باذله؛ لأنه لم يبذله إلا بتغريه وإيهامه أنه يحسن، فيدخل في الغش.

قالوا: حدثنا عن الثانية .. فحدثنا عن الثالثة؟

(1) رواه البخاري.
(2) رواه أحمد والأربعة وصححه الترمذي.
(3) رواه ابن ماجه.
(4) قال ﷺ: «مَنْ تَطَبَّبَ» ، ولم يقل: مَنْ طَبَّبَ، لأن لفظ التَّفَعُّل يدل على تكلف الشيء والدخول فيه بغير وكلفة، وأنه ليس من أهله، كَتَحَلَّمَ وتَشَجَّعَ وتَصَبَّرَ ونظائرهما، وكذلك بَنَوْا تَكَلَّفَ على هذا الوزن.
(5) رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه.

قال: الثالثة هو ما جاء من تشريعات التخفيف على المريض، مراعاة لمرضه .. فلا يتعارض التدين مع المرض، وقد نص على هذا الأصل المهم في الإسلام قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيِّجَعُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ (7) (الطلاق)، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (28) (النساء)

ونص عليه قوله ﷺ: (إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا)¹، وقوله: (إن الله لم يعثني معنتا ولا متعنتا، ولكن بعثني معلما ميسرا)²، وقوله: (إن خير دينكم أيسره، إن خير دينكم أيسره)³، وعندما قيل له: يا رسول الله.. أي الأديان أحب إلى الله؟ قال: (الحنيفية السمحة)⁴ .. وعندما أرسل معاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري قال لهما: (يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا)⁵

بناء على ذلك نص الفقهاء على أن المريض الذي يعجز عن بعض واجبات الصلاة تسقط عنه .. وإذا كان يعجز عن بعضها فإنه يسقط عنه القدر الذي يعجز عنه .

ونصوا على جواز الصلاة قاعداً إذا شق عليه الوقوف، لقوله ﷺ: (صل قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جنب)

ونصوا على جواز التيمم للمريض الذي يشق عليه التطهر بالماء .

ونصوا على أن المريض الذي يشق عليه الصيام فإنه يجوز له الفطر .

ونصوا على أن من أصيب بمرض لا يرجى برؤه فإنه يفطر ويطعم عن كل يوم مسكيناً.

ونصوا على أن الحج بالنفس يسقط عن المريض الذي لا يستطيع الركوب ، وله أن يقيم بدله بماله من يحج عنه ويعتمر .

ونصوا على أن المريض الذي لا يستطيع الطواف ماشياً فله أن يطوف ركباً أو محمولاً .

ونصوا على أن المريض الذي لا يستطيع الرمي بنفسه فإنه يوكل من الحجاج من يرمي عنه .

ونصوا على أن المريض الذي لا يستطيع تطهير ثيابه يجوز له أن يصلي بها ولو كان عليها شيء من النجاسات .

ونصوا على أن الجهاد لا يجب على الأعمى ولا على الأعرج ولا على المريض لأنهم يعجزون عنه ويشق عليهم.

ونصوا على أنه يجوز للحاج الذي به أذى من رأسه أن يغطيه ، ولكن عليه الفدية.

ونصوا على أن المريض لا يقام عليه الحد حتى يبرأ خوفاً من السراية .

ونصوا على أن الحامل لا يقام عليها الحد حتى تضع خوفاً من هلاك الجنين .

ونصوا على جواز إجراء الجراحة الطبية ولو بلا إذن المريض إذا حصل الضيق والحرج وحلت الضرورة ؛ لأن

الأمر إذا ضاق اتسع .

ونصوا على سقوط وجوب حضور الجمع والجماعات عن المريض الذي يشق عليه ذلك .

(1) رواه البخاري.

(2) رواه مسلم.

(3) رواه أحمد.

(4) رواه البخاري في صحيحه تعليقا.

(5) رواه البخاري.

ونصوا على جواز الجمع بين الصلاتين بسبب المرض إذا كان يشق عليه صلاة كل وقت في وقته وعلى ذلك حديث حمنة .

ونصوا على جواز الصلاة لغير القبلة إذا كان في توجيهه إليها حرج وعسر ومشقة وضيق .
ونصوا على أن المعفى عليه لا إثم عليه في إخراج الصلاة عن وقتها ، ولكن يجب عليه إذا أفاق أن يصلي ما فاته من الفروض ، هذا إذا كانت مدة الإغماء قليلة عرفاً وهي بمقدرة ثلاثة أيام .
ونصوا على جواز الجمع للطبيب الجراح إذا لم يستطع إقامة الصلاة في وقتها بسبب الاشتغال بالعملية الجراحية .
وغيرها من الفروع الكثير التي تتيح للمريض أن يمارس حياته التعبدية من غير أي حرج قد يصيبه، أو يصيب مرضه.

قالوا: حدثنا عن الثالثة .. فحدثنا عن **الرابعة**¹؟

قال: الرابعة هو ما حفلت به النصوص المقدسة من الأدوية التي لم يتأكد من جدواها العالم إلا بعد أن توفر له من الأجهزة والوسائل ما أتاح له ذلك² .

ومن ذلك قوله ﷺ: (الشفاء في ثلاث: في شرطة محجم، أو شربة عسل، أو كمية بنار، وأنا أنهى أمي عن الكي)³
ومنه قوله ﷺ: (في الحبة السوداء شفاء من كل داء، إلا السام)⁴
ومنه قوله: (إن أمثل ما تداوى به الحجامة، والقسط البحري)⁵
ومنه قوله: (لا تعذبوا صبيانكم بالغمز⁶ من العذرة⁷، عليكم بالقسط)⁸
ومنه قوله: (الحمى من فيح جهنم، فأبردوها بالماء)⁹
وحدث زيد بن أرقم، قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نتداوى من ذات الجنب بالقسط البحري، والزيت¹⁰ .
وعنه، قال: كان النبي ﷺ ينعت الزيت والورس من ذات الجنب¹¹ .
وعن أسماء بنت عميس أن النبي ﷺ سألها: "م تستمشين¹²؟" قالت: بالشبرم¹³ ، قال: (حارٌّ حارٌّ) قالت: ثم

(1) تحدثنا بتفصيل عن هذا الجانب من الطب النبوي في رسالة (أدوية من السماء) من سلسلة (انتسامة الأنين)
(2) ذكرنا تفاصيل البراهين العلمية على جدوى ما ذكره رسول الله ﷺ من الأدوية في رسالة (أدوية من السماء) من سلسلة (انتسامة الأنين)

(3) رواه البخاري.

(4) رواه البخاري ومسلم.

(5) رواه البخاري ومسلم.

(6) أن بعصر العذرة، وهي قرحة في الحلق.

(7) وجع في الحلق يهيج من الدم. وقيل: هي قرحة كانوا يعمدون إلى غمزها فينفجر منه دم أسود.

(8) رواه البخاري ومسلم.

(9) رواه البخاري ومسلم.

(10) رواه الترمذي.

(11) رواه الترمذي.

(12) أي بأي شيء تطبلين الاسهال.

(13) نبت يسهل البطن.

استمشيت بالسنا فقال النبي ﷺ: (لو أن شيئاً كان فيه الشفاء من الموت؛ لكان في السنا)¹
وعن أبي سعيد الخدري، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: أخي استطلق بطنه فقال رسول الله ﷺ: (اسقيه
عسلاً)، فسقاه، ثم جاء، فقال: سقيته فلن يزدده إلا استطلاقاً. فقال له ثلاث مرات، ثم جاء الرابعة، فقال: (اسقيه
عسلاً)، فقال: لقد سقيته، فلم يزدده إلا استطلاقاً.. فقال رسول الله ﷺ: (صدق الله، وكذب بطن أخي)، فسقاه،
فبرأ².

التفت الرضا إلى الدكتور منجل، وقال: في وسعك - حضرة الدكتور - أن تتأكد من كل ما ورد في هذه
النصوص من أنواع الأدوية .. وأنا متأكد تماماً أنك لن تجد فيها إلا البراهين القوية القاطعة على أن محمداً رسول الله،
وأنه رحمة الله للعالمين.

بعد أن تحدث الرضا كل تلك الأحاديث لم نشعر إلا بالدكتور منجل يسرع إلى الطائرة من غير أن ينبس ببنت
شفة .. ثم لم نشعر إلا بأصوات محركات الطائرة .. ثم لم تلبث إلا قليلاً حتى ارتفعت لتعود من حيث جاءت من غير
أن تعالج مريضاً واحداً.
كان الناس لا يزالون ملتفتين بالرضا، وهم متعجبون مما يحصل أمامهم .. ولعل بعضهم كان متحسراً من فوات
فرصة العلاج.

وقد توجه الرضا إلى هذه الجموع قائلاً: اطمئنوا - إخواني - فالعلوم التي تحملها هذه الطائرة تملكها نحن، ونملك
أضعافها .. ولذلك هلموا لنؤسس مستشفياتنا التي تغنينا عن مستشفياتهم.
قال بعض المرضى: ولكن هؤلاء من العلوم ما ليس لنا.
قال الرضا: ومن قال لك ذلك .. إن لنا من العلوم ما لهم .. وليس لهم من العلوم ما لنا.
قال المريض: كيف ذلك؟

قال الرضا: لقد ملأنا نبينا تواضعنا، فلذلك رحمت، وراح معي الكثير من إخواني إلى بلادهم، فاستفدنا من جميع
خبراتهم في هذا المجال.
أما هم، فقد قعد بهم كبرهم أن يلفتوا إلى ما عندنا.
ولذلك فإن لدينا من العلم ما عندهم وما ليس عندهم .. فهلموا معي لتروا المفاجأة.
صاح الجميع مكبرين، وقد صحت معهم من حيث لا أشعر، وقد تنزلت علي حينها أنوار جديدة اهتديت بها
بعد ذلك إلى شمس محمد.

(1) رواه الترمذي، وابن ماجه، وقال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ غريب.

(2) رواه البخاري ومسلم.

خامسا — الخبطون

في اليوم الخامس .. سرت إلى مستشفى نفسي كان قد أسسه صاحب لنا اسمه (إيرنست جونز)¹، وقد أراد من خلاله أن ينشر في نفوس المرضى المحبطين ما يجعلهم يشنون حربا لا هوادة فيها على الإسلام. ومن فضل الله علي في ذلك اليوم أني شهدت موقفا من المواقف زادني قربا من الإسلام، وزادني محبة لطبيب اليائسين والمحبطين رحمة الله للعالمين رسول الله ﷺ . سأحكي لك الحكاية من البداية ..

عندما دخلت قاعة المستشفى المتلثة بالحزن والأسى واليأس .. رأيت رجالا كثيرين يضعون أكفهم على خدودهم، وقد امتلأت أسارير وجوههم بالأسى والألم والحزن .. وكان من بينهم صاحبنا (إيرنست جونز) مؤسس المستشفى .. فقد أصيب هو الآخر بعدوى الألم والحزن واليأس.

اقتربت منه، وقلت: ما بالك حضرة البروفيسور .. أرى اليأس على وجهك؟ قال: وكيف لا أياس .. وأنا قد استعملت كل المراهم ، وخضت غمار كل الأساليب التي ابتدعها أصحابنا في العلاج النفسي² .. لكني لم أظفر مع هؤلاء بشيء .. لكأن اليأس قد غرس جذوره في قلوبهم، فلا يكادون ينفكون

(¹) أشير به إلى إيرنست جونز (1879 - 1958م)، وهو طبيب بريطاني ساعد في إدخال قواعد التحليل النفسي في الولايات المتحدة و بريطانيا وكندا.. كان صديقا ومساندا قويا لفرويد، مطور التحليل النفسي ليكون أسلوبا لمعالجة الأمراض العقلية، وتعد السيرة التي كتبها جونز (1953 - 1957م) عن حياة فرويد وعمله — وهي في ثلاثة مجلدات — من أوثق المراجع عن فرويد.

ولد جونز فيما يسمى الآن جاورتون بالقرب من سوانسي بويلز. ونال شهادة الطب من الكلية الجامعية بلندن عام 1900م، وعمل منذ ذلك الوقت في تطوير التحليل النفسي. وأسهمت جهوده فيما بعد في قبول نظريات فرويد من قبل الأطباء الغربيين والعلماء الآخرين.

ساعد جونز في تأسيس جمعية التحليل النفسي الأمريكية عام 1911م، والجمعية البريطانية للتحليل النفسي عام 1913م. وعمل محررا لصحيفة التحليل النفسي العالمية، وكتب مقالات كثيرة تؤيد نظريته القائلة بأن التحليل النفسي يُعطي فهما أكثر للفن والأدب ومجالات أخرى في الإبداع. (انظر: الموسوعة العربية العالمية)

(²) يستخدم المعالجون النفسانيون أنواعا كثيرة من المعالجة النفسية، وأغلبها يقوم على مناقشات بين المريض والطبيب النفساني.. حيث يحاول الطبيب تعزيز ثقة المريض، ويساعده على أن يكون أكثر تقبلا للحياة.. ويلتقي المريض والطبيب في جلسة علاج نفساني مرة أو مرتين في الأسبوع لعدة شهور، ويجوز أن تتوالى الجلسات أكثر أو أقل من ذلك. وفي بعض الأحيان تشترك مجموعات من ثلاثة مرضى أو أكثر في علاج جماعي.. فاجتماعهم بالطبيب النفساني في مجموعة يساعد المرضى على فهم أنفسهم، وقد يشجع الطبيب المرضى على التعبير عن مشاكلهم في تمثيلات نفسانية. وفي حالة الأطفال قد يستخدم الطبيب النفساني طريقة العلاج باللعب.. فوضعا عن حديث الطفل عن مشاكله، فإنه يمثلها بأدوات اللعب واللبو.

والتنوعان الأكثر استخداما للمعالجة النفسانية هما التحليل النفسي ومعالجة السلوك: حيث يركز التحليل النفسي على الأفكار والأحاسيس اللاشعورية، ووفقا لنظرية التحليل النفسي تكمن أسباب كثير من الأمراض العقلية في اللاوعي.. يزور المريض الطبيب النفساني ويتحدث عن كل ما يخطر على باله، ويساعد الطبيب المريض على فهم مشاكله بالكشف عن أسبابها. وقد يستمر المريض في العلاج التحليلي لعدة سنوات.

عنه، ولا يكاد ينفك عنهم.

قلت: فما ترى سببا لذلك؟

قال: الدين .. لا شك أنه الدين .. إنه أخطر فيروس يمكنه أن يفتك بالنفس الإنسانية.. إن الدين هو أيدز النفس ووسطاها .. ولذلك لا سبيل للنجاة لمن ابتلي به ..

لقد كتب صديقي الفيلسوف (أحوست سياته) في كتابه (فلسفة الأديان) يقول: (ماذا أنا متدين؟ إني لم أحرك شفتي بهذا السؤال مرة، إلا وأراني مسوقا للإجابة عليه بهذا الجواب، وهو: أنا متدين، لأني لا أستطيع خلاف ذلك، لأن التدين لازم معنوي من لوازم ذاتي. يقولون لي: ذلك أثر من آثار الوراثة أو التربية أو المزاج، فأقول لهم: قد اعترضت على نفسي كثيرا بهذا الاعتراض نفسه، ولكني وجدته يقهقر المسألة ولا يجلها)

وقبله كتب المؤرخ الإغريقي (بلوتارك) يتحدث عن تغلغل هذا السرطان في جميع المجتمعات الإنسانية، قال: (قد وجدت في التاريخ مدن بلا حصون، ومدن بلا قصور، ومدن بلا مدارس، ولكن لم توجد أبدا مدن بلا معابد) ولذلك .. لا أرى لهذه النفوس المدنسة بدنس الدين أي فرصة للشفاء.

قلت: إن ما تقوله يا بروفيسور يخالف ما ذهب إليه الكثير من العقلاء ..

فالمؤرخ الفيلسوف (آرنولد توينبي) يقول: (الدين إحدى الملكات الضرورية الطبيعية البشرية، وحسبنا القول بأن افتقار المرء للدين يدفعه إلى حالة من اليأس الروحي، تضطره إلى التماس العزاء الديني على موائد لا تملك منه شيئا) ويقول الدكتور (كارل بانج) في كتابه (الإنسان العصري يبحث عن نفسه): (إن كل المرضى الذين استشاروني خلال الثلاثين سنة الماضية، من كل أنحاء العالم، كان سبب مرضهم هو نقص إيمانهم، وترزعزع عقائدهم ولم ينالوا الشفاء إلا بعد أن استعادوا إيمانهم)

ويقول (وليم جيمس) فيلسوف المنفعة والذرائع: (إن أعظم علاج للقلق — ولا شك — هو الإيمان)

ويقول الدكتور (بريال): (إن المرء المتدين حقا لا يعاني قط مرضا نفسيا)

ويقول (ديل كارنيجي) في كتابه (دع القلق وابدأ الحياة): (إن أطباء النفس يدركون أن الإيمان القوي والاستمسك بالدين، كفيلا بأن يقهرا القلق، والتوتر العصبي، وأن يشفيا من هذه الأمراض)

أما الدكتور (هنري لنك)، فقد ذكر في كتابه (العودة إلى الإيمان) البراهين الكثيرة الدالة على الدور الإيجابي للدين من خلال ما لمسّه وجربه من وقائع وفيرة، خلال عمله في العلاج النفسي.

أما (ديل كارنيجي)، فقد تحدث عن الأثر المبارك للصلاة في النفس البشرية، فقال: (ولا يقعد بك عن الصلاة والضراعة والابتهاال أنك لست متديناً بطبعك، أو بحكم نشأتك، وثق أن الصلاة سوف تسدي إليك عوناً أكبر مما تقدر، لأنها شيء عملي فعال، تسألني: ماذا أعني بشيء عملي فعال، أعني بذلك أن الصلاة يسعها أن تحقق لك أموراً ثلاثة لا يستغني عنها إنسان سروء أكان مؤمناً أو ملحداً:

ويستخدم الطبيب عند معالجة السلوك أسلوب المكافأة والعقاب لتشجيع المرضى ليسلكوا سلوكاً أفضل.. والهدف من معالجة السلوك هو محاولة مساعدة المرضى على تغيير سلوكهم أكثر من محاولة مساعدتهم على فهم أسباب ذلك السلوك. (انظر: الموسوعة العربية العالمية)

فالصلاة تعينك على التعبير بأمانة ودقة عما يشغل نفسك، ويتقل عليها، وقد بينا فيما سلف أن من المحال مواجهة مشكلة مادامت غامضة غير واضحة المعالم، والصلاة أشبه بالكتابة التي يعبر بها الأديب عن همومه، فإذا كنا نريد حلاً لمشكلاتنا وجب أن نجربها على ألسنتنا واضحة المعالم، وهذا ما فعله حيث نبث شكوانا إلى الله.

والصلاة تشعرك بأنك لست منفرداً بل مشكلاتك وهمومك. فما أقل من يسعهم احتمال أثقل الأحمال وأعسر المشكلات منفردين، وكثيراً ما تكون مشكلاتنا ماسة أشد المساس بذواتنا فنأبى أن نذكرها لأقرب الناس إلينا، ولكننا يسعنا أن نذكرها للخالق عز وجل في الصلاة.

والأطباء النفسيون يجمعون على أن علاج التوتر العصبي، والتأزم الروحي يتوقف - إلى حد كبير - على الإفضاء بمبعث التوتر ومنشأ الأزمة إلى صديق قريب، أو ولي حميم. فإذا لم نجد من نفضي إليه كفانا بالله ولياً.

والصلاة بعد هذا تحفزنا إلى العمل والإقدام، بل الصلاة هي الخطوة الأولى نحو العمل، وأشك في أن يوالي امرؤ الصلاة يوماً بعد يوم، دون أن يلمس فائدة أو جدوى، أو بمعنى آخر، دون أن يتخذ خطوات مثمرة نحو تحسين حالته، وتفريج أزمته، وقد قال (الكسيس كاريل) (مؤلف كتاب (الإنسان .. ذلك المجهول) - والحائز على جائزة نوبل -): (الصلاة هي أعظم طاقة مولدة للنشاط عرفت حتى الآن، فلماذا لا نتنفع بها؟)¹

قال: وما كانت أديان هؤلاء الذين ذكرتهم؟

قلت: لقد كانوا مسيحيين .. لاشك أنك تعلم ذلك.

قال: الدين المسيحي مختلف عن سائر الأديان .. ولذلك يمكن للمريض النفسي أن يجد عزاءه فيه .. بل يمكن للمريض أن يجد عزاءه النفسي في جميع الأديان ما عدا الإسلام ..

الإسلام مختلف تماماً .. إنه فيروس قاتل .. إنه يحطم النفس تحطيماً لا تستطيع بعده الحلم بأي خلاص ..

ألا ترى كيف يتحدث المسلمون عن العبودية لله .. ويجعلونها قمة قمم طموحهم .. مع كونها من وجهة النظر النفسية الهاوية التي إذا انحدرت إليها النفس، فلا مطعم لها بعد في نجاة ولا راحة ولا سعادة؟

قال ذلك، ثم نظر إلى من حوله من المرضى، وقال: وللأسف، فإن هؤلاء مسلمون .. لقد حاولت بكل الأساليب أن أخلصهم من إسلامهم .. فلم أستطع .. لقد ضرب الإسلام جذوره في أعماق قلوبهم، ولذلك لا مطعم لهم في النجاة منه.

نظرت إليهم، فلم يبدو لي على وجوههم أي سيما من سيما المتدينين، فقلت: كيف عرفت يا حضرة البروفيسور بأن الدين هو سبب ما هم فيه؟

قال: لقد ذكرت لك أنهم مسلمون .. ويكفي ذلك لتشخيص حالتهم.

قلت: هل رأيتهم يرفعون أيديهم إلى السماء يدعون ربهم؟

قال: لا ..

قلت: هل رأيتهم يذكرون ربهم كثيراً؟

قال: لا ..

(¹) دع القلق وابدأ الحياة: ص 301 .

قلت: فهل رأيتم يصلون؟

قال: لا .. هم مقصرون في جميع هذه النواحي .. ولكن ما غرضك من كل هذه الأسئلة؟

قلت: أردت أن أعرف علاقة الدين بمرضهم.

قال: فما رأيك؟

قلت: أرى أن تشخيصك لحالتهم بكون الدين سببها خطأ .. فهؤلاء لا علاقة لهم بالدين.

قال: ولكنهم يذكرون عن أنفسهم أنهم مسلمون.

قلت: أجل .. هم مسلمون ورثوا إسلامهم ولم يعيشوه، وفرق كبير بين أن ترث شيئا، وبين أن تستخدمه.

ما قلت هذا حتى رأيت رجلا كانت سيما الورثة ظاهرة عليه .. لقد كان أشبه الناس بمحمد والحكيم وكل

الورثة الذين حدثتك عنهم ..

سألت (ايرنست جونز) عنه، فقال: لا أدري .. لعله زائر من الزوار الذين تعود المستشفى أن يسمح لهم بالدخول

في هذه الأوقات .. لكن ما سؤالك عنه؟

قلت: لست أدري .. ولكن أشعر أن هذا الرجل يمكن أن يمثل الإسلام تمثيلا صالحا.

قال: كيف عرفت ذلك .. أنا يبدو لي أنه كسائر الناس؟

قلت: لست أدري .. ولكني أشعر في قرارة نفسي أن هذا الشخص يحمل الأكسير الذي يحطم به أصنام جميع

الأوهام التي يحملها هؤلاء المرضى.

ابتسم، وقال: أصدقك القول .. لقد جاءني هذا الرجل مرات كثيرة يطلب مني أن يجتمع بالمرضى، ويحدثهم ..

لكني رفضت ذلك رفضا شديدا.

قلت: لم؟

قال: لقد خشيت عليهم .. لقد رأيت أنه يحمل أفكارا خطيرة يمكنها أن تتسبب لهم في تشوهات نفسية لا

يمكنهم النجاة منها.. ألا ترى أنه يبدو مسلما ملتزما؟

قلت: وذلك ما يدعوني لأن أطلب منك أن تأذن له فيما يريد من الخطاب .. فلعلنا نظفر منه بشيء.

قال: إن ما تقوله خطير ..

قلت: كيف ذلك؟

قال: ألا ترى أن هؤلاء، ومع كونهم غير ملتزمين، دب إلي اليأس من شفائهم .. فكيف إذا سرب إليهم هذا

الرجل أمراض الالتزام حينها سيصابون بإعاقفة نفسية دائمة لا يمكن لهذا المستشفى أن يتحمل تبعاتها.

قلت: لقد ذكرت لي أنك قد تبست من شفائهم .. واليأس لا يبالي أي مركب ركب ..

سكت قليلا، ثم قال: لا بأس .. سأذن له اليوم بالحديث إكراما لك .. ولكن لا بد أن تكون حاضرا لترى

الخرفات التي يريد أن يسربها للمرضى.

تقدمت مع (ايرنست جونز) إلى الرجل .. وقد كان منشغلا بتأمل المرضى والنظر فيهم .. وهو مع ذلك يحرك

لسانه بكلمات لم تتبينها.

قال له إيرنست: أنا لا أزال محتاراً في سر حضورك بين الحين والحين إلى هذا المستشفى، مع أنني أعلم أنه لا قريب لك فيه ولا صديق .. فما سر إصرارك على الحضور؟
قال: أنا أشعر بألم كبير نحو هؤلاء.. أنا أراهم كعطشى استبد بهم العطش، ولا أحد يسقيهم الشراب الذي يتناسب معهم.

ابتسم إيرنست، وقال: وهل لديك مثل هذا الشراب الذي نتحدث عنه؟
قال: أجل .. وهذا مصدر حزني .. ألا ترى يا بروفيسور أنه من المحزن أن يحال بين المنقذ وبين من يريد أن ينقذه؟

ضحك إيرنست بصوت عال، وقال: أنت تزعم أنك منقذ كالسيح؟
قال: كل من تربى على يد الأنبياء صار مسيحاً .. ومنقذاً .. ومخلصاً.
قال إيرنست: ولكنك تربيت على يد محمد لا على يد المسيح.
قال: المسيح ومحمد وجميع الأنبياء من مدرسة واحدة ..
قال إيرنست: ولكن تلاميذ المسيح يختلفون عن تلاميذ محمد؟
قال: المحرفون من تلاميذ محمد والمحرفون من تلاميذ المسيح هم الذين يختلف بعضهم عن بعض .. أما الصادقون من كليهما فهم أبناء مدرسة واحدة.

قال إيرنست: من أنت؟
قال: أنا تلميذ بسيط للأنبياء الذين أرسلهم الله لخلاص الإنسان.
قال إيرنست: أريد اسمك الذي سماك به أبوك.
قال: لدي أسماء كثيرة .. وأنا الآن أدعى بين الناس (سهل بن سعد)¹
قال إيرنست: ما أعجب هذا .. إن اسمك ممتلىء تفاؤلاً وسعادة .. اسمع يا سهل.. لقد بدا لي اليوم أن أعطيك فرصة لأن تسقي المرضى بالشراب الذي تريد .. لكن احذر أن تسقيهم السم.

(1) أشير به إلى (سهل بن سعد) الأنصاري الساعدي .. صحابي جليل شهد قضاء رسول الله ﷺ في المتلاعنين وأنه فرق بينهما، وكان اسمه حزناً فسماه رسول الله ﷺ سهلاً .. وهذا سر اختيارنا له في هذا المجلد.
عاش سهل وطال عمره حتى أدرك الحجاج بن يوسف وامتنح معه .. حيث أرسل الحجاج سنة أربع وسبعين إلى سهل بن سعد وقال له: ما منعك من نصر أمير المؤمنين عثمان قال: قد فعلته قال: كذبت، ثم أمر به فحتم في عنقه وختم أيضاً في عنق أنس بن مالك حتى ورد عليه كتاب عبد الملك بن مروان فيه، وختم في يد جابر بن عبد الله يريد إذلالهم بذلك وأن يجتنبهم الناس ولا يسمعوهم منهم.

توفي سهل سنة إحدى وتسعين وقد بلغ مائة سنة، ويقال: إنه آخر من بقي من أصحاب النبي ﷺ بالمدينة.
وقد كان - رضي الله عنه - من شيعة أهل البيت في الشام، لقي قافلة سبأيا كربلاء خارج باب دمشق، وتعجب مما كان عليه الناس من فرح .. فتحدث إلى سكينته وعرفها بنفسه وسألها إن كانت لها حاجة .. فقالت له: قل لحامل الرأس أن يسير به أمام القافلة حتى ينشغل الناس بالنظر إليه ولا ينظروا إلى وجوه بنات الرسالة، ففعل ذلك. (انظر: أسد الغابة، وموسوعة عاشوراء)

بدا البشر على وجه سهل، وقال: شكرا يا بروفيسور .. لا تخف .. فالسم لا يوجد عند تلاميذ الأنبياء.. السم لا يوجد إلا عند الشياطين.

طلب إيرنست من المرضى أن يحولوا المرضى إلى قاعة أشبه بقاعة محاضرات .. وما هي إلا لحظات قصيرة حتى جلس المرضى بإحباطهم وأأسهم وآلامهم ينتظرون من المخلص أن ينقذهم من القيود التي وضعها الألم فيهم.
صعد سهل المنصة، ووقفت مع إيرنست في محل خاص نرقبه ..
وقف سهل على المنصة بحشوع ووقار، ثم راح ينظر في المرضى يتأملهم، ثم قال: سادتي الأفاضل.. لاشك أنكم تبحثون عن الأمل والراحة والسكينة..
ولاشك أنكم تهتم في البحث عنها..
ويحق لكم أن تبهوا .. لأنكم وليتم وجهتكم نحو اليأس والتعب والقلق والجور، ويستحيل أن تجدو في هذه المحال ما تريدون البحث عنه.

قال رجل من الحاضرين: فهل تعرف المحال التي تنشر فينا الأمل والراحة والسكينة؟

قال سهل: أجل .. ولذلك جئت لأحدثكم عنها.

قال الرجل: أسرع .. أخبرنا.

قال سهل: هو محل واحد لا غير .. وهو أقرب إلينا من جبل الوريد.

قال: فما هو؟

قال سهل: هو الله ..

قال الرجل مقاطعا: ولكننا نؤمن بوجوده .. ومع ذلك نمتلى هما وحزنا ويأسا.

قال سهل: هل فكرتم في الأسرار التي يحملها وجود الله؟.. هل تعلمون ما معنى أن الله موجود؟

قال الجميع: حدثنا ..

قال سهل¹: إن معنى أن الله موجود هو أن العدل موجود والرحمة موجودة والمغفرة موجودة.

معناه أن يطمئن القلب وترتاح النفس ويسكن الفؤاد ويوزل القلق.. فالحق لا بد واصل لأصحابه.

معناه لن تذهب الدموع سدى، ولن يمضي الصبر بلا ثمرة، ولن يكون الخير بلا مقابل، ولن يمر الشر بلا رادع،

ولن تقلت الجريمة بلا قصاص.

معناه أن الكرم هو الذي يحكم الوجود وليس البخل.. وليس من طبع الكريم أن يسلب ما يعطيه.. فإذا كان الله

منحنا الحياة، فهو لا يمكن أن يسلبها بالموت.. فلا يمكن أن يكون الموت سلبا للحياة.. وإنما هو انتقال بها إلى حياة

أخرى بعد الموت ثم حياة أخرى بعد البعث ثم عروج في السماوات إلى ما لا نهاية.

(1) استفدنا المادة المذكورة هنا من فصل بعنوان (علم نفس قرآني) كتبه مصطفى محمود في بعض كتبه، بالتصرف الذي ألقناه في هذه السلسلة.

معناه أنه لا عبث في الوجود، وإنما حكمة في كل شيء.. وحكمة من وراء كل شيء.. وحكمة في خلق كل شيء.. في الألم حكمة وفي المرض الحكمة وفي العذاب حكمة وفي المعاناة حكمة وفي القبح حكمة وفي الفشل حكمة وفي العجز حكمة وفي القدرة حكمة.

معناه ألا يكف الإعجاب وألا تموت الدهشة وألا يفتر الانهار وألا يتوقف الإجلال.. فنحن أمام لوحة متجددة لأعظم المبدعين.

معناه أن تسبح العين وتكبر الأذن ويحمد اللسان ويتبه الوجدان ويهت الجنان.

معناه أن يتدفق القلب بالمشاعر وتحتفل الأحاسيس بكل لحظة وتزف الروح كل يوم جديد كأنه عرس جديد.

معناه ألا نعرف اليأس ولا نذوق القنوط.

معناه أن تذوب همومنا في كنف رحمة الرحيم ومغفرة الغفار..

معناه أن يذوب ضيقنا وألما وإحباطنا في فرج الله وفضله وكرمه .. ألم يقل لنا ربنا: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5)

إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (6) (الشرح) ؟

ولأن الله سبحانه واحد.. فلن يوجد في الوجود إله آخر ينقض وعده .. ولن ننقسم على أنفسنا .. ولن تتوزعنا الجهات .. ولن تنشبت بين ولاء لليمين وولاء لليسار، وتزلف للشرق وتزلف للغرب، وتوسل للأغنياء وارتماء على أعتاب الأقوياء.. فكل القوة عنده، وكل الغنى عنده، وكل العلم عنده، وكل ما نطمح إليه ين يديه.. والهرب ليس منه، بل إليه.. فهو الوطن والحمى، والملجأ والمستند، والرصيد والباب والرحاب.

وذلك الإحساس معناه السكن والطمأنينة وراحة البال والتفاؤل والهمة والإقبال والنشاط والعمل بلا ملل وبلا فتور وبلا كسل .. وتلك ثمرة (لا إله إلا الله) في نفس قائلها الذي يشعر بها ويتمثلها، ويؤمن بها ويعيشها .. وتلك هي أخلاق المؤمن بلا إله إلا الله.

وتلك هي الصيدلية التي تداوي كل أمراض النفوس، وتشفي كل علل العقول وتبرئ كل أدواء القلوب.

وتلك هي صيحة التحرير التي تحطم أغلال الأيدي والأرجل والأعناق .. وهي أيضا مفتاح الطاقة المكنوزة في داخلنا، وكلمة السر التي تحرك الجبال وتشق البحور وتغير ما لا يتغير.

ولم يخلق إلى الآن العقار السحري الذي يحدث ذرة واحدة من هذا الأثر في النفس.

وكل عقاقير الأعصاب تداوي شيئا وتفسد معه ألف شيء آخر.. وهي تداوي بالوهم وتريح الإنسان بأن تطفئ مصابيح عقله وتنومه وتخدره وتلقى به إلى قاع البحر موثوقا بحجر مغمى عليه شبه جثة.

أما كلمة (لا إله إلا الله) فإنها تطلق الإنسان من عقاله وتحرره من جميع العبوديات الباطلة، وتبشره بالمغفرة وتنجيهِ من الخوف وتحفظه من الوسواس وتؤيده بالملا الأعلى وتجعله أطول من السماء هامة وأرسخ من الأرض ثباتا.. فمن استودع همه وغمه عند الله بات على ثقة، ونام ملء جفنيه.

ولأن الله هو خالق الكون ومقدر الأقدار ومحرك المصائر.. فليس في الإمكان أبدع مما كان.. لأنه المبدع بلا

شبيه.. لا يفوقه في صنعته أحد.. فلن تعود الدنيا مسرحا دمويا للشورور، وإنما درسا رفيعا من دروس الحكمة.

و لأن الله موجود فإنكم لستم وحدكم.. وإنما تحف بكم العناية حيث سرتم وتحرسكم المشيئة حيث حللتكم.

و ذلك معناه شعور مستمر بالإنتناس والصحة والأمان.. لا هجر.. ولا غدر.. ولا ضياع.. ولا وحدة.. ولا

وحشة ولا اكتتاب. وذلك حال أهل (لا إله إلا الله)
إنهم يذوقون شميم الجنة في الدنيا قبل أن يدخلوها في الآخرة .. وهم الملوك بلا عروش وبلا صولجان .. وهم
الراسخون المطمئنون الثابتون لا تزلزلهم الزلازل، ولا تحركهم النوازل.
تلك هي الصيدلية الإلهية لكل من داهمه القلق .. فيها علاجه الوحيد .. وفيها الإكسير والترياق وماء الحياة الذي لا
يظمأ بعده شارب .. وفيها الرصيد الذهبي والمستند لكل ما تتبادل على الأرض من عملات ورقية زائلة متبدلة .. وفيها
البوصلة والمؤشر والدليل .. وفيها الدواء لكل داء.

1 - السكينة

قام رجل من الجمع، وقال: نعم ما ذكرتنا به .. فلاشك أن الغفلة عن ربنا وسوء معرفتنا به هي سر ما حصل لنا من ألم ويأس وإحباط .. ولكن أن لنا أن نستقر ونسكن لما ذكرت .. ونحن نششت بين أنواع الهموم والآلام .. فلا نكاد نستقر في محل حتى نرحل إلى غيره.

ابتسم سهل، وقال: أنت تسأل عن السكينة .. فالسكينة هي الدواء الوحيد الذي تستقر به النفس .. وهي الدواء الوحيد الذي يشفيها من كل آلام التششت ..

قال الرجل: فأين نجدها؟

قال آخر: لقد قرأت منذ أعوام كلمة ناضرة لأحد الأطباء اللامعين في أمريكا، قال فيها: (وضعت مرة وأنا شاب جدولاً لطيبات الحياة المعترف بها، فكتبت هذا البيان بالرغائب الدنيوية: الصحة، والحب، والموهبة، والقوة، والثراء، والشهرة، ثم تقدمت بما في زهو إلى شيخ حكيم.

فقال صديقي الشيخ: جدول بديع، وهو موضوع على ترتيب لا بأس به، ولكن يبدو لي أنك أغفلت العنصر المهم الذي يعود جدولك بدون عتبا لا يطاق، وضرب بالقلم على الجدول كله، وكتب كلمتي: (سكينة النفس) وقال: هذه هي الهبة التي يدخرها الله لأصفيائه، وإنه ليعطي الكثيرين الذكاء والصحة، والمال مبتذل، وليست الشهرة بنادرة، أما سكينة القلب، فإنه بمنحها بقدر.

وقال على سبيل الإيضاح: ليس هذا برأي خاص لي، فما أنا إلا ناقل من الزمير، ومن أوريليوس، ومن لادنس، هؤلاء الحكماء يقولون: حل يا رب نعم الحياة الدنيا تحت أقدام الحمقى، وأعطني قلباً غير مضطرب!

وقد وجدت يومئذ أن من الصعب أن أتقبل هذا، ولكن الآن بعد نصف قرن من التجربة الخاصة، والملاحظة الدقيقة، أصبحت أدرك أن سكينة النفس هي الغاية المثلى للحياة الرشيدة، وأنا أعرف الآن أن جملة المزايا الأخرى ليس من الضروري أن تفيد المرء السكينة، وقد رأيت هذه السكينة تزهو بغير عون من المال. بل بغير مدد من الصحة، وفي طاقة السكينة أن تحول الكوخ إلى قصر رحب، أما الحرمان منها فإنه يحيل قصر الملك قفصاً وسجناً)

قال سهل: صدق الرجل .. فالسكينة هي الإكسير الذي تذوب لمراه الآلام.

قال الرجل: فأين نجدها؟ .. لقد تمنا في البحث عنها.

قال سهل: لقد ذكرها الله، وذكر محلها، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (4)﴾ (الفتح)

قال الرجل: فما الدواء الذي تصفه هذه الآية؟

قال سهل: إنها تصف دواء محمدا واضحا ظاهرا .. إنه الإيمان ..

قالوا جميعا: الإيمان!؟

قال سهل¹: أجل .. فسكينة النفس التي هي النبوع الأول للسعادة، لا يشرها الذكاء ولا العلم ولا الصحة ولا

(¹) رجعنا في هذا المطلب لكتاب (الإيمان والحياة) للدكتور يوسف القرضاوي بالإضافة للمرجع السابق.

القوة، ولا المال، ولا الغنى، ولا الشهرة، ولا الجاه، ولا غير ذلك من نعم الحياة المادية؟
إن للسكينة مصدراً واحداً لا شريك له، هو الإيمان بالله واليوم الآخر، الإيمان الصادق العميق، الذي لا يكدره شك، ولا يفسده نفاق.

هذا ما يشهد به الواقع المائل، وما أيده التاريخ الحافل، وما يلمسه كل إنسان بصير منصف، في نفسه وفيمن حوله.

لقد علمتنا الحياة أن أكثر الناس قلقاً وضيقاً واضطراباً، وشعوراً بالتفاهة والضياع هم المحرومون من نعمة الإيمان، ويرد اليقين.

إن حياتهم لا طعم لها ولا مذاق، وإن حفلت باللذائذ والمرفهات، لأنهم لا يدركون لها معنى، ولا يعرفون لها هدفاً، ولا يفقهون لها سرّاً، فكيف يظفرون مع هذا بسكينة نفس، أو انشراح صدر؟
إن هذه السكينة ثمرة من ثمار دوحه الإيمان، وشجرة التوحيد الطيبة، التي تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها.
فهي نفحة من السماء ينزلها الله على قلوب المؤمنين من أهل الأرض، ليثبتوا إذا اضطرب الناس، ويرضوا إذا سخط الناس، ويوقنوا إذا شك الناس، ويصبروا إذا جزع الناس، ويحملوا إذا طاش الناس.

هذه السكينة هي التي عمرت قلب رسول الله يوم الهجرة، فلم يعره هم ولا حزن، ولم يستبد به خوف ولا وجل، ولم يخالج صدره شك ولا قلق فقد ﴿ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ﴾ (40) (التوبة)

لقد غلبت على صاحبه الصديق مشاعر الحزن والإشفاق، لا على نفسه وحياته، بل على الرسول ﷺ، وعلى مصير الرسالة، حتى قال والأعداء محذقون بالغار: يا رسول الله، لو نظر أحدهم تحت قدميه لرأنا! فيقول الرسول مثبثاً فؤاده: (يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟!)

هذه السكينة روح من الله، ونور يسكن إليه الخائف، ويطمئن عنده القلق، ويتسلى به الحزين، ويستروح به المتعب، ويقوى به الضعيف، ويهتدي به الحيران.

هذه السكينة نافذة على الجنة يفتحها الله للمؤمنين من عباده: منها تهب عليهم نسماؤها، وتشرق عليهم أنوارها، ويفوح شذاها وعطرها، ليذيقهم بعض ما قدموا من خير، ويريههم نموذجاً صغيراً لما ينتظرهم من نعيم، فينعموا من هذه النسيمات بالروح والريحان، والسلام والأمان.

قام رجل من الجمع، وقال: لماذا كان المؤمن أولى الناس بسكينة النفس، وطمأنينة القلب؟ .. ولماذا لا يجد الإنسان السكينة في العلم والثقافة والفلسفة، وفيما أنتجه التقدم العلمي من وسائل وأدوات يسرت العيش وحملت الحياة؟
التفت سهل إلى (إيرنست)، ثم قال: إن الجواب عن هذا يحتاج إلى بسطة من التفصيل قد لا يسمح بها طبيعكم الذي قد يزعجه إطالة جلوسي معكم.

التفتُ إلى صديقي (إيرنست)، فوجدته مستغرقاً تمام الاستغراق فيما يقوله سهل .. لذلك ما إن قال سهل ذلك حتى رد (إيرنست) مباشرة .. ومن غير شعور: تفضل .. لا حرج عليك .. فإن لكلامك تأثيراً لم يسبق لي أن رأيت مثله.

ابتسم سهل، وقال: سأذكر لكم عشرة أسباب تجعل المؤمن أحق الناس بالسكينة وأولاهم بها.

قالوا: فما السبب الأول؟

قال: إن أول أسباب السكينة لدى المؤمن هو أنه قد هدى إلى فطرته التي فطره الله عليها.. وهي فطرة متسقة كل الاتساق مع فطرة الوجود الكبير.. فلذلك يعيش المؤمن مع فطرته في سلام ووثام، لا في حرب وخصام. إن في فطرة الإنسان فراغا لا يملؤه علم ولا ثقافة ولا فلسفة، وإنما يملؤه الإيمان بالله جل وعلا. وستظل الفطرة الإنسانية تحس بالتوتر والجوع والظمأ، حتى تجد الله، وتؤمن به، وتتوجه إليه. هناك تستريح من تعب، وترتوي من ظمأ، وتأمين من مخافة. هناك تحس بالهداية بعد الحيرة، والاستقرار بعد التخبط، والاطمئنان بعد القلق، ووجدان المنزل والأهل بعد طول الغربة، والضرب في أرض التبه. فإذا لم يجد الإنسان ربه - وهو أقرب إليه من جبل الوريد - فما أشقى حياته، وما أتعس حظه، وما أخيب سعيه!

إنه لن يجد السعادة، ولن يجد السكينة، ولن يجد الحقيقة.. لن يجد نفسه ذاقها.. لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (19)﴾ (الحشر) تصوروا إنساناً يعيش دون أن يجد نفسه، وهو في رأي نفسه، وفي نظر الناس بشر عاقل، سميع بصير، بل لعله جامعي مثقف، ولعله - فوق ذلك - دكتور كبير في العلوم والآداب! وكيف يجد نفسه من لم يعرفها؟ وكيف يعرفها من حجب عنها بالغرور والكبر؟ أو شغل عنها باتباع الشهوات، والإخلاد إلى الأرض، والغرق في لذائذ الحس، ومطالب الجسد والطين؟ إن الإنسان خلق عجيب، جمع بين قبضة من طين الأرض، ونفخة من روح الله.. فمن عرف جانب الطين، ونسي نفخة الروح، لم يعرف حقيقة الإنسان. ومن أعطى الجزء الطيني فيه غذاءه وريه مما أنبتت الأرض، ولم يعط الجانب الروحي غذاءه من الإيمان ومعرفة الله، فقد نجس الفطرة الإنسانية حقها، وجعل قدرها، وحرّمها ما به حياتها وقوامها. لقد ذكر بعض العارفين ذلك، فقال¹: (في القلب شعث لا يلّمه إلا الإقبال على الله.. وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله.. وفيه حزن لا يذهب إلا السرور بمعرفته، وصدق معاملته.. وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه، والفرار إليه.. وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه.. وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له، ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبداً) إن هذا ليس كلام عالم فحسب، بل كلام ذائق مجرب، يقول ما خبره وأحس به في نفسه، وما رآه ولاحظه في الناس من حوله.

إنما الفطرة البشرية الأصيلة التي لا تجد سكنتها إلا في الاهتداء إلى الله والإيمان به، والالتجاء إليه. إنما الفطرة التي لم يملك مشركو العرب في جاهليتهم أن ينكروها مكابرةً وعناداً.. قال تعالى منحراً عنهم: ﴿وَلَيَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَلَّى يُؤْفَكُونَ (61)﴾ (العنكبوت)، وقال: ﴿

(¹) هذا الكلام لابن القيم في كتابه (مدارج السالكين)

وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (9) ﴿الزخرف﴾

نعم قد يتراكم على هذه الفطرة صدأ الشبهات أو غبار الشهوات.. وقد تنحرف وتتدنس باتباع الظن أو اتباع الهوى، أو التقليد الجاهل للأجداد والآباء، أو الطاعة العمياء للسلطة والكبراء.. وقد يصاب الإنسان بداء الغرور والعجب فيظن نفسه شيئاً يقوم وحده، ويستغني عن الله!!

بيد أن هذه الفطرة الأصيلة تذبل ولا تموت، وتكمن ولا تزول.. فإذا أصاب الإنسان من شدائد الحياة وكوارثها ما لا قبل له به، ولا يد له ولا للناس في دفعه، ولا رفعه، فسرعان ما تزول القشرة السطحية المضللة، وتبرز الفطرة العميقة الكامنة، وينطلق الصوت المخنوق المحبوس، داعياً ربه، منيباً إليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا (67)﴾ (الإسراء)

هذه الفطرة حقيقة أجمع عليها الباحثون في تاريخ الأمم والأديان والحضارات، فقد وجدوا الإنسان منذ أقدم العصور يتدين ويتعبد ويؤمن بياله.

والانحراف الكبير الذي أصاب البشرية في تاريخها الطويل، لم يكن إنكار وجود الله والعبودية له، إنما كان بتوجيه العبادة لغيره، أو إشراك آلهة أخرى معه من مخلوقات الأرض أو السماء.

ومن هنا عني كتاب الله الخالد - القرآن الكريم - في الدرجة الأولى - بالدعوة إلى توحيد الله، وإفراده بالعبادة، والاستعانة والتوكل والإنابة.. لا بإثبات وجوده سبحانه، فإن هذا الوجود - على وجه عام - مسلم به ومفروغ منه، ولا يجادل فيه إلا قلة مغمورة في كل عصر، لا يقام لها وزن. ولا تسمع لها دعوى.

ولقد قرأت لبعض الملاحدة الذين اشتهروا بالشك في الدين والتشكيك فيه، كلمات عجيبة، يطالب فيها قراءه ألا يصدقوه إذا كتب هو نفسه ويقلمه ما ينفي عنه الإيمان، أو يخلع عليه الإلحاد.. لقد قال: (لو أردت من نفسي وعقلي أن يشكك ما استطاعا، ولو أردت مني أن أشكك ما استطعت. ولو أتي نفيتم إيماني بالقول لما صدقت أقوالي، فشعوري أقوى من كل أقوالي! ماذا لو أن إنساناً قال: إنه لا يجب نفسه أو لا يجب الحياة، فهل تصدقه؛ أو هل يصدق هو كلامه؟ هل يمكن أن ننفي أنفسنا أو إحساسنا بالكلام؟ إن الحقائق الكبيرة لا تسقطها الألفاظ. كذلك الإيمان بالله والأنبياء والأديان من الحقائق القوية التي لا يمكن أن تضعفها أو تشكك فيها الكلمات التي قد تبيء غامضة أو عاجزة لأن فورة من الحماس قد أطلقتها.

إن إيماني يساوي: أنا موجود إذن أنا مؤمن -أنا أفكر إذن أنا مؤمن- أنا إنسان إذن أنا مؤمن!)

إنني في هذا الخلل آسي أشد الآسى لأولئك المساكين الذين صادروا فطرتهم وغلظ حججهم، وأظلمت قلوبهم فلم تنفذ إليها أشعة الإيمان..

أولئك الأشقياء المطموسين الذين يجادلون في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

إني آسي لهؤلاء مرتين:

آسي لهم لأنهم دخلوا الحياة ثم خرجوا منها، ولم ينعموا بأطيب ما فيها وأعظم ما فيها وهو الإيمان. إنهم بؤساء محرومون حقاً. إن الناس يقولون عن الإنسان إذا فاته شيء مهم من مسرات الدنيا: ضاع نصف عمره. فكيف بمن فاته روح الحياة، وحياة الروح؟ كيف بمن حرم قلبه بشاشة الإيمان؟

لقد خسر المساكين أنفسهم، خسروا وجودهم، خسروا الحياة وما بعد الحياة، خسروا الخلود، خسروا كل

شيء، لأنهم خسروا الإيمان، وما أصدق ما ورد في بعض الآثار الإلهية عن الله تعالى أنه يقول لعبده: (عبي اطلبي تجدي، فإن وجدتي وجدت كل شيء، وإن فنتك فانتك كل شيء) ورحم الله العبد الصالح الذي قال: (إلهي ماذا وجد من فقدك؟! وماذا فقد من وجدك؟! لقد خاب من رضي دونك بدلاً، وخسر من بغى عنك حولاً)

ثم آسى هؤلاء الملاحدة المحرومين مرة أخرى، حين أراهم خلعوا رداء العبودية لله، فوقعوا في العبودية لغير الله. لقد ظن هؤلاء في أنفسهم، وزعموا لغيرهم، أنهم تحرروا من كل عبودية، وأهم نبذوا الخضوع للإله نبذ النواة، وأطرحوا الإيمان بالرب وراء الظهور.

وكذبوا. فالواقع أنهم استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، استبدلوا بالعبودية للخالق، العبودية للمخلوق، واستبدلوا بالإله الواحد آلهة شتى، واتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله.

فلا واحد منهم إلا وهو عبد لأكثر من سيد، وخاضع لأكثر من إله، فهمه شعاع، وقلبه أوزاع. أين هذا من المؤمن الذي رفض كل الآلهة الزائفة من حياته، وحطم كل الأصنام من قلبه، ورضي بالله وحده رباً، عليه يتوكل، وإليه ينيب، وبه يعتصم، وإليه يحتكم، فلا يبغى غير الله رباً، ولا يتخذ غير الله ولياً، ولا يتبغى غير الله حكماً؟

فليت شعري أي الفريقين خير مقاماً، وأهدى سبيلاً، من عرف الله فلم ينحن لأحد سواه، أم من جحد الله فصار عبداً لأكثر من إله؟ ﴿الرَّابِّابُ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (39) ﴿يوسف﴾.. ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (29) ﴿الزمر﴾ انظروا إلى الآية الكريمة كيف تمثل المشرك بعيد بملكه أكثر من سيد، وهم شركاء متشاكسون، كل يريد منه غير ما يريد الآخر، ويوجهه إلى غير وجهته، فهو حائر معذب بين إرضاء هذا وذاك.

أما المؤمن فمثلته مثل عبد خالص لرجل واحد، لا شركة فيه ولا مشاكسة، فهو يعرف سيده، ويعرف ما يرضيه، وكيف يرضيه.

وإذا كانت الآية في شأن المشرك والموحد، فقد أثبت الواقع أن كل ملحد مشرك، وإن كان الفرق أن المشركين يعبدون مع الله آلهة أخرى، والملحدون يعبدون من دون الله آلهة شتى.

قالوا: عرفنا السبب الأول .. فما السبب الثاني؟

قال: السبب الثاني من أسباب السكينة لدى المؤمن هو أنه قد هدى إلى الإجابة على تلك الأسئلة العميقة الغامضة التي يحتترها سر كل إنسان .. والتي لن يلقى الراحة من دونها.

قال رجل من الجمع: فما تلك الأسئلة؟

قال: إن في أعماق كل إنسان أصواتاً خفية تناديه، وأسئلة عميقة تلح عليه منتظرة الجواب الذي يذهب به القلق، وتطمئن به النفس.. وهذه الأسئلة هي: ما العالم؟ ما الإنسان؟ من أين جاء؟ من صنعهما؟ من يدبرهما؟ ما هدفهما؟ كيف بدءا؟ كيف ينتهيان؟ ما الحياة؟ ما الموت؟ أي مستقبل ينتظرنا بعد هذه الحياة؟ هل يوجد شيء بعد هذه الحياة العابرة؟ وما علاقتنا بهذا الخلود؟

هذه الأسئلة التي ألحت على الإنسان من يوم خلق، وستظل تلح عليه إلى أن تطوى صفحة الحياة، لم تجد - ولن

تجد - لها أجوبة شافية إلا في الدين.

الدين وحده هو الذي يجل عقدة الوجود الكبرى، وهو المرجع الوحيد الذي يستطيع أن يجيبنا عن تلك الأسئلة بما يرضي الفطرة، ويشفي الصدور.

والإسلام - خاصة - خير دين أحاب عن هذه الأسئلة إجابة شافية، ترضي الفطرة النيرة، والعقل السليم، بل إجابة تتبع من أعماقهما، بل أعلن القرآن أن هذا الدين هو الفطرة الأصيلة نفسها: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (30)﴾ (الروم) .. فلو تركت الفطرة الإنسانية ونفسها بلا مؤثر خارجي، لانتهدت إلى الإسلام نفسه.. وفي هذا يقول رسول الله ﷺ: (كل مولود يولد على الفطرة، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)¹

تقول الفطرة والعقل: إن الناس لم يخلقوا من غير شيء، ولم يخلقوا هم أنفسهم، ولم يخلقوا مما حولهم: ذرة في الأرض أو السماء.. ويقول القرآن: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ (35) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُؤْقِنُونَ (36)﴾ (الطور)

وتقول الفطرة والعقل: لا بد - إذن - من خالق لهذا الإنسان العجيب ولهذا الكون العريض، ولا بد أن يكون هذا الخالق واسع العلم، بالغ الحكمة، نافذ المشيئة، عظيم القدرة.. ويقول القرآن: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّبِعْ نُورَهُ فَتُفَكِّرُونَ (62) كَذَلِكَ يُؤفِّكُ الَّذِينَ كَانُوا بِالآيَاتِ اللّٰهِ يَجْحَدُونَ (63) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (64)﴾ (غافر)

وتقول الفطرة والعقل: إن هذا الخالق الحكيم لا بد أن يكون وراء تنظيمه لهذا الكون، ووضع الإنسان فيه غاية وحكمة، وتعالى حكمته أن يكون خلق هذا كله عبثاً.. ويقول القرآن: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (38) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (39)﴾ (الدخان)

وهذا الحق الذي به خلقت السموات والأرض هو ما يستشفه العقل، وتحس به الفطرة - وإن يكن إحساساً غامضاً- أن لهذا الإنسان في الوجود رسالة، وأن وراء هذه الحياة حياة أخرى، هي الغاية وإليها المنتهى، يجزى فيها المحسن بإحسانه؛ والمسيء بإساءته، حتى لا يستوي الخبيث والطيب؛ والبر والفاجر، وهذا ما تقتضيه الحكمة. ويقول القرآن: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (27) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (28)﴾ (ص)، ويقول: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (116)﴾ (المؤمنون)

بهذه الأجوبة القرآنية وغيرها اهتدى المؤمن إلى سر وجوده، ووجود العالم كله.. لقد عرف الله عرف به كل شيء، وحل به كل لغز، واهتدى به إلى كل خير.. فالعالم مملكة الله، وكل ما فيه من آثار رحمة الله، والإنسان خليفة الله، خلق لعبادة الله، وتحمل أمانة الله، والحياة هبة من الله، والموت قدر من الله، والدنيا مزرعة لطاعة الله، والآخرة

(1) رواه البخاري ومسلم.

موعد الحصاد والجزاء من الله.. والسعيد من اهتدى بهدى الله، والشقي من أعرض عن ذكر الله.
والإنسان مبتلى ومستول في هذه الدار الفانية، ليصقل ويعد للخلود في تلك الدار الباقية، والموت هو القنطرة التي
تصل ما بين الدارين.

إن الذي أفنى الفلاسفة فيه أعمارهم، وأذابوا فيه شموع حياتهم، دون أن يجنوا ثمرة تشبع جوعهم الفكري، قد
حصله المؤمن في دعة وهدوء. فعرف: من أين جاء؟ ولم جاء؟ وإلى أين يذهب؟ ولم يحيا؟ ولم يموت؟ وماذا ينتظره
هناك؟ عرف ذلك من مصدره الذي لا يضل ولا ينسى، من وحي الله عز وجل. ومن عرف حقيقة الوجود من رب
الوجود، فقد هدى إلى صراط مستقيم.

حضرت الوفاة بعض الملاحدة من الفلاسفة المتشككين، فهاله الموت وما بعده، فأنشد يقول:

لعمرك ما أدري - وقد أذن البلى = بعاجل ترحالي - إلى أين ترحالي؟

وأين محل الروح بعد خروجه = عن الهيكل المنحل، والجسد البالي؟

وبلغ ذلك بعض الصالحين، فقال: (وما علينا من جهله؟ إذا كان لا يدري إلى أين ترحاله؟ فنحن ندري إلى أين
ترحالنا وترحاله، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (13) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (14)﴾ (الانفطار)
لقد جاء الدين بما يكمل الفطرة، ويأخذ بيد العقل، ولم يجيء بما يصادم الفطرة أو يناقض العقل.

ما أحست به الفطرة في غموض، جاء الدين فيبينه أحسن بيان وأتمه، وما اهتدى إليه من العقل في إجمال واشتباه
جاء الدين ففصله أحسن التفصيل، ومحا عنه الاشتباه، ونفي أوهم العقل، وأغلبط الحس، ووضح الغاية ورسم الطريق.
والفطرة ليست تفكيراً خالصاً، ولا شعوراً محضاً، إنما مزيج من التفكير والشعور، والدين قد جاء يخاطب الفطرة
كلها.. يخاطب التفكير والشعور معاً.. يخاطب العقل والقلب جميعاً.. والذين يعتمدون على سلطان العقل وحده في
الوصول إلى عقيدة سليمة راسخة، وفكرة كلية واضحة تفسر هذا الوجود، وتحل ألغازه، قد جاوزوا بالعقل حدوده
واختصاصه، وأهملوا جانباً هاماً في الفطرة الإنسانية هو جانب الشعور والوجدان، جانب القلب كما أغلقوا على
أنفسهم باباً واسعاً ما كان أحوجهم إليه، وما أضل سعيهم بغيره. هو باب الوحي.

إن العقل - مهما أوتى من الذكاء والقدرة على التجربة والقياس والاستنتاج - محدود بمحدود الطاقة البشرية، مقيد
بقيود المكان والزمان والوراثة والبيئة، فلا غنى له أبداً عن سند ومعين، يسدده إذا أخطأ، ويهديه إذا ضل، ويرده إلى
الصواب إذا شرد، وهذا السند هو الوحي، الذي هو أساس الدين.

إن الوحي قد أراح الإنسان من عناء البحث فيما يبدد طاقته دون الظفر بما يشبع ويغني، وأعفاه من تجشم
رحلات طويلة وشاقة، والسير في دروب معتمة وملتبوية، لا يدري إلام تنتهي به؟ وقدم له ما ينبغي أن يعلمه - وما
يستطيعه - عن مبدأ الوجود ومنتهاه، وعلته وأسارته، قدمها إليه خالصة سائغة، سالمة من جدل المجادلين، وتعمقات
المتفلسفين، وتخريصات المتكلفين.

وليت شعري ما الذي يستطيع أن يعلمه الإنسان عن وجوده هو، وعن وجود العالم الكبير من حوله، وعن
صاحب هذا الملك الكبير - سبحانه - لو مشى في الطريق وحده، دون دليل من وحي الله؟

إنه سيضرب في بيداء لا يعرف فيها طريقاً، ولا يجد فيها غير السراب يحسبه ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً،
ويسبح في بحار من الظلمات لا يهتدي فيها إلى بر ولا قرار، كالتي حدثنا الله عنها في كتابه، قال تعالى: ﴿أَوْ

كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَعْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلَمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ
يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿40﴾ (النور)

لقد حاول كثير من المفكرين في القدم والحديث أن يخلوا ألغاز الوجود، ويظفروا بطمأنينة النفس عن طريق الفلسفة البشرية بعيداً عن هدى الله، ووحى السماء، فأفلسوا وعجزوا.. وهكذا أفلست الفلسفات البشرية أن تمنح القلب الإنساني طمأنينته التي هي أول عنصر لسعادته، ومحال أن يسعد إنسان يورق الشك ليله، ويكدر القلق نهاره.

لقد عرف المنصفون أن أهدي السبل وأقرها وأمنها للظفر بالطمأنينة إنما هو سبل الوحي الإلهي المعصوم.. إنه المصل الواقعي من الشك المحطم، والقلق المفرع، قال تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (43) (الزخرف)

والحق المبين هو الذي اتضحت أعلامه واستبان طريقه، وزال عنه الغموض واللبس والاختلاف والريب. وشعور الإنسان واعتقاده أنه (على الحق المبين) وأنه (على صراط مستقيم) شعور لا يظفر به غير المؤمن بوحي الله وهده.

أما الذي شرد من هدى الله ورسالاته، فهو: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى امْتَثِلْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (71) (الأنعام)
إن الوحي وحده هو السبيل الفذة للوصول إلى اليقين في قضايا الوجود الكبرى.. وبغير الوحي لن يكون يقين، وبغير اليقين لن تكون سكينته، وبغير السكينته لن تكون سعادة.

بالوحي يبلغ المؤمن درجة علم اليقين، وقد يرتقى روحه ويشف ويرف حتى يشارف عين اليقين أو حق اليقين.. وفي هذا قال بعض الصالحين: (لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً!) ذلك لأنه آمن بما أخبر به الوحي إيماناً تجلت به حقائق الوجود لعين قلبه، كأنه يراها بعيني رأسه، ويشهدها حاضرة ظاهرة، كالشمس في الضحى، ليس دونها سحاب ولا ضباب.

إن هذه المكاسب الهائلة التي غنمها المؤمن، واجتني ثمارها، وقطفها الدانية، لا يقدرها حق قدرها إلا من حرّمها، أو تأمل بعين بصيرته حال من حرّمها.

فالجاحدون بالله، أو المرتابون فيه، وفي لقائه يوم الحساب، يحيون حياة لا طعم لها ولا معنى.. حياة كلها قلق وحيرة، كلها علامات استفهام.. كلها أسئلة لا تجد لها عندهم جواباً.

إنهم لا يوقنون بشيء يطمنون إليه. ويستريحون له في قضية وجودهم أنفسهم، ووجود الكون كله من حولهم: من أين جاءوا؟ ومن جاء بهم؟ ولماذا جاء بهم؟ وإلى أين يذهبون بعد هذه المرحلة القصيرة، التي لم يفهموا لها سرّاً، ولم يعرفوا لها غاية؟ وما هذا الكون؟ وما مبدؤه؟ وما غايته؟ وما علاقتهم به؟

إن عقولهم المحدودة لا تستطيع أن تجهيهم إجابة تسفي الصدور، وتقع الغلة، وتمحو بنورها الشك والحيرة والاضطراب.

ربما يهتدون في يوم إلى جواب عن هذه الأسئلة الحائرة المحيرة، ثم يعودون في اليوم الثاني فينقضون ما أبرموا، ويحلون ما عقدوا، ويتبرأون مما قالوا.

إن هذا الشك والاضطراب والقلق الذي يتقلب على جمرة الحائر المراتبون في وجود الله وحكمته، وعدله ورحمته، وجزائه في الآخرة ووحيه إلى رسله - هذا الشك ليس شيئاً هيناً، إنه عذاب أليم، وكوة من الجحيم فتحت على أهله، تلتفحهم بناورها، وتشوي قلوبهم بحميمها، وكلما خف لُهيها هبت عليهم عواصف الشك من جديد، فاشتعلت النار، ليدوقوا العذاب.

إن هذا القلق أمر لا مناص لهم منه، إنه سيحرمهم سكون النفس، وهدوء الضمير.. سيقض عليهم مضاجعهم، وينغص عليهم حياتهم، ويؤرق عليهم ليلهم، ويكدر عليهم نهارهم.

قالوا: عرفنا السبب الثاني .. فما السبب الثالث؟

قال: السبب الثالث هو وضوح الغاية والطريق عند المؤمن .. فبينما يعيش غير المؤمن في الدنيا تتوزعه هموم كثيرة، وتتنازعه غايات شتى، هذه تميل به إلى اليمين، وتلك تجذبه إلى الشمال، فهو في صراع دائم داخل نفسه، وهو في حيرة بين غرائزه الكثيرة، أيها يرضى: غريزة البقاء، أم غريزة النوع، أم المقاتلة، أم غيرها من الغرائز. وهو حائر مرة أخرى بين إرضاء غرائزه وبين إرضاء المجتمع الذي يحيا فيه، وهو حائر مرة ثالثة في إرضاء المجتمع، أي الأصناف يرضيهم، ويسارع في هواهم، فإن رضا الناس غاية لا تدرك.

في نفس الوقت نجد المؤمن قد استراح من هذا كله، وحصر الغايات كلها في غاية واحدة، عليها يحرص وإليها يسعى، وهي رضوان الله تعالى، لا يبالي معه يرضى الناس أو سخطهم، شعاره ما قال الشاعر:

فليتك تحلو والحياة مريرة = وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي يبني وبينك عامر = ويبني وبين العالمين خراب

إذا صح منك الود فالكل هين = وكل الذي فرق التراب تراب

كما جعل المؤمن همومه هماً واحداً، هو سلوك الطريق الموصل إلى مرضاته تعالى، والذي يسأل الله في كل صلاة عدة مرات أن يهديه إليه، ويوفقه لسلوكه،: ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7)﴾ (الفاحة)، وهو طريق واحد لا عوج فيه ولا التواء: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (153)﴾ (الأنعام)

وما أعظم الفرق بين رجلين، أحدهما عرف الغاية، وعرف الطريق إليها، فاطمأن واستراح، وآخر ضال، يخبط في عماية، ويمشي إلى غير غاية، لا يدري لإم المسير؟ ولا أين المصير؟ .. ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (22)﴾ (الملك)

واستهان المؤمن في سبيل هذه الغاية بكل صعب، واستعذب كل عذاب، واسترخص كل تضحية، بل قدمها راضياً مستبشراً.

ألم تروا إلى حبيب بن زيد وقد صلبه المشركون؟ وأحاطوا به يظهرون الشماتة فيه، يحسبون أنه ستنهار أعصابه، أو تضطرب نفسه، ولكنه نظر إليهم في يقين ساخر، وأنشد يقول:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً = على أي جنب كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله، وإن يشأ = يبارك على أوصال شلو ممزق

ألم تسمعوا بمن نفذ الرمح في صدره حتى وصل إلى ظهره، فما كان منه إلا أن قال: فزت ورب الكعبة.

وفي غزوة الأحزاب، وقد ابتلي المؤمنون، وزلزلوا زلزلاً شديداً إذ جاءهم الأعداء من فوقهم ومن أسفل منهم، وإذ زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وظن الناس بالله الظنون، وكشف المنافقون النقاب، فقالوا: ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً..

في هذا الجو الرهيب كان موقف المؤمنين هو موقف السكينة والطمأنينة الذي عهد منهم، والذي سجله الله لهم في كتابه: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (22)﴾ (الأحزاب)

ما الذي وهب هؤلاء المجاهدين السكينة، والقتال مستعر الأوار؟ ومنحهم الطمأنينة والموت فاغر فاه؟ إنه الإيمان وحده، وصدق الله إذ قال في ذلك: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (4)﴾ (الفتح)

لقد عرف المؤمن الغاية فاستراح إليها، وعرف الطريق فاطمأن به، إنه طريق الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدقيين والشهداء والصالحين إنه (الصراف المستقيم) الذي يهدي إليه محمد ﷺ: ﴿وَأَنْتَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (52) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (53)﴾ (الشورى)

وبهذا الصراف المستقيم، كان المؤمن في أخلاقه وسلوكه مطمئناً غير قلق، ثابتاً غير متقلب، واضحاً غير متردد، مستقيماً غير متعوج، بسيطاً غير معقد، لا يحيره تناقض الاتجاهات، ولا يعذبه تنازع الرغبات، ولا يحطم شخصيته الصراع الداخلي في نفسه. أيفعل أم يترك؟ أيفعل هذا أم ذاك؟ هذا هو شأن الإيمان القوي الصادق، وهذه بعض ثمراته..

لقد قص القرآن علينا قصة عجيبة لأب وابن مؤمنين، كانا مثلاً رائعا لليقين الذي لا يعرف الشك، والمسارة التي لا تعرف التردد أو الحيرة أو التخاذل في أمر الله:

شيخ كبير، اشتاق إلى الولد، ودعا ربه، فأوتيه على الكبر، وبشرته به السماء، فتعلق به قلبه، وأفرغ فيه كل ما لديه من حنان وحب، وظل ينمو فينمو معه حب أبيه، ويشب فيشيب معه الأمل والرجاء فيه، وإذا الحكمة الإلهية تأبى إلا أن تصهرهما في امتحان قاس عسير.. كان هذا الامتحان متمثلاً في أن يقرب الأب إلى الله قرباناً، فيذبح ولده، ويذبح معه حبه ورجاءه وأمله.. فهل توقف الوالد عن الأمر؟ أو حتى تردد بين نداء العاطفة ونداء الإيمان؟ بين صوت الوحي من فوقه، وصوت الأبوة ينبثق من حناياه؟ وهل تمرد الابن على أمر يتعلق برفقته؟ أو حتى اضطرت في نفسه العوامل المتضادة من حب الحياة، والامتثال لأمر الله؟

كلا. لقد كان يقينهما أكبر من نوازع النفس، وعوامل التردد، فأسلم الوالد ولده. وأسلم الولد عنقه.

تلك هي قصة إبراهيم الخليل، وابنه إسماعيل - عليهما السلام -

لقد عبر القرآن الكريم عن هاتين النفسيتين المؤمتين، ومدى طمأنتيتهما في أحلك ساعات الشدة، ومبلغ الثبات الخلقي الراسخ الذي بدا في توضحية الأب العظيم، وصبر الابن الكريم.. قال تعالى في شأن إبراهيم ولده إسماعيل: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بَعْلَامَ حَلِيمٍ (101) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (106) وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ

(107) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (108) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (109) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (110) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (111) ﴿(الصفات)

وفي هذا الختام سر القصة كلها، ومفتاح ما سجلته من بطولة وفداثة: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (111)﴾ (الصفات)

إنها العبودية لله وحده، والإيمان به وحده.. والعبودية لله تعني: التحرر من التبعية لكل من سواه وما سواه، فلا خضوع لمخلوق في الأرض أو في السماء.. حتى الشيطان الوسواس الخناس ليس له سبيل على عباد الله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (42)﴾ (الإسراء)

والعبودية لله تعني: الانقياد لحكمه سبحانه، مع رضا النفس، وتسليم القلب، دون أدنى حرج أو ارتياب، لثقتة بأن تدبير الله له خير من تدبيره لنفسه وأنه تعالى أرحم به من أمه وأبيه، وأنه سبحانه أعلم بما يصلحه ويزكيه.

والمؤمن الصادق هو الذي عرف لهذه العبودية حقتها، فوجه وجهه للذي فطر السموات والأرض حنيفاً، وحطم الأصنام كلها من قلبه، ورفض الطواغيت كلها من حياته، ولم يرض غير الله رباً، ولم يتخذ غير الله ولياً؛ ولم يتبع غير الله حكماً؛ اتصحت لعين بصيرته الوجهة؛ واستقام أمامها الطريق؛ لا لبس ولا غموض؛ ولا عوج ولا أمت: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (161) قُلْ إِنْ صَلَّيْتَنِي وَتَسَكَّيْتَنِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَأَشْرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163) قُلْ أَغْيِرَ اللَّهُ أْبْعِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (164)﴾ (الأنعام)

وبهذا الاتجاه الواضح انحلت العقد في نفس المؤمن وفي حياته.. فقد عرف الطريق فسلكتها على بصيرة، غير هيباء ولا متردد، ولا قلق ولا مراتب.. طريق الرجوع إلى أمر الله، والاستسلام الكامل لحكم الله، واليقين بأن خيري الدنيا والآخرة في اتباعه والرضا به: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا (36)﴾ (الأحزاب) ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (51)﴾ (النور)

أجل هم المفلحون: مفلحون في الآخرة بدخول الجنات ورضوان من الله أكبر.. ومفلحون في الدنيا بما أنعم الله عليهم من سكينه الأنفس وطمأنينة القلوب، وانسراح الصدور.

قالوا: عرفنا السبب الثالث.. فما السبب الرابع؟

قال: السبب الرابع هو أنس المؤمن بالوجود كله.. فالمؤمن يعيش موصولاً بالوجود كله، ويحيا في أنس به، وشعور عميق بالتناسق معه، والارتباط به، فليس هذا الكون عدواً له، ولا غريباً عنه، إنه مجال تفكره واعتباره، ومسرح نظره وتأملاته، ومظهر نعم الله وآثار رحمته.

هذا الكون الكبير كله يخضع لنواميس الله كما يخضع المؤمن، ويسبح بحمد الله كما يسبح المؤمن.

والمؤمن ينظر إليه نظرتة إلى دليل يهديه إلى ربه، وإلى صديق يؤنسه في وحشته..

وبهذه النظرة الودود الرحبة للوجود، تتسع نفس المؤمن، وتتسع حياته، وتتسع دائرة الوجود الذي يعيش فيه.

فليس هناك أوسع من صدر المؤمن وقلبه الذي وسع العالمين، المنظور وغير المنظور، عالم الشهادة وعالم الغيب،

ووسع الحياتين: الدنيا والآخرة، حياة الفناء، وحياة الخلود، ووسع الوجودين: الوجود المحدث الفاني، والوجود الواجب الباقي، الوجود الأزلي الأبدى، وجود الله جل جلاله.

وليس هناك أضيّق من صدر الملحد والشاك في الله والآخرة، إن حياته أضيّق من سجن، بل من زنزانة في سجن، إنه يعيش معزولاً عن الأزل والأبد، عن الأمس والغد لا يعرف إلا يومه، ولا يعرف من يومه إلا لذاته المحسنة، وهو يعيش معزولاً عن الوجود العريض، لا يرى منه إلا شخصه وشخصاً محدودة أخرى، ولا يرى من شخصه إلا جسمه المادي، ودوافعه الحيوانية.

هذه حقيقة ثابتة، وسنة ماضية، منذ أهبط الله آدم وزوجه إلى الأرض ثم قال لهما: ﴿فِيمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْتَقِي (123) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124)﴾ (طه)

فإذا رأيتم بعض هؤلاء المعرضين عن هدى الله في مجبوحة من العيش المادي، والنعيم الحسي، فلا يحد عنكم ذلك عن حقيقة حالهم، فإن الضنك الحقيقي في أنفسهم. وإذا ضاقت النفس، وضاقت الصدر، ضاقت المعيشة وضاقت الحياة كلها. وإذا اتسعت النفس، اتسعت الحياة.

إن دائرة الوجود بالنسبة للحيوان دائرة ضيقة محدودة بحدود معدته وكرشه، وما يملؤها من كالأمرعى، ولا التفات إلى ما وراء ذلك.

وقريب من ذلك الطفل، فوجوده ينحصر في أمه، فإذا كبر قليلاً اتسع فشمّل أباه وأخوته ومسرح لعبه، فإذا نما شيئاً فشيئاً، بدأت تتسع دائرة حسه، ثم انتقل - كلما قارب الرشد - من المحسوس إلى غير المحسوس، فبدأ يدرك المعاني الكلية والمعقولات المجردة.

فالإيمان بالله وبالغيب هو الذي يرتفع بالإنسان من الحيوانية إلى الإنسانية، ومن الطفولة إلى الرشد، لأنه يرتفع بالإنسان من المحسوس إلى المعقول، ومن المنظور إلى غير المنظور، ومن عالم الشهادة إلى عالم الغيب.

إن المؤمن يعيش في سعة من نفسه وقلبه، ولو لم يكن في سعة من عيشه، فطبيعة الإيمان توسع النفس والقلب والحياة لأنه يصل صاحبه بالوجود كله، ظاهره وباطنه، علوية وسفلية، وما يصير منه وما لا يصير، ماضيه وحاضره ومستقبله.. يصله بالسموات والأرض ومن فيهن.. يصله بالملائكة وحملة العرش والقوى الروحية من جنود الله التي لا يعلمها إلا هو.. يصله بجملة النور الإلهي، وأصحاب الرسالات السماوية من لدن آدم أبي البشر إلى محمد ﷺ، يصله بالصدّيقين والشهداء والصالحين من كل أمة، ومن كل عصر، يصله بالآخرة والبعث والحساب والجنة والنار، وباختصار: يصله بالوجود ورب الوجود، الأول والآخر، والظاهر والباطن .

النفس المؤمنة نفس رحبة واسعة، وكيف لا وهي تعيش في وجود سعته السموات والأرض، والعرش والكرسي، والدنيا والآخرة، والأزل والأبد؟

والنفس المؤمنة رحبة واسعة، لأنها تعيش في نور يهديها سبيلها، ويكشف لها من حولها، ومن شأن النور أن يوسع الدائرة التي يجيا فيها الإنسان على عكس الظلام، فإن الذي تكثفه الظلمة لا يرى ما حوله ولا من حوله.. بل لا يرى الشيء وهو بجواره تكاد تلمسه يداه، بل لا يرى نفسه، ولا شيء أقرب إليه من نفسه، فإذا لاح له شعاع خافت بدأ يرى نفسه، أو شيئاً مما حوله.. فإذا قوي هذا النور وانتشرت أشعته العريضة، أضاء له دائرة أوسع، وعلى قدر قوة هذا

النور وقوة البصر عند الإنسان تكون سعة الدائرة التي يدركها البصير.

وقد روي في الأثر في قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ .. ﴾ (22) ﴿ (الزمر) فقال: (إن النور إذا دخل في القلب اتسع وانفسح)

فالقلب يتسع وينفسح وينشرح بنور الإيمان واليقين، كما يضيق وينكمش بظلمة الإلحاد والشك والنفاق: ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (125) ﴿ (الأنعام)

قالوا: عرفنا السبب الرابع .. فما السبب الخامس؟

قال: السبب الخامس هو أن المؤمن يعيش في معية الله .. ولذلك لا يعتربه ذلك المرض النفسي الويل، الذي يفتك بالحرورين من الإيمان، ذلك هو مرض الشعور بالوحدة المقلقة، فيحس صاحبه أن الدنيا مقفلة عليه، وأنه يعيش فريداً منعزلاً؛ كأنه بقية غرقى سفينة ابتلعها اليم، ورمت به الأمواج في جزيرة صغيرة موحشة يسكنها وحده، لا يرى إلا زرقة البحر وزرقة السماء، ولا يسمع إلا صفير الرياح، وهدير الأمواج.

وأي عالم أشد على النفس من هذا العالم، وأي إحساس أمر من هذا الإحساس؟ إن أفسى ما يصنعه السحان بالسجين أن يحبس في سجن انفرادي (زنازة) ليحرمه من لذة الاجتماع، وأنس المشاركة والاختلاط، فما بالتألم من وضع نفسه دائماً في تلك الزنازة، وعاش فيها بمشاعره وتصوره وحده، وإن كانت الدنيا تضح من حوله بخلق الله من بني الإنسان؟!!

والمختصون متفقون على أن هذا المرض من أخطر أمراض النفس، لما يجلبه على صاحبه من عزلة وفقدان للثقة بمن يتعاملون معه، إذ يعتقد أن كل من حوله دونه، وأهم يخالفونه في كل مقومات الحياة، وأينما التفت لا يجد غير نفسه، وقد مثل بعضهم حالة هذا المريض بإنسان قد سجن في غرفة جميع جدرانها (مرايا) فأينما ينظر لا يجد إلا نفسه، وأن هذه الغرفة التي سجن فيها لا أبواب لها، ولا منافذ بها، فأين السبيل إلى الهرب منها؟

فهو يستطيع مثل هذا الإنسان أن يعمل أو ينتج، أو أن يظل محتفظاً بوعيه وقدرته على الفهم والتركيز؟ وهل يمكن لمثله أن يظفر بالسكينة والاطمئنان؟ الجواب طبعاً: لا.

بل قال المختصون في علاج هذه الأمراض: إن لهذا المرض النفسي آثاراً عضوية تظهر على جسم صاحبه، كما تظهر في حركاته وتصرفاته.. فقد يصيبه الدوار ويتصبب عرقه، وتسرع نبضات قلبه، كأنه خائف من عدو قاهر، أو مقدم على موقف عصيب وقد يتخبط في حركاته ومشيه كأنه يريد الهرب.

يقول الدكتور (موريس جوبتهيل) مدير إدارة الصحة العقلية بنيويورك: (إن مرض إحساس الإنسان بوحده لمن أهم العوامل الأساسية للاضطرابات العقلية)

ولم يدخر الأطباء وعلماء النفس وسعاً في البحث عن علاج ناجح لهذا المرض، وبذلوا في ذلك جهوداً جمّة، وأجروا تجارب كثيرة، وحاولوا محاولات مخلصه حتى انتهى رأي المنصفين منهم أخيراً إلى أن العلاج الأمثل لهذا المرض هو اللجوء إلى الدين، والاعتصام بعروة الإيمان الوثقى، وإشعار المريض بمعية الله والأنس به.

فهذا الإيمان القوي هو خير دواء لعلاج هذا المرض الخطير، كما أنه خير وقاية من شره.. قال الدكتور (فرانك لوباخ) العالم النفسي الألماني: (مهما بلغ شعورك بوحدة نفسك فاعلم أنك لست بمفردك أبداً. فإذا كنت على جانب

من الطريق فسر وأنت على يقين من أن الله يسير على الجانب الآخر) واعتقاد المسلم أكبر من هذا وأعمق.. إنه يؤمن أن الله معه حيثما كان، وليس على الجانب الآخر من الطريق، إن الله سبحانه يقول في الحديث القدسي: ﴿أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني﴾.. ويقول في كتابه: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ (35) ﴿محمد﴾ إن شعور المؤمن بأنه مع الله، وأن عنايته تسير بجانبه، وأنه ملحوظ بعينه التي لا تنام، وأنه معه حيث كان، يطرد عنه شبح الوحدة المخيف، ويزيح عن نفسه كابوسها المزعج.

كيف يشعر بالوحدة من يقرأ في كتاب ربه: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيَّمَا تَوَلَّوْا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسِعُ عِلْمِهِ﴾ (115) ﴿البقرة﴾، ويقول: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (4) ﴿الحديد﴾؟ إن المؤمن لا يشعر إلا بما شعر به موسى حين قال لبني إسرائيل: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (62) ﴿الشعراء﴾.. وما شعر به محمد في الغار حين قال لصاحبه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة)

إن شعور المؤمن بمعية الله وصحبته دائماً يجعله في أُنس دائم بربه، ونعيم موصول بقربه، يحس أبداً بالنور يغمر قلبه، ولو أنه في ظلمة الليل البهيم.. ويشعر بالأنس يملأ عليه حياته وإن كان في وحشة من الخلطاء والمعاشرين، ينشد ما قاله العبد الصالح يناجي ربه:

إن قلبا أنت ساكنه = غير محتاج إلى السرح
وجهك المأمول حجتنا = يوم يأتي الناس بالحجج

قالوا: عرفنا السبب الخامس .. فما السبب السادس؟

قال: السبب الخامس هو أن المؤمن لا يشعر أنه في عزلة عن إخوانه المؤمنين.. إنهم، إن لم يكونوا معه في عمله أو مسجده أو داره - يعيشون دائماً في ضميره، ويحيون في فكره ووجدانه، فهو إذا صلى - ولو منفرداً - يتحدث باسمهم: ﴿إِنَّكَ تَعْبُدُ وَإِنَّكَ نَسْتَعِينُ﴾ (5) ﴿الفاتحة﴾ .. وإذا دعا دعاه باسمهم: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (6) ﴿الفاتحة﴾ .. وإذا ذكر نفسه ذكرهم: (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين) .. هذا في التشهد الذي يتكرر في الصلوات المفروضة وحدها تسع مرات يومياً عدا السنة والنوافل .. وإنه لأوسع مدى من أن يعيش مع مؤمني عصره وحدهم، بل انه ليتخطى الأجيال، ويخترق العصور والمسافات، ويحيا مع المؤمنين وإن باعدت بينه وبينهم السنوات والأعوام، ويقول ما قال الصالحون: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (10) ﴿الحشر﴾

المؤمن يشعر أنه يعيش بإيمانه وعمله الصالح مع أنبياء الله ورسله المقربين، ومع كل صديق وشهيد وصالح من كل أمة وفي كل عصر: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (69) ﴿النساء﴾

وأي إنسان أسعد ممن يرافق هؤلاء ويرافقونه؟ إنها ليست مرافقة جسد وصورة، ولكنها مرافقة روح ووجدان، وفكر وقلب، وكفى أنه (معهم)، وليس خلفهم، ولا قريباً منهم .. ولا يحسن امرؤ من الناس أن مرافقة هؤلاء للمؤمن شيء هين ضئيل، أو أمر خيالي موهوم، فإنه لفرق كبير دين إنسان تاريخه هو تاريخ شخصه أو أسرته، أو حزبه مثلاً، فهو قريب القاع، سطحي الجذور، وإنسان تاريخه هو تاريخ الإيمان والهدى من عهد آدم، تاريخه هو تاريخ نوح

وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد من أولي العزم من الرسل، ومن غيرهم من أصحاب النبوات والرسالات منذ بعث الله رسولاً، وأنزل كتاباً، فهو يستلهم هذا التاريخ المؤمن الحافل في كل ما ينزل به من أحداث، وما يعرض له من مشكلات، وما يقف في سبيله من عوائق، ويجد فيه الأسوة والهداية كما يجد فيه السلوى والعزاء، كما يجد فيه الأُنس والود، ومن كل ذلك يأخذ الزاد لفكره، والنور لقلبه، والمدد لإرادته.

قالوا: عرفنا السبب السادس .. فما السبب السابع؟

قال: السبب السابع هو ما أتيج للمؤمن من مناجاة ربه في الصلاة والدعاء والذكر .. وذلك كله مما لا يجده الماديون، وإنما هو نعيم خالص للمؤمنين ..

فالصلاة لحظات ارتقاء روحي يفرغ المرء فيها من شواغله في دنياه، ليقف بين يدي ربه ومولاه ويثني عليه بما هو أهله، ويفضي إليه بذات نفسه: داعياً رغباً ضارعاً.

وفي الاتصال بالله العلي الكبير قوة للنفس، ومدد للهزيمة، وطمأنينة للروح.

لهذا جعل الله الصلاة سلاحاً للمؤمن يستعين بها في معركة الحياة، ويواجه بها كوارثها وآلامها، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (153) (البقرة) .. وكان محمد رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، ولم تكن صلاته مجرد شكل أو رسم يؤدي، وإنما كانت استغراقاً في مناجاة الله، حتى أنه كان إذا حان وقتها قال لمؤذنه بلال في لهفة المشوق واشتياق الملهوف: (أرحنا بما يا بلال) .. وكان يقول: (جعلت قرّة عيني في الصلاة)

أي سكينته يشعر بها المؤمن حين يلجأ إلى ربه في ساعة العسرة ويوم الشدة، فيدعوه بما دعا به محمد من قبل: (اللهم رب السموات السبع، ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، منزل التوراة والإنجيل والقرآن، أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، أنت الأول، فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر، فليس فوقك شيء، وأنت الباطن، فليس دونك شيء، اقض عني الدين، وأغنني من الفقر)¹

وأي طمأنينة ألفت في قلب محمد ﷺ يوم عاد من الطائف دامي القدمين، مجروح الفؤاد من سوء ما لقي من القوم، فما كان منه إلا أن رفع يديه إلى السماء يقرع أبوابها بهذه الكلمات الحية النابضة التي دعا بها محمد ربه، فكانت على قلبه برداً وسلاماً: (اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين! أنت أرحم الراحمين، إلى من تكلمي؟ إلى عدو يتجهمني أم إلى قريب ملكته أمري؟ إن لم تكن غضبان علي فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي. أعوذ بوجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي غضبك أو يحل بي سخطك لك العتي حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله)²

قالوا: عرفنا السبب السابع .. فما السبب الثامن؟

قال: السبب الثامن هو أن المؤمن لا يعيش بين (لو) و(ليت) .. ذلك أن من أهم عوامل القلق الذي يفقد الإنسان سكينته النفس وأمنها ورضاها هو تحسره على الماضي وسخطه على الحاضر، وخوفه من المستقبل.

(1) رواه مسلم.

(2) رواه الطبراني.

إن بعض الناس تنزل به النازلة من مصائب الدهر، فيظل فيها شهوراً وأعواماً، يجتر آلامها ويستعيد ذكرياتها القائمة، متحسراً تارة، متمنياً أخرى.. شعاره: ليتني فعلت، ولتني تركت، لو أني فعلت كذا لكان كذا.

ولذا ينصح الأطباء النفسيون، والمرشدون الاجتماعيون، ورجال التربية، ورجال العمل، أن ينسى الإنسان آلام أمسه، ويعيش في واقع يومه، فإن الماضي بعد أن ولى لا يعود.

ولكن الضعف الإنساني يغلب على الكثيرين، فيجعلهم يطحنون المطحون ويبكون على أمس الذاهب، ويعضون على أيديهم أسفاً على ما فات، ويقبلون أكفهم حسرة على ما مضى.

وأبعد الناس عن الاستسلام لمثل هذه المشاعر الأليمة، والأفكار الداجية هو المؤمن الذي قوي يقينه بربه، وآمن بقضائه وقدره، فلا يسلم نفسه فريسة للماضي وأحداثه، بل يعتقد أنه أمر قضاه الله كان لا بد أن ينفذ، وما أصابه من قضاء الله لا يقابل بغير الرضى والتسليم.

إن المؤمن لا يقول: لو أني فعلت كذا لكان كذا، ولكن يقول: قدر الله وما شاء فعل، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان، كما أخبرنا الرسول ﷺ¹.

إن المؤمن يوقن أن قدر الله نافذ لا محالة، فلم السخط؟ ولم الضيق والترحم؟ والله تعالى يقول: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (22) لِكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (23)﴾ (الحديد)

وفي غزوة أحد التي قتل فيها سبعون من المسلمين، نعى القرآن على طائفة من المنافقين ومرضى القلوب، وضعاف الإيمان، عاشوا بين (لو) المتندمة و(ليت) المتحسرة، فيقول: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (154)﴾ (آل عمران)

ويرد على أولئك الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرِعُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (168)﴾ (آل عمران)

المؤمن لا يقف موقف هؤلاء المنافقين، ولا موقف إخوانهم من الكفار الذين هُمى القرآن عن التشبه بهم في تحسراتهم الأسيئة، وتمنياتهم الحزينة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غَزَى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (156) وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (157) وَلَئِنْ مِتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لِيَالِي اللَّهِ تُحْشَرُونَ (158)﴾ (آل عمران)

إن شعار المؤمن دائماً: (قدر الله وما شاء فعل.. والحمد لله على كل حال).. وبهذا لا يأسى على ما فات، ولا يحيا في حضم أليم من الذكريات، وحسبه أن يتلوا قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (11)﴾ (التغابن)

(1) رواه مسلم.

قالوا: عرفنا السبب الثامن .. فما السبب التاسع؟

قال: السبب التاسع هو أن المؤمن يعيش في حالة رضا تام عن ربه .. ولذلك لا يصيبه ذلك التشتت والألم الذي يصيب الساخطين المعترضين .. لقد ذكر رسول الله ﷺ ذلك، فقال: (إن الله عز وجل بقسطه جعل الفرح والروح في الرضا واليقين، وجعل الغم والحزن في السخط والشك)¹

في هذا الحديث الشريف كشف رسول الله ﷺ عن حقيقة نفسية باهرة، فكما أن سنة الله قد ربطت الشبع والري بالطعام والشراب في عالم المادة، فإن سنته تعالى في عالم النفس والروح قد ربطت الفرح والروح والسرور وراحة النفس بالرضا واليقين.. فبرضا الإنسان عن نفسه وربه يطمئن إلى يومه وحاضره، ويقينه بالله والآخرة والجزاء، يطمئن إلى غده ومستقبله.. ومن غير المؤمن في رضاه عن يومه، ويقينه بغده؟ كما ربطت سنة الله الغم والحزن بالسخط والشك.

فالساحطون والشاكون لا يذوقون للسرور طعماً.. إن حياتهم كلها سواد ممتد، وظلام متصل، وليل حالكة لا يعقبه نهار ولا يرتقب له فجر صادق.

وقد ربط الحديث النبوي الكريم بين السخط والشك، وهما متلازمان، فلا سخط من غير شك، ولا شك من غير سخط.

ولذلك ترون الساحط دائم الحزن، دائم الكآبة، ضيق الصدر، ضيق الحياة، ضيقاً بالناس، ضيقاً بنفسه، ضيقاً بكل شيء، كأن الدنيا - على سعتها - في عينه سم الحيايط.

إن المؤمن قد تصيبه الكآبة، وقد يعتره الحزن.. ولكن حزن المؤمن لغيره أكثر من حزنه لنفسه، وإذا حزن لنفسه فلاخرته قبل دنياه.. وإذا حزن لدنياه فهو حزن عارض موقوت كغمام الصيف، سرعان ما ينقشع إذا هبت عليه ريح الإيمان.. حتى النفوس المنقبضة والطبائع المتشائمة، ينشر الإيمان عليها من ضيائه وإشراقه، فيبدد كثيراً من ظلامها ويخفف كثيراً من انقباضها ويطارد أسباب السخط والتشاؤم من وجودها.

أما المرتاب في الله والآخرة، فهو يعيش في مأتم مستمر، ومناحة دائمة.. لأنه يعيش في سخط دائم، وغضب مستمر، فهو ساحط على الناس، ساحط على نفسه، ساحط على الدنيا، ساحط على كل شيء، وقديماً قالوا: من غضب على الدهر طال غضبه. ولهذا هو في مأتم مستمر، يبكي دائماً حظه وينعي نفسه، وينوح على دنياه، ويولول على وجوده.

إن شعور الإنسان بالرضا من أول أسباب السكينة النفسية التي هي سر السعادة.. ولهذا قال رسول الله ﷺ: (من سعادة المرء استخارته ربه، ورضاه بما قضى، ومن شقاء المرء تركه الاستخارة وعدم رضاه بعد القضاء)²

فكل أمر مقدور يكتنفه أمران: الاستخارة قبل وقوعه، والرضا بعد وقوعه، والسعيد من جمع بينهما، وذلك هو المؤمن، والشقي من حرمهما.. المؤمن يسأل الله قبل إقدامه على أمر من الأمور أن يهديه إلى أرشد الأعمال وأهدى السبل، ومن الأدعية التي علمها لنا الرسول ﷺ: (اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة

(1) رواه الطبراني.

(2) رواه البزار ومعناه عند أحمد والترمذي.

أمري، فيسره لي، وبارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فاصرفه عني، واقدر لي الخير حيث كان ثم رضي به¹

والمؤمن وحده هو الذي يغمره الإحساس بالرضا بعد كل قدر من أقدار الله.

المؤمن هو الذي يحس تلك الحالة النفسية التي تجعله مستريح الفؤاد، منشرح الصدر، غير متبرم ولا ضجر، ولا ساحط على نفسه، وعلى الكون والحياة والأحياء.. ومنشأ ذلك رضاه عن وجوده الخاص في نفسه، وعن الوجود العام من حوله، ومبعث هذا وذاك رضاه عن مصدر الوجود كله، وينبوع هذا الرضا هو الإيمان بالله رب العالمين.

الرضا نعمة روحية جزيلة، هيهات أن يصل إليها جاحد بالله، أو شاك فيه، أو مرتاب في جزاء الآخرة، إنما يصل إليها من قوي إيمانه بالله وحسن اتصاله به. وقد خاطب الله رسوله ﷺ بقوله: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ (130)﴾ (طه) وامتن عليه بقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (5)﴾ (الضحى)

وقال النبي ﷺ: (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً)²
وأثنى الله تعالى على المؤمنين بقوله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (119)﴾ (المائدة)

قالوا: عرفنا السبب التاسع.. فما السبب العاشر؟

قال: السبب العاشر هو أن المؤمنين - بسبب إيمانهم - أهل حلم وصبر وتواضع وتسامح وحياء: ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً (63)﴾ (الفرقان)

ولذلك يعرفون بطول الصمت، وتواصل الفكر، وخفض الصوت، والبعد عن المرح والصخب والتلاعن. ويعرفون بالتأني والاتقان والإحسان فيما يعهد إليهم من أعمال.

ويعرفون بالدمائة ولين الطبع والصدق والوفاء والاعتدال في الأخذ من كل شيء.

وهذا كله يدل على انسجام عناصر النفس والتوافق بين متناقضاتها، وانقيادها في خضوع وسلاسة لصاحبها وهي

أمر لا يوهب إلا للمؤمن.. لأن علاقة المؤمن بماحوله علاقة متميزة مختلفة.. علاقته بالأمس والغد وعلاقته بالموت.. وعلاقته بالناس.. وعلاقته بعمله ونظراته للأخلاق.

فالأخلاق بالمعنى المادي الواقعي هي أن تشبع رغباتك بما لا يتعارض مع حق الآخرين في إشباع رغباتهم

أيضا، فهي مفهوم مادي اجتماعي بالدرجة الأولى، وهدفها حسن توزيع اللذات.

أما الأخلاق بالمعنى الإسلامي فهي عكس ذلك.. فهي أن تقمع رغباتك، وتخضع نفسك، وتخالف هواك، وتحكم شهواتك لتتحقق برتبتك ومنزلتك العظيمة كخليفة عن الله ووارث للكون المسخر من أجلك.. فأنت لا

تستحق هذه الخلافة والسيادة على العالم، إلا إذا استطعت أولاً أن تسود نفسك وتحكم مملكتك الداخلية.. ومفهوم الأخلاق هنا فردي، وهدفه بلوغ الفرد درجة كماله وإن كانت هناك ثمرة اجتماعية يجنيها ذلك الفرد فإنها تأتي بالتبعية.

فالاجتماع الذي يتألف من مثل هؤلاء الأفراد لا بد أن يسوده الوئام والسلام والمحبة.

(1) رواه البخاري وغيره.

(2) رواه أحمد ومسلم والترمذي.

و الأخلاق بهذا المعنى هي خروج من عبودية النفس إلى مرتبة عليا.. خروج من الرغبة في شيء مادي إلى الرغبة في حضرة الإله.. خروج من الجزء إلى الكل.. من النسبي إلى المطلق حيث يجب أن تطلع كل العيون.. وهذا لا يمكن أن يتم إلا إذا تم تصحيح وتكميل بصر العين.. فأصبحت ترى كل شيء بحقيقة حجمه ونسبته لا تحجبها لذة دنيوية عن رؤية الكمالات الإلهية.

ولهذا تبدأ الأخلاق الدينية بمجاهدة الشهوات حتى تحكمها وتخضعها ولا تبدأ بالتسليم لها وياشباعها كما هو شائع، فهي ليست دعوة إلى حسن توزيع اللذات وإنما هي دعوة إلى الخروج من أسر اللذات، وهكذا تختلف النظرتان تماما وتؤدي كل منهما إلى انسان مختلف.

فالانسان المادي يستهدف النزوة واللذة الفورية والمقابل المادي العاجل، لأنه لا يعتقد في وجود شيء وراء الحياة الدنيوية، وهو لهذا يجري وراء اللحظة، ويلهث وراء الآن، ولكن اللحظة متفلتة و(الآن) هارب والقوت والحسرة تلاحقانه في أعقاب كل خطوة يخطوها، وهو متروك دائما، وفي حلقه غصة، وفي لبه حسرة، وكلما أشبع شهوته ازدادت جوعا.. وهو يراهن كل يوم بلا ضمان وبلا رصيد فهو محكوم عليه بالموت، لا يعرف متى وكيف وأين، فهو يعيش في قلق وتوتر مشتت القلب متوزع المهمة بين الرغبات لا يعرف للسكينة طعما حتى يدهمه الموت رغم أنفه.

أما الانسان المؤمن فهو تركيب نفسي مختلف وأخلاقية مختلفة، فهو يرى اللذات الدنيوية زائلة، وألها لا تساوي شيئا، وألها مجرد امتحان إلى منازل ودرجات وراها، وأن الدنيا مجرد عبور إلى تلك المنازل والدرجات الباقية.. وأن الدنيا كالخيال وأن الله هو الضمان الوحيد في رحلة الدنيا والآخرة.. وأنه لا حاكم ولا مقدر سواه.. ولو اجتمع الناس على أن يضروك لما استطاعوا أن يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك، وإن اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لما استطاعوا أن ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك.

و ثمرة ذلك عند المؤمن هي السكينة والهدوء النفسي واطمئنان البال والثقة في حكمة الله وعدله ورحمته وتصريفه. و مثل هذا المؤمن كلما ترك شهوة من شهواته، وجد عوضا لها حلاوة في قلبه، مما يلقي من التحرر الداخلي من أغلال نفسه ومما يجد من النور في بصيرته.

و هو يترك السعي إلى الحظوظ للسعي إلى الحقوق، ويترك الدعاوى إلى الأوامر، ويترك أهواء النفس إلى وجه الحق، و يكف عن التلهف والحركة وراء الأغراض والمناصب والرياسات والمغانم ويسكن إلى جنب الله.. وهل بعد الله مغنم؟!

ومن صفات هذا المؤمن العامل لوجه الله أنه ناهض بالهمة على الدوام، لا يفتر ولا يكسل ولا يتواكل، بينما يفتر من يعمل للأجر ويفتر من يعمل للخوف.. أما القاصد وجه ربه فإنه لا يفتر لأنه لم يربط جهاده بأجر وهو لا يكسل متواكلا على مغفرة لأنه لا يتحرك بالخوف من عقاب وإنما هو عبد محب متطوع، العمل عنده سعادة، لهذا لا تجده متيرما ولا متسخطا، وإنما هو دائما طلق الوجه مشرق البسمة متفائل، حماد لربه في جميع الحالات لا يسب الدهر ولا ينسب لربه نقصا ولا قصورا.

وهذه التركيبة النفسية النادرة هي ثمرة الايمان بالقرآن، وهي ثمرة التوحيد.. والتوحيد يجمع عناصر النفس، ويوحد اتجاه المشاعر نحو مصدر واحد للتلقي، فيؤدي بذلك إلى أثر تركيبى بنائى في الشخصية يعكس تعدد الألهة وتعدد مصادر الخوف والنفق والضرر فإنه يؤدي إلى توزع المشاعر وانقسام النفس وتشتت الانتباه إلى العديد من الجهات،

ويؤدي بذلك إلى تفكيك رباط الشخصية.

لأجل هذا كله يختلف علم النفس المادي وعلم النفس القرآني في علاج الأمراض النفسية.. فعلم النفس لا يرى إمكانا لتبديل النفس أو تغييرها جوهريا، لأن النفس تأخذ شكلها النهائي في السنوات الخمس الأولى من الطفولة.. ولا يبقى للطبيب النفسي دور سوى إخراج المكبوت فيها إلى الوعي.. أو فتح نوافذ للتنفيس والتعبير وتخفيف الغليان الداخلي.. وبهدف الوصول إلى ذلك يلجأ الطبيب النفسي إلى العلاج بالتنويم المغناطيسي أو العلاج بالإيحاء أو بالتنفيس والتعبير والفن واللعب أو العلاج بالاستغراق في عمل آلي أو العلاج بالإشباع المباشر.

وكل هذه الصور أشبه بعلاج السرطان بالمراهم أو المسكنات لأنها لا تحاول أن تغير من النفس شيئا، فكلها تقبل وجود الدمامل النفسي على حاله ثم تقول للمريض: (اصرخ أو تأوه أو ارقص أو غن لتنفس عن آلامك).. أو تضع يده على الدمامل وتقول له: (هنا الدمامل).. وهذا كل جهدهم.

أما الدين فيقول بإمكانية تبديل النفس وتغييرها جوهريا، ويقول بإمكانية إخراجها من ظلمة البهيمية إلى أنوار الحضرة الإلهية، ومن حضيض الشهوات إلى ذروة الكمالات الخلقية وذلك بالرياضة والمجاهدة.

فبينما يرى فرويد (الطبية) تخاذلا وسلبية وينصح مريضه قاتلا له: (كل وإلا فأنت مأكول) يرى المؤمن الطبية قوة إيجابية.. وبينما يرى فرويد من الأعمال ما يساعد على تفرغ وتنفيس الغليان النفسي، يشترط المؤمن العمل الصالح.. وبينما يرى أن ماضي الطفولة حاكم على كل إنسان وموجه لأفعاله لا يقول المؤمن بحاكم إلا الله، ولذلك يرى أنه يمكنه - بفضل الله - أنه يمكن أن يخرج من أي حكم.. وبينما يقول فرويد بفسادة بغيره وبغريزة التحطيم والهدم وبالطاقة الشهوانية كدوافع رئيسية، يقول المؤمن: إن الإنسان فطر حرا مختارا بين النوازع السالبة والموجبة يختار ما يشاء منذ البداية.

وسبب مادية علم نفس فرويد، وعلم النفس بوجه عام هو أنهم يتعاملون مع النفس الإنسانية على أنها مادة وجسد يمكن اقتحامه بالتشريح والتجربة.. وهم يفعلون هذا عن إيمان بأنه لا روح هناك ولا ذات ولا نفس.. وإنما مجموعة مركبات كيميائية وجينات وراثية اسمها الإنسان، وتلك هي خطيئة الحضارة المادية، فهذا التصور أبعد ما يكون عن الصواب لأن النفس الإنسانية (ذات) قبل كل شيء، ولا يمكن إحالتها إلى موضوع مجرد.. وهي كالحياة إذا عملت فيها مبضع التشريح ماتت في يدك.. والنفس دائما تستخفي على النظرة التحليلية، وتتكر بما تطرح في الظاهر من ردود أفعال سلوكية، وهي لا تعطي سرها أبدا حتى لصاحبها إذا بدأ يتدبرها كموضوع، لأنها ليست موضوعا بل هي في جوهرها (ذات) بكر إذا حاولت أن تقتحمها بالنظرة الموضوعية استعصت عليك، وتفلتت منك بمجموعة من البدائل السلوكية الخادعة وتحولت إلى شيء آخر.. ولم تعد (هي)

و يظل دائما الفارق بين ما ترى منها في الظاهر وما خفي عليك من حقيقتها، كالفارق الهائل بين الجسد الظاهر والروح التي تسكنه.. وأنت لن تصل أبدا إلى كنه الروح بتشريح الجسد.. وإنما أنت على أحسن الفروض سوف تفهم الجسد أكثر فأكثر، ولكنك تظل دائما بعيدا كل البعد عن إدراك سر الروح ولغزها.. قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (85) ﴿الإسراء﴾

2 — الحركة

قام بعض المحبطين، وقال: لقد وعينا ما ذكرت .. ونعم ما ذكرت .. ولكننا نريد أن تبين لنا المفاتيح التي تفتح بها مغاليق الهمم من نفوسنا المكدرة بسموم اليأس.

سكت سهل، ثم قال¹: لا شك أنكم تعلمون أن النفس الإنسانية تمر بمجالات شديدة التباين خلال مسيرتها في الحياة.. فبينما تشرق أحياناً، ويملؤها الطموح، ويدفعها الأمل لتحقيق لمعجزات.. تدهمها أمواج اليأس — في أحيان أخرى — فتتهزم أمام المصائب والصعوبات والمخاوف..

ولا شك أنكم تعلمون أن من أخطر ما يهدد سلام النفس الإنسانية، ويقضي على مقدراتها استسلامها للإحباط والهزيمة الداخلية.. واستشعارها أن شيئاً مما فسد لا يمكن إصلاحه، وأن الأجدى — وقد انسكب اللبن — أن نعكف عليه باكين نادمين بدلاً من القيام والبحث عن حل.

ولا شك أنكم تعلمون أن الشعور بالإحباط والهزيمة النفسية يقضي على أي أمل للإصلاح .. فبدلاً من الكدّ في سبيل الخروج من الأزمة يكتفي المحبط بالعويل واعتبار نفسه شهيد المصيبة! ومن ثم يعزو كل فشل لاحق إلى مصيبتة التي وقع فيها — أو أوقع نفسه — ومن ثم تُسلمه كل مصيبة وهزيمة إلى أحتها أو أكبر منها!

قام الرجل، وقال: نحن لا نشك في كل ما ذكرت .. ولكننا نريد العلاج .. لقد شخصت الداء، ونحن نطالبك أن تفضل علينا بالعلاج.

قال سهل: ما دمتم قد سلمتم لكل ما ذكرت لكم .. فسأذكر لكم الآن سبعة مفاتيح تفتح بها المنافذ التي يسدها الشيطان في وجه الأمل ..

وسأستعير هذه المفاتيح من فيض النور الأزلي كلام رب العالمين الذي شرح الله به الصدور، ورفع به الهمم، وأحيا به الأمل.

وسأستعير في ذلك ما نزل من القرآن الكريم في غزوة من غزوات رسول الله ﷺ تسمى (غزوة أحد) أصاب المسلمين فيها بعض ما يمكن أن يسمى هزيمة².. وكان من الممكن أن يضع ذلك المسلمين في أجواء من الكآبة والحزن والإحباط .. ولكن الله تعالى برحمته أنقذهم من كل ذلك، لينهضوا في فترة قصيرة جداً لإكمال ما عهد إليهم من رسالة، غير متأثرين بأي ألم أو إحباط.

لقد نزلت آيات من القرآن الكريم تخاطب ذلك الجيل .. وتخاطب معه كل من وقع في بلاء أو مصيبة .. وكان من ذلك الخطاب هذه المفاتيح العشرة.

قالوا: فما المفتاح الأول؟

قال: هو ما يشير إليه قوله تعالى، وهو يخاطب عباده المنكسرين نفسياً من آثار تلك الغزوة.. ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: 139)

(¹) رجعنا في هذا المطلب لمقال مهم للدكتور راغب السرجاني بعنوان (المنهج الإسلامي في علاج الهزيمة النفسية) بتاريخ: 2006/10/04.

(²) ذكرنا في رسالة (النبي المعصوم) النواحي الإيجابية الكثيرة المرتبطة بما حصل في غزوة أحد.

قالوا: فما في هذا من مفاتيح الأمل؟

قال: إن ما ذكرته الآية الكريم هو المفتاح الأول .. وهو مفتاح يرفع الروح المعنوية للنفس بلفت نظرها إلى

الجوانب الإيجابية في الفرد والأمة..

لقد كان ذلك الخطاب خطاباً واقعياً، ولم يكن تحذيراً لنفوسهم أو تسكيناً مؤقتاً لآلامهم (تعالى الله عن ذلك)؛ فليس هناك شخص مركب من شر محض أو فشل محض أو ضعف محض.. إن بكل إنسان جوانب قوة وجوانب ضعف.. ولا بد من لفت نظر الإنسان المنكسر نفسياً إلى جوانب القوة الحقيقية فيه ليحسن توظيفها في التغلب على جوانب ضعفه..

يخاطب بهذا المعنى كل إنسان فقد مقوماً من مقومات نجاحه في الحياة.. كمن فقد مالا أو صحة أو حاسة.. بل حتى لمن فقد عزيزاً لديه كان يحسبه سنده الوحيد في الحياة ويرى الحياة صفراً بدونها..

ويخاطب أيضاً بهذا المعنى المجتمع المنكسر لضعفه وقوة عدوه أو غلبة العوائق على طريق تقدمه..

ولست في حاجة إلى التأكيد أن هذا العلاج لا يعني أن ينتشي المنكسر والمهزوم نفسياً، فيقعد عن علاج أزماته طالما أنه يجوز إيجابيات عديدة، وإلا لما شرط الله علو المؤمنين في الآية السابقة بالإيمان الذي يقتضي منطقياً العمل والبذل وعدم القعود دون المنازل العالية..

قالوا: عرفنا المفتاح الأول .. فما المفتاح الثاني؟

قال: هو ما يشير إليه قوله تعالى في هذه الغزوة: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّيِّبِ الْجَمْعَانِ فَيَاذَنْ لِلَّهِ وَلَيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ﴾ (آل عمران: 166 – 167)

قالوا: فما في هذا من مفاتيح الأمل؟

قال: إن هذه الآية الكريمة تذكر النفوس اليائسة بأن الأمل قد يحوي من الخير والنفع والأمل ما لا قد تظن النفس لرؤيته، فتتجنب بالألم عن الأمل.

لقد ذكر الله ذلك في مواضع من القرآن .. فالله تعالى يقول: ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ (البقرة: 216)، ويقول: ﴿ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: 19)

ففي هذه النصوص يلفت الله انتباه المؤمنين إلى أن أي مصيبة لا بد أن تنطوي على نقاط مضيئة وجوانب إيجابية.. وهكذا .. فقد ذكر الله تعالى من خلال سياق علاجه لمصيبة (أحد) الفوائد التي يمكن للمؤمنين أن يحصلوها من خلال ذلك الحدث المؤلم، ومن خلال الجراح والآلام التي أصابتهم..

لقد ظهر ذلك واضحاً في تلك الغزوة، حيث تميز الصادق من المنافق .. وتلك ثمرة إيجابية تفيد أي مجتمع يكافح من أجل البقاء والنهوض، ولولا المصيبة التي وقعت لبقى المنافق جرثومة مستترة جاهزة لفت سموها في جسد المجتمع في أي وقت..

وليس معنى هذا أن نسعى في طلب المصائب وتمنيها، بل نحن مأمورون بسؤال الله العافية.. إنما المقصود أن المصيبة أو الانكسار والألم كلها ليست نهاية الدنيا.. وليست شراً محضاً بل في باطنها — دوماً — خير كثير لا يراه إلا أهل التوفيق..

قالوا: عرفنا المفتاح الثاني .. فما المفتاح الثالث؟

قال: تعميق الإيمان بأن المصائب أمر مقدر.. كتب الله لكل مخلوق حظه منه من قبل أن يوجد.. نعم هناك أسباب مادية واقعية تقود إلى المصيبة، ولكن هذا لا ينفي ارتباط الأمر — من قبل ومن بعد — بقضاء الله وقدره.. وإنما يتحرك الإنسان سعيًا لجلب نفع أو دفع ضرر، لأن الله أمره بالأخذ بالأسباب وهو مأجور على العمل والسعي ما دام موافقًا للشرع.. كما أنه يتحرك لذلك وهو موقن أن الله قادر على تعطيل الأسباب وقادر كذلك على إنفاذها..

فإنسان وأهل الأرض جميعًا إن اجتمعوا على دفع مصيبة قدرها الله لن يستطيعوا مهمًا أو تواتوا من أسباب. بهذه الفلسفة لحركة القدر في الحياة يتحرك المؤمن إيجابيًا فاعلاً قويًا أمام المصائب.. سرية القدرة على القيام بعدها وعلاج آثارها..

وهو بذلك عصى على الهزيمة النفسية والانكسار تحت وطأة الحدث مهما كان مريعاً.. لا يعرف معنى للإحباط وتمنى المستحيل ولا تطول به الأيام والليالي في انتظار معجزة متوهمة تردّ عجلة الزمان إلى الوراء. وإلى هذا المعنى أشار النبي ﷺ في رسالته التربوية المعجزة التي وجهها لقلب المنكسر وعقله حين قال: (احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا.. ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان)¹

وما عمل الشيطان المقصود هنا سوى ذلك الإحباط الذي يسيطر على النفس أمام فرصة فائتة أو خطب نازل.. قالوا: عرفنا المفتاح الثالث.. فما المفتاح الرابع؟

قال: توجيه المؤمنين بعد مصيبة أحد إلى إمكانية استئناف المسير وفتح صفحات ناصعة إذا هم أحسنوا التوبة مما وقعوا فيه من أخطاء مهما كانت (وإن كانت ضخمة كالفرار من الزحف أو مخالفة أمر النبي ﷺ)

نعم.. قد يخطئ الإنسان أخطاء كبيرة أو صغيرة ولكن الحياة لن تنتهي عند حدود الأخطاء التي وقعت طالما أن باب الإصلاح والتوبة مفتوح.. المهم أن يسارع المخطئ إلى تدارك الأمر.. اسمع إلى قوله تعالى في هذا: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَعْفَرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَحَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (133) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (134) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (135) أُولَٰئِكَ جَزَاءُ هُمْ مَعْفَرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّتْ تَحْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنَعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (136)﴾ (آل عمران)

ثم بعد هذا يجد المتألم دواءً جديدًا في هدى رب العالمين إذ يعده — ولا أصدق من الله — بالقيام من جديد يغذيه بالأمل في نصر قادم إن أحسن الاستدراك لما فات..

في أوساط خطاب الله تعليقًا على أحداث أحد يقول الله لعباده المنكسرين نفسيًا: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ (آل عمران: 160)

إن فرص النجاح قائمة حتمًا لمن توكل على الله حق التوكل وأحكم الأخذ بالأسباب.. قالوا: عرفنا المفتاح الرابع.. فما المفتاح الخامس؟

(¹) رواه أحمد ومسلم وابن ماجه.

قال: هو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146) وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَنَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (147) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ ثَوَابَ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (148)﴾ (آل عمران)

قالوا: فما في هذه الآية من مفاتيح الأمل؟

قال: إن القرآن لكريم في هذه الآيات يسلك سبيلاً آخر حكيماً إلى النفوس المنكسرة يمسح عنها الأسى حين يلفت أنظارها دائماً إلى عبرة الماضي المتكررة وهي أن السقوط يعقبه قيام ونصر لمن سار على الدرب.

وهذا منهج قرآني تكرر في غير هذا الموضوع في مواجهة أزمات مرت بالمسلمين واقتربت بهم من دائرة الإحباط.. فتجد أن الله ينزل سورتين متواليتين في العام العاشر من البعثة في أواخر العهد المكّي حين ضاق الحال تماماً برسول الله ﷺ وأصحابه في مكة تكديماً وإيداءً وصدوداً عن لحق، فتنزل القرآن بسورة هود وما حوته من قصص لرسول سابقين وكيف صبروا وثبتوا حتى جاءهم نصر الله.. ثم يختتمها الله تعالى بقوله: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (120)﴾ (هود)

فتعرّف أخبار السابقين المشابهة يثبت القلب ويزيل اليأس ويلقي في روع المهوم أن ما أصابك من همّ لم يكن جديداً اختصت به دون غيرك، بل سبقك إلى ساحة الامتحان آخرون مثلك فنجحوا وعبروا الأحران..

كما تنزل بعدها سورة (يوسف).. وليس بخافٍ ما تحفل به من سلوى للمصابين وآمال لليبائسين من خلال العديد من المآزق التي تعرض لها يوسف عليه السلام فصبر وثبت حتى نجاه الله منها جميعاً.. إلى جانب الأزمة العنيفة المتصاعدة التي مرت بيعقوب عليه السلام والمتجسد في فقد أحد بنيه، ثم تزيّد بفقد التالي له في المنزلة بعد سنوات من الصبر..

إلا أنه — عليه السلام — لما وجّه بنية للبحث عن يوسف وأخيه ذبّل كلامه لهم قائلاً: ﴿وَلَا تَيْسَؤُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف: 87)

فتتجسد العبرة وينضح الدرس الذي من أجله يسوق الله هذا القصص كما قال عز وجل في نهاية نفس السورة: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لَأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (111)﴾ (يوسف)

قالوا: عرفنا المفتاح الخامس.. فما المفتاح السادس؟

قال: هو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ (آل عمران: 140)

قالوا: فما في هذا من العلاج؟

قال: في هذه الآية الكريمة يلفت القرآن أنظار المسلمين تعقياً على أحد إلى أن الألم الذي أصابهم قد أصاب عدوهم مثله، فلم يخرج عدوهم من المعركة (وإن بدا منتصراً) سالماً من الجراح والآلام.. وبذلك، فإن كفاح المؤمنين ضد عدوهم لم يذهب سدى، بل إن عدوهم قد أصابه ما أصابهم من أذى (قرح مثله).. وهي سنة ماضية في معركة الحق مع الباطل فصلها الله في موضع آخر من كتابه حين قال: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ (النساء: 104)

ولا ريب أن فرقاً كبيراً بين من هزم وهو يرى عدوه مكتمل الفوز والانتصار، ومن هزم وهو يشعر أنه هو أيضاً قد نجح في النيل من عدوه ولو بعض النيل.. شتان بين النفسيتين!!

قالوا: عرفنا المفتاح السادس.. فما **المفتاح السابع**؟

قال: هو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (آل عمران: 140)

قالوا: فما في هذا من مفاتيح الأمل؟

قال: كما يربي القرآن الكريم المنهزمين نفسياً على أن الجراح والآلام ليست حكراً عليهم دون أعدائهم يوجه أبصارهم نحو سنة كونية ثابتة متى استقرت في النفس المحططة عاودها الأمل من جديد.. تلك السنة هي المتمثلة في أن من شأن الأحوال أنها لا تثبت على هيئة واحدة، بل من شأن المقاعد أن يتبادلها الجالسون كل حين عليها، فلا المهزوم يظل مهزوماً، ولا المنتصر يظل منتصراً..

وكذلك الغني والفقر والصحيح والسقيم..

وإذا فهم الحبط ذلك أيقن بلا شك أن بالإمكان حتماً أن يتجاوز دائرة إحباطه التي تسيطر عليه لأن الأحوال حتماً تمضي إلى تبدل، وخير له أن يستثمر هذا التحول لصالح النهوض من كبوته..

قالوا: عرفنا المفتاح السابع.. فما **المفتاح الثامن**؟

قال: ما أشار إليه القرآن الكريم - تعقيباً على تلك الغزوة - من أن الإنسان يوم القيامة يحاسب على عمله الذي كسبته يده، ولا يحاسب على النتائج المترتبة على فعله هذا..

والإسلام يرسخ هذا المعنى في نفوس المؤمنين، لأن العامل قد يحسن العمل، ثم لا تأتي النتيجة على المستوى المطلوب فيحبط ويشعر بالفشل..

فلذلك يربط القرآن الجهود والخطط بما تستطيع النفوس تحقيقه، لا بما يتعلق بالغيب والقدر المحض..

ومن ثم يربط القرآن المؤمنين - في كفاحهم عبر الحياة - بثواب الآخرة المستقر اليقيني المترتب مباشرة على عملهم، فترى الله عز وجل يقول عن المؤمنين المجاهدين في سبيله: ﴿فَاتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ (آل عمران: 148).. فالثواب الحسن حقاً هو ثواب الآخرة.

أما الذين كفروا فحتى لو حققوا انتصاراً (أي: نتيجة حسنة) فيهم من الخاسرين في الآخرة (لسوء عملهم) يقول تعالى: ﴿لَا يُغْنِيكَ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (196) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ وَبَسَّ الْمِهَادُ (197)﴾ (آل عمران)، ويقول: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (176)﴾ (آل عمران)

قالوا: عرفنا المفتاح الثامن.. فما **المفتاح التاسع**؟

قال: ذلك ما أشار إليه القرآن الكريم من أن طول القعود عقب الهزيمة يوجب العقاب من رب العالمين.. وذلك حتى يعلم الإنسان أن واجبه عقب الانكسار أن يبادر بالنهوض وإصلاح ما فات، فالعمر ضيق لا مجال فيه لطول القعود بأساً وإحباطاً، والفرص المتاحة قد لا تظل متاحة إلى الأبد..

يقول تعالى في ذلك معالماً أشد ساعات الهزيمة النفسية لدى المؤمنين يوم أحد: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ

الشَّاكِرِينَ (144) ﴿آل عمران: 144﴾

لقد فقه هذا المعنى رجلان من الأنصار — قبل أن تنزل الآية الكريمة — فهذا أنس بن النضر يصيح بأولئك الذين أحبطوا وقعدوا عن القتال لما سمعوا بمقتل النبي ﷺ: (ما تصنعون بالحياة بعده؟! قوموا فموتوا على ما مات عليه) .. ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل..

أما الآخر فكان ثابت بن الدحاح .. فقد كان يصيح بأصحابه الأنصار يوم أحد بعد الانكسار والهزيمة: (إن كان محمد قد قتل فإن الله حتى لا يموت، فقاتلوا عن دينكم، فإن الله مظهركم وناصركم).. فربط السعي بالله الباقي.. ومن كانت هذه جهة سعيه فلن يبأس لأنها جهة مفتوحة على الدوام..

بهذا المنهج الإسلامي الفريد قاد النبي ﷺ أصحابه إلى الخروج من أزماهم كلها ومنها أزمة أحد.. فيها هو ﷺ بعد أحد بيوم واحد يتخذ القرار لمطاردة المشركين العائدين إلى مكة بما يشبه الانتصار.. وأصر ﷺ ألا يأخذ معه في هذا الخروج إلا من اشترك في أحد، وقال: (لا يخرج معنا إلا من شهد القتال)، برغم أن أولئك الذين شهدوا القتال بالأمس سيخرجون اليوم والجراح تملأ أحسادهم ونفوسهم جميعاً.. إلا أن رسول الله ﷺ أراد أن يداوي هذه النفوس الكسيرة بعمل من شأنه أن يرفع معنوياتهم ويرد إليهم هيبتهم ويضعف من حلاوة النصر لدى قريش إذا احتتم المشهد بمطاردتهم إلى مكة!!

وقد كان هذا القرار النبوي العظيم قراراً تربوياً من الدرجة الأولى..

فقد تعمد ﷺ أن يأخذ الذين شاركوا في (أحد) مع ما بهم من جراح وآلام ونفسية سيئة مهزومة، وإنما أراد رسول الله ﷺ ذلك ليقول لهم: إنه يثق بهم تماماً، ويقدر أفعالهم وكفاءتهم.. بل ويأمنهم وعقيدتهم.. وأن ما حدث في (أحد) لم يكن إلى حدثاً عابراً يندر تكراره، وأن الأمل فيهم كبير، والنصر لهم حليف إن شاء الله..

لقد كان هذا التكليف من رسول الله ﷺ بمثابة عودة لأجساد الصحابة وعزائمهم، فقاموا مسرعين مليونين برغم أزماهم الجسدية والنفسية، ويرغم أجزائهم لفقدهم سبعين من إخوانهم وأحبائهم.. لقد قاموا جميعاً ولم يتخلف واحد.. لقد نجح الجميع في الاختبار وقامت الأمة من كبوتها في أقل من أربع وعشرين ساعة!!

وخرج المسلمون للقتال في إصرار، وعسكروا في (حمرات الأسد) وهو مكان علي بعد ثمانية أميال من المدينة.. وكان جيش قريش معسكراً على بعد ستة وثلاثين ميلاً.. فلما سمعوا بمقدم المسلمين ترددوا في قتالهم وأرسلوا إليهم من يخوفهم من أعداد المشركين وقوتهم.. ولكن هذا التهديد الآن صادف نفوساً عادت إليها قوتها وعافيتها، فما تأثرت نفوس المؤمنين قيد أملة بل على العكس ازداد إصرارهم على القتال، وازدادوا رغبة في الخروج من الأزمة، وإعادة الكرة على الكافرين..

وإزاء هذا الإصرار من قبل المؤمنين فر المشركون وتجنّبوا القتال مع كثرة عددهم وقوة عدتهم.. وخرج المسلمون من أزمتهم بنجاح..

وهكذا يصنع الإصرار في نفوس أصحابه وفي نفوس خصومهم..

قالوا: عرفنا المفتاح التاسع .. فما المفتاح العاشر؟

قال: هو ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ (172)﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا

حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (173) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ أَرْضِهِمْ لَوْلَا أَنَّهُمْ كَفَرُوا فِي الْبُحْرِ لَمَسَّوْا فِيهَا عَذَابَ عَظِيمٍ (آل عمران)

قالوا: فما في هذا من مفاتيح الأمل؟

قال: في تلك الآيات الكريمة يمجّد الله أصحاب حمراء الأسد.. مع أنّهم هم أهل أحد الذين وقعوا في أخطاء الأوس، ولكنهم أحسنوا الخروج من آثار أخطائهم.. فاستحقوا ذلك التمجيد العظيم.. وبذلك يكون الأمل هو المفتاح الوحيد الذي يعالج الألم، ويكسر الإحباط، ويصحح المسير.

ما إن وصل سهل من حديثه إلى هذا الموضوع حتى قام جميع المرضى يهللون ويكبرون .. وقد عجبت إذ رأيت صاحبي (إيرنست جونز) يهلل ويكبر معهم .. ولم أملك - حينها - إلا أفعل ما يفعلون، وأصيح بما يصيحون. وقد تنزلت علي حينها أنوار جديدة اهتديت بها بعد ذلك إلى شمس محمد.

سادسا — الفقراء

في اليوم السادس .. سرت إلى جمعية خيرية أسسها صاحب لنا من المنصرين، كان اسمه (صمويل زويمر)¹ .. وهي جمعية تهتم بالفقر والفقراء .. وقد كان اهتمامها بهم ثقافيا يربو على اهتمامها بهم ماديا .. ولذلك جعلت شعارها (أطعم الفقراء فكرا قبل أن تطعمهم خبزا)

وقد صادف ذلك اليوم الذي سرت فيه إليها أن رأيت صاحب الجمعية زويمر بنفسه قد اجتمع لديه الفقراء، وهو يخاطب فيهم بلهجة ممثلة بالحماسة .. وكان مما سمعته منه قوله: اسمحوا لي حضرات الأصدقاء الأفاضل أن أتحدث إليكم كصديق كلاما كله في صالحكم .. أدعوكم من خلاله إلى إعادة النظر وتقليب الفكر في الحياة التي نحيوها، والتوجهات التي اخترتموها أو ورثتموها.. فعساكم تجدون في ذلك التأمل ما يدلکم على المخرج الذي يخرجكم مما تعاون منه من الفقر والحرمان.

ثم لا تنتظروا بعد مني أن أدلکم على أي حل .. لأن الحل بسيط جدا .. وستجدونه عندما تعرفون سبب المعاناة التي تعاونها .. فإنه إذا إدرك السبب شخص الداء.. وإذا شخص الداء عرف الدواء ..

ولتشخيص الداء تعالوا نبحت في خارطة العالم عن أكثر الشعوب فقرا.. ثم نبحت عن سر كونها أفقر من غيرها. لقد وضع علماء الاجتماع مقاييس كمية لمدى انتشار الحرمان في العالم باعتماد مؤشرات تقريبية معينة .. منها نقص التغذية في الفرد .. ومنها متوسط العمر المتوقع عند ولادته.. ومنها مدى انتشار الأمية، وغيرها.

هذا تصنيف علمي واقعي دقيق .. فالتغذية حاجة بدنية أساسية لازمة.. وأما متوسط عمر الفرد فيعكس مدى تأثير مختلف أنواع الحرمان.. وأضيف إلى هذين المقياسين البيولوجيين، عنصر الأمية كمؤشر للحرمان من التطور الاجتماعي.. وتعطي هذه المؤشرات الثلاثة، بنظر خبراء الأمم المتحدة، صورة موجزة وواضحة لمدى انتشار الفقر في مظاهره الشائعة.

وعلى هذا الأساس صنفت هيئة الأمم المتحدة عام 1971م دول العالم حسب المقاييس، في جدول مقسم إلى ثلاث فئات: دول متقدمة، ودول نامية فقيرة، ودول معدمة، وهي أكثر بلاد العالم فقراً وتخلفاً. أما الفئة الأولى — المتقدمة — فتشكل 25 بالمائة من سكان العالم وهي في 37 دولة تعدادها حوالي (1100) مليون نسمة.

(¹) أشير به إلى صموئيل زويمر (1867 - 1952م)، وهو أشهر منصر في هذا القرن، وهو مؤسس مجلة العالم الإسلامي الأمريكية، له كتاب بعنوان: (الإسلام تحكّد لعقيدة)

وقد ذكر عبد الله النل انتماءه لليهودية، فقال: (وأعجب العجب أن يعلم القارئ بأن صموئيل زويمر هذا، الذي كان يرأس مؤتمرات التبشير من أندرية في أقصى الغرب إلى لكتو في أقصى الشرق، والذي قاد معارك التبشير طوال ستين عاما انتهت بملاكمه سنة 1952، قد كشف عن يهوديته الدفينة الراسخة في أعماق نفسه، وذلك بأن طلب حاحاما يلقنه في ساعاته الأخيرة أثناء احتضاره .. وقد أحرني راهب من أصدقائي أيام معركة القدس، أن الكنيسة تحتفظ بهذا السر المذهل، ولا تبوح به، حتى لا تنكشف حيل اليهود الذين يتظاهرون باعتراف النصرانية، وحتى لا يظهر إخفاق جمعيات التبشير التي تبذل الملايين عبثا، وتخدع بمكر اليهود وخططهم الخبيثة لبث الفتن والبغضاء بين الإسلام والمسيحية) (انظر: جذور البلاء، عبد الله النل، ص 228)

والدول النامية تشكل، مع الدول المدممة 75 بالمائة من سكان العالم، ومجموع دولها — آنذاك — (89) دولة، أما سكانها فيبلغون (3000) مليون نسمة.

وحددت الجمعية العمومية للأمم المتحدة عام 1971م الدول المدممة — الأكثر تخلفاً — بـ 24 دولة ثم أضيفت إليها أربع دول أخرى عام 1975م، وزيدت ثلاث أخرى عام 1977م، وأخيراً رفعوها إلى ست وثلاثين دولة بعد إضافة خمس دول أخرى.. وقالوا: إن هذه الدول الأقل نمواً¹ (25) دولة منها في إفريقيا، و(8) في آسيا، و(2) في أوقيانوسيا وواحدة في أمريكا..

هذا ما ذكره .. أو بالأحرى هذا ما ذكرته الإحصائيات العلمية الدقيقة ..

أتدرون ما وجه العجب في هذا؟

سكت الحضور .. فأجاب نفسه يقول: إن وجه العجب هو أن أغلبية سكان هذه الدول (في آسيا وأفريقيا) ..

هم من المسلمين، وأربع دول منها أعضاء في جامعة الدول العربية !!

أتدرون سر ذلك؟

كان الجالسون أمامه .. والذين عضهم الفقر بنابه لا يكادون يدركون شيئاً مما قال، لقد كانت لهفتهم إلى الخبز أشد من لهفتهم للمعلومات والمعاني التي يريد أن يقنعهم بها.. فلذلك لم يجد (زويمر) إلا أن يجيب نفسه بقوله: سر ذلك يكمن في الإسلام ..

لقد اكتشفت من خلال دراسة موضوعية متأنية استغرقت مني عقوداً من عمري أن الإسلام هو الدين الوحيد من أديان العالم الذي شجع على الفقر، ودعا إليه، وطلب من الفقراء أن يظلوا على فقرهم .. بل توعدهم بأنهم لو فكروا في الخروج من فقرهم، فإنهم بذلك يجاربون إرادة الله في قسمته بين عباده.

لقد زرت .. بل عشت، أياماً وأشهرًا، في كثير من الحواضر الكبرى في ديار المسلمين..

لقد عشت في (لاغوس) في نيجيريا و(القاهرة) في مصر و(كراتشي) في باكستان، و (جاكرتا) في إندونيسيا و (داكا) في بنغلادش؛ ورأيت فيها جميعاً التناقض المخيف بين من يملكون الملايين ومن لا يملكون شروى نقر، بين البيوت الفخمة والشوارع العريضة وبين الأكواخ الخشبية والطرق الضيقة، بين الحدائق الغناء في الأحياء السكنية الراقية وبين أكوام القمامة والأوساخ وتجمعات المياه الراكدة والحفر والحشرات والفئران على حواشي الحواضر الكبرى هذه وفي أحيائها القديمة؛ بين نظافة الثياب الأنيقة للفتية في الأماكن الموسرة والأجسام الممتلئة بل وربما المترهلة شحماً ودهناً من التخمرة.. وبين الأسماك والحرق البالية على الأجساد الضعيفة الهزيلة المريضة الجائعة؛ بين الفنادق الفخمة — ذات النجوم الخمسة — وكثير منها للأجانب — وبين المقعدين المعوقين من الشحادين الفقراء صغاراً وكباراً .. على أبواب هذه الأبنية الرائعة².

(1) صنفت هكذا على أساس شروط ثلاثة قائمة فيها، هي أن إجمالي الدخل القومي للفرد كان أقل من (100) دولار أمريكي في العام .. وكان نصيب الصناعة من إجمالي الدخل القومي لا يتعدى 10 بالمائة.. وكانت نسبة الأمية فيها 80 بالمائة أو أكثر..

(2) انظر (الحرمان والتخلف في ديار المسلمين)، وهو الكتاب السابع في سلسلة (كتاب الأمة) التي تصدرها رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بقطر، وهو للدكتور نبيل صبحي الطويل.

اسمعوا لما يقول نبي المسلمين، وهو يشجع الفقراء على الرضوخ لفقيرهم والاستسلام له: (اطلعت في الجنة، فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار، فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء)¹
 وقال: (قمت على باب الجنة؛ فإذا عامة من دخلها المساكين، وإذا أصحاب الجحيم محبسون)²
 وقد قرأت في بعض الكتب هذا النص الذي نقلته لكم حرفياً لتدركوا السلبية التي يحملها الإسلام، والتي هي السر في كون المسلمين هم أفقر أمم العالم ..

قلب بعض الصفحات، ثم راح يقرأ³: (إن أختيار الصحابة كانوا للمسكنة محيين، ومن خوف الفقر آمنين، وباللّٰه في أرزاقهم واثقين، ومقادير الله مسرورين، وفي البلاء راضين، وفي الرخاء شاكرين، وفي الضراء صابرين، وفي السراء حامدين، وكانوا لله متواضعين، وعن حب العلو والتكاثر ورعين.. لم ينالوا من الدنيا إلا المباح لهم بالبلغة منها وزجوا الدنيا وصبروا على مكارهها وتجرعوا مرارتها وزهدوا في نعميها وزهرتها. فباللّٰه أكذلك أنت؟ ولقد بلغنا أنهم كانوا إذا أقبلت الدنيا عليهم حزنوا وقالوا: ذنب عجلت عقوبته من الله، وإذا رأوا الفقر مقبلاً قالوا: مرحباً بشعار الصالحين. وبلغنا أن بعضهم كان إذا أصبح وعند عياله شيء أصبح كئيباً حزيناً، وإذا لم يكن عندهم شيء أصبح فرحاً مسروراً، فقييل له: إن الناس إذا لم يكن عندهم شيء حزنوا، وإذا كان عندهم شيء فرحوا، وأنت لست كذلك! قال: إني إذا أصبحت وليس عند عيالي شيء فرحت إذ كان لي برسول الله ﷺ أسوة، وإذا كان عند عيالي شيء اغتممت إذ لم يكن لي بآل محمد أسوة. وبلغنا أنهم كانوا إذا سلك بهم سبيل الرخاء حزنوا وأشفقوا وقالوا: ما لنا وللدنيا وما يراد بها فكأنهم على جناح خوف، وإذا سلك بهم سبيل البلاء فرحوا واستبشروا وقالوا: الآن تعاهدنا ربنا. فهذه أحوال السلف ونعتهم)

قلب صفحات أخرى، ثم قال: ليس ذلك فقط .. اسمعوا ما يقول هنا ..

راح يقرأ: (لو كان في جمع المال فضل عظيم لوجب عليك في مكارم الأخلاق أن تتأسى بنبيك إذ هداك الله به، وترضى ما اختاره لنفسه من مجانبة الدنيا. ويحك! تدبر ما سمعت وكن على يقين أن السعادة والفوز في مجانبة الدنيا، فسر مع لواء المصطفى سابقاً إلى جنة المأوى. فإنه بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: (سادات المؤمنين في الجنة من إذا تغدى لم يجد عشاء، وإذا استقرض لم يجد قرضاً، وليس له فضل كسوة إلا ما يواريه، ولم يقدر على أن يكتسب ما يغييه، بمسي مع ذلك ويصبح راضياً عن ربه)، فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .. ألا يا أخي متى جمعت هذا المال بعد هذا البيان فإنك مبطل فيما ادعيت أنك للبر وللفضل تجمعه، لا! ولكنك خوفاً من الفقر تجمعه، وللنعم والزينة والتكاثر والفخر والعلو والرياء والسمعة والتعظيم والتكرمة تجمعه، ثم تزعم إنك لأعمال البر تجمع المال: راقب الله واستحي من دعواك أيها المغرور .. ويحك إن كنت مفتوناً بحب المال والدنيا فكن مقرأً أن الفضل والخير في الرضا بالبلغة ومجانبة الفضول، نعم وكن عن جمع المال مزريراً على نفسك

(1) رواه أحمد، قال المنذري والهيتمي: (وإسناده جيد)، ورواه ابن حبان في صحيحه.

(2) رواه البخاري ومسلم.

(3) هذا النص من الإحياء، وقد ذكر أنه نقله عن الحارث المحاسبي.

معتزلاً بإساءتك وجلا من الحساب، فذلك أنجي لك وأقرب إلى الفضل من طلب الحجج لجمع المال.. إخواني اعلّموا أن دهر الصحابة كان المال فيه موجوداً وكانوا مع ذلك من أروع الناس وأزهدهم في المباح لهم، ونحن في دهر الحلال فيه مفقوداً وكيف لنا من الحلال مبلغ القوت وستر العورة. فأما جمع المال في دهرنا فأعاذنا الله وإياكم منه)

بعد أن تحدث زويمر بما تحدث به مما ذكرت لك بعضاً منه، قام الوكيل بتوزيع الطعام على الفقراء، وقبل أن يوزعه عليهم خطب فيهم يقول: هلموا إلى الطعام الذي باركه المسيح .. وصنعت لكم يد هذه الحضارة .. فلا تنسوا أن تشكروهما.

ولا تنسوا أن تتأملوا المعاني العظيمة التي شرحها لكم حضرة الأب الفاضل .. أرجو أن لا تسيئوا فهمه .. فهو مع كونه رجلاً كبيراً من رجال المسيحية إلا أنه لم يتفوه بلفظة واحدة يدعوكم فيها للمسيحية .. ذلك أن الإيمان بالمسيح يطلب نفوساً في غاية السمو والقداسة والترفع .. ولذلك هو لم يطلب منكم أن تكونوا مسيحيين، بل طلب منكم فقط شيئاً واحداً هو أن لا تملوا بكل قلوبكم لذلك القاسي الغليظ الذي كان سبب فقركم وحرمانكم وألمكم.

وبعد ذلك ولوا وجوهكم أي وجهة شئتم¹ .. مما ذلكم عليها الدليل، أو هداكم إليها البرهان .. لا جناح عليكم أن تكونوا شيوعيين أو اشتراكيين .. فالشيوعية والاشتراكية لها موقف مشرف من الفقراء خير بكثير من موقف الإسلام .. بل لا وجه للمقارنة بينهما في ذلك. وإن شئتم أن تلتحقوا بركب المسيحية .. فذلك شيء عظيم .. وهو لا يدل إلا على أنكم قد وصلتكم إلى القمة

(¹) ذكر الكثير من الباحثين عن صموئيل زويمر قوله في هذا المعنى مخاطباً إخوانه من المبشرين: (لقد أدبتم الرسالة التي أنيطت بكم أحسن الأداء، ووقفتم لها أسمى التوفيق، وإن كان يجيل إلى أنه مع إتمامكم العمل على أكمل وجه، لم يفظن بعضكم إلى الغاية الأساسية منه، إن أقرمكم على أن الذين أدخلوا من المسلمين في حظيرة المسيحية لم يكونوا مسلمين حقيقيين، لقد كانوا، كما قلت، أحد ثلاثة؛ إما صغير لم يكن له من أهله من يعرفه ما هو الإسلام، وإما رجل مستخف بالأديان لا يبغى غير الحصول على قوته، وقد اشتد به الفقر، وعزت عليه لقمة العيش، وإما آخر يبغى الوصول إلى غاية من الغايات الشخصية.. ولكن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد الحمادية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية، فإن في هذا هداية لهم وتكريماً .. وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها .. ولذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية .. وهذا ما قمتم به خلال الأعوام المائة السالفة خير قيام .. وهذا ما أهنتكم وتمنتكم دول المسيحية والمسيحيون جميعاً) (انظر: جذور البلاء، عبد الله التل، ط2 بيروت: المكتب الإسلامي، 1408 هـ - 1988م، ص 275)

وينقلون عن البابا شنودة قوله: (أنه يجب مضاعفة الجهود التبشيرية الحالية، على أن الخطة التبشيرية التي وضعت بنيت على أساس أن الهدف الذي اتفق عليه التبشير في المرحلة القادمة هو التركيز إلى التبشير بين الفئات والجماعات أكثر من التبشير بين الأفراد، وذلك لزرحة أكبر عدد من المسلمين عن دينهم، أو التمسك به، على أن لا يكون من الضروري دخولهم في المسيحية .. ويكون التركيز في بعض الحالات على زعزعة الدين في نفوس المسلمين، وتشكيك الجموع الغفيرة في كتابهم، وفي صدق محمد .. وإذا نجحنا في تنفيذ هذا المخطط التبشيري في المرحلة القادمة فإننا نكون قد نجحنا في إزاحة هذه الفئات عن طريقنا. وحتى هذه الحالة إن لم تكن لنا فلن تكون علينا) (انظر: ما يجب أن يعرفه المسلم من حقائق عن النصرانية والتبشير، إبراهيم السلیمان الجبهان، ص 27)

السامقة من قمم الوعي والتفكير السليم.

بعد هذا .. لا أطلب منكم أنا إلا شيئا واحدا أرجو أن لا تخذلوني، فترفضوه.

قالوا: اطلب ما تشاء ..

قال: أنا لا أطلب منكم شيئا لنفسي .. بل أطلبه لكم .. أطلب منكم أن تحطموا ذلك الصنم الذي سكن

قلوبكم سنين طويلة.

قالوا: نحن نعبد الله .. ولا نعبد أي صنم.

قال: لا أقصد الله .. فالله يمكن أن تجدوه في كل الأديان .. ولكنني أقصد ذلك صنم ذلك القاسي الذي كان

سببا في فقركم وجوعكم وألمكم .. أتعرفون من هو؟

قالوا جميعا بصوت ممتلئ بالضعف: من؟

قال الوكيل: محمد .. لا شك أنه محمد .. أليس محمد هو الذي جاء بالإسلام؟ .. أليست تعاليم الإسلام هي التي

ملأت حياتكم بالفقر والحاجة والألم؟

هنا تغيرت وجوه الفقراء، ودبت فيهم قوة عجيبة جعلتهم يقومون ..

1 - الاستغناء

كان أول القائمين رجل كان يلبس ثيابا بسيطة بالية، وقد علمت بعد ذلك أن اسمه (ذو البجادين)¹، قام وقال: لقد تحدثت أنت وصاحبك كما يحلو لكما، والآن اتذنوا لنا أن نتحدث ..
نظر الوكيل إلى زويمر، فأشار إليه أن يأذن له في الحديث، فقال ذو البجادين: أنا لا أريد أن أئين لكم هنا سر ما حصل لبلاد المسلمين من الفقر والفاقة والجوع .. فلا شك أنكم تعلمون ذلك ..
لاشك أنكم تعرفون أولئك الجبابرة الطغاة اللصوص الذين استعمروا أرضنا، وهبوا ثرواتنا ..
لقد ذكر صاحبكم بعض الإحصاءات .. وبما أنه يؤمن بما تقوله الإحصاءات، فسأذكر له منها ما عساه يبين له سر ما تقع فيه بلاد الإسلام من الفقر والحرمان.
وبما أن صاحبكم قد قرأ لنا من كتاب كتبه بعض رجالنا، فسأقرأ لكم من كتاب كتبه بعض رجالكم .. ها هو الكتاب ..

أخرج كتابا من كيسه الذي كان يحمله، ثم قال: ها هو .. إن عنوانه هو (إفريقيا الإمبراطورية البريطانية الثالثة)² .. إنه يحاول أن يصف بعض ما صنع الإنجليز بالقارة الإفريقية .. لن أقرأ لكم كل ما ذكره الكاتب من جرائم المستعمرين .. ولذلك سأكتفي ببعض ما ذكر .. وسأبدأ منه بما ذكره عن جرائم البريطانيين تجاه أفارقة جنوب إفريقيا.
راح يقرأ: (يتكون اتحاد جنوب إفريقيا من أربع مقاطعات خاضعة لنظام الحكم الذي وضع في 31 مايو سنة 1915، والذي خول سلطة الحكم للبريطانيين والبيور، وقد منحت الحكومات البريطانية بعض الحقوق السياسية للإفريقيين والملونين، وكذلك حق الانتخاب .. غير أن الذين قيدوا في جداول الانتخاب 12.000 فقط من عدد

(1) أشير به إلى (عبد الله ذي البجادين)، قدم على النبي ﷺ، وكان اسمه عبد العزى فسماه رسول الله ﷺ عبد الله، ولقبه: (ذو البجادين)، لأنه لما أسلم عند قومه جردوه من كل ما عليه وألبسوه بجادا - وهو الكساء الغليظ الجافي - فهرب منهم إلى رسول الله ﷺ فلما كان قريبا منه شق بجاده باثنين، فاتزر بأحدهما، وارتنى بالأخر، ثم أتى رسول الله ﷺ، فقبل له : ذو البجادين . وقيل : إن أمه أعطته بجادا ففقطعت قطعتين فأتى فيهما رسول الله ﷺ .
صحب رسول الله ﷺ، وأقام معه، وكان أواما فاضلا كثيرا لتلاوة القرآن العزيز ..

حدث محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي قال : كان عبد الله - رجل من مزينة ذو البجادين - يتيما في حجر عمه، فكان يعطيه وكان محسنا إليه، فبلغ عمه أنه قد تابع دين محمد، فقال له : لئن فعلت وتابعت دين محمد لأنزعن منك كل شيء أعطيتك، قال : فإني مسلم . فزعه منه كل شيء أعطاه حتى جرده من ثوبه، فأتى أمه فقطعت بجادا لها باثنين فاتزر نصفا وارتنى نصفا، ثم أصبح، فصلى مع رسول الله ﷺ الصبح فلما صلى رسول الله ﷺ تصفح الناس ينظر من أتاه وكان يفعل ذلك، فرآه رسول الله ﷺ، فقال : (من أنت؟)، قال : أنا عبد العزى، فقال : (أنت عبد الله ذو البجادين فالزم بابي)، فلزم باب رسول الله ﷺ، وكان يرفع صوته بالقرآن والتسبيح والتكبير، فقال عمر : يا رسول الله أمراء هو؟ قال : (دعه عنك فإنه أحد الأواهين) وقد توفي في حياة رسول الله ﷺ .. فعن عبد الله بن مسعود قال : لكأني أرى رسول الله ﷺ في غزوة تبوك وهو في قبر عبد الله ذي البجادين وأبو بكر وعمر يدلبانه ورسول الله ﷺ يقول : أدنيا مني أحكاما، فأخذه من قبل القبلة حتى اسنده في لحده، ثم خرج رسول الله ﷺ، وولياهما العمل، فلما فرغا من دفنه استقبل القبلة رافعا يديه يقول : (اللهم إني أمسيت عنه راضيا فارض عنه) قال : يقول ابن مسعود : (فوالله لو ددت أبي مكانه ولقد أسلمت قبله بخمس عشرة سنة)

وقد روى من طريق آخر قال : فقال أبو بكر : (وددت أني - والله - صاحب القبر) (انظر: أسد الغابة، وغيره)
(2) هذه النقول من هذا الكتاب وغيره نقلناها من كتاب (الاستعمار أحقاد وأطماع) لـ محمد الغزالي.

الإفريقيين البالغ 1500.000.

وفي (ناتال) توجد حقوق انتخاب صورية للسود، لم يمارسها في الواقع سوى القليلين، هذا مع العلم بأن السكان الوطنيين يربون على تسعة ملايين نسمة..

ومنذ عام 1913 وأجود الأراضي يمتلكها الفلاحون الأوروپيون والشركات المتحدة، وتبلغ مساحة الأراضي التي يجويها اتحاد جنوب إفريقيا 462347 من الأميال المربعة، قد وزع حوالي 88 بالمائة منها بين ما يزيد على 2.000.000 أوروب، بينما هناك 2000، 000- إفريقي وآخرون من غير الأوروپيين يشغلون ما تبقى وقدره 12 بالمائة من المساحة الكلية للأرض.

والغريب أنه قبل انحلال النظام القبلي كانت الأرض ملكا لجميع الإفريقيين، فلم يكن هناك نظام الملكية الفردية، بل كان ينظر للأرض باعتبارها هبة الطبيعة للجميع، يقوم رئيس القبيلة بالنظر في جميع أمورها، وحل مشاكلها، ولم تكن الأرض تباع ولا تشتري...

وبصدور القانون الوطني للأراضي عام 1913، قضى قضاء تاما على نظام الحياة الاقتصادية الكريمة للإفريقيين، كما أصبحت السيطرة على الإفريقيين في يد وزير أجنبي يسمى وزير الأعمال الوطنية.. ولقد كان هذا القانون حجر الأساس للناحية الاقتصادية وعليه بنى نظام التقسيم في اتحاد جنوب إفريقيا.. ومنذ ذلك الحين والإفريقيون يضطرون للعمل بالقوة، في نظام من السخرة يوجب أن يقضى تسعة أعشار السود حياتهم في عمل جسماني، أو يدوي، يستغرق يومهم بأكمله.. ويلاحظ أن الكثير من الأراضي المحلية المخصصة للإفريقيين غير صالحة للزراعة أو الرى، ومع ذلك يحرم القانون عليهم امتلاك أراضي أخرى، كما يقضى بغرامة قدرها مائة جنيه أو السجن مدة ستة أشهر للأوروبي الذي يسمح لأى إفريقي يري قطيعه في أراضيها الخاصة به!!

وكان من نتائج هذا النظام الاقتصادى أن بلغ فقر الإفريقيين أشده، فشكلت حكومة برئاسة (وليم بيومنت) لبحث الحالة، وأوصت بتخصيص 8.000.000 فدان لصالح الملايين المشردة من الإفريقيين، ولكن هذه التوصية لم تنفذ، بل صدر قانون سنة 1932 واعتبر تاجير الإفريقي لأرض خارج نطاق المنطقة المخصصة لبنى جنسه جريمة يعاقب عليها بالجلد أو السجن.

والغرض من ذلك ألا تسنح الفرصة للإفريقي بتحسين حالته المادية.. وعلى العموم كانت القوانين تفرق دائما بين البيض والسود، وتعاقب من يخالفها بالسجن أو الغرامة. وترتب على ذلك الظلم وتلك المعاملة القاسية أن هرب الكثيرون من الإفريقيين إلى المدن، وتملك اليأس الآخرين، وهم حوالي 2.000.000 فعاشوا عبيدا للأرض التي حرمت عليهم القوانين امتلاكها.

ولابد لكل إفريقي يعمل بأرض أوروب أن يشتغل مدة 180 يوما في العام، يحددها السيد كما يشاء ليربطه بالأرض طوال العام.

ويفضل السيد أن يصطحب الأسود أفراد أسرته للعمل معه، وبعض هذه الأسر يتقاضى أجورا زهيدة جدا، أما الكثرة فلا تتقاضى شيئا.

وليس للإفريقي حق مغادرة الحقل الذى يعمل به، إلا بأمر سيده، ومن يهرب يقبض عليه، ثم يرد إلى سيده بعد توقيع العقوبة عليه إما جلدا وإما سجننا.

وفي حالة بيع الأرض تنتقل بما فيها من عمال إلى السيد الجديد، ومن هذا يتضح أن كل القوانين توضع لصالح الرجل الأبيض.

وفي حكومة (أورنج) الحرة، يعاقب العامل الذى يفسخ العقد مع سيده بجرمانه من محصول البقعة الخاصة به من الأرض..

وتدل الأبحاث والإحصاءات على أن الأمراض متفشية بين أغلب الوطنيين، وأن نسبة الوفيات مرتفعة جدا بينهم. وتفكير الوطنيين بدائى، ولا يوجد اتجاه نحو تعليم أطفالهم، بل إن بعض البيض يمنعون هؤلاء الأطفال من التعليم. وإذا كان هناك وجود للمدارس بالنسبة للسود، فإنهم سوف يعجزون عن شراء أتفه الضرورات لدخولها. والعجيب أنه يتحتم على جميع السود سداد المصروفات المدرسية إذا رغبوا فى التعلم، بينما يعفى منها جميع البيض. وحالة الفقر المدقع بالإضافة إلى ضرورة تسديد الضرائب المقررة تدفعهم إلى العمل لدى البريطانيين بأجور زهيدة لا يكاد يتصورها العقل.

فعلى كل إفريقيا من الذكور بين الثانية عشرة والخامسة والستين — سواء أكان يؤدى عملا أم لا عمل له — أن يدفع ضريبة الرأس، وقدرها (شلن)، وضريبة الكوخ، وقدرها (عشرة شلنات) سنويا..!

والصبية الذين يرعون الأغنام نظير أجور زهيدة قدرها خمسة شلنات شهريا، ويدل مظهرهم على أنهم قد بلغوا الثامنة عشرة، يتحتم عليهم دفع ضريبة الرأس، وهذا يكون 50 بالمائة من الضرائب، فى الوقت الذى يعفى فيه فقراء البيض من أية ضريبة مباشرة. وقبل الحرب الأخيرة كان الأوروبيون الذين يبلغ دخل الواحد منهم 500 جنيه أو أقل لا يدفع شيئا، كما أن الأوروبي لا يطالب بالضريبة قبل الحادية والعشرين من عمره.

وتستعمل عادة طرق وحشية فى جمع الضرائب، كأن تحاط مساكن السود بالجنود فى أوقات متأخرة من الليل، أو فى الصباح الباكر، ثم تطلب ايصالات السداد، فإذا لم تحضر فوراً ضربوا وركلوا، ثم قذفوا فى عربات البوليس حيث يودعون السجن، ويسخرون فى رصف الطرقات، وأداء الأعمال الأخرى.

ويتضح أن كثيرا من جرائم الإفريقيين ترتكب نتيجة للبطالة التى تواجههم عقب خروجهم من السجن، وشدة الحاجة للمال اللازم لقضاء ضرورات الحياة، كما أن الجهل عامل آخر للجرائم، ولكن الحكومة لا تحاول بناء مدارس لتحارب الجهل، بدلا من بناء السجن هؤلاء التعساء..!

وينص القانون على ألا ينتقل الإفريقي من بلدة إلى أخرى لأى سبب من الأسباب دون تصريح خاص. ويحتم نظام التفرقة فى جنوب إفريقيا: أن تحكم القلة من البيض الكثرة من السود.

وقد أدى ازدياد مساحة الأراضى الزراعية إلى زيادة الحاجة للأيدى العاملة من الإفريقيين، وترتب على هذا حدوث صدام بين ملاك الأراضى من ناحية، وأصحاب المناجم من ناحية أخرى، إذ كلاهما يريد احتكار السودان، ونتيجة لذلك وضع نظام خاص لتوزيع العمال حسب الحاجة كما يقررها السادة، أما الزائدون فيردون للعمل من حيث أتوا..!

لقد أدى التقدم الصناعى إلى القضاء على مجتمع (البانتو) القبلى ، وفى خلال السنين العشر الأخيرة كثرت هجرة الإفريقيين إلى المدن حتى أصبح من يقطنها منهم يزيدون على مليونين، وهم يقومون بخدمة الأوروبيين هماراً، ثم يعودون للجهات المخصصة لهم فى المساء، بوسائل النقل التى أعدت لهم وحدهم! فالقانون يحرم عليهم الوسائل الخاصة بالبيض.

كذلك تخصص للسود والكلاب مضاعف في العمارات الكبيرة. ويحرم القانون السود من الجلوس على مقاعد البيض بجوار البحيرة، ومن يخالف القانون يجلد أو يزوج في السجن. والأحياء الوطنية قدرة للغاية، والبيوت لا تتعدى أن تكون أكواخا من الطوب القديم، يعيش فيها الأصحاء من الصبية، يأكلون وينامون في نفس المكان مع المرضى بالسل. وقلما توجد أسرة لم يمرض أحد أفرادها منه!

والمرض عموما منتشر بين الوطنيين بنسبة كبيرة، والعلاج يكاد يكون منعما. ففي بعض الأحياء يوجد طبيب واحد لعلاج أربعين ألفا من السكان. ولا يوجد علاج بالحقن، لذلك نجد أن 65 بالمائة من الأطفال يموتون قبل أن يصلوا إلى سن الثانية من عمرهم، وتصل نسبة الوفيات عادة إلى 50 بالمائة. وتظهر التفرقة بين البيض والسود حتى في الموت، إذ يخصص للأخيرين مدافن بعيدة. إنه لمن العسير أن يتصور من لم ير بنفسه الحياة في جنوب إفريقيا ما يجرى هناك من عنف وتعسف في المعاملة. وحدث عن قسوة رجال البوليس وكتبهم للحريات، وكيف تنهب الأموال التي كسبت بعرق ودماء الملايين من السود، بدلا من استغلالها في تحسين حالهم.

وإذا جرؤ إفريقي على نقد هذا النظام، وقف عند حده، بالزج في السجن، أو النفي دون محاكمة. ويعمل بمناجم الذهب بالترنسفال ما يقرب من 400000 إفريقي و20000 أوروبي، ويعمل حوالي نصف الإفريقيين بالقوة، كما يرحد حوالي 63000 بالقوة أيضا إلى عدة جهات، مثل نيوزيلندا وروديسيا الشمالية، وتنجانيقا، كذلك يمكن إحصار 100.000 عامل سنويا من مقاطعة جنوب شرق إفريقيا البرتغالية. بموزمبيق للعمل بالمناجم. ويمكن القول بأن جميع هؤلاء العمال مسخرون، لأن ما يصرف من أحوار لهم ضئيل جدا، فبينما يتقاضى الأوروبي عشرين شلنا يوميا، يتقاضى الإفريقي 2.8 من الشلنات مضافا إليها الغذاء.

ويصل متوسط ما يتقاضاه الأوروبي خمسة وأربعين جنيها شهريا، أما السود فليس لهم متوسط يذكر. ومن العجيب أن أرباح شركات التعدين باهظة، وتزيد على خمسين مليونا من الجنيهات سنويا، حصة الحكومة منها 27.000.000 جنيه، ويوزع على أعضاء الشركة ما ينوف على 17000000 من الجنيهات.

ورغم أن هذه الثروة إنما يأتي بها العمال الإفريقيون، لم تزد أحوارهم منذ عام 1914 حتى اليوم. ولقد كان مستوى المعيشة في جنوب إفريقيا قبل الحرب العالمية الثانية أكثر جهات العالم ارتفاعا، وما زال كذلك حتى اليوم، ويضطر العامل الإفريقي إلى شراء ضروراته من الأسواق الأوروبية، ومع ذلك لا يتقاضى أحوارا أوروبية. وليس هناك قانون يمنع الإفريقيين من تكوين الجمعيات التجارية أو الصناعية، غير أنهم لا ينتفعون. تمثل هذه المشروعات أمام البيض الذين تعمل القوانين على حماية منتجاتهم وتجارتهم، وعلى دوام استيطانهم للبلاد التي غلبوا عليها..

وينشر البريطانيون نظمتهم في المقاطعات التابعة لهم في هذه الجهات بسرعة، حيث يحملون بتكوين حكومة (دومنيون) جديدة للبيض هناك، وتقع مسئولية الحكم حاليا بأيدي الموظفين الإنجليز، كما يرتبط الإفريقيون إلى حد كبير بروديسيا الجنوبية، ويخشون أن يتسع هذا الارتباط فيشمل تطبيق النظم المتبعة في الجنوب، وهم محقون في هذا، فلقد أصبح 20000 أوروبي يسيطرون فعلا على أحوار الأراضي في روديسيا الشمالية، بينما تسيطر الشركات الأجنبية على السكك الحديدية وطرق المواصلات الرئيسية وجميع منابع الثروة. ويعيش الملايين ونصف من السود في

المنطقة الموبوءة بذبذب (التسى تسى)، مما يضطر الأهالى إلى الهجرة بحثا عن العمل فى مناجم النحاس، بينما يرحل آخرون إلى روديسيا الجنوبية واتحاد جنوب إفريقيا للعمل لتسديد الضرائب، وتتبع فى (روديسيا) الشمالية نفس نظم التفرقة بين البيض والسود المتبعة فى روديسيا الجنوبية وجنوب إفريقيا.

إن استغلال الأراضى الإفريقية هو الدافع الأول للاستعمار الأوروبى، ولولا هذا الغرض لما تمكن البيض من استيطان هذه المناطق الحارة، مهما عظم الأمل فى كثرة الأرباح.

فمثلا فى روديسيا الشمالية يملك 20.000 من المستوطنين مساحة قدرها 2.000.000 فدان من الأراضى الزراعية يزرع منها فعلا 100.000 فدان فحسب.

وقد أخذ فى إعداد مليونين من الأفدنة للأعمال الخاصة بالمناجم، بينما تسيطر شركة اتحاد جنوب إفريقيا البريطانية وفروعها على ما يقرب من 6.250.000 فدان تحتوى على مراكز التعدين.

والنحاس هو الملك فى شمال روديسيا حيث يكون 90 بالمائة من صادرات المستعمرة، ويقدر الصادر منه فى النصف الأول من عام 1940 بما قيمته ستة ملايين من الجنيهات، وقد اكتشف النحاس عام 1925 فقط، ولكن إيراده خطأ خطوات واسعة. ففى عام 1935 قدر الصادر منه 5.000.000 جنيه زادت عام 1937 فبلغت 11.000.000 جنيه، ولقد بلغ الصادر منذ الحرب الأخيرة 300.000 طن فى العام، فلحقت بذلك الحمولات الكندية التى كانت أعلى حمولات العالم إلى مدى قريب.

والرصيد فى المقاطعة حوالى 750.000 طن، ويستخدم فى الصناعة عدد من الإفريقيين يتراوح بين 0 و 26.0 و 28.0 و من الأوروبين ما بين 3500 و 3800. وأغلب الأوروبين يأتون من جنوب إفريقيا وروديسيا، ويتقاضون مرتبات بين أربعين وسبعين جنيها شهريا.

بينما متوسط ما يتقاضاه الإفريقى من العمل مدة ثلاثين يوما ستين شلنا فقط، والكثيرون يتقاضون ما يزيد قليلا على تسعة وأربعين شلنا شهريا، إذ أن الأجور تزداد حسب نوع العمل: فوق الأرض أو تحتها.

ويصرف حوالى مليون جنيه سنويا للموظفين الأوروبين، بينما عشرة أضعافهم من الإفريقيين يتقاضون 250.000 جنيه فقط.

ويحتج الأوروبيون المستوطنون شمال روديسيا غالبا على شركة جنوب إفريقيا البريطانية التى تفرض سلطاتها على المناجم، فتصل أرباحها حوالى 500.000 جنيه سنويا وأكثر، وتتحكم فى 2.708 — أميال من السكك الحديدية — كما يخشون قوة الإنجليز الذين يعملون لصالح بلادهم، والذين قد يندمجون فى الشمال والجنوب، وتصبح أمور التعدين كلها فى أيديهم)

أغلق ذو البجادين الكتاب، ثم التفت إلى زويمر وصاحبه، وقال: هذا هو السبب الحقيقي والأكبر للفقر .. وأنتم ترون أنه لا علاقة للإسلام بذلك.

ضحك الوكيل بصوت عال، وقال: عجب لك فى استدلالك .. ما أغربه .. لقد ذكرت نموذجاً هو أبعد النماذج عما تريده .. فجنوب إفريقيا تملكها نحن، ولا يملكها الإسلام .. فكيف تستدل بها؟

ابتسم ذو البجادين، وقال: لا تزال فيكم روائح الاستعمار والعنصرية .. جنوب إفريقيا لأهل جنوب إفريقيا .. نحن فى الإسلام نعتقد أن كل من أحيا أرضاً مواتاً فهي له .. نحن لا نتعلق بالأرض .. ولا ننزع الأرض من أهلها ..

ولا ننسب الأرض لغير أهلها.

ولكن مع ذلك سأذكر لك نموذجا مما تريد .. سأذكر لك نموذجا يعتبره قومك، وكثير من قومي نموذجا للحضارة .. لاشك أنكم تعرفونه .. إنه نابليون ذلك المجرم المغرور الذي اجتهد الكل في تحسين صورته التي لا يمكن أن تتحسن .. لأن المستبد الظالم يبقى مستبدا ظلما، ولو غسل بجميع بحار الدنيا. وسأذكر لكم من خلاله نموذجا عن بلد من بلاد الإستعمال أعمل فيه هذا المجرم من السلب والنهب ما لا يزال أثره إلى اليوم ..

لقد ذكر المؤرخون النقاة¹ أنه عندما دخل نابليون بجنوده مدينة القاهرة اتخذ هو وقومه سياسة جديدة اجتهدوا أن يكفكفوا فيها لصوصيتهم المأثورة، وأن يلبسوا زيا يخدعون فيه الناس عن حقيقتهم، فادعى نابليون الإسلام، ثم زعم أنه هو وجيشه ما جاءوا إلا ليردوا للشعب حقوقه التي غصبها المماليك، فماذا كان من أمرهم؟ كان من أمرهم أن قاموا من كبيرهم إلى صغيرهم، بأخس أعمال اللصوص.. ابتداء من نابليون إلى أحقر جندي. إنهم لم يستطيعوا أن يتخلوا عن طباعهم مهما حاولوا.. لقد وجدوا أمامهم قصور المماليك والأغنياء بعد أن تركها أصحابها وفروا هارين بأنفسهم، وكانت تلك القصور تحوى الأموال الطائلة، والجواهر الثمينة، والتحف النادرة، والمصوغات الغالية، والأمتعة النفيسة، ومختلف أنواع الفرش والأثاث والأواني، عدا السيوف والدروع وأدوات الحرب. فماذا فعل الشرفاء، الذين جاءوا ليردوا إلى الشعب حقوقه المغصوبة؟

كان من أمرهم أن انطلق الجميع إلى هذه القصور بحجة البحث عن السلاح فنهبوا، وأخذوا ما فيها من الأموال والجواهر، والمصوغات والنفائس الغالية، بل إنهم فعلوا أكثر من ذلك، فقد كانوا يدخلون البيوت المسكونة بأفراد الشعب الذين لم يهاجروا، بحجة البحث عن السلاح أيضا، فيسرقون كل ما يجدون عند هؤلاء المساكين من مال قليل، أو مصوغات متواضعة.

و لم تقف ندالة هؤلاء الحقرء عند هذا الحد، فإنهم قد علموا أن بعض زوجات الأمراء، ونساء كبار المماليك، لم يستطعن الهرب مع أزواجهن، فاضطرن إلى الاستخفاء في أماكن مجهولة خوفا على حياتهن.. فأمر نابليون الهمام أن ينادى بالأمان لهؤلاء النساء الضعيفات، ولكن عليهن أن يدفنن ثمن هذا الأمان.. على كل منهن أن تصالح على نفسها بمبلغ من المال، لكي تعود إلى قصرها أو بيتها.

و لم ير الناس في تاريخ الهمج أو اللصوص ندالة مثل هذه الندالة!..

وأخذ النساء يظهرن، ويصالحن على أنفسهن بأموال طائلة... ولكن هل وقفت الخسة مع النساء عند هذا الحد؟ ذكر الجبرتي أن زوجة رضوان بك- أحد كبار المماليك- ظهرت من مكائها الذي كانت تختبئ فيه .. وصالحت على نفسها وبيتها بثلاثمائة ألف ريال فرنسي، وأخذت منهم ورقة بهذا الأمان.. ولم تكف بذلك، بل ألصقتها على باب بيتها، ليعرف الجنود الشرفاء أنها دفعت الضريبة فيكفوا عنها.. ولكن ذلك لم يفدها بشيء.. فبينما هي في منزلها آمنة مطمئنة، فاجأها جماعة من العسكر ومعهم ترجمان لها؛ لقد بلغنا أن عندك أسلحة، ونريد

(¹) المعلومات التي نذكرها هنا نقلناها من كتاب (الاستعمار أحقاد وأطماع) لشيخنا محمد الغزالي، وهو بدوره نقل أكثره من مؤرخ مصر الكبير (الجبرتي)

البحث عنها.. فأحبرهم أنه ليس عندها سلاح.. فقالوا: لا بد من التفتيش.. ففتشوا، ووجدوا ملابس ثمينة جدا لزوجها وأمتعة غالية.. قال الجبرتي: (ثم نزلوا إلى تحت السلام، وحفروا الأرض، وأخرجوا منها دراهم كثيرة، وحجاب ذهب في داخله دنانير).. وكان هذا كله هو المطلوب، فأخذَه لصووص الاحتلال وأخذوا معهم السيدة المسكينة وانصرفوا، وهم يسخرون بورقة الأمان التي علقتها على باب بيتها.. ومكنت عندهم في الاعتقال هي وجواربها ثلاثة أيام، ولم تعد إلا بعد أن اشترت لنفسها منهم أمانا جديدا بالمال.

وذكر الجبرتي أيضا أن (الست نفيسة) زوجة مراد بك، ظهرت وصدقتهم، وصالحت على نفسها وأتباعها بمبلغ قدره عشرون ومائة ألف ريال فرنسي، ومضت إلى بيتها مطمئنة إلى الأمان الذي أمضاه لها نابليون قائد القوات الفاتحة.. وما لها لا تطمئن وهي زوجة الفارس القائد الذي كان يقود جيوش مصر في وجه نابليون.. الفارس القائد الذي عرفت عنه أن من تقاليد الفروسية احترام النساء.. نعم ذهبت مطمئنة، وهي تعلم أن تقاليد الفروسية تأتي على أربابها الأمان للنساء بالمال... وأن ذلك القائد الفرنسي النذل إذا رضى لنفسه أن يبيع الأمان للنساء فقد يكون له بقية من شرف الجندي تأتي عليه أن يعود فيه مرة أخرى.

ذهبت إلى بيتها وهي مطمئنة على نفسها من أجل هذه المعاني كلها، ولكن هل كان هؤلاء الأندال عند ظن النساء بهم؟ لقد أرسلوا إليها يطلبون منها إحضار زوجة عثمان بك الطبرجي.. ويتهمونها أنها تخفيها في منزلها، أو في مكان ما.. وهكذا انقلبت مهمة جنود الجمهورية الفرنسية لا إلى البحث عن جنود المقاومة السرية، أو البحث عن القواد الختفين، بل إلى البحث عن النساء، لكي يرغموهن على شراء الأمان لأنفسهن بالمال.. فهل وجد إنسان أحط من هذه المروءة؟! وذعرت السيدة الفاضلة من هذا الطلب، وقررت أنها لا تعرف مكان السيدة المطلوبة.. ولكنهم رفضوا تصديقها، وأبوا ألا أن يفتشوا البيت، بحثا عن المال تحت ستار البحث عن السيدة..

فأرسلت فوراً تستنجد بشيوخ الأزهر، فحضر لها بعض الشيوخ على عجل.. ولم يتمكن الجنود للصووص - أمام الشيوخ - أن ينهبوا شيئاً مما وجدوه في القصر، ولم يجدوا السيدة المزعومة، فأعتاظوا وقرروا أن يعتقلوا صاحبة القصر التي صالحت على أمانها بالمال من قبل.. فحاول الشيوخ أن يمنعوا هذا الاعتقال، فأبوا وأصرروا على أخذها.. وهنا لم يجد الشيوخ الفضلاء بدا من مرافقة السيدة الكريمة إلى معتقلها، وهم مذهولون من أن يروا النساء يعتقلن لأول مرة في تاريخ مصر بدون سبب وعلى هذه الصورة المهينة..

ونظر القائمقام (دبوي) قصتها، فلم يثبت عليها شيء مما اتهمت به.. فطلب الشيوخ إطلاق سراحها، ولكن القائمقام رفض أن يفرج عنها ولفق لها تهمة جديدة، هي أنها أرسلت أحد الخدم إلى زوجها بملابس وأمتعة، ووعدته إذا نجح في الوصول إليه أن تكافئه مكافأة حسنة، ولكن الجنود قبضوا على الخادم قبل أن يؤدي مهمته، واعترف لهم بكل شيء.. فأنكرت السيدة ذلك الاتهام الجديد بشدة، وطلبت مواجهتها بهذا الخادم، فوعدها بذلك.. ومضت الساعات وانتهى النهار، ولم يحضر الخادم المزعوم.. وهنا طلب المشايخ إطلاق سراحها.. ولكن القائمقام (دبوي) رفض ذلك بشدة، وعاد المشايخ إلى طلب الإفراج، على أن تحضر إليهم في اليوم التالي، وضمنوا له ذلك.. ولكن القائد الشهم رفض رجاءهم مرة أخرى.

وعز على المشايخ أن تمان سيدات مصر هذه الإهانة البالغة، فعرضوا على القائد أن تذهب هي لتبيت في بيتها ويبيتوا هم عنده عوضاً عنها، وضماناً لها.. ولكن الضابط الذي يمثل شهامة الفرنسيين، رفض أن يقبل هذا العرض

النبيل.. وظل المشايخ يعالجون الأمر معه بكل وسيلة، ولكن نذالته أبت عليه أن يستجيب لأى مكرمة.. فلما يتسوا منه تركوها ومضوا وأرسلوا إليها بعض كرائم السيدات المسلمات ليقضين الليل معها.. وسمع نساء الفرنج المقيمت بمصر هذا التصرف الدنيء، فذهب بعضهن وانضممن مع النساء المسلمات فى المبيت مع السيدة الكبيرة فى معتقلها.. ولما أصبح الصباح ذهب كبار المشايخ إلى نابليون بونابرت نفسه، وكلموه فى الإفراج عن السيدة التى باع لها الأمان بالمال من قبل.. فرضى قائد فرنسا العظيم أن يطلق سراحها، ولكن بعد أن يبيع لها الأمان مرة أخرى بالمال.. وحدد بنفسه المبلغ: ثلاثة آلاف ريال، فدفعتها السيدة وانصرفت..

قال الجبترتى: (وذهبت إلى بيت لها مجاور لبيت القاضى، وأقامت فيه، لتكون فى حمايته) التفت ذو الجحادين إلى زويمر ووكيله، وقال: لا شك أنكم فى دهشة مما تسمعون.. لقد اعتدتم أن تصوروا نابليون فى هالة من المجد والعظمة المزورة..

لا شك أنكم فى دهشة بالغة.. لا تكادون تصدقون معها أن هذا الرجل الذى يجعله الفرنسيون مصدر فخرهم، وعنوان مجدهم، ينحط فى إنسانيته ومروءته إلى هذا الدرك المعيب.. ولكن - مع الأسف الشديد - هذا هو الواقع المر الذى نجده فى مذكرات الجبترتى التى كان يكتبها يوماً بيوم يسجل فيها ما رأى من حوادث تلك الأيام، وهو عالم ثقة، ومؤرخ صادق... ولا ندرى لماذا اجتنب المؤرخون أن يقولوا للناس ما ذكره هذا المؤرخ فى مذكراته اليومية عن هذا الرجل وجنوده من صور عجيبة.. نعم صور عجيبة لم يقف فيها العجب عند بيع الأمان للنساء مرة ومرة، بل تعدى ذلك إلى بيع الأمان للخيول والثيران..

فهذا المحارب العجيب، يطلب إلى الناس أن يقدموا له كل ما يملكون من خيل وجمال، وأبقار وثيران.. ومن عز عليه أن يقدم ذلك، فعليه أن يشتري الأمان لماشيته، أى أن يصالح عنها بالمال، وفى ذلك يقول الجبترتى بالحرف الواحد: (وفى يوم الأحد طلبوا الخيول والجمال، والسلاح، فكان شيئاً كثيراً.. وكذلك الأبقار والأثوار فحصل فيها أيضاً مصالحات.. وأشاعوا التفتيش على ذلك وكسروا عدة دكاكين بجهة سوق السلاح وغيرها، وأخذوا ما وجدوه فيها.. وفى كل يوم ينقلون على الجمال والحميز من الأمتعة والفرش والصناديق ما لا يحصى) سكت قليلاً، ثم قال: لم يقنع نابليون ورجاله بالأموال الطائلة التى تمبوها من بيوت الأمراء، وغصبوها من ضعاف النساء، ولا بما فرضوه للمصالحة على الخيول والثيران، بل لجأوا إلى امتصاص دماء الأهالى بأسلوب يدعو إلى السخرية والمهانة..

كان نابليون قد ألف مجلساً من الأهالى والشيوخ ليحكم به البلاد، يسمى الديوان.. فدعا أعضاء الديوان يوماً، وطلب منهم أن يجمعوا له خمسمائة ألف ريال (سلفة) من التجار..

وهذه السلفة على هذا النحو تبين لك أن القوم وعلى رأسهم نابليون، لم يكن لهم أقل إحساس بالكرامة، فراحوا يستجدون الناس، أو يتسولون باسم (السلفة).. وليت هؤلاء المتسولين كانوا مهذبين فى طلبهم، بل كانوا فى منتهى الصفاقة وقلة الحياء، فإن التجار حين ضجوا منها، فرضوها عليهم بقوة الحديد والنار.. فطسولوا وتضرعوا لكى يخففوا عنهم (سلفتهم) المشؤومة، فرفض المتسولون وأبوا إلا أن يأخذوا (السلفة) كاملة غير منقوصة.. ولكن هل وقف أمر السلفة عند هذا الحد؟ لا، فإنهم بعد ما قبضوها لم يلبثوا أن طلبوا سلفة جديدة..

طلبوها بعد الأولى بيومين اثنين فقط، مما لم يسمع بمثله في التاريخ، فقد كانت الأولى يوم سبت، قال الجبرتي: (وفي يوم الثلاثاء طلبوا أهل الحرف من التجار بالأسواق، وقرروا عليهم دراهم على سبيل السلفة.. مبلغا يعجزون عنه.. وحددوا لهم وقتا مقداره ستون يوما يدفعونه فيه، فضجوا واستغاثوا، وذهبوا إلى الجامع الأزهر، والمشهد الحسيني، وتشفعوا بالمشايخ، فتكلم المشايخ لهم، ولطفوا السلفة إلى نصف المطلوب) واستمر الفرنسيون على هذه (البلطجة) يأخذون المال من الناس جبرا باسم السلفة تارة.. وغصبا وسلبا تارة أخرى.. وكانت جنودهم قد تفرقت في قرى الريف ومدن الأقاليم فكانوا يصنعون مع أهل القرى ما يصنعه زملاؤهم مع أهل القاهرة، من أخذ المال بأساليب (البلطجية) الذين يعيشون (تلقيحة) على عباد الله، يغتصبون أموالهم بكل وسيلة من وسائل القوة والتهديد..

ويطول بنا القول إذا رحنا نسرد كل ما كان منهم، فنكتفى بذكر حادث واحد هو صورة مكررة لما كان يحدث في ذلك الوقت.. نزلوا بجهة الخانكة وأبي زعبل بعساكرهم وضباطهم، قال الجبرتي: (وطلبوا من الأهالي (كلفة) فامتنعوا.. والكلفة هي الاسم الذي تستروا به للغصب والنهب في الريف كما تستر زملاؤهم بمهزلة (السلفة) في القاهرة. ورفض الأهالي هذه (التلقيحة)، وسخروا من هذه (الكلفة)، وأبوا أن يدفعوا شيئا لهؤلاء البلطجية.. فما كان من اللصوص الأخساء- ضباطهم وجنودهم- إلا أن أعلنوا القتال على القرية الآمنة، وسلطوا عليها مدافعهم، وأنزلوا بها الخراب والدمار، وأشعلوا فيها الحرائق ونهبوا ما استطاعوا منها، وارتحلوا..

ولم يقف جشع هؤلاء في سلب المال عند حد، ففكر نابليون في مصادرة أملاك الناس، وابتزاز أموالهم، ولكن باسم القانون، وتحت ستار النظام.. لم يكن للدولة في ذلك العهد البيعة دواوين، ولا سجلات تضبط للناس ما يملكون من البيوت والأراضي.. وما وجد من تلك السجلات كان على حال غير منظمة، علاوة على أن الأهالي لم يكونوا يهتمون في تلك الأيام البيعة بتسجيل ما يملكون في تلك السجلات.. وانهز نابليون تلك الفرصة، وأصدر قانونا للغصب والنهب، نكتفى بذكر مضمونه دون التعليق عليه:

أولا: على أصحاب الأملاك أن يقدموا حججهم التي تثبت ملكيتهم لما يضعون عليه أيديهم.. فإذا لم يستطع المالك أن يقدم تلك الحجج، صودرت أملاكه فورا.

وإذا علمنا أن الأهالي في الأزمنة البيعة ما كانوا يهتمون بحفظ تلك الحجج لديهم، أدر كنا مبلغ ما صادر نابليون من أملاك الناس وأراضيهم..

ثانيا: إذا قدم المالك ما لديه من الحجج لا يكتفون بها، بل يؤمر بالكشف عليها في السجلات نظير ضريبة يدفعها.. فإذا دفع الضريبة، ولم توجد الأملاك مقيدة بالسجلات صودرت أملاكه فورا.

ثالثا: إذا وجدت الأملاك مقيدة في السجلات، لا يكتفون بذلك، بل يطلبون إليه أن يحضر الشهود الذين يشهدون بأن المالك يملك هذه الأملاك بطريق البيع أو الميراث، ويلزمونه دفع ضريبة لسماع هؤلاء الشهود.. فإذا لم يستطع المالك إحضار الشهود لوفاتهم أو لوجودهم في أقطار بعيدة، صودرت أملاكه فورا.

رابعا: إذا حضر الشهود، كانت شهادتهم ترد في الغالب وتصادر الأملاك!

هذا قانون من القوانين فقط.. والقوانين كثيرة.. اسمعوا ما يقول هذا القانون:

أولا: إذا مات شخص ما، وجب على أهله أن يدفعوا على موته ضريبة..

سأورد لك نص ما قاله الحبرتي في ذلك فإنه أمر لا يكاد يصدق: (إذا مات الميت يشاورون عليه (أى يخبرون عنه) ويدفعون (معلوماً) لذلك)

ثانياً: تفتح تركة الميت في ظرف أربع وعشرين ساعة، فإذا مضت تلك المدة ولم تفتح التركة صودرت فوراً .. ولا حق للورثة فيها.

وإذا علمت أن تقاليد بلادنا الشرقية كانت تنشب بإقامة المآتم في تلك الأيام البعيدة لمدة سبعة أيام أو ثلاثة على الأقل، وأنه كان لهؤلاء الأجداد من الأنفة ما يصرفهم عن تعجل النظر في تركة المتوفى..

إذا علمت ذلك أدركت مبلغ التركات التي صادرها هؤلاء بقوانينهم المهمة.

ثالثاً: إذا فتحت التركة في الموعد المقرر، يجب أن يكون فتحها بإذن رسمي، ويدفع على ذلك الإذن ضريبة مقررة.

رابعاً: على كل وارث للتركة أن يثبت وراثته، وأن يدفع على ذلك الثبوت ضريبة..

خامساً: إذا قبض كل وارث ما يخصه، يجب أن يدفع عنه ضريبة مقررة.

سادساً: إذا كان الميت مديناً، وجب على الدائن أن يثبت دينه، وأن يدفع على هذا الإثبات ضريبة، ويأخذ ورقة يتسلم بها الدين.. فإذا تسلم الدين دفع عليه ضريبة أخرى.

وكذلك قرروا ضريبة على من يريد أن يسافر من مكان إلى آخر، لا أجراً للركوب، فإن المسكين كان يسافر

على دابته أو جملة أو على سفينة من سفن النيل، بل يدفع تلك الضريبة مقابل الإذن له بالسفر.

وكما فرضوا على الموت ضريبة فرضوا للحياة ضريبة أخرى، فعلى كل من يولد له ولد أن يدفع عليه مبلغاً

معلوماً.

ويطول بنا القول إذا رحنا نستقصى الوسائل التي ابتدعوها لاستنزاف أموال الشعب، ويكفى أن نعلم أنهم كانوا

يفرضون الضرائب على المبيعات، والدعاوى، والمنازعات، والمشاجرات، والشهادات، والمؤجرات وقبض أجر

الأملأك، وغير ذلك مما يطول استقصاؤه.. فلندع هذا الاستقصاء، فإن ما ذكرناه كاف للدلالة على أن ما ارتكبه

اليوم في بورسعيد من السلب والنهب إنها هو امتداد لما ارتكبه من قبل في القاهرة منذ مائة وستين عاماً، وهو في

الحالين وحى خصوصية النذالة فيهم، وتوجيه دواعي الطبع الخسيس..

لا أدري لماذا لم تنشر هذه الصحائف السود عند دراسة الحملة الفرنسية على مصر؟ إن المعلومات التي تحشى بها

أذهان التلامذة تغاير هذه الحقائق المخزية! حتى ليظن الظان أن غزو فرنسا لمصر كان بركة علمية وشعلة ثقافية! ولا

شك أن ذلك التاريخ المزور هو أثر الاحتلال البريطاني في صياغة العقول الجديدة وتكوين أفكار معينة بها والظالمون

بعضهم لبعض ظهير..

سكت قليلاً، ثم قال: إن ما ذكرته لكم هو قليل من كثير من فظائع الفرنسيين بمصر يوم احتلوها حتى تم

جلاؤهم عنها بعد مقاومة شعبية عامة.. وقد تناول مؤرخون آخرون هذا الموضوع كاشفين جوانب مما استخفى من

هذه المآسي.. قال بعضهم، وهو ساطع الحصري: (أخذت قيادة الحملة تفرض على الأهالي - على الدوام - أنواعاً شتى

من الضرائب والقروض والغرامات، وصارت تكثر من مصادرة الأموال والذخائر ومن تسخير الدواب والجمال، ومن

إرهاق كواهل الناس بسلسلة طويلة من التكاليف. وكان قواد الحملة يقدمون - من وقت إلى آخر - على هدم عدد

كبير من المباني - بين دور وحوانيت ومساجد ومدارس وقصور، لغايات عسكرية بحتة لأهم كانوا يجدون ذلك

ضروريا، تارة لتسهيل المراقبة على الأهالي مع منعهم من التترس والتحصن في الأزقة، وطورا لحفر الخنادق، وتشديد القلاع، وتعبئة المدافع. كما أنهم كانوا لا ينقطعون عن قطع الأشجار وتخريب البساتين لتسهيل أعمال الضبط والمراقبة من جهة، والحصول على الأحطاب الضرورية؛ لصنع المراكب وتشديد الحصون وتقوية الخنادق من جهة أخرى. ويجد الباحث في اليوميات التي كتبها الجبرتي من تلك الحقبة من الزمن كثيرا من الصحائف التي تصف هذه التخريبات، وتذكر أسماء أهم القصور والمساجد والمدارس والحارات التي ذهبت ضحية لأمثال هذه الأعمال والتدابير العسكرية.

غير أن تخريبات الجيش الفرنسي في مصر لم تقتصر على الأموال والأشجار والمباني وحدها، بل تعدت كل ذلك إلى النفوس أيضا، فإن قواد الحملة عندما لاحظوا عدم انخداع الناس بالدعايات الساذجة التي كانوا قاموا بها تحت ستار الدين، أخذوا يسلكون مسالك القسوة والاعتساف، وصاروا يكترون من أخذ الرهائن واعتقال الناس، وأقدموا على إعدام الكثيرين منهم لأتفه الأسباب، عقابا لهم أو تخويفا لأمثالهم، وقاموا غير مرة بأعمال تعذيبية وإرهابية فظيعة، لا تختلف كثيرا عن همجية القرون الأولى.

وقد قابل الفرنسيون الثورات التي قامت في البلاد على حكمهم الجائر بمتنهي الصرامة والوحشية: أنهم صوبوا نيران مدافعهم على مختلف أحياء المدينة، وأزهقوا أرواح الآلاف من الأشخاص، وسببوا حرائق كثيرة، واسترسلوا في التعذيب والتخريب والسلب والنهب بشتى الصور والأساليب.

يقول الجبرتي عن أحوال البلد عند بدء الاحتلال الفرنسي: (إنها كانت في غاية الشناعة. جرى فيها ما لم يتفق مثله في مصر، ولا سمعنا ما شابهه بعضه في تواريخ المتقدمين)

كما أنه يصف الفظائع التي ارتكبتها الفرنسيون - من قتل ونهب وسلب عند ثورة القاهرة الثانية بقوله: (فعلوا بالأهالي ما يشيب من هول النواصي، وصارت القتل مطروحة في الطرقات والأزقة، واحترقت الأبنية والدور والقصور. ثم إنهم استولوا على الخانات والوكائل والحواصل والودائع والبضائع، وملكوا الدور وما بها من الأمتعة والأموال والنساء والخوندات والصبيان والبنات ومخازن الغلال.. وما لم تسعه السطور ولا يحيط به كتاب ولا منشور) ويصرح الجبرتي بأنهم لم يستثنوا من هذه الفظائع حتى العجزة والمسالمين قائلا: (والذى وجدوه منعظا في داره أو طبقته ولم يجارب، ولم يجدوا عنده سلاحا نهبوا متاعه وعروه من ثيابه)

ويعترف المؤرخون الفرنسيون أن نابليون كان يصدر أوامر يومية كثيرة (توصى القواد بالإكثار من إعدام الأشخاص على أن تقطع رؤوسهم بعد ذلك ويطاف بها في الشوارع إرهابا للناس)، لأنه كان يرى أن هذه (الطريقة الوحيدة لفرض الطاعة على هؤلاء)

وكان يضرب لهم مثلا بما يفعله هو في القاهرة، ليقننوا به في مناطق حكمهم.. وقد قال نابليون في أحد أوامره اليومية: نحن نقطع كل ليلة ثلاثين رأسا.. وكتب مرة إلى أحد القواد يبلغه بوجود قطع رؤوس ما لا يقل عن تسعة أو عشرة أشخاص.

إن أمثال هذه الأوامر كثرت بوجه خاص بعد عودة نابليون من بر الشام خائبا مقهوراً، حتى أن قائد حامية العاصمة رأى أن يقترح عليه تغيير طريقة الإعدام بغية (الاقتصاد في الرصاص!)

ويعترف المؤرخون الفرنسيون أنفسهم بأن نابليون أمر بقتل الجنود الذين كانوا استسلموا خلال حملته على بر

الشام - خلافا لأبسط قواعد الحقوق الدولية - وكان عدد هؤلاء الأسرى يزيد على ثلاثة آلاف.. كما أنهم لا ينكرون أن الجنود كانوا يسترسلون في السلب والنهب والتدمير دون أن يبالوا بنصائح ضباطهم وأوامر قوادهم في هذا المضمار. قال وكيل زويمر: فلم لم يثر هؤلاء.. أليس الإسلام هو الذي منعهم من ذلك.. أليس الإسلام هو الذي جعلهم يرضخون لكل من ينيههم ألوان الهوان؟

ابتسم ذو البجادين، وقال: إن الناظر إلى أقطار الغرب قد تخدعه مظاهر المدنية التي بلغتها، وقد يظن أن نظافة القوم في وجوههم وملابسهم فيض من نظافة ضمائرهم وأرواحهم، وهذا خطأ شديد، وهم بعيد فالقوم من أقدر أهل الأرض ضمائر وأرواحا، وتقدمهم البادى في مضمار العلوم والكشوف الكونية لم يخلصهم عن طبائعهم القبيلية الأولى يوم كانت تسكن أوروبا قبائل الغال والقوط والوندال والسكسون وغيرهم، بل لعل تطور وسائل الإبادة والفتك زاد ضراوتهم، ووسع المجال أمامهم لإرواء ظمئهم إلى العدوان والسطو...

وأفعالهم في المستعمرات التي سقطت بين برائتهم تدل دلالة حاسمة على صدق الحكم. إن الأوروبيين يملكون الآن وسائل شتى لإخفاء فضائحهم، وسيطرتهم على العالم تمكنهم من ارتكاب أبشع الجرائم فيه، ثم تفرض الرقابة على الأبناء، فلا يدرى الناس شيئا عن الركن البائس من أركان الدنيا، الذى بطش الأوروبيون به، وأحلوا مقتهم بأهله.

هل تدري أن جزيرة (مدغشقر) ثارت بعد الحرب العالمية الثانية تطلب حريتها، فكان جزاء الثائرين أن تحركت القوات الفرنسية، وقتلت من الأهلىن ثمانين ألف نسمة!.. ثمانين ألف نفس في ضربة واحدة! لقد داخ الثوار إثر هذه المجزرة، وساد الجزيرة الصريعة صمت مطبق، وقضى على حركة التحرر فيها قضاء لا يعرف مدها، وركنت بقية الأحياء إلى الخنوع وهم في فرع لمقتل الآباء والأبناء، والأمهات والبنات بمذه الصورة المسرفة!! أما الفرنسيون فقد استأنفوا حمل مشعل الحضارة مع غيرهم من مؤسسى هيئة الأمم المتحدة.. أتدري ماذا حدث في (كينيا؟)

إن قبائل (ماوماو) ثارت هى الأخرى تطلب حريتها من الإنجليز المحتلين، واستطاعت هذه القبائل أن تكون جيشا على شىء من النظام والدرية، له قائد برتبة (جنرال)، ودارت رحى القتال بين البيض والسود، وبين قبائل الإنجليز السكسون، وقبائل الزنوج الإفريقيين، وكانت حربا لا تكافؤ فيها ولا شرف.

كان قادة (الماوماو) يشنقون إذا سقطوا فى الأسر، وضرب المستعمرون الأقوياء نطاقا حول وسط أفريقيا، ثم شرعوا فى صمت يبيدون أهل البلاد، ويقتلونهم بالعشرات والمئات، حتى تم لهم الإجهاز على الثورة والثائرين. لقد أعلن ناطق عسكري منذ أيام أنه لم يبق من هؤلاء سوى 250 أو 300 على الأكثر..

إذن لقد أبيدت عشرات الألوف من هؤلاء الطالبين بحقوق الإنسان، ولعل كثيرين لا يعلمون أنه — حين كانت هذه الجماعات تباد بمختلف الوسائل.

أذاع الإنجليز فجأة أن وحوشا مفترسة تأكل البشر قد ظهرت بكثرة، وانتشرت فى مواطن أولئك المجاهدين، وأنها تفتك بهم فتكا ذريعا، وأن حملات عسكرية وجهت لإبادة هذه الوحوش، ونجحت فى إبادتها، وأغلب الظن أنه لم تكن ثمة وحوش، لكنهم أردوا تغطية جرائمهم البشعة أمام العالم، فاخترلقوا هذه المزاعم ليصقوا بالوحوش البرية قهمة إبادة البشر، على حد المثل (رمتنى بدائها وانسلت).. لقد كانوا وحدهم الوحوش التى أكلت البشر.

لم يجد زويمر ما يرد به على الحقائق الكثيرة التي ذكرها ذو البجادين، فراح يحاول تغيير الموضوع .. فقال: نحن لم نجتمع هنا لندرس التاريخ .. فلكل أمة مساوئها التاريخية وجرائمها ..

نحن هنا اجتماعنا لنبحث في الفكر السامي النبيل الذي يخرجكم من حميم الفقر إلى جنة الغني .. وقد ذكرت لكم من الأدلة ما يكفي للبرهنة على أن النصوص المقدسة للمسلمين .. وأن تراثهم الذي يحرصون عليه هو الذي يحمل الفيروس الذي يجعل من الفقر صديقهم الصديق الذي لا يمكنه أن يفارقهم، ولا يمكنهم أن يفارقوه.

ابستم ذو البجادين، وقال: أنت تريد مني إذن أن أحييك عن المعاني التي تحملها تلك النصوص. قال زويمر: لا يمكن للمعاني التي تطرحها تلك النصوص أن يحمل صورتها أحد من الناس. قال ذو البجادين: أنا لا أريد أن أجمل صورتها .. فالقبيح يبقى قبيحا، حتى لو وصفته بأجمل الأشعار .. ولكني أريد أن أذكر المعاني التي تحملها .. وهي معان تنطوي ضمن منظومة شاملة عاج بها الإسلام الفقر والفقراء .. الإسلام نظر إلى الفقير كإنسان .. والإنسان فيه جانب مادي هو جسده .. وهو جانب يحتاج غذاء وكساء ومأوى وغير ذلك من الضرورات .. وقد دعا الإسلام إلى توفير كل ذلك بكل الأساليب .. ولكنه لم يكتف به .. فللفقير جانب آخر يحتاج إلى الرعاية .. ولا يمكن أن نرحمه إن لم نرع فيه ذلك الجانب. قال وكيل زويمر: وما هو؟

قال ذو البجادين: نفسه .. وروحه .. وحقيقته .. ومعناه .. كل هذه يصيبها من الفقر ما يصيب الجسد، وهي تحتاج لذلك إلى معاملة خاصة .. ربما كانت أهم من المعاملة المادية نفسها.

ولهذا فقد ورد في النصوص المقدسة النهي عن المساس بنفس الفقير بأي أسلوب من الأساليب:

فقد نهي القرآن عن المن واعتبر القول المعروف خيرا من الصدقة التي يتبعها من، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مِّنَّا وَلَا أَدَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (262) قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَىٰ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (263) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (264)﴾ (البقرة)

وفي الحديث عن أبي ذر عن النبي ﷺ قال: (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكهم، وهم عذاب أليم.. قال قرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرار، قال أبو ذر: خابوا وخسروا من هم يا رسول الله؟ قال: (المسبل إزاره، والمنان، والمنفق سلعته بالخلف الكاذب)¹

وقال: (أربعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: عاق ومنان ومدمن خمر ومكذب بقدر)²

بل إن علماء المسلمين اعتبروا - انطلاقا من النصوص المتشددة في هذا الباب - أن كل ما يؤدي الفقير يجب

(1) رواه أحمد ومسلم والترمذي وأبو داود.

(2) رواه الطبراني وابن عدي.

اجتنابه حتى لو كان في ظاهره معروفا .. فعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، قال : كان أبي يقول : إذا أعطيت رجلا شيئا ورأيت أن سلامك يثقل عليه - أي لكونه يتكلف لك قياما ونحوه لأجل إحسانك عليه - فكف سلامك عنه) وسمع ابن سيرين رجلا يقول لآخر : أحسنت إليك وفعلت وفعلت ، فقال له ابن سيرين : اسكت فلا خير في المعروف إذا أحصي.

ضحك زويمر بصوت عال، وقال: وما علاقة كل ذلك بما نحن فيه .. لقد أوردت لك النصوص التي يبحث فيها الإسلام على الفقر .. فهل من علاج الفقير حثه على الفقر؟

ابتسم ذو البجادين، وقال: أرايت لو أنك خاطبت مريضا مرضا مزمنًا عجز جميع الأطباء عن شفائه، بقولك: لا بأس عليك - يا أخي - فما المرض إلا حالة بسيطة تمر بها بعض أعضائك، ويمكنك أن تعيش معه حياة طبيعية سليمة إن راعيت ما يتطلبه من أنواع العلاج.. فهل ترى في هذا الكلام ما يدعو إلى المرض، أو يحرض عليه؟ قال زويمر: وما علاقة المرض بالفقر؟

قال ذو البجادين: كلاهما سواء في هذه الناحية .. فالمرضى مس الألم جسده، وجعله محروما من بعض متع الحياة، وهكذا الفقير، ولكن الألم لم يمس جسده، وإنما مس ذات يده، وهو لذلك يجرم من بعض المتع التي يتمتع بها سائر الناس.

قال زويمر: فلنفرض وجود التشابه بينهما، فما علاقة المثال الذي ذكرته بالعلاج النفسي للفقير؟ قال ذو البجادين: ذلك الخطاب الطيب هو نفسه الخطاب الذي خاطب به الإسلام الفقير .. لقد ذكر له أن الفقر شيء هين، لا ضرر منه على دينه ولا على حياته .. بل ذكر له من الثمار التي قد يجنيها من فقره إن هو أحسن التعامل معه ما لا يجده الأغنياء في غناهم.

قال زويمر: فهو يحثهم على الكسل إذن؟ قال ذو البجادين: فرق كبير بين الأمرين .. فرق بين خطاب نفس الفقير وروحه بما يطمئنها ويملؤها بالسعادة والسلام وبين ما ذكرته من الكسل والعجز .. قال زويمر: أنا لا أرى أي فرق.

قال ذو البجادين: الفرق في المخاطب بكلا الأمرين، فالنفس والروح لا علاقة لها في الأصل بالفقر والغني.. ولذلك تخاطب بما يرفع همتها عن النظر إلى الدنيا ومتاعها .. أما جسد المكلف وقواه وقدراته، فتخاطب بما يجعلها تسعى وتتحرك في الحياة بحسب القدرات التي وهبت لها. سأضرب لك مثلا يقرب لك ذلك ..

أرايت لو أن قوما مسافرين نفذ من بعضهم الزاد، فصاروا فقراء .. هل ترى نخاطبهم بما يملؤهم بالألم واليأس، أو ترى أن الخطاب الأمثل لهم هو أن نقول لهم: نعم .. أنتم نفذت منكم الزاد .. وصرتم لذلك فقراء .. ولكن ذلك لن يحول بينكم وبين مواصلة سفركم .. لأنكم إن وصلتكم إلى بلادكم، فستجدون أموالكم تنتظرون، وسترون من الغنى ما فقدتموه في هذه الطريق؟

سكت زويمر، فقال ذو البجادين: هذا المثال ينطبق على معاملة الإسلام للفقير في هذه الناحية .. إنه يقول له: نعم أنت فقير .. ولكن فقرك المادي لا يعني فقرك الروحي .. أو لا ينبغي أن يجرك إلى الفقر الروحي.

فالفقر المادي مرحلة بسيطة تمر بها .. ويوشك لو أحسنت التعامل معها أن تتال من فضل الله أن تتال من الغنى ما تبرز به جميع الأغنياء ..

هكذا خاطب الإسلام الفقراء .. وهكذا ملاً أرواحهم بالهمة العالية .. ولقد ضرب لهم الأمثلة بالصالحين الذين ارتفعت هممهم، فلم يبق في قلوبهم همة لغير مولاهم.. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (الأنعام:52)

وقال: ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ (الكهف:28)

وقد روي أن رجلاً مرَّ على رسول الله ﷺ ، فقال لرجل عنده جالس : ما رأيك في هذا ؟ فقال : رجل من أشرفِ النَّاسِ، هذا والله حَرِيٌّ إِنْ حَظَبَ أَنْ يَنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، قَالَ : فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ مَرَّ رَجُلًا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : مَا رَأَيْكَ فِي هَذَا ؟ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، هَذَا حَرِيٌّ إِنْ حَظَبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لَا يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ : أَنْ لَا يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلِّئِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا)¹

وعن أبي الدرداء قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: (أُبْعُونِي ضَعْفَاءَ كُمْ، فَإِنَّمَا تُرْزُقُونَ وَتُنْصَرُونَ بِضَعْفَائِكُمْ)²
وعن مصعب بن سعد قال: رأى سعد أن له فضلاً على من دونه، فقال رسول الله ﷺ : هل تُنْصَرُونَ وَتُرْزُقُونَ إِلَّا بِضَعْفَائِكُمْ؟³

وفي رواية: أنه ظنَّ أن له فضلاً على من دونه من أصحاب النبي ﷺ ، فقال النبي ﷺ : (إِنَّمَا يَنْصُرُ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِضَعْفِهَا : بِدَعْوَتِهِمْ، وَصَلَاتِهِمْ، وَإِحْلَاصِهِمْ)⁴

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِابْرَةِ)⁵
وعن عبد الله بن مغفل قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله، والله إني لأُحِبُّكَ، فقال : (انْظُرْ مَا تَقُولُ)، قال : والله إني لأُحِبُّكَ - ثلاث مرات - قال : (إِنْ كُنْتَ تُحِبُّنِي فَأَعِدِّ لِلْفَقْرِ تَحْفَافًا، فَإِنَّ الْفَقْرَ أَسْرَعَ إِلَى مَنْ يُحِبُّنِي مِنَ السَّبِيلِ إِلَى مَنْتَهَاهُ)⁶

وعن علي بن أبي طالب قال : إِنَّا لَجُلُوسٌ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ، مَا عَلَيْهِ إِلَّا بُرْدَةٌ، مُرْقَعَةٌ بَفَرُوهُ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَكَى لِلَّذِي كَانَ فِيهِ مِنَ النَّعْمَةِ، وَالَّذِي هُوَ فِيهِ الْيَوْمَ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (كَيْفَ بَكُمُ إِذَا عَدَا أَحَدُكُمْ فِي حُلَّةٍ، وَرَاحَ فِي حِلَّةٍ أُخْرَى، وَوَضِعَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ صَحْفَةٌ وَرُفِعَتْ أُخْرَى، وَسَرْتُمُ بِيوتِكُمْ

(1) رواه البخاري ومسلم.
(2) رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي.
(3) رواه البخاري.
(4) رواها النسائي.
(5) رواه مسلم.
(6) رواه الترمذي.

كما تُسْتَرُّ الكعبة؟) قالوا : يا رسول الله، نحن يومئذ خيرٌ مِنَّا اليوم، نُكْفَى المؤنَّة، وَنَتَفَرَّغُ للعبادة، فقال رسول الله ﷺ :
(بل أنتم اليوم خيرٌ منكم يومئذ)¹

وعن عبد الله بن بريدة: أن رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ رحل إلى فضالة بن عبيد، وهو بمصر، فقدم عليه، فقال : إني لم آتِكَ زائرا، ولكني سمعت أنا وأنت حديثا من رسول الله ﷺ : فرجوتُ أن يكون منه عندك عِلْمٌ، قال : ما هو ؟ قال : كذا وكذا، قال : فمالي أراك شَعِنَا وأنت أميرُ الأرض ؟ قال : كان رسولُ الله ﷺ ينهانا عن كثير من الإِرفاه، قال : فمالي لا أرى عليك حِذَاء؟ قال : كان رسولُ الله ﷺ يأمرنا أن نَحْتَفِيَ أحيانا².

التفت ذو البجادين إلى زويمر، وقال: لقد أعطت هذه النصوص وغيرها للفقراء مكانة خاصة في المجتمع الإسلامي وقتهم من تلك العقد النفسية التي يجدها الفقراء في المجتمعات المنحطة ..

فعن يحيى بن معاذ قال: حبك الفقراء من أخلاق المرسلين، وإيثارك مجالستهم من علامة الصالحين، وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين.

وجاء فقير إلى مجلس الثوري رحمه الله فقال له: تخطّ، لو كنت غنياً لما قربتك، وكان الأغنياء من أصحابه يودون أنهم فقراء لكثرة تقريه للفقراء وإعراضه عن الأغنياء.

وقال آخر: ما رأيت الغني أذل منه في مجلس الثوري، ولا رأيت الفقير أعز منه في مجلس الثوري رحمه الله. وروي أن رجلا جاء إلى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم، فأبى عليه أن يقبلها، فألح عليه الرجل، فقال له إبراهيم: أتريد أن أمحو اسمي من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم؟ لا أفعل ذلك أبداً.

(1) رواه الترمذي.

(2) رواه أبو داود، وفي رواية النسائي عن عبيد الله بن شقيق، قال : كان رجل من أصحاب النبي ﷺ عاملا بمصر، فأتاه رجل من أصحابه، فإذا هو شَعِبَ الرأس، مُشْتَعَان، قلت: مالي أراك مُشْتَعَانًا، وأنت أمير ؟ قال : كان النبي ﷺ ينهانا عن الإِرفاه، قلنا: وما الإِرفاه؟ قال : التَّرجيل كل يوم.

2 _ القناعة

بعد أن أنهى ذو البجادين حديثه قام رجل من الجلوس، عرفت بعد ذلك أن اسمه (أويس)¹، قام، وقال مخاطبا الجموع: ما ذكره لكم أخي ذو البجادين هو العلاج الأول الذي جاء به الإسلام للفقير ..

إنه علاج مهم، لأنه يبدأ من الجذور التي يتكون منها الفقر ..

إن الإسلام يقول من خلاله للفقراء: (نعم أنتم فقراء .. ولكن لا ينبغي لأحد من الناس أن يتسلط عليكم بسبب فقركم، فأنتم مثلهم تماما .. كلكم عبيد رب واحد .. نعم أنتم تختلفون في درجات الرزق، ولكنكم لا تختلفون في الإنسانية .. بل إن الفقير الذي رفع همته إلى ربه يصير له من الفضل والكمال والغنى ما لا يظفر به الأغنياء في غناهم)

نخص بعض الحاضرين، وقال: وعينا هذا .. فهل من علاج غيره؟

قال أويس: أجل .. وهو نابع مما قبله .. والإسلام يخاطب من خلاله الفقير ليقول له: انظر إلى ما عندك من فضل الله، واستثمره، ولا تنظر إلى ما لم يعطك حتى لا تتحد نعمة الله عليك ..

ويقول له: (ابن آدم عندك ما يكفيك، وأنت تطلب ما يطغيك .. ابن آدم لا يقليل تقنع، ولا من كثير تشبع .. ابن آدم إذا أصبحت معافي في جسديك آمنا في سربك² عندك قوت يومك، فعلى الدنيا العفاء)³

ويقول له: (مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ ، مُعَافَى فِي جَسَدِهِ ، عِنْدَهُ قَوْلٌ يَوْمِهِ ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحِذَافِيرِهَا)⁴

(¹) أشير به إلى أويس القرني (ت 37 هـ)، وهو أويس بن عامر بن جزء بن مالك القرني، من بني قرن بن ردمان بن ناجية ابن مراد: أحد النساك العباد المقدمين، من سادات التابعين .. أصله من اليمن، كان يسكن القفار والرمال، وأدرك حياة النبي ﷺ ولم يره، فوفد على عمر، ثم سكن الكوفة، وشهد وقعة صفين مع علي، واستشهد فيها.

وروى مسلم عن أسير بن جابر، قال: لما أقبل أهل اليمن، جعل عمر يستقري الرفاق فيقول: هل فيكم أحد من قرن، فوقع زمام عمر أو زمام أويس فناوله - أو ناول أحدهما الآخر - فعرفه، فقال عمر: ما اسمك؟ قال: أنا أويس، قال: هل لك والدة؟ قال: نعم. قال: فهل كان بك من البياض شيء؟ قال: نعم، فدعوت الله فأذهبه عني إلا موضع الدرهم من سرتي لا ذكر به ربي. قال له عمر: استغفر لي. قال: أنت أحق أن تستغفر لي، أنت صاحب رسول الله ﷺ، فقال عمر: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن خير التابعين رجل يقال له أويس، وله والدة وكان به بياض، فدعا الله، فأذهب عنه إلا موضع الدرهم في سرته)، فاستغفر له، ثم دخل في غمار الناس، فلم ندر أين وقع، قال: فقدم الكوفة. قال: فكنا نجتمع في حلقة، فنذكر الله، فيجلس معنا. فكان إذا ذكر هو، وقع في قلوبنا، لا يقع حيث غيره. فذكر الحديث ..

وعن سعيد بن المسيب، قال: نادى عمر بن الخطاب على المنبر: يا أهل قرن، فقام مشايخ .. فقال: أفيكم من اسمه أويس؟ فقال شيخ: يا أمير المؤمنين، ذاك مجنون يسكن القفار، لا يألف ولا يؤلف. قال: ذاك الذي أعنيه، فإذا عدتم فاطلبوه وبلغوه سلامي وسلام رسول الله ﷺ، قال، فقال: عرفني أمير المؤمنين وشهر باسمي، اللهم صلى على محمد وعلى آله، السلام على رسول الله. ثم هام على وجهه، فلم يوقف له بعد ذلك على أثر دهر، ثم عاد في أيام علي، فاستشهد معه بصفين، فنظروا، فإذا عليه نيف وأربعون جراحة.

وروى هشام بن حسان، عن الحسن، قال: يخرج من النار بشفاعة أويس أكثر من ربيعة ومضر. (انظر: تاريخ الاسلام، 2 / 174 و 175)

(2) السرب: بكسر السين وسكون الراء: المأوى.

(3) رواه ابن عدي والبيهقي.

(4) رواه الترمذي.

ويقول له: (ليس لابن آدم حق في سوى هذا الخصال: بيت يسكنه، وثوب يُوارِي عورتَه، وجِلْفُ الخبز¹ والماء)²

ويقول له: (قال الله: إِنَّ أَعْظَمَ أَوْلِيَائِي عِنْدِي: مُؤْمِنٌ خَفِيفُ الْحَاذِ، ذُو حَظٍّ مِنَ الصَّلَاةِ، أَحْسَنَ عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَأَطَاعَهُ فِي السَّرِّ، وَكَانَ غَامِضًا فِي النَّاسِ، لَا يُشَارُ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ، وَكَانَ رِزْقُهُ كَفَافًا فَصَبَرَ عَلَى ذَلِكَ، ثُمَّ نَقَرَ بِيَدِهِ، فَقَالَ: عَجَّلْتُ مَنِيَّتَهُ، فَلَّ ثُرَائُهُ، قَلَّتْ بَوَاكِيهِ)³

ويقول له: (قد أفلح من أسلم، ورزق كفافا، وقنعه الله بما آتاه)⁴

ويقول له: (طوبى لمن هدى للإسلام، وكان عيشه كفافا وقنع)⁵

ويقول له: (ليس الغنى عن كثرة العرَض، ولكن الغنى غني النفس)⁶

ويقول له: (ليس المسكين الذي تُرُدُّه اللقمة واللقمتان، والتمرَّة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غني يُعنيه، قال: (عرَض عليَّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذُهبًا، فقلت: لا يارب، ولكن أشبع يوماً، وأجوع يوماً فإذا جُعتُ تضرَّعتُ إليك وذكرُتُك، وإذا شبعْتُ حمِدْتُك وشكرُتُك)⁷

قال زويمر: ألا ترى أن هذه النصوص تحت على الكسل.. إنها تطلب من الفقير أن يقنع بما عنده، ولا يتطلع إلى ما ليس عنده؟

قال أويس: لا.. هذه النصوص لا تخاطب العضلات، فتقول لها: كفي عن العمل.. ولا تخاطب الاجتهاد لتقول له: اركن إلى الكسل.. بل هي تخاطب نفس الإنسان التي لا تشبع، لتقول لها: كفي عن أهوائك، فعندك ما يكفيك من فضل الله..

إنما تخاطب ذلك الخواء الذي في نفس الإنسان، والذي لا يملؤه إلا التراب.. والذي عبر عنه رسول الله ﷺ، فقال: (لو كان لابن آدم واد لأحب أن يكون له ثاب، ولو كان له واديان لأحب أن يكون إليهما ثالث، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ثم يتوب الله على من تاب)⁸

قال زويمر: وهي بذلك تقضي على أهم ما يبحث على الكسب والعمل.. وتدعو بطريقة غير مباشرة إلى الركون إلى الراحة والكسل.

قال أويس: إن مفهوم العمل في الإسلام أشرف من أن ينحصر في مأل ما يقتضيه الطمع والحرص.. ولذلك، فإن هذه النصوص لن تؤثر في جد الإنسان واجتهاده.. ذلك أن الذي يحركه للعمل هو طلب مرضاة الله، لا طلب شهوات النفس..

(1) جِلْفُ الخبز: يعني ليس معه إدام.

(2) رواه الترمذي.

(3) رواه الترمذي.

(4) رواه مسلم والترمذي.

(5) رواه الترمذي.

(6) رواه البخاري ومسلم والترمذي.

(7) رواه الترمذي.

(8) رواه البخاري ومسلم والترمذي.

لقد قال رسول الله ﷺ يعبر عن ذلك: (إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها، فليغرسها فله بذلك أجر)¹

قال زويمر: إن هذا لعجيب، فما فائدة الغرس حينذاك.

قال أويس: إن رسول الله ﷺ بذلك الحديث يأمرنا أن نعمل لوجه الله .. ولا يهمننا بعد عملنا هل استفدنا منه في حياتنا أم لم نستفد ..

إنه يرينا على القناعة بفضل الله، وفي نفس الوقت يرينا على العمل الجاد المخلص الذي يحقق النفع العام بغض النظر عن استفادتنا منه.

ولهذا ينهانا ﷺ أن ننشغل بترف المترفين وغنى الأغنياء عن حياتنا التي قدر الله لنا أن نعيشها، ففي الحديث قال ﷺ: (إذا نظر أحدكم إلى مَنْ فَضَّلَ عليه في المال والخَلْق، فلينظر إلى من هو أسفل منه)²، وفي رواية قال: (انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم)

قال عون بن عبد الله بن عتبة: كنتُ أصحبُ الأغنياء فما كان أحدٌ أكثرَ همًّا مني، كنتُ أرى دابة خيرا من دأبِّي، وثوبا خيرا من ثوبي، فلما سمعتُ هذا الحديثُ صَحَبْتُ الفقراء فاسترحتُ.

(1) رواه أحمد والبخاري في الأدب.

(2) رواه البخاري ومسلم.

3 - الاستعفاف

نُحِضُ بَعْضَ الْحَاضِرِينَ، وَقَالَ: وَعَيْنَا هَذَا .. فَهَلْ مِنْ عِلَاجٍ غَيْرِهِ؟

قَامَ رَجُلٌ آخَرَ عَرَفْتُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ اسْمَهُ (أَبَا ذَرٍّ)¹ .. قَامَ، وَقَالَ: أَجَلٌ .. وَهُوَ نَابِعٌ مِمَّا قَبْلَهُ .. لَقَدْ سَمَاهُ الْقُرْآنُ تَعَفُّفًا، وَأَتَى عَلَى أَهْلِهِ، فَقَالَ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 273)

وَقَدْ رَوَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أُمَّتَهُ عَلَى هَذَا الْخَلْقِ الرَّفِيعِ .. فِي الْحَدِيثِ أَنَّ نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، حَتَّى إِذَا نَقَذَ مَا عِنْدَهُ، قَالَ: مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدْخِرَهُ عِنْدَكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفُّهُ اللَّهُ وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصِرَّهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً هُوَ خَيْرٌ وَأَوْسَعُ مِنَ الصَّبْرِ)²

وَرَوَى أَنَّهُ ﷺ اسْتَعْمَلَ رُجُلًا مِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ عَلَى الصَّدَقَةِ، فَلَمَّا قَدِمَ سَأَلَهُ بَعْضُهَا، فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى احْمَرَّتْ وَجْهَهُ، وَعُرِفَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ - وَكَانَ مِمَّا يُعْرَفُ بِهِ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ أَنْ تَحْمَرَّ عَيْنَاهُ - ثُمَّ قَالَ:

(¹) أَشِيرُ بِهِ إِلَى الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ أَبُو ذَرٍّ الْغِفَارِيُّ جَنْدُبُ بْنُ جِنَادَةَ .. وَكَانَ مِنَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ لِلْإِسْلَامِ، وَقَدْ رَوَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: (أَنَا رَابِعُ الْإِسْلَامِ)، وَقِيلَ خَامِسًا، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى بِلَادِ قَوْمِهِ بَعْدَمَا أَسْلَمَ، فَأَقَامَ بِهَا حَتَّى مَضَتْ بَدْرٌ وَأُحُدٌ وَالْخَنْدَقُ، ثُمَّ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ الْمَدِينَةَ فَصَحَبَهُ إِلَى أَنْ مَاتَ وَخَرَجَ بَعْدَ وَفَاةِ أَبِي بَكْرٍ إِلَى الشَّامِ، فَلَمْ يَزَلْ بِهَا حَتَّى وَلِيَ عَثْمَانُ، ثُمَّ اسْتَقْدَمَهُ عَثْمَانُ لَشُكْوَى مَعَاوِيَةَ بِهِ سَبَبِ ثَوْرَتِهِ عَلَى التَّرَفِ وَالْمُتَرَفِينَ .. وَقَدْ نَفَى إِلَى الرَّبَذَةِ فَمَاتَ بِهَا سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ، وَصَلَّى عَلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ مَسْعُودٍ صَادَفَهُ وَهُوَ مَقْبِلٌ مِنَ الْكُوفَةِ مَعَ نَفَرٍ مِنْ فِضْلَاءَ مِنْ أَصْحَابِهِ مِنْهُمْ حَجْرُ بْنُ الْأَدْبَرِ وَمَالِكُ بْنُ الْحَارِثِ الْأَشْتَرُ وَفَتَى مِنْ الْأَنْصَارِ دَعَتَهُمْ أَمْرًا إِلَيْهِ فَشَهِدُوا مَوْتَهُ وَغَسَلُوهُ وَكَفَنُوهُ فِي ثِيَابِ الْأَنْصَارِ.

وَقَدْ قِيلَ إِنْ ابْنَ مَسْعُودٍ كَانَ يَوْمَئِذٍ مَقْبِلًا مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى الْكُوفَةِ فَدَعَى إِلَى الصَّلَاةِ عَلَيْهِ، فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: مِنْ هَذَا قِيلَ: أَبُو ذَرٍّ، فَبَكَى بَكَاءً طَوِيلًا، وَقَالَ: (أَخِي وَخَلِيلِي عَاشَ وَحَدَهُ وَمَاتَ وَحَدَهُ وَبِيعَتْ وَحَدَهُ .. طَوْبَى لَهُ)

حَدَّثَ ابْنُ الْمَدِينِيِّ عَنِ الْأَشْتَرِ عَنْ أُمِّ ذَرٍّ أَنَّهَا قَالَتْ تَخَاطَبَ أَبُو ذَرٍّ: وَمَالِي لَا أَبْكِي وَأَنْتَ تَمُوتُ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ وَلَيْسَ عِنْدِي ثَوْبٌ يَسْعُكَ كَفَنًا لِي وَلَا لَكَ وَلَا يَدِي لِلْقِيَامِ بِجِهَازِكَ، قَالَ: فَابْشُرِي وَلَا تَبْكِي فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (لَا يَمُوتُ بَيْنَ امْرَأَتَيْنِ مُسْلِمٌ وَلِدَانٌ أَوْ ثَلَاثَةٌ فَيَصْبِرَانِ وَيَحْتَسِبَانِ فَيَرِيَانِ النَّارَ أَبَدًا)، وَقَدْ مَاتَ لَنَا ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لِنَفَرٍ أَنَا فِيهِمْ: (لِيَمُوتَنَّ رَجُلٌ مِنْكُمْ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ تَشْهَدُهُ عَصَابَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)، وَلَيْسَ أَوْلَئِكَ النَّفَرُ أَحَدٌ إِلَّا وَقَدْ مَاتَ فِي قَرِيبةٍ وَجَمَاعَةٌ فَأَنَا ذَلِكَ الرَّجُلُ، وَاللَّهُ مَا كَذَبْتُ وَلَا كَذَبْتَ، فَأَبْصُرِي الطَّرِيقَ وَقُلْتِ: وَأَيْ وَقَدْ ذَهَبَ الْحَاجُّ وَتَقَطَّعَتِ الطَّرِيقُ، قَالَ: إِذْهَبِي فَبِصْرِي، قَالَتْ: فَكُنْتُ أَشْتَدُّ إِلَى الْكُتَيْبِ فَأَنْظُرُ ثُمَّ أَرْجِعُ إِلَيْهِ فَأَمْرُضُهُ، فَبَيْنَا هُوَ أَنَا كَذَلِكَ إِذْ أَنَا بِرَجَالٍ عَلَى رِحَالِهِمْ كَأَنَّهُمُ الرِّخْمُ تَحْتَ بَهِمٍ وَرِوَالِهِمْ فَأَسْرَعُوا إِلَى حَتَّى وَقَفُوا عَلَيَّ فَقَالُوا: يَا أُمَّةَ اللَّهِ مَا لَكَ؟ قُلْتِ امْرُؤٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَمُوتُ تَكْفُونَهُ؟ قَالُوا: وَمَنْ هُوَ؟ قَالَتْ: أَبُو ذَرٍّ قَالُوا: صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قُلْتِ: نَعَمْ قَالَتْ: فَفَدَوْهُ بِأَبَائِهِمْ وَأَمَهَاتِهِمْ وَأَسْرَعُوا إِلَيْهِ حَتَّى دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالَ: لَهِمْ أَبْشُرُوا، لَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (لِيَمُوتَنَّ رَجُلٌ مِنْكُمْ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ تَشْهَدُهُ عَصَابَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)، وَلَيْسَ مِنْ أَوْلَئِكَ النَّفَرِ أَحَدٌ إِلَّا وَقَدْ هَلَكَ فِي قَرِيبةٍ وَجَمَاعَةٌ وَاللَّهُ مَا كَذَبْتُ وَلَا كَذَبْتَ، وَلَوْ كَانَ عِنْدِي ثَوْبٌ يَسْعُنِي كَفَنًا لِي أَوْ لَامْرَأَتِي لَمْ أَكْفَنَّ إِلَّا فِي ثَوْبٍ هُوَ لِي أَوْ لَهَا، وَإِنِّي أَشْتَدُّكُمْ اللَّهُ أَلَا يَكْفِنُنِي رَجُلٌ مِنْكُمْ أَمِيرًا أَوْ عَرِيفًا أَوْ بَرِيدًا أَوْ نَقِيبًا، وَلَيْسَ مِنْ أَوْلَئِكَ النَّفَرِ أَحَدٌ إِلَّا وَقَدْ فَارَقَ بَعْضُ مَا قَالَ إِلَّا فَتَجَّ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: أَنَا أَكْفَنُكَ يَا عَمَّ فِي رِدَائِي هَذَا وَفِي ثَوْبِي فِي غِيْبِي مِنْ غَوْلِ أُمِّي قَالَ أَنْتَ تَكْفِنُنِي يَا بَنِي .. قَالَ: فَكَفَنَهُ الْأَنْصَارِيُّ وَغَسَلَهُ فِي النَّفَرِ الَّذِينَ حَضَرُوا وَقَامُوا عَلَيْهِ وَدَفَنُوهُ فِي نَفَرٍ كَلَّهِمْ بَعْدَهُ. (انظر: الاستيعاب وغيره)

(²) رَوَاهُ الْجَمَاعَةُ.

(ما بال رجال يسألني أحدهم ما لا يصلح لي ولا له فإن منعه كرهت منعه ، وإن أعطيته أعطيته ما لا يصلح لي ولا له؟) فقال الرجل : يا رسول الله ، لا أسألك منها شيئا أبدا¹.

وروي أن حكيم بن حزام قال : سألت رسول الله ﷺ فأعطاني ، ثم سأته فأعطاني ، ثم سأته فأعطاني ، ثم قال لي : يا حكيم ، إن هذا المال خضر حلو ، فمن أخذه بسخاوة نفسه بُورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفسه لم يُبارك له فيه ، وكان كالذي يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، قال حكيم : فقلت : يا رسول الله ، والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحدا بعدك شيئا حتى أفارق الدنيا ، فكان أبو بكر يدعو حكيمًا ليعطيه عطاءه ، فيأبى أن يقبل منه شيئا ، ثم إن عمر دعاه ليعطيه عطاءه ، فأبى أن يقبل منه شيئا ، فقال عمر : يا معشر المسلمين إني أعرض على حكيم حقه الذي له من هذا الفيء ، فيأبى أن يأخذه ، فلم يرزأ حكيم شيئا أحدا من الناس بعد رسول الله ﷺ حتى تُوفي².

وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال : قال لي عبد الله بن الأرقم : ادلني على بعير من المطايا أستحبل عليه أمير المؤمنين ، فقلت : نعم جهل من إبل الصدقة ، فقال عبد الله بن الأرقم : أتجبت لو أن رجلا بادنا في يوم حار غسل لك ما تحت إزاره ورُفغيبه ، ثم أعطاكه فشربته ؟ قال : فعصبت ، وقلت : يغفر الله لك ، لِمَ تقول مثل هذا لي ؟ قال : فإنما الصدقة أوساخ الناس يغسلونها عنهم³.

وروي أن رجلا أتى رسول الله ﷺ ، فسأله فأعطاه ، فلما وضع رجله على أسكفة الباب ، قال رسول الله ﷺ : (لو تعلمون ما في المسألة ، ما مشى أحد إلى أحد يسأله شيئا)⁴

وروي أنه قال : (من يكفل لي أن لا يسأل الناس شيئا وأتكفل له بالجنة) ؟ فقال ثوبان : أنا ، فكان لا يسأل أحدا شيئا⁵.

وهكذا وردت الأحاديث الكثيرة تحذر من السؤال ، وترغب في العفة والقناعة .. ففي الحديث قال رسول الله ﷺ : (يا ابن آدم ، إنك أن تبدل الفضل خير لك ، وأن تُمسكه شرُّ لك ، ولا تلام على كفاف ، وابدأ بمن تعول ، واليد العليا خير من اليد السفلى)⁶

وقال : (ليس المسكين الذي تردُّه الأكلة والأكلتان ، ولكن المسكين الذي لا يسأل الناس ، ولا يفتنون به فيعطونه)⁷

وقال : (لا تزال المسألة بأحدكم ، حتى يلقي الله وليس في وجهه مُرعة لحم) وفي رواية (حتى يأتي يوم القيامة)⁸
وقال : (المسائل كدوح يكدح بها لرجل وجهه ، فمن شاء أبقى على وجهه ، ومن شاء تركه ، إلا أن يسأل

(1) رواه مالك في الموطأ.

(2) رواه البخاري ومسلم والترمذي.. وزاد رزين بعد قوله : السفلى (ومن يستغن يغنه الله ، ومن يستعفف يُعفه الله ، فاستغنت ، فأغناني الله ، فما بالمدنية أكثر من مالاً)

(3) رواه مالك في الموطأ.

(4) رواه النسائي.

(5) رواه أبو داود.

(6) رواه مسلم والترمذي.

(7) رواه أبو داود.

(8) رواه البخاري ومسلم.

الرجلُ ذا سلطان ، أو في أمر لا يجد منه بُدًا¹
 وقال: (لأن يأخذ أحدكم أحبله ، ثم يأتي الجبلَ فيأتي بحُزْمَةٍ من حَصَبٍ على ظهره فيبيعها ، خير له من أن يسأل
 الناسَ أَعْطَوْهُ أم مَنَعُوهُ)²
 وقال: (لا تُلْجِفُوا في المسألة ، فوالله لا يسألني أحد منكم شيئاً فتخرج له مسألته مني شيئاً وأنا له كاره ،
 فيبارك له فيما أعطيتُهُ)³
 وقال: (من سألَ الناسَ ، وله ما يغييه ، جاء يوم القيامة ومسألته في وجهه حُموش - أو خدوش أو كُدوش -)⁴
 وقال: (مَنْ سألَ الناسَ تَكْثُرًا ، فإنما يسأل حَمْرًا ، فليستقل أو ليستكثر)⁵
 قال زهير: إن نبيكم بهذا قد ضيق واسعاً، فمن للفقير المحتاج الذي لا يفظن له الناس؟ .. أترأه يتركه يموت
 جوعاً؟

قال أبو ذر: ليس هذا ما قصده رسول الله ﷺ .. رسول الله ﷺ في الأحاديث التي ذكرتها ينهانا عن السؤال
 والشحاذة التي قد يلجأ إليها المرء من غير حاجة إليها .. أو يلجأ إليها من حاجة غير ضرورية .. أو يلجأ إليها، وفي
 إمكانه أن يلجأ إلى غيره.. أو يلجأ حين اضطراره إليها إلى من لا يستحق أن يلجأ إليه.
 ولهذا وردت الأحاديث تنظم السؤال، وتجعل له محلاً محدوداً لا يتجاوزه ..
 فقد ورد في الحديث عن ابن الفراسي أن أباه قال لرسول الله ﷺ: أسأل يا رسول الله؟ قال: (لا ، وإن كنتَ
 سائلاً ولا بد ، فاسأل الصالحين)⁶

وعن أبي سعيد الخدري: قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ سألَ وله قيمة أو قية فقد ألحف) ، قال قلت : ناقتي
 الياقوتة هي خير من أوقية، فرجعتُ ولم أسأله⁷.
 وعنه، قال: سَرَحْتَنِي أُمِّي إلى رسول الله ﷺ، فَأَتَيْتُ وَقَعَدْتُ فاستقبلني ، وقال: (مَنْ اسْتَعْنَى أَعْنَاهُ اللَّهُ ، وَمَنْ
 اسْتَعْفَى أَعْفَاهُ اللَّهُ ، وَمَنْ اسْتَكْفَى كَفَاهُ اللَّهُ ، وَمَنْ يَسْأَلُ وَلَهُ قِيَمَةٌ أَوْ قِيَةٌ ، فَقَدْ أَلْحَفَ) فقلت : ناقتي الياقوتة هي خير
 من أوقية ، فرجعتُ ولم أسأله⁸

وعن عطاء بن يسار: أن رجلاً من بني أسد قال له : نزلتُ أنا وأهلي ببقيع العَرَقَدِ ، فقال لي أهلي : لو أتيتَ
 رسولَ الله ﷺ وسألته لنا شيئاً ؟ وجعلوا يذكرون من حاجتهم ، فَأَتَيْتُ رسولَ الله ﷺ ، فَوَجَدْتُ عنده رجلاً يسأله ،
 ورسولُ الله ﷺ يقول : لا أجدُ ما أعطيكَ ، فولَّى الرجل وهو مُغْضَبٌ يقول : لَعَمْرِي ، إنك لَتُعْطِي مَنْ شئتَ ، فقال

(1) رواه أبو داود والنسائي، وفي رواية الترمذي (المسألة كدَّ يكُدُّ الرجلُ بها وجهه ، إلا أن يسأل الرجل سُلْطَانًا ، أو في أمر
 لا بد منه)
 (2) رواه البخاري.
 (3) رواه مسلم والنسائي.
 (4) رواه أبو داود والترمذي والنسائي.
 (5) رواه مسلم.
 (6) رواه أبو داود والنسائي.
 (7) رواه أبو داود، قال أبو داود : زاد هشام في حديثه (وكانت الأوقية على عهد رسول الله ﷺ أربعين درهماً)
 (8) رواه النسائي.

رسول الله ﷺ: (إنه ليعضب عليّ أن لا أحد ما أعطيه، من سأل منكم وله أوقية أو عدتها، فقد سأل إلخافاً)، قال الأسيدي، فقلت: لَلْقَحْتُنَا خَيْرٌ مِنْ أَوْقِيَةٍ، وكانت الأوقية أربعين درهماً فرجعت ولم أسأله شيئاً، فقدم بعد ذلك على رسول الله ﷺ بشعير وزبيب، فقسّم لنا منه، حتى أغنانا¹.

وعن قبيصة بن مخارق الهلالي قال: تحمّلت حمالة، فأتي رسول الله ﷺ أسأله فيها، فقال: أقيم حتى تأتينا الصدقة، فنأمر لك بها، ثم قال: يا قبيصة، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة، فحلّت له المسألة حتى يصيبها، ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت، فحلّت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش - أو قال: سيداداً من عيش - ورجل أصابته فاقة، حتى يقول ثلاثة من ذوي الحجاج من قومه: لقد أصابت فلانا فاقة، فحلّت له المسألة، حتى يصيب قواماً من عيش - أو قال: سيداداً من عيش - فما سواهن من المسألة يا قبيصة سحّت، يأكلها صاحبها سحّاً².

وروي أن رجلاً من الأنصار أتى النبي ﷺ يسأله، فقال: أما في بيتك شيء؟ قال: بلى، جلس نلبس بعضه، ونسب بعضه، وقعب نشرب فيه من الماء، قال: اتني بهما فأتاه بهما، فأخذها رسول الله ﷺ بيده، وقال: من يشتري هذين؟ قال رجل: [أنا] أخذها بدرهم، قال رسول الله ﷺ: من يزيد على درهم؟ - مرتين أو ثلاثاً - قال رجل: أنا أخذهما بدرهمين، فأعطاهما إياه، فأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصاري، وقال: اشتر بأحدهما طعاماً، فأنبهه إلى أهلك، واشتر بالآخر قدوماً فأتيتي به، فأتاه به، فشدد فيه رسول الله ﷺ عوداً بيده، ثم قال: اذهب فاحطب وبع، ولا أرينك خمسة عشر يوماً، ففعل، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوباً، وبعضها طعاماً، فقال له رسول الله ﷺ: هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة، إن المسألة لا تصلح إلا للثلاث: لذي فقر مدقع، أو لذي غرم مفظع، أو لذي دم موجع³.

وعن حبشي بن جنادة: قال: سمعت رسول الله ﷺ في حجة الوداع يقول - وهو واقف بعرفة، وأتاه أعرابي، فأخذ بطرف رداءه، فسأله فيه، فأعطاه إياه، وذهب به، فعند ذلك حرمت المسألة، فقال: رسول الله ﷺ: (إن الصدقة لا تحل إلا لذي فقر مدقع، أو غرم مفظع، أو دم موجع، ومن سأل الناس ليثري به ماله، كان خموشاً في وجهه يوم القيامة، ورضفاً يأكله من جهنم، فمن شاء فليقل، ومن شاء فليكثر)⁴
وعن عبد الله بن مسعود: قال: قال رسول الله ﷺ: (من نزلت به فاقة فأنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل)⁵

وعن عمر قال: كان رسول الله ﷺ يعطني العطاء، فأقول: أعطه من هو أفقر إليه مني قال: فقال: خذه، وإذا

(1) رواه مالك في الموطأ وأبو داود والنسائي.

(2) رواه مسلم وأبو داود والنسائي.

(3) رواه أبو داود، واختصره الترمذي، وقال: (باع النبي ﷺ قدحاً وحلساً، وقال: من يشتري هذا المجلس والقَدَحَ؟ فقال رجل: أخذتهما بدرهم؟ فقال النبي ﷺ: من يزيد على درهم؟ فأعطاه رجل درهماً، فباعهما منه.

(4) رواه الترمذي، وزاد رزين (وإن لأعطي الرجل العطية فينطلق بها تحت إبطه، وما هي إلا نار - أو قال: ينطلق بها جاعلها في بطنه، وما هي إلا نار - فقال له عمر: ولم تعطي يا رسول الله ما هو نار؟ فقال: أبي الله لي البخيل، وأبوا إلا مسألتي، قالوا: وما الغنى الذي لا تنبغي معه المسألة؟ قال: قدر ما يعدّيه أو يعيشه، وفي رواية (أن يكون له شبع يوم ليلة)

(5) رواه الترمذي، وفي رواية أبي داود (أوشك الله له بالغي: إمّا يموت عاجل، أو غني عاجل)

جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مُشرف ولا سائل ، فَاخُذْهُ فَتَمَوَّلْهُ ، فَإِنْ شِئْتَ كُلَّهُ ، وَإِنْ شِئْتَ تَصَدَّقْ بِهِ ، وَمَا لَا فَلَا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ) ، قَالَ سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ : (فَلَأَجَلَ ذَلِكَ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ لَا يَسْأَلُ أَحَدًا شَيْئًا ، وَلَا يَرُدُّ شَيْئًا أُعْطِيَ¹)
 وَعَنْ عَمْرٍو بْنِ تَغْلِبَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَى بِمَالٍ - أَوْ سَبِيٍّ - فَقَسَمَهُ ، فَأَعْطَى رَجُلًا ، وَتَرَكَ رَجُلًا ، فَبَلَغَهُ أَنَّ
 الَّذِي تَرَكَ عَتَبُوا ، فَحَمِدَ اللَّهُ ، ثُمَّ أَتَنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : (أَمَا بَعْدُ ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْطِي الرَّجُلَ ، وَأَدْعُ الرَّجُلَ ، وَالَّذِي أَدْعُ
 أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الَّذِي أُعْطِي ، وَلَكِنِّي أُعْطِي أَقْوَامًا لَمَّا أَرَى فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْجَزَعِ وَالْمَلْعِ ، وَأَكِلُ أَقْوَامًا إِلَى مَا جَعَلَ اللَّهُ فِي
 قُلُوبِهِمْ مِنَ الْعَنِيِّ وَالْخَيْرِ ، مِنْهُمْ : عَمْرٍو بْنُ تَغْلِبَ ، فَوَاللَّهِ مَا أَحَبُّ أَنْ لِي بِكَلِمَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حُمْرَ النَّعَمِ)²
 وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحَبْلِيِّ قَالَ : سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو ، وَسَأَلَهُ رَجُلٌ ، فَقَالَ : أَلَسْنَا مِنْ فَقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ ؟ فَقَالَ
 لَهُ عَبْدُ اللَّهِ : أَلَيْكَ امْرَأَةٌ تَأْوِي إِلَيْهَا؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : أَلَيْكَ مَسْكَنٌ تَسْكُنُهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَأَنْتَ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ ، قَالَ :
 فَإِنَّ لِي خَادِمًا ، قَالَ : فَأَنْتَ مِنَ الْمُلُوكِ .. قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ : وَجَاءَ ثَلَاثَةٌ تَفَرَّ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ، وَأَنَا عِنْدَهُ ،
 فَقَالُوا : يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ، إِنَّا وَاللَّهِ مَا نَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ : لَا نَفَقَةَ ، وَلَا دَابَّةً ، وَلَا مَتَاعٍ .. فَقَالَ لَهُمْ : مَا شِئْتُمْ ، إِنْ شِئْتُمْ رَجَعْتُمْ
 إِلَيْنَا ، فَأَعْطَيْنَاكُمْ مَا يَسَّرَ اللَّهُ لَكُمْ ، وَإِنْ شِئْتُمْ ذَكَرْنَا أَمْرَكُمْ لِلسُّلْطَانِ ، وَإِنْ شِئْتُمْ صَبِرْتُمْ ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
 يَقُولُ : (إِنَّ فَقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ يَسْبِقُونَ الْأَغْنِيَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى الْجَنَّةِ بِأَرْبَعِينَ خَرِيفًا) ، قَالُوا : فَإِنَّا نَصْبِرُ ، لَا نَسْأَلُ شَيْئًا³ .

(1) رواه البخاري ومسلم والنسائي .

(2) رواه البخاري .

(3) رواه مسلم .

4 _ الفضل

نمض بعض الحاضرين، وقال: وعينا هذا .. فهل من علاج غيره؟
قام رجل آخر عرف بعد ذلك أن اسمه (عبد الله بن مسعود)¹ .. قام، وقال: أجل .. وهو ما يرمي إليه -
حضرة زهير - وقد سماه القرآن الكريم (فضلاً) .. قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ
فَضْلِ اللَّهِ وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (10)﴾ (الجمعة)
ففي هذه الآية الكريمة يدعو الله المؤمنين - بعد ممارستهم للشعائر التعبدية - بالانتشار في الأرض بحثاً عن فضل
الله .. وهو بالنسبة للفقراء يشمل أمرين: السعي والإحسان.

السعي:

قالوا: فحدثنا عن الأول.

قال: لقد ورد في النصوص المقدسة الكثيرة الدعوة إلى العمل باعتباره أشرف وسائل الحصول على الرزق² .. بل
اعتبر ﷺ الساعي والضارب في الأرض بحثاً عن فضل الله مجاهداً في سبيل الله، ففي الحديث أن بعض الصحابة رأوا
شاباً قوياً يسرع إلى عمله، فقالوا: لو كان هذا في سبيل الله! فرد رسول الله ﷺ عليهم بقوله: (لا تقولوا هذا ؛ فإنه إن
كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو سبيل الله،
وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل
الشیطان)³

بل صرح ﷺ بلفظ الجهاد، فقال لبعض أصحابه: (أبشر، فإن الجالب إلى سوقنا كالمجاهد في سبيل الله، والمحتكر
في سوقنا كالملاحد في كتاب الله)⁴

وقد فهم عمر هذه المعاني التي ورد الحث عليها في النصوص، فقال: (لأن أموت بين شعبي رجل أضرب في
الأرض أتبعني من فضل الله أحب إلي من أن أقتل مجاهداً في سبيل الله ؛ لأن الله تعالى قدم الذين يضربون في الأرض
يتبعون من فضله على المجاهدين بقوله: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ﴾ (المزمل: من الآية 20)

وبما أن الكثير قد يستكبرون على بعض الأعمال ظناً منهم أنها من الأعمال الخسيسة التي لا تتناسب مع مكانتهم،

(1) أشير به إلى أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود الهذلي، من أكابر الصحابة فضلاً وعقلاً، وقرباً من رسول الله ﷺ وهو
من أهل مكة، ومن السابقين إلى الإسلام، وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة، وكان خادماً لرسول الله ﷺ، وصاحب سره، ورفيقة
في حله وترحاله وغزواته، يدخل عليه كل وقت ويمشي معه .. نظر إليه عمر يوماً وقال: وعاء ملئ علماً .. وولي بعد وفاة النبي
ﷺ بيت مال الكوفة، ثم قدم المدينة في خلافة عثمان، فتوفي فيها عن نحو ستين عاماً.

وكان قصيراً جداً، يكاد الجلوس يوارونه، وكان يحب الإكثار من التطيب، فإذا خرج من بيته عرف جيران الطريق أنه مر،
من طيب رائحته .. له 848 حديثاً. (انظر: الأعلام للزركلي)

(2) تحدثنا عن التفاصيل الكثيرة المرتبطة بهذا في رسالة (مفاتيح المدائن) من (رسائل السلام)

(3) رواه الطبراني في الكبير.

(4) رواه الحاكم.

وقد يكون ذلك سبب فقرهم، فقد أحرى ﷺ عن نفسه وعن الأنبياء عدم تعففهم عن أي عمل نافع: ففي الحديث قال رسول الله ﷺ: (ما بعث الله نبياً إلا راعي غنم)، فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: (نعم، كنت أرعاهما على قراريط لأهل مكة)¹

وقال: (ما أكل أحد طعاماً خيراً من عمل يديه إن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده)² وقد ورد في الآثار³: أن آدم ﷺ لما أهبط إلى الأرض أتاه جبريل ﷺ بالحنطة، وأمره أن يزرعها، فزرعها وسقاها وحصدها ودرسها وطحنها وخبزها.

وأن نوحا ﷺ كان نجاراً يأكل من كسبه .. وأن إدريس ﷺ كان خياطاً .. وأن إبراهيم ﷺ كان زياراً .. وذكر الله داود ﷺ فقال: ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ (سبأ: من الآية 10)، وقال: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ (الأنبياء: 80)، فكان يصنع الدرع ويبيع كل درع باثني عشر ألفاً فكان يأكل من ذلك ويتصدق.

وكان سليمان ﷺ يصنع المكاييل من الخوص فيأكل من ذلك.

وكان زكريا ﷺ نجاراً .. وهكذا سائر الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -

الإحسان:

قالوا: حدثنا عن الأول .. فحدثنا عن الثاني⁴.

قال: لقد ورد في الشريعة منظومة كاملة للتكافل الاجتماعي بين المسلمين لم يوجد مثلها في جميع أديان الدنيا وقوانينها ..

وحسبكم من ذلك أن أقرأ عليكم من النصوص المقدسة التي يقرؤها المسلمون صباح مساء لتعرفوا قيمة الإنفاق في سبيل الله .. ذلك الإنفاق الذي جعل جميع المجتمعات الإسلامية في جميع عصورها مجتمعات متضامنة متحدة لا صراع فيها بين غني أو فقير .. ولا وجود فيها لبروليتاريا، ولا لبرجوازين.

قال تعالى - وهو يقرن التوجه إليه بالعبودية بالتوجه للمحتاجين بما يسد حاجاتهم -: ﴿الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3)﴾ (البقرة) وقال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3)﴾ (الأنفال) وقال: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبْعُ فِيهِ وَلَا جِلَالٌ (31)﴾ (إبراهيم)

وقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظَلَمُونَ (272)﴾ (البقرة) وقال: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (92)﴾ (آل عمران)

(1) رواه البخاري ومالك.

(2) رواه البخاري.

(3) انظر: المبسوط: 246/30.

(4) تحدثنا عنه بتفصيل في رسالة (كنوز الفقراء) بالإضافة لرسالة (عدالة للعالمين) من هذه السلسلة، فصل (التكافل)

وقال: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَحَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (133) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِبِينَ الْعَظِيمِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (134) ﴾ (آل عمران)
 وقال: ﴿ قُلْ إِنْ رَبِّي يَسُدُّ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (39) ﴾ (سبأ)

وقال: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (261) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَتًّا وَلَا أَدَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (262) ﴾ (البقرة)

وعلى هذا الهدى جاءت أحاديث رسول الله ﷺ تحت على الإنفاق في سبيل الله، وترغب فيه بكل الوسائل:
 ففي الحديث قال رسول الله ﷺ: (إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة كان لها أجرها بما أنفقت ، ولزوجها أجره بما كسب ، وللخازن مثل ذلك ، لا ينقص بعضهم أجر بعض شيئاً)¹

وقال: (سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله . إمام عدل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق في المساجد ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعتة امرأة ذات منصب وجمال فقال أني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة ، فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه)²
 وقال: (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً)³

وقال: (من أنفق زوجين من شيء من الأشياء في سبيل الله دعي من أبواب - يعني الجنة - يا عبد الله هذا خير فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الصيام وباب الريان)⁴

وقال: (من أنفق نفقة في سبيل الله كتبت له بسبعمائة ضعف)⁵
 وقال: (إن الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذي الرحم اثنتان : صدقة وصله)⁶
 وقال: (على كل مسلم صدقة)، قيل : أرأيت إن لم يجد ؟ قال: (يعتمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق)، قيل : أرأيت إن لم يستطع ؟ ، قال : (يعين ذا الحاجة الملهوف)، قيل له : أرأيت إن لم يستطع ؟ ، قال: (يأمر بالمعروف أو الخير)، قال : أرأيت إن لم يفعل ؟ ، قال : (يمسك عن الشر فلإنها صدقة)⁷
 وقال: (كل سلامي من الناس عليه صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس، تعدل بين الإثنين صدقة ، وتعين الرجل

(1) رواه البخاري ومسلم.
 (2) رواه البخاري ومسلم.
 (3) رواه البخاري ومسلم.
 (4) رواه البخاري ومسلم.
 (5) رواه النسائي.
 (6) رواه النسائي وابن ماجه.
 (7) رواه البخاري ومسلم.

في دابته فتحمله عليها ، أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة¹

وقال: (ما تصدق أحد بصدقة من طيب - ولا يقبل الله إلا الطيب - إلا أخذها الرحمن بيمينه ، وإن كانت تمرة، فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل ، كما يُرَبِّي أحدكم فلوله أوفصيله)²
وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال : يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجراً ؟ قال : (أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَاحِبُ شَيْءٍ ، تَخْشَى الْفَقْرَ ، وَتَأْمَلُ الْغَنَى ، وَلا تُمَهِّلُ حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ الْحُلُقُومَ قُلْتَ : لِفُلَانٍ كَذَا وَفُلَانٍ كَذَا وَقد كَانَ لِفُلَانٍ)³

ما وصل (عبد الله بن مسعود) من حديثه إلى هذا الموضع حتى أصابت (صمويل زويمر) نوبة أشبه بنوبات الصرع.. فقد أخذ يصيح بصوت عال ملأني رعباً، في الحين الذي كانت أطرافه جميعاً تتحرك حركات كثيرة لا إرادية.

وقد كان مما سمعته منه قوله: اغربوا عني .. لماذا تتبعونني حيث سرت .. لماذا تكذبون حياتي .. لماذا تملأون أحلامي بالكوايس.. لماذا تملأون يقظتي بأحاديثكم المنتنة.
أسرع إليه وكيله، وراح يهدئه، فلما لم يستجب، راح يحقنه بحقنة كبيرة..
اقتربت من الوكيل، ورحت أناجيه متسائلاً عن سر هذه الحالة، فقال: هذه هي حاله دائماً كلما سمع أحاديث عن الإسلام ..

لقد ذهب يعالج داءه في كل مستشفيات العالم لكنه لم يحظ بأي علاج .. وقد نصحه بعضهم بأن يلتمس أشعة من شمس محمد ليستدفى بنورها، ويتنعم بضياها، وأخبره أنها علاجه الوحيد .. لكنه كان يرفض ذلك كل حين، وكان يقول لي: لا .. لا .. أنا أطيق الجنون .. ولا أطيق تحمل تلك الأشعة .. إنها أشعة حارقة .. والجنون أفضل منها.

قلت للوكيل: فما الذي يمنعك أنت منها؟

قال الوكيل: لست أدري .. ولكنني أشعر أن هذا الرجل هو شقي الثاني .. ولا يمكن لأحد من الناس أن يعيش من دون شقه الثاني.

قال ذلك، ثم انصرف عني ليركني أتأمل في تلك الجموع، وأتأمل تلك الأنوار العظيمة التي كانت تنزل عليهم من تلك الشمس التي هي رحمة الله للعالمين.

(1) رواه البخاري ومسلم.

(2) رواه البخاري ومسلم.

(3) رواه البخاري ومسلم.

سابعاً — المستضعفون

في اليوم السابع .. سرت إلى ضاحية منعزلة عن المدينة سمعت أن أحد أصحابنا، وهو (آحاد هعام)¹ قد سار إليها، لينقل إلى شباب المدينة تجربته في إخراج قومه من المستضعفين من الاستضعاف. لا شك أنك لا تعرف هذا الرجل، ولذلك دعني أحدثك عنه² قبل أن أنقل لك نص دعايته ودعواه .. وقبل أن أنقل ما أوجب به من طرف بعض ورثة النبوة، مما ملأني فناعة برحمة الإسلام بالمستضعفين، وقدرته العظيمة على إخراجهم من وهم الاستضعاف.

(آحاد هعام) كاتب روسي يهودي .. وهو أحد أهم الكُتّاب والمفكرين في أدب العبرية الحديث، كما يُعدُّ فيلسوف الصهيونية الثقافية .. بل يعتبره البعض المؤسس الحقيقي للفكر الصهيوني، والذي خرج من تحت عباءته كل المفكرين الصهاينة، خصوصاً العلمانيين منهم، ابتداءً من مارتن بوبر، وانتهاءً إلى هارولد فيش. تُنفّ آحاد هعام نفسه بنفسه، فدرس العلوم وقرأ أدب حركة التنوير وتعلّم بعض اللغات الأوربية ودرس الفلسفة.. فتأثر بالفلسفة الوضعية في روسيا من خلال أعمال المفكر الروسي بيساريف الذي عرفه على أعمال جون ستورانت ميل.. وقد تأثر كذلك بفلسفة لوك، ولكن هربت سينسر وفلسفته العضوية الداروينية كان لهما أبعد الأثر في تفكيره، وكان هو نفسه يُعدُّ سينسر أقرب المفكرين إلى قلبه.. كما تأثر بفلسفة نيتشه وهردر تأثراً عميقاً، شأنه في هذا شأن كثير من المفكرين والمثقفين اليهود .. ويتجلى عمق تأثر آحاد هعام بنيتشه في زعمه أن النيتشوية واليهودية صنوان.

وقد كان في جميع أحاديثه لا هم له إلا نيتشه³.. وفكر نيتشه .. وقد كان لا يفهم من فكر نيتشه إلا ما يريد⁴ .. في ذلك اليوم .. رأيته في السوق .. وبين عامة الناس يُخطب فيهم بقوة وشدة.. وقد كان موضوع حديثه هو ما أعرفه عنه .. فلم يكن يتحدث إلا عن نيتشه، وما يفهمه من فكر نيتشه ..

(¹) أشير به إلى آحاد هعام (1856-1927) Ahad Ha-am ، وهو كاتب يهودي، بل ذكر المسيري أنه أحد أهم الكُتّاب والمفكرين في أدب العبرية الحديث، كما يُعدُّ فيلسوف الصهيونية الثقافية .. بل يعتبره البعض المؤسس الحقيقي للفكر الصهيوني .. وقد نزل آحاد هعام إلى ميدان النشاط الصهيوني، فانضم إلى جماعة أحياء صهيون وأصبح مفكراً الأساسي، لكنه ما لبث أن انتقد سياسة هذه الجمعية الداعية إلى الاستيطان التسلي في فلسطين وذلك في مقال بعنوان (ليس هذا هو الطريق) وقد عزّز مقاله الأول بدراستين نقديتين كتبهما بعد زيارته لفلسطين عامي 1891 و 1893. ومن أهم مقالاته الأخرى، (الدولة اليهودية والمسألة اليهودية) (1897) و(الجسد والروح) (1904).. وسنرى سر اختياره خلال هذا الفصل.

(²) المعلومات التي سنذكرها هنا عن (آحاد هعام) منقولة بتصرف من (الموسوعة اليهودية) للمسيري.

(³) ذكرنا نيتشه والأسس التي يقوم عليها فكره في رسالة (سلام للعالمين) من هذه السلسلة.

(⁴) ذكر المسيري أن هناك فرقا بين الفكر النيتشوي وفلسفة نيتشه.. ففلسفة نيتشه توجد في أعماله الفلسفية، وهي فلسفة متناقضة تحوي الكثير من الأفكار النبيلة والحسيسة والعاقلة والمجنونة.. أما الفكر النيتشوي فهو منظومة شبه متكاملة، استنبطها الإنسان الغربي من أعمال نيتشه وحققت من الذبوع والشيوخ ما يفوق أعمال نيتشه الفلسفية.. والمهم في دراسة تاريخ الأفكار هو الفكر النيتشوي، وليس أعماله الفلسفية. فهناك الكثير من النيتشويين ممن لم يقرأوا صفحة واحدة من أعمال نيتشه، بل الذين اتخذوا مواقفهم النيتشوية قبل أن يخط نيتشه حرفاً واحداً.. فالخطاب الإمبريالي، منذ لحظة ظهوره في القرن السابع عشر، كان خطاباً نيتشويًا. (انظر الموسوعة اليهودية، للمسيري)

وكان مما سمعته منه قوله: اسمعوني .. أنا آحاد هعام .. وهي تعني بلغتنا العبرية (أحد العامة) .. وأنا فخور بهذا الاسم، وبهذا المعنى الذي يحمله .. ففي اعتقادي أن العامة إذا ما تسلحوا بسلاح القوة يصيرون السوبرمان الذي يمكن أن يحرك العالم أجمع ..

ذلك السوبرمان الذي لا يشكو من ضعف البشر .. ولا يحتكم إلى الأخلاق .. لأن الاحتكام إلى الأخلاق من شيم الضعفاء، وليس من شيم الأقوياء .. فالسلوك ينبغي أن يكون قائماً على إرادة القوة .. وهي ليست سوى ميل الإنسان للسيطرة على غيره والتحكم في أهوائه.

والسوبرمان سوف يسعى إلى نوع جديد من الكمال والتفوق بماله من قدرة على تحقيق مسعاه للسيطرة بأسلوب الأقوياء، لا بأسلوب الضعفاء.

اسمعوا أيها المستضعفون .. فليس هناك حل إلا نبتشة .. فعنده تجدون كل الحلول:

ففي الاجتماع قال نبتشة: (الإنسان جاء إلى الحياة ليتمتع بما فيها، وكل ما يهيء له طريق التمتع فهو خير (وافق الحق أو مخالفه) ، وما يقال عن تساوي الخلق بعضهم مع بعض خطأ، بل الحق أن في الناس سادة وعبداً، وعلى العبيد أن يهينوا وسائل الراحة للسادة)

وفي الاقتصاد قال: (لا بد أن يستثمر القوي الضعفاء بأقل ما يمكن، وأن يحاول كل مكار خداع السيطرة على الآخرين في هذا المجال)

وفي الأخلاق قال: (والأخلاق من الضعف؛ إن الجزء الأعظم من فطرة الإنسان التعدي والظلم، وإن الجزء الأقل هو العقل والعاطفة، والجزء الأعظم هو الذي يجب أن يتبع)

وقال: (ولا بد أن يمارس الإنسان كل نوع من أنواع الإجرام ليعيش في رفاة وسعادة)

وفي السياسة قال: (وعلى هذا الأساس فالسياسة تقوم على خدمة الأقوياء وسحق الضعفاء وكل ما هناك من الدين والأخلاق فإنما هو وسيلة للسيطرة على المستضعفين)

وهكذا في كل الشؤون كان نبتشة حكيماً عاقلاً أعطى البشرية الحل الطبيعي الذي تقتضيه الفطرة .. وليس هو إلا شيء واحد هو (القوة) .. القوة التي لا يقهرها شيء.

1 - التوكل

بعد أن أهدى آحاد همام حديثه عن القوة، وعن السوبرمان مما حكيت لك بعضه .. قامت امرأة من الجمع، كانت ممثلة بالقوة والحياة، وقد عرفت بعد ذلك أن اسمها هو (أم البنين)¹ .. قامت، وقالت بصوت جهوري قوي: ما أجمل ما دعوتنا إليه .. فلا يمكن للإنسان أن يتحقق بإنسانيته ما لم يتحقق بالقوة التي تستدعيها إنسانيته .. ولكننا مع ذلك نرى أن التوفيق أخطأك .. فلم تر بصيرتك المحل الصحيح الذي تجد فيه القوة .. القوة التي لا يغلبها شيء، ولا يعجزها شيء².

لقد دعوتنا إلى الثقة بالنفس... وهذا شيء جميل .. ولا ينبغي لعاقل أن يخالفك فيه. ودعوتنا إلى الإنسان .. أو السوبرمان .. الذي يمشي بخطوات ثابتة وجنان مطمئن .. والذي يحمل صورة الصامد في وجه أعاصير الفتن.. وصورة المبتسم المتفائل رغم الصعاب .. وصورة ذلك الذي يجيد النهوض بعد أي كبوة.. وصورة ذلك الذي يمشي نحو هدفه لا يتلفت ولا يتردد..

وكل هذه الصور صور جميلة؛ كل واحد منا يطمح أن يمتلكها، وكل واحد منا يود لو يغير واقع حياته عليها. ولكننا مع ذلك نرى أن هذه الصور لو اقتصرنا عليها .. فسنتقع في الوهم .. فنحن مع قوتنا ضعاف .. ومع غنانا فقراء.. ومع ذاتيتنا تابعين .. لقد علمنا ربنا هذا ..

لقد خاطبنا يقول: ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ (الإنسان: 1) .. وقال لنا: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (فاطر: 15) .. وقال لنا: ﴿ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا ﴾ (النساء: 28) .. وقال لنا: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَبْدًا ﴾ (23) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ .. (24) ﴿ (الكهف) .. وقال لنا: ﴿ إِنَّا نَعْبُدُ وَإِنَّا نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة: 5)

(1) أشير به إلى أم البنين، وهي زوجة علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - تزوجها بعد وفاة فاطمة الزهراء عليها السلام، وقد خطبها له أخوه عقيل.. وهي فاطمة بنت حزام من قبيلة بني كلاب، وهي أخت لبيد الشاعر كانت امرأة شريفة ومن أسرة أصيلة ومعروفة بالشجاعة. وكانت تبدي محبة فائقة لأولاد الزهراء عليها السلام. أنجبت من علي أربعة أبناء هم: العباس، جعفر، عبد الله، عثمان، استشهدوا بأجمعهم مع الحسين في يوم الطف (الكامل لابن الأثير 3: 333 أدب الطف 1: 72).

دأبت بعد استشهاد أبنائها على الذهاب يومياً إلى البقيع وتأخذ معها أبناء العباس، وتندب أبناءها وكانت نساء المدينة يسكن أيضاً لبيكاتها، وكانت ترتي ولدها العباس بقصائد من الشعر (سفينة البحار 1: 510) حينما كانت النساء يعزينها باسم أم البنين، كانت تقول:

لا تدعوني وياك أم البنين = تذكريني بليوث العرين

كانت بنون لي أدعى بهم = واليوم أصبحت ولا من بنين

كانت هذه المرأة الجليلة أم الشهداء الأربعة تسمى قبل ولادة أبنائها بفاطمة؛ ولكن أصبحت تدعى من بعد ولادتهم بأم البنين، كان عمر العباس 34 سنة، وعبدالله 25 سنة، وعثمان 21 سنة، وجعفر 19 سنة. (انظر: موسوعة عاشوراء)

(2) رجعنا في هذا الحديث لمقال جميل كتبه (فوز بنت عبد اللطيف كردي) بعنوان (وقفه مع الثقة بالنفس) في مجلة البيان.. وقد تصرفنا فيه بالطريقة التي تعودنا عليها في هذه السلسلة.

وعلمنا نبينا أن نقول .. ونحن نتوجه إلى الله بالدعاء: (اللهم إني عبدك وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حُكْمِك.. أبوء بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي..

اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك فإنك تعلم ولا أعلم.

اللهم لا حول ولا قوة لي إلا بك.

اللهم إني أبرأ من حولي وقوتي إلى حولك وقوتك.

اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي.

اللهم لا تكليني إلى نفسي طرفة عين ولا أقل من ذلك فأهْلِك.

اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك¹

إن هذه النصوص وغيرها كثير ترفع عنا حجاب الوهم الذي يجعلنا نشعر من أعماق نفوسنا بالقوة الكاذبة التي تفصلنا عن ربنا وعن حقيقتنا ..

ولذلك فإن النفس الكاملة القوية هي النفس التي تترى على هذه النصوص المقدسة، ثم تعترف بعجزها وفقرها، وتُقرّ بضعفها وذلها.. ولكنها لا تفق عند حدود هذا الاعتراف فتعجز وتُحبط وتكسل، وإنما تطلب قوتها من ربها، وتسعى وتعمل وتندلل لمن بكلمة واحدة يهبها القدرة على ما يريد، ويُلين لها الحديد، ويعطيها فوق المزيد.

هذه — يا أحبة — هي طريقة الإسلام في التعامل مع النفس، والترقي بها:

إنما تبدأ فتعرفها بحقيقتها؛ فقد خلقها الله من عدم، وجلبها على ضعف، وفطرها على النقص والاحتياج والفقر إليه.

ثم تدلها على المنهج الذي يرفعها من هذا الضعف والفقر الذي جُبلت عليه، لتكون برغم صفتها هذه أكرم خلق الله أجمعين ..

ثم هي تذكرها بعلوّها الذي يريد إضلالها عن طريق الله المستقيم بتزيين طرق غواية تشبّه به، وتحذيرها من اتباعه، وبيان طرق مراغمته.

إن هذا المنهج — كما ترون — منهج تعترف فيه النفس بفقرها وذلها إلى الله، وتبرأ من حولها وقوتها، وتطلب من مولاها عونَه وقوته وتوفيقه وتسديده، فيعطيها حل جلاله، ويكرمها ويُعليها.

إنه منهج تعترف فيه النفس بضعفها واحتياجها، وتستعين فيه بخالقها ليغنيها ويعطيها، ويقيها شر ما جلبها عليه؛ فيقبلها ويهديها، ويسددها ويرضيها.

وهو منهج تتخذ فيه النفس أهبة الاستعداد لعدوها المتربص بها ليغويها؛ فتستعذ برها منه، وتدفع شر ذلك العدو بما شرع لها؛ فإذا كيد ضعيف، وإذا قدراته مدحورة عن عباد الله المخلصين؛ فقد أعادهم ربهم وكفاهم وحماهم وهو مولاهم؛ فنعم المولى، ونعم النصير.

وهو منهج يصاد منهج قارون الذي راح يصيح بكبرياء: ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ (القصص: 78)

وهو منهج يباذ منهج الأبرص والأقرع اللذان راح يصيحان: (إنما ملكناه كابرًا عن كابر)¹

(¹) هذه الأدعية وردت في مجال مختلفة، وهي من الشهرة بحيث لم نحتاج إلى توثيقها.

وهو منهج يتبرأ صاحبه أن يكون خصيماً مبيئاً لربه الذي خلقه ورباه بنعمه، أو ينازعه عظمته وكبريائه. وهو منهج لا يتوافق مع مذهب (القوة) الذي يقول زعيمه (نيتشه): (سنخرج الرجل السوبرمان الذي لا يحتاج لفكرة الإله!

وهو منهج يصادم (الثيوصوفي وليام جيمس) ومذهبه البراجماتي، ومطبقي فكرة باندلر وجرندر، ومن بعدهم، وغيرهم ممن يصيح كل حين: (أنا أستطيع.... أنا قادر.... أنا غني... أنا أجلب قدري...)
صاح بعض المستمعين قائلًا: ولكن الله تعالى خاطبنا بقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ .. (139)﴾ (آل عمران)

نظرت إليه أم البنين، وقالت: لا تقطع الآية .. فكلام ربنا يؤخذ جميعاً .. لقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (139)﴾ (آل عمران) .. لقد ربط الله العلوم بالإيمان، فمنه يستمد العلو، وبدوام الإلحاح والطلب منه تحقق الرفعة.
وقال في آية أخرى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَبْرُكُمُ أَعْمَالُكُمْ (35)﴾ (محمد)

انظر .. لقد ربط الله العلو في هذا جمعية الله .. فلا يمكن لمن لم يكن الله معه أن يظفر بأي علو، أو يحلم بأي رفعة. قام آخر، وقال: ولكن رسول الله ﷺ قال: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف)²
نظرت إليه أم البنين، وقالت: المؤمن القوي ليس قوياً من عند نفسه، ولا بمقومات شخصيته .. وإنما هو قوي لاستعانتة بربه، وافتقاره إليه وتذلل بين يديه، وثقته في موعوداته الحقّة.

تأمل — يا أخي — كلمات القوة من موسى — عليه السلام — أمام البحر والعدو وراءه: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (الشعراء: 62) ..

فموسى — عليه الصلاة والسلام — لم يثق بنفسه، وقد أعطي من المعجزات وخوارق العادات ما أعطي! وإنما كانت ثقته بتوكله على الذي يستطيع أن يجعله فوق الإمكانيات البشرية، بل يجعل لعصاه الخشبية قدرات لا يستطيعها أساطين الطقوس السحرية.

تأمل — أخي — قوله ﷺ في الحديث الذي ذكرته: (استعن بالله ولا تعجزن) .. إن هذه الكلمات تفسر سر قوة المؤمن .. إنها قوة مستمد من إيمانه واستعانتة بربه.

إنما كلمات الحبيب ﷺ يربي أمتة على منهج الإيجابية والفاعلية .. لم يقل: تخيل قدرات نفسك.. ولم يقل: أيقظ العملاق الذي في داخلك وأطلقه.. ولم يقل: نوّم الواعي وخاطب اللاواعي لديك برسائل إيجابية، وبرمجته وهيمته؛ وإنما دعاك ﷺ إلى الطريقة الربانية، وخاطبك مخاطبة عقلية بعبارات إيمانية: (استعن بالله ولا تعجزن)

فاستعن به وتوكل عليه، ولا تعجزن بالنظر إلى قدراتك وإمكاناتك؛ فأنت بنفسك ضعيف ظلوم جهول، وأنت بالله عزيز.. أنت بالله قادر.. أنت بالله غني.

(1) إشارة إلى حديث الأبرص والأقرع والأعمى .. رواه البخاري ومسلم.
(2) رواه أحمد ومسلم والنسائي.

2 – الإيمان

بعد أن أنهت أم البنين حديثها، قام آحاد هعام، وقال: جميل .. جميل .. كل ما ذكرته جميل .. ولكنه لا يصلح إلا لمن يعتقد ما تعتقد .. كلامك يصلح خطبة في المسجد .. أو موعظة في الكنيسة .. ولكنه لا يصلح أن تخاطب به في محافل الحياة الأخرى .. فالحياة التي تستند إلى الله حياة مملوءة بالضعف والجبن والعجز والكسل .. والدين كما تقول أحدث النظريات العلمية (أفيون الشعوب) .. ولا يمكن أن تتحرر الشعوب إلا إذا تحررت منه.

أرادت أن تقوم أم البنين للحديث، فأشارت إليها امرأة أخرى علمت بعد ذلك أن اسمها (سمية)¹، وقالت: أنت تدعي أن الإيمان مناقض للقوة .. وأنه لا يمكن للمستضعف أن يخرج من ضعفه ما دام يرتدي لباس الإيمان؟

قال آحاد هعام: أجل .. أنا أقول ذلك .. وكل العقلاء يقولون ذلك .. وكل الدراسات النفسية والاجتماعية تؤيد ذلك.

قالت سمية: فاسمع مني إذن البراهين التي تدلك على أن القوة بنت للإيمان .. والبراهين التي تدلك على أنه لا يمكن للإيمان الصحيح أن يولد إلا القوة الصحيحة.

أنت تعلم² .. وكلكم تعلمون ... أن للإنسان في الحياة آمال عريضة، وأهداف كثيرة، ولكن الطريق إليها شائك وطويل، والعقبات متنوعة، والمعوقات كثيرة، بعضها من الطبيعة وسنن الله فيها، وبعضها من البشر أنفسهم، فلا غرو أن يظل الإنسان في جهاد دائم، وعمل متواصل، ليتغلب على الآلام والمعوقات ويحقق الأهداف والآمال.

وما أشد حاجة الإنسان إلى قوة تسند ظهره، وتشد أزره، وتأخذ بيده، وتدلله له العقبات، وتقهر أمامه الصعاب، وتبهر له الطريق..

وليست هذه القوة المنشودة إلا في ظلال العقيدة، ورحاب الإيمان بالله.

الإيمان بالله هو الذي يمدنا بروح القوة، وقوة الروح، فالمؤمن لا يرجو إلا فضل الله، ولا يخشى إلا عذاب الله، ولا يبالي بشيء في جنب الله.. إنه قوي وإن لم يكن في يديه سلاح.. غني وإن لم تلمح خزائنه بالفضة والذهب.. عزيز وإن لم يكن وراءه عشيرة وأتباع.. راسخ وإن اضطرت سفينة الحياة، وأحاط بها الموج من كل مكان.

فهو بإيمانه أقوى من البحر والموج والرياح، وفي الآثار: (لو عرفتم الله حق معرفته لزالتم بدعائكم الجبال) وهذه القوة في الفرد مصدر لقوة المجتمع كله، وما أسعد المجتمع بالأقوياء الراسخين من أبنائه، وما أشقاه بالضعفاء المهزيل، الذين لا ينصرون صديقاً، ولا يخيفون عدواً، ولا تقوم بهم نهضة، أو ترتفع بهم راية.

ضحك آحاد هعام بصوت عال، وقال: أنت تطلقين الدعاوى إطلاقاً في الوقت الذي تزعمين فيه أن لديك البراهين على ما تقولين.

قالت سمية: اصبر .. فسأحدثك حديثاً تعبه .. ويعبه كل من يحضر معنا ..

أنت تعلم .. وأنت تعلمون جميعاً أن القوة تحتاج إلى محرك يحركها .. وأنه لا يمكن لقوة من القوى أن تستمر في

(1) أشير به إلى (سمية بنت خياط)، وهي أم عمار بن ياسر - رضي الله عنهما - وهي أول شهيدة في الإسلام، وكانت مولاة لأبي حذيفة بن المغيرة، وهي من المعذبات في الله عز وجل، وقد بشرها رسول الله ﷺ مع أهل بيتها جميعاً بالجنة.

(2) رجعنا في هذا المبحث إلى كتاب (الإيمان والحياة) للدكتور يوسف القرضاوي.

حركتها ما لم يكن لديها هذا المحرك.

قالوا: أجل .. ذلك صحيح.

قالت سمية: وتعلمون أن الحركة القوية وحدها لا يمكن أن تعتبرها حركة قوية إيجابية ما لم تكن موجهة الوجهة الصحيحة النافعة.

قالوا: ذلك صحيح .. ونحن جميعا نسخر من القوة التي يوجهها صاحبها في غير محلها، لأنه لا يجني من تبعه غير العلقم والصبر والهداد القوى.

قالت سمية: بناء على هذا .. فسأبرهن لكم على أن الإيمان هو الذي يملك مصادر القوة ومحركها، كما أنه يملك المعاني التي توجه القوة الوجهة الصحيحة التي تجعل منها قوة بناءة نافعة لا قوة هدامة ضارة.

المصادر:

قالوا: فحدثينا عن الأول .. عن مصادر القوة التي يحملها الإيمان.

قالت: أول مصدر من مصادر قوة المؤمن هو (الله) .. فالمؤمن يستمد قوته من الله العلي الكبير، الذي يؤمن به، ويتوكل عليه، ويعتقد أنه معه حيث كان، وأنه ناصر المؤمنين، وخاذل المبطلين ..

ولهذا رد الله على المنافقين الذي اعتبروا المؤمنين مغرورين بسبب الطموحات العظيمة التي كانوا يحملونها، فقال: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (49) ﴿فَهُوَ سَعْدَانُهُ عَزِيزٌ لَا يَذَلُّ مِنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ، حَكِيمٌ لَا يَضِيعُ مِنْ اعْتَصَمَ بِحِكْمَتِهِ وَتَدَبَّرَهُ.

وقال يخاطب المؤمنين: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (160) ﴿(آل عمران)

إن هذه الآية الكريمة كغيرها من الآيات تعلمنا أن التوكل على الله - وهو من ثمار الإيمان - ليس استسلام متبطل، أو استرخاء كسول.. إنه معنى حافز، وشحنة نفسية، تغمر المؤمن بقوة المقاومة، وتملؤه بروح التحدي والإصرار، وتشحذ فيه العزم الصارم، والإرادة الشماء.

والقرآن الكريم يرسخ هذه المعاني فينا عبر قصص أولياء الله ورسله .. والذين جعلهم توكلمهم على ربه واستعانتهم به يخوضون غمارا لا يمكن لغيرهم أن يخوضها ..

فهذا نبي الله هود عليه السلام في دعوته لقومه يجد من هذا التوكل حصناً حصيناً يلجأ إليه .. قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (53) ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (54) ﴿مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ﴾ (55) ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (56) ﴿(هود)

وهذا شعيب عليه السلام وقومه يساومون ويهددون يجد التوكل على الله ملجأ الحصين .. قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِنَخِرَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرِينِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ (88) ﴿قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ (89) ﴿(الأعراف)

وهذا موسى عليه السلام بعد أن تميز بقومه عن معسكر الفراعنة يقول لهم: ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ

كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (84) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (85) وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (86) ﴿يونس﴾

وها هم الرسل جميعاً - عليهم الصلاة والسلام - يعتصمون بالتوكل على الله أمام عناد أقوامهم وإذاتهم .. قال تعالى حاكياً عنهم: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا تَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (12)﴾ (إبراهيم)

بعد هذا، فإن المؤمن يستمد قوته من الحق الذي يعتنقه، فهو لا يعمل لشهوة عارضة، ولا لنزوة طارئة، ولا لمنفعة شخصية، ولا لعصبية جاهلية، ولا للبغي على أحد من البشر، ولكنه يعمل للحق الذي قامت عليه السموات والأرض، والحق أحق أن ينتصر، والباطل أولى أن يندثر .. قال تعالى: ﴿بَلْ تَقْدِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (18)﴾ (الأنبياء) .. وقال: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (81)﴾ (الإسراء)

دخل ربعي بن عامر - مبعوث سعد في حرب القادسية - على رستم قائد جيوش الفرس، وحوله الأتباع والجنود، والفضة والذهب. فلم يبال بشيء منها، ودخل عليهم بفرسه القصيرة، وترسه الغليظة، وثيابه الخشن، فقال له رستم: من أنت ... وما أنتم؟ .. فقال له بقوة المؤمن: نحن قوم ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

المؤمن بإيمانه بالله وبالحق على أرض صلبة غير خائز ولا مضطرب، لأنه يعتصم بالعمود الوثقى، ويأوي إلى ركن شديد: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (256)﴾ (البقرة)

المؤمن بإيمانه بالله وبالحق ليس مخلوقاً ضائعاً، ولا كماً مهملاً، إنه خليفة الله في الأرض، إن تظاهر عليه أهل الباطل، فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين، والملائكة بعد ذلك ظهير .. فكيف يضعف أمام البشر ومن ورائه الملائكة؟ .. بل كيف ينحني للخلق ومعه الخالق؟ ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدِ جَمَعُوا لَكُمْ فَاعْبُدُوهُمْ فَادْعُهُمْ إِمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (173) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ دَارِهِمْ لِيُذِقَهُم مَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ (174)﴾ (آل عمران)

هذا الإيمان هو الذي جعل بضعة شبان كأهل الكهف، يواجهون بعقيدتهم ملكاً جباراً، وقوماً شديدي التعصب، غلاظ القلوب، مع قلة العدد، وانعدام الحول والطول المادي .. قال تعالى حاكياً قصتهم: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13) وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (14) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (15)﴾ (الكهف)

بعد هذا، فإن المؤمن يستمد قوته من الخلود الذي يوقن به، فحياته ليست هذه الأيام المعدودة في الأماكن المحدودة، بل إنها حياة الأبد، وإنما هو ينتقل من دار إلى دار.

وما الموت إلا رحلة غير أهما = من المنزل الثاني إلى المنزل الباقي

هذا عمير بن الحمام الأنصاري في غزوة بدر يسمع النبي ﷺ يقول لأصحابه: (والذي نفسي بيده ما من رجل

يقاتلهم اليوم - المشركين - فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة)، فيقول عمير: بخ بخ، فيقول: مم تبخخ يا ابن الحمام؟ فيقول: أليس بيني وبين الجنة إلا أن أتقدم فأقاتل هؤلاء فأقتل؟ فيقول الرسول ﷺ: بلى، وكان في يد عمير تمرات يأكل منها فقال: أأعيش حتى أكل هذه التمرات؟ إنها لحياة طويلة! وألقى التمرات من يده وأقبل يقاتل ويقول:

ركضاً إلى الله بغير زاد = إلا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد = وكل زاد عرضة للنفاد
غير التقى والصبر والرشاد

وهذا أنس بن النضر يقاتل قتال الأبطال في أحد، ويلقاه سعد بن معاذ فيقول له: يا سعد، الجنة ورب النضر: أحد ربها من وراء أحد!!

بعد هذا، فإن المؤمن يستمد قوته من القدر الذي يؤمن به، فهو يعلم أن ما أصابه من مصيبة فيأذن الله، وأن الإنس والجن لو اجتمعوا على أن ينفعوه بشيء لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له، ولو اجتمعوا على أن يضروه بشيء لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه .. ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (51) (التوبة)

والمؤمن يعتقد أن رزقه مقسوم، وأجله محدود، لا يستطيع أحد أن يحول بينه وبين ما قسم الله له من رزق، ولا أن ينتقص ما كتب الله له من أجل..

وهذه العقيدة تعطيه ثقة لا حدود لها، وقوة لا تقهرها قوة بشر.. وقد كان الرجل من سلفنا الصالح يذهب إلى الميدان مجاهداً في سبيل الله فيعرض سبيله المثبطون، ويخوفونه من ترك أولاده، فيقول: علينا أن نطيعه تعالى كما أمرنا، وهو - سبحانه - يرزقنا كما وعدنا.

وكان المعوقون والمخدلون يذهبون إلى المرأة فيثيرون مخاوفها على رزقها ورزق عيالها إذا ذهب زوجها إلى الجهاد، فتحييهم في ثقة واطمئنان: (زوجي عرفته أكلاً ولم أعرفه رزاقاً، فإن ذهب الأكل فقد بقي الرزاق!!) وكان البطل الهمام علي بن أبي طالب يخوض المعامع وهو يردد:

أي يومي من الموت أفر؟ = يوم لا يقدر أو يوم قدر؟
يوم لا يقدر لا أحذره = ومن المقدور لا ينجي الحذر

لقد ذكر السيد الجليل صاحب المهمة العالية جمال الدين الأفغاني دور القضاء والقدر في إخراج المستضعفين من وهم الاستضعاف، فقال: (الاعتقاد بالقضاء والقدر - إذا تجرد عن شناعة الجبر - يتبعه صفة الجرأة والإقدام، وخلق الشجاعة والبسالة يعث على اقتحام المهالك التي ترجف لها قلوب الأسود، وتنشق منها مرائر النمر، هذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثبات، واحتمال المكاره، ومقارعة الأهوال، ويجليها بحلل الجود والسخاء، ويدعوها إلى الخروج عن كل ما يعز عليها، بل يحملها على بذل الأرواح، والتخلي عن نضرة الحياة .. كل هذا في سبيل الحق الذي قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة.

الذي يعتقد بأن الأجل محدود: والرزق مكفول، والأشياء بيد الله، يصرفها كيف يشاء، كيف يهرب الموت في الدفاع عن حقه، وإعلاء كلمة أمته أو ملته، والقيام بما فرض الله عليه من ذلك؟

اندفع المسلمون في أول نشأتهم إلى الممالك والأقطار يفتحونها، فأدهشوا العقول، وحيروا الأبواب بما دوخوا الأمم، وقهروا الجبايرة، وامتدت سلطتهم من جبال بيرينية - الفاصلة بين أسبانيا وفرنسا - إلى جدار الصين، مع قلة عدتهم وعددهم، وعدم اعتيادهم على الأهوية المختلفة، وطباع الأقطار المتنوعة. أرغموا الملوك، وأذلوا القياصرة والأكاسرة، في مدة لا تتجاوز ثمانين سنة، إن هذا ليعد من خوارق العادات وعظائم المعجزات.

دمروا بلاداً ودكوا أطواداً، ورفعوا فوق الأرض أرضاً ثانية من القسط، وطبقة أخرى من النفع، وسحقوا رؤوس الجبال تحت حوافر جيادهم، وأقاموا بدلها جبلاً وتلالاً من رؤوس النابذيين لسلطانهم، وأرجفوا كل قلب، وأرعدوا كل فریصة، وما كان قاتلهم وسائقهم إلى جميع هذا إلا الاعتقاد بالقضاء والقدر.

هذا الاعتقاد هو الذي ثبتت به أقدام بعض الأعداد القليلة منهم أمام جيوش يغص بها الفضاء ويضيق بها بسيط الغبراء، فكشفوهم عن مواقعهم، وردوهم على أعقابهم¹

بعد هذا، فإن المؤمن يستمد قوته من إخوانه المؤمنين، فهو يشعر بأهم له وهو لهم، يعينونه إذا شهد، ويحفظونه إذا غاب، ويواسونه عند الشدة، ويؤنسونه عند الوحشة، ويأخذون بيده إذا عثر، ويسندونه إذا خارت قواه، فهو حين يعمل بحسب مشاركتهم، وحين يجاهد يضرب بقوتهم، إذا حارب جيشاً من ألف مؤمن شعر كل فرد منهم أنه يقاتل بقوة ألف لا بشخصه وحده، وشعر أن هؤلاء الألف يعيشون في نفسه - كما يعيش هو في أنفسهم - حباً لهم، وحرصاً عليهم، وضناً بهم، فإذا ضربت الألف في الألف كان المجموع المعنوي ألف ألف رجل في الحقيقة وإن كانوا ألفاً واحدة في لغة الإحصاء والتعداد.

وقد شبه النبي ﷺ قوة المؤمن بإخوانه المؤمنين باللينة في البناء المتين، فقال: (المؤمن للمؤمن كالبنیان يشد بعضه بعضاً)²

اللينة وحدها ضعيفة مقدور عليها، ولكنها داخل البنیان أصبحت مرتبطة به ارتباطاً لا ينفصل، أصبحت جزءاً من الكل الكبير، لا يسهل كسرها، أو زحزحتها عن موضعها فإن قوتها هي قوة البنیان كله الذي يشدها إليه.

الثمار:

قالوا: عرفنا مصادر قوة المؤمن .. والتي تخرجه من وهم الاستضعاف .. فما ثمار هذه القوة التي يحملها الإيمان؟ قالت سمية: أول الثمار التي يجنيها المؤمن من قوته الإيمانية هو التزامه الحق مع القريب والبعيد .. فالمؤمن صادق في كل حال، عدل في كل حين، يعترف بالخطأ إذا زلت به قدمه غير جاحد ولا مكابر، ولا مبرر لخطئه بخطأ آخر، أو يالقاه التهمة على غيره، وهو يقول الحق ولو كان مرأً، ويقوم لله شهيداً بالقسط ولو على نفسه أو الوالدين والأقربين، ويعدل مع العدو عدله مع الصديق، لا يعرف التحيز، ولا يعرف المحاباة.

بعث النبي ﷺ عبد الله بن رواحة إلى خيبر، ليقوم بتقدير ثمر النخل فيها، إذ كان لهم نصفها، وللمسلمين نصفها، وقام عبد الله بالمهمة فقال: في هذه كذا، وفي هذه كذا، فجمع اليهود له حلياً من حلى نسائهم وقالوا له: هذا لك، وخفف عنا في القسمة وتجاوز فقال: يا معشر اليهود .. والله والله إنكم لمن أبغض خلق الله إلي.. وما ذاك بحاملي أن

(1) بتصرف من (العروة الوثقى، ص 53)

(2) رواه البخاري ومسلم.

أحيف عليكم.. أما الذي عرضتم له من الرشوة فإنها سحت، وأنا لا تأكلها. فلم يملك اليهود إلا أن قالوا: بهذا قامت السموات والأرض.

وبلغ عمر بن عبد العزيز أن ابناً له اشترى خاتماً ففصه بألف درهم، فبعث إليه يقول: أما بعد .. فقد بلغني أنك اشتريت خاتماً ففصه بألف درهم، فإذا بلغك كتابي هذا فبعه وأطعم بثمانه ألف جائع! واشتر خاتماً ففصه من حديد .. واكتب عليه: رحم الله امرأةً عرف قدر نفسه..

ومن ثمار هذه القوة شجاعته في مواطن البأس وثباته في موضع الشدة، فهو لا تتزلزل له قدم، ولا يتزعزع له ركن، لا يخشى الناس قولوا أو كتروا، ولا يبالي بالأعداء وإن أرغوا وأزبدوا، انسدت أبواب الخوف كلها في نفسه، فلم يعد يخاف إلا من ذنبه، ومن سخط ربه.

إذا قيل له: إن أعدائك أكثر عدداً تلاقه قوله تعالى: ﴿.. كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (249) ﴿البقرة﴾

وإذا قيل: إنهم أكثر مالا .. قرأ عليهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ (36) ﴿الأنفال﴾
وإذا حذروه من مكرهم وكيدهم أحاجهم بما قال الله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (54) ﴿آل عمران﴾

وإذا قيل إنهم أمنع حصوناً .. قرأ عليهم: ﴿.. وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ (2) ﴿الحشر﴾
إنه يسير بمعونة الله، وينظر بنور الله، ويقا تل بسيف الله، ويرمي بقوة الله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (17) ﴿الأنفال﴾

ومن ثمار هذه القوة إخلاصه القول والعمل والنية لوجه ربه، فتراه يعمل الخير، ويجارب الشر، وإن لم يكن له فيه نفع مادي، ولا هوى شخصي، لا يهيمه الشهرة ولا المحمدة ولا رضا الناس، بل يؤثر الخفاء على الشهرة، وعمل السر على عمل العلانية، تجنباً للرياء، وبعداً بالنفس عن مزلق الشرك الخفي، متمنياً أن يكون ممن يحبهم الله، من الأبرار الأتقياء الأخفياء، الذين إذا حضروا لم يعرفوا وإذا غابوا لم يفتقدوا، محاولاً أن يكون كالجدع من الشجرة بمدّها بالغذاء وهو في باطن الأرض لا تراه العيون، وكالأساس من البنيان، يختفي في الأعماق وهو الذي يمسك البناء أن يزول.

وفي بعض الآثار تصوير لطيف للقوة الروحية للإنسان حين يتجرد للحق، ويخلص له، تصوير يجعله أثقل في ميزان الحق من الأرض والجبال، والحديد النار والماء .. يقول الأثر: (لما خلق الله الأرض جعلت تميد وتتكفأ، فأرساها بالجبال فاستقرت فتعجب الملائكة من شدة الجبال فقالت: يا ربنا، هل خلقت خلقاً أشد من الجبال؟ قال: نعم .. الحديد .. قالوا: فهل خلقت خلقاً أشد من الحديد؟ قال: نعم، النار .. قالوا: فهل خلقت خلقاً أشد من النار؟ قال: نعم، الماء .. قالوا: فهل خلقت خلقاً أشد من الماء؟ قال: نعم، الريح قالوا: فهل خلقت خلقاً أشد من الريح؟ قال: نعم، ابن آدم .. إذا تصدق صدقة يمينه فأخفاها من شماله)

3 – الثبات

بعد أن تحدثت سمية وأطالت عن الثمار اليانعة الطيبة التي يجدها المؤمن في شجرة القوة التي جعلها الله فيه، قامت أخت لها .. كانت تحمل نفس قوتها، ونفس مبادئها، ونفس النهج الذي تنهجه، وقد علمت بعد ذلك أن اسمها (بنت الهدى)¹

قامت، وقالت: إن من أعظم الثمار التي يجنيها المؤمن من إيمانه بالإضافة إلى الثمار التي ذكرتها أختي سمية ثمرة الثبات .. فلا يمكن للمستضعف أن يخرج من استضعافه ما لم يكن يحمل كل ما يجعله ثابتا كالطود الأشم .. أو كالشجرة الراسخة الجذور.

لن أطيل الحديث عليكم .. ولن أتحدث لكم من عندي .. بل سأتلو عليكم بعض كلام ربي .. وبعض ما ذكره المحدثون عن نموذج القوة الأكبر محمد ﷺ، وآل بيته الكرام الطاهرين .. وأصحابه الطاهرين المحننين ..

وأول ما أبدأ به ما ذكره القرآن الكريم عن ثبات الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – جميعا في وجه المحن التي واجهتهم أثناء دعوتهم إلى الله .. قال تعالى: ﴿لَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَأَنْ يَعْلَمَهُمُ اللَّهُ حَاءَ نُهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (9) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفَرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَنْ مَا كَانُوا آبَاؤُنَا فَأَثُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (10) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (11) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصَبِرَنَّ عَلَىٰ مَا أَدْبَأْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (12) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (13) وَلَتُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (14)﴾ (إبراهيم)

لقد ذكر القرآن الكريم هذا الثبات جملة وتفصيلا حتى تتخذ الأنبياء قدوة لنا في تلك القوة التي جعلتهم يواجهون أمهم مواجهة صارمة ليس فيها أي خنوع أو ذلة.

ومن نماذج الثبات التي ذكرها القرآن الكريم نموذج سحرة فرعون الذين تحولوا من خدم مترلفين متذللين إلى أقوياء ثابتين راسخين .. ولم يكن ذلك إلا بسبب الإيمان الذي تنورت به قلوبهم ..

قال تعالى يحكي عنهم: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (113) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُفْرَرِينَ (114) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (115) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (116) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (117) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (118) فَغَلَبُوا هَذَاكَ وَأَتَقَلَّبُوا صَاغِرِينَ (119) وَالْقِيَ السَّحَرَةُ سَاحِلِينَ (120) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (121) رَبُّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (122) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ أَدِّنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا

(¹) أشير به إلى بنت الهدى أخت محمد باقر الصدر وقد استشهدت مع أخيها في سجون الطواغيت، وقد سبق أن تحدثنا عن أخيها شهيد الإسلام محمد باقر الصدر في الرسالة السابقة.

لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (123) لَأُطِيعَنَّ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (124) قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُتَقَلِّبُونَ (125) وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿(126)﴾ (الأعراف)

ومن نماذج الثبات التي ذكرها القرآن الكريم قصة الرسل وقصة من ساندتهم من الدعوة إلى الله .. قال تعالى : ﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (13) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (14) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذُوبُونَ (15) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (16) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (17) قَالُوا إِنَّا نَطَّيْرُنَا بِكُمْ لَيْنٍ لَمْ يَبْتِهُوا لَنَرْجَمَنَّكُمْ وَيُكَيِّسَنَّكُمْ مِمَّا كَذَبَ الْإِلَهُ (18) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (19) وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21) وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22) أَلَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُون (23) إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (24) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ (25) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿(27)﴾ (يس)

ومنها قصة أصحاب الأعداء .. قال تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (1) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (2) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (3) قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْذُودِ (4) النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا فُعُودٌ (6) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (9) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (10) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿(11)﴾ (البروج)

وهذه بعض النماذج التي حكاها القرآن عن ثبات المستضعفين ..

أما النبي ﷺ فقد ذكر الكثير من نماذج الثبات:

منها قصة ماشطة فرعون التي حكى رسول الله ﷺ قصتها، فقال: (لما كانت الليلة التي أسرى بي فيها، أتت عليّ رائحة طيبة، فقلت يا جبريل ما هذه الرائحة؟ فقال: هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها. قال: قلت: وما شأنها؟ قال: بينما هي تمشط ابنة فرعون ذات يوم إذ سقطت المدرى من يديها، فقالت: بسم الله، فقالت لها ابنة فرعون: أي؟ قالت: لا، ولكن ربى ورب أبيك الله، قالت: أخبره بذلك؟ قالت: نعم. فأخبرته فدعاها فقال: يا فلانة، وإن لك رباً غيري؟ قالت: نعم، ربى وربك الله. فأمر ببقرة من نحاس فأحميت، ثم أمر بها أن تلقى هي وأولادها، قالت: إن لي إليك حاجة.. قال: وما حاجتك؟ قالت: أحب أن تجمع عظامي وعظام ولدى في ثوب واحد وتدفنا. قال: ذلك لك علينا من الحق. قال: فأمر بأولادها فألقوا بين يديها واحداً واحداً، إلى أن انتهى ذلك إلى صبي لها مرضع، وكأها تقاعست من أجله. قال: يا أمه باقتحمي، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فاقتممت¹)

وقد كان رسول الله ﷺ في أيام الشدة يخبر أصحابه بما عانى الأنبياء وورثتهم من أنواع المحن، وكيف لم يصددهم

(¹) رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني في الكبير وفي الأوسط والبخاري والحاكم والبيهقي في الدلائل.

ذلك عن دينهم .. ففي الحديث عن خباب بن الأرت ، قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ ، وهو متوسد بردة له ، في ظل الكعبة ، فقلنا : ألا تستنصر لنا ، ألا تدعو لنا ، فقال : (قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل ، فيحفر له في الأرض ، فيجعل فيها ، فيجاء بالمنشار ، فيوضع على رأسه ، فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد ، ما دون لحمه وعظمه ، فما يصده ذلك عن دينه ، والله ، ليتمن هذا الأمر ، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخاف إلا الله ، والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون)¹

وكان ﷺ أسوة في الثبات بكل أنواعه² .. قال ﷺ يحبر عن نفسه : (لقد أوديت في الله عز وجل وما يؤذى أحد ، وأخفت في الله وما يخاف أحد ، ولقد أتت على ثلاثة من بين يوم وليلة وما لي ولعالي طعام يأكله ذو كبد إلا ما يورارى إبط بلال)³

وقد حكى عقيل بن أبي طالب بعض مواقف ثبات النبي ﷺ .. والتي لا تزال أسوة لكل المستضعفين في الأرض ، فقال : جاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا : يا أبا طالب ، إن ابن أخيك يأتينا في أفئتنا ، وفي نادينا ، فيسمعنا ما يؤذينا به ، فإن رأيت أن تكفه عنا فافعل ، فقال لي : يا عقيل ، التمس لي ابن عمك ، فأخرجته من كبس من أكباس أبي طالب ، فأقبل يمشي معي يطلب الفياء يمشي فيه ، فلا يقدر عليه ، حتى انتهى إلى أبي طالب ، فقال له أبو طالب : يا ابن أخي ، والله ما علمت إن كنت لي لمطاعا ، وقد جاء قومك يزعمون أنك تأتيهم في كعبتهم ، وفي ناديهم تسمعهم ما يؤذيههم ، فإن رأيت أن تكف عنهم ، فحلقت بصره إلى السماء ، فقال : (والله ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يشعل أحدكم من هذه الشمس شعلة من نار) ، فقال أبو طالب : (والله ما كذب ابن أخي قط ، ارجعوا راشدين)⁴

وذكر المؤرخون أنه حدث أن قريشا حين قالت لأبي طالب هذه المقالة بعث إلى رسول الله ﷺ ، فقال له : يا ابن أخي ، إن قومك قد جاءوني فقالوا كذا وكذا فأبق علي وعلى نفسك ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق أنا ولا أنت ، فاكفف عن قومك ما يكرهون من قولك ، فظن رسول الله ﷺ أن قد بدا لعمه فيه ، وأنه خاذله ومسلمه وضعف عن القيام معه ، فقال رسول الله ﷺ : (يا عم لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله تعالى أو أهلك في طلبه) ، ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى ، فلما ولى قال له حين رأى ما بلغ الأمر برسول الله ﷺ : يا ابن أخي فأقبل عليه ، فقال : (امض على أمرك وافعل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبدا)⁵

وعن عبد الله بن جعفر قال : لما مات أبو طالب عرض لرسول الله ﷺ سفينة من سفهاء قريش فألقى عليه ترابا ، فرجع إلى بيته ، فأتت امرأة من بناته تمسح عن وجهه التراب وتبكي قال : فجعل يقول : (أي بنية ، لا تبكين ، فإن الله عز وجل مانع أباك) ، ويقول ما بين ذلك : (ما نالت مني قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب)⁶

(1) رواه البخاري.

(2) ذكرنا التفاصيل الكثيرة المرتبطة بثبات النبي ﷺ في فصل (ثبات) من رسالة (معجزات حسية) من هذه السلسلة.

(3) رواه أحمد.

(4) رواه الطبراني في الأوسط والكبير ، إلا أنه قال : من جلس ، مكان : كبس .. ورواه أبو يعلى باختصار يسير من أوله ، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح ، وهذا من دلائل إيمان أبي طالب - رضي الله عنه - وقد ذكرنا بعض التفاصيل المثبتة لذلك في رسالة (أسرار الأقدار) من سلسلة (عيون الحقائق)

(5) رواه ابن إسحق.

(6) رواه ابن إسحاق.

وعن أشعث قال حدثني شيخ من بني مالك بن كنانة قال: رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي الحجاز يتخللها يقول: (يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)، قال: وأبو جهل يحنى عليه التراب ويقول: (يا أيها الناس لا يغرنكم هذا عن دينكم، وإنما يريد لتتركوا آلهتكم وتتركوا اللات والعزى)¹

وعن عائشة أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: (لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبي إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي ، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فناداني ملك الجبال ، فسلم على ثم قال يا محمد ، فقال ذلك فيما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ، فقال النبي ﷺ: (بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً)²

وعن سهل بن سعد قال: جرح وجه رسول الله ﷺ يوم أحد، وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، فكانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تغسل الدم، وكان علي بن أبي طالب يسكب عليها باجن، فلما رأته فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة حصير فأحرقته حتى صار رمادا، ثم ألصقته بالجرح فاستمسك الدم.³

سكنت قليلا، ثم قالت: وعلى هذا الدرب سار كل المستضعفين من أتباعه .. لا ينهيهم تهديد، ولا يهد من ثباتهم مخافة:

وكان منهم عمار بن ياسر وآل بيته الشهداء الطاهرين ..
عن جابر أن النبي ﷺ مر بعمار بن ياسر وبأهله يعذبون في الله - عز وجل - فقال: (أبشروا آل ياسر موعدكم الجنة)⁴

وكان منهم بلال بن رباح وغيره من الطيبين الطاهرين من قديسي هذه الأمة ..
فعروة بن الزبير قال: كان بلال لجارية من بني جُمح، وكانوا يعذبونه برمضاء مكة، يلصقون ظهره بالرمضاء لكي يشرك، فقول: أحد أحد، فيمر به ورقة - وهو على تلك الحال - فيقول: أحد، أحد، يا بلال. والله، لئن قتلتموه لأتخذنه حناناً⁵.

وَعَنْ مُجَاهِدٍ ، قَالَ : أَوَّلُ مَنْ أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ سَبْعَةٌ : رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَأَبُو بَكْرٌ وَبَلَالٌ وَحَبَابٌ وَصُهَيْبٌ وَعَمَّارٌ وَسَمِيَّةُ أُمُّ عَمَّارٍ ، قَالَ : فَأَمَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَمَنَعَهُ عَمُّهُ ، وَأَمَّا أَبُو بَكْرٌ فَمَنَعَهُ قَوْمُهُ وَأُخِذَ الْآخَرُونَ فَأَلْبَسُوهُمْ أَدْرَاعَ الْحَدِيدِ ، ثُمَّ صَهَرُوا فِي الشَّمْسِ حَتَّى بَلَغَ الْجُهْدُ مِنْهُمْ كُلِّ مَبْلَغٍ ، فَأَعْطَوْهُمْ كُلَّ مَا سَأَلُوا ، فَجَاءَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ قَوْمُهُ بِأَنْطَاعِ الْأَدَمِ فِيهَا الْمَاءُ فَأَلْقَوْهُمْ فِيهِ ، ثُمَّ حَمَلُوا بِجَوَانِبِهِ إِلَّا بَلَالًا ، فَجَعَلُوا فِي عُنُقِهِ حَبْلًا ، ثُمَّ أَمَرُوا

(1) رواه أحمد.

(2) رواه البخاري ومسلم.

(3) رواه مسلم.

(4) رواه الطبراني في الأوسط.

(5) رواه الزبير بن بكار وهو مرسل جيد، انظر: الإصابة في معرفة الصحابة (ج 3 / ص 244)

صِيْبَانَهُمْ يَسْتَنْدُونَ بِهِ بَيْنَ أَحَشِيَّيْ مَكَّةَ وَجَعَلَ يَقُولُ: أَحَدٌ أَحَدٌ¹.

سكنت قليلاً، ثم قالت² - وقد كستها سحابة من الحزن العميق - : لن أطيل عليكم .. اسمحوا لي فقط أن أحتم حديثي بنموذج فريد في تاريخ الإنسانية .. مثله رجل من آل بيت رسول الله ﷺ .. قال فيه ﷺ، وكأنه يثني على هذا الدور البطولي الذي مثله مع أهل بيته الطاهرين: (حسين مني وأنا من حسين)³

لقد كان الحسين هو صاحب هذا الدور ..

لقد كان الحسين هو مثال التضحية والثبات في أرفع درجاتها ..

لقد سمعت حديثه من أبي .. وأبي سمعه من آبائه .. كنا ننشده، فتمتلئ عزة وأنفة ..

نعم نمتلي معهما حزنا .. ولكنه حزن لا يختلف عن حزن رسول الله ﷺ على الإعراض عنه وعن دين الله ..

فلذلك اسمح لي .. واسمحوا لي أيها الجمع المبارك أن أنشد لكم تلك الملحمة البطولية العظيمة التي زرعت في

الأمة من العزة والأنفة من أن تذلم ما لم تستطع جميع المدارس أن تزرعه ..

بصوت محتلظ بمشرحة الدموع أخذت بنت الهدى تنشد الجمع ملحمة الحسين، قالت: في ذلك المحل الرفيع قام

الحسين، وقال لأصحابه الذين وقفوا معه بعد أن حمد الله وأثنى عليه: (أما بعد، فإني لا أعلم أصحاباً خيراً منكم، ولا

أهل بيت أفضل وأبر من أهل بيتي، فجزاكم الله عني جميعاً خيراً، وهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً، وليأخذ كل

رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، وتفرقوا في سواد هذا الليل وذروني وهؤلاء القوم، فإنهم لا يريدون غيري)

في ذلك المحل الحرج قال له إخوانه وأبناءه وأبناء عبد الله بن جعفر⁴: (ولم نفعل ذلك، لنبقي بعدك! لا أرنا الله

ذلك أبداً) .. وبدأهم بهذا القول العباس بن علي⁵، ثم تابعوه.

ثم نظر الحسين إلى بني عقيل، وقال: (حسبكم من القتل صاحبكم مسلم، اذهبوا فقد أذنت لكم)

فأجابوه قائلين: يا ابن رسول الله .. فماذا يقول الناس لنا، وماذا نقول لهم، إذ تركنا شيخنا وكبيرنا وسيدنا

(1) رواه أبو نعيم في الحلية.

(2) أوردنا هنا - باختصار - ما وقع من تضحيات عظيمة في كربلاء باعتبارها رمزا من الرموز التي تدل على اهتمام

الصالحين من المسلمين - بدءاً من آل بيت النبي ﷺ - بقضايا العدل، ورفض الجور والاستبداد .. وفي هذه القصة أعظم رد

على علماء السلاطين الذين شرعوا للاستبداد، وبرروا للمستبددين حورهم وظلمهم واستبدادهم.

وقد كان مصدرنا الأساسي في هذه الأحداث التي أوردناها كتاب (المهوف على قتلى الطفوف) لمؤلفه السيد رضي الدين

أبو القاسم علي بن سعد الدين المعروف بابن طاووس.

(3) رواه أحمد الترمذي وابن ماجه.

(4) عبدالله بن جعفر بن أبي طالب، صحابي، ولد بأرض الحبشة لما هاجر أبواه إليها، وهو أول من ولد لها من المسلمين، كان

كربما يسمى بحر الجود، وللشعراء فيه مدائح، وكان أحد الأمراء في جيش علي يوم صفين، توفي بالمدينة سنة 80 هـ، وقيل:

غير ذلك.

(5) هو أبو الفضل العباس بن الامام علي بن أبي طالب - رضي الله عنهم - وُلد سنة (26 هـ) في اليوم الرابع من شهر

شعبان. له العديد من الألقاب ومنها قمر بني هاشم، والسقاء (لقيامه بسقاية عطاشى أهل البيت) و بطل العلقمي (العلقمي هو

اسم للنهر الذي استشهد على ضفافه) و حامل اللواء و كبش الكتيبة (لدوره في معركة كربلاء) و العميد و حامي الطعينة

(لدوره في حماية و حراسة نساء أهل البيت طيلة انتقالهنّ من يثرب إلى كربلاء). استشهد مع أخيه الإمام الحسين بن علي بن أبي

طالب في واقعة الطف في يوم عاشوراء سنة 61 هـ في كربلاء على يد الجيش الأموي في زمن خلافة يزيد بن معاوية.

وإمامنا وابن بنت نبينا، لم نرم معه بسهم، ولم نطعن معه برمح، ولم نضرب معه بسيف، لا والله يا ابن رسول الله لا نفارقك أبداً، ولكننا نقيك بأنفسنا حتى نقتل بين يديك ونرد موردك، فقيح الله العيش بعدك)

ثم قام مسلم بن عوسجة¹، وقال: (نحن نخليك هكذا ونصرف عنك وقد أحاط بك هذا العدو، لا والله لا يراني الله أبداً وأنا أفعل ذلك حتى أكسر في صدورهم رمحي وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمة بيدي، ولو لم يكن لي سلاح أقاتلهم به لقدفتهم بالحجارة، ولم أفارقك أو أموت دونك)

وقام سعيد بن عبد الله الحنفي فقال: (لا والله يا ابن رسول الله لا نخليك أبداً حتى يعلم الله أنا قد حفظنا فيك وصية رسوله محمد ﷺ، ولو علمت أي أقتل فيك ثم أحيى ثم أحرقت حياً ثم أذرى — يفعل بي ذلك سبعين مرة — ما فارقتك حتى ألقى حمامي من دونك، فكيف وإنما هي قتلة واحدة ثم أنال الكرامة التي لا انتضاء لها أبداً؟!)

ثم قام زهير بن القين وقال: (والله يا ابن رسول الله لوددت أي قتلت ثم نشرت ألف مرة وأن الله يدفع بذلك القتل عنك وعن هؤلاء الفتية من إخوانك وولدك وأهل بيتك)

وهكذا تكلم جماعة من أصحابه بمثل ذلك وقالوا: (أنفسنا لك الغداء نقيك بأيدينا ووجوهنا، فإذا نحن قتلنا بين يديك نكون قد وفينا لربنا وقضينا ما علينا)

في تلك الحال قيل لمحمد بن بشير الحضرمي: قد أسر ابنك بئغر الري، فقال: (عند الله أحتسبه ونفسي، ما كنت أحب أن يؤسر وأن أبقى بعده)، فلما سمع الحسين قوله قال: (رحمك الله، أنت في حل من بيعتي، فاعمل في فكاك ابنك)، فقال الحضرمي: أكلتني السباع حياً إن فارقتك.. قال: (فأعط ابنك هذه البرود² يستعين بها في فكاك أخيه)، فأعطاه خمسة أثواب قيمتها ألف دينار.

وبات الحسين وأصحابه تلك الليلة، ولهم دوي كدوي النحل، ما بين راعع وساجد وقائم وقاعد، فعبر إليهم في تلك الليلة من عسكر ابن سعد اثنان وثلاثون رجلاً.

وعندما ركب أصحاب عمر بن سعد، بعث الحسين بعض أصحابه، فوعظهم، فلم يسمعوا وذكرهم فلم ينتفعوا. عندها ركب الحسين ناقته أو فرسه، فاستنصتهم فأنتصتوا، فحمد الله وأثنى عليه وذكره بما هو أهله، وصلى على محمد ﷺ وعلى الملائكة والأنبياء والرسل، وأبلغ في المقال، ثم قال: تبا لكم أيها الجماعة وترحاً حين استصرختمونا والهين فأصرخناكم موحفين، سللتم علنا سيفاً لنا في إيمانكم، وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدونا وعدوكم، فأصبحتم أولياء لأعدائكم على أوليائكم بغير عدل أفسوه فيكم ولا أمل أصبح لكم فيهم.

فهلاً تركتمونا والسيوف مشيماً والجأش ضامراً والرأي لما يستحصف، ولكن أسرعتم إليها كطير الدبا، وتدايعتم إليها كنهافت الفراش.. فسحقاً لكم يا عبيد الأمة، وشرار الأحزاب، ونبذة الكتاب، ومحرفي الكلم، وعصبة الآثام، ونفثة الشيطان، ومطفئ السنن.. أهؤلاء تعضدون، وعنا تتخاذلون؟!)

أجل والله غدر فيكم قديم وشحت عليه أصولكم، وتأزرت عليه فروعكم، فكنتم أحبث شجاً للناظر وأكلة

(1) هو مسلم بن عوسجة الأسدي، من أبطال العرب في صدر الإسلام، أول شهيد من أنصار الحسين بعد قتل الحملة الأولى، كان صحابياً ممن رأى رسول الله ﷺ، وقد سبق أن ذكرنا ترجمته في هذه الرسالة.

(2) البرد: ثوب مخطط، وقد يقال لغير المخطط أيضاً، وجمعه برود وأبرد، ومنه الحديث: الكفن يكون برداً.

للغاصب.

ثم قال : (ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين: بين السلة، والذلة، وهيهاث منا الذلة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون وحجور طابت وحجور طهرت وأنوف حمية ونفوس أبية: من أن تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام)

ثم قال : (ألا وإن زاحف بهذه الأسرة مع قلة العدد وخذلان الناصر)
ثم أنشد بعض أبيات لفروة بن مسيك المرادي¹ يقول فيها:

إذا ما الموت رفع عن أناس كلاكله أناخ بأخرينا

فأفنى ذلك سروات قومي كما أفنى القرون الأولينا

فلو خلد الملوك إذا خلدنا ولو بقي الكرام إذا بقينا

فقل للشامتين بنا: أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

ثم قال: (أما والله لا تلبثون بعدها إلا كريت ما يركب الفرس حتى يدور بكم دور الرحي ويقلق بكم قلق المحور عهدٌ عهدته إلي أبي عن جدي، ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُون ﴾ (يونس: من الآية 71) .. ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (هود: 56)

ثم نزل ودعا بفرس رسول الله ﷺ ، فركبه وعبى أصحابه للقتال.. حينها تقدم عمر بن سعد ورمى نحو عسكر الحسين بسهم وقال: اشهدوا لي عند الأمير: أي أول من رمى، وأقبلت السهام من القوم كأنها القطر. فقال الحسين لأصحابه: (قوموا رحمكم الله إلى الموت، إلى الموت الذي لا بد منه، فإن هذه السهام رسل القوم إليكم).. فاقتتلوا ساعة من النهار حملةً وحملةً، حتى قتل من أصحاب الحسين جماعة.

فعندها ضرب الحسين يده على لحيته وجعل يقول: (اشتد غضب الله على اليهود إذ جعلوا له ولدًا، واشتد غضبه على النصراري إذ جعلوه ثالث ثلاثة، واشتد غضبه على الجوس إذ عبدوا الشمس والقمر دونه، واشتد غضبه على قوم اتفقت كلمتهم على قتل ابن بنت نبيهم .. أما والله لا أجيئهم إلى شيء مما يريدون حتى ألقى الله تعالى وأنا مخضب بدمي)

ثم صاح الحسين : (أما من مغيثٍ يعيئنا لوجه الله، أما من ذاب يذب عن حرم رسول الله)، فإذا الحر بن يزيد

(¹) فروة بن مسيك أو مسيكة بن الحارث بن سلمة الغظيفي المرادي، أبو عمرو، صحابي، من الولاة، له شعر، وهو من اليمن، كان موالياً لمملوك كندة في الجاهلية، رحل إلى مكة سنة تسع أو عشر وأسلم، سكن الكوفة في أواخر أعوامه، مات سنة 30 هـ.

الرياحي قد أقبل على عمر بن سعد، فقال له: أمقاتل أنت هذا الرجل؟ فقال: إي والله قتالاً أيسره أن تطير الرؤوس وتطيح الأيدي.. فمضى الحر ووقف موقفاً من أصحابه وأخذته مثل الإفكل.. فقال له المهاجر بن أوس: والله إن أمرك لمريب، ولو قيل: من أشجع أهل الكوفة لما عدوتك، فما هذا الذي أراه منك؟ فقال: إني والله أخير نفسي بين الجنة والنار، فوالله لا أختار على الجنة شيئاً ولو قطعت وأحرقت.

ثم ضرب فرسه قاصداً إلى الحسين ويده على رأسه وهو يقول: (اللهم إني تبت إليك فتب علي، فقد أرعبت قلوب أوليائك وأولاد بنت نبيك)

وقال للحسين: جعلت فداك أنا صاحبك الذي حبسك عن الرجوع وجمع بك، والله ما ظننت أن القوم يبلغون بك ما أرى، وأنا تائب إلى الله، فهل ترى لي من توبة؟ فقال الحسين: (نعم .. يتوب الله عليك .. فانزل)، فقال: أنا لك فارساً خيراً مني راجلاً، وإلى النزول يؤول آخر أمري.

ثم قال: فإذا كنت أول من خرج عليك، فأذن لي أن أكون أول قتيل بين يديك، لعلني أكون ممن يصفح جدك محمداً غداً في القيامة.

فأذن له، فجعل يقاتل أحسن قتال، ثم استشهد، فحمل إلى الحسين، فجعل يمسح التراب عن وجهه ويقول: (أنت الحر كما سمتك أمك، حر في الدنيا وحر الآخرة)

وخرج برير بن خضير، وكان زاهداً عابداً، فخرج إليه يزيد بن معقل، واتفقا على المباهلة إلى الله: في أن يقتل الحق منهما المبطل، فتلاقيا، فقتله برير، ولم يزل يقاتل حتى قتل.

وخرج وهب بن حباب الكلبي، فأحسن في الجهاد وبالغ في الجهاد، وكان معه زوجته ووالدته، فرجع إليهما وقال: يا أمه، أرضيت أم لا؟ فقالت: لا، ما رضيت حتى تقتل بين يدي الحسين .. وقالت امرأته: بالله عليك لا تفجعني في نفسك.. فقالت له أمه: يا بني اعزب عن قولها وارجع فقاتل بين يدي ابن بنت نبيك تنل شفاعة جده يوم القيامة.. فرجع، ولم يزل يقاتل حتى قطعت يده، فأخذت امرأته عموداً، فأقبلت نحوه وهي تقول: فداك أبي وأمي قاتل دون الطيبين حرم رسول الله ﷺ، فأقبل ليردها إلى النساء، فأخذت بثوبه، وقالت: لن أعود دون أن أموت معك.. فقال الحسين: (جزيتم من أهل بيت خيراً، ارجعي إلى النساء يرحمك الله)، فانصرفت إليهن، ولم يزل الكلبي يقاتل حتى قتل.

ثم خرج مسلم بن عوسجة، فبالغ في قتال الأعداء، وصبر على أهوال البلاء، حتى سقط إلى الأرض وبه رمق، فمشى إليه الحسين ومعه حبيب بن مظاهر، فقال له الحسين: (رحمك الله يا مسلم، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً)، ودنا منه حبيب، فقال: عز والله علي مصرعك يا مسلم .. أبشر بالجنة.. فقال له بصوت ضعيف: بشرك الله بخير.. ثم قال له حبيب: لولا أنني أعلم أي في الأثر لأحببت أن توصي إلي بكل ما أمهك.. فقال له مسلم: فيني أوصيك بهذا — وأشار بيده إلى الحسين — فقاتل دونه حتى تموت.. فقال له حبيب: لأنعمك عيناً.. ثم مات.

فخرج عمرو بن قرظة الأنصاري، فاستأذن الحسين، فأذن له، فأبلى بلاء حسناً حتى قتل جمعاً كثيراً من حزب ابن زياد، وكان لا يأتي إلى الحسين سهمٌ إلا اتقاه بيده ولا سيف إلا تلقاه بمهجته، فلم يكن يصل إلى الحسين سوء، حتى أثنى بالجراح.. فالتفت إلى الحسين وقال: يا بن رسول الله أوفيت؟ قال: (نعم، أنت أمامي في الجنة، فاقراً رسول

الله ﷺ عني السلام وأعلمه أي في الأثر)، فقاتل حتى قتل.

ثم برز جون مولى أبي ذر، وكان عبداً أسوداً، فقال له الحسين: (أنت في إذن مني، فإنما تبعنا طلباً للعافية، فلا تتبل بطريقنا)، فقال: يا ابن رسول الله أنا في الرخاء أحس قصاعكم، وفي الشدة أخلدكم، والله إن رجي لمتن، وإن حسبي للقيم ولوني لأسود، فتنفس علي بالجنة، فيطيب رجي ويشرف حسبي ويبيض وجهي، لا والله لا أفارقكم حتى يختلط هذا الدم الأسود مع دمايتكم). ثم قاتل حتى قتل.

ثم برز عمرو بن خالد الصيداوي، فقال للحسين: (يا أبا عبد الله، جعلت فداك قد هممت أن ألحق بأصحابي، وكرهت أن أتخلف فأراك وحيداً فريداً بين أهلك قتيلاً)، فقال له الحسين: (تقدم، فإننا لا حقون بك عن ساعة)، فتقدم فقاتل حتى قتل.

وجاء حنظلة بن سعد الشبامي، فوقف بين يدي الحسين يقيه السهام والسيوف والرماح بوجهه ونحره، وأخذ ينادي: (يا قوم يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب (30) مثل داب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلماً للعباد (31) ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد (32) يوم تكونون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد (33)﴾ (غافر) .. يا قوم لا تقتلوا حسيناً، فيسحتكم الله بعذاب، وقد خاب من افترى)، ثم الفتت إلى الحسين وقال: (أفلا نروح إلى ربنا ونلحق بأصحابنا؟)، فقال له: (بل رح إلى ما هو خير لك من الدنيا وما فيها وإلى ملك لا يبلى)، فتقدم، فقاتل قتال الأبطال، وصبر على احتمال الأهوال، حتى قتل. وحضرت صلاة الظهر، فأمر الحسين زهير بن القين وسعيد بن عبد الله الحنفي أن يتقدما أمامه بنصف من تخلف معه، ثم صلى بهم صلاة الخوف.

فوصل إلى الحسين سهم، فتقدم سعيد بن عبد الله الحنفي، ووقف يقيه بنفسه، ما زال ولا تحطى حتى سقط إلى الأرض، وهو يقول: (اللهم العنهم لعن عاد وثمود، اللهم أبلغ نبيك عني السلام، وأبلغه ما لقيت من ألم الجراح، فإني أردت ثوابك في نصر ذرية نبيك)، ثم قضى نحبه، فوجد به ثلاثة عشر سهماً سوى ما به من ضرب السيوف وطعن الرماح.

ثم تقدم سويد بن عمر بن أبي المطاع، وكان شريفاً كثير الصلاة، فقاتل قتال الأسد الباسل، وبالغ في الصبر على الخطب النازل، حتى سقط بين القتلى، وقد أثنى بالجراح، ولم يزل كذلك وليس به حراك حتى سمعهم يقولون: قتل الحسين، فتحامل وأخرج من خفه سكيناً، وجعل يقاتلهم بها حتى قتل.

وجعل أصحاب الحسين يقاتلون بين يديه .. فلما لم يبق معه إلا أهل بيته، خرج علي بن الحسين، وكان من أصبح الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً، فاستأذن أباه في القتال، فأذن له .. ثم نظر إليه نظرة آيس منه، وأرخص عينيه وبكى، ثم قال: (اللهم اشهد، فقد برز إليهم غلامٌ أشبه الناس خلقاً وخلقاً ومنطقاً برسولك ﷺ، وكنا إذا اشتقنا إلى نبيك نظرنا إليه)، فصاح وقال: (يا ابن سعد قطع الله رحمك كما قطعت رحمي)، فتقدم نحو القوم، فقاتل قتالاً شديداً وقتل جمعاً كثيراً .. ثم رجع إلى أبيه وقال: يا أبة، العطش قد قتلني، وثقل الحديد قد أجهدني، فهل إلى شربة ماء من سبيل؟ فبكى الحسين عليه السلام وقال: (واغوثاه يا بني، من أين آتي بالماء .. قاتل قليلاً، فما أسرع ما تلقى جدك محمداً عليه السلام، فيسقيك بكأسه الأوفى شربة لا تظلماً بعدها)

فرجع إلى موقف النزال، وقاتل أعظم القتال، فرماه منقذ بن مرة العبدي بسهم فصرعه، فنادى: (يا أبتاه عليك

مبي السلام، هذا جدي يقرؤك السلام ويقول لك: عجل القدم علينا، ثم شهق شهقة فمات.
فجاء الحسين حتى وقف عليه، ووضع خده على خده، وقال: (قتل الله قوماً قتلوك، ما أجرأهم على الله وعلى
انتهاك حرمة رسول الله ﷺ، على الدنيا بعدك العفاء)

وخرجت زينب بنت علي تنادي: (يا حبيباه يا بن أخواه)، وجاءت فأكبت عليه.. فجاء الحسين، فأخذها وردها
إلى النساء، ثم جعل أهل بيته يخرج منهم الرجل بعد الرجل، حتى قتل القوم منهم جماعة، فصاح الحسين في تلك الحال:
(صبراً يا بني عمومي، صبراً يا أهل بيتي صبراً، فوالله لا رأيتم هواناً بعد هذا اليوم أبداً)
وخرج القاسم بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وقد كان غلاماً كأن وجهه شقة قمر، فجعل يقاتل، فضربه ابن
فضيل الأزدي على رأسه، ففلقه، فوقع الغلام لوجهه وصاح: يا عماه.. فجلى الحسين فضرب ابن فضيل بالسيف،
فاتقاها بساعده فأطنها من لدن المرفق، فصاح صيحة سمعه أهل العسكر، فحمل أهل الكوفة ليستنقذوه، فوطأته الخيل
حتى هلك.

وانجلت الغبرة، ورؤي الحسين قائماً على رأس الغلام وهو يفحص برجله، والحسين يقول: (بعداً لقوم قتلوك،
ومن خصمهم يوم القيامة فيك جدك)
ثم قال: (عز والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك، أو يجيبك فلا ينفحك صوته، هذا يوم والله كثر واتره وقل
ناصره)، ثم حمل الغلام على صدره حتى ألقاه بين القتلى من أهل بيته.

ولما رأى الحسين مصارع فتيانه وأحبته، عزم على لقاء القوم بمهتته، ونادى: (هل من ذاب يذب عن حرم
رسول الله؟ هل من موحد يخاف الله فينا؟ هل من مغيث يرجو الله بإغاثتنا؟ هل من معين يرجو ما عند الله في إعانتنا؟)
فارتفعت أصوات النساء بالعويل، فتقدم إلى باب الخيمة وقال لزينب: (ناوليني ولدي الصغير¹ حتى أودعه)، فأخذه
وأوماً إليه ليقبله، ثم أخذه على يده، وقال: (يا قوم قد قتلتم شيعتي وأهل بيتي، وقد بقي هذا الطفل يتلظى عطشاً،
فاسقوه شربة من الماء)، فبينما هو يخاطبهم إذ رماه رجل منهم بسهم فذبحه، فقال لزينب: (خذيه)، ثم تلقى الدم بكفيه
حتى امتلأ، ورمى بالدم نحو السماء وقال: (هون علي ما نزل بي أنه بعين الله)

واشدد العطش بالحسين، فركب المسناة يريد الفرات، والعباس أخوه بين يديه، فاعترضتهما خيل ابن سعد، فرمى
رجل من بني دارم الحسين بسهم فأثبته في حنكه الشريف، فانتزع السهم وبسط يده تحت حنكه حتى امتلأت راحتاه
من الدم، ثم رمى به وقال: (اللهم إني أشكوه إليك ما يفعل باين بنت نبيك)

ثم اقتطعوا العباس عنه، وأحاطوا به من كل جانب ومكان، حتى قتلوه، فبكى الحسين بكاءً شديداً.
ثم إن الحسين دعا الناس إلى البراز، فلم يزل يقتل كل من برز إليه، حتى قتل مقتلة عظيمة، وهو في ذلك يقول:

القتل أولى من ركوب العار والعار أولى من دخول النار

ثم صاح بهم: (ويحكم يا شيعة آل أبي سفيان، إن لم يكن لكم دين وكنتم لا تخافون المعاد فكونوا أحراراً في
ديناكم هذه، وارجعوا إلى أحسابكم إن كنتم عرباً كما ترعمون)، فناداه شمر: ما تقول يا ابن فاطمة؟ قال: (أقول: أنا
الذي أقتاتلكم وقاتلونني والنساء ليس عليهن جناح، فامنعوا أعتاتكم وجهالكم وطغاتكم من التعرض لحرمي ما دمت

(¹) هو عبد الله بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

حياً)، فقال شمر: لك ذلك يا ابن فاطمة، وقصدوه بالحرب، فجعل يحمل عليهم ويحملون عليه، وهو مع ذلك يطلب شربة من ماء فلا يجد، حتى أصابه اثنتان وسبعون جراحة.

فوقف يستريح ساعة وقد ضعف عن القتال، فبينما هو واقف إذ أتاه حجر، فوقع على جبهته، فأخذ الثوب ليمسح الدم عن جبهته، فأناه سهم مسموم له ثلاث شعب، فوقع على قلبه، فقال: (بسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله ﷺ)، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: (اللهم إنك تعلم أنهم يقتلون رجلاً ليس على وجه الأرض ابن بنت نبي غيره) ثم أخذ السهم، فأخرجه من وراء ظهره، فانبعث الدم كأنه ميزاب، فضعف عن القتال ووقف، فكلما أتاه رجل انصرف عنه، كراهية أن يلتقى الله بدمه، حتى جاءه رجل من كندة يقال له مالك بن النسر، فشتم الحسين وضربه على رأسه الشريف بالسيف، فقطع البرنس ووصل السيف إلى رأسه وامتأ البرنس دماً.

فاستدعى الحسين بخرقة، فشد بها رأسه، واستدعى بقلنسوة فلبسها واعتم عليها، فلبثوا هنيهة، ثم عادوا إليه وأحاطوا به، فخرج عبد الله بن الحسن بن علي — وهو غلام لم يراهق — من عند النساء، فشهد حتى وقف إلى جنب الحسين، فلحقته زينب بنت علي لتحبسه، فأبى وامتنع امتناعاً شديداً وقال: والله لا أفارق عمي، فأهوى بحر بن كعب أو حرملة بن الكاهل إلى الحسين بالسيف، فقال له الغلام: ويلك أتقتل عمي، فضربه بالسيف، فاتقاها الغلام بيده، فاطنّها إلى الجلد، فإذا هي معلقة، فنادى الغلام: يا عماه، فأخذته الحسين فضمه إليه وقال: (يا بن أخي، اصبر على ما نزل بك واحتسب في ذلك الخير، فإن الله يلحقك بآبائك الصالحين)، فرماه حرملة بن الكاهل بسهم، فذبجه وهو في حجر عمه.

ثم إن شمر بن ذي الجوشن حمل على فسطاط الحسين، فطعنه بالرمح، ثم قال: علي بالنار أحرقه علي من فيه، فقال له الحسين: (يا بن ذي الجوشن، أنت الداعي بالنار لتحرق علي أهلي، أحرقك الله بالنار)، وجاء شيب فوبخه، فاستحيا وانصرف.

ولما أثنى الحسين بالجراح، طعنه صالح بن وهب المزني على خاصرته طعنة، فسقط الحسين عن فرسه إلى الأرض على خده الأيمن، ثم قام، وخرجت زينب من باب الفسطاط وهي تنادي: وا أخاه، وا سيدها، وا أهل بيتاه، ليت السماء انطبقت على الأرض، ولت الجبال تدكدكت على السهل.. وصاح شمر بأصحابه: ما تنتظرون بالرجل.. فحملوا عليه من كل جانب إلى أن قتل، وقد وجد في قميصه مائة وبضع عشرة ما بين رمية وضربة وطعنه.

4- الثورة

كانت الدموع تفيض من عيون الجموع، وهي تستمع لتلك الأحاديث العذبة التي ألقته بكل قوة بنت الهدى، فأحس آحاد هعام أن كل ما يريد أن يقوله يكاد يتبخر مع تلك الأحاديث القوية المجلجلة .. فراح يقاطعها قائلاً: نحن لا نتحدث عن كل هذا .. نحن لا نناقش هنا قضايا الإيمان والكفر .. فلكل فرد الحرية في نوع الإيمان الذي يختاره ..

أنا مثلاً رجل يهودي .. آبائي كلهم يهود .. ولكن ذلك لم يمنعني من الثورة على اليهودية. لقد ثرت على اليهودية التي شعرت أنها كانت سبباً فيما حصل لليهود من مآسي .. ولكنني عندما ثرت عليها لم أخرج من اليهودية .. بل قمت بتصحيح لليهودية .. أو استبدال لليهودية النائمة بيهودية مستيقظة متحركة ناثرة.

لقد لقحت الديانة اليهودية بأفكار نبثشة .. فتحولت اليهودية إلى ديانة الثورة والقوة .. لقد رأيت أن موسى وحده عاجز عن تسيير دفة اليهودية .. فرحت أعينه بنبتشة .. وقد ولد من بينهما تلك الفكرة القوية العظيمة فكرة الصهيونية .. التي استطاعت أن تحقق حلم اليهود الذي عجز جميع الأنبياء عن تحقيقه. ما إن قال هذا حتى قامت عجزوز .. ولكنها تحمل من الهمة والقوة ما لا تقوم الجبال به .. وقد عرفت بعد ذلك أن اسمها (أم فرحات)¹ تلك التي يدعوها خنساء فلسطين .. تلك التي زفت ابنها للشهادة بكل ثبات وقوة .. قامت، وقالت: لقد تحدثت رفيقاتي عن آثار الإيمان في القوة .. تحدثن عن أثره في التوكل .. وأثره في الثبات .. وسأحدثكم عن أثره في الثورة والمواجهة ..

فلا يكفي المستضعف أن يثبت .. بل عليه أن يثور ويواجه .. إن المؤمن - بما اكتسبه من قوة إيمانية - أولى الناس بالثورة والمواجهة .. فمن ثمار القوة² التي ينشئها الإيمان في نفسه أنه لا يفريه وعد، ولا يثنيه وعيد، ولا ينحرف به طمع متسلط، أو هوى جائر، أو شهوة طاغية، فهو دائماً دافع إلى الخير، ناثراً على الشر؛ أمر بالمعروف، ناه عن المنكر، هاد إلى الحق والعدل، مقاوم للباطل والظلم، يغير المنكر بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلمه، وذلك أضعف الإيمان. لقد رأينا الناس لا يضعف نفوسهم شيء كالحرص على الحياة وإن تكن ذليلة، والمهرب من الموت وإن كان كريماً، ولا يغرس فيهم القوة شيء كالأستهانة بالحياة، والإقبال على الموت في سبيل الحق الذي يعتقدونه ولا شيء كالإيمان بالله وبالخلود يهون على الإنسان لقاء الموت، وفراق الحياة.

والمرء إذا هانت عليه الدنيا، ولم يبال بالموت .. هان عليه جبابرة الأرض، وملوك الناس، ونظر إلى الذهب كما ينظر إلى الحجر، وإلى السيف كما ينظر إلى العصا أو هو أدنى. الحرص والخوف هما اللذان يضعفان النفوس، ويخنيان الرؤوس، ويدلان الأعناق .. وإذا لم يكن حرص ولا خوف فلا سبيل إلى الضعف بحال من الأحوال.

(1) أشير به إلى المرأة العظيمة (أم فرحات)، أو (خنساء فلسطين)، وليس هناك من لا يعرف فضل هذه المرأة العظيمة وقوتها، وحسن تمثيلها للقوة التي يملكها المستضعفون.

(2) بعض ما نذكره هنا من (الإيمان والحياة) للدكتور يوسف القرضاوي.

ولذلك، فإن الانتصار للحق والثورة على الباطل عنصر ضروري للحياة الإسلامية، فإن فصل عنها فقدت أكبر ما تمتاز به، لأن الإسلام أسس قومية المسلم عليه، وجعلهم شهداء الحق على العالم كله، فكما يجب على الشاهد ألا يتوان في إبداء شهادته كذلك يتحتم على المسلم ألا يقصر في إعلاء الحق، ولا يبالي في أداء فرضه بمصيبة أو بلاء، بل يصدق به حيثما كان، ولو لاقى دونه الحمام.

ولهذا نجد (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) من أكبر الفرائض الإسلامية.

التوحيد أساس الإسلام وقطب رحاه، وضده الشوك الذي أشرب المسلمون بغضه في قلوبهم. والتوحيد يعلم المسلمين أن الخوف والخشوع لا يكون إلا لله الواحد العظيم، أما غيره فلا يخاف منه ولا يخشع له، وإن من يخشى غير الله فهو مشرك به، وجاعل غيره أهلاً للخوف والطاعة، وهذا ما لا يجتمع مع التوحيد أبداً.

الإسلام من أوله إلى آخره دعوة عامة، إلى البسالة والجرأة والتضحية، والاستهانة بالموت في سبيل الحق.

والقرآن يكرر كل حين هذا المعنى، فالله تعالى يقول: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (39)﴾ (الأحزاب) .. ويقول: ﴿مَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَشَا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (18)﴾ (التوبة)، ويقول: ﴿الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَيَكْفُرُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (36)﴾ (الزمر)

والرسول ﷺ يقول: (سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله)¹

ويقول: (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر)²

وقد كان ﷺ يأخذ العهد من أصحابه أن يقولوا الحق أينما كانوا³.

وقد حكى التاريخ من الأمثلة على وقوف الأمة الإسلامية يتقدمها علماؤها تائرين على أي طغيان، مقاومين أي استبداد، مهما كلفهم ذلك من تضحيات⁴.

بقيت طيلة ذلك اليوم أستمع إلى النسوة المؤمنات وهن يتحدثن بكل قوة .. وقد تعجبت لانفراد النساء في الحديث في ذلك الموقف دون الرجال، وقد كفاي البحث عن سر هذا (آحاد هعام) بقوله بعد أن فرغ النسوة من حديثهن: ما أجمل ما تحدثن به .. ولكن عجبني منكن إذ تحدثن دون الرجال .. فما سر ذلك؟ قامت سمية، وقالت: الإسلام لا يفرق بين الرجل والمرأة .. فالنساء شقائق الرجال .. فلذلك هو يزرع القوة في الجميع .. لا يفرق في ذلك بين إنسان وإنسان.

وإنما تحدثت أنا مع أخواني دون الرجال، لتعلم ولتعلم قومك أن الرجال الذي يؤون إلى أمثال هؤلاء النساء يستحيل أن يصيهم ضعف، أو يتمكن منهم ظالم أو مستبد.

إن قيمة الرجل عندنا بقدر قوته .. وقوته بقدر إيمانه .. ولذلك فإن موازين الكرامة عندنا مرتبطة بالإيمان .. فلا

(1) رواه الحاكم على شرط الصحيحين.

(2) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه.

(3) رواه البخاري ومسلم.

(4) ذكرنا الأمثلة الكثيرة على ذلك في رسالة (عدالة للعالمين) من هذه السلسلة، فصل (المسؤولية)

قوة إلا بالإيمان.

بعد أن سمع (آحاد هعام) هذه الأحاديث وجم قليلا، ثم ضغط على يديه يشير بهما بكل قوة، وكأنه يبعد شيئا عنه، ثم راح يصيح: علموني ما تقولون إذا أردتم أن تدخلوا هذا الدين .. فلا أحسبه إلا دينا صالحا. عندما سمعت الجموع هذا راحت تهلل وتكبر بكل قوة .. وقد صحت معهم بالتهليل والتكبير من غير أن أشعر، وقد تنزلت علي حينها أنوار جديدة اهتديت بها بعد ذلك إلى شمس محمد ﷺ .

ثامنا — العبيد

في اليوم الثامن، سرت نحو كوخ في أقصى المدينة، سمعت أن اسمه (كوخ العم توم)¹ .. وقد كان صاحبه (العم توم) عجوزا أسود جاء من أمريكا، وكان في أصله من سلالة الأفارقة الذين استعبدتهم الرجل الأبيض إبان ميلاد القارة الجديدة.

وقد بنى كوخه في تلك البادية، وسرعان ما راح يجمع حوله السود والبيض والصفرة الذين كان أجدادهم القدامى عبيدا .. وقد سمعت أنه كان يعقد بين الحين والحين اجتماعاته وخطبه التحريضية ..

وقد شاء الله أن يكون ذلك اليوم الذي زرته فيه هو خاتمة تلك الخطب التحريضية.

قلت: هل فطنت الشرطة له، فاعتقلته؟

قال: لا .. وما كان للشرطة أن تفعل معه شيئا، فالرجل أمريكي يحمل جنسية أمريكية يشهرها بين الحين والحين

أمام أعين الجموع .. وما كان للشرطة أن تغامر بانتهاك قداسة الأمريكيين.

قلت: فما الذي أنهى خطبه التحريضية؟

قال: أربعة نفر من الورثة الذين كانت أصولهم تخضع للاستعباد .. وقد استطاعوا بالمنطق العلمي الإيماني الذي

أوتوه أن يبددوا تلك الأوهام التي كان يتخذها ذريعة لتحريضاته.

قلت: فما قال أولئك الورثة؟

قال: اصبر .. وسأحدثك الحديث من أوله .. فلا يفهم الآخر إلا بالأول.

قلت: عذرا .. أنت تعرف طبيعتي .. لقد قال تعالى فيها: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ

عَجُولًا﴾ (11) (الإسراء)

قال: في ذلك اليوم .. قدمت نحو كوخ (العم توم)، وقد فوجئت إذ رأيت الجموع الكثيرة ملتفة حول الكوخ،

وهي تسمع باهتمام كبير لتلك التحريضات النارية التي كان العم توم يلقيها من دون خوف أو وجل، وقد كان بين

(1) أشير به إلى شخصية وردت في رواية بعنوان (كوخ العم توم)، وهي رواية شهيرة كتبها الأمريكية هاريت بيتشر ستو ضد الرق .. وقد نُشرت الرواية في كتاب عام 1852م، وسرعان ما أصبحت من أكثر الكتب مبيعا في الولايات المتحدة وفي بريطانيا.

وقد كتبت ستو كوخ العم توم لانتقاد الرق الذي اعتبرته خطيئة قومية أمريكية، وكانت تأمل في أن تساعد روايتها على إنهاء الرق سلميا وفي وقت مبكر .. ومع ذلك، فقد أدى الكتاب إلى زيادة عداوة سكان الشمال لسكان الجنوب. ومن ناحية أخرى، اعتبر سكان الجنوب أن وصف ستو للرق غير دقيق واعتبروا كتابها إهانة وظلما لمنطقتهم.

ويعتقد المؤرخون أن الشعور بالمرارة الذي ولده كتاب ستو ساعد في اندلاع الحرب الأهلية الأمريكية (1861-1865م). وكانت الشخصية الرئيسية في كوخ العم توم هو العم توم، وهو عبد أسود عجوز ودود .. وتصف القصة تجارب توم مع ثلاثة من ملاك الرقيق حيث عامله اثنان منهم، وهما جورج شيلبي وأغسطين سانت كلير، بشفقة ورأفة .. أما الثالث، وهو سيمون لوجري، فقد أساء معاملة توم وضربه بقسوة لرفضه الاعتراف بمكان اختباء عبدلين هارين، ونتيجة ضربه مات توم. وتحكي الرواية في جانب منها قصة أسرة العبيد — جورج، وإليزا، وصغيرهما — التي فرت إلى كندا من أجل الحرية .. وكتب الناقد الأمريكي الشهير إدموند ويلسون أن قراءة كوخ العم توم لأول مرة قد تكون (تجربة مفزعة)، وأقر بأنها (كتاب أكثر روعة مما يتوقعه المرء) (بتصرف من: الموسوعة العربية العالمية)

الحين والحين يردد عبارة يقولها بفخر وخيلاء (نحن الأمريكيين) كان في كلامه سباب كثير للإسلام، لا يطبق لساني أن يذكره لك .. فقد كان فيه من البذاءة ما ملأني تفززا .. بل ما جعلني أشعر أن الرجل مع أمريكيته التي يفخر بها لا يزال عبدا للقوم الذي استعبدوا آباءه. ولكني مع ذلك سأذكر لك بعض ما قال، مما يتناسب مع ما رد به عليه .. كان من حديثه قوله: أول ما يصادف الزائر للولايات المتحدة الأمريكية - بحراً - عندما تقترب به السفينة من ميناء (نيويورك) تمثال (الحرية) الشهير خارج جزيرة مانهاتن .. وقد اتخذناه - نحن الأمريكيين - رمزا لبلادنا ولثقافتنا .. فنحن نحب الحرية، ونكره الاستعباد .. ونحن لذلك نشعر بأن الله ابتعثنا لنخرج الشعوب من عبودية الثقافات والأديان التي جعلتها فريسة للعبودية. وسمحوا لي أن أذكر لكم بصراحي التي تعهدوها أن أكبر ما يقف في وجه حملتنا التحريرية هو الإسلام .. ذلك أنه الدين الوحيد الذي شرع الاستعباد، وقن له قوانينه في كتابه المقدس .. لقد اندهشت كثيرا عندما قرأت كتاب المسلمين المقدس الذي يسمونه (القرآن) .. فهو الكتاب الوحيد من الكتب المقدسة الذي يتحدث بتفصيل عن العبيد ..

وقد أثر على تراث المسلمين الفقهي .. فلذلك لا نجد كتابا في الفقه، إلا وهو يجوي الحديث عن أحكام العبيد.. ولذلك يشعر فقهاء المسلمين اليوم بفراغ كبير .. فعندما ألغى قومننا الرق .. أو بتعبير أدق عندما قام نبي الحرية (أبراهام لنكولن)¹ بإلغاء الرق شعر المسلمون بامتعاض شديد، فلا يمكن لتشريعات الإسلام أن تقوم من دون أن تكون هناك عبودية.

بعد أن قال هذا الكلام وغيره مما أستحي أن أذكره لك .. قام رجل من القوم، كان أشبه الناس بـ (محمد علي كلاي)² .. ذلك الملاك المسلم.. وكان من غرابة الصدف أنه يحمل نفس اسمه .. قال يخاطبه بلهجة لا تختلف كثيرا عن لهجة العم توم: اسمح لي أيها العم الفاضل أن أحدثك.. فأنا مثلك من أمريكا .. أو بتعبير أصح أنا مثلك من عبيد أمريكا المحررين ..

وقد كنت مثلك في فكرك ودينك وتحريضك .. ولكني عندما عرفت الإسلام وقارنت موقفه من الرق بغيره من الأديان والمذاهب والأفكار والحضارات .. عرفت أن الإسلام هو رحمة الله للعالمين .. لن أتحدث لك عن نفسي ولا عن رحلتي الطويلة التي اكتشفت فيها الإسلام .. ولكني سأحدثك عن هؤلاء الذين تفخر بهم .. وتفخر بانتمائك إليهم³ .

(¹) هو (لنكولن، أبراهام) Lincoln, Abraham (1809 - 1865م). رجل دولة أمريكي كان رئيساً للولايات المتحدة من عام 1861م حتى عام 1865م. قاد لنكولن الولايات المتحدة خلال الحرب الأهلية الأمريكية التي كانت أكبر أزمة واجهت الولايات المتحدة في التاريخ. وساعد في الحفاظ على الاتحاد من التمزق، كما ساعد على إنهاء الرق في أمريكا. قاد الولايات المتحدة خلال أكبر أزمة تواجهها أثناء الحرب الأهلية. (انظر: الموسوعة العربية العالمية)

(²) هو كلاي، محمد علي، ولد في 1942م، بطل ملاكمة أمريكي مسلم، وهو أول بطل ملاكمة للوزن الثقيل يحرز بطولة العالم أربع مرات..

(³) رجعنا عند بيان المعلومات المرتبطة بتاريخ الرق إلى كتاب (الإسلام محرر العبيد - التاريخ الأسود للرق في الغرب)، لحمدي شفيق، رئيس تحرير جريدة النور الإسلامية.

لقد بدأت حديثك بشمال الحرية الذي نعتبره رمزاً لبلادنا .. وأود هنا أن أسألك عن هذا التمثال المخادع .. هل أقيم رمزاً للحرية التي أُسبغت على 112 مليون هندي أحمر؟

أم أنه رمز لحرية عشرات الملايين من الأفارقة المساكين الذين جرى خطفهم وجلبهم بالقوة إلى اللجنة الأمريكية للعمل الشاق حتى الموت من أجل تحقيق الحلم الأمريكي؟

إنها لمهزلة كبرى أن يُقام تمثال الحرية على حث وجماع عشرات الملايين من البشر الذين تمت إبادتهم جماعياً بشكل لم يحدث مثله لحيوانات الغابات .. بل لو حدث معشار هذه الإبادة ضد الحيوانات لأقامت جمعيات الرفق بالحيوان في الغرب الدنيا ولم تقعدا .. أما إبادة مائة مليون هندي أحمر فهو أمر يؤسف له - على حد زعمهم - ولكنه كان ضرورياً لأمن البلاد .. بل كان أبو الحرية الأمريكية المزعومة - جورج واشنطن - نفسه بملك ثلاثمائة عبد وحرارية في مزرعته الخاصة ، ولم يجر منهم واحداً قط.

ويحكى المؤرخون الأوروبيون المنصفون قصصاً يشيب لها الولدان .. فقد كان الغزاة البيض يشعلون النار في أكواخ الهنود ، ويقيمون الكمائن حولها ، فإذا خرج الهنود من أكواخهم هارين من الحريق ، يكون رصاص البيض في انتظار الرجال منهم ، بينما يتم القبض على الأطفال والنساء أحياء لاتخاذهم عبيداً!

وكتب أحد الهولنديين قاتلاً : (انتزع البيض بعض الأطفال الهنود الصغار من أحضان أمهاتهم وقطعوهم إرباً أمام أعينهن، ثم ألقيت الأشلاء في النيران المشتعلة أو النهر !! وربطوا أطفالاً آخرين على ألواح من الخشب ثم ذبحوهم كالحيوانات أمام أعين الأمهات)

إنه منظر ينظر له قلب الحجر - كما يقول الهولندي الراوى نفسه - كما ألقوا ببعض الصغار في النهر ، وعندما حاول الآباء والأمهات إنقاذهم لم يسمح لهم الجنود بالوصول إلى شاطئ النهر ، ودفعوا الجميع - صغاراً وكباراً - بعيداً عن الشاطئ ليغرقوا جميعاً.

والقليل جداً من الهنود كان يمكنه الهرب ، ولكن بعد أن يفقد يداً أو قدماً ، أو ممزقاً الأحشاء برصاص البيض .. هكذا كان الكل إما ممزق الأوصال ، أو مضروباً بآله حادة أو مشوّهاً بدرجة لا يمكن تصور أسوأ منها وتم نقل أعداد هائلة من العبيد الهنود إلى جزر الهند الغربية للعمل بالزراعات الشاسعة هناك أو لبيعهم لآخرين .. كما سُحن مئات الألوف منهم شمالاً إلى نيوانجلند و(نيويورك) حيث مقر الأمم المتحدة ، وتمثال الحرية.

وكان المؤرخ (لا كاس) الذي فضح جرائم الإسبان في أمريكا الجنوبية بكتابه الشهير (تدمير الهنود الحمر) قد أثار القضية أمام المحاكم الأسبانية .. فلجأت الحكومة هناك إلى تهدئة الرأي العام النائر بإصدار قانون يمنع استعباد الهنود بشكل شخصي ، لكن النصوص - كما يقول لا كاس - لم تعرف سبيلها إلى التطبيق الواقعي أبداً في الأمريكيتين.

بعد أن أباد البيض معظم الهنود الحمر رأوا أنهم لن يتمكنوا من استصلاح وزراعة عشرات الملايين من الأفدنة في القارة الجديدة - أمريكا - بدون جلب الملايين من الأيدي العاملة الرخيصة .. وتفتت أذهان الشياطين عن خطة جهنمية بدأت كل دول أوروبا الغربية تقريباً تنفيذها.

إن الزنوج الأفارقة هم من أقوى أنواع البشر وأكثرهم جلدًا وصبراً وتحملاً للمشاق والأجواء القاسية ، ولهذا استقر رأي المجرمين على اصطيد أكبر عدد ممكن منهم!!

وهكذا تكالبت الوحوش البيضاء المسعورة على الفريسة المسكينه - أفريقيًا - تنهش فلذات أكبادها بلا ذرة من

رحمة أو إنسانية .. آلاف السفن الأوروبية المحملة بالجنود المسلحين بالبنادق والمدافع تقاطرت على الساحل الغربي للقارة السوداء حاملة الموت والحراب لأغلب سكانها، والخطف والاستعباد والإذلال مدى الحياة لمن بقى منهم على قيد الحياة.

تقول المصادر الأوروبية ذاتها: إن جيوش إنجلترا وبلجيكا والبرتغال وألمانيا وفرنسا وهولندا وأسبانيا - ذات التسليح المتقدم الذى لا يمكن مقارنته بالسيوف والحراب التى لا يملك الأفارقة غيرها - لم تجد صعوبة كبيرة فى السيطرة على الساحل الغربى لأفريقيا المطل على المحيط الأطلنطى.

وحلال خمسين عاماً فقط تم خطف وترحيل ما بين 15 إلى 40 مليوناً من الأفارقة حيث تم بيعهم كعبيد فى أسواق أمريكا وأوروبا ..

والمصادر الغربية ذاتها تؤكد أنه من بين كل عشرة أفارقة كان يتم أسر واحد فقط واستعباده، بينما يلقى التسعة الآخرون مصرعهم إما برصاص الغزاة البيض، وإما جوعاً وعطشاً أو انتحاراً من على ظهر السفن التى كانوا يحشرون فيها كالماشية .. وكثير منهم كان يلقى حتفه احتناقاً بسبب تكديس المئات منهم فى أقبية السفن فى مساحة عدة مترات بلا تهوية أو طعام أو مراحيض.

وكثيراً ما كان البحارة يقتلون المئات من الضحايا ويلقون بجثثهم فى البحر .. وعلى ذلك فإن ما لا يقل عن مائة مليون أفريقى قد لقوا حتفهم فى 50 عاماً فقط خلال ملاحم اصطياد العبيد من القارة المنكوبة.

وتذكر دائرة المعارف البريطانية أن الإنجليز كانوا يشعلون النيران فى الأعراس والأشجار المحيطة بأكوخ الأفارقة ، فيضطر هؤلاء المساكين إلى الخروج من مساكنهم هرباً من النيران ، فتتلقهم رصاصات القناصة لقتل الرجال، بينما يتم أسر الأطفال والنساء، ثم ترحيلهم إلى مراكز لتجميع العبيد على طول الساحل الغربى الأفريقى تمهيداً لنقلهم بالسفن عبر المحيط الأطلنطى فى رحلة بلا عودة .. وهذا هو الأسلوب ذاته الذى جرى استخدامه لاصطياد الهنود الحمر ، كما يصطادون الوحوش والحيوانات غير الأليفة من الغابات.

نحن لا نعرف بالضبط الأرقام الحقيقية للضحايا سواء من القتلى أو ممن سقطوا فى فخاخ الاستعباد حتى الموت . ولكن من المؤكد أن الأرقام أعلى بكثير مما تذكره المصادر الغربية .. ويكفى أن كاتباً غربياً كبيراً ذكر أن عدد القتلى فى دولة واحدة هى الكونجو بلغ عشرة ملايين إفريقى فى عهد الملك الطاغية (ليوبولد) الذى دمر شعباً بأكمله ، وعرقل مسيرة الكونجو لمئات السنين بسبب نهمه وجشعه وإجرامه.

يقول آدم هو تشيلد فى كتابه (شبح الملك ليوبولد): (إن هذا الطاغية قتل كل هؤلاء خلال 23 عاماً فقط حكم خلالها الكونجو التى كان يديعها مستعمرة مملوكة له شخصياً بكل ما عليها من بشر وثروات وحيوانات)

وقد كان الأوروبيون مثل (ليوبولد) فى الكونجو ، والفرنسيون فى مناطق أخرى ، والبرتغاليون فى أنجولا ، والألمان فى الكامبيرون ، والإنجليز فى دول أخرى عديدة قد وضعوا نظاماً إجرامياً للسحرة لاستخراج المطاط والذهب وغيرها من كنوز القارة السوداء التى نهبها الجرمون، كما سرقوا فلذات أكباد الأفارقة ، وعطلوا مسيرتهم مئات السنين، ولم يتروكوا لهم سوى الموت والحراب الشامل والتعاسة التى لم يفلت منها أحد.

ويعدد (هوتشيلد) وغيره من المؤلفين الغربيين الفضائع التى ارتكبتها الأوروبيون فى أفريقيا، فقد كان الشنق وتعليق الجثث على الأشجار، وقطع الأيدي والأقدام والأذن وغيرها أمراً شائعاً مارسه المحتلون على اختلاف دولهم وهوياتهم.

وكان من المألوف الإجبار على العمل المتواصل تحت الشمس الحارقة بلا ماء أو طعام كاف، والربط بالسلاسل الحديدية ، وحرق قرى بأكملها عقاباً على أية بادرة تدمير.. وكان هناك نوع من الكرايبيج يصنعه الجلادون خصيصاً من جلد الخريت بعد أن يتم تخفيفه وتقطيعه بطريقة تترك أطرافه حادة وقاطعة.

ويقول هوتشيلد أن عشرين جلدة بهذه الكرايبيج كانت كافية ليفقد المجلود الوعي تماماً ، فإذا ارتفع عدد الضربات إلى مائة جلدة بتلك الكرايبيج الشيطانية فإن المجلود يلقى حتفه فوراً.

وإذا كان زبانية (ليوبولد) يستخدمونها ضد التعساء في الكونجو، فقد كان الفرنسيون يستخدمونها بضراوة أشد في (برازيل)، ولم تكن ألمانيا بعيدة عن الميدان ، فقد أباد الألمان شعباً بأكمله هو قبائل (الهيريرو) فيما يعرف الآن بـ (ناميبيا).. وتكفى قراءة فقرة واحدة من تعليمات القائد الألماني لجنود الاحتلال عام 1904م لإدراك هول ما حدث ووحشية السادة البيض.. لقد ورد فيها: (كل هيريرو - إفريقي - يوجد يجب أن يُقتل سواء كان يحمل سلاحاً أم لا سواء كانت لديه ماشية أم لا .. ولا يجوز إعتقال أى رجل ، يجب فقط أن يُقتل)

وقد كانت البرتغال كذلك من أكثر دول أوروبا تورطاً في الرق .. وقد تتبع القسيس البرتغالي فرناندو دى أليفيرا في كتابه (فن الحرب في البحر) كيف كان تُجار الرقيق من البرتغاليين بقيادة صديقه القس (لاس كاساس) أكبر النخّاسين في عصره يقومون بترحيل مئات الألوف من العبيد الأفارقة عبر المحيط الأطلنطي بعد خطفهم وانتزاعهم من أسرهم وتقييدهم بالسلاسل.

وحسبما ذكر أليفيرا كان يصاحب كل سفينة قسيس ليقوم بتنصير العبيد مقابل مبلغ مالى يتقاضاه عن كل رأس.. وحققت الكنائس الأوروبية ثروات هائلة من تلك الرسوم التي تتقاضاها من النخّاسين.

وشاركت هولندا أيضاً في تجارة العبيد ، حيث طافت مئات من السفن الهولندية موانئ أفريقيا الغربية منذ القرن السادس عشر لنقل ملايين من العبيد إلى أوروبا وأمريكا .. بل كانت جزيرة (جورى) التي يجمعون فيها العبيد تمهيداً لنقلهم عبر الأطلنطي تحت سيطرة الهولنديين الى أن باعواها للإنجليز عام 1872م..

وكانت بعثات التبشير الهولندية متورطة في أحسن تجارة عرفتها البشرية.. ويبدو أنهم اكتشفوا أن خطف واصطياد الأفارقة المساكين واستعبادهم يدر من الأرباح أضعاف ما يجلبه العمل على تغيير عقائدهم باسم الرب الذى يزعمون. ويكشف (هيوتوماس) سبباً آخر لاختطاف الأفارقة واستعبادهم وهو الإنتقام البربرى .. يقول في ذلك: (الحقيقة أن البرتغاليين وغيرهم كانوا يصطادون الإفريقيين ويجولونهم إلى عبيد محض انتقام من الأفارقة المغاربة بسبب سيطرتهم على أسبانيا والبرتغال .. فقد كان أسلاف هؤلاء المغاربة من المسلمين قد سيطروا على أسبانيا والبرتغال لمئات من السنين)

ومن الواضح - كما شهد هيوتوماس - أن القوم لم ينسوا أحقادهم رغم أن المسلمين - كما شهد مؤرخو الغرب - قدموا للغرب وللعالَم كله أياد بيضاء طوال حكمهم للأندلس. فقد نشروا العلوم والمعارف والحضارة في تلك العهود، وعاملوا غير المسلمين بالأندلس بكل عطف ورحمة!!

ويؤيد ما قاله هيوتوماس أن البابا يوجينياس الرابع أعلن رعايته لحمالات الاستعباد التي يقوم بها الملك هنرى في أفريقيا !! وفي الفترة من 1450 حتى 1460 م عقد البابا نكولا الخامس وكالكاتاس الثالث صفقة لاسترقاق الأفارقة مقابل تعميم العبيد ودفع 300 كراون للكنيسة عن كل رأس!!

بل أرسل أحد الأساقفة سفينة لحسابه في إحدى الحملات!!
وقد لجأ البيض إلى أساليب شيطانية لقمع العبيد وقهرهم والسيطرة عليهم .. وقنونا هذا كله بتشريعات تشكل وصمة عار لأي نظام قانوني في التاريخ ..

وقد كان القانون الذي يتناول أحوال الرقيق يُعرف في كل أمة من الأمم المعاصرة بالقانون الأسود .. وعلى سبيل المثال كان القانون الأسود الفرنسي الذي صدر سنة (1685) ينص على أن الزنجي إذا اعتدى على أحد الأحرار أو ارتكب جريمة السرقة عوقب بالقتل أو بعقاب بدني آخر ، أما إذا أبق العبد فإن نص القانون أن الأبق في المرة الأولى والثانية يتحمل عقوبة صلح الأذنين والكي بالحديد المحمي ، فإذا أبق الثالثة قتل .. وقتل الأبق كان معمولاً به أيضاً في إنجلترا، فقد نصت شريعتهم على أن من أبق من العبيد وتمادى في إبقه قتل .. ودام الحال على هذا في فرنسا حتى قامت ثورة 1848 م.

أما في أمريكا فكان القانون في غاية الشدة والقسوة ، وكان مقتضى القانون الأسود أن الحرّ إذا تزوج بأمة صار غير جدير بأن يشغل وظيفة في المستعمرات .. وكانت القوانين تصرح بأن للسيد كل حق على عبده حتى حق الاستحياء والقتل.

وكان يجوز للمالك رهن عبده وإجارته والمقامة عليه وبيعه كأنه بهيمة .. ولم يكن يحق للأسود في أن يخرج من الحقل ويطوف بشوارع المدن إلا بتصريح قانوني .. ولكن إذا أجمع في شارع واحد أكثر من سبعة من الأرقاء ولو بتصريح قانوني كان لأي أبيض إلقاء القبض عليهم وجلدهم ..
وهذه النصوص كانت مطبقة في كل أنحاء الأمريكتين .

لم يجد العم توم ما يقول ردا على ابن بلده (محمد علي كلاي)، فراح يداعبه قائلا: نحن لا نتحدث عن أمريكا، نحن هنا نتحدث عن الرق الذي جاء به الإسلام .. أليس الإسلام بما نشره من فكر وثقافة ودين هو السبب في استعباد الإنسان لأخيه الإنسان؟
أليس كتاب المسلمين المقدس هو الكتاب الوحيد من بين الكتب المقدسة الممتلئ بالحديث عن أحكام العبودية وقوانينها؟

قال كلاي: قبل أن أجيبك عن سؤالك أود أن أصحح معلومات المرتبطة بتاريخ الرق في العالم .. فالإسلام لم يكن في يوم من الأيام مسئولا عن ابتداء الرق .. هكذا تثبت حقائق التاريخ التي دونها المؤرخون من غير المسلمين .. فالتاريخ يشير إلى أن الرق ظاهرة عريقة في القدم .. تاريخها هو ذاته تاريخ الاستغلال وظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

وقد ذكر المؤرخون .. أقصد مؤرخينا من الأوروبيين والأمريكيين أن ظاهرة استعباد الإنسان للإنسان نشأت منذ عشرات الألوف من السنين ، وتحديداً في فترة التحول من الصيد إلى الاعتماد على الزراعة المنتظمة كوسيلة لاكتساب الرزق.

لقد قال المؤرخ الكبير (ول ديورانت) يقرر ذلك : (بينما كانت الزراعة تُنشئ المدنيةً إنشأها إليها إلى جانب انتهائها إلى نظام الملكية ، انتهت كذلك إلى نظام الرق الذي لم يكن معروفاً في الجماعات التي كانت تقيم حياتها على

الصيد الخالص، لأن زوجة الصائد وأبناؤه كانوا يقومون بالأعمال الدنيئة، وكان فيهم الكفاية لذلك، وأما الرجال فقد كانت تتعاقب في حياتهم مرحلة تضطرب بنشاط الصيد أو القتال، يتلوها مرحلة من فتور الاسترخاء والدعة بعد الإجهاد والعناء. ولعل ما تنطبع به الشعوب البدائية من كسل قد بدأ - فما نظن - من هذه العادة. عادة الاستجمام البطيء بعد عناء القتال والصيد، ولو أنها لم تتمكن عندئذ كسلاً بمقدار ما كانت راحة واستجماماً؛ فلكي تحوّل هذا النشاط المتقطع إلى عمل مطرد، لا بد لك من شيئين: العناية بالأرض عناية تتكرر كل يوم، وتنظيم العمل.

وأما تنظيم العمل فيظل مُنحَلَّ العرى لُدُنِّيَّ النشاط مادام الناس يعملون لأنفسهم، لكنهم إذا كانوا يعملون لغيرهم فإن تنظيم العمل لا بد أن يعتمد في النهاية على القوة والإرغام؛ وذلك أن نشأة الزراعة وحدوث التفاوت بين الناس انتهيا إلى استخدام الضعفاء بواسطة الأقوياء اجتماعياً؛ ولم يتنبه الظافر في القتال قبل ذلك إلى أن الأسير الذي ينفعه هو الأسير الحى، وبذلك قُلتَ الجازر وقلَّ أكل الناس بعضهم لحوم بعض كلما زاد نظام الرق اتساعاً.. وإذن فقد تقدم الإنسان من حيث الأخلاق تقدماً عظيماً حين أقلع عن قتل زميله الإنسان أو أكله، واكتفى من أعدائه باسترقاقهم؛ وإنك لترى تطوراً كهذا يتم اليوم على نطاق واسع، إذ أقلعت الأمم الظافرة عن الفتك بالعدو المغلوب، واكتفت باسترقاقهم عن طريق التعويض الذى تكبدهم إياه. ولما استقر نظام الرق على أسسه. وبرهن على نفعه، أخذ يزداد نطاقه بأن أضيف إلى الرقيق طوائف أخرى غير الأسرى، فأضيف إليهم المدِينُونَ الذين لا يُوفُونَ الدِّينَ، والمجرمون الذين يعاودون الإحرام، هذا إلى إغارات تُشن عمداً لاجتلاب الرقيق؛ وهكذا كانت الحرب بادىء الأمر عاملاً على نشأة الرق، ثم أصبح الرق عاملاً على شن الحرب.

ولعل نظام الرق حين امتدت به القرون قد أكسب الجنس البشرى تقاليده وعاداته من حيث العمل، فلن تجد بيننا أحداً يُقدم على عمل شاق عسير إذا كان في مقدوره أن يتخلص منه بغير أن يتعرض لشيء من العقاب البدنى أو الاقتصادى، وإذن فقد بات الرق جزءاً من النظام الذى استعد به الإنسان للقيام بالصناعة، هذا فضلاً عن أنه عمل على تقدم المدنية بطريق غير مباشر، بأن زاد من الثروة فخلق الفراغ لفئة قليلة من الناس، ولما مضت قرون على هذا النظام، جعل الناس ينظرون إليه كأنه نظام فطرى لاغنى عنه، بهذا قال أرسطو وكذلك بارك القديس بولس.. هذا النظام الاجتماعى الذى لا بد أن يكون قد بدا لعينيه في عصره نظاماً قضى به الله¹

وقد عرفت كل الحضارات والأمم السابقة على الإسلام ظاهرة لاستعباد الآخرين على أوسع نطاق ممكن:

فالرق كان موجوداً لدى **الفراعنة**.. إذ كان الملوك والكهنة وقواد الجيش المصرى القديم يتخذون أسرى الحرب عبيداً لهم، يستخدمونهم فيما تحتاج إليه الدولة الفرعونية من أعمال كشق الترع وبناء الجسور والمعابد والأهرامات. وكان الرق موجوداً على أوسع نطاق لدى الآشوريين.. وقد كانت قصورهم مليئة بالعبيد والحوارى.. ومن أطرف الوثائق والعقود التى عُثِرَ عليها، وتعود إلى عهد الملك نبوخذ نصر - كما يقول ول ديورانت - تلك العقود المتصلة بالعبيد. (وكان مصدر هؤلاء العبيد أسرى الحروب، والغارات التى يشنها البدو الرحل على الولايات الأجنبية، ونشاط العبيد أنفسهم في التناسل. وكان ثمن الأرقاء يختلف من عشرين ريالاً إلى خمسة وستين للمرأة، ومن خمسين ريالاً إلى مائة ريال للرجل.. وكان هؤلاء العبيد هم الذين يؤدون معظم الأعمال العضلية في المدن، وتدخل في هذه

(¹) قصة الحضارة: 1/36-37.

وكان العبد وكل ما ملكت يده ملكاً لسيدته : من حقه أن يبيعه أو يرهنه وفاء لدين ، ومن حقه أن يقتله إذا ظن أن موته أعود عليه بالفائدة من حياته .. وإذا أبق العبد فإن القانون لا يبيح لأحد أن يحميه وكانت تقدر جائزة لمن يقبض عليه .. وكان من حق الدولة أن تتخذها كما تتخذ الفلاح الحرّ للخدمة العسكرية أو تسخره للقيام ببعض الأعمال العامة كشق الطرق ، وحفر القنوات .. وكان أكثر العبيد يقنعون من حياتهم بكثرة الأبناء ، حتى صاروا أكثر عدداً من الأحرار، فكانت طبقة الأرقام الكبيرة تتحرك كأنها نهر تحت جياش يجرى تحت قواعد الدولة البابلية¹

وفي بلاد **فارس** كان الأرقاء يُتخذون للرعى والزراعة ، ويستخدمون فيما تحتاج إليه البيوت من الزينة والعمل.. وإذا ارتكب الرقيق ذنباً عوقب عقاباً معتدلاً ، فإذا ارتكبه مرة أخرى فليسده أن يعاقبه بما يشاء ، وله أن يقتله.

وكان لدى الهنود القدماء طبقات أعلاها : طبقة الأشراف وهم البراهمة ، أما طبقة العمال، فهي الطبقة الدنيا التي تستخدم في الأعمال ، وتعامل معاملة بشعة .. وللطبقة الأولى السيادة والسيطرة ، وعلى الطبقة الثانية - وهي طبقة الأرقاء - الطاعة والخضوع. ويستمر الرقيق خادماً طوال حياته . وكانت القوانين التي يحاكم بها جائرة ، فإذا اعتدى رقيق على برهمى حكم على الرقيق بالقتل . وإذا شتمه بلفظ بذيء قُطع لسانه . وإذا احتقره عُوقب بوضع خنجر محمى بالنار في فمه . وإذا تجرأ ونصح لبرهمى نصيحة تتصل بواجبه أمر الملك بوضع زيت ساخن في أذنه وفمه . وإذا اغتصب برهمى شيئاً من الرقيق حكم عليه بدفع غرامة مالية . وإذا سرق عبد شيئاً من برهمى حكم عليه بالإحراق !! . وكانت الأعمال النجسة ترك للعبيد ليقوموا بها ، والأعمال المقبولة يقوم بها الخدم . وكانت في الهند طائفة أخرى منبوذة تُسخر للخدمة كالعبيد .

وكان الفقراء من الصينيين القدماء يبيعون أبناءهم وبناتهم لشدة فقرهم وحاجتهم. وكان للسيد الحق في بيع من لديه من الأرقاء وأولادهم.

أما عند **الإغريق**، فقد كان في أثينا ثلاث طبقات: طبقات المواطنين والغرباء والعبيد، وقد كان عددهم كبيراً، وهم إما أسرى حرب ، أو ضحايا غارات الاسترقاق ، أو أطفال أنقذوا وهم معرضون في العراء ، أو أطفال مهملون، أو مجرمون .. وكانت قلة منهم في بلاد اليونان يونانية الأصل ؛ وكان الهليني يرى أن الأجانب عبيد بطبعهم لأنهم يبادرون بالخضوع إلى الملوك ، ولهذا لم يكن يرى في استعباد اليونان لهؤلاء الأجانب ما لا يتفق مع العقل؛ لكنه كان يعضبه أن يسترق يوناني.

وكان تجار اليونان يشترون العبيد كما يشترون أية سلعة من السلع، ويعرضونهم للبيع في طشبيوز، وديلوس، وكورنتة، وإيجينا، وأثينا، وفي كل مكان يجدون فيه من يشتريهم. وكان النحاسون في أثينا من أغنى سكانها الغرباء؛ ولم يكن من غير المألوف في ديلوس أن يباع ألف من العبيد في اليوم الواحد؛ وعرض سيمون بعد معركة يوريمدون عشرين ألفاً من الأسرى في سوق الرقيق.

وكان في أثينا سوق يقف فيه العبيد متأهبين للفحص وهم مجردون من الثياب، و يساوم على شرائهم في أى وقت من الأوقات، وكان ثمنهم يختلف من نصف مينا إلى عشر مينات .. وكانوا يشترون إما لاستخدامهم في العمل

(¹) قصة الحضارة: 1/356.

مباشرة، أو لاستثمارهم؛ فقد كان أهل أثينا الرجال منهم والنساء يجدون من الأعمال المربحة أن يبتاعوا العبيد ثم يوجروهم للعمل في البيوت أو المصانع، أو المناجم.. وكانت أرباحهم من هذا تصل إلى 33 في المائة.. وكان أفقر المواطنين يمتلك عبداً أو عبيدين.. وكان عددهم في بيوت الأغنياء يصل أحياناً إلى خمسين، وكانت الحكومة الأثينية تستخدم عدداً منهم في الأعمال الكتابية وفي خدمة الموظفين، وفي المناصب الصغرى، وكان منهم بعض رجال الشرطة.

أما في الريف فكان العبيد قليلي العدد، وكانت أكثر الرقيق من النساء الخاديات في البيوت.. ولم يكن الناس في شمالي بلاد اليونان وفي معظم البلقان في حاجة إلى العبيد لاستغنائهم عنهم برقيق الأرض. وكان العبيد في كورنثا، ومجارا، وأثينا يودون معظم الأعمال اليدوية الشاقة، كما كانت الجوارى يقمن بمعظم الأعمال المنزلية المحمّدة، ولكن العبيد كانوا فوق ذلك يقومون بجزء كبير من الأعمال الكتابية ومعظم الأعمال التنفيذية في الصناعة، والتجارة، والشئون المالية. أما الأعمال التي تحتاج إلى الخدمة فكان يقوم بها الأحرار والغرباء، ولم يكن هناك عبيد علماء كما في العصر الهلنستي وفي روما، وقلما كان يسمح للعبد بأن يكون له إناء، لأن شراء العبد كان أرخص من تربيته. وكان العبد إذا أساء الأدب ضُرب بالسوط، وإذا طلب للشهادة عُذّب، وإذا ضربه حر لم يكن له أن يدافع عن نفسه، لكنه إذا تعرض للقسوة الشديدة كان له أن يفر إلى أحد الهيكل¹

وكان فلاسفة اليونان يجاهرون بتأييدهم للرق .. بل كان أفلاطون يرى أن العبيد لا يصلحون لأن يكونوا مواطنين .. وعليهم فقط لزوم الطاعة العمياء لسادتهم أحرار أثينا !!. ولا ندرى أى مدينة فاضلة تلك التي يكون ثلاثة أرباع أهلها من العبيد !!

أما تلميذه أرسطو فهو يرى أن بعض الناس خُلِقوا فقط ليكونوا عبيداً لآخرين! ليوجهوهم كما يريدون، وبعضهم خُلِقوا ليكونوا سادة، وهم الأحرار ذوو الفكرة والإرادة والسلطان.. فالعبيد خلقوا ليعملوا كأنهم آلات، والأحرار خُلِقوا ليفكروا ويلقوا الأوامر لينفذها العبيد! ويجب في رأى أرسطو أن يستمر هذا الاستعباد حتى يتوصل الإنسان إلى صنع آلات معدنية تحل محل الرقيق!

وفي بلاد اليونان كان العبيد يعملون خدماً في البيوت، ولا يسمح لهم بأن يكونوا كهنة في المعابد كما يؤكد بلوتارك المؤرخ اليوناني المعروف.

وقد اعتاد قدماء الإغريق السير في البحار، وخطف من يجذونه من سكان السواحل. وكانت قبرص وصاقس وسامس والمستعمرات اليونانية أسواقاً كآثينا يباع فيها الأرقاء ويشترون.. وكان العبيد يعملون لمواليهم ولأنفسهم، ويدفعون لسادتهم مقداراً محددًا من المال كل يوم .. وكان في كل منزل بأثينا عبد للقيام بالخدمة، مهما كان صاحبه فقيراً، وكان المولى حر التصرف فيمن يملكهم من عبيد.

وكان الرقيق إذا أخطأ عوقب بالجلد بالسوط وكلف القيام بطحن الحبوب على الرحى، وإذا هرب كوى على جبهته بالحديد المحمى في النار.

أما تاريخ العبودية لدى الرومان فهو بحق صفحات حالكة السواد في سجل الرق.. فقد كان الرومان يحصلون

(¹) قصة الحضارة: 67-64/3..

عادة على الأرقاء من أسرى الحروب، وأولاد العبيد، وأولاد الأحرار الذين حكم عليهم القانون بأن يكونوا عبيداً ، كالمدينين الذين صعب عليهم الوفاء بديونهم.. وكان ثلاثة أرباع سكان الامبراطورية الرومانية من الرقيق! وفي أثناء الحرب كان النخّاسون الذين يتجرون في الرقيق يلازمون الجيوش، وكان الأسرى يباعون بأثمان زهيدة. وأحياناً كان النخّاسون من الرومان يسرقون الأطفال ويبيعونهم ، ويسرقون النساء للتجار بأعراضهن . وكان الرقيق في روما يقف على حجر في السوق، ويدلل عليه البائع، ويبيع بالمزايدة. وكان الراغب في الشراء يطلب أحياناً رؤية العبد وهو عريان لمعرفة ما به من عيوب!

وكان هناك فرق كبير في الثمن بين العبد المتعلم والعبد الجاهل، وبين الجارية الحسنة والجارية الدميمة.. وكان الأرقاء قسمين : قسم ينتفع به في المصالح العامة كحراسة المباني، والقيام بأعمال السحان في السجن، والجلاد في المحكمة للمساعدة في تنفيذ حكم القاضي. وحال هذا النوع أحسن من سواهم، وقسم ينتفع به في المصالح الخاصة كالعبد الذى يتخذه مولاه لقضاء الأعمال في البيت والحقل، والجارية التى يجعلها سيدها لتربية الأولاد . وكان القانون ينظر إلى الرقيق كأنه لا شىء ، فهو ليس له أسرة، ولا شخصية، ولا يملك شيئاً. والعبد وما ملكت يداه لسيده . ويتبع الرقيق أمه حين الوضع، فإذا كانت حرّة كان حرّاً ، وإذا كانت رقيقة كان رقيقاً . وكان ماللك الرقيق الحرية المطلقة في التصرف مع عبده كما يتصرف في الحيوانات التى يملكها.. فإذا أخطأ العبد عاقبه سيده كيفما شاء ، أو بأية وسيلة شيطانية تخطر له على بال !! فكان يقبده بالسلاسل ويكلفه مثلاً بحرث الأرض وهو مكبل بالحديد، أو يجلده بالسياط حتى الموت ، أو يعلقه من يديه في مكان مرتفع عن الأرض بينما يربط أثقالاً برجليه حتى تتفسخ أعضائه جسمه!! أو يحكم عليه بمصارعة وحوش كاسرة - كالأسود والنمور - تم حبسها وتجوعها أياماً طوال كى تكون أشد افتراساً وفتكاً بالعبيد البائسين الذين قدّر عليهم أن يلقوا حتفهم بهذا الأسلوب الذى يقشعر له بدن الشيطان !!

ولم تكن هناك أية عقوبة في القانون الرومانى تُطبق على السيد الذى يقتل عبده أبداً، فالقانون الرومانى كان ينص على أن العبد هو أداة ناطقة !! وكانوا يعتبرون الرقيق مجرد أشياء وليسوا بشراً ذوى أرواح وأنفس!! وكان منظرًا عادياً لديهم أن يشاهدوا جنثاً مصلوبة على جذوع الأشجار لعبيد شاء سادتهم المجرمون شنقهم، أو تعليقهم هكذا بلا طعام ولا شراب حتى الموت ، أو حرقهم أحياء ، أو إجبارهم على العمل الشاق وأرجلهم مقيدة بالسلاسل عراة تحت أشعة الشمس الحارقة !! وكانت الفقرة المحببة لدى الرومان في الأعياد والمهرجانات هى المبارزات الحية بكل الأسلحة الفتاكة بين العبيد حتى يهلك الأعدى من الفريقين !! وتعالى صيحات المجرمين الرومان إعجاباً أو تلهب الألف من التصفيق الحاد حين يتمكن أحد العبيد من تسديد طعنة نافذة في جوف القلب تقضى على غريمه !!

ويقول م.ب تشارلز ورت في كتابه (الامبراطورية الرومانية): (كان هناك - دون شك - الحاكمون بأمرهم ، فقد أصر سيد على أن يقف العبيد حول المائدة صامتين ، وكان يعاقب من يسعل منهم أو يعطس بالجلد !! واعتادت إحدى السيدات أن تعض حواريتها في نوبات غضبها ، وكانت أخريات يأمرن بجلد الجارية إذا لم تُحسن تصفيف شعر سيدها !! وألقى أحد العبيد المعدين بنفسه من فوق سطح المنزل فخر صريعاً هرباً من السباب وإهانات سيده المتوحش، وطعن أحد العبيد الهاريين من الجحيم نفسه حتى الموت حتى لا يعود إلى الرق مرة أخرى. ومثل هذه

وكان من الطبيعي أن تندلع ثورات عارمة احتجاجاً على وحشية السادة الرومان تجرى فيها دماء الطرفين أهماًراً ، لكنها للأسف كانت تنتهي بمقتل جميع العبيد الثائرين، والويل لمن يبقى حياً حتى ممن لم يشاركوا في التمرد.

وفي القرون الوسطى كان الأرقاء في فرنسا وإيطاليا والجزر البريطانية وأسبانيا القديمة يكلفون بالأعمال الزراعية من حرت وزرع وحصد؛ لأن الأعمال اليدوية في نظرهم كانت محترمة لا يقوم بها الأحرار !! وكان الأرقاء في ألمانيا يقدمون إلى سادتهم مقادير معينة من القمح أو الماشية أو الملابس .. وكان لكل عبد مأوى يقيم فيه ، ويدبر أحواله كما يريد .

وكان الفرنج - وهم الألمان الذين يقيمون على جانبي نهر الراين الأسفل - يعاملون الأرقاء أقسى معاملة ، فإذا تزوج حرّ رقيقة أجنبية صار رقيقاً مثلها، وإذا تزوجت حرّة رقيقاً أصبحت رقيقة، وفقدت الحرية التي كانت تتمتع بها. وفي لمبارديا كانت الحرّة إذا تزوجت رقيقاً حكم عليهما بالإعدام .

ولدى الأنجلوسكسون - وهم الأمم الجرمانية التي تناسل منها الانجليز - كان الأرقاء ينقسمون قسمين : قسم كالمتاع يجوز بيعه ، وقسم كالعقار يقوم بحرث الأرض وزرعها ، ويباح لهم جمع مال يدفعونه لسادتهم . وكانت نظرة الأوروبيين إلى العبيد حتى القرن التاسع عشر أنهم لا روح لهم ولا نفس ، ولا إرادة .. فإذا اعتدى زنجي على سيده أو على حر من الأحرار ، أو سرق أى شيء كان القتل جزاء له .

وإذا هرب عوقب بقطع أذنه في المرة الأولى، وكوى بالحديد الحصى في المرة الثانية ، وقتل في الثالثة .. وإذا قتل المالك رقيقه فللقاضي الحق في أن يحكم ببراءة المالك !

ولا يجوز لغير البيض اكتساب العلم والمعرفة . وكان القوط وغيرهم من القبائل في أوروبا يحكمون على الحرّة التي تتزوج من عبد بالحرق معه !! وفي قوانين قبائل الأستروغوط يحكمون بالقتل على الحرّة التي تتزوج بعد² وأولادهم جميعاً يسترقون إن حدث إنجاب قبل قتلهم .

وكان وجود رقيق أمراً حتمياً بسبب نشوء النظام الإقطاعي الذي تبلور في صورته المعروفة بأوروبا في القرن التاسع ، وبلغ ذروته إبان القرون الوسطى، وتحديدًا في القرن الثالث عشر .. وهناك من يرى أن الرقيق كانوا يمثلون الأغلبية الساحقة من سكان أوروبا باستثناء الملوك والنبلاء ورجال الدين .

بدأ نظام الإقطاع بمنح الملوك والأمراء مساحات من الأراضي لمن يدينون لهم بالولاء مدى حياتهم، ثم أصبح ذلك أمراً وراثياً . فأمير الإقطاعية هو الحاكم المطلق في إقطاعيته ، هو المالك لكل شيء والباقون عبيد ، لا يملكون حق الانتقال من إقطاعية إلى إقطاعية .

و لم تكن مساوىء النظام الإقطاعي في الجانب المالى فحسب ، بل كان للإقطاعى سلطات أخرى حصل عليها³.

(1) م. ب . تشارلز - الإمبراطورية الرومانية - طبعة الهيئة المصرية للكتاب.

(2) دائرة معارف القرن العشرين.

(3) يدل على ذلك القائمة الطويلة من الواجبات التي يؤديها الرقيق للمالك، إلى جانب خضوعه المطلق لسلطته وارتباطه المحكم بإقطاعيته .. ومن هذه الواجبات: ثلاث ضرائب نقدية في العام .. جزء من محصوله وماشيته .. العمل سخرة كثيراً من أيام السنة .. أجر على استعمال أدوات المالك في طعامه وشرابه .. أجر للسماح بصيد السمك أو الحيوان البرى .. رسم إذا رفع

أما في القارة الأمريكية فللرق فيها مأساة مؤلمة لن تستطيع الأيام مهما طالت أن تمحوها .
سأحكي لكم بعض تلك المآسي .. لتعرفوا حقيقة أولئك الذين يزعمون أنهم حرروا الرقيق .
لقد شاء الله تعالى أن يتولى الهنود الحمر بالقسط الأوفر من الإبادة والاستعباد .. فقد كان اكتشاف الأمريكيتين -
بالإضافة إلى الثورة الصناعية - كارثة كبرى حلت بعشرات الملايين من سكان أمريكا الأصليين .. والذي حدث هو
أن عصابات البيض التي وصلت أمريكا وحدثت مساحات هائلة من أخصب أراضي العالم البكر بحاجة إلى عشرات
الملايين من الأيدي العاملة التي تعذر عليهم تديرها من أوروبا ، ولذلك فُكّر الغزاة في السيطرة على الهنود الحمر سكان
أمريكا الأصليين ، لكنهم فشلوا في استعبادهم ، فلم يتورّعوا عن القضاء عليهم !!
وهكذا وقعت واحدة من أبشع جرائم الإبادة الجماعية في التاريخ ..
ويقدر الباحثون أعداد السكان الأصليين الذين أبادهم الغزاة الأوروبيون بأكثر من مائة مليون هندي أحمر .. ولم
يتورّع السادة البيض الذين أسسوا ما يسمى الآن بالولايات المتحدة الأمريكية عن استخدام أحط الوسائل وأخس
السبل للقضاء على الهنود الحمر ، ومنها تسميم آبار المياه التي يشرب منها السكان الأصليون ، وحقنهم بالفيروسات
وجراثيم أشد الأمراض فتكاً مثل الطاعون والتيفود والجدرى ومسببات السرطان ..
ويحاول المؤرخون الأمريكيون التقليل من أعداد الضحايا زاعمين أنهم حوالي مليونين فقط ، وفي إحصاء عام
1900م قللوا الرقم إلى مليون لا غير .

وكان القانون الأمريكي الذي ظل ساري المفعول حتى عام 1865م ، ينص على حق الأمريكي الأبيض في
الحصول على مكافأة مجزية إذا قدم لأي مخفر شرطة بالولايات المتحدة فروة رأس هندي أحمر ..
ويذكر المؤرخون أن 80 بالمائة من هنود كاليفورنيا مثلاً أبيدوا خلال عشرين عاماً فقط ، وهلك الباقون بسبب
العمل الشاق حتى الموت بالسُّخرة في سبيل رفاهية السادة البيض .
وكان اكتشاف مناجم الذهب والمزارع الشاسعة في كولورادو وغيرها من ولايات الذهب وبالاً على الهنود
المساكين ، إذ دفعت رغبة البيض الجرمين في الحصول على أيدي عاملة رخيصة إلى تنشيط أخس وأقذر تجارة في
التاريخ بأمريكا ، وهي خطف الأطفال والشباب لاستعبادهم .. وهكذا نشطت تجارة خطف أطفال الهنود من مختلف
مناطق أمريكا . وكانت صحف تلك الفترة تمتلئ بصور الشاحنات المكتظة بأطفال الهنود الحمر المتجهة عبر الطرقات
الريفية إلى أسواق العبيد في سكرامنتو وسان فرانسيسكو ل يتم بيعهم إلى أصحاب المناجم والمزارع .
ومع نهاية القتال في سنوات الاحتلال الأولى ، زاد الإقبال على خطف الفتيات - بصفة خاصة - فهُنَّ يقدمن
خدمة مضاعفة للسادة البيض .

قضية أمام محاكم المالك .. ينضم إلى فيلق المالك إذا نشبت حرب .. يفتدى سيده إذا أُسر .. يقدم الهدايا لابن المالك إذا رُقِيَ
لمرتبة الفرسان .. ضريبة على كل سلعة يبيعهها في السوق .. لا يبيع سلعة إلا بعد بيع سلعة المالك نفسه بأسبوعين .. يشتري
بعض بضائع سيده وجوباً .. غرامة إذا أرسل ابنه ليتعلم أو وهبه للكنيسة .. ضريبة مع إذن المالك إذا تزوج هو أو أحد أبنائه من
خارج الضيعة .. حق الليلة الأولى ، وهي أن يقضى السيد مع عروس رقيقه الليلة الأولى !! وكان يسمح له أحياناً أن يفتديها
بأجر ، وقد بقي هذا في بافاريا إلى القرن الثامن عشر .. المالك هو الذي يرث كل ممتلكات الرقيق إذا مات .. ضريبة سنوية
باهظة يدفعها الرقيق للكنيسة ، وأخرى يدفعها للقائد الذي يتولى الدفاع عن المقاطعة .

وأما الآباء الهنود المساكين فإن الغضب والأسى ، الناجم عن خطف واغتصاب واستعباد فلذات أكبادهم ، كان معناه أنهم - في نظر الأسياد البيض - عناصر شغب تستحق الإعدام فوراً وبلا محاكمة!!
وبذلك تحول الخاطفون إلى أبطال وطنيين أمريكيين يساهمون في التخلص من المشاغبيين الهنود الذين يشكلون خطراً داهماً على أمن الدولة الأمريكية الناشئة!!!

ويقول المؤرخون أن هذه القرصنة وجدت من يقننها ويضفي عليها الشرعية التامة عبر قانون أصدره برلمان ولاية كاليفورنيا في أول جلسة تشريعية له في عام 1850م .. وأصبح خطف الهنود الحمر واستعبادهم بموجب ذلك التشريع عملاً قانونياً يستحق فاعله الثناء والتكريم .. وبموجب تعديلات أضيفت عام 1860م تم إجبار عشرة ملايين هندي أحمر على القيام بأعمال السخرة حتى الموت .. ولم تمض سنوات على هذا التشريع الإجرامي حتى ضاق حاكم الولاية بيتر بيزنت ذرعاً بالسُّخرة، فوجه رسالة إلى المجلس التشريعي قال فيها : (إن الرجل الأبيض الذي يعتبر الوقت من ذهب ، والذي يعمل طوال النهار ، لا يستطيع أن يسهر طوال الليل لحراسة أملاكه. وليس أمامه خيار آخر سوى شن حرب إبادة .. إن حرباً قد بدأت فعلاً ، ويجب الاستمرار فيها حتى ينقرض الجنس الهندي تماماً)
وهكذا أباد السادة البيض 112 مليون هندي أحمر ، وأيدت معهم حضارات (المايا) و(الأزتيا) و(البوهاتن) وغيرها لإقامة أمريكا زعيمة النظام العالمي الجديد.

بعد أن ذكر كلاي هذه الحقائق التاريخية التي اندهش لسماعها الجميع، قام العم توم، وقال: نشكرك على كل هذه المعلومات التي أوردتها .. وأنا لا أعارضك فيها لأنها تصب فيما نحن فيه.
فنحن عندما نتحدث عن الرق، وعن ظلم الرقيق لا نميز بين أمة وأمة .. ولا بين دين ودين ..
أنا فقط هنا في هذا المجلس تحدثت عن الإسلام كجبار من الجبابرة الظلمة الذي راحوا ينشرون الاستعباد، ويجرضون عليه، ويعدون بالجنان من يستعبد الناس ويسترقهم.

وعندما كنت في أمريكا ذكرت ما ذكرته أنت الآن عن أمريكا .. ولذلك تراني اخترت أن أسمى نفسي (العم توم)، واخترت أن أجعل كوخى مأوى يجتمع عنده جميع الذين كان العالم يستعبدهم ليستعيدوا من هويتهم ما أراد السيد المستعلي أن ينزعه.

قال كلاي: أنا في هذا الجانب متفق معك تماماً .. فعلى العالم المستكبر أن يعيد حقوق المستضعفين .. ولكني لست معك في موقفك من الإسلام ..

لا لأنه ديني الذي اخترت أن أعتنقه .. وإنما لأني رأيت - بالأدلة الكثيرة - أنه الدين الوحيد الذي حفظ من حقوق العبيد، وضمن لهم من الحرية ما لم يضمن أي دين آخر .. لقد كان رحمة لهم لم تعدلها أي رحمة.
لن أحدثك عن هذا الجانب أنا .. فهو جانب مرتبط بمصادر الإسلام المقدسة .. ولا أرى نفسي أهلاً للحديث عنها..

ولذلك فقد جاء معي أربعة رجال .. جميعهم تعرض أجدادهم للاستعباد، ولم ينقذهم منه إلا محمد ﷺ ،
وتعاليمه العظيمة.

أشار إلى أحدهم، وقال: أما أولهم، فهذا .. واسمه بلال .. وهو ينتسب إلى رجل عظيم من أصحاب محمد ﷺ

من العبيد، وكان اسمه (بلال بن رباح)¹

أشار إلى آخر، وقال: أما هذا، فاسمه سلمان، وهو ينتسب إلى رجل عظيم منهم اسمه (سلمان الفارسي)²
أشار إلى آخر، وقال: أما هذا، فاسمه زيد، وهو ينتسب إلى رجل عظيم منهم اسمه (زيد بن حارثة)³

(1) هو (بلال بن رباح)، مولى أبي بكر الصديق اشتراه وأعتقه، وكان مؤذنا لرسول الله ﷺ وخازنا.. شهد بدرًا والمشاهد كلها، وكان من السابقين إلى الإسلام، وممن عذب في الله عز وجل، فصبر على العذاب.. وكان يطبخ على وجهه في الشمس وتوضع الرحا عليه حتى تصهره الشمس، ويقال: أكفر برب محمد فيقول: أحد أحد؛ فاحتاز به ورقة بن نوفل؛ فقال: يا بلال أحد أحد، والله لئن مت على هذا لأتخذن قبرك حنانا.

قال سعيد بن المسيب، وقد ذكر بلالا: كان شحيحا على دينه وكان يعذب؛ فإذا أراد المشركون أن يقاربهم قال: الله الله قال: فلقى النبي ﷺ أبا بكر فقال: لو كان عندنا شيء لاشترينا بلالا، فلقى أبو بكر العباس بن عبد المطلب فقال: اشتر لي بلالا فانطلق العباس، فقال لسيدته: هل لك أن تبيعني عبدك هذا قبل أن يفوتك خيرته قالت: وما تصنع به إنه خبيث وإنه وإنه... ثم لقيها، فقال لها مثل مقالته، فاشتراه منها، وبعث به إلى أبي بكر، وقيل: إن أبا بكر اشتراه وهو مدفون بالحجارة يعذب تحتها. وأخى رسول الله ﷺ بينه وبين أبي عبيدة بن الجراح، وكان يؤذن لرسول الله ﷺ في حياته سفرا وحضرا وهو أول من أذن له في الإسلام.. ولما توفي رسول الله ﷺ أراد أن يخرج إلى الشام فقال له أبو بكر: بل تكون عندي، فقال: إن كنت أعتقتني لنفسك فاحبسني، وإن كنت أعتقتني لله عز وجل فذرني أذهب إلى الله عز وجل، فقال: اذهب.. فذهب إلى الشام فكان به حتى مات. وروي أنه لما كان بالشام رأى النبي ﷺ في منامه وهو يقول: (ما هذه الجفوة يا بلال ما أن لك أن تزورنا)، فانتبه حزينا، فركب إلى المدينة فأتى قبر النبي ﷺ، وجعل يبكي عنده ويتمرغ عليه، فأقبل الحسن والحسين فجعل يقبلهما ويضمهما، فقالا له: نشتهي أن تؤذن في السحر فعلا سطح المسجد، فلما قال: (الله أكبر الله أكبر)، ارتجت المدينة فلما قال: (أشهد أن لا إله إلا الله) زادت رجتها، فلما قال: (أشهد أن محمدا رسول الله)، خرج النساء من خدورهن، فما رئي يوم أكثر باكيا وباكية من ذلك اليوم.

قال محمد بن سعد: توفي بلال بدمشق ودفن بباب الصغير سنة عشرين وهو ابن بضع وستين سنة، وقيل: مات سنة سبع أو ثمان عشرة وقال علي بن عبد الرحمن: مات بلال بلبل، ودفن على باب الأربعين وكان آدم شديد الأدمة نحيفا طويلا أجنبي خفيف العارضين. (بتصرف من: أسد الغابة)

(2) هو (سلمان الفارسي) (ت 36 هـ) وهو من كبار صحابة رسول الله ﷺ، كان يسمى نفسه (سلمان الاسلام)، أصله من مجوس أصبهان.. عاش عمرا طويلا، واختلفوا فيما كان يسمى به في بلاده.. وقالوا: نشأ في قرية جيان، ورحل إلى الشام، فالوصل، فنصيبين، فعمورية، وقرأ كتب الفرس والروم واليهود، وقصد بلاد العرب، فلقى ركب من بني كلب فاستخدموه، ثم استعبدوه وباعوه، فاشتراه رجل من قريظة فجاء به إلى المدينة.. وعلم سلمان بخبر الاسلام، فقصده النبي ﷺ بقاء وسمع كلامه، ولازمه أياما.. وأبي أن يتحرر) بالاسلام، فأعانه المسلمون على شراء نفسه من صاحبه، فأظهر إسلامه. وكان قوي الجسم، صحيح الرأي، عالما بالشرائع وغيرها.. وهو الذي دل المسلمين على حفر الخندق، في غزوة الاحزاب، حتى اختلف عليه المهاجرون والانصار، كلاهما يقول: سلمان منا، فقال رسول الله ﷺ: (سلمان منها أهل البيت)، وسئل عنه علي فقال: (امرؤ منا وإلينا أهل البيت، من لكم يمثل لقمان الحكيم، علم العلم الاول والعلم الآخر، وقرأ الكتاب الاول والكتاب الآخر، وكان بحرا لا ينزف)

وجعل أميرا على المدائن، فأقام فيها إلى أن توفي.. وكان إذا خرج عطائه تصدق به.. وكان ينسج الخوص ويأكل خبز الشعير من كسب يده.. له في كتب الحديث 60 حديثا.. ولابن بابويه القمي كتاب (أخبار سلمان وزهده وفصائله) ومثله للجلودي (انظر: الأعلام للزركلي)

(3) هو (زيد بن حارثة) (ت 8 هـ)، وهو صحابي اختطف في الجاهلية صغيرا، واشترته خديجة بنت خويلد فوهبته إلى النبي ﷺ حين تزوجها، فتبناه النبي - قبل الاسلام - وأعتقه وزوجه بنت عمته.. واستمر الناس يسمونه (زيد بن محمد) حتى نزل النهي عن ذلك، وهو من أقدم الصحابة إسلاما.. وكان النبي ﷺ لا يبعثه في سرية إلا أمره عليها، وكان يحبه ويقدمه، وجعل له الامارة في غزوة مؤتة، فاستشهد فيها.. ولهشام الكلبي كتاب (زيد بن حارثة) في أخباره.

أشار إلى آخر، وقال: أما هذا، فاسمه سالم، وهو ينتسب إلى رجل عظيم منهم اسمه (سالم مولى أبي حذيفة)¹

(¹) هو (سالم مولى أبي حذيفة)، وهو سالم بن معقل كان مولى لامرأة من الأنصار يقال لها ليلى بنت يعار، وكان يلزم أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة، فعرف به كان كنيته أبا عبد الله، استشهد يوم اليمامة سنة ثنتي عشرة في خلافة أبي بكر الصديق.

1 - تخفيف

تقدم أولهم، وهو بلال، وأراد أن يتحدث، فقاطعه (العم توم)، وقال: قبل أن تقول كلمة واحدة أجبني .. هل ورد في كتابكم المقدس إباحة الاسترقاق؟

قال بلال: لقد قرأت القرآن من أوله إلى آخره، فلم أجد فيه كلمة واحدة تقول: (أحل لكم الاستعباد) .. بل ما وجدت فيه إلا: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلَّبِينَ يُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (4) الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَلٌ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلَلٌ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُحْورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (5)﴾ (المائدة) .. وقوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلنَّبَاةِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمَّتْ حُرْمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (96)﴾ (المائدة) .. وقوله: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ .. (275)﴾ (البقرة)

قال العم توم: أنت نفر من سؤالي.

قال بلال: بل أحيبك عنه.

قال توم: ولكن القرآن ذكر في مواضع كثيرة الاسترقاق والاستعباد، وهو يكي عن ذلك بالرقبة.

قال بلال: فهل يمكن أن تقرأ لي هذه النصوص؟

قال توم: أجل .. بكل سرور .. لقد سجلتها في هذه الورقة .. وسأقرؤها لك آية آية ..

فتح العم توم ورقة أخرجها من جيبه، وراح يقرأ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فِدْيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (النساء:92) ..

ثم قال: ليس ذلك فقط ما ورد .. اسمع هذه الآية .. ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَوْ هَلِيكُمُ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (المائدة:89)

واسمع هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكَمْ نُوْعَطُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (القصص:3)

واسمع هذه: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُ رَقَبَةٍ (البلد:10 — 13)

التفت العم توم إلى الجموع، وقال: ألا تكفي كل هذه الآيات للبرهنة على أن القرآن يتحدث عن العبيد .. ويقر

استعبادهم؟

ابتسم بلال، وقال: أفي هذه النصوص التي قرأها: تحرير الرقبة، أم استعباد الرقبة؟

سكت توم، فقال بلال: بل ذكرت هذه النصوص المقدسة تحرير الرقبة.. وليس هناك نص في القرآن الكريم أو السنة المطهرة فيه استبعاد الرقاب ..

قال توم: ولكن مع ذلك، فإن الرق مشروع بالنصوص .. ولو حرم لورد النص فيه كما ورد في الخمر والميسر وغيرها من المحرمات.

قال بلال: مسألة الرقيق تختلف كثيرا عن الخمر والميسر وغيرها .. ولذلك كان علاجها يختلف عن علاج الخمر والميسر.

قال توم: كيف؟ .. أأستدعي أن الإسلام حرم الاستبعاد؟

قال بلال: أنا لا أقول: إن الإسلام حرم الاستبعاد .. ولكني أقول: إن الإسلام في علاجه للاستبعاد يكاد يصرح

بتحريم الاستبعاد .. وإلا كيف يبحث عن استئصال ما يقول بإباحته؟

قال توم: لا يزال ذهني كليلا دون إدراك ما ترمي إليه.

قال بلال: إدراك ما أرمي إليه يستدعي التعرف على منهج الإسلام في الأحكام، وهو المنهج الذي يراعي الواقع

النفسي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي ..

ولأجله قال النبي ﷺ: (يا عائشة ! لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية، لأمرت بالبيت فهدم ، فأدخلت فيه ما

أخرج، وأزقته بالأرض ، وجعلت له باين : بابا شرقيا وبابا غربيا ، فبلغت به أساس إبراهيم)¹

فأمر الكعبة من الخطورة بالنسبة للواقع الاجتماعي الذي عاشه رسول الله ﷺ بحيث منعه من فعل ما هو حق

حرصا على الواقع.

قال توم: ولكن الإسلام جابه الواقع في قضايا كثيرة.

قال بلال: يختلف ذلك بحسب نوع القضايا .. فعندما يتعلق الأمر أو النهي بقاعدة من قواعد التصور الإيماني ،

أي بمسألة اعتقادية ، فإن الإسلام يقضي فيها قضاء حاسما منذ اللحظة الأولى.

ولكن عندما يتعلق الأمر أو النهي بعادة وتقليد ، أو بوضع اجتماعي معقد ، فإن الإسلام يترث به ويأخذ المسألة

بالميسر والرفق والتدرج ، ويهيء الظروف الواقعية التي تيسر التنفيذ والطاعة .

فعندما كانت المسألة مسألة التوحيد أو الشرك أمضى أمره منذ اللحظة الأولى في ضربة حازمة لا ترد

فيها ولا تلفت ، ولا مجاملة فيها ولا مساومة ، ولا لقاء في منتصف الطريق .. لأن المسألة مسألة قاعدة أساسية

للتصور، لا يصلح بدونها إيمان ولا يقام إسلام.

فأما في الخمر والميسر فقد كان الأمر أمر عادة وإلف، والعادة تحتاج إلى علاج .. فبدأ بتحريك الوجدان الديني

والمنطق التشريعي في نفوس المسلمين ، بأن الإثم في الخمر والميسر أكبر من النفع .. وفي هذا إيجاز بأن تركهما هو

الأولى .. ثم جاءت الخطوة الثانية بآية سورة النساء: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا

مَا تَقُولُونَ ﴾ (النساء: من الآية 43).. والصلاة في خمسة أوقات ، معظمها متقارب ، لا يكفي ما بينها للسكر والإفافة!

وفي هذا تضيق لفرص المزاولة العملية لعادة الشرب ، وكسر لعادة الإدمان التي تتعلق بمواعيد التعاطي ؛ إذ

(1) رواه البخاري ومسلم.

المعروف أن المدمن يشعر بالحاجة إلى ما أدمن عليه من مسكر أو مخدر في الموعد الذي اعتاد تناوله . فإذا تجاوز هذا الوقت وتكرر هذا التجاوز فترت حدة العادة وأمكن التغلب عليها.. حتى إذا تمت هاتان الخطوتان جاء النهي الحازم الأخير بتحريم الخمر والميسر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة:90)

قال توم: ولكن مثل هذا النص لم ينزل في الاستبعاد.

قال بلال: أمر الاستبعاد لم يكن يتعلق بالفرد في حد ذاته، بل كان يرتبط بوضع اجتماعي اقتصادي ، وأمر عرف دولي وعلمي في استرقاق الأسرى وفي استخدام الرقيق ، والأوضاع الاجتماعية المعقدة تحتاج إلى تعديل شامل لمقوماتها وارتباطاتها قبل تعديل ظواهرها وآثارها.

والعرف الدولي يحتاج إلى اتفاقات دولية ومعاهدات جماعية .. ولم يأمر الإسلام بالرق قط ، ولم يرد في القرآن نص على استرقاق الأسرى، ولكنه جاء فوجد الرق نظاما عالميا يقوم عليه الاقتصاد العالمي، ووجد استرقاق الأسرى عرفا دوليا ، يأخذ به المحاربون جميعا، فلم يكن بد أن يترث في علاج الوضع الاجتماعي القائم والنظام الدولي الشامل¹.

قال توم: فيم تمثل هذا العلاج؟

قال بلال: لقد وضع الإسلام أربعة أنواع من العلاج لهذه الظاهرة لا تساهم فقط في تحرير الرقيق، بل توفر لهم من الحياة ما لا يحلم به الأحرار.

قال توم: فما أولها؟

قال بلال: تخفيف منابع العبودية.

قال توم: ما معنى هذا؟

قال بلال: لقد كان للرق روافد كثيرة ، وإمدادات واسعة .. كان كالنهر العظيم الذي تمده السيول والوديان كل حين، بكل قوة.

قال توم: فماذا فعل الإسلام؟

قال بلال: لقد ذهب إلى تلك السيول والوديان ، وراح يجففها واحدا واحدا .. ليحفر النهر بعد ذلك.

قال توم: اشرح لي هذا².

قال بلال: عندما ظهر الإسلام كان للمظالم الاجتماعية والتمييز العرقي والطبقي منابع وروافد عديدة تغذى نهر الرق في كل يوم بالمزيد من الأرقاء .. فالحرب ، بصرف النظر عن حظها من الشرعية والمشروعية ، يتحول الأسرى فيها إلى أرقاء ، والنساء يتحولن إلى سبايا وإماء .. والخطف ، يتحول به المخطوفون إلى رقيق .. وارتكاب الجرائم الخطيرة كالقتل والسرقة والزنا كان يحكم على مرتكبيها بالاسترقاق .. والعجز عن سداد الديون ، كان يحول الفقراء

(1) الظلال.

(2) رجعنا في هذه الردود إلى كتاب (شبهات المشككين) من تأليف مجموعة من العلماء، تقدم الأستاذ الدكتور: محمود حمدى زقزوق، وزير الأوقاف المصرية.

المدينين إلى أرقاء لدى الأغنياء الدائنين .. وسلطان الوالد على أولاده ، كان يبيح له أن يبيع هؤلاء الأولاد ، فينتقلون من الحرية إلى العبودية .. وسلطان الإنسان على نفسه، كان يبيح له بيع حريته ، فيتحوّل إلى رقيق .. والنسل المولود من كل هؤلاء الأرقاء يصبح رقيقاً ، حتى ولو كان أباه حراً ..

ومع كثرة هذه الروايات التي تمدّ نهر الرقيق في كل وقت بالمزيد من الأرقاء كانت أبواب العتق والحرية إما موصدة تماماً ، أو ضيقة عسيرة على الولوج منها..

قال توم: فماذا فعل الإسلام ليحامي الإنسان من هذه الروايات الكثيرة التي تلتهم حريته؟

قال بلال: لقد بدأ الإسلام بإغلاق أغلب الروايات التي كانت تمدّ نهر الرقيق بالمزيد من الأرقاء، فلم يبق منها إلا

أسرى الحرب المشروعة والشريعة، والنسل إذا كان أبواه من الأرقاء.

بل إن أسرى الحرب المشروعة أنفسهم فتح الإسلام أمامهم باب العتق والحرية بالمنّ أو الفداء، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْبَتْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فِيمَا مَنَّا بَعْدَ وَمَا فِدَاءٌ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ (محمد: من الآية 4)، فعندما تضع الحرب أوزارها ، يتم تحرير الأسرى ، إما بالمن عليهم بالحرية وإما بمبادلتهم بالأسرى المسلمين لدى الأعداء.

بل إن النبي ﷺ سن لنا سنة المن ، وبين الواقع التاريخي ما في هذه السنة من المصالح¹، فقد روى الثقات من كُتّاب السير والحديث أن المسلمين أسروا في سرية من السرايا سيد بني حنيفة ثمامة بن أثال الحنفي وهم لا يعرفونه ، فأتوا به إلى رسول الله ﷺ ، فعرفه وأكرمه ، وأبقاه عنده ثلاثة أيام ، وكان في كل يوم يعرض عليه الإسلام عرضاً كريماً، فبأبي ويقول : إن تسأل مالا نُعطه ، وإن تقتل تقتل ذا دم ، وإن تنعم تنعم على شاكرك ، فما كان من النبي ﷺ إلا أن أطلق سراحه .

(¹) وهذا لا يعني أن هذا هو الأسلوب الوحيد الذي استعمله رسول الله ﷺ ، فقد وردت النصوص بقتل الأسرى في أحوال معينة، قال أبو بكر الجصاص : (اتفق فقهاء الأمصار على جواز قتل الأسير لا نعلم بينهم خلافاً فيه ، وقد تواترت الأخبار عن النبي ﷺ في قتله الأسير ، منها قتله عقبة بن أبي معيط ، والنضر بن الحارث بعد الأسر يوم بدر . وقتل يوم أحد أبا عزة الشاعر بعدما أسر . وقتل بني قريظة بعد نزولهم على حكم سعد بن معاذ ، فحكم فيهم بالقتل وسبي الذرية . ومن على الزبير بن باطنا من بينهم ، وفتح خيبر بعضها صلحاً وبعضها عنوة ، وشرط على ابن أبي الحقيق ألا يكتب شيئاً ، فلما ظهر على خيانتته وكتمانه قتله . وفتح مكة وأمر بقتل هلال بن خطل ، ومقيس بن حبابه ، وعبد الله بن أبي سرح ، وآخرين ، وقال : (أقتلوهم وإن جدموهم متعلقين بأستار الكعبة)، ومن على أهل مكة ولم يغنم أموالهم . وروي عن صالح بن كيسان عن محمد بن عبد الرحمن عن أبيه عبد الرحمن بن عوف ، أنه سمع أبا بكر الصديق يقول : (وددت أني يوم أتيت بالفجاءة لم أكن أحرقتة ، وكنت قتلته سريحا ، أو أطلقته نجيحا)، وعن أبي موسى أنه قتل دهقان السوس بعدما أعطاه الأمان على قوم سماهم ونسي نفسه فلم يدخلها في الأمان فقتله . فهذه آثار متواترة عن النبي ﷺ وعن الصحابة في جواز قتل الأسير وفي استبقائه . واتفق فقهاء الأمصار على ذلك)

وجواز القتل لا يؤخذ من الآية ، ولكن يؤخذ من عمل رسول الله ﷺ وبعض الصحابة ... ولكن تتبع الحالات التي وقع فيها القتل يدل على أنها حالات خاصة ، ورائها أسباب معينة غير مجرد التعرض للقتال والأسر . فالنضر بن حارث وعقبة بن أبي معيط كلاهما كان له موقف خاص في إيذاء رسول الله ﷺ وإيذاء دعوته، ومثلهما أبو عزة الشاعر، وكان لبني قريظة موقفاً خاصاً بارتضائهم حكم سعد بن معاذ سلفاً.

وهكذا في جميع الحالات نرى أسباباً معينة تفرد هذه الحالات من الحكم العام للأسرى الذي تقرره الآية.. وللمسألة تفاصيلها الخاصة، وقد ذكرنا بعض الإجابات عنها في رسالة (النبي المعصوم) من هذه السلسلة.

ولقد استرقت قلب ثمامة هذه السماحة الفاتحة ، وهذه المعاملة الكريمة ، فذهب واغتسل ، ثم عاد إلى النبي ﷺ مسلماً مختاراً، وقال له: (يا محمد ، والله ما كان على الأرض من وجه أبغض إليّ من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلى .. والله ما كان على الأرض من دين أبغض إليّ من دينك ، فقد أصبح دينك أحب الدين إليّ .. والله ما كان من بلد أبغض إلى من بلدك ، فقد أصبح أحب البلاد إليّ)

وقد سر رسول الله ﷺ بإسلامه سروراً عظيماً ، فقد أسلم بإسلامه كثير من قومه ، ولم يقف أثر هذا التسامح في المعاملة عند إسلام ثمامة وقومه، بل كانت له آثار بعيدة المدى في تاريخ الدعوة الإسلامية، فقد ذهب مكة معتمراً ، فهم أهلها أن يؤذوه ولكنهم ذكروا حاجتهم إلى حبوب اليمامة، فألى على نفسه أن لا يرسل لقريش شيئاً من الحبوب حتى يؤمنوا ، فجهدوا جهداً شديداً فلم يروا بُدأً من الاستغاثة برسول الله ﷺ، فكتب ﷺ إلى ثمامة أن يخلي بينهم وبين حبوب اليمامة ، ففعل.

بل امتد أثر دخوله في الإسلام على أساس من الاختيار والرغبة الصادقة إلى ما بعد حياة النبي ﷺ ، ذلك أنه لما ارتد بعض أهل اليمامة ، ثبت ثمامة ومن اتبعه من قومه على الإسلام ، وصار يخذل المرتدين من أتباع مسيلمة الكذاب، ويقول لهم: (إياكم وأمرًا مظلمًا لا نور فيه ، وإنه لشقاء كتبه الله عز وجل على من أخذ به منكم ، وبلاء على من لم يأخذ به منكم)، ولما لم يجد النصح معهم خرج هو ومن معه من المسلمين وانضموا للعلاء بن الحضرمي مدداً له ، فكان هذا مما فتّ في عضد المرتدين ، وألحق بهم الهزيمة.

قال توم: فقد آل الأمر إلى رافد واحد هو الأسر في الحروب؟

قال بلال: في الحروب الشرعية دون ما عداها من الحروب الظالمة .. ومع ذلك فهو حل من الحلول فقط.. بالإضافة إلى أنه رافد قل ما يحصل .. فالحروب — في أي عصر من العصور — ذات فترة محدودة لا تتجاوزها. ومع ذلك، فإنه لم يثبت أن الرسول ﷺ ضرب الرق على أسير من الأسارى، بل أطلق أرقاء مكة، وأرقاء بني المصطلق، وأرقاء حنين.

وثبت عنه أنه ﷺ أعتق ما كان عنده من رقيق في الجاهلية، وأعتق كذلك ما أهدي إليه منهم.

قال توم: ولكن أليس في استدلال الأسير باستعباده نوعاً من الاستكبار والظلم؟

قال بلال: إن أردت أن تعرف ذلك.. فاذهب إلى الأسارى في أي منطقة من مناطق العالم، وسلهم: أي شيء أفضل لهم، ما يعاملون به في معتقلات التعذيب من صنوف الإهانة والاستدلال، أو أن يضموا كعبيد في بيوت الناس. قال توم: ولكن في العبودية من المذلة ما فيها.

قال بلال: تلك عبودية الحقد والظلم والاستكبار .. أما العبيد في المجتمع الإسلامي ، فكانت حياتهم مختلفة كثيراً.. بل إن أحراركم لو اطلعوا على الحياة التي يعيشها العبيد في مجتمع الصالحين لتمنوا أن تكون لهم مثل حياتهم.

2 - حقوق

قال العم توم: كيف ذلك؟

قام سلمان، وقال: سأجيبك أنا عن هذا السؤال .. فهذا هو العلاج الثاني الذي وضعه الإسلام لعلاج الاستعباد.

قال توم: ما اسم هذا العلاج؟

قال سلمان: حفظ حقوق المستعبدين.

قال توم: وما جدوى هذا العلاج ما دام الرقيق يظل رقيقاً؟

قال سلمان: إذا وجد الرقيق الحياة الكريمة الطيبة، والتي لا تختلف عن حياة الأحرار لن يتألم — كبير تألم — للرقيق

الذي يصيبه.

قال توم: إن هذا مداره على نوع الحقوق التي يتمتع بها.

قال سلمان: لقد ساوى الإسلام بين العبد والحر في كل الحقوق الدينية، وفي أغلب الحقوق المدنية، ولم يكن

التمييز في بعض هذه الحقوق إلا لمصلحة الأرقاء مراعاة للاستضعاف والقيود التي يفرضها الاسترقاق على الإرادة والتصرف.

فالمساواة تامة في التكاليف الدينية، وفي الحساب والجزاء، وشهادة الرقيق معتبرة عند كثير من الفقهاء، بل هي

الأرجح¹، وله حق الملكية في ماله الخاص، بل ورد في النصوص الحث على إعانته على شراء حرته بنظام المكاتب

(¹) اختلف الفقهاء في قبول شهادة العبد على قولين نوردهما — بأدلتهم — لتبين النظرات الفقهية المختلفة لحقوق العبيد المدنية:

القول الأول: لا تجوز شهادة العبد، وهو قول جمهور الفقهاء.

القول الثاني: قبول شهادته، وهو قول الحنابلة، وقد أجازوا قبول شهادته في كل شيء إلا في الحدود والقصاص.

والأرجح الذي نراه في هذا الخلاف هو اعتبار شهادتهم خلافاً لقول الجمهور، لأن الإجماع القديم ينص عليه، فقد حكى الإمام أحمد عن أنس بن مالك أنه قال: (ما علمت أحداً رد شهادة العبد)، وهو يدل — كما يقول ابن القيم — على أن ردها إنما حدث بعد عصر الصحابة، واشتهر هذا القول لما ذهب إليه مالك والشافعي وأبو حنيفة، وصار لهم أتباع يفتون ويقضون بأقوالهم، فصار هذا القول عند الناس هو المعروف، ولما كان مشهوراً بالمدينة في زمن مالك، قال: (ما علمت أحداً قبل شهادة العبد) مع أن أنس بن مالك يقول ضد ذلك.

ثم إن ابن القيم رحح قبول شهادة العبد، واعتبرها موجب الكتاب والسنة وأقوال الصحابة، وصرح القياس، وأصول الشرع، وليس مع من ردها كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا قياس.

أما ما استدلل المخالفون به من قياس العبد على الكافر، لأنه منقوص بالرق، وذلك بالكفر فهو كما يقول ابن القيم: (وهذا من أفسد القياس في العالم، وفساده معلوم بالضرورة من الدين)، ومثله استدلالهم بالآية، وقد أحاب على ذلك ابن حزم بقوله: (تحريف كلام الله عن مواضع يهلك في الدنيا والآخرة، ولم يقل الله تعالى: إن كل عبد لا يقدر على شيء، إنما ضرب الله تعالى المثل بعبد من عباده هذه صفة، وقد توجد هذه الصفة في كثير من الأحرار، وبالمشاهدة نعرف كثيراً من العبيد أقدر على الأشياء من كثير من الأحرار. ونقول لهم: هل يلزم العبيد الصلاة والصيام والطهارة، ويحرم عليهم من المأكل والمشرب والفروج ما يحرم على الأحرار، أم لا يلزمهم ذلك؟ لكونهم لا يقدرين عندكم على شيء ألبتة» ثم قال: «ومن نسب هذا إلى الله فقد كذب عليه جهاراً»

ومما استدللوا به كذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ (البقرة: 282) وادعوا أن العبد لا يقدر على أداء الشهادة؛ لأنه مكلف خدمة سيده، وقد رد على ذلك ابن حزم بقوله: (بل هو قادر على أداء الشهادة كما يقدر على الصلاة،

والتدبير، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ (النور: من الآية 33)

وزيادة على هذا كله، فإن الدماء متكافئة في القصاص..

قال توم: ولكن فقهاء المسلمين ينصون على أن الرقيق لا يرث.

قال سلمان: وذلك في مصلحته.. فلو كان له الحق في الإرث لاحتفظ به سيده لنفسه، ولم يعتقه طمعا في وفاة

بعض مورثيه لينال مما يصيبه من تركته.

قال توم: ولكن الرقيق قد لا يهتم بالكثير مما ذكرت من حقوق.. إنه يبحث عن الحياة الإنسانية الكريمة التي

تجتمع فيها جميع متطلبات الحياة النفسية والاجتماعية.

قال سلمان: وقد وفر الإسلام جميع ذلك.. وفي أرقى الدرجات.. بل إن الرق الذي كان أكبر مصادر

الاستغلال والثراء لملاك العبيد، حوَّله الإسلام بفضل القيم التي جاء بها إلى ما يشبه العبد المالى على ملاك الرقيق..

فإنه قد طلب من مالك الرقيق أن يطعمه مما يأكل، ويلبسه مما يلبس، ولا يكلفه من العمل مالا يطيق.. بل طلب منه

إلغاء كلمة العبد والأمة لما فيها من إهانة، واستبدالها بكلمة الفتى والفتاة.

قال توم: انظر ما تقول.. فليس من اليسير أن تقول الفقهاء ما لم يقولوا.

قال سلمان: ما قلته لم يقله الفقهاء.. بل قاله سيد الفقهاء.. بل كان من آخر وصايا رسول الله ﷺ وصيته بهم،

فقد ثبت أن رسول الله ﷺ جعل يُوصي أُمَّتَهُ في مرض الموت يقول: (الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم)، فجعل

يُرَدِّدُهَا حتى ما يَفِيضُ بِهَا لِسَانَهُ¹

وقد تظافت الأحاديث المبينة لأنواع الحقوق التي يجب على المالك أدائها على من يملكه:

فقد أمر ﷺ المالك أن يطعم مملوكه ويكسوه، مما يأكل ويلبس، وأن لا يكلفه من العمل ما لا يطيق:

ففي الحديث، قال رسول الله ﷺ: (خولكم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده

فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم)²

وقال: (إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه، فإن لم يجلسه معه، فليناوله لقمة أو لقمتين أو أكلة أو أكلتين؛ فإنه ولي

علاجه)³

وعن عبد الله بن عمرو أنه قال لِقَهْرَمَانَ له: هل أعطيت الرقيق قوتهم؟ قال: لا. قال: فانطلق فأعطهم؛ فإن

رسول الله ﷺ قال: (كفى بالمرء إثما أن يجلس عن مملوك قوتهم)⁴

وقد نهي عن تكليفهم من الأعمال فوق طاقتهم، وكان عمر وهو خليفة المسلمين يذهب إلى العوالي في كل يوم

وعلى النهوض إلى من يتعلم منه ما يلزمه من الدين، ولو سقط عن العبد القيام بالشهادة لشغله بخدمة سيده لسقط أيضا عن الحرة

ذات الزوج لشغلها بملازمة زوجها)

(1) رواه أبو داود.

(2) رواه البخاري ومسلم.

(3) رواه البخاري.

(4) رواه مسلم.

سبت، فإذا وجد عبداً في عمل لا يطقه وضع عنه منه.
 ويروى عن أبي هريرة أنه رأى رجلاً على دابته وغلامه يسعى خلفه فقال له: يا عبد الله احمله خلفك فإنما هو
 أخوك روحه مثل روحك فحملة ثم قال: لا يزال العبد يزداد من الله بعداً ما مشى خلفه.
 ودخل على سلمان رجل وهو يعجن فقال: يا أبا عبد الله ما هذا؟ فقال: بعثنا الخادمة في شغل، فكرهنا أن نجتمع
 عليه عملين.

وفوق هذا همى ﷺ أن ينادى العبد بما يدل على تحقيره واستعباده، فقال: (لا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ : عبدِي وأمِّي، ولا
 يَقُولَنَّ المملوك : رَبِّي وربِّي، لِيَقُلَّ المالك: فَتَائِي وَفَتَائِي، وليَقُلَّ المملوك : سيدي وسيدي، فإنكم المملوكون والرَّبُّ : اللهُ
 عزَّ وجلَّ¹، وقال: (لا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ : أَطْعِمَ رَبِّي، وَصَيَّ رَبِّي، واسقِ رَبِّي، وليقل : سيدي ومولاي ولا يقل
 أَحَدُكُمْ : عبدِي وأمِّي، وليقل : فتاي وفتاتي، وغلامي)²
 ونهى ﷺ عن ظلمهم وإذيتهم، بل رتب الكفارة على ذلك، قال رسول الله ﷺ: (من لطم مملوكه أو ضربه
 فكفارته عتقه)³

وعن أبي مسعود الأنصاري قال: بينا أنا أضرب غلاماً لي إذ سمعت صوتاً من خلفي، فإذا هو رسول الله ﷺ
 يقول: (اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام) ، فقلت: هو حر لوجه الله، فقال: (لو لم تفعل
 لمستك النار)⁴

بل نص الفقهاء على أن للقاضي حق الحكم بالعتق إذا ثبت له أن المالك يسيء معاملة ملوكه.
 ولهذا ورد نهي من لا يطيق الإحسان إليهم عن تملكهم، قال رسول الله ﷺ: (من لا يملككم منهم فبيعه ولا تعذبوا خلق الله)⁵
 وعن عمر قال: (من ابتاع شيئاً من الخدم فلم توافق شيمته شيمته فليبع وليشتر حتى توافق شيمته شيمته، فإن
 للناس شيئاً، ولا تعذبوا عباد الله)

سكت سلمان قليلاً، ثم قال: هذه التشريعات .. أما الترغيبات .. ولا يحرك البشر شيء مثل الطمع .. فحسبك
 منها أن الله تعالى قرن الإحسان إلى المملوك بعبادته، فقال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا
 وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْعُتْبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ
 أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ (النساء: 36)

وقد ذكر ﷺ أن الإحسان إلى المملوك من الصدقات التي يجازى المؤمن عليها، فقال: (ما أطعمت نفسك فهو
 لك صدقة، وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة، وما أطعمت زوجتك فهو لك صدقة، وما أطعمت خادمك فهو لك

(1) رواه البخاري ومسلم وأبو داود.

(2) رواه البخاري ومسلم.

(3) رواه أحمد وغيره.

(4) رواه مسلم وأبو داود والترمذي.

(5) رواه أبو داود.

ورغب ﷺ في تعليمهم وتأديبهم، فقال: (من كانت له جارية فعلمها، وأحسن إليها وتزوجها، كان له أجران في الحياة وفي الآخرة: أجر بالنكاح والتعليم، وأجر بالعتق)²
 قال توم: ألم تكن هذه النصوص مجرد توجيهات لم تجد أحدا يستمع لها؟
 قال سلمان: لا .. ما كان للمسلمين أن يهملوا التعاليم العظيمة التي جاء بها نبيهم .. لقد ورد في الأخبار الكثيرة المتواترة تجليات تلك التعاليم المقدسة:

فعن المعرور بن سويد قال: رأيت أبا ذر ، وعليه حلّة، وعلي غلامه مثلها، فسألته عن ذلك، فذكر أنه ساب رجلاً على عهد رسول الله ﷺ ، فغيره بأمه، فقال النبي ﷺ: (إنك امرؤ فيك جاهلية؛ هم إخوانكم وحولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده؛ فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم)³

وروي عن أبي هريرة أنه ركب بغلة ذات يوم فأردف غلامه خلفه، فقال له قائل: لو أنزلته يسعى خلف دابتك؛ فقال أبو هريرة: لأن يسعى معي ضعفان من نار يجرقان مني ما أحرقا أحب إلي من أن يسعى غلامي خلفي.
 وقد ذكر الشيخ عبد الوهاب الشعراي من العهود الحمديّة عهداً مرتبطاً بالإحسان إلى العبيد ، ذكر فيه موقف الأولياء منه، ونظرهم إليه، فقل: (واعلم يا أخي أنك لو أحسنت إلى عبدك مدى الدهر لا تقوم بواجب حق عبدك عليك لأنه بالأصالة إنما هو عبد الله كما أنك عبده، فأحسانك إليه يصحبه شهود المنة عليه، ولا هكذا إحسان عبدك إليك، فأجره موفر للدار الآخرة بخلاف أجرك، وهنا أسرار يعرفها أهل الله تعالى لا تسطر في كتاب.

ويذكر عن شيخه علي الخواص — رحمه الله — قوله: (لا ينبغي للفقراء أن يروا لهم ملكاً لشيء من الوجود لا عبداً ولا أمة ولا دابة كما كان ﷺ وكمل ورثته يفعلون، وكان كل عبد دخل في يدهم أعتقوه لوقته، فهم يستحيون من الله تعالى أن يراهم يستعبدون أحداً من الخلق، ويجعلون عبيد سيدهم عبيداً لهم، فإن ذلك عندهم من أعلى طبقات سوء الأدب، ومن هنا كانوا عبيد الله خالصين لم يسترقهم شيء من مملكة الدارين، ولو أعطاهم الحق تعالى شيئاً قبلوه أدباً ثم خرجوا عنه في الحال لرهم حياءً منه أن يراهم مشاركين له في وصف من الأوصاف، فليس فرحهم سوى إقبال الحق عليهم، وليس حزنهم إلا على إدمارهم عنه لا غير، فسواء أقطعهم الجنة كلها أو لم يقطعهم منها هو عندهم سواء لعدم شهودهم دخول شيء من الكونين في ملكهم وشكرهم لله تعالى إنما هو من حيث النسب لا غير)

وقد استدلل الشعراي لهذا الفهم الرباني بقوله ﷺ: (لا يقل أحدكم عبدي وأمتي، وليقل فتاي وفتاتي)⁴
 قال توم: دعني من هذا، وأخبرني كيف تخاطب الشريعة التي تزعم لها الرحمة العبد بالتكاليف الشرعية، وهو لا حرية له؟

قال سلمان: لقد رحم الله هذا العبد — أولاً — فخفف عليه الكثير من التكاليف التي كلف بها الأحرار مراعاة

(1) رواه النسائي.

(2) رواه البخاري ومسلم.

(3) رواه البخاري ومسلم.

(4) رواه البخاري ومسلم.

للحالة التي يمر بها.

ثم إن الله تعالى برحمته جعل للعبد من الأجر إن أطاع الله ضعف ما للحر، فقد قال ﷺ: (إن العبد إذا نصح لسيدته، وأحسن عبادة الله، فله أجره مرتين)¹

وفي حديث آخر، قال ﷺ: (المملوك الذي يحسن عبادة ربه، ويؤدي إلى سيده الذي عليه من الحق، والنصيحة، والطاعة، له أجران)²

وفي حديث آخر قال ﷺ: (ثلاثة لهم أجران: رجلٌ من أهل الكتاب آمن بنبيه، وآمن بمحمدٍ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله، وحق مواليه، ورجلٌ كانت له أمةٌ فأدبها فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فترجوها، فله أجران)³

قال توم: ولكن مع كل ما ذكرت من وجوه الإحسان، فإن العبد يظل متألماً للنظرات القاسية التي توجه له .. فيكفي أنه عبد.

قال سلمان: لا تقل هذا .. فالمسلم لا يفعل هذا .. بل قد ورد من الترغيب في هذا الباب ما جعل الصحابة يتمنون حياة العبودية، فقد روى أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (للعبد المملوك المصلح أجران)، ثم قال بعدها: (والذي نفس أبي هريرة بيده لولا الجهاد في سبيل الله والحج وبر أمي لأحببت أن أموت وأنا مملوك)

وروي عن أبي عبيدة بن الجراح أنه قال: (ما من الناس من أحمر ولا أسود حر ولا عبد عجمي ولا فصيح أعلم أنه أفضل مني بتقوى إلا أحببت أن أكون في مسلاخه)

وقد استدل بهذا وما كان مثله من النصوص من ذهب من العلماء إلى تفضيل العبد على الحر؛ لأنه مخاطب من جهتين: مطالب بعبادة الله، مطالب بخدمة سيده⁴.

(1) رواه البخاري ومسلم.

(2) رواه البخاري.

(3) رواه البخاري ومسلم.

(4) ذكر القرطبي أن هذا مذهب أبي عمر يوسف بن عبد البر النمري وأبي بكر محمد بن عبد الله بن أحمد العامري البغدادي

الحافظ.

3- تحرير

قال توم: لا بأس .. عرفت هذا .. وسلمت له .. فهل هناك غيره؟
قال زيد، وقال: لقد ذكر صاحبي العلاجان الأولان .. وسأذكر لك الثالث .. وهو يتمثل في التشريعات المختلفة التي توفر للرفيق الحرية.

قال توم: فما هي هذه التشريعات؟

قال زيد: كثيرة.. ولكنها يمكن أن تجتمع في أربعة أصول كبرى.

قال توم: فما أولها؟

قال زيد: لقد جعل الله تعالى عتق الرقاب عبادة قائمة بذاتها لها من الشرف والفضيلة ما لا تدانيه عبادة أخرى، فقد اعتبر الله تعالى فك الرقبة وتحريرها من الأسباب التي يمتنع بها صاحبها من عذاب جهنم، فقال تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ (البلد: 11-16)
إن لفظ العقبة في الآية يوحي بالأهوال الشديدة التي تنتظر الإنسان¹ .. إن القلب المؤمن يقشعر عند قراءتها، خاصة وأنها تليت بما يؤكدها، ويبين خطورتها، فقد قال تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ وهذه القشعريرة التي وردت في هذه السورة التي يقرؤها جميع المؤمنين باعتبار قصرها هي التي تحركهم لعتق الرقاب ..

ليس هذا فقط .. بل وردت الأحاديث الكثيرة المعمقة لهذا المعنى، والتي تملأ به قلوب المؤمنين الخائفين من عذاب الله، والراغبين لفضل الله، فقد قال ﷺ: (من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل إرب منها إربا منه من النار، حتى إنه ليعتق باليد اليد، وبالرجل الرجل، وبالفرج الفرج)²

وقد كان لهذا الحديث تأثيره المباشر في نفس علي بن الحسين ، فقد قال سائلا راوي الحديث: أَنْتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؟ فقال: نعم. فقال علي بن الحسين لـ غلام له -أفـرة غلمانـه-: ادع مطرفاً، فلما قام بين يديه قال: اذهب فأنت حر لوجه الله.

وقد روي أن هذا الغلام الذي أعتقه علي بن الحسين زين العابدين كان قد أعطي فيه عشرة آلاف درهم³.
وكما رغب الرجال رغب النساء، فقد قال ﷺ: (إما مسلم أعتق رجلاً مسلماً، فإن الله جاعلٌ وفاء كل عظم

(1) اتفق المفسرون على أن العقبة تعني الأهوال الشديدة جهنم، فما دوها: قال ابن عمر: هذه العقبة جبل في جهنم. وعن أبي رجاء قال: بلغنا أن العقبة مصعدا سبعة آلاف سنة، ومهبطها سبعة آلاف سنة. وقال الحسن وقتادة: هي عقبة شديدة في النار دون الجسر، فاقتموها بطاعة الله. وقال مجاهد والضحاك والكلبي: هي الصراط يضرب على جهنم كحد السيف، مسيرة ثلاثة آلاف سنة، سهلا وصعودا وهبوطا. واقتحامه على المؤمن كما بين صلاة العصر إلى العشاء. وقيل: اقتحامه عليه قدر ما يصلح صلاة المكتوبة. وروي عن أبي الدرداء أنه قال: إن وراءنا عقبة، أنجى الناس منها أحفهم حملا. وقيل: النار نفسها هي العقبة. فروى أبو رجاء عن الحسن قال: بلغنا أنه ما من مسلم يعتق رقبة إلا كانت فداءه من النار. وعن عبد الله بن عمر قال: من أعتق رقبة أعتق الله عز وجل بكل عضو منها عضوا منه.

(2) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

(3) رواه مسلم.

من عظامه عظماً من عظام محرره من النار، وأما امرأة مسلمة أعتقت امرأة مسلمة، فإن الله جاعل وفاء كل عظم من عظامها عظماً من عظامها من النار)¹

وفي حديث آخر يربط ﷺ بين عتق الرقاب والأعمال الصالحة العظيمة، فيقول ﷺ: (من بنى مسجداً ليذكر الله فيه، بنى الله له بيتاً في الجنة. ومن أعتق نفساً مسلمة، كانت فديته من جهنم. ومن شاب شبيبة في الإسلام، كانت له نورا يوم القيامة)²

وفي حديث آخر، قال ﷺ: (من أعتق رقبة مسلمة فهو فداؤه من النار)³
وقد كان عتق الرقاب من الحلول التي يلجئ إليها المخطئون ليكفروا عن خطاياهم تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ السَّيِّئَاتِ﴾ (هود: من الآية 114)، فعن الغريف بن الدلمي قال: أتينا وائلة بن الأسقع فقلنا له: حدثنا حديثاً ليس فيه زيادة ولا نقصان. فغضب وقال: إن أحدكم ليقرأ ومصحفه معلق في بيته، فيزيد وينقص. قلنا: إنما أردنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ قال: أتينا رسول الله ﷺ في صاحب لنا قد أوجب — يعني النار — بالقتل، فقال: (أعتقوا عنه يُعتق الله بكل عضو منه عضواً منه من النار)⁴

ولكن هذه العبادة قد لا تتسنى لعامة المسلمين، فأسعار العبيد كانت غالية.. ولهذا، فإن الشرع لم يكتف بالحث على عتق الرقاب، والذي قد لا يتسنى لعامة الناس، بل رغب في العتق بحسب الطاقة.
قال توم: كيف ذلك؟

قال زيد: بأن يشترك الجمع من المؤمنين في عتق رقبة من الرقاب، وقد ورد في ذلك عن البراء بن عازب قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، علمني عملاً يدخلني الجنة. فقال ﷺ: (لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة: أعتق النسمة، وفك الرقبة)، فقال: يا رسول الله، أوليست بواحدة؟ قال: (لا إن عتق النسمة أن تنفرد بعتمتها، وفك الرقبة أن تعين في عتمتها، والمنحة الكوف، والفيء على ذي الرحم الظالم؛ فإن لم تُطَّق ذلك فأطعم الجائع، واسقِ الظمآن، وأمر بالمعروف، وانه عن المنكر، فإن لم تطق ذلك فكف لسانك إلا من الخير)⁵

قال توم: عرفت التشريع الأول، واقتنعت به، فما الثاني؟

قال زيد: لقد جعل الشرع عتق الرقاب من الكفارات على أعمال قلما يخلو من الوقوع فيها أكثر المسلمين، وأكثرها مما ورد التنصيص عليه في القرآن الكريم لثلاثين لئلا يجد أي مساع للتأويل والاحتيال.

قال توم: فما هي هذه الأعمال؟

قال زيد: **أولها** وأكثرها وقوعاً أن الشرع جعل عتق الرقبة كفارة للحنث في اليمين الذي قد لا يخلو من الوقوع فيه أحد، وقد نص على ذلك في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْخَذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّعْنَةِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخَذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ

(1) ورواه النسائي.

(2) رواه الترمذي.

(3) رواه أحمد.

(4) رواه النسائي.

(5) رواه أحمد.

ذَلِكَ كَفَّارَةٌ أَيَّمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ﴿ (المائدة:89).

قال توم: **والثاني؟**

قال زيد: لقد جعل الله تعالى عتق الرقاب كفارة في الظهار، وهو تحرير الرجل زوجته على نفسه، ثم رغبته في العودة إليها، وقد نص على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ذَلِكَمْ يُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَيَأْطَعُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ (المحاذلة: 3-4)، ولم يجعل الله تعالى للقادر على عتق الرقبة أي خيار آخر.

قال توم: **والثالث؟**

قال زيد: لقد جعل الله تعالى عتق الرقاب كفارة للقتل خطأ، وقد نص على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةً وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدْيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴾ (النساء: 92) .. ألا تلاحظ أن الله تعالى ذكر في هذه الآية وحدها جملة ﴿ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴾ ثلاث مرات؟

قال توم: أجل ..

قال زيد: ألا يكفي ذلك للدلالة على ما يشكل عتق الرقاب من أهمية في هذا الدين؟

قال توم: كيف ذلك؟

قال زيد: القرآن الكريم هو كتاب الحقائق الأزلية، ولذلك يندر وجود التفاصيل الفقهية، فذكر هذه التفاصيل في

هذا المحل يدل على مدى أهمية الموضوع ..

بالإضافة إلى هذا ، فقد ورد في السنة تشريع عتق الرقاب كفارة للإفطار المتعمد في ثمار رمضان، فقد روي أن رجلاً أتى النبي ﷺ ، فقال: هلكت يا رسول الله، قال: ما شأنك؟ قال: وقعت على امرأتي في رمضان، فهل تجد رقبة تعتقها؟ قال: لا. قال: فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟ قال: لا، قال: فهل تستطيع أن تطعم ستين مسكيناً؟ قال: لا¹، فقد اعتبر ﷺ العتق هو الواجب الأول في هذه الكفارة قبل الصيام مع أن الصيام من أسمى العبادات، بل هو ركن من أركان هذا الدين .. بل ورد قبل الإطعام للفقراء، مع حاجتهم إليه، وكان رد الحرية إلى الرقيق وفيها حياته الحقيقية أولى وأهم.

بالإضافة إلى هذا كله، فقد عرفت أن رسول الله ﷺ جعل العتق كفارة لضرب العبد أو لطمه، فقال ﷺ: (من لطم مملوكاً له أو ضربه فكفارته عتقه)²، وروي تطبيق هذا عن أبي مسعود الأنصاري قال: بينا أنا أضرب غلاماً لي إذ سمعت صوتاً من خلفي، فإذا هو رسول الله ﷺ يقول: (اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام) ، فقلت: هو حر لوجه الله، فقال: (لو لم تفعل لمستك النار)³

(1) رواه البخاري وأبو داود والترمذي.

(2) رواه أحمد وغيره.

(3) رواه مسلم وأبو داود والترمذي.

قال توم: فما الثالث؟

قال زيد: تشريع المكتابة.. وقد نص عليها في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ (النور: من الآية 33).. ففي هذه الآية الكريمة يبين الله تعالى حلا تشريعيًا مهما يضاف إلى الحلول السابقة، فقد أمر الله تعالى المؤمنين فيها أن يكتتب منهم كل من له مملوك، وطلب المملوك الكتابة، وعلم سيده منه خيرا.

قال توم: فما الكتابة¹؟ .. وما وجه كونها من الحلول الشرعية؟

قال زيد: هي أن يتفق السيد مع عبده القادر على العمل على أن يكسب له من المال ما يفدي به نفسه.

قال توم: أيمكن للعبد أن يترك له سيده الفرصة لأن يحترف، ثم يملك المال الذي يقبضه؟

قال زيد: أجل .. بل ورد ما يدل على وجوب موافقة السيد على طلب عبده المكتابة، وقد ورد أن الآية نزلت في غلام لحويطب بن عبد العزى يقال له صبح، طلب من مولاه أن يكتتبه فأبى؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية، فكتتبه حويطب على مائة دينار، ووهب له منها عشرين دينارا فأداها².

قال توم: رأيت لو رفض السيد المكتابة حرصا على استغلال عبده؟

قال زيد: لا يقبل منه ذلك، فلا ينبغي للسيد أن يفرض العبودية على من يرفضها³ .. ألم تسمع الأمر الصريح في الآية؟

قال توم: بلى .. ولكن القرائن الخارجية.

قال زيد: دعك من الخارج .. فما خرج عن النص لا يلغي النص .. وقد روي أن سيرين أبا محمد بن سيرين، سأل أنس بن مالك الكتابة وهو مولاه فأبى أنس؛ فرفع عمر عليه الدرة، وتلا: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ (النور: من الآية 33)، فكتتبه أنس.

وقد قال داود تعليقا على قول عمر : (وما كان عمر ليرفع الدرة على أنس فيما له مباح ألا يفعله)

(1) الكتاب والمكتابة : مفاعلة مما لا تكون إلا بين اثنين، لأنها معاهدة بين السيد وعبده؛ يقال: كاتب يكتتب كتابا ومكتابة، كما يقال: قاتل قتالا ومقاتلة. فالكتاب في الآية مصدر كالقتال والجلاد والدفاع. وقيل: الكتاب ها هنا هو الكتاب المعروف الذي يكتب فيه الشيء وذلك أهم كانوا إذا كاتبوا العبد كتبوا عليه وعلى أنفسهم بذلك كتابا.

وقد عرفت في الاصطلاح الشرعي بـ (أن يكتتب الرجل عبده على مال يؤديه منجما عليه؛ فإذا أداه فهو حر)

(2) ذكره القشيري وحكاه النقاش. وقال مكّي: هو صبيح القبطي غلام حاطب بن أبي بلتعة.

(3) هذا قول عكرمة وعطاء ومسروق وعمرو بن دينار والضحاك بن مزاحم وجماعة أهل الظاهر، وروي ذلك عن عمر بن الخطاب وابن عباس، واختاره الطبري.

واستدلوا على ذلك بأن الإجماع منعقد على أنه لو سأله أن يبيعه من غيره لم يلزمه ذلك، ولم يجبر عليه وإن ضوعف له في الثمن.

واستدلوا كذلك لو قال له أعتقني أو دبرني أو زوجني لم يلزمه ذلك بإجماع، فكذلك الكتابة؛ لأنها معاوضة فلا تصح إلا عن تراض.

وقد ردوا على المخالفين بأن قولهم: مطلق الأمر يقتضي الوجوب صحيح، لكن إذا عري عن قرينة تقتضي صرفه عن الوجوب، وتعليقه هنا بشرط علم الخير فيه؛ فعلق الوجوب على أمر باطن وهو علم السيد بالخيرية. وإذا قال العبد: كاتبني؛ وقال السيد: لم أعلم فيك خيرا؛ وهو أمر باطن، فيرجع فيه إليه ويعول عليه.

ومع هذا .. فإن هذا الوجوب مرتبط بمدى صلاحية العبد للحرية.
قال توم: كيف ذلك .. أيمكن للعبد أن لا يصلح للحرية؟
قال زيد: أجل .. قد يكون الأصلح له والأوفق بمصلحه أن يظل عبدا.
قال توم: هذا لا يمكن أبدا .. فالحرية وعشقها فطرة في النفوس.
قال زيد: سأقرب لك هذا .. أنت تعلم أنه لا يكون للعبد أهل في المنطقة التي يتواجد بها .. ولذلك يكون مبيته وأكله وحياته في بيت سيده جزءا للخدمات التي يؤديها له.
قال توم: عرفت هذا في التشريع السابق.
قال زيد: وعرفت أن السيد المؤمن هو الذي يتساوى مع عبده فيما تتطلبه الحياة من مرافق.
قال توم: عرفت هذا.
قال زيد: والسادة عادة يكونون من الأغنياء، أو ممن لهم نصيب وافر من المال.
قال توم: هذا صحيح.
قال زيد: فالعبد الذي يتوفر له كل هذا .. ثم لا يكون له من الحرف ما يقدر به على الاشتغال لن يجد حياة أفضل من حياة العبودية التي تؤمن له جميع أسباب الرزق التي يستوي فيها مع الأغنياء من غير تعب كبير ..
لقد جوستاف لويون يقرر هذا: (إن الذي أراه صادقا هو أن الرق عند المسلمين خير منه عند غيرهم، وأن حال الأرقاء في الشرق أفضل من حال الخدم في أوروبا، وأن الأرقاء في الشرق يكونون جزءاً من الأسرة .. وأن الموالي الذين يرغبون في التحرر ينالونه بإبداء رغبتهم .. ومع هذا لا يلجأون إلى استعمال هذا الحق)¹
ولذلك ربط الله إذن السيد بالكتابة بمعرفته بمدى أهلية عبده للحياة الاجتماعية منفصلا عنه.
قال توم: وكيف يعرف ذلك؟
قال زيد: بقدرة العبد على الكسب، وتحلقه بالأخلاق الاجتماعية التي تجعله فردا ناجحا في حياته .. وقد فسر السلف الخيرية بهذا، فقد قال ابن عباس وعطاء: المال .. وقال مجاهد: المال والأداء .. وقال الحسن والنخعي: الدين والأمانة .. وقال مالك: سمعت بعض أهل العلم يقولون هو القوة على الاكتساب والأداء، وعن الليث نحوه، وهو قول الشافعي .. وقال عبيدة السلماني: إقامة الصلاة والخير.
ولهذا كان ابن عمر يكره أن يكتب السيد عبده إذا لم تكن له حرفة، وكان يقول: أتأمرني أن أكل أوساخ الناس؛ وروي مثل ذلك عن سلمان الفارسي.
وقد روي خلاف هذا عن عمر ، فقد روى حكيم بن حزام فقال: كتب عمر بن الخطاب إلى عمير بن سعد: (أما بعد، فإنه من قبلك من المسلمين أن يكتبوا أرقاعهم على مسألة الناس)
وروي عن علي أن ابن التياح مؤذنه قال له: أكتب وليس لي مال؟ قال نعم؛ ثم حض الناس على الصدقة علي؛ فأعطوني ما فضل عن مكاتبتي، فأنتيت عليا فقال: اجعلها في الرقاب.
وروي عن عائشة قالت: دخلت علي بريرة فقالت: إن أهلي كاتبوني على تسع أواق في تسع سنين كل سنة

(¹) حضارة العرب ص 459-460.

أوقية، فأعينيني..¹)

فكل هذه النصوص دليل على أن للسيد أن يكتب عبده مع أنه لا مال معه؛ ألا ترى أن بريرة جاءت عائشة تخبرها بأنها كاتبت أهلها وسألتها أن تعينها، وذلك كان في أول كتابتها قبل أن تؤدي منها شيئاً؛ وفي هذا دليل على جواز كتابة الأمة، وهي غير ذات صنعة ولا حرفة ولا مال، ولم يسأل النبي ﷺ هل لها كسب أو عمل أو مال، ولو كان هذا واجبا لسأل عنه ليقع حكمه عليه؛ لأنه بعث مينا معلما.

قال توم: لقد ورد النص بإعانتهم، فما المراد منه؟

قال زيد: لقد قال تعالى مرغباً في إعانتهم: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ (النور: من الآية 33) .. وهو أمر صريح للسادة بإعانتهم في مال الكتابة، إما بأن يعطوهم شيئاً مما في أيديهم — أيدي السادة — أو يحطوا عنهم شيئاً من مال الكتابة.

وقد ترك الشرع ذلك من غير تحديد ليتنافس فيه المتنافسون، وقد وضع ابن عمر خمسة آلاف من خمسة وثلاثين ألفاً، أي السبع.. واستحسن علي أن يكون ذلك ربع الكتابة، بل قد روي ذلك عن النبي ﷺ .. واستحسن ابن مسعود والحسن بن أبي الحسن ثلثها .. وقال قتادة: عشرها.

قال توم: فما الرابع؟

قال زيد: لقد جعل الشارع سهماً خاصاً من الزكاة، يوجه لغاية واحدة هي تحرير الرقاب.

قال توم: كيف يتم ذلك؟

قال زيد: لقد ذكر الفقهاء في ذلك طرقاً يمكن انتهاجها جميعاً: منها أن يُعان المكاتب، وهو العبد الذي كاتبه سيده واتفق معه على أن يقدم له مبلغاً معيناً من المال يسعى في تحصيله، فإذا آداه إليه حصل على عتقه وحرية وقد عرفت ذلك في التشريع الثالث².

ومنها أن يشتري الرجل من زكاة ماله عبداً أو أمة، فيعتقها أو يشترك هو وآخرون في شرائها وعتقها أو يشتري ولي الأمر مما يجيبه من مال الزكاة عبداً وإماء فيعتقهم³.

(1) البخاري وأبو داود.

(2) وإلى هذه الطريقة في فك الرقاب ذهب أبو حنيفة والشافعي وأصحابهما والليث بن سعد، واحتجوا بما روى عن ابن عباس أنه قال: قوله: ﴿وفي الرقاب﴾ يريد المكاتب. وتأكد هذا بقوله تعالى: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ (النور: من الآية 33)

(3) وهذا هو المشهور عن مالك، وأحمد وإسحاق. وقال ابن العربي: إن ذلك هو الصحيح، وأيده بأنه هو ظاهر القرآن، فإن الله حيث ذكر الرقبة في كتابه إنما هو العتق، ولو أراد المكاتبين لذكرهم باسمهم الأخص.. فلما عدل إلى الرقبة دل على أنه أراد العتق.

وتحقيقه أن المكاتب قد دخل في جملة الغارمين بما عليه من دين الكتابة، فلا يدخل في الرقاب، وربما دخل فيه المكاتب بالعموم، ولكن في آخر نجم يعتق به (أحكام القرآن: 955/2) وقد جاء عن إبراهيم النخعي وسعيد بن جبير من التسعين أهما كرها شراء الرقاب وعتقها من الزكاة، لأن ذلك يجر إلى المزكي منفعة وهي ولاء المعتق وميراثه إن لم يكن له وارث، كما تقرّر أحكام الإسلام. ومن هنا جاء عن مالك: أن الرقبة التي يعتقها من زكاة ماله يكون ولاؤها وميراثها لجميع المسلمين، يعني لبيت المال (الأموال ص 608، 609).

قال توم: أترك هذا للأفراد وأمزجتهم؟
قال زيد: لا .. هذا في حالة عدم تولي الدولة شؤون الزكاة.

قال توم: فإن تولتها؟

قال زيد: إذا تولها الحاكم المسلم — كما هو الأصل — فله أن يشتري ويعتق من الرقيق ما يتسع له مال الزكاة، بشرط أن لا يجوز على المصارف الأخرى.

ويمكن أن يأخذ بالرأي القائل بوجوب تسوية الأصناف المستحقين للزكاة، وبهذا لا يقل نصيب العبيد عن الثمن.

قال توم: ولكن أليس الثمن نصاباً حقيراً مع ما تتطلبه الحاجة إلى عتق الرقاب من أموال؟

قال زيد: قد يرى ولي الأمر أن يزيد في سهمهم بسبب الحاجة إلى ذلك، وخاصة إذا استغنت الأصناف الأخرى

كما حدث في عهد عمر بن عبد العزيز .

فقد روى يحيى بن سعيد، قال: بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية، فاقترضتها وطلبت فقراء نعطيها

لهم، فلم نجد فقيراً، ولم نجد من يأخذها منا، فقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس، فاشتريت بها رقاباً فأعتقتهم¹

قال توم: ولكن بانتفاء عصر الرقيق انتفت الحاجة إلى هذا السهم، وتفرغت الزكاة لغيرها من الأصناف.

قال زيد: لا .. لا تقل هذا .. فلا يزال العبيد في الأرض.

قال توم: كيف تقول هذا؟

قال زيد: هناك شعوب مستعبدة تحتاج من يفك رقابها ..

قال توم: إن هذه فتوى خطيرة.

قال زيد: لا حرج على الفتوى إن صدرت من أهلها.

قال توم: فهل أنت من أهلها؟

قال زيد: لقد سمعت السيد رشيد رضا — وهو من هو — يجعل لسهم الرقاب مصرفاً في تحرير الشعوب

المستعمرة من الاستعباد إذا لم يكن له مصرف تحرير الأفراد² .. وجاء من بعده الشيخ محمود شلتوت — وهو من هو

— ليقول بعد أن تحدث عن انقراض رق الأفراد: (ولكن — فيما أرى — قد حل محله الآن رق هو أشد خطراً منه

على الإنسانية، ذلكم هو استرقاق الشعوب في أفكارها وفي أموالها وسلطانها وحريتها في بلادها .. كان ذلك رق أفراد

يموت بموتهم وتبقى دولهم حرة رشيدة، لها من الأمر والأهلية ما لسائر الأحرار الراشدين، ولكن هذا رق شعوب وأمم،

تلد شعوباً وأمماً هم في الرق كأبائهم فهو رق عام دائم، يفرض على الأمة بقوة ظلمة غاشمة!! وإذن فما أجدر هذا

الرق بالمكافحة والعمل على التخلص منه، ورفع ذله عن الشعوب، لا بمال الصدقات فقط، بل بكل الأموال

أما في حالة قبض ولي الأمر للزكاة، فإن له أن يجمع بين الأمرين فيعين المكاتبين ويشتري العبيد والإماء. وهذا ما كتبه الإمام الزهري للخليفة عمر بن عبد العزيز قال: سهم الرقاب نصفان: نصف للمكاتبين من المسلمين ونصف يشتري به رقاب ممن صلوا وصاموا وقدم إسلامهم، فيعتقون من الزكاة.

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص 59.

(2) تفسير المنار: 598/10.

والأرواح¹

قال توم: أهذه هي التشريعات التي وردت في النصوص لتحرير الرقيق؟
قال زيد: هناك غيرها مما لا يسعنا تفصيله هنا .. ومنها أن السيد إذا ملك زوجته صارت حرة، وإذا ملكت الزوجة زوجها صار حراً ..

ومنها أن المالك إذا استولد أمته، أي كان له منها ولد، كانت في سبيلها إلى الحرية، فإن شاء حررها، وإلا حرم عليه التصرف في ملكيتها حتى يموت فتكون حرة، وقد قال ﷺ في ذلك: (أما امرأة ولدت من سيدها فإنها حرة إذا مات)²

ومنها أن المالك إذا عتق نصيبه في عبد، عتق العبد، وكان على المالك تخليصه من ماله، فإن لم يكن له مال سعى العتيق في أداء المال إلى الشريك الآخر دون إرهاق، وقد قال ﷺ في ذلك: (من أعتق شقصاً له في عبد فخلاصه في ماله أن كان له مال، فإن لم يكن له مال استسعى العبد غير مشقوق عليه)³
ومنها أنه إذا أوصى المالك بعتق عبده لم يجز له الرجوع في الوصية، وكان هذا العبد حراً بعد الوفاة، ولو تجاوزت قيمته ثلث التركة الذي تنفذ فيه الوصايا.

بل أن المالك إذا جرى على لسانه هازلاً إعتاق عبده، أصبح العبد حراً، لأن الحرية لا تتوقف على القصد والنية. ومنها أن القرابة القريبة تنافي مع الاسترقاق، ولهذا إذا ملك الشخص قريبه المحرم صار هذا القريب حراً، كما قال ﷺ: (ومن ملك ذا رحم محرم فهو حر)⁴
ومنها أن من نذر أن يحرر رقبة وجب عليه الوفاء بالنذر متى تحقق له مقصوده.

قال توم: هذه التشريعات، فما التوجيهات، فإنها قد تكون أعظم خطراً من التشريعات؟
قال زيد: لقد نشرت النصوص الكثيرة الواردة في فضل عتق الرقاب وعيا عاما بالفضيلة العظمى للعتق .. حتى نشأت جماعات كان همها الدعوة إلى عتق الرقاب، وقد قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني معبراً عن هذه الدعوات: (أخذ علينا العهد العام من رسول الله ﷺ أن نرغب كل غني عنده عبيد أو مال في العتق، لا سيما إن كان كثير الذنوب كالحكام وحاشيتهم وقضاة الأرياف الذين يتهورون في الأحكام)

وما نشأت هذه الدعوات إلا من تعاليمه ﷺ .. فقد كان يربط فضائل الأعمال بعتق الرقاب لينشر مثل هذا الوعي، ومن ذلك قوله ﷺ: (من قال كل يوم لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير عشر مرات كان كعدل رقبة يعتقها من ولد إسماعيل، ومن قالها مائة مرة كان كعدل عشر رقاب)⁵

وقد كان هذا الوعي سبباً في انتشار ظاهرة العتق لأوهى الأسباب، فقد روى محمد بن عمر بن حرب قال: قال

(1) الإسلام عقيدة وشريعة ص446.

(2) رواه ابن ماجة والحاكم.

(3) رواه البخاري ومسلم.

(4) رواه النسائي وابن ماجة.

(5) رواه أبو داود.

لنا بعض أصحابنا عن ابن عون أن نادته أمه فأجابها فعلا صوته صوتها فأعتق رقيبتين.
وأخر عمر صلاة المغرب ليلة حتى طلع نجم، فأعتق رقبة، وأخرها ابن عمر حتى طلع كوكبان، فأعتق رقيبتين.
وقالت جارية لأبي الدرداء: إني سممتك منذ سنة فما عمل فيك شيئاً فقال: لم فعلت ذلك؟ فقالت: أردت الراحة منك، فقال: اذهبي فأنت حرة لوجه الله.

وقال الزهري: متى قلت للملوك أخزاك الله فهو حر.
وقيل للأحنف بن قيس: ممن تعلمت الحلم؟ قال: من قيس بن عاصم، قيل: فما بلغ من حلمه؟ قال: بينما هو جالس في داره إذ أتته خادمة له بسفود عليه شواء فسقط السفود من يدها على ابن فعقره فمات، فدهشت الجارية، فقال: ليس يسكن روع هذه الجارية إلا العتق فقال لها: أنت حرة لا بأس عليك.
وكان عون بن عبد الله إذا عصاه غلامه قال: ما أشبهك بمولاك؟ مولاك يعصي مولاه وأنت تعصي مولاك، فأغضبه يوماً فقال: إنما تريد أن أضربك اذهب فأنت حر.

وكان عند ميمون بن مهران ضيف فاستعجل على جاريته بالعشاء فجاءت مسرعة ومعها قصعة مملوءة، فعثرت وأراقها على رأس سيدها ميمون؛ فقال: يا جارية أحرقتني، قالت: يا معلم الخير ومؤدب الناس ارجع إلى ما قال الله تعالى قال: وما قال الله تعالى؟ قلت: قال: ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظِ﴾ (آل عمران: من الآية 134) قال: قد كظمت غيظي، قالت: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ (آل عمران: من الآية 134) قال: قد عفوت عنك، قالت: زد فإن الله تعالى يقول: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ (آل عمران: من الآية 134) قال: أنت حرة لوجه الله تعالى.

وري عن أم البنين أنها وقعت في بعض مداعبتها مع عزة في حديث غزلي، جعلها تعتق الرقاب الكثيرة من أجل ذلك، فقد روي أنها أعتقت لكلمتها تلك أربعين رقبة، وكانت إذا ذكرتها بكت وقالت: ليتني خرست ولم أتكلم بها.
وقد روى الأصمعي، قال: حدثنا شبيب بن شيبه قال: كنا بطريق مكة وبين أيدينا سفرة لنا نتغدى في يوم قائف، فوقف علينا أعرابي ومعه جارية له زنجية. فقال: يا قوم أفيكم أحد يقرأ كلام الله عز وجل حتى يكتب لنا كتاباً؟ قال: قلت له: أصب من غدائنا حتى نكتب لك ما تريد. قال: إني صائم، فعجبنا من صومه في البرية، فلما فرغنا من غدائنا دعونا به فقلنا: ما تريد؟ فقال: أيها الرجل إن الدنيا قد كانت، ولم أكن فيها، وستكون، ولا أكون فيها. وإني أردت أن أعتق جاريته هذه لوجه الله عز وجل، ثم ليوم العقبه، تدري ما يوم العقبه؟ قول الله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُ رَقَبَةً﴾ (البلد: 10 — 13)، اكتب ما أقول لك، ولا تزيد علي حرفاً: (هذه فلانة، خادم فلان، قد أعتقها لوجه الله عز وجل ليوم العقبه)

قال شبيب: فقدمت البصرة، وأتيت بغداد، فحدثت بهذا الحديث المهدي فقال: مائة نسمة تعتق على عهد الأعرابي.

وقال صالح بن عبد الكريم: رأيت غلاماً أسوداً في طريق مكة عند ميل يصلي فقلت له: عبد أنت؟ قال: نعم. قلت: فعليك ضريبة؟ قال: نعم. قلت: أفلا أكلم مولاك أن يضع عنك؟ قال: وما الدنيا كلها فأجزع من ذلها؟ قال: فاشترته وأعتقته. فقعد يبكي وقال لي أعتقتني؟ قلت: نعم. قال: أعتقك الله يوم القيامة. وقعد يبكي ويقول: اشتد علي الأمر. فناولته دنائير فأبى أن يأخذها. قال: فحججت بعد ذلك بأربع سنين فسألت عنه فقالوا: غاب عنا فمد غاب

قحطنا وصار إلى حدة.

وقد روي أن عبد الله بن جعفر خرج إلى ضبيعة له فنزل على نخيل قوم وفيه غلام أسود يعمل فيه؛ إذ أتى الغلام بقوته، فدخل الحائط كلب ودنا من الغلام فرمى إليه الغلام بقرص فأكله، ثم رمى إليه الثاني والثالث فأكله، وعبد الله ينظر إليه فقال يا غلام كم قوتك كل يوم؟ قال ما رأيت! قال فلم آثرت به هذا الكلب؟ قال ما هي بأرض كلاب، إنه جاء من مسافة بعيدة جائعاً فكرهت أن أشبع وهو جائع! قال فما أنت صانع اليوم؟ قال: أطوي يومي هذا فقال عبد الله بن جعفر ألام على السخاء! إن هذا الغلام لأسخى مني، فاشتري الحائط والغلام وما فيه من الآلات فأعتق الغلام ووهبه منه.

قال توم: فكيف بقي الرق كل تلك الفترة مع كل هذا؟

قال زيد: أنسيت يزيدا والحجاج؟

قال توم: وما علاقتهما بهذا؟

قال زيد: إن الانحراف الذي حصل في السياسة فأنتج يزيدا والحجاج قد وجد مثله في المجتمع، فمكن للرق الذي جاء الإسلام ليستأصله.

4 - إدماج

قال توم: وعيت كل ما ذكرتموه .. فما العلاج الرابع الذي عالج به الإسلام مرض الاستعباد؟

قال سالم، وقال: سأحدثك أنا عن هذا العلاج ..

لقد استعملت الشريعة كل الأساليب التوجيهية والتشريعية لإدماج الرقيق المحرر، وتحليصه من آثار العبودية.

قال توم: ولم هذا؟

قال سالم: ألا ترى أن قومك يزعمون أنهم حرروا العبيد؟

قال توم: أجل .. فقد نصت المادة الرابعة من إعلان حقوق الإنسان على أنه (لا يجوز استرقاق أو استعباد أي

شخص، ويحظر الاسترقاق وتجارة الرقيق بكافة أوضاعها)

قال سالم: ولكن حياتهم وسلوكهم ومواقفهم تمتلئ بالعنصرية المقيتة؟

قال توم: صدقت في هذا.. فكيف عالج الإسلام؟

قال سالم: بأمرين: أحدهما تشريعي، والآخر سلوكي.

قال توم: فما التشريعي؟

قال سالم: لقد شرع الولاء، واعتبره مثل النسب، فقال ﷺ: (الولاء لِحَمَّةٍ كُلِّحَمَّةٍ النَّسَبِ)¹

قال توم: فما الولاء؟ وما المقصد التشريعي منه؟

قال سالم: الولاء هو انتماء العبد المحرر إلى العائلة التي أعتقته ، بحيث يصير فردا من أفرادها يجمونه وينصرونه،

ويحميهم وينصرهم .. وقد اعتبره الإسلام كالنسب تماما .. فلهذا حرم هبته ويبيعه، وقد جاء في الحديث عن ابن عمر

عن النبي ﷺ أنه نهى عن بيع الولاء وهبته².

وورد النهي أن يوالي الشخص غير مواليه، فقد قال ﷺ: (من والى قوما بغير إذن مواليه فعليه لعنة الله والملائكة

والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا)³

ولهذا ورد النهي عن السائبة⁵، ولهذا إن أعتق المالك عبدا سائبة على أن لا ولاء عليه عتق، وثبت له الولاء لقوله

تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا

يَعْقِلُونَ ﴾ (المائدة: 103)

وقد ورد في الحديث عن هزيل بن شرحبيل قال : جاء رجل إلى عبد الله فقال : إني أعتقت عبدا لي وجعلته

سائبة، فمات وترك مالا ولم يدع وارثا ، فقال عبد الله : (إن أهل الإسلام لا يسيبون ، وإنما كان أهل الجاهلية

(1) رواه الدارمي.

(2) رواه الجماعة .

(3) الصرف : التوبة وقيل : النافلة ، والعدل : الفدية ، وقيل : الفريضة والحديث يدل على أنه يجرم على المولى أن يوالي غير

مواليه ، لأن اللعن لمن فعل ذلك من الأدلة القاضية بأنه من الذنوب الشديدة.

(4) البخاري ومسلم.

(5) السائبة : هو العبد يعتق على أن لا ولاء له .. وقد كان أهل الجاهلية يفعلون ذلك ثم هدمه الإسلام.

يسبيون، وأنت ولي نعمته ولك ميراثه ، وإن تأثمت وتخرجت في شيء فنحن نقبله ونجعله في بيت المال)¹

قال توم: ألا ترى أن في الولاء مصلحة للمعتق، فقد جعل الإسلام الولاء من أسباب الإرث؟

قال سالم: ولكن مصلحة العبد المحرر أعظم.

قال توم: كيف ذلك؟

قال سالم: أولا .. سيشجع هذا السادة على تحرير العبيد، لأنه يعلم أنه بإمكانه أن يرث مال عبده الذي أعتقه إن لم يكن له ورثة.

وثانيا .. هذا الاعتبار سيجعل السادة يحرصون على حفظ أموال عبيدهم الذين أعتقوهم حتى لا يقترب منهم من

يؤذيهم.

ثم إنه لا مضرة على العبد المحرر في هذا .. لأن هذا الميراث لن ينتقل إلى محرره إلا في حالة عدم وجود وارث

للعبد المحرر، وقد روي أن رجلا أتى النبي ﷺ برجل وقال: اشتريته وأعتقته، فقال: (هو مولاك إن شكرك فهو خير له،

وإن كفرك فهو شر له وخير لك)، فقال: فما أمر ميراثه؟ فقال ﷺ: (إن ترك عصبه، فالعصبه أحق وإلا فالولاء)²

ولهذا اتفق العلماء على أنه إن كان له عصبه لم يرث المعتق، لأن الولاء فرع للنسب، فلا يورث به مع وجوده،

وإن كان له من يرث الفرض، فإن كان ممن يستغرق المال بالفرض لم يرثه لانه إذا لم ترث العصبات مع من يستغرق

المال بالفرض فلان لا يرث المولى أولى، وإن كان ممن لا يستغرق المال ورث ما فضل عن أهل الفرض، وقد روي في

هذا عن عبد الله ابن شداد قال: أعتقت ابنة حمزة مولى لها، فمات وترك ابنته وابنة حمزة فأعطى النبي ﷺ ابنة حمزة

النصف وابنته النصف.

قال توم: فإن مات السيد المعتق؟

قال سالم: انتقل الولاء إلى أقاربه، لأن الولاء كالنسب، ويقدم في الميراث الأقرب فالأقرب، وقد روي في

الحديث أن النبي ﷺ قال: (المولى أخ في الدين ونعمة يرثه أولى الناس بالمعتق)

قال توم: فما العلاج السلوكي التربوي؟

قال سالم: ما بثه الإسلام في النفوس المؤمنة من المساواة بين البشر، فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ

ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: 13)

وقد ذم الله تعالى اليهود والنصارى الذين دعاهم تميزهم عن سائر البشر إلى اعتقاد بنوهم لله، فقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ

الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ

يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (المائدة: 18)

ولهذا استوت في الإسلام كل الأجناس والأعراق، لأن الميزان الذين يوزنون به هو التقوى لا النسب ولا أي

شيء آخر.

قام رجل من الحاضرين، وقال: لقد ذكرتني بتأثير هذا الوعي في نفوس المجتمع الذي كان يمتلئ فخرا وكبرا، فقد

(1) رواه البرقاني على شرط الصحيح، وللبخاري منه: إن أهل الإسلام لا يسبيون، وإن أهل الجاهلية كانوا يسبيون.

(2) رواه البيهقي وعبد الرزاق واللفظ له وسعيد بن منصور من مرسل الحسن.

قال الشاعر، وكان في أشرف بطن في قيس، يقول:

وإني وإن كنت ابن سيد عامر .. وفارسها المشهور في كل موكب
فما سودتني عامر عن وراثته .. أبي الله أن أسمو بأب ولا أب
ولكنني أحمي حماها وأتقي .. أذاها وأرمي من رماها بمنكب

وقال آخر:

إنا وإن كرمت أوائلنا .. لسنا على الأحساب نتكل
نبيي كما كانت أوائلنا .. تبني ونفعل مثل ما فعلوا

وقال الآخر:

نفس عصام سودت عصاما .. وعلمته الكر والإقداما
وصيرته ملكا هماما

وقال آخر:

ما لي عقلي وهمتي حسيبي .. ما أنا مولى ولا أنا عربي
إن انتمى منتم إلى أحد .. فإنني منتم إلى أدبي

وتكلم رجل عندي عبد الملك بن مروان بكلام ذهب فيه كل مذهب، فأعجب عبد الملك ما سمع منه، فقال:
ابن من أنت يا غلام؟ قال: ابن نفسي التي نلت بها هذا المقعد منك؛ قال: صدقت.

قال آخر: ولهذا نجد التاريخ الإسلامي يزخر بالموالي الذين كان لهم تأثيرهم العظيم في الحياة الإنسانية، وقد قال
ابن أبي ليلى: قال لي عيسى بن موسى، وكان جاثرا شديدا العصبية: من كان فقيه البصرة؟ قلت: الحسن بن أبي
الحسن، قال: ثم من؟ قلت: محمد بن سيرين؛ قال: فما هما؟ قلت: موليان؛ قال: فمن كان فقيه مكة؟ قلت: عطاء بن
أبي رباح ومجاهد بن جبر وسعيد بن جبيرة وسليمان بن يسار؛ قال: فما هؤلاء؟ قلت: مولى، قال: فمن فقهاء المدينة؟
قلت: زيد بن أسلم ومحمد ابن المنكدر ونافع بن أبي نجيح؛ قال: فما هؤلاء؟ قلت: مولى. فتغير لونه، ثم قال: فمن أفقه
أهل قباء؟ قلت: ربيعة الرأي وابن الزناد؛ قال: فما كانا؟ قلت: من الموالى. فأربد وجهه، ثم قال: فمن كان فقيه اليمن؟
قلت: طاووس وابنه وهمام بن منبه؛ قال: فما هؤلاء؟ قلت: من الموالى. فانتفخت أوداجه وانتصب قاعدا ثم قال: فمن
كان فقيه خراسان؟ قلت: عطاء بن عبد الله الخراساني، قال: فما كان عطاء هذا؟ قلت: مولى. فازداد وجهه تريدا
واسود اسودادا حتى خفته، ثم قال: فمن كان فقيه الشام؟ قلت: مكحول؛ قال: فما كان مكحول هذا؟ قلت: مولى.
فازداد تغيظا وحنقا، ثم قال: فمن كان فقيه الجزيرة؟ قلت: ميمون بن مهران؛ قال: فما كان؟ قلت: مولى. قال: فتنفس
الصعداء، ثم قال: فمن كان فقيه الكوفة؟ قال: فوالله لولا خوفه لقلت: الحكم بن عيينة وعمار بن أبي سليمان، ولكن
رأيت فيه الشر، فقلت: إبراهيم والشعبي؛ قال: فما كانا؟ قلت: عربيان، قال: الله أكبر، وسكن جأشه.

قال سالم: لقد ذكرتني ببذور التعصب التي نبتت في الأمة تريد صرفها عن هديها.

قال نوم: فمن فعل ذلك؟

قال سالم: المستبدون، ومن شايعهم .. وقد روي أن الحجاج لما خرج عليه ابن الأشعث وعبد الله بن الجارود،
ولقي ما لقي من قرى أهل العراق، وكان أكثر من قاتله وخلعه وخرج عليه الفقهاء والمقاتلة والموالى من أهل البصرة،

فلما علم أنهم الجمهور الأكبر، والسواد الأعظم، أحب أن يسقط ديوانهم، ويفرق جماعتهم حتى لا يتألفوا، ولا يتعاقدوا، فأقبل على الموالي، وقال: (أنتم علوج وعجم، وقراكم أولى بكم)، ففرقهم وفض جمعهم كيف أحب، وسيرهم كيف شاء.

ولم يكتف بذلك، بل راح ينقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التي وجهه إليها، وقد انتشر شؤم هذا التصرف في الأمة أجيالا مديدة، وقد قال الشاعر يهجو أهل الكوفة، وقد كان قاضيهم رجل من الموالي يقال له نوح بن دراج:

إن القيامة فيما أحسب اقتربت .. إذ كان قاضيكم نوح بن دراج
لو كان حيا له الحجاج ما بقيت .. صحيحة كفه من نقش حجاج

وقال آخر:

جارية لم تدر ما سوق الإبل .. أخرجها الحجاج من كن وظل
لو كان شاهدا حذيف وحمل .. ما نقشت كفك من غير جدل

ويروى أن أعرابيا من بني العنبر دخل على سوار القاضي، فقال: إن أبي مات وتركني وأحالي، وخط خطين، ثم قال: وهجينا، ثم خط خطا ناحية، فكيف يقسم المال؟ فقال له سوار: ها هنا وارث غيركم؟ قال: لا؟ قال: فالمال أثلاثا؟ قال: ما أحسبك فهمت عني، إنه تركني وأخي وهجينا، فكيف يأخذ المهجين كما أخذ أنا وكما يأخذ أخي؟ قال: أجل؛ فغضب الإعرابي، ثم أقبل على سوار، فقال: والله لقد علمت أنك قليل الخالات بالدنهان؛ قال سوار: لا يضرني ذلك عند الله شيئا.

ومع ذلك .. فإن شؤم الحجاج ومن شايعه لم يعد فئة محدودة، لم يكن لها تأثير كبير في الحياة الإسلامية.. فتأثير العلماء والصالحين في المجتمع الإسلامي كان أعظم من تأثير الحجاج، وقد حدث سالم بن أبي الجعد عن نفسه قال: اشتراي مولاي بثلاثمائة درهم وأعتقني، فقلت: بأي شيء أحترف؟ فاحترفت بالعلم فما تمت لي سنة حتى أتاني أمير المدينة زائرا فلم أذن له.

ومثله أبو العالية الرياحي، فقد اعتقته امرأة من بني رياح .. قال أبو العالية: دخلت المسجد معها فوافقها الإمام على المنبر فقبضت على يدي فقالت: اللهم أدخره عندك ذخيرة، اشهدوا يا أهل المسجد أنه سائبة لله، ثم ذهبت فما تراءينا بعد.

قال توم: فمن أبو العالية؟

قال سالم: كان من كبار الصالحين الذين تربت الأمة على أيديهم، روي عنه قوله: كنت أرحل إلى الرجل مسيرة أيام، فأول ما أتفقده من أمره صلاته، فإن وجدته يقيمها ويتمها أقمت وسمعت منه، وإن وجدته يضيعها رجعت ولم أسمع منه وقلت: هو لغير الصلاة أضيع.

وكان يقول: قال لي أصحاب محمد ﷺ: (لا تعمل لغير الله فيكلك الله عز وجل إلى من عملت له)

وكان يقول: (كنا نعد من أعظم الذنوب أن يتعلم الرجل القرآن ثم ينام عنه حتى ينساه)

ومثله صالح بن بشير أبو بشر المرثي، فقد كان مملوكاً لامرأة من بني مرة بن الحارث من بني عبد القيس فأعتقته. وقد كان من المرين الكبار الذين لا نزال ننهل من بركاتهم، قال عبد الرحمن بن مهدي: كنت أذكر صالحاً المري

لسفيان فيقول القصص القصص، كأنه يكرهه.. فكان إذا كانت له حاجة بكر فيها.. فبكر يوماً وبكرت معه فجعلت طريقنا على مسجد صالح المري فقلت: يا أبا عبد الله ندخل فنصلي في هذا المسجد. فدخل فصلينا وكان يوم مجلس صالح، فلما صلوا ازدحم الناس فبقينا لا نقدر أن نقوم، وتكلم صالح فأرأت سفيان يبكي بكاءً شديداً، فلما فرغ وقام قلت له: يا أبا عبد الله كيف رأيت هذا الرجل؟ فقال: ليس هذا بقاص هذا نذير قوم.

وعن عفان بن مسلم قال: كنا نأتي مجلس صالح المري نحضره وهو يقص، وكان إذا أخذ في قصصه كأنه رجل مذعور يفزعك أمره، من حزنه وكثرة بكائه كأنه ثكلى، وكان شديد الخوف من الله كثير البكاء.

وكان يقول: (للبيداء دواع: الفكرة في الذنوب فإن أحابت على تلك القلوب وإلا نقلتها إلى الموقف وتلك الشدائد والأهوال، فإن أحابت على ذلك وإلا فاعرض عليها القلب في أطباق النيران) قال: ثم صاح وغشي عليه وتصايح الناس من نواحي المسجد.

وقال الأصمعي قال: شهدت صالحاً المري عزى رجلاً على ابنه فقال: لئن كانت مصيبتك لم تحدث لك موعظة في نفسك فمصيبتك بابنك حلال في مصيبتك في نفسك، فإياها فابك.

وقبل هؤلاء جميعاً وسابقتهم بلال بن رباح ، فقد كان له من الاحترام بين المسلمين ما جعل عمر يقول: (كان أبو بكر سيدنا واعتق بلالاً سيدنا)

ولهذا شرفه ﷺ بالأذان، فكان أول مؤذن في الإسلام، فعن القاسم بن عبد الرحمن قال: (أول من أذن بلال) بل كان مقرباً جداً من رسول الله ﷺ ، فعن أبي عبد الله الهوزني قال: لقيت بلالاً فقلت: يا بلال حدثني كيف كانت نفقة رسول الله ﷺ؟ فقال: ما كان له شيء، كنت أنا الذي ألي له ذلك منذ بعثه الله عز وجل حتى توفي، وكان إذ أتاه الرجل المسلم فراه عارياً، يأمرني فأنتطق، فأستقرض، وأشتري البردة فأكسوه وأطعمه.

وعن عبد الله قال: دخل النبي ﷺ على بلال، وعنده صبرة من تمر قال: ما هذا يا بلال؟ قال: يا رسول الله ادخرته لك ولضيفانك فقال: (أما نخشى أن يكون له بخار في النار؟ أنفق بلال ولا تخش من ذي العرش إقللاً)¹

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: (لقد أخفت في الله وما يخاف أحد، ولقد أوديت في الله وما يؤذي أحد، ولقد أتت عليّ ثلاثون ما بين ليلة ويوم مالي ولبلال طعاماً يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال)²

وفي اختياره ﷺ لهذه الوظائف دليل على أنه كان يقصد دمه في المجتمع ليخلصه من آثار الجاهلية، وليخلص بلالا من آثار العبودية.

بل روي ما هو أعظم من ذلك كله، فعن عبد الله بن بريدة قال: سمعت أبي يقول: أصبح النبي ﷺ فدعا بلالاً فقال: (يا بلال بم سبقتني إلى الجنة؟ ما دخلت الجنة قط إلا سمعت خشخشتك أمامي، إني دخلت البارحة، فسمعت خشخشتك. قال: (ما أحدثت إلا توضأت وصليت ركعتين) فقال رسول الله ﷺ: (بهذا)³

وقد كان لهذه المعاملة النبيلة تأثيرها في نفس بلال حتى أنه لم يطق أن يؤذن بعد وفاة رسول الله ﷺ .. قال محمد

(1) رواه الطبراني والبخاري وله سند حسن.

(2) رواه الترمذي.

(3) رواه أحمد والترمذي وابن حبان والحاكم.

بن إبراهيم التيمي: لما توفي رسول الله ﷺ أذن بلال ورسول الله ﷺ لم يُقبر، فكان إذا قال: أشهد أن محمداً رسول الله انتحب الناس في المسجد، فلما دفن رسول الله ﷺ قال له أبو بكر: أذن يا بلال. فقال: إن كنت إنما أعتقتني لأكون معك فسبيل ذلك، وإن كنت أعتقتني لله فخلني ومن أعتقتني له. فقال: ما أعتقتك إلا لله. قال: فإني لا أؤذن لأحدٍ بعد رسول الله ﷺ قال: فذلك إليك، فقام حتى خرجت بعوث الشام فخرج معهم حتى انتهى إليها.

بل روي أن أبا بكر طلب منه أن يعينه في مهامه، فرفض، فعن سعيد بن المسيب قال: لما كانت خلافة أبي بكر تجهز بلال ليخرج إلى الشام، فقال له أبو بكر: ما كنت أراك يا بلال تدعنا على هذا الحال، لو أقمت معنا فأعتتنا. قال: إن كنت إنما أعتقتني لله عز وجل فدعني أذهب إليه، وإن كنت إنما أعتقتني لنفسك فاحبسني عندك. فأذن له فخرج إلى الشام فمات بها.

وقد كان له من السمعة في المجتمع ما جعل المسلمين يرغبون في تزويجه بناقم، فقد روي أن بلالاً وصهيباً أتيا أهل بيت من العرب فخطبا إليهم فقبل لهما، من أنتما فقال: فقال بلال: أنا بلال وهذا أخي صهيب، كنا ضالين فهدانا الله وكنا مملوكين فأعتقنا الله، وكنا عائلين فأغنانا الله؛ فإن تزوجونا فالحمد لله، وإن تردونا فسيحان الله، فقالوا: بل تزوجان والحمد لله، فقال صهيب: لو ذكرت مشاهدنا وسوابقنا مع رسول الله ﷺ، فقال: اسكت، فقد صدقت فأنكحك الصدق.

ما إن انتهى سالم من هذا الحديث حتى قام رجل من الجالسين، وقال: بورك فيكم فقد — والله — أرحتم عن قلوبنا جبالا من الآلام كانت تتراكم عليها.

قال له كلاي: وما كانت تلك الجبال؟

قال الرجل: كنت أتعجب أن يقر الإسلام عبودية البشر للبشر مع أنه جاء يحرر البشر من عبودية أنفسهم وعبودية كل شيء إلا الله .. لقد كنت أقرأ مقولة عمر: (متى استعبدت الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا)، وبعده وصية علي بن أبي طالب لابنه: (ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرا) .. فأتعجب كيف يقر هذا الدين الرق .

قال كلاي: فما عرفت الآن؟

قال الرجل: عرفت أن العبودية التي وضع الإسلام قوانينها بتشريعاته وتوجيهاته لا تختلف كثيرا عن الوظائف التي تسند إلينا في حياتنا المدنية المعاصرة .. إن لم تفقها في كثير من النواحي.

قال كلاي: كيف ذلك؟

قال الرجل: الموظف عندنا في أي شركة من الشركات يتمنى أن تفرض عليه الشركة استعبادها، فلا تعتقه، ولا تستكبه.

قال كلاي: ولكنه حر .. وحسبه بالحرية.

قال الرجل: إن كثيرا مما ذكرت من حقوق المستعبدين يفوق ما يناله الكثير من الأحرار في هذه الوظائف .. فالعبد في بيته مستقر مع أهله قد ضمن له أكله وشربه ولبسه ومبيته وكل ما تتطلبه حياته .. فإذا ما عجز سيده عن

الوفاء انتقل إلى سيد آخر .. و حياة السادة لا تختلف كثيرا عن حياة عبيدهم¹ .
زيادة على هذا كله، فإن وظائف هؤلاء العبيد محدودة لا تصرفهم عن الحياة العادية ولا عن العلم، ولا عن أهله ..
وكل ذلك قد لا يتسنى لكثير من الأحرار في عصرنا.

بعد أن انتهى محمد علي كلاي وأصدقائه من تلك الأحاديث الممتلئة بالحقائق والبراهين ساد صمت عميق ذلك
المجلس .. قطعه العم توم بقوله: اسمحو لي - حضرة العبيد المحررين - أن أقر لكم بحقيقة .. أرجو أن لا تستقبلوها إلا
بما تستقبل به الحقائق.
لقد رأيتم موقفي في بداية هذا المجلس من الإسلام .. وربما جعلكم ذلك تتصورون أي أحقد على الإسلام، أو أن
قلبي يختزن نحوه من العداوة ما يختزنه لساني.
وأريد الآن .. وبعد أن سمعت حديث هؤلاء الأفاضل أن أخبركم بالحقيقة .. الحقيقة المرة التي جعلتني أبني هذا
الكوخ في هذا البلد.
أنتم تعلمون أي من أمريكا .. فقد كنت أفخر كل حين بينكم بهذا البلد.
ولاشك أنكم تعلمون حقيقتي التي كنت أكتمها .. وهي أن أصلي ليس أمريكيا .. بل إنني من إفريقيا .. ومن
بلد مسلم من بلادها ..
بل إن أجدادي فوق ذلك كله كانوا من المسلمين ..
ولكني .. وبسبب تلك العقد الكثيرة التي نشرها في وفي أجدادي الاستعباد صرت لا أرى السادة إلا في أمريكا،
ولا أرى السيد إلا ذلك الرجل الأبيض الممتلئ بالقسوة.
وقد حملني هذا إلى أن أحمل كوخي لأسير به في البلاد المستضعفة لأنفخ فيها ما ملأني به الإستعباد.. وأمارس
عليها من السيادة ما مارسه علي وعلى آبائي أولئك المجرمون القساة.
أما الآن .. وبعد أن سمعت أحاديث هؤلاء الرفاق الطيبين، فإني أصرخ بينكم بكل قوة بشهادة التوحيد التي
صرخ بها آبائي جميعا.
فلا سيادة ولا حرية ولا كمال ولا فخر إلا بالانتماء إلى الله .. ثم الانتماء إلى ذلك النبي العظيم الذي جعله الله
رحمة للعالمين.
ما إن قال ذلك حتى صاحت الجموع مهللة مكبرة .. وقد صحت بما يصيحون من غير أن أشعر .. وقد امتلأت
في تلك اللحظات بأشعة كثيرة من النور اهتديت بها بعد ذلك إلى شمس محمد ﷺ .

(1) وقد روي عن سعيد بن حسين قال: (كان عبد الرحمن بن عوف لا يعرف من بين عبيده)، ومثل ذلك ما روي عن
عمر بن الخطاب أنه لما سافر من المدينة إلى بيت المقدس ليعقد مع صاحبها معاهدة الصلح كان يداول بينه وبين عبده في
الركوب حتى أنه وصل وكان الراكب غلامه وأمير المؤمنين ساع خلفه. فخشي أبو عبيدة أن يحتقره الناس فقال يا أمير المؤمنين
أراك تصنع أمراً لا يليق فإن الأنظار متجهة إليك. فقال عمر: لم يقل ذلك أحد قبلك، وقد كنا أذل الناس وأحقرهم فأعزنا الله
بالإسلام، ومهما طلبنا العز بغيره أذلنا الله.

تاسعا — الخطأون

في اليوم التاسع .. سرت إلى سجن من السجن بعد أن سمعت أن بعض أصحابنا ذهبوا إليه ليقتنعوا السجناء بقساوة الإسلام في تعامله مع المدنيين .. وقد قدر الله أن أرى في زيارتي تلك من الأشعة ما نسخ كثيرا من الظلمات التي كانت تقبع فيها روحي.

سأحدثك من البداية ..

عند اقترابي من باب السجن هروا إلى بواب السجن، وهو يقول، والبشر يطفح على وجهه: أبشر .. حضرة الأب هنا .. وهو يعظ أهل السجن .. ويوشك أن يتحولوا جميعا إلى المسيحية ليتطهروا بالطهارة التي لم يظفروا بها في الإسلام..

ابتسمت شاكرا له، وقد تذكرت بموقفه هذا تلك الحماسة التي كان يبديها (المبشر بولس) الذي كنت قد التقيت به في الهند .. وكنت قد حكيت لك قصته في رحلتي إلى (المعجزات الحسية)

عندما دخلت القاعة المعدة للمحاضرة وجدت جميع السجناء ينصتون باهتمام لما يحدثهم به ذلك الأب الذي يريد أن ينشر فيهم من المعاني ما أعلم تمام العلم أنه لم يكن مقتنعا به..

ولذلك كان التردد يبدو عليه .. وكان يكرر الكلمات .. ويعيدها .. وكأنه يستعرض شيئا قد حفظه عن ظهر قلب، فهو يردده حرفا حرفا من غير أن يفهم له أي معنى، أو يقتنع منه بأي معنى.

كان من ضمن ما سمعته منه قوله: لقد أرسلني المسيح إليكم لأنقذ أرواحكم من تلك العقد التي يوقعكم فيها الإسلام حينما يشعركم بالذنب .. وحينما يملؤكم بالجزن على ذنوبكم ..

نحن في المسيحية لا نفعل ذلك .. نحن نملؤكم بالمسرة والسعادة حتى ولو كنتم مذنبين .. بل نحن نبشركم بما بشرنا به بولس حين قال في رسالته إلى أهل رومية: (بر الله بالإيمان بيسوع المسيح إلى كل وعلى كل الذين يؤمنون. لأنه لا فرق . إذ الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد الله . متبررين مجانا بنعمه بالفداء الذي بيسوع المسيح الذي قدمه الله كفارة بالإيمان بدمه لإظهار بره من أجل الصفح عن الخطايا السلفية بإمهال الله لإظهار بره في الزمان الحاضر ليكون باراً ويبرر من هو من الإيمان بيسوع . فأين الافتخار . قد انتفى بأي ناموس . أناموس الأعمال . كلا . بل بناموس الإيمان . إذا نحسب أن الإنسان يتبرر بالإيمان بدون أعمال الناموس) (رومية: 3: 22 — 28)

كما نبشركم بما ورد في نفس السفر من قوله: (لأنه أن كان بخطيئة واحد مات الكثيرون فبالأولى كثيرا نعمة الله والعطية بالنعمة التي بالإنسان الواحد يسوع المسيح قد ازدادت للكثيرين .. وليس كما بواحد قد أخطأ هكذا العطية . لأن الحكم من واحد للدينونة . وأما الهبة فمن جرى خطايا كثيرة للتبرير . لأنه أن كان بخطيئة الواحد قد ملك الموت بالواحد فبالأولى كثيرا الذين ينالون فيض النعمة وعطية البر سيملكون في الحياة بالواحد يسوع المسيح . فإذا كما بخطيئة واحدة صار الحكم إلى جميع الناس لتبرير الحياة . لأنه كما بمعصية الإنسان الواحد جعل الكثيرون خطاة

هكذا أيضا بإطاعة الواحد سيجعل الكثيرون أبراراً) (رومية: 5: 15 — 19)

قال ذلك .. ثم راح يغرق في حالة وجدانية رقيقة قائلا: حينما تؤسس حياتكم على صخرة الإيمان بربنا يسوع المسيح، وتعاليم الكتاب المقدس العظيم، وتعودون إلى كتابات الآباء الأولين فإنكم ستشعرون حتما بالثقة والطمأنينة

والفخر حينما ترون الكنيسة وهي تعيش الإيمان المسلم من الرب ذاته للرسل الأَطهار.
ليكن هدفنا من التعلم أن نمارس ما نتعلمه في حياتنا لكي نستفيد بكل حسن من أجل نمو حياتنا في الإيمان،
وانتصارنا على الحية القديمة المدعو إبليس، متطلعين إلى الحياة الأبدية حينما نحيا في حضرة إلهنا، تتمتع به ونتذوق
حلاوته.

فجأة .. ومن غير المنتظر أو المتوقع .. رفع سجين من السجناء يده يطلب السؤال .. كان سجيناً ذكياً فطناً،
خبيراً بالمسيحية، عالماً بما وبنقاط ضعفها، وهو فوق ذلك يحمل من الصبر ما يصل به إلى غايته ولو في أطول الطرق
وأضيقتها ..

رأى القس يده المرفوعة، فلم يملك إلا أن يأذن له، فلم يكن يتوهم أن هذه اليد المرفوعة ستسوخ كل ما ذكره من
الأحاديث ..

قال السجين: أجبني حضرة الأب الفاضل .. لقد ذكرت لنا أننا لن نتطهر إلا عندما نتعمد .. وعندما ندخل
الكنيسة .. وقد كنت عارفاً بالمسيحية وبكنايسها، وقد رأيت فيها شيئاً لست أدري مدى صحته .. ومدى علاقته
بالمسيح وبالمسيحية.

قال القس، وقد بدا عليه بعض الإرباك: ما هو؟

قال السجين: سر الاعتراف .. لقد رأيت الكنيسة تمارس ما تسميه سر الاعتراف، فهل توجد أدلة كتابية
وتاريخية وآبائية تدل على ضرورة أن يكون الاعتراف أمام الكاهن؟ .. وهل الاعتراف لله لا يكفي حتى نحتاج إلى
الاعتراف أمام الكاهن؟

استجمع القس أنفاسه، وكأنه يهم بالقيام بحرب ضروس، ثم قال: للإجابة على سؤالك هذا ينبغي أن نعلم
حقيقتين هامتين .. أولاهما: أن الوحيد القادر على غفران الخطايا هو الله عن طريق دم المسيح المسفوك على عود
الصليب .. والثانية: عن حياتنا المسيحية، فكل مسيحي هو عضو في جسد المسيح الحي الذي هو كنيسته المجيدة، ورأس
هذا الجسد هو المسيح له كل المجد.

ومن أجل بنيان هذا الجسد أعطى الله المواهب الروحية المتكاملة، فقد أعطي البعض أن يكونوا رسلاً، والبعض
أنبياء، والبعض مبشرين، والبعض رعاة ومعلمين لأجل تكميل القديسين لعمل الخدمة لبنيان جسد المسيح.

ولذلك ينبغي عليك أن لا تحزن إذا وجدت نفسك بحاجة إلى آخر لكي يعمل معك ومن أجلك فبالتأكيد أن الله
أعطاك موهبة روحية ولكنه لم يعطك كل المواهب والوظائف اللازمة لتسير في طريق الكمال.

واعلم أيضاً أنك حينما تخطئ فإنك لا تسيء إلى نفسك فقط وإنما تسيء أيضاً إلى الجسد الذي تنتمي إليه
(الكنيسة) ، كما أنك تسيء أيضاً إلى الله القدوس البار .. ولذا فإن الإنسان حينما يخطئ يطالب بأن يندم على خطيئته
ويكرهها، ثم يقر بها أمام الكنيسة وحينها يقوم الله بغفران هذه الخطايا.

وهذا ما فهمه المسيحيين الأوائل، وهذا ما نراه في سفر الأعمال حينما يقول: (وكان كثيرون من الذين آمنوا
يأتون مقرين ومخبرين بأفعالهم) (أعمال: 19 : 1). .. وقد أعطيت الكنيسة ممثلة في الرسل ومن خلفهم من الأساقفة
هذا السلطان من الرب يسوع حينما قال: (كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً في السموات، وكل ما تحلونه
على الأرض يكون محلولاً في السموات) (متى: 16 : 19)

وقال في سلطة الكنيسة: (وإن لم يسمع منهم فقل للكنيسة، وإن لم يسمع من الكنيسة فليكن عندك كالوثني والعشار، الحق أقول لكم كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً في السموات، وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولاً في السماء) (متى 18 : 17 ، 1)

وبعد قيامته قال لتلاميذه بعدما نفخ في وجوههم: (اقبلوا الروح القدس من غفرتم خطاياهم تغفر لهم ومن أمسكنم خطاياهم أمسكت) (يوحنا: 20 : 22 ، 23)

قال السجين: لكن .. ألا يمكن أن يكون المسيح قد أراد أن يكون هذا السلطان عاما للجميع، وليس للرسول والكهنة فقط .. وبذلك يستطيع كل واحد منا أن يحل ويربط كالرسول تماماً؟
قال القس: لا .. هذا لا يمكن .. فالخطاب الموجه في الآيات السابقة كان موجهاً لقادة الكنيسة ممثلة في الرسل، كما أن أهل كورنثوس لم يستطيعوا ممارسة هذا السلطان إلا حينما مارسه الرسول بولس مع زاني كورنثوس الشهير (1كو 5 : 1-5)

ولا ينبغي أن تنسى أن مواهب الروح قد قسمت على الجميع، وكما يقول الرسول: (فإني أقول بالنعمة المعطاة لي لكل من هو بينكم أن لا يرتقي فوق ما ينبغي أن يرتقي بل يرتقي إلى التعقل كما قسم الله لكل واحد مقداراً من الإيمان) (رومية: 12 : 3)

وهذا ما فهمه جميع الآباء في القرون الأولى ومارسوه بكل قوة وتكلموا عنه وكتبوه في كتاباتهم التي مازالت باقية حتى اليوم ولا يستطيع أحد التشكيك فيها، ولا أظن أن شخصاً منصفاً محباً لله ومهتماً بخلاص نفسه ينكر آيات الكتاب وتفاسيرها ومن مارسوها ليقدم بدعة لا سند لها من الكتاب أو التاريخ أو أقوال الآباء.. وهل يستطيع أحد أن يخرج لنا آية من العهد الجديد تقول: (لا تعترفوا على يد الكهنة)؟

من الأقوال الحكيمية في ذلك قول القديس كبريانوس (200 – 258م) : (فليعترف كل منكم أيها الأخوة الأحباء بإثمه مادام من إثم في هذا العالم وما دام ممكناً قبول اعترافه وما دامت المغفرة بواسطة الكهنة مقبولة عند الله) ويقول العلامة تريليان (160 – 240م): (إن كثيرين ينتهون إلى الخجل أكثر من الخلاص فيهربون من الاعتراف ستره لهم ويؤخرونه من يوم إلى يوم كمن أصابه مرض في الأعضاء المستحي منها فأخفى عن الأطباء مرضه فيباد بحجله.. فإذا أخفينا نفوسنا عن معرفة الناس هل تخفى عن الله، وهل الأولى لنا أن نهلك وذنوبنا مخفية من أن نحل وهي مكشوفة في التوبة)

لن أورد لك الآن كل أقوال الرسل أو شهادة آباء الكنيسة من الأجيال المختلفة أو شهادة التاريخ أو الكتب الطقسية والتي تحتوي على الكثير عن الاعتراف على يد الكهنة .. ولكني سأذكر لك شهادات المحتجين أنفسهم على سر الاعتراف من (البروتستانت)

لقد قال مارتن لوثر¹ في كتاب تعليم الدين المسيحي المختصر (ويعتبر من أهم كتاباته وهو عن طريق السؤال والجواب) في الفصل الخامس عن الاعتراف: (عنوان: ماذا يجب أن يُعلم الشخص المبتدئ عن الاعتراف؟ سؤال: ما هو

(¹) مارتن لوثر (1483 – 1546م)، ألماني، وهو قائد حركة الاحتجاج - ويسمى المحتجون بحركة الإصلاح - حينما احتج على بابا روما ليو العاشر سنة 1517 بسبب صكوك الغفران.
255

الاعتراف؟

الإجابة: للاعتراف جزئياً: أولهما أن يقر الشخص بخطاياها، وثانيهما أن يتلقى المعترف الحل من المعرف confessor (الشخص الذي يتلقى الاعتراف) كما من الله نفسه بدون شك في ذلك و باعتقاد راسخ أن الله قد غفر خطاياها من خلال المعرف.

سؤال: ما هي الخطايا التي يجب أن يعترف بها الناس؟

الإجابة: حينما نتحدث مع الله يجب أن نذكر مع الشعور بالخزي والذنب جميع خطايانا، حتى التي لا نعلم عنها شيئاً تماماً كما نعمل في (يا أبانا)، ولكن حينما نجلس مع المعرف (أب الاعتراف) نذكر الخطايا التي فعلناها بإرادتنا والتي نشعر بها في قلوبنا.

ويقول: (إني أعتبر الاعتراف الشخصي شيئاً ثميناً جداً ونافعاً للصحة الروحية، آه.. في الحقيقة من المؤلم جداً لكل المسيحيين إذا لم يكن هناك اعتراف خاص ويجب أن يشكروا الله بكل قلوبهم أن الاعتراف مسموح ومتاح لهم)¹ ويقول: (من الممكن أن يكون للتوبة صفة سر من الأسرار المقدسة لكنني أبكي على انتهاك الكنيسة² لهذا السر) ويقول جون كلفن³ عن الأسرار: ماذا نعرف أننا أعضاء في جسد المسيح؟ بالاعتراف جهاً بالإيمان والحياة المستقيمة والشركة في الأسرار المقدسة التي توحدنا في معرفة الله والمسيح.

ويقول: (يكون الاعتراف خاصاً لله وحده، أو لرعاة الكنيسة اختياريًا بهدف الراحة والشعور بتأنيب الضمير، أو عاماً أمام الكنيسة كلها)

قال السجين: هل تسمح لي — حضرة الأب الفاضل — أن أعترف أمامك وأمام هذا الجمع ببعض الشبهات التي تخطر على بالي في هذا الباب، وتكدر علي بذلك صفوف اتباع المسيح ودين المسيح؟
قال القس: تحدث .. قل ما تشاء .. فستجد عني الجواب الكافي والشافي.

قال السجين⁴: أنت تعلم — حضرة الأب الفاضل — أن الأساس الأول في المسيحية هو عقيدة الخلاص⁵، فالمسيح المخلص نزل من السماء وصلب ومات ليخلص المؤمنين من وزر الخطيئة الأولى التي تحملتها البشرية قروناً طويلة ..

قال القس: أجل .. فالابتلاء ليس إلا نتيجة للعنة الخطيئة التي أوقعها الإله على آدم وذريته بعد السقوط، وقد أشار إلى ذلك معجم اللاهوت الكاثوليكي، فذكر أن سبب العذاب والألم والموت هو الخطيئة عينها .. أي الخطيئة الأصلية.

قال السجين: وهذا يعني أن موت المسيح كان لرفع هذه العنة.

قال القس: أجل .. فموت المسيح كان كفارة وفداء عن العقوبة التي وقعت على الجنس البشري كله بسقوط

(1) تاريخ الكنيسة، القس جون لوريمر، ترجمة عزرا مرجان، 136/4.

(2) المقصود الكنيسة الكاثوليكية حينما باعت مغفرة الخطايا بصكوك الغفران، وأفشت بعض أسرار المعترفين.

(3) جون كلفن (1509-1564م) من مواليد فرنسا، عاش في سويسرا، وقاد هناك أحد تيارات الاحتجاج.

(4) استفدنا هذه الردود من: (الإثم الفردي والغفران في تصور الكنيسة)، للدكتورة: أميمة بنت أحمد شاهين.

(5) سنرى الردود المفصلة على هذه العقيدة في رسالة (أسرار الإنسان) من هذه السلسلة.

نائبه الأول.

قال السجين: بناء على هذا، فإن المؤمن المسيحي يتحول بعد الفداء إلى حالة النقاء التي خلق عليها الإنسان الأول قبل السقوط .. خالياً من الخطيئة ولعنتها .. سعيداً كما كان قبلها.
قال القس: أجل .. ذلك صحيح.

قال السجين: ولكننا لو تناولنا هذا الأمر من منظور واقعي فسنجد أن الحياة المسيحية لم تتغير، فما زالت - كما عرفها التاريخ - تشوبها المكاره، ويعتريها الشقاء .. والمؤمن المسيحي ما زال مثقلاً بالمصائب يشقى ويتعب، والشروع لم تزل تخطط بمجتمعات ترفع الصليب فوق رؤوسها .. أليس كذلك حضرة الأب الفاضل؟
سكت القس، فقال السجين: إذاً لم صلب المسيح ومات، ما دام ذلك لم يغير معالم الواقع المر؟ .. وأين الخلاص الذي وعدوا به؟

لم يجب القس بأي جواب، فقال السجين: لقد رأيت أن المؤمنين بالمسيح أمام هذه التناقضات انقسموا إلى قسمين .. أما أولهما، فحاول تطبيق تعاليم المسيح المثالية اعتقاداً منهم أنهم نالوا الخلاص بإيمانهم به، منتظرين تغيير حالهم تحقيقاً لوعدهم قدم لهم من رجال الكنيسة، ليفاجئوا بأن الشقاء ما زال ملازماً لهم والمصائب تزورهم بين الحين والآخر، الأمر الذي أصابهم بخيبة مريرة دفعتهم للابتعاد عن الكنيسة ورجالها، رافضين سلطاتها وتعاليمها، فقد أثبتت التجربة الواقعية لهم فساد أقوال رجالها وتعاليمهم.

وقسم آخر اتبع هواه مرتكباً المخازي غير آبه بالفضائل الأخلاقية اعتماداً منه على الخلاص الذي وعد به من قبل الكنيسة.. فيإيمانه يخلص لا بالأعمال، فالفاسق والصالح سواء بإيمانها بالمسيح الفادي .. وهكذا ابتعد هذا القسم عن الكنيسة، فما الداعي للإرتباط بها وتنفيذ تعاليمها ما دام المسيحي قد نال الخلاص بإيمانه القلبي لا بالأعمال .. وهكذا أصبح المؤمن المسيحي في وضع لا يحسد عليه، فما كاد يفرح بالخلاص المزعوم حتى اعتراه الأسى، فقد وقع بما خلص منه، فها هي ذي خطاياها تضيق حناقيها عليه بسلاسل الشقاء والألم والحزن .

وهذا ما أرادت الكنيسة أن يحدث، فهي تريد مهزوماً ضعيفاً لا جناً إليها يبحث عن النجاة، والإجابة عن هذه القضايا التي عجز العقل عن فهمها، فكيف يحمل وزر خطيئة أبويه وخطيئته الشخصية، في حين يحمل أبواه وزر خطيئتهما فقط، وإذا كان العدل تحقق بصلب المسيح فداء من الخطيئة الأولى وميراثها، فهذا الفداء نعمة لأدم وحواء الذين نجوا بالفداء من خطيئتهما، وأصبحا نقيين من الدنس كحالتهم الأولى قبل السقوط، أما ابن آدم فيعد الفداء من الخطيئة الأصلية، ما زالت عليها الخطايا الفعلية التي صدرت منه نتيجة ميراث فساد الطبيعة الذي انتقل إليه من أصله الأول.

التفت السجين إلى القس، وقال: فما السبيل للنجاة من هذه الخطايا إذا كانت التوبة والأعمال لا تؤدي إليها؟
سكت القس، فقال السجين: لقد عمدت الكنيسة عند رؤية أتباعها وهم على هذه الحالة من الإضطراب، أن تصدرت عقولهم مقررة أن مفتاح النجاة بأيدي رجالها، فهي التي بإمكانها غفران هذه الخطايا الفردية أو جزء منها مقابل الاعتراف وأداء التعويض الذي يقرره رجل الدين.

ولتطفي على ذلك ثوب الشرعية أصدرت قانوناً بمنح هذه الصلاحية لرجل الدين، وهو الصادر عن الجمع الثاني عشر المنعقد في روما عام 1215 م .. فقد كان من أهم قرارات هذا الجمع ما نصه: (الكنيسة البابوية تملك الغفران

وتمنحه لمن تشاء)

ولكن رجال الكنيسة ، وعلى رأسهم البابا الرئيس الأعلى للكنيسة كلها حسب التعليم الكاثوليكي من ذرية آدم، فإذا غفرت خطيئتهم الأصلية بالفداء كما يقرر دينهم ، فما زالت خطاياهم الشخصية تلاحقهم أينما ذهبوا ، فكيف يتسنى لمخطئ تبرة مخطئ؟ وكيف يمنح الغفران من هو في حاجة إليه
ولنفادي هذا الاحتجاج الذي ترتفع به أصوات الكثيرين ، أصدرت قراراً آخر يفيد عصمة البابا، وهو القرار الصادر عن المجمع العشرين المنعقد في روما عام 1869 م .
وهكذا أصبحت قرارات الكنيسة قرارات تتسم بالعصمة من الضلال فرأسها البابا معصوم، وعصمته تلك تنتقل بالتالي لقراراته ..

قال القس: ولكن الكنيسة استمدت هذا السلطان من وعد المسيح وأمره إذ قال لبطرس : (وأعطيك مفتاح ملكوت السموات فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السموات وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السموات) (متى: 16 – 19)

والمسيح وهو يعطي هذا السلطان لبطرس لم يعطه إياه كفرد، بل كتلميذه المعترف والمؤمن بلاهوت المسيح عندما قال : (أنت هو المسيح ابن الله)

وقد أكد المسيح هذا بما لا يدع مجالاً للبس ، إذ بين أن هذا سلطان الكنيسة كلها : (وإن لم يسمع منهم فقل للكنيسة وأن لم يسمع من الكنيسة فليكن عندك كالوثني والعشار الحق أقول لكم كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً في السماء وكل تحلونه على الأرض يكون محلولاً في السماء) (متى: 18: 17 و18)

وقد تأيد هذا السلطان بأمر المسيح قبل الصعود عندما قال : (دفع إلى كل سلطان في السماء وعلى الأرض ، فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس) (متى: 28 : 18 و 19) وهذا حق لأن الكنيسة كمنظمة على الأرض ينبغي أن يكون لها سلطان يقرر وينظم ويدعم كيانها ورسالتها وأعمالها.

ابتسم السجين، وقال: وهكذا أرست الكنيسة سلطاتها في نفوس أتباعها بنصوص من الأناجيل، وقرارات جمعية، لتتحول بعد ذلك لكيفية استثمار هذه السلطة، فأصدرت ما أسمته بالوصايا الخمس ، وجعلت تطبيقها ملزماً لكل مسيحي بعد التعميد وبلوغه السابعة من العمر .. من أهم تلك الوصايا ، الوصية الرابعة .. والتي تنص على ضرورة الاعتراف السنوي (إذا كانت هناك خطايا مميتة)

لم تكنف الكنيسة بهذا .. فسلطاتها لا يدعم بالاعتراف فحسب .. ولهذا ذهبت إلى ضرورة التعويض الذي يوازي الخطيئة .. وهو تعويض يفرضه الكاهن اعتماداً على فطنته الروحية في تحديده.

أما لو امتنع المسيحي عن أداء التعويض الذي فرض عليه من قبل الكاهن ، فسيكون مصيره دخول المطهر بعد الموت مباشرة كمرحلة تطهيرية قبل يوم الدينونة .. هذا ما ذكره معجم اللاهوت الكاثوليكي بقوله : (الإنسان يخضع لهذه المرحلة التطهيرية إذ يموت مبرراً بالنعمة بمقدار ما تكون حالة العقاب (المستحق) لا تزال موجودة فيه ولم تزول بزوال الخطايا بالغفران يوم التبرير ، وبمقدار ما بالإمكان أن تزيل هذه الحالة عقوبات تعويضه .

أما عن طبيعة هذه المراحل الصحيحة وعن مكان هذه العقوبات فليس لنا في الكتاب المقدس أي دليل .. ولا يجب أن تمنعنا كلمة المطهر من أن نجد كلمة أصح وأحسن لندل على هذه المراحل التي نوهنا عنها .. التي تعني حرفياً

النار المطهرة

بهذا استطاعت الكنيسة إرساء سلطاتها على أتباعها، فلا بد لهم من طاعتها طاعة تامة ، فهي مؤسسة بأمر المسيح معصومة الرأس وقراراتها إلزامية مما أهلها لغفران خطايا رعاياها بحسب ما ترى ، وعلى المؤمن المسيحي إن أراد الخلاص من خطايه الشخصية التقدم إليها مرة كل عام على الأقل ليعترف ويتلقى أمرها بتنفيذ التعويض.

كأني بما — وهي تدعو إلى هذه المعاني، وتثبتها في نفوس أتباعها — تريد من كل فرد منهم أن يدفع ضريبة للكنيسة لتمكين من إدارة شئونها وتوسعة سلطاتها وسيطرتها على أتباعها.

وهذا ما حصل بالفعل .. فمطامع رجال الكنيسة لم تزل تتزايد وتتسع ، حتى أصدروا صكوك الغفران التي عادت عليهم بمزيد من الأرباح.

ولقد نقل ويل ديورانت عن أحد المعارضين — وهو كاثوليكي — المساوي التي نتجت عن فرض صكوك الغفران فقال : (إن المساوي ذات الصلة بصكوك الغفران تنشأ كلها تقريباً من سبب واحد وهو أن المؤمنين بعد أن يشهدوا مراسم التكفير، وهي الشرط المقرر المعترف به لنيل المغفرة ، يتطلب أن يقدموا من المال ما يتناسب مع ثرائهم، وبذلك أصبح المال الذي يؤدي للأعمال الخيرية، وهو الذي يجب أن يكون من للأعمال الخيرية، وهو الذي يجب أن يكون من الأعمال النافلة التي لا يلزم بها إنسان ، أصبح هذا المال في بعض الحالات هو الشرط الأساسي لغفران الذنوب .. وكثيرا ما أصبح المال لا العمل الصالح هو الغاية المقصودة من الغفران .. ولسنا ننكر أن العبارات التي صيغت فيها قرارات البابوية ينجح إلى الإنسان معها إنما لا تحيد مطلقاً عن عقائد الكنيسة، وأن الاعتراف والندم والأعمال الصالحة المنصوص عليها في هذه العقائد هي الشرط الأساسي لنيل المغفرة ، إلا أن الجانب المالي كان يدوا واضحاً في جميع الأحوال وكان للهبات المالية المقام الأول في هذا الأمر كله مما يسر بل الكنيسة بالعار ويجعلها مضغّة في الأفواه .. اتخذت صكوك الغفران شيئاً فشيئاً صورة الصفقات المالية ، وأدى هذا إلى الكثير من النزاع بين السلطات الزمنية التي كانت تتطلب على الدوام حفظها من هذه الموارد .. ولا يقل عن بيع صكوك الغفران دلالة على حب الكنيسة للمال قبولها أو طلبها المال أو الهبات أو الوصايا نظير تلاوة الأدعية والصلوات التي يقولون أنها تقصر المدة التي تقضيها روح الميت في المطهر لتعاقب عن ذنوبها.. وكان الصالحون الأتقياء من الناس يخصصون من أموالهم جزءاً كبيراً لهذا الغرض لتنجو به روح قريب لهم أو ميت فارق الحياة الدنيا أو ليقصروا المدة هم أنفسهم في المطهر بعد موتهم أو يلغوها إلغاءً تاماً.. ولهذا أخذ الفقراء يشكون من أن عجزهم عن أداء الأموال نظير الأدعية والصلوات أو لابتياح صكوك الغفران يجعل الأغنياء على الأرض لا الوادعين هم الذين يرثون ملكوت السموات، ولقد كان كولينس حصيفاً حين أمتدح المال لأن (من يمتلك المال يستطيع نقل الأرواح إلى الجنة)¹

التفت السجين إلى القس الذي لزم الصمت، ثم قال: سأنقل لك ولجميع أصدقائي من السجناء نصاً لأحد صكوك الغفران .. لقد قرأته في كتاب (سوسنة سليمان في أصول العقائد والأديان) لمؤلفه رجل الدين المسيحي (نوفل أفندي نوفل) .. لقد ذكر هذا الأب الفاضل ترجمة لأحد صكوك الغفران التي كانت تباع في مدينة ويتمبرغ الألمانية (التي كان مارتن لوثر يدرس فيها) عام 1513 م.

(¹) قصة الحضارة: 51/1 ، 52 .

اسمعوا نص الصك .. (ربنا يسوع المسيح يرحمك يا فلان، ويُحِلُّكَ باستحقاقات آلامه الكلية القداسة، وأنا بالسلطان الرسولي المعطى لي أحلك من جميع القصاصات والأحكام والطائيات الكنسية التي استوجبتها وأيضاً من جميع الافراط والخطايا والذنوب التي ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفضيعة، ومن كل علة ولئن كانت محفوظة لأيينا الأقدس البابا والكرسي الرسولي، وأمحو جميع العجز وكل علامات الملامة التي ربما جلبتها على نفسك في هذه الفرصة، وأرفع القصاصات التي كنت تلتزم بمكابقتها في المطهر، وأردك حديثاً إلى الشركة في أسرار الكنيسة وأقرنك في شركة القديسين، وأردك ثانية إلى الطهارة والبر اللذين كانا لك عند معموديتك حتى أنه في ساعة الموت يعلق أمامك الباب الذي يدخل منه الخطاة إلى محل العذابات والعقاب ويفتح الباب الذي يؤدي إلى فردوس الفرح، إن لم تمت سنين مستطيلة فهذه النعمة تبقى غير متغيرة حتى تأتي ساعتك الأخيرة... باسم الأب والابن والروح القدس الواحد، آمين)

سكت السجين قليلاً، ثم قال: ليت الكنيسة اكتفت بتلك الأموال التي كانت تدر عليها من صكوك الغفران .. لقد ذهب بها الجشع والظلم إلى أن تستعمل هذه الصكوك في سفك دماء الأبرياء ..
اندھش السجناء لهذا، فراح السجين يقول: لا تندھشوا .. هذه هي الحقيقة التي ذكرها التاريخ¹ .. لقد كانت الكنيسة تواجه - في مرحلة من مراحلها - بألد أعدائها وأحظرمهم .. إنهم أولئك المسلمون الطيبون .. فقد كانت الحروب الصليبية قد استعر أوراها، وبدأت تلوح علامات الهزيمة للصليبيين، وبلغ ضعف الحماس الديني في نفوس الأوربيين مبلغاً كبيراً، وفقد المقاتلون ثقتهم في الكنيسة نتيجة لخيبة أملهم في النصر الذي وعدتهم وعداً قاطعاً، ولم يروا للمسيح والملائكة والقديسين أثر في معاركهم، بل على العكس تحيلوا أنهم يقفون ضدهم تماماً، وبذلك اهتز موقف الكنيسة وأيقنت أن وعودها المعسولة بالنصر، وقراراتها الشفوية بالمغفرة للمشاركين في الحرب لم تعد تؤدي مفعولاً مؤثراً، فقررت الكنيسة تجسيد هذه الأمان في وثيقة خطية محسوسة يحملها المقاتل، ويندفع للاشتراك في الحملة الصليبية وهو على ثقة وعزم.

وتنفيذاً لذلك استخدمت من جديد (صكوك الغفران) لأداء أرذل وظيفة ..
لقد كانت - كما ذكر المؤرخون - توزع على المشتركين في الحروب الصليبية ضد المسلمين ..
وبهذا .. أصبحت هذه الصكوك حكرًا على أحد رجلين:
إما صاحب مال .. يشتري الصك من الكنيسة حسب التسعيرة التي تحددها.
أو صاحب سيف .. يبذل دمه في سبيل نصره الكنيسة والدفاع عنها وحراسة مبادئها.
أما ما عدا هذين .. فيظل محروماً لا يملك ثمن الصك .. ولذلك يظل المسكين أسير صراع نفسي مرير وشعور بالحرمان قاتل.

وهكذا فالكل مضحون، والكل خاسرون، والكنيسة هي الراجح الوحيد من هذه الصكوك ..
لم يجد القس ما يجيبه به، فراح السجين يلتفت إلى زملائه، ويقول: أتدرون ما نهاية هذه الصكوك المشؤومة؟

(1) ذكرنا هذا في رسالة (ثمار من شجرة النبوة) من هذه السلسلة، ونعيده هنا مع بعض التصرف، وقد ذكرنا هناك المراجع التي رجعنا إليها، ومن أهمها (العلمانية) لسفر الحوالى، و(مذاهب فكرية معاصرة) لحمد قطب.

قال السحناء: ما نهايتها؟

قال السجين: لقد كانت هذه البدعة — أول أمرها — من أسباب قوة الكنيسة ودعائم شموخها .. فمن ناحية المكانة الدينية ارتفعت منزلة رجال الدين في نظر السذج والجهلة بعد أن منحهم المسيح هذه الموهبة العظيمة، وخيل إليهم أنه ما دام أعطاهم حق المغفرة للناس فبديهي أنه غفر لهم، بل قدسهم ووهبهم من روحه كما يدعون، وبذلك تجب طاعتهم والتزلف إليهم وتملقهم على من أراد التقرب إلى المسيح والحصول على رضاه، وإذ قد آمن الناس — ملوكاً وصعاليك — بحق الغفران، فقد سهل عليهم أن يؤمنوا بمقابلة (حق الحرمان)، ولم يزدادوا طمعاً في ذلك إلا وازدادوا رهبة لهذا.

ومن الوجهة المادية أثرت الكنيسة من عملية بيع الصكوك ثراء فاحشاً حتى أصبحت بحق أغنى طبقات المجتمع الأوروبي آنذاك بما تكسب في خزائنها من أموال وتدفق عليها من عطايا وهبات.

ومن الوجهة السياسية قويت الكنيسة وتدعمت سلطتها بالحافل البربرية التي تطوعت للقتال في سبيلها من أجل الحصول على الغفران.. وبالمقابل انخفضت سلطة الملوك الذين كانوا جنوداً للكنيسة بأنفسهم في الحروب الصليبية، إلا من تردد منهم أو حاول التملص من قبضتها فعوقب بالحرمان كما حدث لفرديريك الثاني¹.

كل هذه الثمار جنتها الكنيسة من جراء هذه المهزلة..

ولكن الحصاد الخييب الذي حصده من جرائها لا يمكن وصفه..

لقد كانت تلك الصكوك مسماراً في نعش الكنيسة، وبداية لنهايتها، وكانت خسارتها بما عظيمة عظم جنايتها: فمن الوجهة الاقتصادية تلى الإقبال الهائل على شراء الصكوك انكماش وفتور كالذي يصيب أي بدعة أو ظاهرة جديدة بعد فترة من ظهورها، فضيبت الكثير من موارد الكنيسة في حين ازدادت طمعا وشراها.. فاضطرت إلى عرض الصكوك بطريقة مبتدلة، فكان الآباء والقساوسة يتجولون في الإقطاعات، ويبيعونها بأسعار مخفضة، ثم زهيدة، وكلما ازداد العرض قل الطلب وتولد لدى الناس شعور داخلي بأن شراؤها إضاعة للمال فيما لا فائدة فيه، أو على الأقل فيما ليس مضمون العاقبة.

وفي الوقت نفسه داهمت المسرح المالي فئة جديدة من الناس أخذت تظهر بوضوح منافسة للطبقتين البارزتين آنذاك (النبلاء) و (رجال الدين) تلك هي الطبقة البورجوازية وحصلت تحولات أخرى كانت بمثابة المؤشر لنهاية النظام الإقطاعي بجملته.

ومن ناحية المكانة الدينية لرجال الدين، فقد بدأت تلك الهالة القدسية المحيطة بهم تتبخر شيئاً فشيئاً بعد زمان من ظهور هذه المهزلة وابتداء الناس يعتقدون أنهم كانوا محظنين في ذلك الاندفاع الأعمى والتسليم الأبله، وعمق ذلك الاعتقاد تنافس القساوسة على بيع الصكوك مقروناً بسيرتهم السيئة وفجورهم الفاضح، وعجب الناس إذ رأوا كثيراً من الأشرار والطغاة يتبعون مقاعدهم في الملكوت ببركة الصكوك التي منحها لهم رجال الدين، فكان ذلك إيذاناً بالشك

(1) هو الإمبراطور (فرديريك الثاني)، وهو أعظم زعيم تحدى سلطات الكنيسة واستطاع مقاومتها مدة غير يسيرة، ويرجع ذلك إلى المؤثرات الإسلامية في ثقافته وشخصيته، فقد كان مجيداً للحرية مغرماً بالحضارة الإسلامية، حتى أن الكنيسة اتهمت به باعتناق الإسلام وسمته (الزنديق الأعظم)، أما المفكرون المعاصرون فيسميه بعضهم (عجوبة العالم) وبعضهم (أول المحدثين)، انظر حول سيرته كتاب الزنديق الأعظم، وفصل أعجوبة العام، ج3، ويلز.

في قداسة رجال الدين أنفسهم ومدى صلاحهم واستحقاقهم للملكوت في ذواتهم.
ومن ناحية المركز السياسي والنفوذ الديني، فقد كان لصكوك الغفران وما أحاط بها من ظروف وملابسات
أثره البالغ في العلاقة بين الكنيسة من جهة والملوك والأمراء والنبلاء من جهة أخرى، فقد رأوا أن قبضة الكنيسة تزداد
استحكاماً مع الأيام وأنهم وشعوبهم ليسوا إلا أدوات أو صنائع رجال الدين يمنون عليهم بالعفو إن رضوا ويعاقبونهم
بالحرمان إن سخطوا، كما أن الثراء الذي حصلت عليه الكنيسة جعلها تبدو منافساً قوياً لأصحاب الإقطاعيات وكبار
الملاك، فكان يسيطر على الجميع شعور موحد بالعداوة لها والحقد عليها.

لذلك لم تكذب بوارد الاستنكار ضد تصرفاتها — لا سيما صكوك الغفران — تبرز للعيان حتى انتهزها الملوك
والأمراء فرصة سانحة لحماية الحركات المعارضة وتأجيج سعيها، ولولا أن بعض المصلحين الكنسيين — ولوثر خاصة
— وجدوا الحماية والعطف من الأمراء والنبلاء لما نجوا من قبضة الكنيسة ونتائج قرارات حرمانها.

أما من الناحية الاجتماعية، فقد كانت صكوك الغفران سبباً مباشراً في انبعاث الشرارة الأولى التي اندلعت نيرانها
فيما بعد، فالتهمت الأوضاع الاجتماعية وأودت بالتعاليم الكنسية والتقاليد الدينية كافة.

وبذلك.. فقد ساعدت صكوك الغفران بصفة مباشرة على هدم التعاليم الدينية من أساسها والاستهتار بكل
المعتقدات والأصول الإيمانية بمجملتها وأسهمت في انتشار فكرة إنكار الآخرة والجنة والنار التي لا يقوم دين غيرها.
ولا زالت إلى الآن شاهداً قوياً ومستنداً قاطعاً لكل أعداء الدين في الغرب، حيث نشأ عن الكفر برجل الدين
وتصرفاته كفر بالدين ذاته وما يتصل به من سلوك وحلق.

لقد كان الخيار الصعب الذي وضعه أعداء الدين أمام الإنسان الأوروبي هو إما أن يؤمن بصكوك الغفران فيحكم
على نفسه تلقائياً بالجمود والغباء والرجعية المتناهية، وإما أن يكفر بها فيلزمه بالإطار الذي يحويها بكامله إطار الدين
والغيبات، لا سيما الآخرة.

التفت السجين إلى القس، وقال: هل رأيتني زدت حرفاً واحداً على ما نطق به التاريخ؟

قال القس: أنت تكرر ما يقوله الهراطقة.. ولذلك لن أحييك بشيء.. فلا يجدي الكلام مع الهراطقة شيئاً¹.

قال السجين: ألم تأمركم الكنيسة والمسيح بأن تظهروا الحقائق بنور الإيمان، وتردوا على الشبهات بسيف العلم؟
لم يجد القس إلا أن يقول: أرانا قد خرجنا عن الموضوع.

قام بعض السجناء، وقال: لا يا حضرة القس.. نحن لم نخرج عن الموضوع.. لقد جئنا لتحدثنا عن البشارة التي
جاء بها المسيح للمذنبين.. وكل ما حدثنا به صاحبنا لم يخرج عن هذا الباب.

سكت القس، فقال السجين وهو يلتفت إلى زميله: أنا متعجب كل العجب من معرفتك بكل هذا مع كونك
سجيناً مثلنا.. ومع كونك فوق ذلك مسلماً.. فما علاقتك بالمسيحية؟

قال السجين: أنت تريد مني أن أحدثك عن نفسي..

قال: إن كان حديثك عن نفسك ضرورياً لتفهمنا حقيقتك وحقيقة ما تقوله فحدثنا.

(1) هذا الأسلوب يستعمل كثيراً في حديث الدعاة للمسيحية والمناظرين فيها، وهم يستعملونه كمخرج من كل إرباك قد
يقعون فيه.. وللأسف يستعمله بعض دعاة المسلمين حينما يرمون بالبدعة من تقف بهم الحجج دون إفحامهم.

قال السجين: إذا وافق زملاؤك .. ووافق قبل ذلك حضرة الأب الفاضل .. فسأحدثك .. وسأذكر لكم في حديثي رحلتي التي وصلت بها إلى البشارة الحقيقية التي بشر الله بها المذنبين .. وبسبب تلك البشارة تروني الآن بينكم. رفع جميع السجناء أصواتهم يطلبون منه أن يحدثهم .. ولم يجد القس إلا أن يأذن له، فقد كان يجب أن يبدو بمظهر المسا لم المتسامح.

سار السجين إلى المنصة، وراح يقول: أنتم تعلمون أي مسلم .. وربما تتوهمون أي ولدت مسلماً .. وهذا خطأ.. لقد ولدت مسيحياً .. بل ولدت في عائلة مسيحية متدينة .. كان والدي وكثير من أهلي من رجال الكنيسة الكبار .. ولهذا تلقيت في صغري مبادئ الكنيسة وعلومها .. بل ومغاليقها وأسرارها. ولكن الله قدر أن أقع في جريمة من الجرائم .. فعلتها بإصرار وترصد .. لا شك أنكم تعرفون جرمي .. إنها الجريمة التي من أجلها سلمت نفسي لهذا السجن ..

لقد قتلت نفساً بريئة بغير حق .. ولم يرني أحد، وأنا أقتلها .. ولم يكن لدى الشرطة التي بحثت عن الجاني أي دليل تصل به إلي .. بل كان أهل القتل فوق ذلك يجلوني ويحترموني غاية الاحترام، فلم يكونوا يتصورون أبداً أي أنا الجاني الذي سلبهم قريتهم.

قال بعض السجناء: فكيف صرت بيننا؟

قال السجين: نعم .. الشرطة لم تستطع أن تقبض علي لتعاقبي .. لكن ضميري كان يؤنبني كل حين .. وكانت صورة القتل تتراءى لي في أحلامي فتملأها بالكوابيس.

وبما أنني من أسرة متدينة - كما ذكرت لكم - فقد أسرعرت إلى الكنيسة أشكو إليها حالي، وقد قرأ علي القس من كلام بولس ما قرأته لكم .. وحكى لي من خطايا الأنبياء ما حكى لي .. وعندما هممت بالانصراف، قال لي: يكفيك أن تعترف أمامنا .. ونحن سنخلصك من كل ذنوبك..

فعلت كل ما طلبه مني .. ولكن ضميري لم يطمئن لما فعلته .. فقد كنت أراه نوعاً من النفاق الذي لا يجدي

شيئاً ..

وقد زاد من همي أي عندما تأملت النصوص التي كان القسس يستدلون بها علي أن للكنيسة حق الغفران رأيتها نصوصاً لا تدل علي ما توهموه ..

بل إنني رأيت أن النص الذي يستدلون به علي قدرة المسيح علي غفران الخطايا لا يدل علي هذا المراد.

انتفض القس قائلاً: كيف هذا؟ .. النص واضح لا ريبه فيه .. لقد قال المسيح: (إن لابن الإنسان سلطاناً علي

الأرض أن يغفر الخطايا) (متى: 9/6)

قال السجين: لنفهم النص - حضرة الأب الفاضل - نحتاج إلى العودة إلى الواقعة التي قيل فيها .. فاسمح لي أن

أردها بين يديك، لأذكر لك من خلالها ما فهمته منها، أو ما يصح أن يفهم منها ..

لقد بدأ الإصحاح التاسع من إنجيل متى بذكر هذه الواقعة هكذا: (فدخل السفينة، واجتاز وجاء إلى مدينته، وإذا

مفلوج يقدمونه إليه مطروحاً على فراش. فلما رأى يسوع إيمانهم قال للمفلوج: ثق يا بني، مغفورة لك خطاياك.. وإذا

قوم من الكنيسة قد قالوا في أنفسهم هذا يجدف. فعلم يسوع أفكارهم فقال: لماذا تفكرون بالشر في قلوبكم. إنما أيسر

أن يقال مغفورة لك خطاياك، أم أن يقال قم وامش؟ ولكن لتعلموا أن لابن الإنسان سلطاناً علي الأرض أن يغفر

الخطايا. حينئذ قال للمفلوج. قم احمل فراشك واذهب إلى بيتك. فقام ومضى إلى بيته. فلما رأى الجموع تعجبوا ومجدوا الله الذي أعطى الناس سلطانا مثل هذا) (متى: 1/9)

انظر .. إن المسيح لم يقل للمفلوج: ثق يا بني لقد غفرتُ لك خطاياك! بل أنبأه قائلا: مغفورة لك خطاياك.. والفرق واضح بين الجملتين، فالجملة الثانية لا تفيد أكثر من إعلام المفلوج بأن الله تعالى قد غفر ذنوبه، وليس في هذا الإعلام أي دليل على ألوهية المسيح، لأن الأنبياء والرسل المؤيدين بالوحي يطلعون، بإطلاع الله تعالى لهم على كثير من المغيبات والشؤون الأخروية، ومنها العاقبة الأخروية لبعض الناس¹ ..

قال القس: ولكن المسيح قال بعد ذلك: (ولكن لتعلموا أن لابن الإنسان سلطانا على الأرض أن يغفر الخطايا)، فنسب غفران الخطايا لنفسه.

قال السجين: إن هذا النص - كنصوص كثيرة في الكتاب المقدس - لا يصح حمله إلا على معناه المجازي .. أي على معنى أن ابن الإنسان (المسيح) حوله الله أن يعلن غفران الخطايا .. وذلك لأن الجملة الأخيرة في النص السابق تقول: (فلما رأى الجموع ذلك تعجبوا ومجدوا الله الذي أعطى الناس سلطانا مثل هذا) ، فالغافر بالأصل والأساس هو الله تعالى، ثم هو الذي منح هذا الحق للمسيح وأقدره عليه، لأن المسيح كان على أعلى مقام من الصلة بالله والكشف الروحي ولا يتحرك إلا ضمن حكمه وإرادته فلا يبشر بالغفران إلا من استحق ذلك.

ومما زادني علما بأن غفران المسيح للذنوب هو تحويل إجمالي من الله تعالى له بذلك، وليس بقدرته ذاتية له، هو أن المسيح، في بعض الحالات، كان يطلب المغفرة للبعض من الله تعالى فقد جاء في إنجيل (لوقا: 23/34): (فقال يسوع: يا أبتاه! اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون)

انظر - حضرة الأب الفاضل - كيف طلب المسيح من الله غفران ذنوبهم، ولو كان إليها يغفر الذنوب بذاته ومستقلا، كما ادعوا، لعفر ذنوبهم بنفسه؟

قال بعض السجنا: بعد ما علمت ماذا فعلت؟

قال السجين: بعد ما علمت أن الكنيسة أعجز من أن تغفر خطيئتي الكبرى التي وقعت فيها رحمت أبحث عن

الخلاص ..

ومما زادني حرصي على الخلاص أي رأيت الكثير من رجال الكنيسة الذين يزعمون أنهم يخلصون الناس واقعون في أسر نفوسهم وشهواتهم وأهوائهم .. حتى من كان في نظر الناس قديسا .. كان في الحقيقة زنديقا ممتلئا بالأرجاس والخطايا² .

قال سجين آخر: فأين وجدت الخلاص؟

قال السجين: لقد تعذبت كثيرا قبل أن أجد الخلاص .. وذات يوم بكيت أمام الله وسألته بصدق أن يخلصني من

أسر خطيئتي ..

(1) وعلى هذا تحمل البشارات التي بشر بها رسول الله ﷺ أصحابه بدخول الجنة.

(2) ذكرنا الكثير من الأمثلة على هذا في رسالة (ثمار من شجرة النبوة) من هذه السلسلة.

وقد هداني الله أن أسير إلى أرض لا أزال إلى الآن أجهل محلها .. كانت مضمخة بعطر الطهارة الجميل¹ .. وقد تطهرت فيها .. بل أيقنت بأن الله طهيري.

قال السجناء: كيف ذلك .. ونحن نراك الآن بيننا؟

قال السجين: سأقص عليكم قصتي وقصة تلك الأرض .. ثم سر وجودي بعد ذلك في هذا السجن .. فكل ذلك له علاقة بما نحن فيه ..

قال السجناء: فحدثنا .. فما أجمل حديثك؟

قال السجين: بعد أن امتلأت بالعذاب .. وبعد أن سألت الله بصدق أن يطهري .. سرت على غير هدى إلى أن وجدت نفسي في تلك الأرض الممتلئة بالطهارة ..

كان أول ما شدني إليها أني مرت على بيت من بيوتها، فسمعت قارئاً يقرأ من القرآن قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: 53)

كان يقرأ الآية من أعماق وجدانه .. وكنت خلال قراءته لها لا أسمعها هو بل أسمع الله، وهو يخاطبني من خلالها، وكأنه يبشرني بتحقيق مطلوب الذي سرت في الأرض من أجله.

أسرعت إلى البيت الذي سمعت فيه القراءة، ورحت أدق بقوة .. وما هي إلا لحظات حتى فتح لي رجل مملوء بالأنوار الباب .. وهو يقول لي: أحسنت بدق الباب .. فقد خطوت بذلك أول خطوة في طريق الطهارة.

احترت في قوله هذا، وقلت: من أنت؟ .. وكيف عرفت أني أبحث عن الطهارة؟

ابتسم، وقال: أما اسمي، فهو (الفضيل)² .. وأما كيف عرفت .. فذلك لأنني كنت في يوم من الأيام مثلك .. كنت ممتلئاً بالدنس إلى أن طهيري الله ..

كنت في بداية حياتي أقطع الطريق .. وذات ليلة خرجت لأقطع الطريق، فإذا أنا بقافلة قد انتهت إلي، وقد سمعت بعضهم يقول لبعض: اعدلوا بنا إلى هذه القرية، فإن أمامنا رجلاً يقطع الطريق يقال له الفضيل .. فلما قالوا ذلك أصابني رعدة .. ولم أحد نفسي إلا وأنا أصبح فيهم: (يا قوم .. أنا الفضيل جوزوا .. والله لأجتهدن أن لا أعصي الله أبداً) .. ثم إن الله رقق قلبي، فأضفتهم تلك الليلة .. ثم خرجت أرثاد لدواهم علفاً .. وعندما رجعت سمعت قارئاً يقرأ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد: 16) .. فأصابتني أنوار من الإيمان، فصحت وأنا مضمخ بعطرها: (والله لقد آن)

ثم يسر الله أن أجد رجلاً من أهل الله دلوني على طريق التوبة ومراحلها .. وقد سرت فيها جميعاً إلى أن ألقى الله في روعي أنه قد تاب علي، وقبلي ..

(1) للمؤلف رسالة مختصة بالبحث في أسرار الطهارة وكيفية التطهير اسمها (عيون الطهارة)، من (رسائل السلام)

(2) أشير به إلى الفضيل بن عياض، وقد سبقت ترجمته في الرسائل الماضية، وقد اخترناه لما روي عنه من التوبة التي سندكرها كما ذكرها ابن قدامة في كتاب (التوايين) ..

قلت: فهلا دلتني على المراحل التي عبرتها .. فقد امتلأت نفسي بالدنس.
قال الفضيل: ذلك واجب علي .. لقد نذرت نفسي لهذا ..
قلت: فهل أبداً معك السير؟
قال: لقد بدأت .. مذ دقت باب بيتي بدأت السير ..
قلت: فهل أعترف لك بجرمتي؟
قال: معاذ الله .. أنا عبد .. والعبد أضعف من أن يحاسب عبدا مثله.
قلت: فكيف أسير إذن .. وأنت لا تعلم ذنبي؟
قال: الله يعلمه .. والله هو الغفار ولست أنا ولا أحد من الناس .. أنا مجرد دليل مرشد أدلك على ما دلني الله عليه.

قلت: فهيا .. دلني على المراحل التي تعبر بي إلى الطهارة التي امتلأت نفسي شوقاً إليها.
قال: لقد ذكرت لك أي مررت بمراحل في الطريق .. وأني الآن بفضل الله في آخرها.
قلت: فما هي هذه المراحل؟
قال: أربع .. أما أولها، فالأمل .. وأما الثانية، فالدينونة .. وأما الثالثة، فالتصحيح .. وأما الرابعة، فالترقي.
قلت: فما وجه الانحصار في هذه المراحل؟
قال: أول ما تحتاجه في الطهارة الأمل في أن تنظف .. فلا يمكن لليأس أن يسير خطوة واحدة في أي طريق، فكيف يمكن أن يسير في طريق الله؟
قلت: والدينونة؟
قال: بعد أن تمتلئ بالأمل في فضل الله تستيقظ من سبات الغفلة، لتبحث عن ذنوبك، فتمحوها بكير الخشية، ودموع الندم ..
قلت: والتصحيح؟
قال: الذنوب تحدث خللاً في النفس والعقل والقلب والروح .. والمجتمع .. والأمة .. والإنسان .. والكون .. ولن تتحقق بالطهارة حتى تصلح ما أفسدته الذنوب.
قلت: والترقي؟
قال: من اكتفى بالتطهير، ولم يحدث نفسه بالترقي في معارج الله أوقعته نفسه في أودية الهوى، وعاد للذنب شعر أو لم يشعر.
قلت: فهل ستسير بي في هذه المراحل؟
قال: بل سأسير معك .. فأنا أضعف من أن أسير بك.

1 - الأمل

استغرق السجين في صمت عميق قطعه عليه أصحابه بقولهم جميعاً: فماذا حصل؟ .. هل سرت معه في طريق الطهارة؟

قال: أجل .. وقد كانت أياماً حلوة تلك الأيام .. لقد شعرت بنفسى، وكأني أستحم في بحر لحي ممتلئ بجميع عطور الإيمان .. وشعرت، وكأن الله أرسل أمطار الطهارة من كل صوب لتطهري من ذلك الدنس الذي ملأ حياتي أماً.

قال بعض السجناء، وقد هزه ما ذكره: فحدثنا .. فما أشوقنا للطهارة.

قال آخر: ابدأ بنا من المرحلة الأولى .. تلك التي سماها لك الفضيل بالأمل.

قال: في بداية الطريق سار بي الفضيل إلى رجال مختلفين .. كلهم كانوا من التوايين¹ .. وقد تعلمت على أيديهم أن الله الرحيم الرحمن تكرم على عباده، فأعطاهم من فضل مغفرته ما لا يقدر بثمن ..

كان أولهم رجلاً يقال له (مالك بن دينار)² .. وقد ذكر لي في أول لقاء لي معه سبب توبته فقال: (كنت شرطياً، وكنت منهمكاً على شرب الخمر، ثم إن الله يسر لي فتزوجت امرأة سالحة وقعت مني أحسن موقع، فولدت لي بنتاً، فشغفت بها، فلما دبت على الأرض ازدادت في قلبي حبا، وألفتني وألفتها .. وكنت إذا وضعت المسكر بين يدي جاءت إلي وجاذبتني، وأهرقتة .. فلما تم لها سنتان ماتت، فأكمدني حزنها، فلما كانت ليلة النصف من شعبان، وكانت ليلة الجمعة بت ثملاً من الخمر .. فرأيت فيما يرى النائم كأن القيامة قد قامت، ونفخ في الصور، وبعثت القبور، وحشر الخلائق وأنا معهم، فسمعت حسا من ورائي، فالتفت، فإذا أنا بتنين أعظم ما يكون أسود أزرق قد فتح فاه مسرعاً نحوي، فمررت بين يديه هاربا فرعا مرعوبا، فمررت في طريقي بشيخ نقي الثوب طيب الرائحة، فسلمت عليه، فرد السلام، فقلت: أيها الشيخ أحرني من هذا التنين أبحرك الله، فبكى الشيخ، وقال لي: أنا ضعيف وهذا أقوى مني وما أقدر عليه، ولكن مر وأسرع ففعل الله أن يتيح لك ما ينجيك منه .. فوليت هاربا على وجهي، فصعدت على شرف من شرف القيامة، فأشرفت على طبقات النيران، فنظرت إلى هولها وكدت أهوي فيها من فزع التنين، فصاح بي صائح: ارجع فلست من أهلها، فاطمأنت إلى قوله ورجعت ورجع التنين في طلي، فأتيت الشيخ، فقلت: يا شيخ سألتك أن تجيرني من هذا التنين فلم تفعل، فبكى الشيخ وقال: أنا ضعيف، ولكن سر إلى هذا الجبل فإن فيه ودائع المسلمين فإن كان لك فيه ودیعة فستنصرک، فنظرت إلى جبل مستدير من فضة وفيه كوى مخزومة وستور معلقة على كل خوذة وكوة مصراعان من الذهب الأحمر مفصولة باليواقيت مكوكة بالدر، على كل مصراع ستر من الحرير، فلما نظرت إلى الجبل وليت إليه هاربا والتنين من ورائي حتى إذا قربت منه صاح بعض الملائكة: ارفعوا الستور وافتحوا المصاريع وأشرفوا ففعل لهذا البائس فيكم ودیعة تجیره من عدوه، فإذا الستور قد رفعت والمصاريع قد فتحت فأشرف

(1) سنذكر هنا بعض سير التائبين من صالحى هذه الأمة، وأخبارهم المذكورة بالتفصيل في كتاب التوايين لابن قدامة .. وقد تصرفنا في بعض الأحداث بما يقتضيه المقام .. فلذلك نرجو الرجوع للمصدر لمن أراد الروايات الحقيقية.

(2) هو مالك بن دينار البصري، أبو يحيى (ت 131 هـ) من رواة الحديث، كان ورعا، يأكل من كسبه، وكان من كبار صالحى هذه الأمة.

علي من تلك المخرمات أطفال بوجوه كالأقمار، وقرب التين مني فتحيرت في أمري فصاح بعض الأطفال: ويحكم أشرفوا كلكم فقد قرب منه عدوه، فأشرفوا فوجا بعد فوج، وإذا أنا بانتي التي ماتت قد أشرفت علي معهم، فلما رأني بكيت وقالت: أبي والله، ثم وثبت في كفة من نور كرمية السهم حتى مثلت بين يدي، فمدت يدها الشمال إلى يدي اليمنى، فتعلقت بها ومدت يدها اليمنى إلى التين فولى هاربا، ثم أحلستني، وقعدت في حجري، وضربت بيدها اليمنى إلى لحيي/ وقالت يا أبت: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد:16)، فبكيت: يا بنية وأنتم تعرفون القرآن، فقالت: يا أبت نحن أعرف به منكم، قلت: فأخبريني عن التين الذي أراد أن يهلكني، قالت: ذلك عملك السوء قويته، فأراد أن يغرقك في نار جهنم، قلت: فأخبريني عن الشيخ الذي مررت به في طريقي، قالت: يا أبت ذلك عملك الصالح أضعفته حتى لم يكن له طاقة بعملك السوء، قلت: يا بنية وما تصنعون في هذا الجبل؟ قالت نحن أطفال المسلمين قد أسكنا فيه إلى أن تقوم الساعة ننتظركم تقدمون علينا فنشفع لكم.. فانتبهت فرعا، وأصبحت، فأرقت المسكر، وكسرت الآنية، وتبت إلى الله عز وجل

القرآن:

ثم حدثني عن فضل الله على عباده بقبوله لهم إذا رجعوا إليه .. وقرأ علي من القرآن الكريم آيات سمعت الله يحدثني فيها عن نفسه، وأنه لطيف بعباده عليهم بهم يغفر خطاياهم وذنوبهم..

سأقرأ عليكم بعض ما قرأه لتدركوا عظم فضل الله على عباده:

قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (البقرة: 225) .. وقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران: 31) .. وقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران: 129) .. وقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْرُبُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المائدة: 34) .. وقال: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المائدة: 39) .. وقال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المائدة: 74) .. وقال: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المائدة: 98) .. وقال: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنعام: 54) .. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَعْفُوكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (أنفال: 70) .. وقال: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: 27) .. وقال: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: 102) .. وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جِئَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ (15) .. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَأَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَعْفُوكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الحديد: 28)

انظروا كيف يخلص إله المسلمين عباده من كل حرج .. إنه لا يطلب منهم أن يلجأوا لأي كاهن ولا لأي رجل دين .. بل يكفيهم أن يتوبوا إلى الله ويستغفروه .. فليس لأحد سلطان المغفرة إلا لله.. كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا

أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿التوبة:104﴾، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (الشورى:25)

أما البشر .. فإن سلطاتهم الوحيد الذي أتيح لهم في هذا الباب أن يستغفر بعضهم لبعض .. ويعفو بعضهم عن بعض .. لقد حول الله تعالى ذلك لرسول الله كما حوله لكل مؤمن بغض النظر عن رتبته ووظيفته، قال تعالى يخاطب رسوله في شأن أصحابه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران:159) وقال يخاطبه في شأن أعدائه: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة:13)

بل إن الله تعالى قد منع رسوله مع عظيم مرتبته وقربه من حق الاستغفار في بعض المحال، فقال تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة:80)

وأخبره عن إبراهيم عليه السلام أن استغفاره لأبيه لم يكن إلا بسبب موعد وعده إياه .. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (التوبة:114)

السنة:

ثم حدثني عن الآثار الكثيرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. والتي تملأ المؤمن أملاً يقينا في فضل الله على عباده بقبولهم إذا رجعوا إليه .. اسمحوا لي أن أذكر لكم بعض ما ذكر لي من النصوص المقدسة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لتمثلوا بمعانيها كما وفقني الله فامتألت ..

لقد كان منها هذا الأثر الإلهي العظيم الذي لم أجد مثله في أي سفر من أسفارنا المقدسة .. (يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي .. يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك .. يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة)¹ لقد هزني هذا الأثر هزا .. بل جعلني أشعر بقرب الله وفضله وكرمه العظيم .. مما لم أشعر بمثله في حياتي قط. وكان منها قوله صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسى بيده لو أخطأتم حتى تملأوا خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفرتم الله لغفر لكم)²

وكان منها قوله صلى الله عليه وسلم .. وهو يقرب حب الله لتوبة عبده وقبوله لهم إذا رجعوا إليه: (لله أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلا وبه مهلكة ومعها راحلته، عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ، وقد ذهب راحلته، فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش، قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت فرجع فنام نومة، ثم رفع

(1) رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح.

(2) رواه أحمد.

رأسه فإذا راحلته عنده، عليها زاده وطعامه وشرابه، فالله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده)¹ وكان منها هذا الأثر الإلهي الذي يحكيه ﷺ عن ربه من قوله لعباده: (إذا تقرب إلي العبد شبراً تقربت إليه ذراعاً وإذا تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً وإذا أتاني يمشي أتيته هرولاً)² ، وقوله: (يا ابن آدم قم إلي أمش إليك وامش إلي أهرولاً إليك)³

وكان منها قوله ﷺ: (إن شئتم أنبأتكم ما أول ما يقول الله - عز وجل - للمؤمنين يوم القيامة وما أول ما يقولون له؟)، فقال الصحابة: نعم يا رسول الله، فقال: (إن الله - عز وجل - يقول للمؤمنين هل أحببتم لقائي؟ فيقولون: نعم يا ربنا.. فيقول: لم؟ فيقولون: (رجونا عفوك ومغفرتك)، فيقول: (قد وجبت لكم مغفرتي)⁴ وكان منها قوله ﷺ: (بينما رجل مستلق إذ نظر إلى السماء وإلى النجوم فقال: إن لأعلم أن لك رباً خالقاً، اللهم اغفر لي فغفر له)⁵

وأخبرني أن رسول الله ﷺ كان ينشر الأمل في نفوس الخطائين، ومن ذلك أنه ﷺ دخل على شاب وهو في الموت فقال: كيف تجدك؟ قال: أرجو الله يا رسول الله وأخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: (لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الوطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمنه مما يخاف)⁶

وأخبرني أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ وهو يقول: واذنوباه، مرتين أو ثلاثاً.. فقال له النبي ﷺ: قل: اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبي، ورحمتك أرجى عندي من عملي، فقالتا ثم قال له: عد، فعد، ثم قال له: عد، فعد، فقال له: (قم قد غفر الله لك)⁷

الحكمة:

ثم سار بي إلى بعض الحكماء.. ومن أفواهم تلقيت من حكمة الأمل في عفو الله ما ملأ صدري اتساعاً.. ومما روي لي ما أوحاه الله تعالى إلى داود عليه السلام من قوله: (أحبي وأحب من يحبني وحبيني إلى خلقي)، فقال: (يا رب، كيف أحببك إلى خلقك؟)، قال: (اذكري بالحسن الجميل واذكري آتاني وإحساني وذكرهم ذلك فيأثمم لا يعرفون مني إلا الجميل)

وحدثني أن لصاً كان يقطع الطريق في بني إسرائيل أربعين سنة، فمر عليه عيسى عليه السلام وخلفه عابداً من عباد إسرائيل من الحوارين، فقال للص في نفسه: هذا نبي الله يمر وإلى جنبه حواريه لو نزلت فكنت معهما ثالثاً، قال: فنزل يريد أن يدنو من الحواري ويزدري نفسه تعظيماً للحواري ويقول في نفسه: مثلي لا يمشي إلى جنب هذا العابد، قال: وأحس الحواري به، فقال في نفسه: هذا يمشي إلى جانبي، فضم نفسه ومشى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام، فمشى

(1) رواه البخاري ومسلم.

(2) رواه البخاري.

(3) رواه أحمد.

(4) رواه أحمد.

(5) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب (حسن الظن)

(6) رواه الترمذي والنسائي وغيرهما.

(7) رواه الحاكم.

بجنبه فبقي اللص خلفه، فأوحى الله تعالى إلى عيسى - عليه الصلاة والسلام - : (قل لهما ليستأنفا العمل) وحدثوني أنه كان في بني إسرائيل شاب عبد الله تعالى عشرين سنة، ثم عصاه عشرين سنة، ثم نظر في المرأة فرأى الشيب في لحيته، فسأه ذلك، فقال: (إلهي إني أطعتك عشرين سنة، ثم عصيتك عشرين سنة، فإن رجعت إليك أتقبلني؟) فسمع قائلاً يقول - ولا يرى شخصاً - : (أحببتنا فأحبيناك، وتركتنا فتركتناك، وعصيتنا فأهملناك وإن رجعت إلينا قبلناك)

وحدثوني أنّ رجلاً من بني إسرائيل كان يقنط الناس ويشدّد عليهم، فيقول الله تعالى يوم القيامة له: (اليوم أويسك من رحمتي كما كنت تقنط عبادي منها) وحدثوني أن علياً قال لرجل أخرجته الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه: (يا هذا يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك)

وحدثوني عن محمد الباقر قوله: (أنتم أهل العراق تقولون أرجى آية في كتاب الله عز وجل قوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: 53)، ونحن - أهل البيت - نقول: أرجى آية في كتاب الله تعالى قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ (الضحى: 5)

ورواوا لي عن سفيان الثوري قوله: (من أذنب ذنباً فعلم أن الله تعالى قدره عليه ورجاء غفرانه غفر الله له ذنبه.. لأن الله عز وجل عبر قوماً فقال: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (فصلت: 23)، وقال تعالى: ﴿وَطَنَنْتُمْ ظَنُّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ (الفتح: من الآية 12) وروواوا لي عنه قوله: (ما أحب أن يجعل حسابي إلى أبوي لأني أعلم أن الله تعالى أرحم بي منهما) وروواوا لي عن إبراهيم بن أدهم قوله: خلالي الطواف ليلة وكانت ليلة مطيرة مظلمة، فوفقت في الملتزم عند الباب فقلت: يا رب اعصمني حتى لا أعصيك أبداً، فهتف بي هاتف من البيت: يا إبراهيم أنت تسألني العصمة وكل عبادي المؤمنين يطلبون مني ذلك، فإذا عصمتهم فعلى من أتفضل؟ ولمن أغفر؟ وروواوا لي عن الحسن قوله: (لو لم يذنب المؤمن لكان يطير في ملكوت السموات، ولكن الله تعالى قمعه بالذنوب)

ورواوا لي عن الجنيد قوله: (إن بدت عين من الكرم ألحقت المسيئين بالחסنين) وروواوا عن أبان بن أبي عياش أنه رثي في النوم، وكان يكثر ذكر أبواب الرجاء فقال: أوقفني الله تعالى بين يديه فقال: ما الذي حملك على ذلك؟ فقلت: أردت أن أحببك إلى خلقك، فقال: قد غفرت لك) وروواوا أنه لقي في حياته مالكا بن دينار، فقال له: إلى كم تحدث الناس بالرحص؟ فقال: يا أبا يحيى، إني لأرجو أن ترى من عفو الله يوم القيامة ما تحرق له كساءك هذا من الفرح.

وحدثوني أن بكر بن سليم الصوّاف دخل مع جماعة على مالك بن أنس في العشيّة التي قبض فيها فقال له: يا أبا عبد الله، كيف تجددك؟ فقال: لا أدري ما أقول لكم إلا أنكم ستعانون من عفو الله ما لم يكن لكم في حساب. وحدثوني أن يحيى بن معاذ كان يقول في مناجاته: يكاد رجائي لك من الذنوب يغلب رجائي إياك مع الأعمال؛ لأني أعتمد في الأعمال على الإخلاص وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف، وأجدي في الذنوب أعتمد على

عفوك وكيف لا تغفرها وأنت بالوجود موصوف.

وحدثوني أن بعضهم رأى أبا سهل الصعلوكي في المنام على هيئة حسنة لا توصف، فقال له: يا أستاذ، بم نلت هذا؟ فقال: بحسن ظني بربي.

وحدثوني أن أبا العباس بن سريج رأى في مرض موته في منامه كأن القيامة قد قامت، وإذا الجبار سبحانه يقول: أين العلماء؟ قال: فجأؤوا، ثم قال: ماذا عملتم فيما علمتم؟ قال: فقلنا يا رب قصرنا وأساننا: قال: فأعاد السؤال كأنه لم يرض بالجواب وأراد جواباً غيره، فقلت: أما أنا فليس في صحيفتي الشرك وقد وعدت أن تغفر ما دونه، فقال: اذهبوا به فقد غفرت لكم، ومات بعد ذلك بثلاث ليال.

وحدثوني عن ربعي بن حراش عن أخيه - وكان من خيار التابعين - قال: لما مات أخي سحجي بثوبه وألقيناه على نعشه، فكشف الثوب عن وجهه واستوى قاعداً، وقال إني لقيت ربي عز وجل فحياني بروح وريحان وربّي غير غضبان، وإني رأيت الأمر أيسر مما تظنون فلا تفتروا، وإن محمداً ﷺ ينتظرنى وأصحابه حتى أرجع إليهم. قال: ثم طرح نفسه فكأها كانت حصاة وقعت في طشت، فحملناه ودفناه.

وروا لي من الشعر شعراً جميلاً أنشده الإمام الخليل محمد بن إبراهيم القاسمي¹، قال فيه:

عذلي عابوا رجائي	عذلي جاراوا وتهاوا
كيف لا أرجو السذي لا	يغفر الذنب سواه
جاء في القرآن منصوصا	وكل قسدا رواه
وهو أعلى رتب الجحد	بعفو هو ما هو
قصر المدح عليه	فانظروا ذا المدح ما هو
هو حوق أو محال	أوصحح أو سواه
لا ومن لا يغفر الذنب	إن جمل سواه
إنه للحق صدقا	وصدوق من رواه
وسعيد من تلقا	بصدق ورجاه
وظلوم من يسويه	مني خباب مناه
الاماني رده الحق	اجتهدا بها سواه
أو يري أهدي من	القرآن لهجما ما رآه
ويري الباطل في	مفهومه مهماتلاه

(¹) إيثار الحق على الخلق: 357.

بجـوف ابـــــــــــــــــتلاه
عـــــــــن الخـــــــــوف ســـــــــواه
فمولانـــــــــا قـــــــــضاها
لحـــــــــما الخـــــــــوف قـــــــــضاه
ومـــــــــن خـــــــــاف رـــــــــجاه
ومـــــــــن قـــــــــد اصـــــــــطفاه
مـــــــــع وـــــــــعد رـــــــــضاه
وقـــــــــاه وکـــــــــفاه
رـــــــــجاء زور لا أراه
أَنْ رـــــــــجـــــــــاه ســـــــــواه

غـــــــــير أن الله للعبـــــــــد
لصـــــــــلاح فيـــــــــه لا يـــــــــغني
نـــــــــحمد الله عـــــــــلى الخـــــــــوف
لـــــــــو مـــــــــحا الخـــــــــوف رـــــــــجائــــــــي
مـــــــــن رـــــــــجا خـــــــــاف مـــــــــن الله
ولـــــــــذا اخـــــــــتص أولـــــــــو العـــــــــلم
بـــــــــمزيـــــــــد الخـــــــــوف لله
لـــــــــو رـــــــــجا الكـــــــــافر أو خـــــــــاف
ذا رـــــــــجائــــــــي فيـــــــــه وإلا
فـــــــــاعرف الـــــــــارجـــــــــاء تـــــــــعلم

العقل:

ثم سار بي إلى قوم من الناس .. لم يحدثوني إلا بما تسلم له العقول السليمة ..
قال لي أحدهم: تأمل¹ - يا أخي - فضل الله على عباده .. وانظر لطائف نعمه عليهم في الدنيا، وعجائب
حكمه التي راعاها في فطرة الإنسان حتى أعد له في الدنيا كل ما هو ضروري له في دوام الوجود كآلات الغذاء وما
هو محتاج إليه كالأصابع والأظفار، وما هو زينة له كاستقواس الحاجبين واختلاف ألوان العينين وحمرة الشفتين وغير
ذلك مما كان لا ينثلم بفقدته غرض مقصود.. وإنما كان يفوت به مزية جمال.
فالعناية الإلهية التي لم تقصر عن عباد الله في أمثال هذه الدقائق حتى لم يرض لعباده أن تفوتهم المزايا في
الزينة والحاجة كيف يرضى بسياقتهم إلى الهلاك المؤبد.
قال آخر: بل إذا نظر الإنسان نظراً شافياً علم أن أكثر الخلق قد همى له أسباب السعادة في الدنيا، حتى إنه يكره
الانتقال من الدنيا بالموت، وإن أخبر بأنه لا يعذب بعد الموت أبداً مثلاً أو لا يحشر أصلاً، فليست كراحتهم للعدم إلا
لأن أسباب النعم أغلب لا محالة، وإنما الذي يتمنى الموت نادر، ثم لا يتمناه إلا في حال نادرة ورافعة هاجمة غريبة، فإذا
كان حال أكثر الخلق في الدنيا الغالب عليه الخير والسلامة، فسنة الله لا تجد لها تديلاً، فالغالب أن أمر الآخرة هكذا
يكون، لأن مدبر الدنيا والآخرة واحد، وهو غفور رحيم لطيف بعباده متعطف عليهم.
قال آخر: وانظر في حكمة الشريعة وسنتها في مصالح الدنيا ووجه الرحمة للعباد بها، حتى كان بعض العارفين
يرى آية المدائنة في البقرة من أقوى أسباب الرجاء. فقيل له: وما فيها من الرجاء؟ فقال: الدنيا كلها قليل، ورزق
الإنسان منها قليل، والدين قليل عن رزقه، فانظر كيف أنزل الله تعالى فيه أطول آية ليهدي عبده إلى طريق الاحتياط في

(1) انظر: الإحياء.

حفظ دينه، فكيف لا يحفظ دينه الذي لا عوض له منه؟

وقال آخر: الناظرون بنور البصائر، المستمدون من أنوار القرآن علموا أن كل قلب سليم مقبول عند الله ومتنعم في الآخرة في جوار الله تعالى .. وعلموا ان القلب خلق سليماً في الأصل، وكل مولود يولد على الفطرة، وإنما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غيرة الذنوب وظلمتها .. وعلموا أن نار الندم تحرق تلك الغيرة، وأن نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة، وأنه لا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار، بل كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون.

وكما أن الثوب الوسخ لا يقبله الملك لأن يكون لباسه، فالقلب المظلم لا يقبله الله تعالى لأن يكون في جواره.. وكما أن استعمال الثوب في الأعمال الخسيسة يوسخ الثوب، وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لا محالة، فاستعمال القلب في الشهوات يوسخ القلب، وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ويطهره ويزكيه، وكل قلب زكي طاهر فهو مقبول، كما أن كل ثوب نظيف فهو مقبول.

لأجل كل ذلك وغيره عليك بالتوبة والتركية والتطهير .. وأما القبول فمبذول قد سبق به القضاء الأزلي الذي لا مرد له.

وقال آخر: لا تتوهم أن التوبة تصح ولا تقبل .. فإنك أن فعلت ذلك صرت كمن يتوهم أن الشمس تطلع والظلام لا يزول، والثوب يغسل بالصابون والوسخ لا يزول.

قاطعته آخر، وقال: إلا أن يغوص الوسخ لطول تراكمه في تجاويف الثوب وخلله فلا يقوى الصابون على قلعه.. فمثال ذلك أن تتراكم الذنوب حتى تصير طبعاً وريناً على القلب فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب.. نعم قد يقول باللسان نبت فيكون ذلك كقول القصار بلسانه قد غسلت الثوب.. وذلك لا ينظف الثوب أصلاً ما لم يغير صفة الثوب باستعمال ما يضاد الوصف المتمكن به.

2 - الدينونة

بعد أن أيقنت بفضل الله على عباده بمغفرة ذنوبهم من غير حاجة إلى دمك يسفك، أو اعتراف بين يدي أي أحد من خلقه .. وبعد أن امتلأت نفسي رجاء لذلك .. وصرت من حيث لا أشعر أحتقر ما وقعت فيه من الذنب بجانب فضل الله .. جاعني الفضيل، وقال: لقد عبرت المرحلة الأولى .. ولو وقفت عندها لسقطت بك في هاوية لا تغل عن الهاوية التي كنت فيها.

قلت: وما هي هذه الهاوية؟

قال: هاوية الأمان .. فالرجاء إن لم يضبط بضابط الخشية تحول إلى أمان تبع صاحبها عن الله .. لقد ذكر رسول الله ﷺ ذلك، فقال: (الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأمان)¹

بل ذكر ذلك ربنا - تبارك وتعالى - فقال محذرا لعباده: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (النساء: 123)

وقال محذرا لهم من الوقوع فيما وقع فيه أهل الكتاب من قبلهم حين سقطوا في هاوية الغرور: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالذَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأعراف: 169) .. وقال: ﴿أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (23) ذَلِكَ بَأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَعَرَّهَمُ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (24) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (25) (البقرة) .. وقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (المائدة: 18)

قلت: أراك تريد أن ترتد على ما لفتني إياه أهل الله من سعة فضل الله؟

قال: لا .. لا أريد أن أحو تلك المعرفة العظيمة التي تنطق بها كل الحقائق .. ولكني أريد أن أحفظك من سوء التعامل معها.

قلت: هل يمكن أن يسيء أحد من الناس التعامل مع الحقائق؟

قال: أجل .. وقد ضرب لنا القرآن الكريم الأمثلة على ذلك .. وكان منها مثل الذي اغتر بأيات الله التي وهبت له، فراح يسقط في أوية الهوى .. قال تعالى: ﴿وَإِلَّ عَلَىٰ نَبَأِ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْنَا مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ﴾ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (177) ﴿ (الأعراف)

(¹) رواه الترمذي وقال حديث حسن، ورواه ابن ماجه.

وكان منها مثل اليهود الذين وضعهم الله في محل أفضلية، فأرسل لهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، ليكونوا أمودجا للأمة الصالحة .. لكنهم اغتروا وراحوا يستعلون على خلق الله بما آتاهم الله من فضله .. لقد ذكر الله ذلك عنهم، ورد عليهم، فقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (89) بِسْمَا آسْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَنْ يُنَزَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (90) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تُلُونَا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين (91)﴾ (البقرة)

هذه أمثلة قرآنية .. وإن شئت أمثلة من الواقع، فلن نعدمها .. ألسنت ترى الكريمة يرتد عليه اللثيم؟

قلت: بلى .. وقد قالوا في ذلك أشعارا .. منها قول هذا الشاعر الناصح:

واجعل بطانتك الكرام فيهمم = أدرى بوجه الصالحات وأخبر
 إن الكريمة له الكرام بطانة = طابت شمائلهم وطاب العنصر
 إن لآخ خير قربوه ويسروا = أو لآخ شر باعدوه وعسروا
 أما اللثيم فحول أمثاله = قرناء سوء ليس فيهم خير
 إن لآخ خير باعدوه وعسروا = أو لآخ شر قربوه ويسروا
 ولكل كون كائنات مثله = فقبيله من جنسه والمعشر

قال: فهكذا الأمر في تعامل عباد الله مع ربه .. فمنهم من يهجم به ما يتوهمه رجاء على معصية الله .. فيغفل عن الله، ويسلك غير السبيل الذي أمر بسلوكه.

قلت: فما المخرج؟

قال: لقد سرت المرحلة الأولى التي قطعت بها حجاب اليأس والقنوط .. والآن عليك أن تسير المرحلة الثانية .. والتي تقطع بها حجاب الغرور والأمان.

قلت: فهل ستسير بي؟

قال: لقد ذكرت لك أن الله هو الذي يسير بنا .. فهل معي إلى نفر من أولياء الله لترى من أحوالهم .. وتسمع من أحاديثهم ما ييسر عليك قطع هذه المرحلة.

سرت معه إلى غابة كانت في ضاحية المدينة .. وأمام شجرة من أشجارها رأيت رجلا ممتلئا بالأنوار .. يخاطب نفسه، وكأنه يخاطب غريمه .. وكان مما سمعته منه قوله⁽¹⁾: (يا نفس .. ما أعظم جهلك .. تدعين الحكمة والذكاء والفتنة، وأنت أشد الناس غباوة وحمقا ..

أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار، وأنت صائرة إلى إحداها على القرب .. فما لك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو، وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم، وعساك اليوم تحتطفين أو غدا، فأراك ترين الموت بعيدا، ويراه الله قريبا.

(1) نقلنا هذا الخطاب مع النفس من كلام لأبي حامد في الإحياء .. وفيه من التصرف ما يقتضيه المقام.

أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب، وأن البعيد ما ليس بآت ..

أما تعلمين أن الموت يأتي بغتة من غير تقديم رسول، ومن غير مواعدة ومواطأة، وأنه لا يأتي في شيء دون شيء، ولا في شتاء دون صيف، ولا في صيف دون شتاء، ولا في نهار دون ليل، ولا في ليل دون نهار، ولا يأتي في الصبا دون الشباب، ولا في الشباب دون الصبا، بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة.. فإن لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة، ثم يفضى إلى الموت.. فما لك لا تستعدين للموت، وهو أقرب إليك من كل قريب.

ويحك يا نفس .. إن كانت جراتك على معصية الله لاعتقادك أن الله لا يراك، فما أعظم كفرك، وإن كان مع علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقل حياءك.

ويحك يا نفس .. لو واجهك أخ من إخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ومقتك له، فبأي حسارة تتعرضين لمقت الله وغضبه وشديد عقابه .. أفتظنين أنك تطيقين عذابه .. هيهات هيهات جربي نفسك إن أهلك البطر عن أليم عذابه فاحتبسي ساعة في الشمس أو قربي أصبعك من النار ليتبين قدر طاقتك ..

أتعترين بكرم الله وفضله واستغنائته عن طاعتك وعبادتك، فما لك لا تعولين على كرم الله تعالى في مهمات دنياك، فإذا قصدك عدو فلم تستبطين الحيل في دفعه ولا تكلينه إلى كرم الله تعالى.. وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقضى إلا بالدينار والدرهم فما لك تترعين الروح في طلبها وتحصيلها من وجوه الحيل فلا تعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كنز أو يسخر عبدا من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سعي منك ولا طلب أفتحسبين أن الله كريم في الآخرة دون الدنيا، وقد عرفت أن سنة الله لا تبدل لها، وأن رب الآخرة والدنيا واحد، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى.

ويحك يا نفس .. ما أعجب نفاقك ودواعيك الباطلة، فإنك تدعين الإيمان بلسانك، وأثر النفاق ظاهر عليك: ألم يقل لك سيدك ومولاك: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (هود:6) بينما قال في شأن الآخرة: ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ (نجم:39) .. فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة وصرفتك عن السعى فيها فكذبته بأفعالك، وأصبحت تتكالبين على طلبها تكالب المدهوش المستهتر.. ووكّل أمر الآخرة إلى سعيك فأعرضت عنها إعراض المغرور المستحقر .. ما هذا من علامات الإيمان، لو كان الإيمان باللسان فلم كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار؟

ويحك يا نفس .. كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب، وتظنين أنك إذا مت انفلت وتخلصت .. وهيهات هيهات .. أتحسبين أنك تتركين سدى؟ .. ألم تكوني نطفة من منى بمنى، ثم كنت علقة فخلقك ربك فسوى .. أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ .. فإن كان هذا من إضمارك فما أكفرك وأجهلك.. أما تتفكرين أنه مماذا خلقتك: من نطفة خلقتك فقدرك، ثم السبيل يسرك، ثم أمانتك فأقبرك، أفتكذبينه في كونه إذا شاء أنشرك .. فإن لم تكوني مكذبة، فما لك لا تأخذين حذرک، ولو أن يهوديا أحرك في ألد أطعمتك بأنه يضرك في مرضك لصبرت عنه وتركته وجاهدت نفسك فيه .. أفكان قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات وقول الله تعالى في كتبه المنزلة أقل عندك تأثيرا من قول يهودي يخبرك عن حدس وتخمين وظن مع نقصان عقل وقصور علم ..

بل العجب أنه لو أخبرك طفل بأن في ثوبك عقربا لرميت ثوبك في الحال من غير مطالبة له بدليل وبرهان، أفكان

قول الأنبياء والعلماء والحكماء وكافة الأولياء أقل عندك من قول صبي من جملة الأغبياء، أم صار حر جهنم وأغلاها وأنكلها وزقومها ومقامعها وصديدها وسمومها وأفاعيها وعقاربها أحقر عندك من عقرب لا تحسبن بألمها إلا يوماً أو أقل منه؟

ما هذه أفعال العقلاء .. بل لو انكشف للبهائم حالك لضحكوا منك وسخروا من عقلك، فإن كنت يا نفس قد عرفت جميع ذلك وأمنت به فما لك تسوفين العمل والموت لك بالمرصاد ولعله يخطفك من غير مهلة، فبماذا أمنت استعجال الأجل، وهبك أنك وعدت بالإمهال مائة سنة أفنظنين أن من يطعم الدابة في حضيض العقبة يفلح ويقدر على قطع العقبة بها .. إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك.

أرأيت لو سافر رجل ليتفق في الغربية فأقام فيها سنين متعطلاً بطالا يعد نفسه بالتفقه في السنة الأخيرة عند رجوعه إلى وطنه، هل كنت تضحكين من عقله وظنه أن تفقيه النفس مما يطمع فيه بمدة قريية أو حسبانة أن مناصب الفقهاء تنال من غير تفقه اعتماداً على كرم الله سبحانه وتعالى ..

ثم هي أن الجهد في آخر العمر نافع، وأنه موصل إلى الدرجات العلاء، فلعل اليوم آخر عمرك، فلم تشتغلين فيه بذلك؟

فإن أوحى إليك بالإمهال .. فما المانع من المبادرة؟ وما الباعث لك على التسويف؟ هل له سبب إلا عجزك عن مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والمشقة؟ أفنتظرين يوماً يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات؟ هذا يوم لم يخلقه الله قط ولا يخلقه، فلا تكون الجنة قط إلا محفوفة بالمكاره، ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس .. وهذا محال وجوده.

أما تتأملين مذكم تعدين نفسك، وتقولين غدا غدا فقد جاء الغد وصار يوماً، فكيف وجدته؟

أما علمت أن الغد الذي جاء وصار يوماً كان له حكم الأمس .. لا بل الذي تعجزين عنه اليوم فأنت غدا عنه أعجز وأعجز .. لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التي تعبد العبد بقلعها، فإذا عجز العبد عن قلعها للضعف وأخرها كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شاب قوى فأخرها إلى سنة أخرى مع العلم بأن طول المدة يزيد الشجرة قوة ورسوخاً، ويزيد القالع ضعفاً ووهناً، فما لا يقدر عليه في الشباب لا يقدر عليه قط في المشيب، بل من العناء رياضة الهرم، ومن التعذيب تهذيب الذيب، والقضيب الرطب يقبل الانحاء، فإذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك؟

فإذا كنت أيتها النفس لا تفهمين هذه الأمور الجليلة وتركبين إلى التسويف، فما بالك تدعين الحكمة وأية حماقة تزيد على هذه الحماقة؟

لعلك تقولين: ما يمنعني عن الاستقامة إلا حرصي على لذة الشهوات، وقلة صبري على الآلام والمشقات، فما أشد غباوتك وأقبح اعتذارك؟ إن كنت صادقة في ذلك فاطلبي التمتع بالشهوات الصافية عن الكدورات الدائمة أبد الآباد ولا مطمع في ذلك إلا في الجنة، فإن كنت ناظرة لشهواتك فالنظر لها في مخالفتها، فرب أكلة تمنع أكالات، وما قولك في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح ويهنأ بشربة طول عمره وأخبره أنه إن شرب ذلك مرض مرضاً مزمناً وامتنع عليه شربه طول العمر فما مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة، أيصير ثلاثة أيام ليتعم طول العمر، أم يقضى شهوته في الحال خوفاً من ألم المخالفة ثلاثة أيام حتى يلزمه ألم المخالفة ثلاثمائة يوم وثلاثة آلاف يوم وجميع عمرك بالإضافة إلى الأبد الذي هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر وإن طالت مدته؟

وليت شعري ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة أو ألم النار في دركات جهنم فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله .. ما أراك تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفر خفى أو لحق جلي: أما الكفر الخفى، فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب. وأما الحق الجلي فاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه من غير التفات إلى مكره واستدراجه واستغناؤه عن عبادتك مع أنك لا تعتمدين على كرمه في لقمة من الخبز أو حبة من المال أو كلمة واحدة تسمعيها من الخلق، بل تتوصلين إلى غرضك في ذلك بجميع الحيل، وبهذا الجهل تستحقين لقب الحمافة من رسول الله ﷺ حيث قال: (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأمان)¹ ويحك يا نفس .. لا ينبغي أن تغرك الحياة الدنيا، ولا يغرنك بالله الغرور .. فانظري لنفسك فما أمرك بهمهم لغريك، ولا تضيعي أوقاتك .. فالأنفاس معدودة، فإذا مضى منك نفس فقد ذهب بعضك، فاعتنى الصحة قبل السقم، والفراغ قبل الشغل، والغنى قبل الفقر، والشباب قبل الهرم، والحياة قبل الموت، واستعدي للأخرة على قدر بقائك فيها.

يا نفس .. أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته، فتجمعين له القوت والكسوة والخطب وجميع الأسباب ولا تتكئين في ذلك على فضل الله وكرمه حتى يدفع عنك البرد من غير جبة ولبد وخطب وغير ذلك، فإنه قادر على ذلك، أفنظنين أيتها النفس أن زمهرير جهنم أخف بردا وأقصر مدة من زمهرير الشتاء؟ أم تظنين أن ذلك دون هذا؟ كلا أن يكون هذا كذلك أو أن يكون بينهما مناسبة في الشدة والبرودة أفنظنين أن العبد ينجو منها يغير سعي؟ هيهات كما لا يندفع برد الشتاء إلا بالجبة والنار وسائر الأسباب فلا يندفع حر النار ويردها إلا بحصن التوحيد وخذق الطاعات، وإنما كرم الله تعالى في أن عرفك طريق التحصن ويسر لك أسبابه، لا في أن يندفع عنك العذاب دون حصنه كما أن كرم الله تعالى في دفع برد الشتاء أن خلق النار وهداك لطريق استخراجها من بين حديدة وحجر حتى تدفعي بها برد الشتاء عن نفسك، وكما ان شراء الخطب والجبة مما يستغنى عنه خالقك ومولاك وإنما تشتريه لنفسك إذ خلقه سببا لاستراحتك فطاعاتك ومجاهداتك أيضا هو مستغن عنها وإنما هي طريقك إلى نجاتك فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها والله غني عن العالمين؟

ويحك يا نفس .. انزعي عن جهلك، وقبسي آخرتك بدنياك، فما خلقتكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة، وكما بدأنا أول خلق نعيده، وكما بدأكم تعودون، وسنة الله تعالى لا تجدين لها تبديلا ولا تحويلا. ويحك يا نفس .. ما أراك إلا ألقت الدنيا، وأنست بها، فعسر عليك مفارقتها، وأنت مقبلة على مقاربتها، وتؤكدين في نفسك مودتها، فاحسن أنك غافلة عن عقاب الله وثوابه وعن أهوال القيامة وأحوالها فما أنت مؤمنة بالموت المفرق بينك وبين محبابك، أفترين أن من يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر فمد بصره إلى وجه مليح يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه ثم يضطر لا محالة إلى مفارقتها هو معدود من العقلاء أم من الحمقى؟ أما تعلمين أن الدنيا دار الملك الملوك ومالك فيها إلا مجاز وكل ما فيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت. ويحك يا نفس .. أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا ويأنس بها مع أن الموت من ورائه وإنما يستكثر من

(¹) رواه الترمذي وقال حديث حسن، ورواه ابن ماجه.

الحسرة عند المفارقة، وإنما يتزود من السم المهلك وهو لا يدري؟. أو ما تنظرين إلى الذين مضوا كيف بنوا وعلوا ثم ذهبوا وخلوا وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداءهم؟ أما ترينهم كيف يجمعون ما لا يأكلون وينون ما لا يسكنون ويؤمنون ما لا يدركون؟ بيني كل واحد قصرا مرفوعا إلى جهة السماء ومقره قبر محفور تحت الأرض، فهل في الدنيا حمق وانتكاس أعظم من هذا؟ يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقينا، ويجرب آخرته وهو صائر إليها قطعاً.

أما تستحيين يا نفس من مساعدة هؤلاء الحمقى على حماقتهم، واحسبي أنك لست ذات بصيرة تهتدى إلى هذه الأمور، وإنما تميلين بالطبع إلى التشبه والافتداء، فقيسى عقل الأنبياء والعلماء والحكماء بعقل هؤلاء المنكبين على الدنيا، واقتدى من الفريقين بمن هو أعقل عندك إن كنت تعتقدين في نفسك العقل والذكاء.

يا نفس .. ما أعجب أمرك وأشد جهلك وأظهر طغيانك .. عجبا لك كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجلية، ولعلك يا نفس أسكرك حب الجاه وأدهشك عن فهمها .. أو ما تتفكرين أن الجاه لا معنى له إلا ميل القلوب من بعض الناس إليك .. فاحسبي أن كل من على وجه الأرض سجد لك وأطاعك، أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا تبقى أنت ولا أحد ممن على وجه الأرض ممن عبدك وسجد لك؟ وسيأتي زمان لا يبقى ذكرك ولا ذكر من ذكرك كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك، فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا؟ فكيف تبيعين يا نفس ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة؟

فإن كنت يا نفس لا تتركين الدنيا رغبة في الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك، فما لك لا تتركينها ترفعا عن حسرة شركائها، وتنزها عن كثرة عنائها، وتوقيا من سرعة فنائها؟

أم ما لك لا ترهدين في قليلها بعد أن زهد فيك كثيرها، وما لك تفرحين بدنيا إن ساعدتك، فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها، ويزيدون عليك في نعيمها وزيتها .. فأف لندنيا يسبقك بها هؤلاء الأخصاء، فما أجهلك وأخس همتك وأسقط رأيك إذ رغبت عن أن تكوني في زمرة المفرين من النبيين والصدقيين في جوار رب العالمين أبد الآبدين لتكوني في صف النعال من جملة الحمقى الجاهلين أياما قلائل .. فيا حسرة عليك إن خسرت الدنيا والدين ..

فيادري، ويحك يا نفس، فقد أشرفت على الهلاك واقترب الموت وورد النذير فمن ذا يصلى عنك بعد الموت؟ ومن ذا يصوم عنك بعد الموت؟ ومن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت؟

ويحك يا نفس .. مالك إلا أيام معدودة هي بضاعتك، إن اتجرت فيها وقد ضيعت أكثرها، فلو بكيته بكية عمرك على ما ضيعت منها لكنت مقصرة في حق نفسك، فكيف إذا ضيعت البقية، وأصررت على عادتك؟

أما تعلمين يا نفس أن الموت موعدك، والقبر بيتك والتراب فراشك، والدود أنيسك، والفرع الأكبر بين يديك؟ أما علمت يا نفس أن عسكر الموتى عندك على باب البلد ينتظرونك وقد ألوا على أنفسهم كلهم بالأيمان المغلظة

أهم لا يبرحون من مكائهم ما لم يأخذوك معهم؟

أما تعلمين يا نفس أنهم يتمنون الرجعة إلى الدنيا يوما ليشغلوا بتدارك ما فرط منهم، وأنت في أمنيتهم ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بخدافيرها لا شتره لو قدروا عليه، وأنت تضيعين أيامك في الغفلة والبطالة؟

ويحك يا نفس .. أما تستحيين ترينين ظاهرك للخلق، وتبارزين الله في السر بالعظائم، أفستستحيين من الخلق ولا تستحيين من الخالق؟

ويحك .. أهو أهون الناظرين عليك؟ أتأمرين الناس بالخير وأنت متلطخة بالذرائل تدعين إلى الله وأنت عنه فارة؟ وتذكرين بالله وأنت له ناسية؟ أما تعلمين يا نفس أن المذنب أتت من العذرة، وأن العذرة لا تطهر غيرها فلم تطمعين في تطهير غيرك وأنت غير طيبة في نفسك؟

ويحك يا نفس .. لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت أن الناس ما يصيبهم بلاء إلا بشؤمك.
ويحك يا نفس .. قد جعلت نفسك حمارا لإبليس يقودك إلى حيث يريد ويسخر بك، ومع هذا فتعجبين بعملك، وفيه من الآفات ما لو نجوت منه رأسا برأس لكان الربح في يديك.
وكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك وزلللك وقد لعن الله إبليس بخيئته واحدة بعد أن عبده مائتي ألف سنة، وأخرج آدم من الجنة بخيئته واحدة مع كونه نبيه وصفيه.

ويحك يا نفس ما أغدرك .. ويحك يا نفس ما أوقحك .. ويحك يا نفس ما أجهلك وما أجرأك على المعاصي .. ويحك كم تعقدين فتنقضين .. ويحك كم تعهدين فتغدرين .. ويحك يا نفس أتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك كأنك غير مرتحلة عنها؟ أما تنظرين إلى أهل القبور كيف كانوا جمعوا كثيرا وبنوا مشيدا وأملوا بعيدا فأصبح جمعهم بورا وبنياهم قبورا وأملهم غرورا؟

ويحك يا نفس أما لك بهم عبرة؟ أما لك إليهم نظرة؟ أتظنين أنهم دعوا إلى الآخرة وأنت من المخلدين؟ هيئات هيئات ساء ما توهمين .. ما أنت إلا في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك .. فابني على وجه الأرض قصرك فإن بطنها عن قلبك يكون قبرك ..

أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراقى أن تبدو رسل ربك منحدرة إليك بسواد الألوان وكلح الوجوه وبشرى بالعذاب، فهل ينفعلك حينئذ الندم، أو يقبل منك الحزن، أو يرحم منك البكاء؟
العجب كل العجب منك يا نفس أنك مع هذا تدعين البصيرة والفضيلة .. ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك، ولا تحزينين بنقصان عمرك .. وما نفع مال يزيد وعمر ينقص.

ويحك يا نفس .. تعرضين عن الآخرة وهي مقبلة عليك، وتقبلين على الدنيا وهي معرضة عنك، فكم من مستقبل يوما لا يستكمه؟ وكم من مؤمل لغد لا يبلغه؟ فأنت تشاهدين ذلك في إخوانك وأقاربك وجيرانك فترين تحسره عند الموت، ثم لا ترجعين عن جهالتك .. فاحذري أيتها النفس المسكينة يوما آلى الله فيه على نفسه أن لا يترك عبد أمره في الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله دقيقه وجليله سره وعلايته، فانظري يا نفس بأى بدن تقفين بين يدي الله، وبأى لسان تجيبين وأعدى للسؤال جوابا، وللجواب صوابا، واعلمي بقية عمرك في أيام قصار لأيام طوال وفي دار زوال لدار مقامة وفي دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود.

اعلمى قبل أن لا تعملى .. اخرجى من الدنيا اختيارا خروج الأحرار قبل أن تخرجى منها على الاضطرار .. ولا تفرحى بما يساعذك من زهرات الدنيا، فرب مسرور مغبون، ورب مغبون لا يشعر، فويل لمن له الويل ثم لا يشعر، يضحك ويفرح ويلهو ويمرح ويأكل ويشرب وقد حق له في كتاب الله أنه من وقود النار .. فليكن نظرك يا نفس إلى الدنيا اعتبارا، وسعيك لها اضطرارا، ورفضك لها اختيارا، وطلبك للآخرة ابتدارا، ولا تكونى ممن يعجز عن شكر ما أوتى، ويتغنى الزيادة فيما بقى، وينهى الناس ولا ينتهى.

واعلمى يا نفس أنه ليس للدين عوض، ولا للإيمان بدل، ولا للحسد خلف، ومن كانت مطيته الليل والنهار فإنه

يسار به وإن لم يسر.

فاتعظى يا نفس بهذه الموعظة، واقبلى هذه النصيحة .. فإن من أعرض عن الموعظة فقد رضى بالنار..)

هزني هذا الكلام هزا، فالتفت إلى الفضيل الذي كانت عيناه تغرورقان بالدموع، وقلت: من هذا؟ .. وماذا يفعل؟

قال: هذا رجل من أهل الله .. كان مسرفا على نفسه .. وكانت له أم صالحة .. وكانت لا تكف عن وعظه، تقول له: يا بني اذكر مصارع الغافلين قبلك، وعواقب البطالين قبلك، اذكر نزول الموت .. وكان يقول لها إذا ألحت عليه:

كفي عن التعذال أخبرنا واللوم = واستيقظي يا من سنة النوم

إني وإن تابعت في لذتي = قلبي وعاصيتك لو في لومي

أرجو من افضاله توبة = تنقل من قوم إلى قوم

فلم يزل كذلك حتى قدم رجل من أهل الله يقال له (أبو عامر البناي)، وكان واعظ أهل الحجاز، ووافق قدومه رمضان، فسأله إخوانه أن يجلس لهم في مسجد رسول الله ﷺ فأجابهم، وجلس ليلة الجمعة بعد انقضاء التراويح، واجتمع الناس، وجاء الفتى فجلس مع القوم، فلم يزل أبو عامر يعظ وينذر ويبشر إلى أن ماتت القلوب فرقا واشتاقات النفوس إلى ربها وإلى فضل ربها .. فوقع الموعظة في قلبه .. فتغير لونه، ثم نهض إلى أمه فبكى عندها طويلا، ثم قال:

زمت للتوبة أجمالي = ورحت قد طاوعت عذالي

وأبت والتوبة قد فتحت = من كل عضو لي أفعالي

لما حدا الحادي بقلبي إلى = طاعة ربي فك أغلالي

أجبتك لبيك من موقظ = نبه بالتذكار سعيد أغفالي

كر يا أم هل يقبلني سيدي = على الذي قد كان من حالي

واسوءتا قد إن ردي خائبا = ربي ولم يرض بإقبالي

ثم قال: (إلهي عصيتك قويا، وأسخطتك جلدا .. وها أنا أريد التوجه إليك، وأنا ضعيف .. وأريد خدمتك وأنا نحيف .. فليت شعري هل تقبلني؟)

قال ذلك .. ثم جد في العبادة واجتهد .. إلى أن لاحت عليه أنوارها .. وامتأ قلبه بأسراها.

بعد أن انتهى الرجل من حسابه لنفسه، اقتربنا منه، وقلت له: كأني بك لم تسمع ما ورد في سعة فضل الله ..

فلذلك أراك تحاسب نفسك محاسبة الغريم .. بل تحاسبها محاسبة العدو لعدوه.

قال: وما لي لا أحاسبها .. وقد جربتتها عندما أرخيت لها العنان، فأسقطتني في المهالك التي لولا أن الله أنقذني

منها لكننت من الهالكين ..

قال ذلك، ثم نظر إلى الأفق البعيد، وراح يردد بصوت ممتلي بمشجحة الدموع¹: إن الله عباداً نصبوا أشجار الخطايا نصب رواق القلوب، وسقوها بماء التوبة فأثمرت ندماً وحنناً، فحنوا من غير جنون، وتبدلوا من غير عي ولا بكم، وإثمهم هم البلغاء الفصحاء العارفون بالله ورسوله، ثم شربوا بكأس الصفاء فورثوا الصبر على طول البلاء، ثم تولت قلوبهم في الملوكوت وجالت أفكارهم بين سرايا حجب الجبروت، واستظلوا تحت رواق الندم وقرؤوا صحيفة الخطايا فأورثوا أنفسهم الجزع حتى وصلوا إلى علو الزهد بسلم الورع، فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا، واستلأنوا خشونة المضجع حتى ظفروا بمجل النجاة وعروة السلامة، وسرحت أرواحهم في العلا حتى أنأخوا في رياض النعيم وخاضوا في بحر الحياة ورددوا خنادق الجزع وعبروا جسور الهوى حتى نزلوا بفناء العلم واستقوا من غدير الحكمة وركبوا سفينة الفطنة وأقلعوا بريح النجاة في بحر السلامة حتى وصلوا إلى رياض الراحة ومعدن العز والكرامة، فهذا القدر كاف في بيان أن كل توبة صحيحة مقبولة لا محالة.

قلت: أفلا تحدثني بالذي حركك إلى هذه الحال .. فيأني أجد قلبي قاسياً دوئها.

قال: لقد حدثني شيخي (أبا عامر البناني) الذي فتح الله قلبي على يديه أن الناس في الآخرة ينقسمون إلى أربعة أصناف²: هالكين، ومعدنين، وناجين، وفائزين.

وضرب لي مثلاً على ذلك من الدنيا بأن أي حاكم إذا استولى على إقليم من الأقاليم، فإنه يقتل بعضهم، وهم الهالكون، ويعذب بعضهم مدة ولا يقتلهم فهم المعذبون، ويحلى بعضهم فهم الناجون، ويخلص على بعضهم فهم الفائزون.

وهكذا، فإن الناس في الآخرة هكذا يتفاوتون، فمن هالك، ومن معذب مدة، ومن ناج يحل في دار السلامة ومن فائز.

والفائزون ينقسمون إلى من يحلون في جنات عدن، أو جنات المأوى، أو جنات الفردوس.

والمعذبون ينقسمون إلى من يعذب قليلاً، وإلى من يعذب ألف سنة .. وإلى من يعذب أكثر من ذلك. وكذلك الهالكون الآيسون من رحمة الله تتفاوت درجاتهم.

قلت: فحدثني عن رتبة الهالكين³ .. ومن هم أهلها؟

قال: لقد ذكر لي شيخي عن أشياخه أن هذه الرتبة لا تكون إلا للجاحدين، والمعرضين المتجردين للدنيا، المكذبين بالله ورسوله وكتبه .. فإن السعادة الأخروية في القرب من الله والنظر إلى وجهه، وذلك لا ينال أصلاً إلا بالمعرفة التي يعبر عنها بالإيمان والتصديق، والجاحدون هم المنكرون، والمكذبون هم الآيسون من رحمة الله تعالى أبد الآباد وهم الذين يكذبون برب العالمين وبأنبيائه المرسلين، إثمهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون لا محالة، وكل محجوب من محبوبه فمحجوب بينه وبين ما يشتهي لا محالة فهو لا محالة يكون محترقاً نار جهنم بنار الفراق، ولذلك قال العارفون: (ليس خوفنا من نار جهنم، ولا رجاؤنا للحدود العين، وإنما مطالبنا للقاء، ومهربنا من الحجاب فقط)، وقالوا: (من

(1) هذا الكلام في الحقيقة لذي النون المصري، وسنرى أحاديث افتراضية معه نتعرف عليه من خلالها في الرسائل التالية من هذه السلسلة.

(2) استفدنا المعاني التي نذكرها هنا من (الإحياء) من (كتاب التوبة)، وتصرفنا فيها بما يقتضيه المقام.

(3) تحدثنا عن الرحمة الخاصة بهذا الصنف في رسالة (أسرار الأقدار) من سلسلة (عيون الحقائق) من (رسائل السلام)

يعبد الله بعوض فهو لئيم، كأن يعبده طلب حنته أو لخوف ناره، بل العارف يعبده لذاته فلا يطلب إلا ذاته فقط، فأما الحور العين والفواكه فقد لا يشتهيها، وأما النار فقد لا يتقيها، إذ نار الفراق إذا استولت على قلبه ربما غلبت النار الحارقة للأجسام، فإن نار الفراق نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة، ونار جهنم لا شغل لها إلا مع الأجسام، وألم الأجسام يستحقر مع ألم الفؤاد)

قلت: عرفت هذه الرتبة .. وامتلاً قلبي مخافة منها .. فحدثني عن رتبة المعذبين.. ومن هم أهلها؟
قال: لقد ذكر لي شيعي عن أشياخه أن هذه الرتبة هي رتبة من تحلى بأصل الإيمان، ولكن قصر في الوفاء بمقتضاه، فإن رأس الإيمان هو التوحيد، وهو أن لا يعبد إلا الله، ومن اتبع هواه فقد اتخذ إلهه هواه، فهو موحد بلسانه لا بالحقيقة..

لقد رتب الله الاستقامة على الإيمان، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الاحقاف:13)، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت:30)

ولما كان الصراط المستقيم الذي لا يكون التوحيد إلا بالاستقامة عليه أدق من الشعر وأحد من السيف مثل الصراط الموصوف في الآخرة، فلا ينفك بشر عن ميل عن الاستقامة ولو في أمر يسير، إذ لا يخلو عن اتباع الهوى ولو في فعل قليل، وذلك قادح في كمال التوحيد بقدر ميله عن الصراط المستقيم، فذلك يقتضي لا محالة نقصاناً في درجات القرب، ومع كل نقصان ناران: نار الفراق لذلك الكمال الفائت بالنقصان، ونار جهنم كما وصفها القرآن، فيكون كل مائل عن الصراط المستقيم معذباً مرتين من وجهين.

ولكن شدة ذلك العذاب وخفته وتفاوته بحسب طول المدة إنما يكون بسبب أمرين، أحدهما: قوة الإيمان وضعفه، والثاني: كثرة اتباع الهوى وقتله، وإذ لا يخلو بشر في غالب الأمر عن واحد من الأمرين، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ (مریم:71)

ولذلك قال أولياء الله العارفين به: (إنما خوفنا لأننا تيقنا أننا على النار واردون وشككنا في النجاة) ولذلك، فإن مدة الورد تختلف بحسب استقامة العبد .. فقد يجوز بعضهم على النار كبرق خاطف ولا يكون له فيها لبث، بين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة درجات متفاوتة من اليوم والأسبوع والشهر وسائر المدد وأن الاختلاف بالشدة لا نهاية لأعلاه، وأدناه التعذيب بالمناقشة في الحساب.. كما أن الملك - في الدنيا - قد يعذب بعض المقصرين في الأعمال بالمناقشة في الحساب ثم يعفو، وقد يضرب بالسياط، وقد يعذب بنوع آخر من العذاب.

ويتطرق إلى العذاب اختلاف ثالث في غير المدة والشدة، وهو اختلاف الأنواع، إذ ليس من يعذب بمصادرة المال فقط كمن يعذب بأخذ المال، وقتل الولد، واستباحة الحرم، وتعذيب الأقارب، والضرب .. فهذه الاختلافات ثابتة في عذاب الآخرة دل عليها قواطع الشرع، وهي بحسب اختلاف قوة الإيمان وضعفه وكثرة الطاعات وقتلتها وكثرة السيئات وقتلتها.

أما شدة العذاب فبشدة قبح السيئات وكثرتها، وأما كثرته فبكثرتها، وأما تنوعه، فبحسب اختلاف أنواع السيئات.

وهذا هو المعنى الذي يشير إليه قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾

(فصلت:46)، وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نُجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (غافر:17)، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (النجم:39)، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ (6) ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (7) ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (8) (الزلزلة)، إلى غير ذلك مما ورد في النصوص المقدسة من كون العقاب والثواب جزاء على الأعمال .. وكل ذلك بعدل لا ظلم فيه، وجانب العفو والرحمة أرجح¹.

قلت: فهل فصل لك شيخك بعض أسباب العذاب؟

قال: لقد ذكر لي عن أشياخه أن التفصيل المرتبط بأجزية الأعمال، وأنواع العذاب المرتبط بها لا يعرف إلا ظناً، ومستنده ظواهر الأخبار، ونوع من الحلدس الذي يستمد من أنوار الاستبصار بعين الاعتبار².

قلت: فهلا ذكرت لي ما عساه يلين من قبي ما قسا؟

قال: لقد ذكر لي أن كل من أحكم أصل الإيمان، واجتنب جميع الكبائر، وأحسن جميع الفرائض من الأركان التي جاء بها الإسلام، ولم يكن منه إلا صغائر متفرقة لم يصير عليها .. فإن هذا يشبه أن يكون عذابه المناقشة في الحساب فقط.. فإنه إذا حوسب رجحت حسناته على سيئاته، إذ ورد في الأخبار أن الصلوات الخمسة والجمعة وصوم رمضان كفارات لما بينهن، وكذلك اجتناب الكبائر بحكم نص القرآن مكفراً للصغائر، وأقل درجات التكفير أن يدفع العذاب إن لم يدفع الحساب، وكل من هذا حاله فقد ثقلت موازينه، فينبغي أن يكون بعد ظهور الرجحان في الميزان وبعد الفراغ من الحساب في عيشة راضية.

نعم التحاقه بأصحاب اليمين أو المقربين ونزوله في جنات عدن أو في الفردوس الأعلى، يتبع أصناف الإيمان، لأن الإيمان إيمانان: تقليدي كإيمان العوام يصدقون بما يستمعون ويستمرون عليه، وإيمان كشفي يحصل بانسراح الصدر بنور الله حتى ينكشف فيه الوجود كله على ما هو عليه، فيتضح أن الكل إلى الله مرجعه ومصيره، فهذا الصنف هم المقربون النازلون في الفردوس الأعلى، وهم على غاية القرب من الملائ الأعلى.

هذا صنف من يناقش الحساب .. وهم من وقاهم الله من الوقوع في الكبائر ..

أما من ارتكب كبيرة أو كبائر، أو أهمل بعض أركان الإسلام، فإن تاب توبةً نصوحاً قبل قرب الأجل التحق بمن لم يرتكب، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والثوب المغسول كالذي لم يتوسخ أصلاً.

(1) انظر: رسالة (أسرار الأقدار) من سلسلة (عيون الحقائق) من (رسائل السلام)

(2) بعد أن ذكر الغزالي ما يمكن أن يستدل به على توزع الدرجات في هذا الباب، عقب على ذلك بقوله: (وكل ذلك حكم بظاهر أسباب يضاهي حكم الطبيب على مريض بأنه يموت لا محالة ولا يقبل العلاج، وعلى مريض آخر بأن عارضه خفيف وعلاجه هين، فإن ذلك يظن يصيب في أكثر الأحوال، ولكن تثوب إلى المشرف على الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب، وقد يساق إلى ذي العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه، وذلك من أسرار الله تعالى الخفية في أرواح الأحياء وغموض الأسباب التي رتبها مسبب الأسباب بقدر معلوم، إذ ليس في قوة البشر الوقوف على كنهها، فكذلك النجاة والفوز في الآخرة لهما أسباب خفية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها، يعبر عن ذلك السبب الخفي المفضي إلى النجاة بالعفو والرضا وعمسا يفضي إلى الهلاك بالغضب والانتقام، ووراء ذلك سر المشيئة الإلهية الأزلية التي لا يطلع الخلق عليها، فلذلك يجب علينا أن نجوز العفو عن العاصي وإن كثرت سيئاته الظاهرة والغضب على المطيع وإن كثرت طاعاته الظاهرة، فإن الاعتماد على التقوى في القلب، وهو أغمض من أن يطلع عليه صاحبه فكيف غيره) (انظر: الإحياء)

أما إن مات قبل، فإن أمره مخاطر عند الموت، إذ ربما يكون موته على الإصرار سبباً لتزلزل إيمانه، فيختم له بسوء الخاتمة، لا سيما إذا كان إيمانه تقليدياً، فإن التقليد وإن كان جازماً فهو قابل للانحلال بأدنى شك وخيال، والعارف البصير أبعد أن يخاف عليه سوء الخاتمة، وكلاهما إن ماتا على الإيمان يعذبان - إلا أن يعفو الله - عذاباً يزيد على عذاب المناقشة في الحساب، وتكون كثرة العقاب من حيث المدة بحسب كثرة مدة الإصرار، ومن حيث الشدة بحسب قبح الكبائر، ومن حيث اختلاف أصناف السيئات، وعند انقضاء مدة العذاب ينزل البله المقلدون في درجات أصحاب اليمين، والعارفون المستبصرون في أعلى عليين.

وقد حدثني عن أشياخه أن أكثر ما يدخل الموحدين النار مظالم العباد، فديوان العباد هو الديوان الذي لا يترك، فأما بقية السيئات، فيتسارع العفو والتكفير إليها، ففي الحديث، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: (أتدرون ما المفلس؟) قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: (إن المفلس من أمي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فinit حسناته، قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم، فطرحته عليه، ثم طرح في النار)¹

وقال ﷺ: (لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم)²

قلت: عرفت هذه الرتبة .. فحدثني عن رتبة الناجين.. ومن هم أهلها؟

قال: لقد ذكر لي شيخي عن أشياخه أن هذه الرتبة هي رتبة من لم يخدموا فتخلع عليهم الجوائز، ولم يقصروا فيعذبوا.

قلت: فهل يوجد مثل هؤلاء؟

قال: لقد ذكر لي شيخي عن أشياخه أن هذا حال المجانين والصبيان من الكفار والمعتهين والذين لم تبلغهم الدعوة في أطراف البلاد³، وعاشوا على البله وعدم المعرفة، فلم يكن لهم معرفة ولا حدود، ولا طاعة ولا معصية، فلا وسيلة تقربهم ولا جناية تبعدهم، فما هم من أهل الجنة ولا من أهل النار، بل ينزلون في منزلة بين المنزلتين ومقام بين المقامين عبر الشرع عنه بالأعراف.

وقد ذكر لي شيخي عن أشياخه أن حلول طائفة من الخلق فيه معلوم يقيناً من الآيات والأخبار ومن أنوار الاعتبار؛ فأما الحكم على العين كالحكم مثلاً بان الصبيان منهم؛ فهذا مظنون وليس بمستيقن؛ والاطلاع عليه تحقيقاً في عالم النبوة.

قلت: على العموم .. لا علاقة لي بهذه الرتبة .. فحدثني عن الرتبة الأخير .. تلك الرتبة التي ذكرت أنها رتبة

الفائزين.

(1) رواه أحمد ومسلم والترمذي.

(2) رواه أبو داود.

(3) هذا مذهب كثير من العلماء في هذه المسألة .. وهناك مذاهب أخرى ذكرناها بالتفصيل في رسالة (أسرار الأقدار)، وقد رأينا أن الأرجح فيها خلاف هذا القول .. وهو أن الله - بحسب ما ورد في كثير من النصوص - يكلف هؤلاء ببعض التكليف، فإن نجحوا فيها دخلوا الجنة وإلا أصابهم العذاب ..

قال: الفائزون هم المقربون السابقون .. الذين ذكرهم الله، وذكر نعيمهم فقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11) فِي حَتَّاتِ النَّعِيمِ (12) ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى (13) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (14) عَلَى سُرْرٍ مَوْضُوعَةٍ (15) مُتَّكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (16) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (17) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (18) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْفَوْنَ (19) وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (20) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (21) وَحُورٍ عِينٍ (22) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (23) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا (25) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (26)﴾ (الواقعة)

وذكر نعيمهم، فقال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة:17) وذكروهم رسول الله ﷺ، فقال يحكي عن ربه - تبارك وتعالى - : (أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)¹

قلت: لقد ملأتني شوقا إليهم .. فمن هم؟

قال: هؤلاء هم الذين لا يطلبون من الله إلا الله .. فهم لا يطلبون إلا لذة النظر إلى وجه الله الكريم .. فهو عندهم غاية السعادات، ونهاية اللذات.

وهم الذين يرددون كل حين مع رابعة العدوية - عندما أجابت من سألها: كيف رغبتك في الجنة؟ - فقالت: (الجار ثم الدار)

إلهم الذين شغلهم حب رب الدار عن الدار وزينتها، بل عن كل شيء سواه حتى عن أنفسهم.

وإن مثاهم مثال العاشق المستهتر بمعشوقه، المستوفي همه بالنظر إلى وجهه والفكر فيه، فهو - في حال الاستغراق

- غافل عن نفسه، لا يحس بما يصيبه في بدنه.

قال ذلك، ثم رفع يديه إلى السماء، يقول: إلهي كيف أياس من حسن نظرك بعد مماتي ولم تولني إلا الجميل في

حياتي .. إلهي إن كانت ذنوبي قد أخافتني فإن محبتك لك قد أجاتني، فتول من أمري ما أنت أهله، وعد بفضلك على من غره جهله.

إلهي لو أردت إهانتي لما هديتني، ولو أردت فضيحتي لم تسترن، فمتعني بما له هديتني، وأدم لي ما به سترتني.

إلهي ما أظنك تردني في حاجة أفنيت فيها عمري.

إلهي لولا ما قارفت من الذنوب ما خفت عقابك، ولولا ما عرفت من كرمك ما رجوت ثوابك.

تركناه، وانصرفنا إلى رجل آخر من أهل الله .. كان يعرف بين الناس بدينار العيار .. وقد رأيت كصاحبه جالسا

مع نفسه، وهو يحمل عظما نخرا، وهو يقول: (ويحك .. كأني بك غدا قد صار عظمك هكذا رفاتا، والجسم ترابا،

وأنا اليوم أقدم على المعاصي)

ثم رفع يديه إلى السماء، وقال: (إلهي إليك ألقيت مقاليد أمري إليك .. فاقبلني وارحمي)

(1) رواه البخاري ومسلم.

3 - التصحيح

بعد أن مررت على من ذكرت لكم من أهل الله وغيرهم شعرت في نفسي بالآلام شديدة نتيجة تذكري للذنوب الكثيرة التي كانت تملأ نفسي بالظلمات.

قال سجين من السجناء: فأنت لم تتغير إذن .. فما فائدة تلك المرحلتين اللتين قطعتهما، وقد بدأت بالألم، وانتهيت إلى الألم؟

قال السجين: لا .. فرق كبير بين الألمين .. أما الألم الأول، فكان محفوفاً باليأس والجهل والتخبط والأهواء والاستغلال .. وأما الثاني، فمحفوف بالأمل في فضل الله ..

الألم الأول ألم المرض اليائس .. وأما الثاني، فألم المريض الراجي، وهو يتناول دواءه المر .. وفرق كبير بين الألمين .. قال السجين: فكيف خرجت من الألم؟

قال: لقد ذهبت إلى المرشد .. شيخخي الفاضل (الفضيل بن عياض) .. وقد أخبرني أنني أصبحت جاهزاً لقطع المرحلة الجديدة .. مرحلة التصحيح.

وقال لي: الرجوع إلى الله يقتضي علماً بفضل الله، وبِعظم ضرر الذنوب وكونها حجاً بين العبد وبين مولاه .. فإذا عرف العبد ذلك معرفة محققة تألم قلبه لا محالة بسبب فوات المحبوب .. وهذا الألم هو الندم .. وقد اعتبره أولياء الله محرك التوبة الأكبر، ووقودها الأعظم .. ولذلك عرفوا التوبة بأنها (ذوبان الحشا لما سيق من الخطأ) .. وعرفوها بأنها (نار في القلب تلتهب، وصدع في الكبد لا ينشعب)

وهو لا يكفي ولا يؤثر إلا إذا كان له من القوة ما يدفع الإرادة لتدارك الأخطاء، وتصحيحها، وقد ذكر أولياء الله ذلك .. وعرفوا به الرجوع إلى الله، فقالوا في تعريفهم للتوبة إنها (خلع لباس الجفاء، ونشر بساط الوفاء)، وقال سهل التستري: (التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة)

وهذا التصحيح يرتبط بالحال والماضي والاستقبال:

أما في الحال فبالترك للذنوب الذي كان ملائماً له.

وأما في الاستقبال، فبالعزم على ترك الذنوب المفوت للمحبيب إلى آخر العمر.

وأما في الماضي فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء إن كان قابلاً للجبر.

قلت: فكيف أجبر ما فات؟ .. وكيف أصحح ما هو آت؟

قال: لكل ذنبت من الذنوب عظم أو صغر ثلاثة آثار: آثار على علاقتك بالله، وآثار على علاقتك بنفسك، وآثار

على علاقتك بالخلق .. والعامل هو الذي يستثمر الألم ليحرك من الإرادة ما يصحح به ما فسد من هذه العلاقات.

العلاقة بالله:

قلت: فهل سر بي لأصحح علاقتي مع الله.

قال: سأسير معك .. هلم بنا إلى سوق من الأسواق .. إنه سوق عجيب لن ترى فيه من البضاعة إلا ما يقربك

لله .. إنه السوق الذي أشار إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ (29) لِيُؤْفِقَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (30)﴾ (فاطر)

وأشار إليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (11) يَعْرِضُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلِكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (13)﴾ (الصف)

سرت معه إلى هذا السوق العجيب الذي ذكره لي .. وقد تعجبت إذ رأيت في مدخله رجلا واقفا .. ليس أمامه شيء .. والناس ملتفون حوله، وهو يصيح فيهم قاتلا: اتبهوا .. المعاصي سلسلة في عنق العاصي لا يفكها منها إلا الاستغفار والتوبة .. والصراط كثير الاضطراب تحت أقدام السالكين لا يسكنه إلا قول رب سلم سلم .. والنار مسعرة الضرام لا يطفئ لهبها إلا نور الإيمان .. والموقف شديد الحر لا يكن منه إلا ظل العرش .. والقبر مطبق الظلمة لا ينوره إلا مصباح اليقين .. والجنة مغلقة الأبواب في وجوه طلابها لا يفتحها إلا كلمة الإخلاص .. وشفاعة الرسول بغية كل مرید لا تنال إلا بالتوحيد .. والشيطان جاثم على قلب الإنسان لا يفر عنه إلا بالذكر ..

اذكروا البر الرحيم كما يذكر الأحباب العشاق .. فمن مسه الشيطان ليس له غير ذكر الله ترياق.
يا فرسان ميدان ذكر الله أطلقوا الأعنة .. يا فرسان ميدان ذكر الله أشرعوا الأسنة، ولا تطعموا في وجدان حلالة الذكر وقلوبكم مشغولة بوسواس الفكر.

كيف يكون حبيب الرحمن من هو للشيطان سمير؟ كيف يطمع في الوصول من لا يجد في المسير؟
تالله والله لا ينال العلى رخي البال، إنما تلك رتبة الأبطال.. خاطروا بالنفوس والأموال.. هكذا هكذا تنال المعال.

هزنتي الموعظة كما هزت الجموع المحيطة بالرجل، فسألت الفضيل عنه، فقال: هذا رجل من أهل الله نذر نفسه أن يعظ عباد الله، ويرقق قلوبهم ليصححوا علاقاتهم بالله .. إنه من بغداد .. ويقال له (ابن الجوزي)¹
سمعنا مواعظ أخرى منه، وبكينا كما بكت الجموع ..

ثم سرت معه إلى محل من المحلات كان صاحبه ينشر أمامه مصحفا عتيقا .. وكان يقرأ من مواضع متفرقة منه بخشوع، والدموع تنهمر من عينيه، وكان جميع من يستمع إليه يبكي لبكائه ..

كان من الآيات التي سمعتها منه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة:199) .. وقوله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة:285) .. وقوله: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران:16) .. وقوله: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْتَفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ (آل عمران:17) .. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَعْزُرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (135) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (136) (آل عمران) .. وقوله: ﴿وَمَا

(¹) وهو - كما هو معروف - من الخطباء المشهورين .. وقد ذكرناه في مناسبات مختلفة من هذه السلسلة وغيرها، وذكرنا ترجمته فيها.

كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (آل عمران: 147) .. وقوله: ﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (آل عمران: 193) .. وقوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (النساء: 64) .. وقوله: ﴿ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (النساء: 106) .. وقوله: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهُ يَجِدِ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (النساء: 110) .. وقوله: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (المائدة: 74) .. وقوله: ﴿ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (الأعراف: 23) .. وقوله: ﴿ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (الأعراف: 149) .. وقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخْوِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (الأعراف: 151) .. وقوله: ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَآيَا أَنهَلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (الأعراف: 155) .. وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (أنفال: 33) .. وقوله: ﴿ وَإِنْ اسْتَغْفَرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُعْتَمَكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (هود: 3) .. وقوله: ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (هود: 52) .. وقوله: ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (هود: 61) .. وقوله: ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (هود: 90) .. وقوله: ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (المؤمنون: 109) .. وقوله: ﴿ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (المؤمنون: 118) .. وقوله: ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (الشعراء: 82) .. وقوله: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (النمل: 46) .. وقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (القصص: 16) .. وقوله: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (غافر: 55) .. وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (فصلت: 6) .. وقوله: ﴿ فَاعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبِكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (محمد: 19) .. وقوله: ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (الذريات: 18) .. وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ (الحشر: 10) .. وقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسِهِمْ وَرَأَيْتَهُمْ يُصَلُّونَ وَهُمْ مُسْتَسْكِرُونَ (المنافقون: 5) .. وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (التحريم: 8) .. وقوله: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (النصر: 3) .. وقوله: ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ((المزمل من الآية : 20)

سألت الفضيل عنه، فقال: هذا رجل من أهل الله نذر نفسه لكتاب ربه .. فهو لا يتكلم به .. ولا يقرأ في حياته غيره.

قلت: فما باله لا يقرأ إلا آيات الاستغفار؟

قال: هو يطلب ممن حوله أن يستغفروا ربهم .. ويخبرهم أن ذلك هو شأن عباد الله الصالحين من الأولياء والمرسلين..

تركناه يرتل بخشوع .. والناس من حوله يخشعون لخشوعه .. ثم سرنا إلى محل من المحلات كان صاحبه ينشر أمامه أوراقا يقرأ منها أحاديث للنبي ﷺ، فسألت الفضيل عنه، فقال: هذا رجل من أهل الله .. نذر نفسه أن لا يذكر عباد الله إلا بأحاديث رسول الله .. إنه معروف في هذا السوق، وهم يلقبونه بابن أبي الدنيا¹.

ابتسمت، وقلت: ولم لم يلقبوه بابن أبي الآخرة ما دام يذكرهم بالآخرة؟

قال: لقد لقيه بذلك رجال من أهل الدنيا .. كان لهم من الغنى والسعة ما لهم .. ولكنهم لم يجدوا من اللذة ما وجدوه في صحبته .. فلذلك أطلقوا عليه هذا اللقب.

سأذكر لكم بعض ما سمعت من هذا الرجل الفاضل:

لقد حدثنا عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ أنه قال حاكيا عن ربه عز وجل: (يا ابن آدم كلكم مذنب إلا من عافيت فاستغفروني أغفر لكم .. وكلكم فقير إلا من أغنيت، فاسألوني أعطكم .. وكلكم ضال إلا من هديت، فاسألوني الهدى أهدكم .. ومن استغفرتني، وهو يعلم أنني ذو قدرة على أن أغفر له غفرت له ولا أبالي.. ولو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا على قلب أشقى رجل واحد منكم ما نقص ذلك من سلطاني مثل جناح بعوضة .. ولو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا على أنقى قلب رجل واحد منكم ما زادوا في سلطاني مثل جناح بعوضة .. ولو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم سألوني حتى تنتهي مسألة كل واحد منهم فأعطيتهم ما سألوني ما نقص ذلك مما عندي كمغرز إبرة لو غمسها أحدكم في البحر، وذلك أبي جواد ماجد واحد عطائي كلام وعذابي كلام، إنما أمرني لشيء إذا أردته أن أقول له كن فيكون)²

وحدثنا عن أنس قال سمعت رسول الله ﷺ يقول حاكيا عن ربه تبارك وتعالى: (يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي .. يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي .. يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة)³

وحدثنا عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: (قال إبليس: وعزتك لا أبرح أعوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال: وعزتي وجلالي لا أزال أعفر لهم ما استغفروني)⁴

(1) هو عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان القرشي الاموي، مولاهم، البغدادي، أبو بكر، المعروف بابن أبي الدنيا (208 هـ - 281 هـ) كان حافظا للحديث، مكثرنا من التصنيف .. له مصنفات اطلع الذهبي على 20 كتابا منها، ثم ذكر أسماءها كلها، فبلغت 164 كتابا، منها (الفرج بعد الشدة) و(مكارم الاخلاق) و(ذم الملاهي) وغيرها كثير.

(2) رواه مسلم والترمذي وحسنه وابن ماجه والبيهقي واللفظ له.

(3) رواه الترمذي وقال حديث حسن غريب.

(4) رواه أحمد والحاكم، وقال الحاكم صحيح الإسناد.

وحدثنا عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: (ألا أدلكم على دوائكم ودوائكم .. ألا إن داءكم الذنوب، ودواءكم الاستغفار)¹

وحدثنا عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا، ومن كل ضيق مخرجا، وورقه من حيث لا يحتسب)²

وحدثنا عن عبد بن بسر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (طوبى لمن وجد في صحيفته استغفار كثير)³

وحدثنا عن الزبير أن رسول الله ﷺ قال: (من أحب أن تسره صحيفته فليكثر فيها من الاستغفار)⁴

وحدثنا عن أم عصمة العوصية قالت قال رسول الله ﷺ: (ما من مسلم يعمل ذنبا إلا وقف الملك ثلاث ساعات، فإن استغفر من ذنبه لم يكتبه عليه ولم يعذبه الله يوم القيامة)⁵

وحدثنا عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: (إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة، فإن هو نزع واستغفر صقلت، فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذي ذكره الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَأَىٰ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين: 14)⁶

وحدثنا عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: (إن للقلوب صدأ كصدأ النحاس، وجمادها الاستغفار)⁷

وحدثنا عن علي قال: كنت رجلا إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثا فنعني الله به بما شاء أن ينفعي، وإذا حدثني أحد من أصحابه استحلقتة، فإذا حلف لي صدقته، وقال: وحدثني أبو بكر، وصدق أبو بكر أنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما من عبد يذنب ذنبا فيحسن الطهور، ثم يقوم فيصلي ركعتين، ثم يستغفر الله إلا غفر له)، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: 135)⁸

وحدثنا عن زيد أنه سمع النبي ﷺ يقول: (من قال أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفر له وإن كان فر من الزحف)⁹

وحدثنا عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ في مسيره فقال: (استغفروا الله)، فاستغفرنا، فقال: (أتموها سبعين مرة) فأتتمناها، فقال رسول الله ﷺ: (ما من عبد ولا أمة يستغفر الله في يوم سبعين مرة إلا غفر الله له سبعمئة ذنب..

(1) رواه البيهقي.
(2) رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم والبيهقي، وقال الحاكم: صحيح الإسناد.
(3) رواه ابن ماجه بإسناد صحيح والبيهقي.
(4) رواه البيهقي بإسناد لا بأس به.
(5) رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد.
(6) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.
(7) رواه البيهقي.
(8) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه، وليس عند بعضهم ذكر الركعتين، وقال الترمذي: حديث حسن غريب، وذكر أن بعضهم وقفه.
(9) رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، قال المنذري: وإسناده جيد متصل.. ورواه الحاكم من حديث ابن مسعود وقال: صحيح على شرطهما إلا أنه قال: يقولها ثلاثا.

وقد خاب عبد أو أمة عمل في يوم وليلة أكثر من سبعمئة ذنب)¹
 وحدثنا عنه أن رسول الله ﷺ قال في قوله عز وجل: ﴿فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: 37) أنه (قال: سبحانك اللهم وبحمدك، عملت سوءا وظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين، لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسي فارحمني إنك أنت أرحم الراحمين، لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسي فتب علي إنك أنت التواب الرحيم)²

وحدثنا عن جابر قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: واذنوباه، واذنوباه، فقال هذا القول مرتين أو ثلاثا، فقال له رسول الله ﷺ: قل: (اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبي، ورحمتك أرجى عندي من عملي)، فقالها، ثم قال: (عد)، فعد، ثم قال: (عد)، فعد، ثم قال: (قم، فقد غفر الله لك)³

تركناه يروي أحاديث رسول الله ﷺ .. وانصرفنا إلى رجل آخر اجتمع الناس حوله يسألونه، ويجيبهم .. سألت الفضيل عنه، فقال: هذا مفتي التائبين .. إنه رجل من أهل الله يقال له (ابن رجب)

اقتربنا منه، فسمعنا سائلا يقول له: يا مولانا .. حدثنا عن أفضل طريقة للاستغفار حتى نسلكها؟ قال ابن رجب: أفضلها أن يبدأ العبد بالثناء على ربه.. ثم يثني بالإعتراف بذنبه.. ثم يسأل الله المغفرة.. فهذا ما وردت به السنة عن رسول الله ﷺ، ففي الحديث قال رسول الله ﷺ: (سيد الاستغفار أن يقول العبد: (اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك، ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)⁴

وسأل أبو بكر الصديق رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي، فقال: قل (اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم) قال الرجل: فهل يقتصر على هذا؟

قال ابن رجب: لا .. لقد ورد التوسع في ذلك .. ومن ذلك أن يقول العبد: (أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه) .. فقد ذكر النبي ﷺ (أن من قاله غفر له وإن كان فر من الزحف)⁵
 وعن حباب بن الأرت قال: قلت يا رسول الله كيف نستغفر؟ قال: قل (اللهم اغفر لنا وارحمنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم)⁶

وعن أبي هريرة قال: (ما رأيت أحدا أكثر أن يقول: (أستغفر الله وأتوب إليه) من رسول الله ﷺ.
 وعن ابن عمر قال: (إن كنا نعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة يقول: (رب اغفر لي وتب علي إنك

(1) رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي والأصبهاني.
 (2) رواه البيهقي.
 (3) رواه الحاكم، وقال: رواه مدنيون لا يعرف واحد منهم بجرح.
 (4) رواه البخاري.
 (5) رواه أبو داود والترمذي.
 (6) رواه النسائي في عمل اليوم والليلة.

أنت التواب الغفور)¹

قال الرجل: فكيف يستغفر في اليوم؟

قال ابن رجب: كلما أكثر العبد من الاستغفار كان أفضل، لقد قال رسول الله ﷺ يذكر فضل ذلك: (من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا، ومن كل ضيق مخرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب)²
وحدث رسول الله ﷺ عن نفسه، فقال: (والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة)³
وفي حديث آخر قال: (إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة)⁴
وعن حذيفة قال: قلت يا رسول الله إني ذرب اللسان، وإن عامة ذلك على أهلي فقال: أين أنت من الاستغفار؟
إني لأستغفر الله في اليوم واللييلة مائة مرة)⁵

وقالت عائشة: (طوي لمن وجد في صحيفته استغفار كثيرا)

وقال أبو المنهال: (ما جاور عبد في قبره من جار أحب إليه من استغفار كثير)

وقال أبو هريرة: (إني لأستغفر الله وأتوب إليه كل يوم ألف مرة، وذلك على قدر ديني)

وقال رباح القيسي: (لني نيف وأربعون ذنبا قد استغفرت الله لكل ذنب مائة ألف مرة)

وحاسب بعضهم نفسه من وقت بلوغه، فإذا زلته لا يتجاوز ستا وثلاثين، فاستغفر الله لكل زلة مائة ألف مرة، وصلى لكل زلة ألف ركعة، وحتم في كل ركعة منها حتمة.. قال: (ومع ذلك فإني غير آمن من سطوة ربي أن يأخذني بما فأنا على خطر من قبول التوبة)

وقال الحسن: (أكثروا من الاستغفار في بيوتكم، وعلى موائدكم، وفي طرقكم، وفي أسواقكم، وفي مجالسكم،

وأينما كنتم فإنكم ما تدرون متى تنزل المغفرة)

قال الرجل: فما تقول فيمن كثرت ذنوبه وسيئاته حتى فاقت العدد والإحصاء؟

قال ابن رجب: ليستغفر الله من الذنوب التي يعلمها، والتي لا يعلمها، فقد وعد الله بالمغفرة عليها جميعا، وفي

الحديث قال رسول الله ﷺ: (أسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم وأستغفرك لما تعلم إنك أنت علام الغيوب)⁶

وفي هذا قال بعضهم:

استغفر الله مما يعلم الله = إن الشقي لمن لا يرحم الله
ما أحلم الله عن لا يراقبه = كل مسيء ولكن يحلم الله

(1) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه.

(2) رواه أبو داود.

(3) رواه البخاري.

(4) رواه مسلم.

(5) رواه أحمد.

(6) رواه الترمذي والنسائي والحاكم وصححه.

فاستغفر الله مما كان من زلل = طوبى لمن كف عما يكره الله

طوبى لمن حسنت سريره = طوبى لمن ينتهى عما نهى الله

قال آخر: فما تقول ممن يستعين بغيره، يطلب منه أن يستغفر له؟ .. هل يصح له ذلك؟

قال ابن رجب: وكيف لا يصح ذلك .. وقد كان الصالحون يفعلونه .. فقد كان عمر يطلب من الصبيان الاستغفار ويقول: (إنكم لم تذبوا) .. وكان أبو هريرة يقول لغلمان الكتاب: قولوا: (اللهم اغفر لأبي هريرة)، وكان يؤمن على دعائهم.. وقال بكر المزني: (لو كان رجل يطوف على الأبواب كما يطوف المسكين يقول: استغفروا لى لكان قبوله أن يفعل)

قال آخر: فما ما هو الاستغفار التام الموجب للمغفرة؟

قال ابن رجب: هو ما قارن عدم الإصرار على المعصية .. لقد ذكر الله ذلك، فقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ وَكَمْ يَصِرُوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (135) أُولَٰئِكَ جَزَاءُ هُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (136)﴾ (آل عمران)

انظر كيف قرن الله هذا الاستغفار بوعده أهله بالمغفرة.. ولهذا قال رسول الله ﷺ: (ويل للذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون)¹

وقال ﷺ: (لنائب من الذنب كمن لا ذنب له، والمستغفر من ذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه)² ولهذا دأب العارفون على نصيحة مرديهم بهذا، قال بعضهم: (من لم يكن ثمرة استغفاره تصحيح توبته فهو كاذب في استغفاره) .. وكان بعضهم يقول: (استغفارنا هذا يحتاج إلى استغفار كثير) وقال الضحاك: (ثلاثة لا يستجاب لهم: فذكر منهم: رجل مقيما على امرأة زنا كلما قضى منها شهوته قال: رب اغفر لى ما أصبت من فلانة، فيقول الرب: تحول عنها وأغفر لك، وأما ما دمت عليها مقيما فإنى لا اغفر لك، ورجل عنده مال قوم يرى أهله فيقول: رب اغفر لى ما أكل من فلان فيقول تعالى: رد إليهم ما لهم وأغفر لك، وأما ما لم ترد إليهم فلا اغفر لك) وقد قال الشاعر الصالح يذكر ذلك:

استغفر الله من استغفر الله = من لفظه بدرت خالفت معناها

وكيف أرجو إجابات الدعاء وقد = سددت بالذنب عند الله مجراها

قال الرجل: لقد ضيقت علينا بهذا الأبواب .. فمن يضمن لنفسه العصمة من الذنوب؟

قال ابن رجب: ليس المراد بعدم الإصرار عدم الوقوع .. فقد يصر الشخص على شيء ويعزم عليه، ولكنه ينكث عزمه .. فالمراد مما ذكرت هو أن يعاهد الله أن لا يقع في الذنب بجزم وتأكيد، فإن قدر ووقع في الذنب عاد إلى الاستغفار من جديد ..

(1) رواه أحمد.

(2) رواه ابن أبي الدنيا، قال ابن رجب: ورفع منكر ولعله موقوف.

لقد ذكر رسول الله ﷺ ذلك، فقال: (ما أصبر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة)¹ وأخبرنا (أن عبدا أذنب ذنبا فقال: رب أذنبت ذنبا فاغفر لي، قال الله تعالى: علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذه به، غفرت لعبدي. ثم مكث ما شاء الله ثم أذنب ذنبا آخر فذكر مثل الأول مرتين آخرين)².. وفي رواية أنه قال في الثالثة: (قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء)³

قال آخر: هل يجوز للمستغفر أن يزيد في استغفاره قوله (وأتوب إليه)؟
قال ابن رجب: قائل هذا له حالتان .. أولاها أن يقولها، وهو مصر بقلبه على المعصية .. فهذا كاذب في قوله (وأتوب إليه)، لأنه غير تائب، فلا يجوز له أن يخبر عن نفسه بأنه تائب وهو غير تائب.
وثانيهما: أن يقولها، وهو مقلع عن المعصية بقلبه.. وقد كره ذلك جماعة من الصالحين خوفا من الكذب في ادعاء ذلك ..

فقد قال الربيع بن خثيم عن ذلك: يكون قوله (وأتوب إليه) كذبة وذنبا، ولكن ليقول: (اللهم إني أستغفرك، فتب علي) .. وكان محمد بن سوجه يقول في استغفاره: (أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم، وأسأله توبة نصوحا) .. وروى عن حذيفة أنه قال: (يحسب من الكذب أن يقول أستغفر الله ثم يعود) .. وسمع مطرف رجلا يقول: (أستغفر الله وأتوب إليه)، فتغيظ عليه وقال: (لعلك لا تفعل)

ولكن ذلك لا يعنى العموم .. فإن صادف المؤمن من قلبه قوة وحزما على التوبة .. فليقل ذلك مستعينا بالله تعالى.. وقد روى في الحديث في كفارة المجلس: (أستغفرك اللهم، وأتوب إليك) .. وفي الحديث قال رسول الله ﷺ لرجل: (أستغفر الله وتب إليه)، فقال: أستغفر الله وأتوب إليه فقال: (اللهم تب عليه)⁴
وروى عن عمر أنه سمع رجلا يقول: (أستغفر الله وأتوب إليه)، فقال له: قل يا حميق.. قل (توبة من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا)

وسئل الأوزاعي عن الإستغفار، هل يقول (أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى وأتوب إليه)، فقال: (إن هذا لحسن ولكن يقول: (اغفر لي حتى يتم الإستغفار)
وقال سهل: (لا بد للعبد في كل حال من مولاه، فأحسن أحواله أن يرجع إليه في كل شيء، فإن عصي قال يا رب استر علي، فإذا فرغ من المعصية قال يا رب تب علي، فإذا تاب قال يا رب ارزقني العصمة، وإذا عمل قال يا رب تقبل مني)

العلاقة بالنفس:

بعد أن نفح علينا من سوق التوبة ما نفح من أنوار الإيمان، رأيت كدورات كثيرة في نفسي، كنتلك الكدورات التي يجدها من طال عهده بعدم دخول الحمام، فسألت صاحبي عنها، فقال: نفسك تطالبك بالاغتسال .. وهذا علامة صدقك في طريق التوبة، فأبشر.

(1) رواه أبو داود والترمذى.

(2) رواه البخاري ومسلم.

(3) رواها مسلم.

(4) رواه أبو داود.

قلت: فهل هناك حمام يمكن أن أغسل فيه نفسي من أدرانها؟

قال: أجل .. فكما للتوبة سوقها، لها حمامها.

قلت: فهل بي إليه .. فما أحوج نفسي إلى الطهارة.

سرت معه إلى حمام التوبة .. وقد رأيت على بابه لافتة كتب فيها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (222) (البقرة)، فسألت الفضيل عنها، فقال: في هذه الآية الكريمة يقرن الله التوابين بالمتطهرين .. ليبين أن التوبة الحقيقية النصح هي التي تطهر الروح من المعصية، ومن آثار المعصية، كما يطهر الماء الجسد من الأوساخ، وما تحدته الأوساخ في الجسم من آثار.

قلت: فهما طهارتان إذن؟

قال: أجل .. ولا تكتمل إحداهما إلا بالأخرى.. وإلا كان نفاقا .. لقد قال أبو حامد يذم من بالغ في الطهارة الظاهرة غافلا عن أدرانه الباطن: (لقد انتهت التوبة الآن إلى طائفة يسمون الرعونة نظافة، فيقولون: هي مبنى الدين، فأكثر أوقاتهم في تزيينهم الظواهر، كفعل الماشطة بعروسها.. والباطن خراب مشحون بخبائث الكبر والعجب والجهل والرياء والنفاق ولا يستنكرون ذلك ولا يتعجبون منه، ولو اقتصر مقتصر على الاستنجاء بالحجر أو مشى على الأرض حافيا أو صلى على الأرض أو على بوارى المسجد من غير سجادة مفروشة أو مشى على الفرش من غير غلاف للقدم من آدم، أو توضأ من آنية عجوز أو رجل غير متقشف أقاموا عليه القيامة وشدوا عليه النكير ولقبوه بالقذر وأخرجوه من زمرة واستنكفوا عن مؤاكلته ومخالطته.. فسموا البذاذة التي هي من الإيمان قذارة، والرعونة نظافة.. فانظر كيف صار المنكر معروفا، والمعروف منكرا، وكيف اندرس من الدين رسمه كما اندرس حقيقته وعلمه)¹

قلت: فكيف أتخلص من هذه الرعونة التي تحدث عنها أبو حامد؟

قال: في هذا الحمام يوجد رجال كثيرون من أهل الله تعلموا عن ورتة رسول الله ﷺ كيف ينظفون البواطن ..

قلت: فهل بنا ندخل إليهم .. فما أحوج نفسي للطهارة.

دخلت معه .. فوجدت مظهرا عجيبا .. وجدت أقواما كثيرين من الناس .. كل منهم ينفرد برجل يخاطبه بكل أساليب الخطاب اللطيف منها والعنيف .. والعجيب أنهم مع كل هذه الزحمة لا يبدو عليهم الانشغال إلا بما هم فيه .. فلا يلتفت أحدهم للآخر، ولا يكاد ينتبه له.

سألت الفضيل عن عدم انشغال بعضهم ببعض، فحدثني عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا)، قلت: يارسول الله النساء والرجال جميعا، ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال ﷺ: (يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض)²

فسألته عن سر هذا الحديث، فقال: العاقل هو من بدأ بالنظر في عيوب نفسه، وانشغل بها، فلا يمكن أن يتطهر من لا ينظر في مرآة الروح ليرى ما لصق بروحه من أنواع الأدران.

قلت: فالنظر إلى النفس حجاب.

(1) الإحياء.

(2) رواه البخاري ومسلم.

قال: والانشغال بعيوب الناس عن عيوب النفس أعظم منه.. ف (ربما كنت مسيئاً فأراك الإحسان منك صحبتك إلى من هو أسوأ حالاً منك)¹

اقتربنا من أحد هؤلاء المتطهرين، فسمعنا المرشد يخاطب المتطهر قائلاً: اعلم أن من أطاع هواه أعطى عدوه مناه.. وأن ركب الشهوات لا تستقال عثراته.. وأن من كرمت عليه نفسه هانت عليه شهوته..

لقد قال الصادق، وهو يربي الصادقين: (احذروا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم، فإنه ليس شيء أعدى للرجال من اتباع أهوائهم)، وقال لبعضهم: (لا تدع النفس وهواها، فإن هواها في رداها وترك النفس وما تهوى أذاها وكف النفس عما تهواه دواها)

وروي في الحديث أن رجلاً اسمه مجاشع قال: يا رسول الله كيف الطريق إلى معرفة الحق؟ فقال ﷺ: (معرفة النفس)، فقال: فكيف الطريق إلى موافقة الحق؟ فقال ﷺ: (مخالفة النفس)، فقال: فكيف الطريق إلى رضا الحق؟ فقال ﷺ: (سخط النفس)، فقال: فكيف الطريق إلى طاعة الحق؟ فقال ﷺ: (عصيان النفس)، فقال: فكيف الطريق إلى ذكر الحق؟ فقال ﷺ: (نسيان النفس)، فقال: فكيف الطريق إلى قرب الحق؟ فقال ﷺ: (التباعد عن النفس)، فقال: فكيف الطريق إلى أنس الحق؟ فقال ﷺ: (الوحشة عن النفس)، فقال: فكيف الطريق إلى ذلك؟ فقال ﷺ: (الاستعانة بالحق على النفس)²

سرنا إلى آخر، وكان اسمه الصفار³ على حسب ما علمت بعد ذلك، فسمعناه يقول لصاحبه: إن الخطر كل الخطر في النفوس المثلثة بالظلمات، إنها تزين كل رذيلة، وتقبح كل محمودة.. ألا ترى أن جرأة الإنسان على قتل أخيه الإنسان ومصادرة حقه في الحياة أكبر جريمة بشعة؟ قال الرجل: بلى..

قال المرشد: لقد تحدث القرآن الحكيم عن أول جريمة قتل وقعت على الأرض حيث قتل قابيل بن آدم هايل، وقد نسب القرآن الكريم هذه الجريمة إلى النفس، فقال تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (المائدة:30)

ومثل ذلك اعتبر الخوف حالة نفسية، فقال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ (طه:67) واعتبر البخل مرضاً نفسياً، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شَحْنَهُ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: من الآية9) والنفس هي التي تزين للإنسان وتدفعه للارتداد عن الدين وسوء التعامل مع قضاياها، كما حصل للسامري، صاحب نبي الله موسى (عليه السلام)، والذي أضل المؤمنين بتوجيههم لعبادة عجل صنعه من الحلي، قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ (95) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ (96) ﴿طه﴾

(1) حكمة من حكم ابن عطاء الله.

(2) انظر: عوالي اللئالي: 246/1، بحار الأنوار: 72/70، مستدرک الوسائل: 138/11.

(3) أشير به إلى العلامة الجليل حسن الصفار، وهو من كبار العلماء المعاصرين، وقد استفدنا هذا الكلام الوارد هنا من كتابه (النفس منطقة خطر) بالتصرف الذي اقتضاه المقام.

وأهواء النفس سبب مخالفة الأنبياء والعدوان عليهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَتَّقُونَ (87)﴾ (البقرة)

وأحوه نبي الله يوسف (عليه السلام) إنما قاموا تجاهه بتلك الجريمة النكراء، حيث ألقوه في قاع الحب، وهو ذلك الصغير الوديع المتفرد في جماله وحسنه، إنما صنعوا ذلك لانحراف نفسي أصابهم، قال تعالى على لسان أبيهم يعقوب (عليه السلام): ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ حَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (18)﴾ (يوسف)

والحسد حالة مرضية نفسية بين الأفراد أو الأمم والمجتمعات، قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَصُوا وَأَصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (109)﴾ (البقرة)

والتكبر مرض يشعشع في أرجاء النفس، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (21)﴾ (الفرقان)

والإعراض عن دين الله ورسالة الأنبياء إنما ينشأ من حالة انحراف نفسي يطلق عليه القرآن (سفاهة) ، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ... (130)﴾ (البقرة)

ولهذا، فإن أهم بما يجب على العاقل تطهير نفسه.. لأن ذلك مفتاح سعادته.. وهو مفتاح الاستخدام السليم لما منحه الله من طاقات وقدرات.. أما مع انحراف النفس فكل المكاسب والإمكانات التي ينالها الإنسان في هذه الحياة قد تصبح وبالاً عليه، ووسائل دمار تصيبه والآخرين بالشر والضرر.

فالعلم أو المال أو القوة أو الجمال أو أي إمكانية أخرى إذا كانت تحت تصرف نفس شريرة فاسدة، أو تحكّمها قرارات شهوانية من وحي الهوى، فإنها قد تجلب الخسار والشقاء والدمار لصاحبها وللآخرين.

ومآسي البشرية في الماضي والحاضر هي سجل كبير لشواهد وأدلة هذه الحقيقة الواضحة. لذا كان من الطبيعي أن تركز النصوص المقدسة على مسألة الاهتمام بإصلاح النفس كمنطلق لإصلاح الإنسان والحياة كما قال تعالى: ﴿.. إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ .. (11)﴾ (الرعد)

سرنا إلى آخر، وقد علمت أن اسمه (الصادق)¹ كانت عليه سيما أنوار الورثة من أهل البيت .. سمعته يخاطب صاحبا له يقال له (عبدالله بن جندب الجلي الكوفي) .. وكان مما سمعته منه قوله: يا عبدالله: لقد نصب إبليس حباته في دار الغرور فما يقصد فيها إلا أولياءنا، ولقد جلت الآخرة في أعينهم حتى ما يريدون بها بدلاً .

يا ابن جندب: حق على كل مسلم أن يعرض عمله في كل يوم وليلة على نفسه فيكون محاسب نفسه، فإن رأى حسنة استتراد منها وإن رأى سيئة استغفر منها لثلاثي يوم القيامة.. طوبى لعبد لم يغبط الخاطئين على ما أوتوا من نعيم الدنيا وزهرتها.. طوبى لعبد طلب الآخرة وسعى لها.. طوبى لمن لم تلهه الأماني الكاذبة ..

(¹) أشير به إلى الإمام الكبير (جعفر الصادق)، وقد ذكرناه في مواضع مختلفة من هذه السلسلة وغيرها، وانظر الحديث الافتراضي معه في فصل (العارف) من (النبي الإنسان)

يا ابن جندب : إنما المؤمنون الذين يخافون الله ويشفقون أن يسلبوا ما أعطوا من الهدى ، فإذا ذكروا الله ونعماءه وجلوا وأشفقوا، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً مما أظهره من نفاذ قدرته ، وعلى رهم يتوكلون .

يا ابن جندب: يهلك المتكل على عمله . ولا ينجو المجترئ على الذنوب ، والواثق برحمة الله . .

يا ابن جندب : من سره أن يزوجه الله الحور العين ، ويتوجه بالنور ، فليدخل على أخيه المؤمن السرور .

يا ابن جندب : أقل النوم بالليل والكلام بالنهار ، فما في الجسد شيء أقل شكراً من العين واللسان ، فإن أم سليمان قالت لسليمان (عليه السلام) : يا بني إياك والنوم فإنه يفرك يوم تحتاج الناس إلى أعمالهم . .

يا ابن جندب : إن للشياطين مصائد يصطاد بها فتحاموا شبابه ومصائده .

يا ابن جندب : من أصبح مهموماً لسوى فكاك رقبته فقد هون عليه الجليل ورغب من ربه في الريح الحقيير .

ومن غش أخاه وحقره وناواه جعل الله النار مأواه ، ومن حسد مؤمناً اثماً الإيمان في قلبه كما ينمات الملح في الماء .

يا ابن جندب : الماشي في حاجة أخيه كالساعي بين الصفا والمروة ، وقاضي حاجته كالمتشحط بدمه في سبيل الله يوم (بدر) و (أحد) وما عذب الله أمة إلا عند استهانتهم بحقوق فقراء إخوانهم .

يا ابن جندب : بلغ معاشر شيعتنا¹ وقيل لهم : لا تذهبن بكم المذاهب فوالله لا تنال ولايتنا إلا بالورع والاجتهاد في الدنيا ومواساة الإخوان في الله ، وليس من شيعتنا من يظلم الناس .

يا ابن جندب : إنما شيعتنا يعرفون بخصال شتى : بالسخاء والبذل للإخوان ، وبأن يصلوا الخمسين ليلاً ونهاراً . .

يا ابن جندب : كل الذنوب مغفورة سوى عقوق أهل دعوتك ، وكل البر مقبول إلا ما كان رثاءً . .

يا ابن جندب : إن أحببت أن تجاور الجليل في داره وتسكن الفردوس في جواره فلتنه عليك الدنيا ، ولا تدخر شيئاً لغد . واعلم أن لك ما قدمت وعليك ما أحرقت . .

صبر نفسك عند كل بلية في ولد أو مال أو رزية ، فإنما يقبض عاريتيه ويأخذ هبته ليلو فيها صبرك وشكرك .

وارج الله رجاءً لا يجريك على معصيته وخفه خوفاً لا يؤيسك من رحمته . . .

ولا تغتر بقول الجاهل ولا بمدحه فتكبر وتجبر وتعجب بعملك ، فإن أفضل العمل العبادة والتواضع . . .

يا ابن جندب : لا تصدق على أعين الناس ليزكوك ، فإنك إن فعلت ذلك فقد استوفيت أجرك ، ولكن إذا أعطيت يمينك فلا تطلع عليها شمالك ، فإن الذي تصدق له سراً يجزيك علانية على رؤوس الأشهاد في اليوم الذي لا يضرك إن لا يطلع الناس على صدقتك . .

يا ابن جندب : الخير كله أمامك ، وإن الشر كله أمامك ولن ترى الخير والشر إلا بعد الآخرة ، لأن الله جل وعز جعل الخير كله في الجنة والشر كله في النار ، لأنهما الباقيان ، والواجب على من وهب الله له الهدى وأكرمه بالإيمان ، وألمه رشده وركب فيه عقلاً يتعرف به نعمه ، وأتاه علماً وحكماً يدير به أمر دينه ودنياه ، أن يوجب على نفسه أن يشكر الله ولا يكفره ، وأن يذكر الله ولا ينساه ، وأن يطيع الله ولا يعصيه . . .

(1) المراد بهذا التعبير هنا ليس ما قد يتوهم من الفرقة المعروفة، وإنما المراد بهم كل مسلم صادق في إسلامه .. فكل مسلم شيعة لأهل بيت رسول الله ﷺ.. ويدل لهذا حرص أهل البيت جميعاً على الحفاظ على وحدة المسلمين وعدم تصديق صفهم بأي خلاف.

أما أنه لو وقعت الواقعة ، وقامت القيامة ، وجاءت الطامة ونصب الجبار الموازين لفصل القضاء وبرز الخلائق ليوم الحساب ، أيقنت عند ذلك لمن تكون الرفعة والكرامة ، وبمن تحل الحسرة والندامة فاعمل اليوم الدنيا بما ترجو به الفوز في الآخرة ..

يا ابن جندب : قال الله جل وعز في بعض ما أوحى : (إنما أقبِل الصلاة ممن يتواضع لعظمتي ، ويكف نفسه عن الشهوات من أجلي ، ويقطع نهاره بذكرى ولا يتعظم على خلقي ، ويطعم الجائع ، ويكسو العاري ، ويرحم المصاب ، ويؤوي الغريب ، فذلك يشرق نوره مثل الشمس ، أجعل له في الظلمة نوراً ، وفي الجهالة حلماً ، أكأله بعزتي وأستحفظه ملائكتي ، يدعوني فألبيه ، ويسألني فأعطيه ، فمثل ذلك العبد عندي كمثّل جنات الفردوس لا يسبق أثمارها ، ولا تتغير عن حالها ..

سرنا إلى آخره ، وقد علمت بعد ذلك أن اسمه (الكاظم)¹ .. وقد رأيت عليه ما رأيت على صاحبه من سيما أهل بيت النبوة الذين أخبر القرآن الكريم بطهارتهم ، وقد سمعته يخاطب تلميذاً له يقال له (هشام بن الحكم البغدادي) .. وكان مما سمعته منه قوله: يا هشام : كل شيء دليل ، ودليل العاقل التفكير .

يا هشام : لو كان في يدك حوزة ، وقال الناس في يدك لؤلؤة ما كان ينفك وأنت تعلم أنها حوزة .. ولو كان في يدك لؤلؤة وقال الناس : أنها حوزة ما ضرك وأنت تعلم أنها لؤلؤة .

يا هشام : إن الله على الناس حجتين : حجة ظاهرة وحجة باطنة ، فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة ، وأما الباطنة فالعقول.

يا هشام : قليل العمل من العاقل مقبول مضاعف ، وكثير العمل من أهل الهوى والجهل مردود .

يا هشام : إن العاقل رضي بالدون من الدنيا مع الحكمة ، ولم يرضى بالدون من الحكمة مع الدنيا ، فلذلك رجحت تجارتهم ..

يا هشام : إن كان يغنيك ما يكفيك فأدنى ما في الدنيا يكفيك ، وإن كان لا يغنيك ما يكفيك فليس شيء من الدنيا يغنيك ..

يا هشام : إن العقلاء تركوا فضول الدنيا فكيف الذنوب ؟ وترك الدنيا من الفضل وترك الذنوب من الفرض .. يا هشام : إن العقلاء زهدوا في الدنيا ، ورغبوا في الآخرة ، لأنهم علموا أن الدنيا طالبة ومطلوبة والآخرة طالبة ومطلوبة ، فمن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى يستوفي منها رزقه ، ومن طلب الدنيا طلبته الآخرة فيأتيه الموت فيفسد عليه دنياه وآخرته ..

يا هشام : إن الله جل وعز حكى عن قوم صالحين أنهم قالوا : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (8) (آل عمران) حين علموا أن القلوب تزيغ وتعود إلى عماها ورداها .

يا هشام : لا دين لمن لا مروءة له ، ولا مروءة لمن لا عقل له ، وإن أعظم الناس قدراً الذي لا يرى الدنيا لنفسه خطراً ، أما أن أبدانكم ليس لها ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها بغيرها . .

(1) أشير به إلى الإمام الكبير (موسى الكاظم)

يا هشام : إن العاقل لا يحدث من يخاف تكذيبه ، ولا يسأل من يخاف منعه ، ولا يعد ما لا يقدر عليه ولا يرجو ما يعنف برجاه ، ولا يتقدم على ما يخاف العجز عنه . .

يا هشام : رحم الله من استحيا من الله حق الحياء ، فحفظ الرأس وما حوى ، والبطن وما وعى ، وذكر الموت والبلبلى ، وعلم أن الجنة مخوفة بالمكاره ، والنار مخوفة بالشهوات .

يا هشام : من كف نفسه عن أعراض الناس أقاله الله عثرته يوم القيامة ومن كف غضبه عن الناس كف الله عنه غضبه يوم القيامة .

يا هشام : إن العاقل لا يكذب وإن كان فيه هواه .

يا هشام : أصلح أيامك ، الذي هو أمامك ، فانظر أي يوم هو وأعد له الجواب ، فإنك موقوف ومسؤول ، وخذ موعظتك من الدهر وأهله ، فإن الدهر طويلة قصيرة ، فاعمل كأنك ترى ثواب عملك لتكون أطمع في ذلك ، واعقل عن الله وانظر في تصرف الدهر وأحواله ، فإن ما هو آت من الدنيا ، كما ولى منها ، فاعتبر بها . . .

وقال علي بن الحسين: إن جميع ما طلعت عليه الشمس في مشارق الأرض ومغاربها بجرها وبرها وسهلها وجبلها عند ولي من أولياء الله وأهل المعرفة بحق الله كفيء الظلال . . .

ثم قال: ألا حر يدع هذه اللماظة لأهلها - يعني الدنيا - فليس لأنفسكم ثمن إلا الجنة فلا تتبعوها بغيرها ، فإنه من رضي من الله بالدنيا فقد رضي بالحسبيس

يا هشام : إن كل الناس يبصر النجوم ، ولكن لا يهتدي بها إلا من عرف مجاريها ومنازلها ، وكذلك أنتم تدرسون الحكمة ، ولكن لا يهتدي بها منكم إلا من عمل بها .

يا هشام : إن كل نعمة عجزت عن شكرها بمنزلة سيئة تؤاخذ بها . . .

يا هشام : بئس العبد عبد يكون ذا وجهين وذا لسانين ، يطري أخاه إذا شاهده ، ويأكله إذا غاب عنه ، إن أعطي حسده وإن ابتلى خذله . .

يا هشام : لا يكون الرجل مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً ، ولا يكون راجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو .

يا هشام : إن مثل الدنيا مثل الحية مسها لين وفي جوفها السم القاتل ، يحدرها الرجال ذووا العقول ويهوي إليها الصبيان بأيديهم . .

يا هشام : صبر على طاعة الله ، واصبر عن معاصي الله . فإنما الدنيا ساعة فما مضى منها فليس تجد له سروراً ولا حزناً . وما لم يأت منها فليس تعرفه ، فاصبر على تلك الساعة التي أنت فيها فكأنك قد اغتبطت .

يا هشام : مثل الدنيا مثل ماء البحر كلما شرب منه العطشان ازداد عطشاً حتى يقتله .

يا هشام : إياك والكبر ، فإنه لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر . الكبر رداء الله فمن نازعه رداءه أكبه الله في النار على وجهه .

يا هشام : قال رسول الله ﷺ: إذا رأيتم المؤمن صموتاً فادنوا منه ، فإنه يلقي الحكمة . والمؤمن قليل الكلام كثير العمل والمنافق كثير الكلام قليل العمل . . .

يا هشام : أوحى الله تعالى إلى داود (عليه السلام) : قل لعبادي : لا يجعلوا بيني وبينهم عالماً مفتوناً بالدنيا فيصدهم عن ذكري وعن طريق محبتي ومناجاتي ، أولئك قطاع الطريق من عبادي ، إن أدن ما أنا صانع بهم أن أنزع

حلاوة محبتي ومناجاتي من قلوبهم . . .
يا هشام : أوحى الله تعالى إلى داود (عليه السلام) : يا داود حذر فأنذر أصحابك عن حب الشهوات ، فإن
المعلقة قلوبهم بشهوات الدنيا قلوبهم محجوبة عني . . .
يا هشام : إياك والكبر على أوليائي والاستطالة بعلمك فيمقتك الله ، فلا تنفك بعد مقتك دنياك ولا آخرتك .
وكن في الدنيا كساكن دار وليست له . إنما ينتظر الرحيل . . .
يا هشام : مجالسة أهل الدين شرف الدنيا والآخرة . ومشاورة العاقل الناصح يمن وبركة ورشد وتوفيق من الله .
فإذا أشار عليك العاقل الناصح فإياك والخلاف فإن في ذلك العطب .
وإذا مر بك أمران لا تدري أيهما خير وأصوب ، فانظر أيهما أقرب إلى هোক فخالفه ، فإن كثير الصواب في
مخالفة هোক . .
يا هشام : من أحب الدنيا ذهب خوف الآخرة من قلبه ، وما أوتي عبد علماً فازداد للدنيا حباً إلا ازداد من الله
وازداد الله عليه غضباً.

سرنا إلى آخر، وقد سمعته يقول لصاحبه: من علامة صدق التوبة أن تتمكن مرارة الذنوب من قلب التائب بدلاً
عن حلاوتها، فيستبدل بالليل كراهية، وبالرغبة نفرة.. وقد روي أن الله تعالى قال لبعض أنبيائه - وقد سأله قبول توبة
عبد بعد أن اجتهد سنين في العبادة ولم يرق قبول توبته - : (وعزتي وجلالي لو شفع فيه أهل السموات والأرض ما
قبلت توبته وحلاوة ذلك الذنب الذي تاب منه في قلبه)
قال الرجل: فالذنوب هي أعمال مشتبهة بالطبع فكيف يجد مرارتها؟
فرد عليه صاحبه: من تناول عسلاً كان فيه سم ولم يدركه بالذوق واستلذه ثم مرض وطال مرضه وتناثر شعره
وفلجت أعضاؤه، فإذا قدم إليه عسل فيه مثل ذلك السم وهو في غاية الجوع والشهوة للحلاوة، فهل تنفر نفسه عن
ذلك العسل أم لا؟
قال الرجل: لا شك أن نفسه تنفر منه .. بل إن نفسه ربما تنفر عن العسل الذي ليس فيه سم لشبهه به.
قال المرشد: فهكذا الأمر مع التائب .. فإن كل ذنب ذوقه ذوق العسل وعمله عمل السم، ولا تصح التوبة ولا
تصدق إلا بمثل هذا الإيمان.

قال الرجل: ولكن مثل هذا الإيمان عزيز؟

قال المرشد: ولهذا عزت التوبة وعز التائبون، فلا ترى إلا معرضاً عن الله تعالى متهاوناً بالذنوب مصراً عليها.

قال الرجل: فحدثني كيف أظهر نفسي من ذنوبي الماضية؟

قال المرشد: لقد ذكر المربون أن التائب الناصح هو من يرد فكره إلى أول يوم بلغ فيه، ويفتش عما مضى من
عمره سنة سنة وشهراً شهراً ويوماً يوماً ونفساً نفساً، وينظر إلى الطاعات ما الذي قصر فيه منها؟ وإلى المعاصي ما
الذي قارفه منها؟ فإن كان قد ترك صلاة أو صلاها في ثوب نجس أو صلاها بنية غير صحيحة لجهلة بشرط النية
فيقضيهما عن آخرها، فإن شك في عدد ما فاته منها حسب من مدة بلوغه وترك القدر الذي يستيقن أنه داء ويقضي
الباقي وله أن يأخذ فيه بغالب الظن ويصل إليه على سبيل التحري والاجتهاد.

وأما الصوم فإن كان قد تركه في سفر ولم يقضه أو أفطر عمداً أو نسي النية بالليل ولم يقض؛ فيتعرف مجموع ذلك بالتحرى والاجتهاد ويشتغل بقضائه.

وأما الزكاة فيحسب جميع ماله وعدد السنين من أول ملكه - لا من زمان البلوغ فإن الزكاة واجبة في مال الصبي - فيؤدي ما علم بغالب الظن أنه في ذمته.

وأما الحج فإن كان قد استطاع في بعض السنين ولم يتفق له بالخروج والآن قد أفلس فعليه الخروج، فإن لم يقدر مع الإفلاس فعليه أن يكتسب من الحلال قدر الزاد، فإن لم يكن له كسب ولا مال فعليه أن يسأل الناس ليصرف إليه من الزكاة أو الصدقات ما يحج به، فإنه إن مات قبل الحج مات عاصياً..

قال الرجل: هذا طريق التفثيش عن الطاعات وتداركها.. فكيف أفتش عن المعاصي؟

قال المرشد: يجب على التائب أن يفتش من أول بلوغه عن سمعه وبصره ولسانه وبطنه ويده ورجله وفرجه وسائر جوارحه، ثم ينظر في جميع أيامه وساعاته ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه حتى يطالع على جميعها صغائرها وكبائرها ثم ينظر فيها، فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق بمظلمة العباد، كنظر إلى غير محرم واعتقاد بدعة، وشرب خمر وغير ذلك مما لا يتعلق بمظالم العباد، فالتوبة عنها بالندم والتحسر عليها، وبأن يحسب من حيث الكبر ومن حيث المدة ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات أخذاً من قوله ﷺ: (اتق الله حيث كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها)، بل من قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ (114) (هود)، فيكفر سماع الملاهي الفاسقة بسماع القرآن ومجالس الذكر، ويكفر الرغبة عن المسجد بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة، ويكفر شرب الخمر بالتصدق بشراب حلال هو أطيب منه وأحب إليه.

وسر ذلك أن المرض إنما يعالج بضده، فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية فلا يحوها إلا نور يرتفع إليها بحسنة تضادها، والمتضادات هي المتناسبات، فلذلك ينبغي أن تمحى كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادها، فإن البياض يزال بالسواد لا بالحرارة والبرودة.

العلاقة مع الخلق:

بعد أن فتح الله علي في حمام التوبة ما فتح المرشد عن التصحيح الثالث، وهو تصحيح العلاقة مع الخلق، فقال: تعال معي إلى محكمة التوبة.. فسترى هناك كيف يصحح الصالحون علاقتهم مع الخلق..

قلت: وهل للتوبة محكمة؟

قال: كما للتوبة سوقها وحمامها، فلها محاكمها.

قلت: فمن القضاة فيها؟

قال: القاضي فيها واحد.

قلت: فمن هو؟

قال: هو الذي لا يظلم عنده أحد مثقال ذرة.

قلت: الله؟

قال: أجل.. فالله هو الديان، وهو القاضي الأعلى.. ولذلك لا يمكن أن ينجو ظالم من موازين عدالته.

قلت: ولكن موازين العدالة الإلهية تنصب في الآخرة لا في الدنيا.

قال: والموازين تملأ بأعمال الدنيا ..

قلت: فما علاقة ذلك بالتوبة؟

قال: العاقل هو الذي يزن أعماله قبل أن توزن عليه .. والعاقل هو الذي يبحث عن خصومه في الدنيا ليعقد معهم من العلاقة الصالحة ما يجعله بمنجاة من مطالبتهم له في الآخرة.

قلت: فهلم سر بي إلى هذه المحكمة، فإن لي من الخصومات ما أخاف منه على نفسي.

سرت معه إلى محكمة التوبة .. وهناك وجدت كثيراً من الناس يجري ويلهث، وكأن شيئاً يخافون أن يضيع منهم.

استوقفت أحدهم، وقلت له: أراك تعدو، وكأنك تبحث عن شيء .. فأخبرني عساني أبحث معك عنه.

قال: لقد اغتبت في يوم من الأيام بعض الناس .. وها أنا أبحث عنه لأستحله في الدنيا قبل أن يخاصمني بها في

الآخرة ..

ضحكت قائلاً: لا تخف .. ونم مطمئناً .. فلن يطالبك بشيء.

قال: أنت ملك من ملائكة الحساب؟

قلت: لا .. ولكن ما تفعل الغيبة أمام ما يفعله الجرمون من القتل والسلب والنهب؟

قال: أنت لا تعلم إذن خطورة المعاصي المتعدية .. لقد ورد في الحديث عن عائشة قالت: قلت للنبي ﷺ حسبك

من صفة كذا وكذا - قال بعض الرواة تعني قصيرة - فقال: (لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته - أي

لأنتنته وغيبت ريجه - قالت: وحكيت له إنساناً فقال: (ما أحب أني حكيت إنساناً وإن لي كذا وكذا)¹

وعن أنس قال: أمر النبي ﷺ الناس بصوم يوم وقال: (لا يفطرون أحد منكم حتى آذن له)، فصام الناس حتى إذا

أمسوا فجعل الرجل يجيء فيقول: يا رسول الله إني ظلمت صائماً، فأذن لي فأفطر فيأذن له والرجل حتى جاء رجل

فقال: يا رسول الله فتانان ظلتنا صائمتين وإمهما يستحييان أن يأتيانا فأذن لهما فليفطرا، فأعرض عنه، ثم عاوده، فأعرض

عنه، ثم عاوده فأعرض عنه، فقال: (إمهما لم يصوما، وكيف صام من ظل هذا اليوم يأكل لحم الناس، اذهب فمرهما

إن كانتا صائمتين فلتتقياً فرجع إليهما)، فأخبرهما فاستقأتا فقاءت كل واحدة علقه من دم، فرجع إلى النبي ﷺ فأخبره

فقال: (والذي نفسي بيده لو بقيتا في بطونهما لأكلتكما النار)²

وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: (أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى، فذكر منهم ورجل كان يأكل

لحوم الناس بالغبية وبمشي بالنميمة)³

ونظر رسول الله ﷺ في النار فإذا قوم يأكلون الجيف؟ فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ فقال: (هؤلاء الذين يأكلون

لحوم الناس ويقعون في أعراضهم)⁴

وقال ﷺ: (لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا

(1) رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح والبيهقي.

(2) رواه أبو داود والطيالسي وابن أبي الدنيا والبيهقي.

(3) رواه ابن أبي الدنيا والطبراني.

(4) رواه أحمد.

جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم¹
 وقال: (إن الرجل ليؤتي كتابه منشورا فيقول يا رب فأين حسنات كذا وكذا عملتها ليست في صحيفتي؟
 فيقال له محيت باغتيابك الناس)²
 قال ذلك، ثم انصرف مسرعا..
 استوقفت آخر، وقد رأيتَه يحمل صررا كثيرة من أنواع الأموال، فسألته عنه، فقال لي والدموع تنهمر من عينيه:
 أنا المفلس.

قلت: عجبا.. كيف تكون مفلسا، وأنت تحمل كل هذه الأموال؟
 قال: لبيتهم يقبلوها مني مقابل ما أسأت إليهم.
 قلت: من هم؟
 قال: خصومي.. الذين اغتبتهم وبهتهم.. ألم أقل لك: إني أنا المفلس.
 قلت: المفلس في تصوري هو الذي لا مال له ولا متاع.
 قال: ذلك تصور أهل الدنيا.. أما المفلس الحقيقي، فهو الذي وصفه رسول الله ﷺ بقوله: (إن المفلس من أمتي
 يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا،
 فيعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته، قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم، فطرح
 عليه، ثم طرح في النار)³

قال ذلك، ثم انصرف مسرعا يبحث عن خصومه.
 رأيت رجلا منفردا برجل يخاطبه بشدة، فسألته صاحبي عنه، فقال: هذا محام من المحامين مع موكله.
 قلت: عجبا.. لم أكن أتصور أن هناك محامين في هذه المحكمة.
 قال: هلم بنا إليه لنسمع ما يقول لموكله.
 اقتربنا منه، فسمعناه يقول لموكله بلهجة شديدة: اعلم أنه لا ينجو من خطر الموازين الإلهية إلا من حاسب في
 الدنيا نفسه، ووزن بميزان الشرع أعماله وأقواله وخطراته ولحظاته، كما قال عمر: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا،
 وزونها قبل أن تزنوا)

قال الموكل: فما السبيل إلى النجاة؟
 قال المحامي⁴: لا تتحقق النجاة إلا بحسابك لنفسك لتتدارك ما فرط من تقصيرك في فرائض الله تعالى، وأن ترد
 المظالم حبة بعد حبة، وتستحل كل من تعرضت له بأي لون من ألوان الإساءة.
 بهذا الطريق وحده يمكنك أن تضمن النجاة.. وإلا فإن من مات قبل رد المظالم أحاط به خصماؤه، فهذا يأخذ
 بيده، وهذا يقبض على ناصيته، وهذا يتعلق بلبيه، هذا يقول ظلمتني، وهذا يقول شتمتني، وهذا يقول استهزأت بي،

(1) رواه أبو داود.

(2) رواه الأصبهاني.

(3) رواه مسلم.

(4) بعض هذه الخطبة منقول بتصرف من كلام لأبي حامد في الإحياء.

وهذا يقول ذكرتنى فى الغيبة بما يسوعنى، وهذا يقول جاورتنى فأسأت جوارى، وهذا يقول عاملتنى فغششتنى، وهذا يقول بايعتنى فغبتتنى وأخفيت عنى عيب سلعتك، وهذا يقول كذبت فى سعر متاعك، وهذا يقول رأيتنى محتاجا وكنت غنيا فما أطعمتنى، وهذا يقول وحدتنى مظلوما وكنت قادرا على دفع الظلم عنى فدهانت الظالم وما راعيتنى.

فينا أنت كذلك وقد انشب الخصماء فىك مخالبيهم، وأحكموا فى تلايبك أيديهم، وأنت مبهوت متحير من كثرتهم حتى لم يبق فى عمرك أحد عاملته على درهم أو حالسته فى مجلس إلا وقد استحق عليك مظلمة بغيبة أو خيانة أو نظر بعين استحقار وقد ضعفت عن مقاومتهم ومددت عنق الرجاء إلى سيدك ومولاك لعله يخلصك من أيديهم إذ قرع سمعك نداء الجبار جل جلاله: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (غافر: 17) فعند ذلك ينخلع قلبك من الهيبة وتوقن نفسك بالبور وتتذكر ما أنذرك الله تعالى على لسان رسوله حيث قال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (42) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْتَدِيَهُمْ هَوَاءٌ (43) وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ أُولَئِكَ تَكُونُوا آفِسْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (44) وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَبَيِّنْ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ (45) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (46) فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفًا وَعْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (47)﴾ (إبراهيم)

فما أشد فرحك اليوم بتضمضك بأعراض الناس، وتناولك أموالهم، وما أشد حسراتك فى ذلك اليوم إذا وقف ربك على بساط العدل، وشوفهت بخطاب السياسة، وأنت مفلس فقير عاجز مهين لا تقدر على أن ترد حقا أو تظهر عدرا، فعند ذلك تؤخذ حسناتك التى تعبت فيها عمرك وتنقل إلى خصمائك عوضا عن حقوقهم.

فانظر إلى مصيبتك فى مثل هذا اليوم إذ ليس يسلم لك حسنة من آفات الرياء ومكاييد الشيطان، فإن سلمت حسنة واحدة فى كل مدة طويلة ابتدرها خصماؤك وأخذوها، ولعلك لو حاسبت نفسك وأنت مواظب على صيام النهار وقيام الليل لعلمت أنه لا ينقضى عنك يوم إلا ويجرى على لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفى جميع حسناتك فكيف ببقية السيئات من أكل الحرام والشبهات والتقصير فى الطاعات، وكيف ترجو الخلاص من المظالم فى يوم يقتص فيه للجماء من القرناء فقد روى أبو ذر أن رسول الله ﷺ رأى شاتين ينتطحان فقال: (يا أبا ذر أتدرى فيم ينتطحان؟) قلت: لا، قال: (ولكن الله يدرى وسيقضى بينهما يوم القيامة)¹

فكيف أنت يا مسكين فى يوم ترى صحيفتك خالية عن حسنات طال فيها تعبك، فتقول أين حسناتى، فيقال نقلت إلى صحيفة خصمائك، وترى صحيفتك مشحونة بسيئات طال فى الصبر عنها نصبك، واشتد بسبب الكف عنها عناؤك، فتقول: يا رب هذه سيئات ما قارفتها قط، فيقال: هذه سيئات القوم الذين اغتبتهم وشتمتهم وقصدتهم بالسوء وظلمتهم فى المبايعات والمجاورة والمخاطبة والمناظرة والمذاكرة والمدارسة وسائر أصناف المعاملة.

قال رسول الله ﷺ: (إن الشيطان قد يئس أن تعبد الأصنام بأرض العرب، ولكن سيرضى منكم بما هو دون ذلك بالحقرات، وهى الموبقات، فاتقوا الظلم ما استطعتم، فإن العبد ليحجىء يوم القيامة بأمثال الجبال من الطاعات، فىرى أهن سينجيه، فما يزال عبد يحجىء فيقول: رب إن فلانا ظلمنى بمظلمة فيقول: امح من حسناته، فما يزال كذلك

(1) رواه أحمد.

حتى لا يبقى من حسناته شيء، وإن مثل ذلك مثل سفر نزلوا بفلاة من الأرض ليس معهم حطب فترق القوم فحطبوا فلم يلبثوا أن أعظموا نارهم وصنعوا ما أرادوا¹

ولما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (30) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (31)﴾ (الزمر)، قال الزبير: يا رسول الله أكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب؟ قال: (نعم ليكررن عليكم حتى تؤدوا إلى كل ذى حق حقه)، فقال الزبير: والله إن الأمر لشديد².

فأعظم بشدة يوم لا يسامح فيه بخطوة، ولا يتجاوز فيه عن لطمة، ولا عن كلمة، حتى ينتقم للمظلوم من الظالم.. قال رسول الله ﷺ: (يحشر الله العباد عراة غرلا بما - قال الراوي: قلنا ما بما؟ قال: ليس معهم شيء - ثم يناديهم ربهم تعالى بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك، أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة، ولأحد من أهل النار عليه مظلمة حتى أقتصه منه، ولا لأحد من أهل النار أن يدخل النار، ولأحد من أهل الجنة عنده مظلمة حتى أقتصه منه، حتى اللطمة)، قلنا: وكيف وإنما تأتي الله عز وجل عراة غيرا بما؟ فقال: (بالحسنات والسيئات)³

فاتق الله عبد الله.. وإياك ومظالم العباد بأخذ أموالهم، والتعرض لأعراضهم، وتضييق قلوبهم، وإساءة الخلق في معاشرتهم.. فإن ما بين العبد وبين الله خاصة فالمغفرة إليه أسرع، ومن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها وعسر عليه استحلال أرباب المظالم فليكثر من حسناته ليوم القصاص، ويسر ببعض الحسنات بينه وبين الله بكمال الإخلاص بحيث لا يطلع عليه إلا الله، فعساه يقربه ذلك إلى الله تعالى، فينال به لطفه الذى ادخره لأحبابه المؤمنين في دفع مظالم العباد عنهم، كما روى عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال بينما رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه يضحك حتى بدت ثناياه، فقال عمر: ما يضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟ قال: (رجالان من أمتي جنيا بين يدي رب العزة، فقال أحدهما: يا رب خذ لي مظلمتي من أخي، فقال الله تعالى: أعط أحاك مظلمته قال: يا رب لم يبق من حسناته شيء فقال الله تعالى للطالب: كيف تصنع ولم يبق من حسناته شيء، قال: يا رب يتحمل عني من أوزاري - قال وفاضت عينا رسول الله ﷺ بالكاء - ثم قال: (إن ذلك ليوم عظيم، يوم يحتاج الناس إلى أن يحمل عنهم من أوزارهم)، قال فقال الله للطالب: ارفع رأسك فانظر في الجنان، فرفع رأسه فقال: يا رب أرى مدائن من فضة مرتفعة، وقصورا من ذهب مكللة باللؤلؤ.. لأى نبي هذا، أو لأى صديق هذا، أو لأى شهيد هذا؟ قال: لمن أعطاني الثمن، قال: يا رب ومن يملك ثمنه؟ قال: أنت تملكه، قال: وما هو قال: عفوك عن أخيك، قال: يا رب إن قد عفوت عنه، قال الله تعالى: (خذ بيد أخيك فأدخله الجنة)، ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: (اتقوا الله، وأصلحوا ذات بينكم، فإن الله يصلح بين المؤمنين)⁴

(1) رواه أحمد والبيهقي في الشعب مقتصرًا على آخره (إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه)، وإن رسول الله ﷺ لي ضرب لهن مثلا الحديث، أما أول الحديث فرواه مسلم مختصرا من حديث جابر (إن الشيطان قد أيسس أن يعبد المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم)

(2) رواه أحمد واللفظ له والترمذي وقال حسن صحيح.

(3) رواه أحمد بإسناد حسن.

(4) رواه ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله والحاكم في المستدرک.

وهذا تنبيه على أن ذلك إنما ينال بالتخلق بأخلاق الله، وهو إصلاح ذات البين وسائر الأخلاق.. فتفكر الآن في نفسك إن خلت صحيفتك عن المظالم، أو تطف لك حتى عفا عنك، وأيقنت بسعادة الأبد كيف يكون سرورك في منصرفك من مفصل الفضاء، وقد خلج عليك خلعة الرضا، وعدت بسعادة ليس بعدها شقاء، وبنعيم لا يدور بحواشيه الفناء، وعند ذلك طار قلبك سرورا وفرحا، وبيض وجهك واستنار وأشرق كما يشرق القمر ليلة البدر.. فتوهم تبخترك بين الخلائق، رافعا رأسك، خاليا عن الأوزار ظهرك، ونضرة نسيم النعيم وبرد الرضا يتلألأ من جبينك، وخلق الأولين والآخرين ينظرون إليك وإلى حالك ويعبطونك في حسنك وجمالك، والملائكة يمشون بين يديك ومن خلفك وينادون على رعوس الأشهاد هذا فلان بن فلان رضى الله عنه وأرضاه، وقد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا.. أفترى أن هذا المنصب ليس بأعظم من المكانة التي تنالها في قلوب الخلق في الدنيا بريائك ومداهنتك وتصنعك وتزينك فإن كنت تعلم أنه خير منه بل لانسبة له إليه، فتوسل إلى إدراك هذه الرتبة بالإخلاص الصافي والنية الصادقة في معاملتك مع الله فلن تدرك ذلك إلا به.

وإن تكن الأخرى - والعياذ بالله - بأن خرج من صحيفتك جريمة كنت تحسبها هينة وهى عند الله عظيمة فمقتك لأجلها، فقال: عليك لعنتي يا عبد السوء، لا أقبل منك عبادتك، فلا تسمع هذا النداء إلا ويسود وجهك، ثم تغضب الملائكة لغضب الله تعالى، فيقولون: وعليك لعنتنا ولعنة الخلائق أجمعين، وعند ذلك تتال إليك الزبانية وقد غضبت لغضب خالقها، فأقدمت عليك بفظاظتها وزعارتها وصورها المنكرة، فأخذوا بناصيتك يسحبونك على وجهك على مأل الخلق، وهم ينظرون إلى اسوداد وجهك، وإلى ظهور خزيك، وأنت تنادى بالويل والثبور، وهم يقولون لك: لا تدع اليوم ثورا واحدا وادع ثورا كثيرا، وتنادى الملائكة ويقولون هذا فلان بن فلان كشف الله عن فضائحه ومخازيه ولعنه بقبائح مساويه، فشقى شقاوة لا يسعد بعدها أبدا .. وربما يكون ذلك بذنب أذنبته خفية من عباد الله أو طلبا للمكانة في قلوبهم أو خوفا من الافتضاح عندهم، فما أعظم جهلك إذ تحترز عن الافتضاح عند طائفة يسيرة من عباد الله في الدنيا المنقرضة، ثم لا تحشى من الافتضاح العظيم في ذلك المأل العظيم مع التعرض لسخط الله وعقابه الأليم والسياق بأيدي الزبانية إلى سواء الجحيم ..

ما وصل المحامي من حديثه إلى هذا الموضوع حتى صرخ موكله صرخة عظيمة، ثم راح يلهث كما يلهث أصحابه بحثا عن مظالمه ليستحلها في الدنيا قبل أن يطالب بها أهلها بين يدي الله.

في ساحة تلك المحكمة العجيبة، شد انتباهي رجال يحملون أوراقا وأقلاما، وبين أيديهم رجل يسألونه، فيجيبهم، فيكتبون كل ما يقول باهتمام شديد.. سألت صاحبي عنه، فقال: هذا هو المدعي العام .. وهو يجيب الجناة عن الطريق الذي يصححون به جناياهم.

اقتربنا منه، فسمعت بعضهم يقول له: ما يفعل الجنائي قاتل النفوس ظلما ليصحح توبته؟

التفت إليه، وقال: إن جرى منه قتل خطأ فتوبته بتسليم الدية ووصولها إلى المستحق، إما منه، أو من عائلته.. وإن كان عمداً موجبا للقصاص، فبالقصاص، فإن لم يعرف فيجب عليه أن يتعرف عند ولي الدم، ويجكمه في روجه، فإن شاء عفا عنه، وإن شاء قتله.. ولا تسقط عهده إلا بهذا، ولا يجوز له الإخفاء ..

سأله آخر: فما يفعل من تناول مالا بغضب أو خيانة أو غبن في معاملة كترويح زائف، أو ستر عيب من المبيع أو

نقص أجرة أجير أو منع أجرته؟

التفت إليه، وقال: يجب أن يفتش عنه أولاً من حد بلوغه، بل من أول مدة وجوده، فإن ما يجب في مال الصبي يجب على الصبي إخراجه بعد البلوغ، إن كان الولي قد قصر فيه، فإن لم يفعل كان ظالماً مطالباً به، إذ يستوي في الحقوق المالية الصبي والبالغ، وليحاسب نفسه على الجبات والدوايق من أول يوم حياته إلى يوم توبته قبل أن يحاسب في القيامة، وليناقش قبل أن يناقش فمن لم يحاسب نفسه في الدنيا طال في الآخرة حسابه، فإن حصل مجموع ما عليه بظن غالب ونوع من الاجتهاد ممكن فليكتبه أسامي أصحاب المظالم واحداً واحداً وليطف في نواحي العالم وليطلبهم وليستحلهم أو ليؤد حقوقهم.

فإن عجز فلا يبقى له طريق إلا أن يكثر من الحسنات حتى تفيض عنه يوم القيامة فتؤخذ حسناته وتوضع في موازين أرباب المظالم، ولكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه فإنه إن لم تف بما حسناته حمل من سيئات أرباب المظالم فيهلك بسيئات غيره.. فهذا طريق كل تائب في رد المظالم وهذا يوجب استغراق العمر في الحسنات لو طال العمر بحسب طول مدة الظلم فكيف وذلك مما لا يعرف؟ وربما يكون الأجل قريباً؟ فينبغي أن يكون تشميره للحسنات والوقت ضيق أشد من تشميره الذي كان في المعاصي في متسع الأوقات.

أما أمواله الحاضرة فليرد إلى المالك ما يعرف له مالاً معيناً وما لا يعرف له مالاً فعلياً أن يتصدق به، فإن اختلط الحلال بالحرام فعلياً أن يعرف قدر الحرام بالاجتهاد ويتصدق بذلك المقدار كما سبق تفصيله في كتاب الحلال والحرام. سأله آخر: فما يفعل من تناول أعراض الناس بما يسوءهم أو يعيبهم في الغيبة؟

التفت إليه، وقال: يطلب كل من تعرض له بلسان أو آذى قلبه بفعل من أفعاله، وليستحل واحداً واحداً منهم، ومن مات أو غاب فقد فات أمره ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات لتؤخذ منه عوضاً في القيامة.

وأما من وجده وأحله بطيب قلب منه فذلك كفارته وعليه أن يعرفه قدر جنائته وتعرض له، فالاستحلال المبهم لا يكفي، وربما لو عرف ذلك وكثرة تعديه عليه لم تطب نفسه بالإحلال وادخر ذلك في القيامة ذخيرة يأخذها من حسناته أو يحمله من سيئاته، فإن كان في جملة جنائته على الغير ما لو ذكره وعرفه لتأذى بمعرفته يعظم آذاه مهما شوفه به فقد انسد عليه طريق الاستحلال، فليس له إلا أن يستحل منها ثم تبقى له مظلمة فليجبرها بالحسنات كما يجبر مظلمة الميت والغائب.

وأما الذكر والتعريف فهو سيئة جديدة يجب الاستحلال منها، ومهما ذكر جنائته وعرفه الجني عليه فلم تسمح نفسه بالاستحلال بقيت المظلمة عليه فإن هذا حقه، فعليه أن يتلطف به ويسعى في مهماته وأغراضه ويظهر من حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه، فإن الإنسان عبد الإحسان، وكل من نفر بسيئة مال بحسنة فإذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه سمحت نفسه بالإحلال، فإن أبي إلا الإصرار فيكون تلتطف به واعتذاره إليه من جملة حسناته التي يمكن أن يجبر بها في القيامة جنائته، وليكن قدر سعيه في فرحه وسرور قلبه بتودده وتلطفه كقدر سعيه في آذاه، حتى إذا قاوم أحدهما الآخر أو زاد عليه أخذ منه ذلك عوضاً في القيامة بحكم الله به عليه، كمن أتلف في الدنيا مالاً فجاء بمثله فامتنع من له المال من القبول وعن الإبراء فإن الحاكم يحكم عليه بالقبض منه شاء أم أبي، فكذلك يحكم في صعيد القيامة أحكم الحاكمين وأعدل المقسطين.

4- الترقى

بعد أن عرفت ما عرفت من أسرار التصحيح تاقت نفسي لمعرفة أسرار الترقى .. وقد دفعني إلى ذلك شعوري أن المكثفي بتصحيح ما وقع فيه من أخطاء دون مواصلة السير إلى ربه محبوب برؤية ذنوبه عن رؤية ربه ..
وحينما خطر هذا الخاطر على خاطري رحت أسرع إلى الفضيل لأقول له: لقد أصبحت جاهزا للمرحلة الأخيرة، فحدثني عنها.

نظر إلي مبتسما، وقال: هل امتلأت نفسك بمهمة المريدين الذين لا يقر لهم قرار دون السير إلى مولاهم .. أولئك الذين نعتهم ربه، فقال وهو يخاطب نبيه ﷺ في شأنهم: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (الكهف:28)

قلت: لا ادعي لنفسى هذه المرتبة السنية .. ولكني مع ذلك أشعر أنها أحب الأشياء إلى نفسي .. فمن الغبن أن يتوقف المسافر عن سفره لضر أصابه.

قال: الحجة بذر الإرادة .. فأبشر ..

قلت: فإلى أي محل سنسير؟

قال: سأسير بك إلى ولي من أولياء الله .. كان قمة من قمم الصفاء .. وروضة من رياض الفضيلة .. ومعراجا من معارج أهل الله للسير إلى الله.. وهو فوق ذلك كله باب مدينة العلم¹ ..
قلت: هلم بي إليه .. فما أشوق نفسي لأولياء الله.

سرت مسافات طويلة بشوق عظيم إلى أن رأيت رجلا هو كالشمس أو قريب من الشمس .. مع صاحب له يقال له همام كان رجلا عابدا ، فقال له: يا إمام صف لي المتقين حتى كأني أنظر إليهم؟

فتناقل الإمام عن جوابه ثم قال : يا همام، اتق الله وأحسن فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.
رأيت أن همام لم يقنع بما قال له الإمام، فراح يعزم عليه، فأجابه الإمام بعد أن حمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ بقوله: (أما بعد ، فإن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق حين خلقهم غنيا عن طاعتهم ، آمنا من معصيتهم ، لانه لا تضره معصية من عصاه ولا تنفعه طاعة من أطاعه . فقسم بينهم معاشهم ، ووضعهم من الدنيا مواضعهم . فالتقون فيها هم أهل الفضائل .. منطلقهم الصواب ، وملبسهم الاقتصاد ، ومشيهم التواضع .. غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم ، وقصروا أسماعهم على العلم النافع لهم ، نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء .. لولا الأجل الذي كتب الله عليهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم شوقا إلى الثواب ، وخوفا من العقاب . عظم الخالق في أنفسهم وصغر ما دونه في أعينهم ، فهم والجنة كمن قد رآها ، فهم فيها متعمون ، وهم والنار كمن قد رآها ، فهم فيها معذبون .. قلوبهم محزونة ، وشورهم مأمونة ، وأجسادهم نحيفة ، وحاجتهم خفيفة ، وأنفسهم عفيفة ، ومعونتهم في الاسلام عظيمة .. وصبروا أياما قصيرة فأعقبتهم راحة طويلة وتجارة مربحة يسرها لهم رب كريم .. أرادهم الدنيا

(1) أشير به إلى علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -

ولم يريدوها ، وطلبتهم فأعجزوها ، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها .. أما الليل فصافون أقدامهم تالين لاجزاء القرآن يرتلوها ترتيلا .. يحزنون به أنفسهم ويستشرون به دواء دائهم .. فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنا إليها طمعا وتطلعت نفوسهم إليها شوقا وظنوا أنما نصب أعينهم .. وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامح قلوبهم وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم ، فهم حانون على أوساطهم ، يمجدون جبارا عظيما ، مفترشون لجباههم وأكفهم وركبهم وأطراف أقدامهم ، يطلبون إلى الله في فكك رقابهم .. وأما النهار فحلمااء علماء أبرار أتقياء .. قد براهم الخوف بري القداح ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض . ويقول : قد حولطوا ولقد خالطهم أمر عظيم . لا يرضون من أعمالهم القليل ولا يستكثرون الكثير . فهم لانفسهم متهمون .. ومن أعمالهم مشفقون إذا زكي أحد منهم خاف مما يقال له فيقول : (أنا أعلم بنفسي من غيري، وربي أعلم بنفسي مني، اللهم لا تؤاخذني بما يقولون واجعلي أفضل مما يظنون واغفر لي ما لا يعلمون إنك أنت علام الغيوب وستار العيوب)، فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة في دين وحزما في لين وإيمانا في يقين وحرصا في علم وعلماء في حلم وقصدا في غنى وخشوعا في عبادة وتجملا في فاقة وصبرا في شدة وطلبا في حلال ونشاطا في هدى وتحرجا عن طمع . يعمل الاعمال الصالحة وهو على وجل . يمسى وهمه الشكر ويصبح وهمه الذكر . يبیت حذرا ويصبح فرحا ، حذرا لما حذر من الغفلة ، وفرحا بما أصاب من الفضل والرحمة . وإن استصعبت عليه نفسه فيما تكره لم يعطها سؤلها فيما تحب . قرّة عينه فيما لا يزول . وزهادته فيما لا يبقى . يمزج الحلم بالعلم ، والقول بالعمل . تراه قريبا أملة ، قليلا زلّ، خاشعا قلبه، قانعة نفسه ، منزورا أكله ، سهلا أمره ، حريزا دينه ، مبتة شهوته ، مكظوما غيظه ، قليلا شره ، كثيرا ذكره ، صادقا قوله .. الخير منه مأمول ، والشر منه مأمون . وإن كان في الغافلين كتب في الذاكرين . وإن كان في الذاكرين لم يكتب من الغافلين . يعفو عمن ظلمه . ويعطي من حرمه . ويصل من قطعه . وبعيدا فحشه . لينا قوله . غائبا منكروه . حاضرا معروفه . مقبلا خيره . مدبرا شره . في الزلازل وقور . وفي المكاره صبور . وفي الرخاء شكور . لا يحيف على من يبغض . ولا يأثم فيمن يجب . ولا يدعي ما ليس له ولا يجحد حقا هو عليه . يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه . ولا يضع ما استحفظ . ولا ينسي ما ذكر . ولا يتنازع بالالقباب . ولا يضار بالجار . ولا يشمت بالمصائب . سريعا إلى الصلوات مؤديا للامانات . بطيئا عن المنكرات . يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . لا يدخل في الباطل ولا يخرج من الحق . إن صمت لم يغمه صمته . وإن نطق لم يقل حظه . وإن ضحك لم يعل صوته قانع بالذي هو له . لا يحمج به الغيظ ولا يغلبه الهوى ولا يقهره الشح . يخالط الناس ليعلم . ويصمت ليسلم . ويسأل ليفهم . ويتجر ليغتم . ولا يعمل الخير ليفخر به . ولا يتكلم به لتتجر به على من سواه . وإن بغى عليه صبر حتى يكون الله هو الذي ينتقم له . نفسه منه في غناء . والناس منه في راحة أتعب نفسه لآخرته ، وأراح الناس من نفسه . بعده عمن تباعد عنه زهد ونزاهة . ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة . ليس تباعده تكبرا وعظمة ، ولا دنوه لمكر ولا خديعة¹

(1) هذه الخطبة الجليلة مروية عن علي - رضي الله عنه - وقد ورد في حاشيتها أن هاما لما سمع هذه الموعظة صعق صعقة كانت نفسه فيها .. فقال علي - رضي الله عنه - : أما والله لقد كنت أخافها عليه . ثم قال : هكذا تصنع الموعظة البالغة بأهلها . فقال له قائل : فما بالك أنت يا أمير المؤمنين؟ فقال: (ويحك إن لكل أجل وقتا لن يعدوه وسببا لا يتجاوزه . فمهلا لا تعد مثلها ، فإنما نفت الشيطان على لسانك)

بعد أن سمعت هذه الكلمات العذبة الممتلئة بالأنوار امتلأت بحمة عظيمة دفعني لأن أسير إلى هذه الإمام،
والدموع تنهمر من عيني، وأنا ممتلئ بأشواق عظيمة.

ما إن رأني الإمام حتى قال: مرحبا بالتائب الذي يبحث عن الطهارة.

قلت: أنا بين يديك .. ولعل الله أطلعك من شأنني ما يكفيني هم السؤال.

قال: أنت تبحث عن الترقى .. والترقى لا يكون إلا بالتصحيح .. فسر إلى أولياء القتييل .. وأخبرهم خبرك ..

وكل ما فعلوه بك، فاعلم أنه مراد الله فيك.

قلت: أخاف أن يجسوني .. ولعل ذلك يحول بيني وبين السير الذي أعزم عليه.

قال: ألم تسمع إلى الصديق، وهو يقول: ﴿رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ﴾ (يوسف: من الآية 33)؟

قلت: بلى ..

قال: لم طلب يوسف السجن؟

قلت: لقد خير بين الرذيلة والسجن .. فاختار السجن.

قال: وأنت محير بين أن يقف القتييل وأولياء القتييل يوم القيامة خصماء لك .. وبين أن تستحل منهم اليوم ..

فاختر لنفسك ما تراه.

قلت: لأن أظهر اليوم خير من أن أظهر غدا.

قال: فسر إليهم .. وأخبرهم عن شأنك .. وما فعلوه بك .. فافرض به.

قلت: والسير إلى الله؟

قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ (الحديد: من الآية 4)

قلت: فما أعمل في السجن إن أدخلوني إليه؟

قال: ما كان يعمل به يوسف .. لقد اتخذ السجن مسرحا للدعوة إلى الله .. ألم تسمع قوله لصاحبيه: ﴿ذَلِكُمْ مِمَّا

عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (37) وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ

وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُنْشِرَكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (38)

يَا صَاحِبِي السَّجْنَ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (39) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ

وآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا

يَعْلَمُونَ (40)﴾ (يوسف)

قلت: هذا ما بشر به يوسف .. فبم أبشر أنا؟

قال: بما علمك الفضيل .. بشر المتألمين من السجناء أن رحمة الله الواسعة تنتظرهم إن هم تنعموا بشمس محمد ﷺ

التي تطل على العالمين.

ما إن قال ذلك حتى شعرت بأشواق تشدني إلى السجن، بل تحيله في ناظري قصرا من القصور لا يقل في جماله

عن كل القصور التي تتنافس عليها أهل الدنيا.

أسرعت بمجرد رجوعي إلى بلدي إلى أقرب مركز للشرطة، وهناك أخبرهم عن جرمي، واعتذرت بكل صنوف

الاعتذار لأهل القتييل، وها أنا الآن بينكم أحاول أن أرفع من أمري ما تحرق، وأصحح ما وقعت فيه نفسي من أنواع

الدينس.

والحمد لله .. لقد ملأني الله في هذا السجن بأنوار من الإيمان والسعادة والرحمة لم أجد لها مثيلا في حياتي جميعا.

قال السجين ذلك، ثم التفت إلى السجناء، وقال: هذه قصتي أزفها إليكم بعجرها وبجرها، عسى الله أن يبصركم بها، وأن يرفع همتكم في هذا السجن لتسيروا إليه، فلا خير إلا عنده، ولا رحمة إلا لمن سلك سبيله.
ما إن انتهى السجين من كلامه حتى صاح جميع أهل السجن بالتهليل والتكبير .. والعجب أن صاحبي كان من جملة المهللين والمكبرين .. وقد رأيت على وجهه من سيما الإيمان والصدق ما دلني على صدق تهليله وتكبيره.
خرجت من السجن .. وأنا أشعر بأن أشعة كثيرة تنزل علي من شمس محمد ﷺ .. لتمحو بعض أكداس الظلمات التي كانت نفسي غارقة فيها.

عاشرا - الكائنات

في اليوم العاشر، ذهبت إلى مذبح في ضواحي المدينة سمعت أن جمعية للرفق بالحيوان من بلادنا زارته، وكان من أعضائها صديق قديم .. كان في بلادنا أشهر من نار على علم .. لعلك سمعت به .. إنه (جوان بلمنت) .. لقد كان (ماتادورا) .. أو كما تعبرون أنتم (مصارع ثيران)¹ .. بل كان من أشهر من مصارعي الثيران .. وكان كثيرا ما يحدثني عن بطولاته في فهر الثيران المسكينة.

لقد كان يحدثني بحماسة عن دخوله للميدان المخصص للمصارعة .. وكيف كان يقوم بمواجهة الثور بمفرده .. وكيف كان يحاور الثور المهاجم بتحريك رداء أو قطعة من القماش .. وكيف كان يقتل الثور في نهاية المصارعة بكل برودة .. لتصبح الجماهير بعدها تحييه، وتحيي بطولته، وتحيي معها قسوة قلبه اللامتناهية.

في ذلك اليوم تعجبت إذ رأيته هناك .. فلم يكن المذبح مذبح ثيران، بل كان مذبح دجاج .. فتساءلت بيني وبين نفسي: ما بال الرجل جاء لهذا المحل .. أتراه تحول - بسبب تقدم سنه - من مصارعة الثيران إلى مصارعة الدجاج .. أو تراه جاء يطلب بعض الديكة ليجري بينها الصراع .. فقد أخبرني أنه - كما يهوى مصارعة الثيران - يهوى مصارعة الديكة².

لم تكن المفاجأة برؤيتي له في ذلك المحل أكبر من مفاجأتي من حديثه .. لقد رأيته يخاطب الجموع المتلفة حوله من عمال ذلك المذبح .. وفي عينيه دموع لو لم أكن أعرفه جيدا لصدقت أنها دموع رحمة .. ولكن معرفتي الطويلة به، وبأسلوبه في الحياة جعلني أرى في دموعه ما لا أرى في دموع غيره.

(1) مصارعة الثيران رياضة تتم بين ثور ورجل، وهي رياضة محبوبة في كثير من الأقطار المتحدثة باللغة الأسبانية إضافة إلى البرتغال وجنوبي فرنسا .. ويعد مصارعو الثيران في بعض الأقطار كإسبانيا والمكسيك أبطالاً قوميين. تجري مصارعة الثيران في ميدان مخصص ويسمى حلبة مصارعة الثيران. وفي أثناء المصارعة يقوم المصارع بمواجهة الثور بمفرده، ويحاول محاوره الثور المهاجم بتحريك رداء أو قطعة من القماش. وفي نهاية المصارعة، يقتل المصارع الثور في كثير من الأقطار. أما في البرتغال، وفي بعض حلبات مصارعة الثيران في فرنسا، يُعد قتل الثور عملاً غير قانوني. وتربي ثيران المصارعة خصيصاً للمصارعة، فهي حيوانات قوية وعنيفة وقد تزن 450 كجم أو أكثر من ذلك. وقد يجرح الثور من يصارعه جرحاً خطيراً، وربما يقتله بقرونه ..

وهذه الرياضة محرمة في الإسلام لما فيها من تعذيب وإيذاء للثيران، حيث نهى الإسلام عن ممارسة أي شكل من أشكال تعذيب الحيوان أو إيذائه. (انظر: الموسوعة العربية العالمية)

(2) مُصارعة الدِّيكة: لعبة يتصارع فيها اثنان من ديك المصارعة، وهي ديك صغيرة، في نزال حتى الموت .. وهي تحتل مكانها باعتبارها واحدة من الألعاب الشعبية المحبوبة في إسبانيا وأمريكا اللاتينية، وأجزاء من شرق آسيا.

تقام مباريات صراع الديكة في حلبة مغلقة في الهواء الطلق عادة .. ويراهن المتفرجون على ديكهم المفضلة. في بداية المباراة يمسك المدربون بديكتهم جيداً، ويدعوها ينقر بعضها بعضاً. وحين يشتد غضب الديكة، يطلقونها ويبدأ النزال.

نشأت مصارعة الديكة في آسيا منذ آلاف السنين. وعُرفت اللعبة طريقها إلى روما وبلاد الإغريق عن طريق الهند والصين. ثم انتشرت في أنحاء أوروبا. وفي القرن السابع عشر الميلادي، أصبحت لعبة شعبية في إنجلترا حيث صارت تربية ديك المصارعة وتدريبها تجارة مهمة.

ولاشك في حرمة مثل هذا النوع من المصارعة لورود النهي عن التحرش بين الحيوانات، ولما في ذلك من الوحشية، وعدم الرفق بالحيوان. فإذا أضيف إلى ذلك الرهان بين المشاهدين كان ذلك أشد. (انظر: الموسوعة العربية العالمية)

لقد كانت دموعه أشبه بذلك المنديل الذي كان يحاور به الثيران .. فهو خدعة من خدعه، وحيلة من حيله .. وقد أفصح لي عنها مرة عندما رأيته يبكي، فحزنت لبكائه، وراحت دموعي تراحم دموعه، وفجأة ضحك بصوت عال، وقال: ها قد نجحت في أن أجرك إلى حلبتي.

قلت له حينها: ما تعني؟

قال لي، وهو لا يزال يضحك: لقد علمتني مصارعة الثيران أشياء كثيرة في حياتي، من بينها قدرتي على التلاعب بالعقول والعواطف .. فأنا يمكنني أن أبكي من شاء .. كما يمكنني أن أضحك من أشياء. في ذلك اليوم .. وفي تلك اللحظات .. رحت أستمع إليه، وأرى في نفس الوقت وجوه المستمعين، وهي منشغلة انشغالا تاما بحديثه.

كان يمسك بيده دجاجة مذبوحة، وهو يقول: إن هذه الدجاجة المسكينة التي ترونها كائن حي له من المشاعر والأحاسيس ما لنا جميعا.

إنما تشعر بالألم كما نشعر .. وهي تحب الحياة كما نحبها .. وهي لا ترضى أن يحصل لها ما حصل كما لا ترضى أن يحصل لنا.

تصوروا أنفسكم في هذا الموقف .. أو تصوروا أحب الناس إليكم، وقد أصابه ما أصاب هذه الدجاجة المسكينة. قال ذلك، ثم اغرورقت عيناه بدموع لم يستطع في الظاهر أن يجبسها.

قام بعض الحضور، وقال: نحن نقدر مشاعرك النبيلة .. ولكن ما الحل الذي تراه؟ .. هل ترى أن نتوقف عن أكل الدجاج وسائر الحيوان؟

قال بلمنت - وقد توقفت دموعه فجأة -: لا .. أنا لم أقل ذلك .. أنا لم أقل لكم تحولوا إلى نباتيين .. فأنا أعرف أن جسم الإنسان يحتاج إلى بروتينات حيوانية .. وأنا شخصا من المدمنين على أكل اللحوم بجميع أنواعها.

قال الرجل: فما الحل إذن؟

قال بلمنت، وهو يشير إلى رأس الدجاجة: أنا أحدثكم عن هذا .. حاولوا أن تستشعروا الألم الذي شعرت به هذه الدجاجة، وهي تسلم رأسها للسياف .. انظروا كيف أذاقها الموت الزؤام .. وكيف شربته قطرة قطرة ..

قال الرجل: فما الحل؟

هنا تحول بلمنت إلى مصارع ثيران حقيقي، حيث راح يتحرك بكل قوة، وهو يقول: الحل بسيط .. بسيط جدا..

لقد استطاعت حضارتنا العظيمة أن تجد الحل .. وقد طبقناه في بلادنا .. وقد أتيناكم به هنا لتطبقوه، وتتخلوا عن تلك الأعراف الجاهلية البائدة التي جاءكم بها ذلك الذي تدعونه محمدا¹.

عندما قال هذا تغيرت وجوه العمال، وقام أحدهم، وقد عرفت بعد ذلك أن اسمه (غلام مصطفى خان)،

(1) تحدثنا عن التفاصيل الكثيرة الدالة على رحمة الإسلام بالكائنات المختلفة في رسالة (أكون الله) من سلسلة (عيون الحقائق) .. ولذلك، فستحدث هنا عن بعض الأمثلة فقط، والتي يقتضيها المقام، من غير تفصيل.

وعرفت أنه رئيس جمعية أطباء المسلمين في بريطانيا، وقال: ما تعني؟
قال بلمنت: لقد رأيت الكثير من الناس .. وصحبت الكثير .. وقرأت عن الكثير .. لكنني لم أجد رجلا قسا
على الكائنات كما قسا عليها محمد ودين محمد.

قال خان: وكيف عرفت ذلك؟

قال بلمنت: ألا يكفي هذا الرأس ليدلك على ذلك .. ألا ترى أنه لا يسيل الدماء إلا المتعطش للدماء؟
قال خان: ولكنك ذكرت لنا أنك من المدمنين على اللحم، ومن المحبين له .. فكيف تراك تحصل عليه؟ .. أنتتظر
الحيوان حتى يموت لتأكله؟

غضب بلمنت غضبا شديدا لا يخلتلف عن غضبه في حلبة الصراع، وقال: أنت تشتمني بقولك هذا يا رجل .. أنا
إلى الآن أحاطبكم بالرفق واللين .. كيف تتهمني بأكل الميتة؟

قال خان: أتراك تقطع الحيوان .. وهو حيوان حي صحيح لتأكله؟

قال بلمنت: أتبلغ بي القسوة إلى هذا الحد؟

قال خان: فكيف تأكله إذن ما دمت لا تأكله ميتة، ولا تأكله مذبوحا؟

قال بلمنت: لقد ذكرت لكم أن حضارتنا وجدت الحل .. لقد وجدنا الحل الممتلئ بالرحمة .. وهو حل
يخلصكم من قسوة محمد ودين محمد.

قال خان: فأسعفنا به.

قال بلمنت: الحل بسيط جدا .. بدل أن يذبح الحيوان بالسكين الحادة المؤلمة، استطاع قومنا أن يخلصوه من
روحه من دون أي ألم .. وقد جئنا هنا لنعلمكم ذلك.

لا شك أنكم تعرفون الكهرباء .. وتعرفون الصعقة الكهربائية¹ ..

إن هذه تقنيات حديثة لم تكن في عهد محمد .. ولعلها لو كان في عهده لأخذ بها .. هذا طبعا إن كان في قلبه

(¹) ورد في التقرير المرفق الذي نشرته (مجلة المجتمع) الكويتية في عددها رقم (414) بتاريخ أول ذي القعدة 1398هـ عن
طريقة الذبح في مذابح بريطانيا خاصة، وما يترتب على هذه الطريقة من آثار سيئة حسب تحقيق بعض الأطباء المسلمين في
بريطانيا:

بالنسبة للخرفان والأبقار: يؤتى بالخروف والبقر إلى مكان مخصوص، حيث يقوم رجل بإيصاله صدمة كهربائية بواسطة آلة
خاصة أشبه بالمقص توضع على مقدم رأسه مما يجعل الحيوان يفقد حواسه ويسقط على الأرض، وهناك طريقة أخرى لا تزال تتبع
في كثير من الأمكنة، وهي ضرب الحيوان بمطرقة حديدية على الرأس، ويتم ذلك بطريق مسدس يتعلق بفوهته قطعة حديدية مثل
الرصاص، فإذا أصاب الرأس سقط الحيوان مغشيا عليه، ثم يعلق رأسا على عقب برافعة، ويدفع إلى الجزار، فإذا كان الجزار
مسلمًا - وذلك في مجازر معينة تستأجر للجزارين المسلمين لذب كمية محدودة للاستهلاك المحلي للسكان المسلمين فقط - قام
بذبح الحيوان المعلق بسكين حاد على الطريقة المألوفة لدى المسلمين فيخرج منه الدم بعد ذلك إلى المرحلة التالية من السليخ
والقطع، وأما إذا كان الجزار غير مسلم قام بغرز السكين داخل الحلق من الطرف ثم أخرجته بقوة إلى الخارج، مما يقطع بعض
أوداجه ليسيل منه الدم.

بالنسبة للدجاج: أما الدجاج فإمما يتم تخديره بصدمة كهربائية أيضا، ولكن على قاعدة الغسيل بالماء الذي يمر به التيار
الكهربائي، ثم يجرح رقبتة بسكين حاد أتوماتيكيا ليخرج منه الدم، إلى أن تتم المراحل الباقية من التنف والتصفية؛ ليكون جاهزا
للتصدير.

شيء من الرحمة.

قال خان: لقد رأيت ما تمارسه المجازر التي تريد أن تنقل تقنياً إلينا، وقد عرفت السر في عملها هذا .. إنها تدعي أن قصدها هو رحمة الحيوان .. ولكن الهدف الحقيقي المحبب وراء ذلك هو الحصول على أكبر كمية من اللحم في مدة قصيرة.. أو عبارة أخرى هي تهدف لتحقيق مكاسب تجارية على مستوى واسع.. أو عبارة أخرى هي تضحك على الحيوان المسكين أو على البشر المساكين حين توهمهم أن الصعقة الكهربائية أرحم وأحن على الحيوان من تلك الشفرة الحادة التي يستعملها المسلمون، كما استعملها قبلهم أجيال كثيرة من البشر.

لقد قمت مع مجموعة من الأطباء بإجراء تحقيق كامل في مثل هذه اللحوم، ووصلت إلى مجموعة نتائج .. منها أن تخدير الحيوان قبل الذبح يسبب فتوراً لدى الحيوان، وانكماشاً في قلبه، فلا يخرج منه الدم عند الذبح بالكمية التي تخرج عادة.. ومن المشاهد أن طعم اللحم الذي خرج منه الدم كاملاً غير طعام الحيوان الذي بقيت فيه كمية من الدم.. وقد رأيت أثناء تواجدني في (برمنجهام) أن من الإنجليز من يفضل الحيوان المذبوح بالطريقة الإسلامية للأكل؛ وذلك لأجل طعمه المتميز عن بقية اللحوم.

ومنها أن الصدمة الكهربائية لا تؤدي مقصودها في جميع الأحوال، فإذا كانت الصدمة مثلاً خفيفة بالنسبة لضخامة الحيوان بقي مفلوجاً بدون أن يفقد الحواس ويشعر بالألم مرتين: الأولى: بالصدمة الكهربائية أو بضربة المسدس، والثانية: عند الذبح .. أما إذا كانت الصدمة الكهربائية شديدة لا يتحملها الحيوان، فإنها تؤدي إلى موته بتوقف القلب، فيصير ميتة لا يجوز أكله بحال من الأحوال.

ومنها أن الطريقة المتبعة لدى المسلمين أرحم بالحيوانات؛ وذلك لأن الذبح يتم بسكين حاد بسرعة فائقة، ومن الثابت أن الشعور بالألم ناتج عن تأثير الأعصاب الخاصة بالألم تحت الجلد، وكلما كان الذبح بالطريقة المذكورة خف الشعور بالألم أيضاً، ومن المعروف أن قلب الحيوان الذي لم يفقد حسه أكثر مساعدة على إخراج الدم.

قال ذلك، ثم التفت لصديق له عرفت بعد ذلك أن اسمه (محمد أسد)¹.. وقال له: أخبرهم يا محمد عن التعاليم التي جاء بها الإسلام في شأن التعامل مع الذبيحة.
قال محمد: لقد دعا الإسلام إلى الرحمة الشاملة التامة العامة .. ومنها الرحمة بالحيوان إذا أريد ذبحه ..

(¹) أشير به إلى (محمد أسد) (1900-1992م)، وهو صحفي نمساوي يهودي وُلد بإقليم من أقاليم بولندا كان تابعاً آنذاك للإمبراطورية النمساوية، وكان يسمى ليوبولد فايس، ثم دخل في الإسلام سنة 1926م بعد أن رحل إلى الجزيرة العربية أيام الملك عبد العزيز آل سعود، ثم انتقل بعد ذلك إلى شبه القارة الهندية حيث توثقت بينه وبين العلامة إقبال عُسرَى الصداقة، وظل يساعد في إذكاء نُهضة الإسلام في تلك البلاد إلى أن انفصلت باكستان عنها فانتقل إلى الإقامة في الدولة المسلمة الجديدة واكتسب جنسيتها وأصبح مندوبها الدائم في الأمم المتحدة حتى عام 1953م.
وقد ترك عدة كتب تُرجم بعضها إلى العربية، منها (الطريق إلى مكة)، و(الإسلام في مفترق الطرق)، و(منهاج الحكم في الإسلام)، وله ترجمة إنجليزية للقرآن الكريم، اسمها The Message of the Quran، وله ترجمة لقسم من صحيح البخاري بعنوان Sahih al-Bukhari- The Early Years of Islam، وبقية سيرته الذاتية، وعنوانها Coming Home of the Heart

وقد تحدثنا عنه ببعض التفاصيل في رسالة (قلوب مع محمد) من هذه السلسلة.

ومن هذه الرحمة أن يحسن الذابح الذبيح، وأن يجد الشفرة، وأن يريح الذبيحة .. ففي الحديث قال رسول الله ﷺ: (إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتل، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته)¹

ومنها أن يستر الشفرة عن الذبيحة حتى لا تتألم برؤيتها .. ففي الحديث أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يجد الشفرة أمام الشاة، فقال له: (أتريد أن تميتها ميتتين؟.. هلا أهددت شفرتك قبل أن تضجعها)²

ومنها أن لا يذبح الحيوان أمام غيره من الحيوانات، فقد قال علي بن أبي طالب: (لا تذبح الشاة عند الشاة، ولا الجزور عند الجزور وهو ينظر إليه)

ومنها عدم القسوة في معاملتها؛ كجرها من موضع إلى آخر برفق، وقد روي عن عمر أنه رأى رجلاً يسوق شاة ليدبحها سوقاً عنيفاً، فضربه بالدرة ثم قال له: (سقها إلى الموت سوقاً جميلاً لا أم لك)

ومنها عدم القسوة في الضغط عليها وإيلامها، فقد روي عن عمر أنه رأى رجلاً أضجع شاة ووضع رجله على صفحة وجهها وهو يجد الشفرة، فضربه بالدرة فهرب الرجل، وشردت الشاة.

ومنها عدم قطع أي جزء منها قبل موتها، فالقطع تعذيب وحرام، ولا يجوز أكل ما يقطع منها قبل ذبحها، كما لا يجوز قطع أي شيء منها قبل أن تستقر - أي يتأكد من موتها - امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿... فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا .. (36)﴾ (الحج)، فلم ييح الله أكل شيء منها قبل وجوب الجنب، وهو الموت.. ويدخل في باب التعذيب جمع الأغنام معاً وذبحها بالدور وهي تشاهد الذبح.

ومنها معاملة الحيوان بعد ذبحه برفق، فلا يكسر عنقه، ولا يقوم بسلخه أو قطع أي عضو منه حتى يبرد، فإذا فعل ذلك فقد أساء وأكلت الذبيحة .. ويرى ابن حزم - وهو من فقهاء المسلمين الكبار - عدم حل أكل ما قطع من البهيمة قبل أن تموت وتبرد، لقول عمر: (أفروا الأنفس حتى ترهق)³ .. ويرى الإباضية عدم جواز أكل الذبيحة إذا سلخت قبل أن تبرد.⁴

قام آخر، وقد عرفت بعد ذلك أن اسمه (أبو حذيفة)⁵، وقال: وفوق ذلك، فقد حذر ﷺ من اتخاذ الحيوان وكل

(1) رواه مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه.

(2) رواه الحاكم وعبد الرزاق.

(3) المحلى لابن حزم: 457 / 7.

(4) النيل وشفاء العليل: 465 / 4.

(5) أشير به إلى الصحابي الجليل (أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة)، كان من السابقين إلى الإسلام، فقد أسلم قبل دخول المسلمين دار الأرقم بن أبي الأرقم، وهاجر مع امرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو إلى أرض الحبشة، وولدت له هناك ابنه محمد بن أبي حذيفة، ثم قدم على الرسول ﷺ في مكة، فأقام بها حتى هاجر إلى المدينة، وشهد المشاهد والغزوات كلها مع النبي ﷺ . وفي غزوة بدر، كان أبو حذيفة يقاتل في صفوف المسلمين، بينما أبوه عتبة وأخوه الوليد وعمه شيبه يقفون في صفوف المشركين، فطلب أبو حذيفة من أبيه الكافر عتبة بن شيبه أن يبارزه، فقالت أخته هند بنت عتبة شعراً جعلته يصرف النظر عن مبارزة أبيه، وبعد انتهاء غزوة بدر، أمر النبي ﷺ بسحب القتلى المشركين؛ لتطرح جثثهم في البحر، ثم وقف على حافة البحر، وخاطب المشركين، وقال: (يا أهل القلب، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً؟) فقالوا: يا رسول الله، تكلم قوماً موتي؟ قال: (والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون الجواب)

ذي روح غرضاً ، أي هدفاً للرمي .. فعن ابن عباس قال : (نهي رسول الله ﷺ عن قتل كل ذي روح إلا أن يؤذي)¹
وعن أنس أنه دخل دار الحكيم بن أيوب ، فرأى غلماناً تصبوا دجاجةً يرُمونها .. فقال أنس : (نهي رسول الله ﷺ
أن تصبر البهائم)²

ونهي ﷺ عن قتل العصافير ، فقال : (من قتل عصفوراً عجز إلى الله يوم القيامة يقول : يا رب إن فلاناً قتلني عبثاً
ولم يقتلني منفعة)³

وقال : (ما من إنسان قتل عصفوراً فما فوقها بغير حقها إلا سأله الله عز وجل عنها) ، قيل : يا رسول الله وما
حقها ؟ قال : (يذبها فبأكلها ولا يقطع رأسها يرمي بها)⁴

ونهي رسول الله ﷺ عن تعريض الحيوانات للجوع .. ففي الحديث عن عبد الله بن جعفر قال : ركب رسول الله
ﷺ بغلته وأردفني خلفه ، فدخل حائطاً لرجل من الأنصار ، فإذا فيه ناضح له ، فلما رأى النبي ﷺ حن وذرفت عيناه ،
فنزول رسول الله ﷺ ، فمسح ذفره وسرته فسكن ، فقال : من رب هذا الجمل ؟ فجاء شاب من الأنصار فقال : أنا ،
فقال : (ألا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها ، فإنه شكاك إليّ وزعم أنك تجيعه وتدببه)⁵

وأمر ﷺ بالرفق بالحيوانات المتخذة للركوب ، فعن عائشة أنها ركبت بعيراً وفيه صعوبة ، فجعلت تردده ، فقال
ﷺ : (عليك بالرفق)⁶

وكان ﷺ ينهي عن إرهاق الحيوان بإيقافه وإطالة الجلوس عليه من غير ضرورة .. وقد دخل على قوم وهم
وقوف على دواب لهم ورواحل ، فقال : (اركبوها سالمة ، ودعوها سالمة ، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق
والأسواق ، فرب مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكراً لله منه)⁷

وقال ﷺ : (إياكم أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر ، فإن الله إنما سخرها لكم لتبلغكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلا
بشق الأنفس ، وجعل لكم الأرض فعليها فافضوا حاجاتكم)⁸

ونهي ﷺ عن التحريش بين الحيوانات ، وهو الإغراء وتهيج بعضها على بعض كما يفعل بين الجمال والكنباش

ورأى أبو حذيفة أباه يسحب ليرمي في البئر ، فتغير لونه ، وأصابه الحزن ، وعرف النبي ﷺ ذلك في وجهه ، فقال له : (كانك
كاره لما رأيت) فقال : يا رسول الله ، إن أبي كان رجلاً سيئاً ، فرجوت أن يهديه ربه إلى الإسلام ، فلما وقع الموقع الذي وقع
أحزنتني ذلك ، فدعا رسول الله ﷺ له بخير .

وكان أبو حذيفة يتمنى أن يستشهد في سبيل الله ، فظل يجاهد حتى توفي الرسول ﷺ ، وفي عهد الخليفة أبي بكر ، كان أبو
حذيفة في أول صفوف الجيش الإسلامي المتجه إلى اليمامة لقتال مسيلمة الكذاب ، وتحقق لأبي حذيفة ما كان يتمناه من الشهادة
في سبيل الله فوقع شهيداً .

(1) رواه البخاري ومسلم .

(2) رواه البخاري .

(3) رواه ابن حبان .

(4) رواه النسائي .

(5) رواه أبو داود وأحمد .

(6) رواه مسلم .

(7) رواه أحمد .

(8) رواه أبو داود وقال إسناده حسن .

والديوك وغيرها .. ففي الحديث عن ابن عباس قال: (نهى رسول الله ﷺ عن التحريش بين البهائم)¹
 التفت (أبو حذيفة) إلى بلمنت، وقال: ويدخل في هذا ما يفعله المجرمون المستكبرون القساة في عصرنا مما يسمونه
 مصارعة الثيران .. فأين ما يدعونه جمعية الرفق بالحيوان من هذه التي يسمونها رياضة؟

قام آخر، وقد عرفت بعد ذلك أن اسمه (أسيد)²، وقال: ليس ذلك فقط .. بل إن شريعة الرحمة الإلهية التي أنزلها
 أنزلها على عبده محمد ﷺ شملت برحمتها جميع الكائنات ما يعقل منها وما لا يعقل ..
 فكل مسلم - بفضل تلك التعاليم العظيمة - يشعر بعلاقة حميمة من الكون تبدأ من صحبته في الله، وتنتهي
 بالسير معه إلى الله.

ولذلك فإن المسلم الصادق لا يستكبر على تراب الأرض .. ولا على قطرات المطر .. ولا على أعشاب الحقول.
 وهو إن احتاج أن يستعملها يستعملها فيما شرع الله له، ووفق الأدب الذي حثه عليه، فلا يغير خلق الله، ولا
 يبدل فطرة الله، ولا ينشر الفساد الذي ينشره العابثون.
 لقد قال رسول الله ﷺ يربينا على ذلك: (لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والده، لعن الله من آوى محدثا، لعن
 الله من غير منار الأرض - أي طرقها -)³

بقي أسيد وغيره من رفاقه مدة من الزمان يحدثون بمثل هذه الأحاديث⁴ إلى أن رأيت، ولأول مرة دموعا حقيقية
 حقيقية تسقط من عين ذلك الذي قضى حياته في مصارعة الثيران والديكة.

بعد أن سقطت تلك الدموع، فمسحت عن قلبه ما كان يمتلئ به من قسوة، قال يخاطب رفاقه، ويخاطب
 العمال: بورك فيكم إخواني .. لقد أنقذتوني من نفسي القاسية الظالمة .. لقد كنت مجرما .. بل مجرما خطيرا .. فلم
 يكن يضحك لي سن إلا بعد أن أرى الثور المسكين في حلبة الصراع، وهو يئن من الألم، ولا يجد المسكين أي لغة يعبر
 بها عن ألمه.

لقد أمضيت حياتي كلها أستمتع بتلك الآلام .. لكنني وفي هذه اللحظة فقط شعرت بأنوار عظيمة تنزل علي ..
 لاشك أنها أنوار محمد .. لطالما حذرني قومي منها.

(1) رواه أبو داود.

(2) أشير به إلى (أسيد بن حضير الأنصاري الأوسي الأشهلي)، أسلم أسيد قبل سعد بن معاذ على يد مصعب بن عمير
 بالمدينة، وكان إسلامه بعد العقبة الأولى، وقيل الثانية، وكان أبو بكر يكرمه ولا يقدم عليه واحدا ويقول: إنه لا خلاف عنده.
 آخى رسول الله ﷺ بينه وبين زيد بن حارثة، وكان من أحسن الناس صوتا بالقرآن.
 روى عنه أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال للأنصار: إنكم سترون بعدي أثره، قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: (اصبروا
 حتى تلقوني على الحوض)

توفي أسيد في شعبان سنة عشرين وحمل عمر بن الخطاب السرير حتى وضعه بالقيع؛ وصلى عليه وأوصى إلى عمر فنظر عمر
 في وصيته فوجد عليه أربعة آلاف دينار، فباع ثم نخله أربع سنين بأربع آلاف وقضى دينه. (انظر: أسد الغابة)
 (3) رواه مسلم.

(4) ذكرنا التفاصيل الكثيرة المرتبطة بهذا في رسالة (أكوان الله) من (رسائل السلام)، بالإضافة إلى ما ذكرناه في رسالة
 (سلام للعالمين) من هذه السلسلة.

ولكنني مع ذلك أراها أنوارا لذيذة .. بل لا يمكن وصف لذتها.
فما أجمل الرحمة أن يمتلئ بها القلب .. وما أجمل الدموع التي تسقط من قلب صاف خال من كل حيلة ومكر
وخداع.
قال ذلك ، ثم صمت، وصمت معه الجمع قليلا.. ثم قطع الصمت بقوله: اسمحوا لي بهذه المناسبة العظيمة ..
مناسبة سقوط أول دمعة رحمة من عيني أن أشهد بينكم بتلك الشهادة العظيمة التي وقف جميع الشياطين يحولون بيني
وبينها ..
اسمحوا لي أن أنطق بينكم في هذه اللحظات بشهادة الإسلام، التي وإن كنت قد اعتقدت بما متأخرا إلا أنني أعلم
بل أوقن أن الله الرحيم الرحمن لاشك يقبلها مني.
قال ذلك، ثم راح يردد بصوت خاشع الشهادتين .. وقد تبعه رفاقه في ذلك ..
وحينها صاح جميع العمال مهللين مكبرين .. وقد صحت كما صاحوا .. وقد تنزلت علي حينها أنوار عظيمة
اهتديت بها بعد ذلك إلى شمس محمد ﷺ .

الخاتمة

في اليوم الحادي عشر استيقظت على جلبة لم أعود عليها في تلك البادية القاسية ..
لقد رأيت جماهير الناس تسرع إلى شيء لم أتبينه .. فرحت أسرع من غير أن أدري لم، ولا أين ..
ولكني من خلال أصوات الجموع التي كانت ترتفع بقوة عرفت سر تلك السرعة، وسر تلك الجموع ..
سأحكي لك بعض ما سمعت، وبعض ما رأيت .. ثم أترك لك بعد ذلك حرية الحكم على ما رأيت وما سمعت.
كان أول صوت سمعته صوت امرأة، وقد عرفت أنها سمية.. تلك التي حدثتك عنها عند حديثي عن
المستضعفين.. كانت تصيح بصوتها الجمهوري قائلة: ها قد جاء الزمن الذي تعود فيه رحمة الإسلام لتشمل العالمين ..
لقد بلينا بمن شوهها من الفقهاء والعلماء وحكام السوء والوزراء الظلمة والعمال الطغاة المرتشين ..
واليوم لن يبقى واحد منهم .. سنرميهم جميعا في ذلك الجحيم الذي رموا الأمة فيه أمدا طويلا ..
لن يحكمنا منذ اليوم فرعون .. ولن يفتي لنا منذ اليوم بلعم بن باعوراء.. ولن يحدثنا منذ اليوم كعب الأخبار ..
ولن يقص علينا وهب بن المنبه.
قال صوت آخر .. وكان أشبه الأصوات بصوت أبي ذر يصيح: منذ اليوم لن يبقى خبز الفقراء بيد الأغنياء ..
منذ اليوم سيستعيد الفقراء حقوقهم التي اكتنزاها الأغنياء ..
قال صوت آخر: منذ اليوم سنعيش الإسلام الحقيقي .. ذلك الإسلام الذي لا يعرف إلا الرحمة والسلام والعدالة
والرفق .. ذلك الإسلام الذي أراد المحرفون أن يشوهوه، ليحجبوا شمسهم عن العالمين ..
قال صوت آخر: منذ اليوم سنطلق كل أولئك الفقهاء والمفسرين الذين اتحلوا الدين حرفة .. فراحوا يفسرون
كلام ربهم وهدى نبيهم بحسب أهوائهم..
قال آخر: لن يحتكر كلام ربنا ورسالته إلينا أحد من الناس.
قال آخر: ولن يحتكر سنة نبينا أي كان ..
قال آخر: منذ اليوم سنقوم بحملة لتنظيف ذلك الهدى السامي الممتلئ بالرحمة من أولئك البدو الجفاة الغلاظ الذين
شوهوا رحمة نبينا، ورفق ديننا، ورفق شريعتنا ..
تعالت الأصوات الكثيرة .. والتي انضمت إليها الجموع الغفيرة .. وقد سمعت أن صدى تلك الأصوات قد وصل
إلى البلاد المجاورة .. فراحت هي الأخرى تفعل ما تفعل جارهما، وتنادي بما تنادي ..
كان لي شوق عظيم لأرى ما تفعل هذه الجموع النائرة .. لكن رسالة مستعجلة من أخي وصلتني ذلك المساء
حالت بيني وبين تحقيق تلك الأمنية الغالية ..
ذهبت إلى المطار، ثم ذهبت إلى أخي في مقره في الفاتيكان .. وهناك .. وفي مقره في الفاتيكان، وقبل أن أدخل
عليه سمعت صوتا يتحدث معه .. كان أشبه الأصوات بذلك الشيطان الذي سلم له القوم عقولهم وقلوبهم فراح يملؤها
بمكره وكيده.
سمعته يقول لأخي، وهو غاضب غضبا شديدا: لقد عادوا أخيرا .. لست أدري ما الذي جاء بهم .. لقد
استعملت كل وسائلتي لتسنى أسماؤهم .. وتملأ أخبارهم .. وترمي في أتون الجحيم بدعهم وأفكارهم.

لكنهم مع ذلك عادوا ..

في عهد محمد اجتهدت في أن يطردوا .. لكن ربه أعلمه بهذا الكيد، فأنزل عليه قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (52)﴾ (الأنعام)

لم أياس من ذلك .. ولذلك ما إن مات حتى رحمت أملاً عقول أمته من بعده بطردهم .. طردهم جميعا .. فلا يمكن أن تتحقق أحلامنا ما دامت سمية وعمار وبلال وأبو ذر وغيرهم من المستضعفين المتحررين بملاؤن ديار الإسلام. لقد اجتهدت بكل ما أطق لأحول من الإسلام دين البرجوازيين والمستبدين والكهنة .. وقد استطعت أن أصل إلى كثير مما أرمي إليه.

لكني الآن أشعر بالعجز .. ولست أدري لم ..

قال أخي: هون عليك .. فإن لك من قوة العقل وحدة الذهن وصفاء المقصد ما يخرجك من هذا العجز المؤقت الذي تقف فيه ..

غضب الرجل الشيطان غضبا شديدا على أخي، وراح يقول له بقوة مصحوبة ببعض الجنون: أنتهمني - وبلك - بالعجز؟

قال أخي معتذرا: لا .. لا .. لا تفهمني خطأ .. أردت فقط أن أهون عليك عندما رأيتك حزينا.

ضحك الرجل الشيطان بصوت عال، وقال: أنتهمني - أيضا - بالحزن؟ .. ألا تعلم أن الحزن هو حرفة المستضعفين .. وأنا لست منهم .. أنا أشرف من أن أحزن، وأعظم من أن يصيبني ما يصيب ذلك الطين من الحزن. قال أخي: لا بأس عليك .. ولكن ما الذي جتتني من أجله .. هل لديك خطة جديدة ..

لقد أرسلت رسالة إلى أخي، وهو الآن على وشك الحضور .. فما الوظيفة الجديدة التي تريد منه أن ينفذها؟

قال الرجل الشيطان: أخوك .. نعم أخوك .. إنه هو الآخر يشعري بالعجز .. لكنني مع ذلك لن أياس .. فما دمت أنت معي، فأخوك معي.

إذا جاءك هذه المرة .. فاحبسه هنا .. واشغله قدر ما أطقت بالكنيسة وأعمال الكنيسة .. فلن يغسله من درنه إلا ذلك .. لقد أصابه كثير من غبار محمد .. وفي هذه الرحلة أصابه غبار أولئك المستضعفين المتحررين .. ولذلك حاول أن تلبس معه قدر ما أطقت.

وفر له كل ما يحتاجه .. فلا يمكنه ولا يمكن معه أن تحلم بتحقيق ذلك المطلب العالی إلا بهذا.

قال أخي: هذا دوري مع أخي .. فما دوري مع غيره؟

قال الرجل الشيطان: أرسل أولئك الذين تعرفهم .. أرسلهم ليعيدوا قتل سمية، وجلد بلال، ونفي أبي ذر .. فلا يمكن أن يقضى على الإسلام، وفيه مثل أولئك.

قال أخي: ولكن قتلهم وجلدهم ونفيهم سيثير فتنة كبرى قد لا نطبق تحملها.

قال الرجل: وهل نحن هم الذين نفعل ذلك .. إنهم بأيديهم يفعلون ذلك .. ولذلك إن حصلت الفتنة فلن تحرق غيرهم.

قال أخي: متى يبدأ التنفيذ؟

قال الرجل: لقد بدأ التنفيذ .. ولم يبق من دور إلا دورك أنت .. ولكنني لن أقوله لك جهرا .. فأسلم إلي أذنك وأصدرك لأحشو فيه دورك الخطير في هذه المرحلة الجديدة.

بعد قوله هذا لم أسمع شيئا إلا شيئا كصلصلة الجرس .. لم أتبين منه شيئا.

مكثت قليلا، ثم دخلت، وقد فوجئت إذ رأيت أخي وحيدا في مجلسه ينتظري.

قلت له، والغرابة تملؤني: لقد سمعت رجلا يتحدثك .. فأين ذهب؟ .. وكيف خرج؟

ضحك أخي بصوت عال، وقال: دعنا منه .. وحدثني عنك .. كيف حالك؟ .. وما الذي فعلته؟

قلت بغضب: لن أجيبي حتى تخبرني.

قال: لقد كان ذلك الرجل معي .. وقد حدثني عنك .. وهو يدعوني إلى الاهتمام بك والحرص عليك .. وقد

وعدي بأن كرسي البابا في انتظارنا .. وأن جلوسنا عليه لم يبق له إلا فترة محدودة جدا.

قلت: بأي ثمن اشتريت هذا الكرسي؟

قال: بثمان إخلاصي للمسيح، ولدين المسيح.

قلت: أي إخلاص هذا؟ .. أنا أرى أنك قد استسلمت استسلاما كليا للشيطان.

ابتسم أخي، وقال: أي شيطان تتحدث عنه؟

قلت: هذا الرجل الذي كان معك لا أرى إلا أنه الشيطان ..

قال: كيف تقول هذا؟ .. هو رجل منا .. نعم إن لديه من القوى والطاقات ما لديه .. ولكنه مع ذلك ليس إلا

رجل منا .. لقد أكرمه المسيح بكرامات كثيرة .. فلذلك اعتبره القديس الأعظم الذي لا هم له إلا حرب الهرطقات،

وكسر العقبات التي تقف في وجه المسيح ورسالة المسيح.

قلت: لقد صرت أخاف عليك وعلى نفسي من هذه الأحلام التي لست أدري نهايتها.

قال: لا عليك .. أنا أعلم من أين جئت .. وماذا رأيت .. وما الذي احترق طيلة أذنك .. وأنا فخور بك مع

كل ذلك .. فأنت الذي توضع في النار ثم لا تحترق .. ولذلك فسأكلفك في هذه الأيام ببعض الخدمات المرتبطة

بالكنيسة .. حتى تمحو آثار ذلك الدرن الذي أصابك من بلاد محمد.

قال ذلك، ثم أسرع إلى مكتبه .. وراح يعطيني بعض الأوراق .. وهو يقول: هذه هي وظيفتك الجديدة .. لن

أغامر بعد اليوم بإرسالك إلى بلاد محمد ..

التفت البابا إلي، وقال: هذه هي رحلتي إلى رحمة الإسلام، وقد استفدت منها أشعة كثيرة كان لها تأثيرها الكبير

في اهتدائي إلى الإسلام.

قلت: بورك فيك وفي رحلاتك .. فعن أي شيء تحدثني غدا - إن شاء الله -

قال: سأحدثك عن رحلتي إلى الله .. وهي رحلة لا مثلها رحلة .. وحديث لا مثله حديث¹.

(¹) عنوان الرسالة التالية هو (الباحثون عن الله)

الفهرس

1	من القرآن الكريم
4	تنبيه
5	المقدمة
16	أولا - النساء
34	1 - المساواة
43	2 - الكرامة
48	3 - الصيانة
52	4 - الرعاية
57	ثانيا - الأطفال
60	1 - الوجود
64	2 - الحياة
69	3 - اللطف
72	4 - التربية
78	ثالثا - العجزة
86	رابعا - المتأملون
95	1 - النفس
109	2 - الجسد
118	خامسا - المحبطون
126	1 - السكينة
146	2 - الحركة

153	سادسا — الفقراء
158	1 — الاستغناء
174	2 — القناعة
177	3 — الاستعفاف
182	4 — الفضل
182	السعي:
183	الإحسان:
186	سابعا — المستضعفون
188	1 — التوكل
191	2 — الإيمان
192	المصادر:
195	النمار:
197	3 — النبات
208	4 — الثورة
211	ثامنا — العبيد
226	1 — تحفيف
231	2 — حقوق
236	3 — تحرير
246	4 — إدماج
253	تاسعا — الخطاءون
267	1 — الأمل
268	القرآن:
269	السنة:

270	الحكمة:
273	العقل:
275	2 – الدينونة
288	3 – التصحيح
288	العلاقة بالله:
296	العلاقة بالنفس:
304	العلاقة مع الخلق:
312	4 – الترقى
316	عاشرا – الكائنات
324	الخاتمة
327	الفهرس